بسم ا الرحمن الرحيم

جـــامعة الخرطوم

كلية الدراسات العليا

قسم اللغة العربيـــة

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

بعنوان

البنيوية أفلسفةٌ هي أم منهج

إعداد الطالب

هناء محمد أبو زينب محمد

إشراف البروفسير

الحبر يوسف نور الدائم

للعام ٢٠٠٦م

الآيـــــــــــــــــــــــة

بسم ا الرحمن الرحيم

قـال تـعـالى

π ولـولا دفُـع اللهِ الـنـاسَ بـعضَهم بـبـعضٍ لهُدِّمت صوامعُ وبِـيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يـذكَرُ فيـها اسمُ اللهِ كثيراً ولـيَـنصُرنّ اللهُ مَن يـنصُرُه إنّ اللهَ لَقَـويٌّ عزيـزٌ ι

سورة الحج الآية "٤٠"

الإهـــــداء

إلى روح والدي

الذي طبع في نفسي الإسلام فطرةً

وغرس في معاني الإيمان سلوكاً

ودفعني إلى مدارج العلم ثقةً

وأحاطني بمعاني الطموح تواضعاً

***

إلى والدتي

التي أرضعتني الصبر مهداً

وغطتني بالعفة والحياء طاعة وبراً

وأكسبتني الصدق قولاً وفعلاً

***

إلى أساتذتي

الذين غمروني نصحاً وفكراً

***

إلى أشقائي

الذين أحاطوني عطاء وبذلاً

***

إلى كل

أساتذة العلم في وطننا الحبيب

***

إلى

مشاعل الغد المشرق

أجيال العرب

الشكــــــــــــر

بسم ا الرحمن الرحيم

قال تعالى

[رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمتها علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه]

لا شك أن الشكر يمثل أعلى مقامات العبودية وأجلاها ، فأتوسل بالشكر عز وجل ، ومـن ثـم أزجـي تقديري الخالص لخلقه بجميل إحسانهم وكريم تفضلهم ، وأولي التقدير الخالص للدكتور المشرف :

الحبر يوسف نور الدائم

الذي تعجز كلماتي ويقصر تعبيري ويجف مدادي دون إكمال شكري . ولسان حالي يقول :-

أثني فتثنيني صفاتك مظهراً عياً وكم أعيت صفاتك خاطبا
لو أنني والخلق جميعاً ألسن نثني عليك لما قضينا الواجبا

ثم الشكر من بعد إلى إدارة جامعة البحر الأحمر مؤسسة وعاملين والشكر أجزله إلى الأخـت أحـلام صالح أمين مكتبة البحر الأحمر والشكر الجزيل والعرفان النبيل إلى منـارات العلـم ورفيقـات درب الطباعـة والتنسيق :

الأستاذة / أميمة أبوبكر محمد يحيى و الأستاذة / أسماء عبد القادر

جزائهم ا عنا خير الجزاء وأوصل شكري لكل من أمدنا بإرشاد وتوجيه نسأل ا أن يعيننا على طـرق أبـواب العلم وفتح ما انغلق من أبوابه.

فهرس المحتويات

ملخص البحث

لما كانت الأمة العربية والإسلامية تمتلك حضارةً عريقةً وإرثاً أدبيـاً وثقافيـاً ، كـان الأجدر بأجيالها أن يتشربوا ذلك التراث ويفهموه حق الفهم ويدافعوا عنه دفاع الثائر عـن شـرفه ومجده .

جال بصري في المجلات الفكرية الحديثة فتلمست يداً خفية تحاول أن تعبث بتراث هـذه الأمة ، ووقع بصري على فكرة دارت كثيراً في كتابات النقد الحديث ومن بعد في كتب اللسانيات وهي ظاهرة الفكر البنيوي ، لا شك أنها ظاهرة منهجية حين تسلّط الضوء على وصف اللغـات بصورة مقارنة ، ولكنها تصبح رؤية فلسفية وطـريقة في التفكير حين تجبر اللغات على الـسير في خط ثقافي واحد ، ذلك الخط الذي تسلسل عبر فكرة النحو العالمي والثقافة الكلية .

وكان السؤال الجوهري الذي يدور في ذهني هل هذا الفكر يشكّل عقيدة أم أنه مـنهج ؟ فجاء بحثي بعنوان (البنيوية أفلسفةٌ هي أم منهج) استهل البحث بلمحةٍ سـريعةٍ عـن الاختـراق الثقافي والاستعمار الفكري ، مقدمةً رمت بنا إلى أولى فصول البحث ومباحثه التي انحصرت في العلاقة بين اللغة والتفكير كي نستظهر الصراع الفكري القديم بين الـشكل والمـضمون واللفـظ والمعنى انتهاء بتفريق سوسير بين اللغة والكلام في أواخر القرن التاسع عشر .

ولما كان الفكر البنائي فكراً علمياً موضوعياً تمثل رائدوه بنظريات علمية كثيـرة ، ولا سيما نظريات علم النفس اللغوي ، أتى المبحث الثاني بعنوان اللغة وعلم النفس وأشرنا إلى ذلـك ليكون عوناً لنا لفهم مفاهيم تشومسكي وسوسير حول القدرة اللغوية أو الكفاية والأداء الفعلـي أو الكلام ، وآثرنا في ذلك عرض مفهوم الملكة والاكتساب عند العرب والغربيين كي يكون فاصـلاً لهذه الحركة العلمية التي لجأت إلى فطرية الإنتاج الإنساني للوصول إلى لغة آدمية بريئة عن هذا التعقيد والقوانين الصارمة التي تحد من إبداعيته ، هكذا كان زعم تشومسكي ، فكان خاتمة مباحث الفصل الأول الحديث حول اللغة والفكر لربط الفكر الغربي الحديث بجذور الجدل اللغوي القـديم تجزيراً لهذه القضايا الفلسفية ، ومعرفة مصادرها . ولما كانت هذه الأفكـار منطقيـة تستعـصم باستدلالات المنطق الرياضي . كان الفصل الثاني بعنوان اللغة والمنطق وفـصلناه علـى ثلاثـة مباحث تناولت على الترتيب اللغة والمنطق بصورة عامة ثم تطبيقات على صلة اللغـة بـالمنطق إلى أن وصلنا إلى القضية الفلسفية الأولى للفكر البنائي وهي الفكر الكلي ، وجاء المبحث الثالـث بعنوان اللسانيات والفكر الكلي . وحتى تتضح الصورة أكثر جعلنا الفصل الثالث مـدخلاً لبـوادر الفكر الكلي أو النحو العالمي فعرضنا قضايا النحو التحويلي التوليدي وعقدنا مبحثاً لمقارنة النحو

التوليدي بالنحو النظامي حتى نثبت أن الإهتمام بالنحو من دون جوانب اللغة الأخرى كان هـدفاً استراتيجياً وغاية كبرى من غايات الفكر الكلي حاولنا إثبات أن النحو صورة اللغة وبنية تفكيرها وبالتالي يعكس رؤية أصحاب اللغة عن العالم والكون وكانت مباحث النحو بنيوية تـصف اللغـة وتحدد رؤية الجماعة اللغوية نحو العالم وبعد أن أوضحنا أن النحو مرآة اللغة التي تعكس فكرهـا أردفنا ذلك بوصف شامل وتوصيف دقيق لنحونا العربي وأجرينا مقارنة بين المـنهج الوصـفي البنائي والمعياري وأوضحنا مدى إهتمام العربية بالمعنى وارتباطه بالـشكل الإعرابـي وكانـت المقارنات في ثلاث مباحث وفقاً للمحاور الآتية :-

المحور الأول : المنهج الوصفي والمعياري .

المحور الثاني : النحو النظامي والنحو التوليدي .

المحور الثالث : المعنى المعجمي والنحوي .

أما الفصل الرابع فكان شرحاً وافياً لمفهوم البنيوية ونشأتها وتطورها ورؤيتها المستقبلية تجاه اللغة ، ويدور الفصل الخامس حول الأسلوب والفكر البنائي تركّز على مباحث ثلاثة ، لمـا ركّزت البنائية على القول بإبداعية اللغة وفطرية الإنتاج ، كان الانحراف الأسلوبي مرتكزاً لها في دعم توجهها وإهتمت بالدراسات الأسلوبية من جانب الانحرافات أو ما يسمى بالاستعارة والمجاز وجاءت المباحث لتوضيح فلسفة القول باللغة العادية واللغة المثالية والمفارقة بين نمطـي اللغـة وموقف العرب من هذين المستويين الفني والعادي وموقف النصوص العربية من القـول باللغـة الفنية أو النظرية الشعرية بالمفهوم البنيوي .

وتأسيساً للقول بأن البنيوية عقيدة وفكر ثوري راديكالي ، ختمنا فصولنا بالفصل الـسابع الذي شرح أصول البنيوية في الدراسات الاثنولوجيا في فصلٍ أول ، والفكر الماركسي والبنيويـة في فصلٍ ثاني ثم من بعد ذلك ربطنا فكرة تحليل النصوص وهي دراسة نقدية سميت في العـصر الحديث بالنقد الألسني أي النقد الذي يشرح اللغة باللغة ويستنبط منها فكرة خفية أو عقيدة كامنـة فألتقى النقد بالفكر البنائي في هذه الدراسة التحليلية وكانت رؤية للعالم والكون تبحث عن البنيـة التحتية للنص وفقاً لمنظور الثقافة الكلية أو فكرة النسق أو النظام الذي لا يحيد عنه نصٌ إلا كـان فاشلاً أو عاجزاً عن التحليل وهذا تقييم من نوع آخر لكل نصٍ لا يندرج تحت مفهوم العلامات ، وأي ظاهرة لغوية لا تأتي تحت مفهوم النحو العالمي فهي ظاهرة لا تستحق العملية ولا المقارنة . وذلك ما تطويه هذه الصحاف القلائل عسى أن يكون مانعاً لأيدي العبث وسداً منيعاً لكل فكـر لا ينبع من ثقافتنا ولا يراعي لغة نصوصنا المقدسة .

المقدمة

تعددت أوجه الصراع الحضاري وتباينت، ولم يقتصر الأمر على هيمنة حضارة على حضارة أخرى بواسطة الحروب والمعارك، بل تعدى ذلك الأمر إلى سلطة العولمة الثقافية وهيمنة الفكر الغربي الليبرالي وطغيان الفكر الكلي أو الثقافة الكلية على مختلف الحضارات في النواحي الحياتية الدنيا والعليا، وقليلٌ هي الحضارات التي حاولت التمايز والانفصال من هذه المظلة الواسعة حفاظاً على خصوصيتها وتنوعها الثقافي وإرثها التاريخي ومركزها العقدي الذي هو محور تناميها وتعاظمها.

وكانت الحضارة الإسلامية، بما فيها من عناصر القوة التي تكفلها قوة عليا وكتاب رباني مقدس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لغةً رسميةً فصحى وثقافةً عربيةً غنيةً كانت أصلاً من أصول التمدد الواسع في ظهر خارطة الحضارات ، وهيمنة لونها الفاصل والصارخ على لونية هذه الخارطة، مما كان له الأثر الأكبر في أن تظل أسهم الليبرالية مشرعة ما دامت البسيطة وما دام الفكر العربي الإسلامي هو هو.

أجاب الغربي خيله ورجله لاختراق هذه الثقافة وكانت أولى عناصر الاختراق الاستشراق والاستعمار الفكري وعلمنة القيم ثم من بعد علمنة اللغة ، قال تعالى (**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم وهم فيها خالدون**).

والحق أن من أكبر المفاهيم الإيدلوجية ذات الجزر العقدي الواضح ، والتي مثلت وصارت في فكر الأوروبي الخالص في الفكر البنائي الذي كان ثالثة الأثافي في ليبرالية القرن العشرين ، وجاء زاهياً براقاً يحمل في طيه الموضوعية والعلمية، ولذا تلبست النظريات الغربية بلباس العلمية فأنتجت علم اللسانيات الذي يدرس اللغات بصورة مقارنة ويكشف عن ظواهر كل لغة ، ولا سيما الظواهر التي تستحق الكشف والرصد ، فهذا جانب منهجي بحت، ولكنه حينما يسعى لجعل اللغات تنحدر من أصلٍ مشترك وتتولّد من أصول كلية، وهذا جانب ميتافيزيقي عجت به كتب اللغة قديماً وكان بحثاً عديم الجدوى إلا إذا كان وصفاً وتوصيفاً للغة ما وتبصيراً بمواضع التميز والاشتراك بينها وبين اللغات الأخرى.

وهنا نشير إلى أن استخدام مصطلح التوليد للنظرية النحوية الكلية ناتج من كلمة الأصل المشترك، ونلحظ ذلك في الدراسة المقارنة بين اللغات ، ولم يكن تأثر اللغويون بأسلوب المقارنة

في العلوم الطبيعية أمراً عارضاً ، وإنما كان مقصوداً ، كالذين سعوا إلى إيجاد القواعد المقارنـة صرحوا بأن ذلك سيتم بالوسيلة نفسها الذي اتّسم بها علم التشريح، في إلغائه ضوءاً ساطعاً علـى الحلقات الأولى من الكائنات الحية، ولذلك تأثر أصحاب المقارنات بالمـصطلحات الـشائعة فـي العلوم الطبيعية كالتوليد والتحويل.

كما أن المقارنة لا بد أن تثبت أن اللغات منحدرة من أصل واحد مشترك وهذا ما سعت إليه مفاهيم النحو العالمي عند تشومسكي، وهو ملمح موضوعي علمي انبنت عليه فرضية النحـو التحويلي، وتكون الإجابة على ذلك من خلال ما أوردناه من فـصل النحـو النظـامي والنحـو التوليدي.

حاولت الدراسة أن تبرهن أن النحو صورة اللغة، فأردفنا ذلك بوصف منهجي شامل بل توصيف لبعض قضايا النحو العربي لكي نؤكد أن فرضية النحو التوليدي اعتمدت على ظـاهرة واحدة فقط من ظواهر اللغة العربية كي تثبت فرضيتها ولم تفطن إلى أن قواعد اللغات متداخلـة ومتشابكة ولا تنبني على جانب واحد بل تتشابك جميعاً لصنع قواعد العربيـة، وليـست نظريـة العامل كفيلة بإثبات أن العربية يمكن أن تندرج تحت مظلة النحو العالمي؛ لأنها لغة نوعية ولهـا خصوصية وتميز، أن شاهدها الأكبر ومثلها الأوحد يؤخذ من لغة القرآن الكريم لغـة الأعجـاز النظمي والبلاغي.

ولتأكيد هذا الجانب المنطقي في فلسفة النحو العالمي ، وقفنا عند علاقة اللغة بـالمنطق نرمي من وراء ذلك إلى تحكيم النظر المنطقي في اللغة، الذي كان من العوامل الرئيسية في القول بمثالية المستوى العادي وانحراف المستوى الفني، لنؤكد أن مباحث اللغة عنـد الغـربيين قـديماً وحديثاً لم تخلو من عقد الزواج البائن بين اللغة والمنطق ، نلحظ من وراء ذلك التوازي الواضـح بين المنطق الصوري والنحو الكلي ، ولا سيما في تحليل البنية العميقة بناء على فكـرة التحليـل الكمي في المنطق ، وكيف أن قواعد التراكيب في النحو تتيح الانتقال من صورة تركيبيـة إلـى أخرى هي من عناصر الاستدال المنطقي .

حاول المنهج التحويلي الإهتمام بالتراكيب اللغوية أياً كانت مقبولة وغير مقبولة، لنوضح ما قد يصادف المعيارية أو المثالية من معارضات ، أفردنا فصلاً يشرح الفصل بين المكونـات المعيارية والوصفية البنائية في اللغة العربية. وإذا كان المنهج التحويلي بطابعه العقلي ركز علـى القول بانحراف المستوى الفني (الاستعارة والمجاز) عـن المستوى العادي للغة ، فإن أسـلوب التقدير والتأويل والافتراض، قام بنفس الدور الذي قام به الغربيون في النظر المفضي للـصورية

والتجريد في إطار المعيارية والعرف اللغوي السائد، وحاولنا التأكيد من خلال بعض الدراسـات السابقة أن القول بالفلسفة اللغوية على أساس منطقي وعقلي بات أمراً غير مقبـولاً ، وأن لـيس هناك تطابق بين الواقع واللغة ، ولو كان التطابق لازماً لاتفقت اللغات على تقسيم الأسـماء مـن حيث الجنس.

هذا جانب لغوي، أما الجانب النقدي فنؤكد على أن إهتمام النقد الحديث به يرجـع إلـى إهتمامهم بالتصور المغاير للنمط العادي للغة، وهو ما يميز لغـة الأدب ، وواضـح أن مـواطن الانحراف أو المغايرة تشمل مجال التركيب والدلالة كما ذكرنا في دراسة ابن جني حول (تجازب الإعراب والمعنى) ، بمعنى تعارضهما وأن صفات عدم الصحة النحوية والتعقد كلها ألوان مـن الانحراف تدخل ضمن صفات الأسلوب كالاستعارة والمجاز، ومن المؤكد أن كل هـذه المـسائل تلتقي مع الطرح البنيوي الذي أتخذ النقد العربي طريق له للولوج إلى بنية النـصوص وتحليلهـا بالإضافة إلى أن هذا المنهج يصدر عن فكرة المفارقة بين المثال الذهني المقدر وبين مواقع النص المحسوس، وهذه الفكرة التي أثّر بها النحو التوليدي التحويلي على علم اللغة ودراسات الأسـلوب في آواخر القرن التاسع عشر ، وفكرة المفارقة تصدر عن منطق تحويلي بحكم قيام النظرية على فكرة الظاهر والباطن وتولّد الظاهر المنحرف عن الباطن المثـالي ، ومـن هنـا التقـى النحـو والأسلوب والنقد في القول بأن التأثيرات الشعرية تنبعث من خلال الانحرافـات المتعمـدة عـن القواعد النحوية من خلال الخلل التركيبي.

بالإضافة إلى أن التركيز على دراسة الانحراف خطر في نفسها لأنها تعـرض المثـال الثابت للإلغاء والنفي والتحول إلى موضوع آخر ، لذلك جاء إهتمام اللسانيات الحديثـة بالأصـل والفرع والظاهر والباطن والفصحى والعامية أو ما يعرف بالثنائيات اللغوية.

بمعنى أن قولنا (سماء الخريف حزينة) في إسناد الحزن إلى السماء تظل هذه الصورة المنحرفة هي الصورة المثالية (بديل في عصر البدائل) .

وهكذا تنبني اللغات على دلالات نسبية ليست على دلالات حقيقية باعتمادها على صور التخيل الذي ليس له مرجعية ثابتة سواء أنه انحراف عن المستوى العادي لغرض بلاغي أسلوبي وليس غاية في نفسه .

وتبدو خطورة هذه الأفكار لأنها ترفض المرجعيات الثابتة وتنبني على مرجعيات نابعـة من نشاط العقل المبدع الذي لا يحتكم إلى عرف ولا معيار . وبالتالي يؤثر ذلك في نظرة النـاس في العالم، والجماعة اللغوية لا تسمي الأشياء حسب الماهيات والمقولات المنطقية ، بـل إلمامهـا

بالعالم مبني على الصور التي تصوغها مـن الحقيقة والطريقة الذاتية التي تفسر بها اللغة، واللغة لا تنفصل عن اعتقاد الإنسان في الأشياء لذلك ارتبطت بنية اللغة برؤية العـالم. وأفردنـا بـذلك فصلاً بتوضيح أن القول في المستوى العادي والفني للغة ترتب وجودي فالمستوى الفني إذا كـان أسبق في الوجود فإن ما عداه من الاستخدام اللغوي عوادم ومخلفات .

يمكن القول أن البنيوية بدعة العصر وحداثة الحداثة تعني قطع الوشائج التي تربط اللغة بما هو مبذول وعادي ، بحيث تتخلّص من تبعيتها لغيرها كأداه توصيل وأن روح العصر تعنـي وحدة حقيقة متعينة فالبنيوية تحاكم التاريخ ، لأنه يغفل العلاقات بين أجزاء النظام الواحـد، بحثـاً وراء تطوير جزء من الأجزاء ، فالبنيوية نفسها نظام كبير تجمعه وحدة فكرية وماديـة ولحظـة تاريخية . ولذلك ارتبطت البنيوية بالفكر السيمولوجي على اعتبار أن الأدب فعل رمزي له نظام، والنظام صورة عقلية مجردة ، والسيمولوجيا منهج لدراسة الوقائع الاجتماعية باعتبارها رمـوزاً خاضعة لنظم عقلية مجردة ، وكذلك البنيوية منهج لدراسة الوقائع علـى اعتبـار أنهـا رمـوز بالإضافة إلي أن المنهج السيمولوجي يساعد على حل مشكلة القيمة او ازاحتها ، فالرموز لها قيمة حضارية في الدراسات الإنسانية وكذلك الدراسات العقدية لذلك ارتبط الفكـر البنيـوي بـالمنهج السيمولوجي على اعتبار مقولة سماء الخريف رمادية يدل على (انطفاء الكون).

ما البنيوية إذاً ؟ عرفها الناقد الفرنسي رولان بارت بأنها نمط يحلّل الموضوعات الفنيـة الثقافية وينطلق من مناهج علم اللغة المعاصر والمعنى أنه إذا كان للأفعال أو المنتجات الإنـسانية معنى ، فانه لا بد أن يكون ثمة نفق كامن من التفرقات والمواضعات يجعل هذا المعنى ممكناً.

إن المشروع البنيوي يحكمه دافعان أحدهما ذهني والآخر أخلاقي ، فالأخير يمثل نـسق قراءتنا وكتابتنا ، فنحن نقرأ ونفهم أنفسنا إذ نتابع عمليات فهمنا ، ولذا نجبر في حدود ذلك الفهم ، ومعرفة الذات تعني دراسة لعمليات الافصاح والتفسير التي تنبثق بواسطتها لتكـون جـزء مـن العالم. يقول بارت: ((إن المشكلة الخلقية الأساسية أن نتعرف على العلامات أينما كانت أعنـي ، ألا نظن العلامات ظواهر طبيعية، وان نجهر بها بدلاً من أن نخفيها ، فالبنيوية شـرحت طريقـة عمل هذه العلامات)) .

فالبنيوية في نموذجها الأساس لغوية، قامت على دراسة سويسر في التفرقة بـين اللغـة والكلام والعلامات ، والفرق بين النحو التوليدي التحويلي والنظامي، ومنطق الأسطورة يرجع الى ارتباط البنيوية بالنقد ، لأن النقد مرتبط بتحليل النصوص، ومن أهـم دوافـع البنيويـة تحليـل النصوص بالإضافة إلى أن نتعلم من خلال النقد الأدبي كيف نفسر العالم.

إذاً هي رؤية للكون والعالم ، فهي عقيدة توجه وتستنبط من النصوص عقائد لا تحيد عن الثقافة الكلية. فهي منهج راديكالي ثوري لقلب الأوضاع عما هي عليه للسير نحو التوحد الثقافي.

أما اختيار البنيوية للكتابة يرجع إلى ان القضية في حالة الكتابة تتألف من أبعاد وعناصر لغوية وموضوعية خالصة، فهو نظام من العلامات تتشكّل وفقاً لسيرورته الذاتيـة فـي علائقـه، البنيوية نظام صوتي وصرفي ونحوي وإذا أخلّ باستحقاقات هذه العلائق فأغفل الشكل مثلاً فهـي لحظة نقص ذاتي موضوعي خالص ولكن نظام الكتابة في العربية مقترن بالقرآن الكريم والتراث والهوية الثقافية للأمة، وهذا أصل يمنح الكتابة العربية خـصوصية. وحـين تعـارض الأصـل والأصل اللغوي الخالص كان لهذا الأصل الثقافي القول الفصل، وذا كانت اللغة نظماً متكاملة من العلاقات فإن رسوم الكتابة هي أوضح تلك الأنظمة في ارتباط العيان منها بالدلالة.

إذا كانت الكتابة نظام من العلامات فإن مقايستها بالظواهر الوجودية الأخرى مفيدة فـي توضيح طبيعة القضية في ضوء سلطة العرف واستقرار الإلف. وهم يرون الإلف ومستقر العرف قد جعل الأمر كله بخلاف مقتضى النظر المجرد. وهكذا يصبح دليلنا في تأويل العلامـات هـو الترتيب الموضوعي على التحكّم المعتاد للعرف. ولما كانت البنيوية ترفض كل ما هو خـارجي، بالتالي ترفض القانون والعرف والتاريخ والمعنى المرجعي فكـان اسـتهداف البنيويـة للكتابـة استراتيجياً ، لأنها خلاف للنظر المجرد والتأويل الخفي الذي تبحث عنه البنيوية في النصوص.

بالإضافة إلى أن كتابة المقدس تخضع لهذا النوع المنطوق المرئي، كما هو في القـرآن الكريم ونظم الإعراب والمعنى، فكان الهدف ايدولوجي يبعد الشكل عن المضمون فيـأتي الـنص أجوفاً خالياً من المعنى وهذا ما يعكس تخوفنا من الفكر البنـائي الـذي يزعـزع القـيم ويهـز المرتكزات والثوابت. وهذا ما قصدناه في درسنا للفكر البنائي ولمعالجة هذا الاسـتفهام البنيويـة أفلسفةٌ هي أم منهج ؟ يمكن القول أن اللسانيات ومقارنة اللغات بعـضها الـبعض كـان إرشـاداً وتوجيهاً للفكر البنائي الذي تدثّر بدثار مقارنتها بالنواحي الصوتية والفونولوجية ابتداء، وانتهـاء ببنية النصوص ومقارنتها وفقاً لمنطق الرموز أو السيمولوجيا، فالمنهجية في الشق اللغوي اللساني والفلسفية في جانب التحليل واستباط العقائد الفكرية من داخل النص

المبحث الأول

اللغة والتفكير

من أولى جذور الجدل اللغوي حول اللغة والتفكير جدل الفلاسفة حول الفلـسفة الواقعيـة القديمة ، والفلسفة الاسمية التي كانت سائدة في عصر أفلاطون ، واعتبـر أفلاطـون الواقعيـة مناقضة للاسميه ، والتي تقول إن الأشياء توجد بمجرد إطلاق الأسماء عليها لأن الـشيء بـدون اسم ليس له أي وجود ، أما الواقعية فتؤكد أن الشيء موجود وواقع بالفعل، لكن تعرف الإنـسان عليه لا يأتي إلا بعد تسميته.

وظل الجدل بين الفلسفة الواقعية والاسمية منها في العصور الوسطى ، وتحول بعد ذلـك إلى دراسة العلاقة بين اللغة والتفكير ، وهو ما تطور في العصر الحديث إلى علـم اللغويـات . وإنتقل الصراع إلى الصراع بين الواقعية والمثالية، والاثنان طرفي نقيض الواقعيـة تقـول بـأن للواقع وجوداً منفصلا عن التفكير الإنساني وأن التفكير اكتشاف ما هو واقع بالفعل ، بينما المثالية أفادت بأن الحقيقة لا توجد إلا في فكر الانسان الذي يفيض على الموجودات معناها [(1)] .

ومواصلة لهذه الدراسات سار الباحثون على إختلافهم مواقف مختلفة من قـضية اللغـة والفكر ، فعلماء النفس من اتباع المدرسة السلوكية مثـل جـون واسـطون John waston كـانوا لا يميزون بين اللغة والكلام . [(٢)]

وإعتبروا التفكير نوعاً من الكلام الداخلي (Inesspeech) المنطوق على مستوى الحنجـرة فقط ، ومن الناحية اللغوية اثبت (دي سوسير وتشومسكي) وغيرهما ، إن اللغة نظام تجريدي [(٣)] يشارك فيه أبناء المجتمع الواحد ويذهب همبولت وسابير الى أن للغة تأثيراً كبيراً على الطريقـة التي يفكر بها أفـراد المجتمع الذين يتكلمون تلك اللغة. والتي تختلف عن طريقة أفـراد مجتمـع آخر يتكلمون لغة أخرى [(٤)] ، ويرى (هردر) (١٧٤٥ – ١٨٠٣) أن اللغة ليـست أداة للفكـر فحسب، بل هي أيضاً الغالب الذي يشكّل فيه الفكر ، كما أن لغة جماعة ما تفكر داخل تلك اللغـة وتتكلم بها هي المنظم لتجربتها ، وهي بهذا تصنع عالمها وواقعها الاجتماعي، كل لغـة تحتـوى

---

[١] أنظر المذاعب الأدبية من الكلاسيكية حتى العبثية – د. نبيل راقي – دار مصر للطباعة .

[٢] أما العرب ميزوا بين الكلام والقول فالكلام لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه وهو الذي يسميه النحوين الجمل أما القوم كل لفظ مزل به اللسان تام كان أو ناقصاً والتام هو المفيد نحو صه والناقص بضد ذلك فكل كلام قول وليس كل كلام قول قال سيبويه (هذا باب علم مال الكلم من العربية وذلك أن الكلام أسم من كلم بمنزلة السلام من سلم وهما بمعنى التكليم والتسليم – أنظر الكتاب (سيبويه الجزء الأول ص – ٩ والخصائص لأبن جني الجزء الأول – ص ٥٨ – ٨٦ .

[٣] ان التفكير المجرد لا يمكن ادراكه اذا لم يتحول الى مضمون ذهني غامض والى شيء مادي بطريق الصياغة اللفظية انظر دور الكلمة – ولمان – ص١٣٨ .

[٤] اللغة والحضارة وتحديات المستقبل – د. عبد العزيز شرف –الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٩م - ص ١٥١ .

على تصور خاص للعام . وهذه مسألة تتعلق بالرباط بين بنيات اللغة شكلاً ومبناً ومعنـاً، حيـث المعرفة بوصفها بنياناً يشيد العالم على أساس من التصور والنظم، ويفسر الظواهر تبعاً لأنـساق تتضافر مكونة للنظام الطبيعي والانساني.[5]

ويقـول عبد العزيز شـرف في كتابه[6] (اللغة والحـضارة وتحـديات المـستقبل) :- (واللغات تتباين من حيث قواعد النحو والصرف الخاصة بكل منها ولكن ربما ترجع أهم مظـاهر التباين بينها الى الطريقة التي تحلل بها اللغة العالم الى عناصر عـن طريق الكلمات (وهو نوع من التحليل القاموسي) وعلى هذا الفهم فإننا نستطيع أن ندرك بوضوح الوعي بالمستقبل في اللغة العربية بناءاً على أن أبناء اللغة والمتلاغون أنفسهم ، فإن ذلك يعنى بالضرورة أن تكون اللغة هي قوام انسانيتنا ، وهي على ذلك من أكبر الأدوات، لتحقيق الشخصية الانسانية مفردة وجماعية، كما أنها أي اللغة حيث تقترن بالفكر، حين يفكر المرء بلغة ما تتضمن في أعطافها رؤى الانـسان ، وعلى ذلك فإن الصلة بين اللغة والزمن تعكس رؤي المتلاغين، والطابع الأغلـب علـى هـذه الرؤى، هل هو طابع أمسي أم أنه طابع مستقبلي) ونضيف أم أنه طابع غيبي.

وتأسيسياً على ذلك الفهم، فإننا نذهب بدءاً لايضاح مفهوم الزمن والفاظـه فـي الثقافـة العربية والإسلامية بشيء من الايجاز البالغ لتكتمل دائرة القول بأن اللغة تعبر تعبيراً هادفاً عـن ثقافة المجتمع، كما إنها وسيلة لإدراك ما حوله من ظواهر الكون.

لقد شغلت ظاهرة الزمان الانسان منذ أن دب ودرج في هذا الكون لأنه في الزمان يسجل أطوار حياته جسمياً وعقليا، وينظم ما يقوم به من عمل ونشاط .

ونحن إذ أقحمنا الزمان هنا ايضاحاً بأن الفكر لا يكون في صيرورة مادية جدلية كما فعل أصحاب الفكر البنيوي، وأن مفهوم الزمان هو الذي يشكّل وعي الانسان تجاه الكون في الفعل والزمان، أي التاريخ والمجتمع هما اللذين يشكلان واقع الانسان ومصيره وليس الفعل معزولاً عن التاريخ كما عرضت لنا تحليلات الفكر البنائي.

لذلك احتفلت الجماعة العربية بالزمان واحتفلت به في حركتها الدائبة في الـصحراء، وأن القيم الإسلامية التي خطها التشريع الإسلامي ووعاها المسلمون من كتاب ا حيـث يـرددون (

---

[5] اثر الخصوصية العربية في المعرفة الاسلامية – رفيق العجمي – دار الفكر اللبناني – بيروت الطبعة الاولى – ١٩٩٣- ص ٢٨ .
[6] اثر الخصوصية العربية في المعرفة الاسلامية – رفيق العجمي – دار الفكر اللبناني – بيروت الطبعة الاولى – ١٩٩٣– ص ١٠ .

والفجر وليال عشر)[7] ، (واقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل)[8] وهذا اكبر دليل على قيمة الزمان في حياة المسلم .

وتحولت قيمة الوقت عند العرب المسلمين من مجرد مبدأ إيماني الى سلوك عملي وفعلي ، وقالوا (أن علامة المقت إضاعة الوقت). إن ظاهرة الزمان من أهم الظواهر التي شغلت عقل المسلمين قديماً وحديثاً، لأن الزمان من أهم الظواهر الحياتية التصاقاً بـالخبرة الانـسانية علـى المستوى المادي الخارجي في الكون، والمستوى المعنوي الداخلي من فكر الإنسان ووجدانه.

إن المتتبع للدرس اللغوي عند اللغويين القدماء يعرف مـدى إهتمـامهم بجمـع الألفـاظ الواصفة لأوقات الزمان في مصنفات تحمل اسمـاء مـثل (الأيام والليالـي والـشهـور) (للفـراء (٢٠٧هـ) و(الأيام والليالي) لإبن السكيت (٢٢٤ هـ)، بالاضافة الى اهتمام كتـب الادب واللغة بالفاظ الزمان . (المخصص) لإبن سيدة الأندلسي ، (ونهاية الأرب) الاعشي[9] .

وبالتالي تصبح اللغة قوام انسانيتنا ومدار فكرنا وهكذا أشار د. عبد العزيز شـرف إلـى قيمة المستقبل في حياة العرب[10] وتبين له أن حياة العرب الكريمة قد حفلت باشعاعات من الفكر المستقبلي ككتابات أبي العلاء المعرى (١) وزياد الحريري ، وتوفيق الحكـيم ، وهـذا الـوعي بالمستقبل في لغتنا العربية أوضح ما يكون في الأدب الجاهلي، الذي يعتبر الجذر الأصيل لشجرة الأدب العربي المتنامية. ومن مظاهر الاحتفاء بالمستقبل في الادب الجاهلي ، احتفـال الـشعراء بالماضي وذكر الدمن والأطلال والرسوم والعلامات الأولى في الطريق

قال الشاعر :

أمـن تذكـر أيام بذي سلـم   جـرى دمعاً مقلـة بدم[11]

فاللغة وضع مـن أساسها ، ومن هذا الوضع تخرج الاسماء العرفية ، أي ما تعارف عليه القوم ، بحيث يوضع الاسم لمعنى عام ثم يخصص . ويتعمق هذا الاتجاه الوضعي للغة ويعتبـر

---

[7] سورة الفجر الاية (١) .
[8] هود ١١٤ .
[9] انظر المصنفات في كتاب علم اللغة العربية – مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية – د. محمود فهمي حجـازي- دار غريب للطباعة والنشر القاهرة .
[10] لغة الحضارة وتحديات المستقبل – عبد العزيز شرف – ص٢٣ .
افرد الدكتور كريم حسام الدين دراسة مصلة عن الزمان الدلالي عند العرب – (دراسة لغوية لمفهوم الزمن والفاظه في الثقافة العربية) – دار غريب القاهرة – الطبعة الثانية (٢٠٠١م) .
[11] البيت من

البعض أن نشؤ اللغة يستند الى الطبيعة ومحاكاتها ، فالاصوات المـسموعة مثـل دوي الـريح وخرير الماء (هي أصل اللغة ، وفيها خرج المقطع والمقطعين وقد توسعوا في هذا الاتجـاه ثـم أضافوا التجـربة الوجدانية على التجـربة الطبيعية وسماه (الإيحاء) كفـرس مـ ـن (فـر) وصوت (س) المعبر عن الحركة .(١٢)

ومنشأ اللغة يطرح في أبعاده الإزدواجية بين اللفظ والمعنى ، واللغة والفكر ، إذا لم يتجرأ أحد من اللغويين العرب ، ولا من خاض في الألسنية المعاصرة على التصريح بأولوية أحدهما على الآخر ، فهل اللفظ يتولد عقب ممارسة التفكير ؟ وتلحق به أوجه البيان والنحو حيث ينتقل الفكر ويسود، أم أن اللغة قوالب تشكّل بها الفكر .(١٣)

وهنا نجمل الحديث في ما قاله الفلاسفة حول هذه القضية جاعلين ذلك تمهيد لقضايا فكريه معاصرة من بينها البنيوية ، التعبير عن الفكر) ، وتكمن هذه الملاحظة وراء نظرية تشومـسكي عن النحو التحويلي الذي يقابل الأداء اللغوي والإتقان اللغوي وهو المقدرة الانسانية على تجريـد التركيبات اللغوية ، وتعتبر هذه الوظيفة ذات اهتمام مباشر لعلم اللغة لأن الاداء يختلف من حيث الظروف عن الكفاية .

وتلافياً لذلك حاول علماء العرب المسلمين تلافي هذا التباين في ازدواجية الفكـر واللغة، فعملوا على الصهر بينهما لان حقائق المعاني لا تثبت إلا بحقائق الألفاظ ، فاذا تحرفت المعـاني فكذلك تتزيف الالفاظ ، فالألفاظ متلاحمة ومتواشجة ، بينما يرى البعض ان الملفت للنظر المؤيد، إلى أن التفكير يسبق النظم في اللغة ، مما يؤكد أن نظم الكلمات يخضع لانتظام معانيها في العقل ، فليس الغرض نظم الكلام إن توالت ألفاظها على النطق ، بل أن تناسق دلالاتها وتلاقت معانيهـا على الوجه الذي يقتضيه العقل.

وإذا امعنا النظر بين المعنى والمبنى ، نجد المعنى ميدانه العقل الانساني المتفرد والميدان المعرفي المتمثل بهذا الجمع من النظريات والآراء ، والأفكار القائمة او السائدة ، فـي معـارف الناس جهاراً أو خفية ، وعياً أو لا وعياً ، أما المبني فمجاله بنية اللغة تركيبيـاً وقوالبـاً ، نـسقاً وتعقيداً ، انشاءاً وعلاقات نحواً او تصنيفاً اصواتاً او دلالة.

أي العلاقة تفاعلية تبادلية بين الاثنين ، فالمعنى ينصاغ باللغة ، بحيث يتقولب فيهـا، أي تضفي عليه خصوصيتها التركيبية وخلفيتها المعرفية، واللغة تتحدد بالمعنى الذي يؤثر فيها تبعـاً

---

[١٢] الخصائص لابن جني (١٣٩٢ هـ) – تحقيق عبد الحميد هنداوي – دار الكتب العلمية بيروت – الطبعة الاولى (٢٠٠١م) - ص ١٠ .

[١٣] اللفظ والمعنى بين الايدلوجية والتأسيس المعرفي – طارق النعمان – دار سينا للنشر – الطبعة الاولى ١٩٩٤م - ص ٢٧٦ .

للعقل العرف الذي انشأ المعنى ، والذهنية التي ولدته ، ولا سيما أن اللغة انبنـت تبعـاً لذهنيـة مستعمليها والناطقين بها، فحملت معارفهم ، انها تعد تركيبي لكنه معرفي تاريخي ، لـم يـضعه الفرد ، فهي خارجة عنه فاعلة فيه ، بيد أن التجربة السلالية التاريخية لا نتماء هذا الفرد المكاني عملت على انجازها ، فهي وضع قام من خلال تفاعل الناس مع الطبيعة ، وذاتهم وجداناً ، وذاتهم اجتماعياً وتاريخاً.

أنها نتاج الناس إبان سيرورتهم التاريخية ، في مكان معين وضمن تجربة ما . ولما كانت طبعاً بشرياً فهي وضع ، وبما أنها تحصلت من سير تاريخي فهي معارف شتى لها خصوصيتها ، على أن ميدانها التفاعل الطبيعي الاجتماعي ، والإتصال ، فهي عملية وتجريبية ، أنها من العقـل وللعقل ، لأنها بيانية ،

هناك فكرة قديمة تقول إن لغة المرء تحدد ادراكه للواقع ، وأن العالم الذي نسكنه هو بناء لغوي، هذه الفكرة إرتبطت بالأمريكيين سابير وورف ويؤكد سابير أن النماذج التي يتمخض عنها التحليل اللغوي نماذج في عقول المتكلمين ، وتتضمن فكرته أن للغة حياة خاصة بها، وأن الفوارق بين اللغات هي في طرق التعبير عن الخبرات وليست فوارق في الخبرات نفسها، ويتناقض رأيـه هذا مع القول بأن العالم الحقيقي القائم بصورة لا شعورية على العادات اللغوية لـدى الجماعـة، وليست ثمة لغتان هما من الشبه الى حدٍ يجعلنا نقول أنهما تمثلان الحقيقة الاجتماعيـة نفـسها ، فالعناصر مثل الزمن وحالة الإعراب لا تكشف عن الخبرة بقدر ما هي مفروضة عليهـا بـسبب السيطرة الطاغية التي يفرضها الشكل اللغوي. فاللسان نظام من العناصر المترابطة، وأن مفـاهيم الناس عن مجتمعهم تتعدل وفق عناصر الإدراك التي تقدمها لغتهم (١٤) (ومغزى كلامهم (وورف وسابير) إن بني اللغات ورؤية العالم التي تشترك معها – تختلف إختلافاً شـائكاً عـن بعـضها البعض ولو أنهم قصدوا عمليات التفكير من نتائج اللغة لوجب أن نـرفض فكـرتهم علـى هـذا الاساس .

كان سابير يؤمن بضرورة وصف كل لغة، وفقاً لأحوالها الخاصـة ولكنـه لـم يـؤمن بالوحدات اللغوية أو الفئات المتواضع عليها.

ويرى البعض أن هناك توازياً بين التفكير واللغة ولا ينبغي أن تؤخذ العلاقة بينهما علـى أنها علاقة سببية، فقد تصاغ اللغة أو تشكّل من خلال ظروف البيئة والتنظيم الاجتماعي وأساليب التفكير رغم أنه لا يمكن القول بأن دراسة اللغة في حـد ذاتها يمكن أن تعين على

---

[١٤] مدارس اللسانيات التسابق والتطور - تأليف جفري سامسون - ترجمة محمد زياد كبه - ص ٧٩-١٠٢) .

توضيح الخاصية العامة للتفكير لدى مستخدميها.[(١٥)]

ويكمن القول أن اللغة تؤثر في التفكير كما أن التفكير يتأثر باللغة وبذلك يقول حسن ظاظا اللغة تعبر عن أمور في حياة الانسان اليومية ورقيها إلى مرتبة الفكر الفلسفي والعلمي والفني في أعلى مفهومها مرحلة تطور متأخرة تتبع الرقي الحضاري نفسه أي أن الفكر هـو ذلـك الـسر البشري المتسامي المتطلع الى الكمال الى التجريد ، يتأثر باللغة ويؤثر فيها آخذاً بيدها وقد قلنا ان الكلام ظاهرة مرافقة للفكر ولكنها ليست هي الفكر بعينه.[(١٦)]

وهنا نذكر ما قاله أرسطو أن الكلام عمليات عقلية تستلزم مبدأ العالمية فـي المعـاني ، فالمنطق والفكر عند ارسطو متلازمان .[(١٧)]

وإذا نظرنا الى الوراء لم يظهر لدى الباحثين الأوائل مشكلة حول علاقة التفكير باللغـة. فقد إنتهى واتسون مؤسس السلوكية القديمة، الى أن التفكير هو اللغة، وبناء على ذلك فإن التفكير عبارة عن تناول الكلمات في الذهن ، وان التفكير عبارة عن عادات حركية في الحنجرة ، وهـو حديث داخلي يظهر في الحركات قبل الصوتية لأعضاء الكلام أي ان التفكير كلام ضمني، ربمـا يكون ذلك هو الذي قاد المدرسة السلوكية الامريكية الى رفض التسليم بوجود أي متغيرات وسيطة بين المنبهات والاستجابات[(١٨)] إذ رفض بلومفيلد الآراء الآخذة بالقول بان وراء كل علاقة لغويـة عملية غير مادية ، والمعنى عند بلوم فيلد هو محصلة الموقف الذي يحدث فيه الكلام من خـلال عنصري المثير والاستجابة . ولكي يحترز بهذا القول أن الأصوات التي تطرق آذاننا في شـكل كلمة أي اشارة مسموعة ترمز بمجرد التقاط الاذن لها الى نتيجة ما من نتائج التجربـة الحـسية والمعنوية ومروفة لدى القاريء والسامع ، لا لشيء إلا لأنهما اصطلحا على ان يعطياهـا تلـك الدلالة. فالتجربة المتكررة تجعل الرمز قابل للتبادل والتفاهم .

واستيضاحاً لما سنقوله في بنيوية النص التي تجعل القاريء يفسر الكلمة وفقاً لحدسـه ونلاحظ أن هذه النظرة هي التي سيطرت على فكر المدرسة التحويلية (تشومكي) حينمـا بحـث عن المقصود (العميق) للمعاني يكشف عن هذه التشابهات الكلية للكلام بل كان يرى أن الوحدات

---

[15] سيكولوجية اللغة والمرض العقلي – جمعية سيد (ص) ١٢٨ .

[16] اللسان والانسان – مدخل الى معرفة اللغة - د. حسن ظاظا – مكتبة الدراسات اللغوية القاهرة – (١٩٦١م) - ص ٨٨) .

[17] المرجع السابق – (ص) ٤٠ .

[18] رفض بلومفيلد الاراء التي ترى وراء كل علاقة لغوية عملية غير مادية ، والمعنى عند بلومفيلد هو محصلة الموقف الذي يحدث فيه الكلام من خلال عنصري المثير والاستجابة - مباديء اللسانيات -احمد محمد قدور –دار الفكر العربـي دمـشق – الطبعـة الثانيـة (١٩٩٩م) – ص ٢٩١ .

الاساسية كالاسم والفعل ، والعمليات النحوية الأساسية ، ترتيب الكلمات هي امور قائمة في جميع اللغات التي يحتمل ان تكون لها عناصر مشتركة .

ونقف قليلاً عند مصطلح الكلام الداخلي او الحديث الداخلي ويجدر بنا القول أن مـصطلح الكلام الداخلي مصطلح يكتنفه الغموض، فهو مصطلح سيكولوجي استخدم الظواهر مختلفة جداً ، فقد استخدم بمعنى الذاكـرة اللفظية (Verbal Memory) وقد فهم المصطلح بأنه اختصار للعمـل العادي للكلام .

فالكلام الداخلي هو كلام غير منطوق ، ويصف واطسون الكلام الداخلي بأنه (مـا وراء الصوت) وعرفه بأنه منعكس كلامي، الجزء الحركي فيه ليس فيه تعبير صريح) . ويقول سـيد غنم غير أن هذا الفهم للكلام الداخلي لا يكفى ، فنطقك لكلمة ما بدون صوت ليس عمليـة كـلام داخلي .

ولقد فُهم المصطلح بأنه كل شيء سبق الفعل الحركي وذلك في المستويات الأساسية التي تقوم عليها اللغات وكان تركيز (سابير) على العقل والفكر، موضع إهتمام علماء اللغة التحـويليين بما في ذلك خبرات الكلام غير الجينية وغير الحركية والتي لا يمكن تحديدها . وهـذا الموقـف المتطور منطقياً يؤدي الى القول بأن الكلام الداخلي ليس كلاماً على الاطلاق ، بل هـو فكـر ، ونشاط وجداني – إرادى ، لآراء تتضمن دوافع الكلام والفكر التي يعبر عنها في كلمات.[(١٩)]

ونظر فيجوتسكي الى أن الكلام الداخلي ليس هو ما يسبق الكلام الخارجي او ما يتم فـي الذاكرة، ولكنه نوع مقابل للكلام الخارجي ، فالكلام الخارجي هو تحويـل الفكـر الـى كلمـات ووضعه في صيغة مادية وموضوعية بينما يتحول الكلام الداخلي إلى فكر .

ومن هنا فالكلام الداخلي يمثل كلاً له قوانينه الخاصة فتركيب كل منهما يختلف تماماً.

وأثارسيد غنيم في مقاله (حول اللغة والفكر عند الطفل)[(٢٠)] الذي عرضه بمجلة الفكر في شـكل سؤال (إذا كانت هذه هي العلاقة بين الكلام الداخلي والكلام الخارجي ، ما هي اذاً علاقة هـذا الكلام الداخلي بالكلام المركزي الذات الذي كشف عنه بياجية ؟ .

انتهى فيجوتسكي الى ان الكلام المركزي الذات يمثل مرحلة تسبق نمـ والكلام الـ داخلي وهذا لاعتبارات ثلاث :-

---

[١٩] حسن ظاظا (اللسان والانسان) –٧٢- ٧٥ .

[٢٠] آراء الاوربيين رأي فيجوتسكي – انظر مقال سيد غنيم (اللغة والفكر عند الطفل) مجلد عالم الفكر المجلد الثـاني العـدد الاول – (١٩٦١م) - ص ٢٩- ١٢٩ (بتصرف) .

وظيفية وتطورية تركيبية ، فكلا النوعين من الكلام يحقق وظيفة عقلية لهذا فتركيب الكلام الداخلي قريب من الكلام المركزي قريب من الكلام الداخلي

أما من الناحية التطويرية نجد أنه عند بداية مرحلة المدرسة يختفي الكلام المركزي الذات بينما ينمو الكلام الداخلي حتى يمكن القول أنه يتحول اليه ، وإذا كان هذا الإنتقال يحدث بالفعـل فإن الكلام المركزي الذات يصبح غاية بإعتباره مفتاح دراسة الكلام الداخلي ، ذلـك أ لا يـزال حديثاً منطوقاً متفوهاً به، حديثاً خارجياً في طريقة تعبيره، داخلياً في وظيفته وتركيبه ، ومن هنـا فالعملية الداخلية للكلام تخضع للتجريب لنرى مظهرها الخارجي ، فالكلام المركزي الذات اعتبر نموذجاً لذاك فهو كلام داخلي ولكنه قابل للملاحظة والتجريب [٢١] هذا أقرب ما يقال في النحـو التقليدي التحويلي الذي يمثل تراكيب لم يسمع بها المرء من قبل أنها تراكيب إبداعية جديدة ، أو في نظرته إلى التقدير قبل أنها تراكيب إبداعية جديدة ، أو في نظرته الى التقدير فهـذه النظـرة جعلت فيجوتسكي ينظر الى سمات الكلام والحذف كقاعدة المركزي الـذات وطبيعتـه وهـدفهم والانتقال من المركزي إلى الداخلي ، والعلاقة بينهما ، هذا الامر جعلنا نقابل بين آراء فيجوتسكي وآراء بياجية ، والفارق الجوهري بين النظرتين الذي ارتكز على سمة الكلام المركـزي الـذات، يعتبر بياجية الكلام المركزي الذات تعبيراً عن النزعة المركزية للذات في التفكير، وتمثل توفيقـاً بين النزعة الاجترارية لتفكير الطفل، ونزعة تطبيقه اجتماعياً. ومع تقدم سن الطفل تقل النزعـة الاجترارية ويزداد التطبيع الاجمالي وتقل تبعاً لذاك النزعة المركزية في كل من الفكر واللغة.

أما فيجوتسكي أقر بوجود الكلام المركزي الذات بين الخامسة والسادسة وأنه يهـبط مـع تقدم السن ويعزو فشل الكلام المركزي في الاتصال عن نقص معرفي أو عجز ولكنه يرجع إلـى حقيقة أن الكلام المركزي له وظيفه مختلفة عن الاتصال الجماعي وأن وظيفته هي توجيه الـذات معرفياً .

ولذلك إعتبر علماء النفس النظام اللغوي في داخل المخ جزء من النظام المعرفي ويقـود اليه.

وهكذا ينتهي فيجوتسكي الى أن الكلام المركزي ينمو ويتطور ويمهد لفهم الكلام الـداخلي الذي يمثل المرحلة الثانية في الانتقال من اللغة إلى التفكير والانتقال من الكلام الداخلي إلى الكلام الخارجي ليس مجرد ترجمة من لغة الى أخرى أو مجرد إضافة المظهر الصوتى للكلام الداخلي ،

---

[٢١] (شكلت القطرسة العلمية في القرن التاسع عشر والايمان الكامل بالعقل لتقدير الظواهر البيولوجية كانها عمليات في مختبر وخضعت الكفاءة اللغوية لمنظور تجريبي من خلال عمليات التركيب اللغوي والتحويل والتوليد الذي تم فيها ويرجع ذلك الى عمليـات التركيـب الجديد للغة) .

ولكنه إعادة بناء الكلام أي تحويل [٢٢] التراكيب البنائية الخاصة إلى صور بنائية أخـرى خاصـة بالكلام الخارجي والسبب أن هذه التراكيب البنائية الداخلية هي التي يبحث عنها النحـو التوليـدي التحويلي تحت مفهوم (البنية العميقة) كالتقدير والتأويل والافتراض في النحو.

ولعل من أبرز صفات الكلام الداخلي التي يتميز بها عن غيره، النزعة إلى الإختصار ، إختصار الجمل بشكل يحتفظ بالمسند ويحذف المسند إليه ، والكلمات الأخرى المرتبطة به. وفكرة الإختصار في الكلام الخارجي قد أدت إلى إلقاء الضوء على طبيعة الكلام الداخلي الـذي يعتبـر الحذف (التقدير) بمثابة القواعد، وهي قواعد النحو الكلي أو البنية العميقـة، وهكـذا يمكـن أن نلخص النظرية التطورية التاريخية للكلام المركزي الذات والكلام الداخلي في عبارة فيجوتـسكي أن العلاقة بين الفكر والكلام عملية حتمية ، فالفكر يولد في الكلمات، والكلمة الخالية مـن الفكـر كلمة ميته ، والفكر الذي لم يصب في كلمات يبقى ظلالاً ، وأن العلاقة بين الفكر والكلمات ليست علاقة أولية وإنما هي تنشأ وتظهر خلال النمو كما تنمي نفسها. وهكذا أغلق فيجوتـسكي دائـرة اللغة والفكر وأقر بإرتباطهما إرتباطاً وثيقاً ، فهما حقيقتان متلازمتان . [٢٣]

وضح الدكتور جمعة سيد في كتابه (سيكولوجية اللغة والمرض العقلي) . [٢٤]

(لا يسير التقدم في التفكير والتقدم في الكلام بطريقة متوازية ، فمنحنيات نموها تتلاقـى وتتباعد) ، وذكر عدة حقائق أساسية لم تكشف عنها الدراسة الإرتقائية للتفكير والكلام تـتلخص في الحقائق الآتية :-

(١) التفكير والكلام في تطورهما أصول مختلفة .

(٢) يسير نمو التفكير والكلام في خطوط مختلفة دون إرتباط أحدهما بالآخر .

(٣) عند نقطة معينة تتلاقى هذه الخطوط، وعندها يصير التفكير كلامياً والكلام عقلياً .

ونلاحظ من كل ذلك أن الفصل بين التفكير واللغة ليس حسناً ، فهم يتصورون العلاقة بين الكلمة ومعناها علاقة خارجية بحته، فبالتالي يدرسون خصائص التفكير مستغلاً عـن خـصائص الكلام ، ثم يتصورون العلاقة بين هذا وذاك على أنها إرتباط آلي خارجي لعمليتـين مختلفتـين ، فالفصل بين هذين الكيانين يفقد الكلام خصائصه الإنسانية ، وأن وحدة اللغة والتفكير تتضح مـن معنى الكلمة إذ يعتبر عملاً للتفكير وبجانب ذلك يعتبر المعنى جزءاً لا يتجزأ من الكلمة ، فكلمـة

---

[٢٢] التراكيب البنائية الداخلية هي القواعد المنظمة للغة وهي التي اعتبرها البنائيون قواعد عامة ينظمها العقل البشري كالتأويل والتقدير والافتراض (البنية العميقة) .

[٢٣] بتصرف –انظر– مقال سيد غنيم (اللغة والفكر) عند الطفل – عالم الفكر – المجلد الثاني – العدد الاول ص ٩٤ – ١٢٩ .

[٢٤] سيكولوجية اللغة والمرض العقلي جمعية سيد ص ١٢٣ – ١٢٨ .

من دون صوت فارغة وبذا يعتبر المعنى ظاهرة كلامية منتمية إلى مجال التفكير وتمثـل وحـدة التفكير اللغوي .[٢٥]

وفي حديثنا عن اللغة والفكر لا بد أن نتعرض لما قيل حول فلسفة اللفظ والمعنى ومن هذا المنظور نفسه كي نتوصل بذلك إلى التفريق بين اللغة والكلام وما أسفرت عنـه مـن نظريـات بنيوية.

تعتبر اللغة كساء نغطي به أفكارنا، أفكارنا موجودة واللغة غـلاف عليهـا، والغـلاف معروف منفصل عما يحتويه ... والغلاف لا يغير طبيعة المحتوى ولا يدخل عليه تعديلاً جوهرياً ، اللغة غطاء مهما يكن له من قيمة فإن المرء ينفذ من ورائه إلى شيء داخلي ...فـنحن نرتـب الألفاظ في النطق على حسب ترتيب المعاني في النفس[٢٦] .وعبر عبد القاهر في دلائل الاعجـاز مثل هذا التعبير قائلا:- (المبنى يضاف إلى المعنى كمـا يضاف الغطاء إلى وعائـه ، أو كمـا يلبس الإنسان ثوبه إضافة خارجية[٢٧] ، هذا الموقف في فهم اللغة يعبر عنه عبـد القـاهر بـأن الكلمات أدوات للإشارة والكلمات عند جميع الباحثين في اللغة العربية لا تخلق الأفكار ، الكلمات عندهم ليست مواقف أو رموز أو تأويلات أساسية . الكلمة ليست إلا علامة.

وفي هذا الإتجاه يقول: ليست اللغة في التراث القديم رموزاً تقترب من تنوع دلالتها وتغير سياقاتها بتنوع الموقف الأكاديمي للانسان أو تغيره ، فلا تنفصل عنه أو تليه، إنمـا اللغـة فـي التصور القديم علامات على أشياء أدركناها من قبل[٢٨] ، وقد أمن عبد القاهر على هذا التـصور عندما قال: (إن اللغة تجري مجرى العلامات أو السمات ، ولا معنى للعلامة أو السمة التي يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلاً عليه[٢٩] والإلمام على مفهوم العلامات أو السمات في اللغة لا يعنى في جوهره إلا فصل اللغة عن حركة الفكر ، اللغة في التصور القديم وعاء أو كـساء ينقـل مـا يحويه أو يعرض ما بداخله ، دون تأثير جوهري ومن هذا التصور نواجه ثنائية اللفظ والمعنـى مرة أخرى.

ويقول طارق النعمان في كتابه (اللفظ والمعنى بين الأيدولوجيا والتأسـيس المعرفـي): مثلما نجد كذلك من يرى أن تصور الجرجاني للغة يقوم على الفـصل بـين الألفـاظ والمعـاني

---

[٢٥] سيكولوجية اللغة والمرض العقلي جمعية سيد ص ١٢٣ – ١٢٨ .
[٢٦] اللفظ والمعنى بين الايدلوجيا والتأسيس المعرفي – طارق النعمان – ص ٤١ .
[٢٧] دلائل الاعجاز – عبد القاهر الجرجاني- ص .
[٢٨] مرجع سابق – ص ٧٣ .
[٢٩] الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغة – د.جابرعصفور –ص ٣٥٢- ٣٥٣ .

والاعتراف لهذه الأخيرة بوجود مستقل سابق ، تصبح اللغة تبعاً لذلك مجرد علامـات وسـمات تشير إلى تلك المعاني .. ومن هذا المنظور لا تزيد وظيفة اللفظ على كونه وسيلة نـشتق منهـا المعنى ووعاء تتشكل بشكله.[٣٠]

هكذا تقرب هذه القراءات بين فصل عبد القاهر الألفاظ والمعاني ، وفصل دي سوسير بين اللغة والكلام وفصل الإتجاه البنيوي بين الكفاءة اللغوية والأداء، وبين تفسير القاريء للنص وبين موت المؤلف[٣١] والنص المفتوح ويبدو أن الإنطلاق من الفكر إلى اللغة من مفهوم العلامـة أو السمة هو المولد لما نراه من هذه القراءات من ثنائية وإنفصال بين الألفاظ والمعاني في تـصور عبد القاهر للغة، وكما يبدو مفهوم العلامة وكأنه قاصر وغير ملائم للمفهوم اللساني الذي ينطلـق منه علم اللغة المعاصر في النظر إلى الظاهرة اللغوية، مما يدفع إلى التساؤل هل يفصل علم اللغة المعاصر بين الألفاظ والمعاني ؟ .

ويجيب طارق النعمان، ليس هذا فحسب بل يبدو وأن ثمة اقتراناً بين كون اللغة علامات وما يتم إنتاجه من مفردات. فإن عبد القاهر يفصل بين اللغة والفكر وهو ما يبدو جديراً بالتأمـل، خاصة وثمة من يذهب في رصده إلى إشكالية (اللفظ والمعنى) في التراث العربي[٣٢] .

والتعامل مع هذه القضية رسخ لدى اللسانيات تلك النظرة التي تتعامل مع اللفظ والمعنـى وكأن لكل منهما بيانه الخاص، والنتيجة التي كان لا بدأن يدرسها هذا النوع مـن التعامـل هـو الفصل بين اللغة والفكر. وهذه القضية نفسها نجدها في الوعي المعاصـر بثنائيـات مختلفـة[٣٣] وبحضور زوج (اللفظ + المعنى) يقترب الفهم المعاصر من فكر الجرجاني والنظر إلى اللغـة بوصفها علامات كما ذكر ذلك دي سوسير، مما يقرب الفصل بين اللفظ والمعنى والانفصال بـين اللغة والتفكير واللغة والكلام والمنطوق والمقدر والظاهر والباطن أو السطحي والعميق، على نحو يبدو فيه حضور الثنائية (اللغة والتفكير) هو مولّد الثنائية الأولى وحضور الثنائية الأخيرة هـو حضور الثنائية الاولى ، وحضور الاثنين معاً هو وليد اقتران اللغة (بالعلامات) عند أصـحاب الإتجاه البنائي . كما يقرب البعض الآخر بين هاتين الثنائيتين والغياب الكامل والمطلق لأي إهتمام بعملية التفكير ذاتها . مستغلة عن الألفاظ واللغة . وتساءل الكثيرين عن هل يشمل تـصور عبـد

---

[٣٠] اللفظ والمعنى بين الايدلوجيا والتأسيس المعرفي – د. طارق النعمان – ص ٢٧٦ .

[٣١] المرايا المحدبة – من البنيوية الى التفكير – د.عبد العزيز حمودة – عالم المعرفة الكويت –ابريل ١٩٩٨م- ص ٢٩٠ .

[٣٢] اللفظ والمعنى بين الايدلوجيا والتأسيس المعرفي – طارق النعمان – ص ٢٧٨ .

[٣٣] المنطوق المقدر ، التأويل والافتراض ، البنية التحتية والفوقية ، الثنائيات في اللغة العربية الى عصر النهضة – نهاد الموسوي - دار الشروق للطباعة والنشر الاردن – الطبعة الاولى (٢٠٠٣م) .

القاهر اللفظ والمعنى ، تصوره القائم على مستوى اللغة، وهل يشمل تصوره العلاقة بينهما على مستوى الكلام، وهل ثمة فصل بين اللغة والتفكير لدى عبد القاهر، وهل تبدو العلاقة بين اللفظ – والمعنى – والتفكير علاقة لا متساوقه من حيث أن اللغة هي حضور لكل من اللفظ والمعنى ، كما أن اللفظ والمعنى قد يكونا حاضرين على مستوى عملية التفكير ويقول د. طارق النعمان وهذه الأسئلة يجاب عنها برصد التصورات الخاصة بطبيعة العلاقة بين اللغة والتفكير في الوعي المعرفي المعاصر لأنه الأساس الذي انطلقت منه تلك الأحكام .

وتتلخص هذه المنظورات المختلفة حول علاقة اللغة بالتفكير ، وتبين ثلاثة أطروحات محورية ومتباينة حول علاقة اللغة بالتفكير في الوعي المعاصر .[٣٤]

يتمثل الطرح الأول في العزل المطلق بين اللغة والفكر. واللغة إزاء هذا المنظور قاصرة وعاجزة إزاء الواقع إذ تبدو بالنسبة للتفكير أشبه ما تكون بوسيط شفاف أو مرآة ينعكس عليها التفكير دون أن يكون لها أية فعالية في تعديله أو تحويره .

والطرح الثاني وهو ما يمكن أن يطلق عليه نظرية (التوحيد بين اللغة والتفكير) فله ممثلون في مجالات معرفية مختلفة ، إذ نجد له حضوراً في كل من مجال الفلسفة وعلم النفس واللسانيات يمثل هذا المنظور في الفلسفة الإتجاه الوضعي المنطقي حيث يرى أنه لا ضرورة لإفتراض وجود شيء نعلّل به عملية الفكر سوى العبارات اللفظية ، أي الكلام مقيداً بشروط خاصة ، وليس ثمة ما يدعو إلى إفتراض كائن غيبي باطني نسميه العقل كي نفسر عملية التفكير ، ما دام في إستطاعتنا أن نعلل ظاهرة التفكير بالألفاظ. وإن التفكير ليس شيئاً يضاف للكلام، بل هو خصائص معينة في ترتيب الكلمات، إن وجدت كان الكلام فكراً ، وإلا فهو ليس بفكر، بعبارة أخرى أن الكلام هو الفكر ذاته.

وقيل في ذلك أن المثاليين وحدهم هم الذين يتحدثون عن التفكير غير المرتبط بالمادة الطبيعية.

ولا شك أن لكل هذه الفلسفات آثاراً ضاربة في جذور (علم اللغة)، وانطلقت هذه المفاهيم الثنائية بين اللغة والفكر ، والنحو والكلام ، أو القواعد والأداء اللغوي، من مجموعة المفاهيم التي بحثها الجرجاني في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) وتمثلت تلك المفاهيم في (معاني النحو) (ومعنى المعنى) وتداعي المعاني العقلية والمعاني التخييلية، ونلاحظ أن مفاهيم الغياب والحضور في هذه المصطلحات أشبه بعلاقات الحضور والغياب بمعناها اللغوي عند سوسير.

---

٣٤ اللفظ والمعنى بين الايدلوجيا والتأسيس المعرفي – طارق النعمان – ص ٣٨٠ – ٣٨١ .

ويحدد عبد القاهر معاني النحو بما ليست هي أي بالسلب ، بوصفها ليست معاني ألفـاظ الأمر الذي يعني أنها لا تنتمي إلى حيز المعجم ، فيمكن تحقيقها أو تغييرها من خلاله ، وإذا كان هذا هو تحديدها بالسلب فإن تحديدها بالإيجاب يتمثل في معرفة وجوه وفروق كل أصل من حيث نمط علاقته بأنماط الأصول الأخرى ، وهذه بالإضافة إلى معرفة الإمكانيات العلائقية التي يتوفر عليها كل أصل من هذه الأصول أي الأشكال الممكنة لهذا النمط العلائقي ذاته، يستوى في ذلـك المرسِل والمستقبِل على حدٍ سواء ، وبهذا حدد الجرجاني (أصول النحو) بوصفها أنماط التعليـق بين الكم الذي يشكل في ثلاث مقولات أساسية هي : الاسم والفعل والحرف ، والذي يكون نـاتج التعليق ببعضها هو الخبر والبدل والتمييز والفاعل والمفعول وهكذا ... وإذا كان عبد القاهر يحدد أصول النحو بوصفها هذه الأنماط العلائقية ، فان كل نمط من هذه الأنماط يتوفر على مجموعـة من الإمكانات المختلفة يمكنه التحقق من خلالها وهذه الأنماط المختلفة أساليب تميز بـين الـنمط النحوي والدلالة الإعلامية لكل منهما.

وهذا الأمر قاد إلى القول بفكرة (النظام) أو (البنية) التي سيطرت علـى الدراسـات اللغويـة المعاصرة. وإن ظاهرة المعنى عند عبد القاهر ليست مقصورة على حدود الظاهره اللغوية، يسعى عبد القاهر إلى القول بأن للمعنى فعالية إدراك متولدة عن علاقاتنا بهذا العالم، ويعنـي ذلـك أن العلامات اللغوية ليست وسطاً طبيعياً بيننا وبين هذا العالم ، بل وسـيط نحيـل بـه علـى هـذه المعطيات وعلى تصوراتنا من خلال (الموافقة)، وقد ساغ سويسير نظريةً حول هـذه العلاقـة وبين أن العلاقة بين الدال والمدلول ليست سوى إصطلاح غير معلّـل (إعتبـاطي) .. ويقـول سويسر بمبدأ الإعتباطية أي أن العلاقة بين اللغة والعالم هي علاقة إصطلاحية إتفاقيـة وليـست طبيعية معلّلة [٣٥] .

إن العلاقة بين الألفاظ (دلائل اللغة) ومعطيات العالم ليست علاقة مطابقة، ولكن لا يمكن للإلفاظ أن تعمل إلا وفق هذا العالم ومعطياته.

إن وظيفة العلاقة تنحصر في التمييز وليس التعريف أو الإخبار الذي هو وظيفة فعالية أخـرى ، فالعلاقة تقوم بوظيفة تمييز مدركات هذا العالم عن بعضها البعض.

[٣٥] العلامة لا ترد ولا يدحض ، ولكن غالباً ما يكون اكتشاف حقيقة ما اكثر سهولة من أن نوليه الملكة اللائقة به . ثم أن المبـدأ الـذي أخذنا به آنفاً سيبدأ بالسنيه اللغة قاطبة ، ونتائجه لا تعد ولا تحصى اننا انما نكتشف خطورة هذا المبدأ ويفرّق سوسير بين اللغة والمؤسسات البشرية الاخرى استناداً الى صفة الاعتباطية – مباديء اللسانيات – د. احمد قدور – ص ٢٨٦-٢٨٧ .

تلك هي وظيفة العلامة السمة عند عبد القـاهر تحيلنـا علـى مـدرك دون أن تكتـسي الخصائص الطبيعية لهذا المدرك . وهكذا يرى عبد القاهر أن عمل اللغة إدراكها لا يـتم إلا فـي ظلال إدراك مصاحب للعالم .

وأن العلاقة التي تربط اللغة بالعالم علاقة (مواضعة) التي لا تتم إلا بـادراك العـالم ، وعليه يمكن القول أن اللغة وإن كانت تمثل شرطاً فعالاً لتنظيم إدراكنا للعـالم . فإنهـا لا تمثـل شرطاً للإدراك ، بل شرطاً لتنظيم هذا الإدراك.(٣٦)

ومشكلة هذا الطرح من منظور عبد القاهر يتمثل في كونه يوهم بجعل اللغة شرطاً لازماً لمعرفة العالم ، مما يجعل فعالية الإدراك مقيدة باللغة ومختزلة فيها ، كما أنه يفـضي بإسـتبدال اللغة بالعالم ، وهو ما أشارإليه بقوله :(لو كان كذلك مساغُ من العقل ، لكان ينبغي إذا قيل (زيد) أن تعرف المسمى في العقل ، لكان ينبغي إذا قيل (زيد) أن تعرف المسمى بهذا الاسم من غير أن تكون قد شاهدته).(٣٧)

ولا يكتفي عبد القاهر للتأكيد على كون (المعنى) فعالية إدراك مجاورة لحدود اللغة.

ووظيفة الدلائل عند عبد القاهر ليست الإخبار والإحالة فاللغة موضوعة للكلام ، والإخبار ينتمي إلى الكلام والإحالة تنتمي إلى اللغة ، واللغة موضوعة لإنجاز الكلام ، ولا يمكن أن تحتـل موقعه لتعرف معانيها في أنفسها.

وإذا نظرنا إلى فلسفة عبد القاهر في كل من الخبر والكلام نجد الخبر والكلام معانٍ ينشئها الإنسان في نفسه ويصرفها في فكره ، ويناجي بها قلبه ، وهذه المعاني ليست إلا علاقات، يقـول عبد القاهر: (أعلـ ـم أن معاني الكلام كلها معاني لا تتصور إلا فيما بـين شـيئين)(٣٨) أي أن معاني الكلام ليست إلا علاقات.

وإن أردت أن تستحكم معرفة ذلك في نفسك ، فانظر إليك وإذا قيل لك (ما فعل زيـد ، فقلـت (خرج) . هل يتصور أن يقع في خلدك من (خرج) معنى من دون أن ينوي فيه ضمير (زيد) ؟ وهل تكون أنت زعمت إنك لم تنو ذلك إلا مخرجاً نفسك إلى الهزيان ؟ .

وكذلك فانظر إذا قيل لك (كيف زيد) فقلت (صالح) هل يكون لقولك (صالح) أثـر في نفسك دون أن تريد هو صالح ، أم هل يفعل السامع منه شيئاً إذا هو لم يعتقد ذلك ، فانه مما لا يبقى منه لقائلٍ شك أن الخبر معنى لا يتصور إلا بين شيئين يكون أحدهما مثبتاً والآخر مثبتاً له.

---

٣٦ المرجع السابق – ص ٢١٨ – ٢١٩ .
٣٧ دلائل الاعجاز – عبد القاهر الجرجاني – ص ٥٤٢.
٣٨ دلائل الاعجاز – عبد القاهر الجرجاني .

(ولما كان الأمر كذلك ، أوجب ذلك أن لا يعقل إلا من مجموع فعل واسم كقولنا (خرج زيد) أو اسم واسم كقولنا (زيد منطلق) فليس في الدنيا خبر يعرف من غيره هذا السبيل ويفيـد هذا الدليل ، وهو شيء يعرفه العقلاء في كل جيل وأمة ، وحكم يجري عليه الأمر في كل لـسان ولغة) : تلك هي الدلالة التي يستخدم بها عبد القاهر كلاً من المعنى و(المعاني) ، وعليـه مـا الخبر إلا علاقة وما الكلام إلا علاقات ينشئها المتكلم المرسل ويدركها المستقبل .

إن هذا البعد العلاقي هو البعد الأساسي المميز لكل من مفهومي الخبر والكلام سواء على مستوى الإرسال أو على مستوى الاستقبال وسواء حضر طرفا العلاقة في حالة المخبر أو غـاب أحدهما فان هذا البعد العلائقي يظل حاضراً ، فهوية كل من الخبر والكلام هوية علاقية كمـا أن هوية المعنى هوية علاقية.

وهكذا يكون الخبر علاقة ذهنية قصدية ينشئها المخبر وليس الدليل المحتل للموقع النحوي ، إذ هو ليس المخبر به ، لأن المخبر به ينتمي إلى مستوى اللغة، وليس إلى مستوى الكلام شـأنه شأن المخبر عنه في حين أن ما ينتمي إلى مستوى الكلام هو أصل هذه العلاقة وعبد القاهر يرى أن وظيفة الكلام هي الإخبار ، وأن المخبر به ينتمي إلى مجال (دلائل اللغة) التـي لا يـضيف إليها المتكلم شيئاً يذكر والتي لا تذكر بذاتها، ولكن ما ينشئه المتكلم بينهما من علاقات هي التـي تعطي الإخبار وظيفته ودلالته ، ومن ثم فان (المخبر عنه) أي الخبر بمعناه النحوي لـيس هـو المستعان على تصويره بالفكر، لأنه دليل من دلائل اللغة المعطاة المعروفة.

هكذا يرى عبد القاهر أن تحديد الخبر بوصفه لفظاً يعنى أنه دليل وهذا بدوره يعني أنـه ينتمي إلى مجال اللغة وليس إلى مجال الكلام، كما يعنى مساواة مفهوم الخبر لمفهـوم الـدليل أي يعني إنتماء الخبر إلى مجال اللغة وليس إلى مجال الكلام.

وقام جدله ذلك على أن الإشارة ذات طبيعة (إعتباطية) وعلى أنها تعتمد على التواطـؤ والعرف ، ولهذا فان معرفة الإشارة لا تتم إلا من خلال تمايزها بإختلافهـا عـن سـواها مـن الإشارات، فكلمة (ضلالة) صارت ذات معنى ليس لشيء في ذاتهـا ، ولكـن لوجـــود (الهداية) فبضدها تتبين الأشياء ، ولولا السواد لما عرفنا البياض.

وكذلك من حيث تميز الصوت (فالضلال) تتميز فيها الضاد وتصبح أساسية في دلالتهـا لوجود مخالفتها (الظلال) فالكلمة والصوت يدلان إذا تميزا أو اختلفا عن سواهما وهو ماجعـل

سوسير ينظر الى اللغة على أنها نظام من الاختلافات ، وقاد هذا التصور النظري الذي انطلقت منه البنيوية بين اللغة كنظام من الاختلافات وبين الحدث الخطابي الذي يتمخض عنه ذلك النظام ونكون حينئذٍ بين مفهومين ثنائيين هما اللغة والخطاب فاللغة هي المخزون الذهني الذي تمتلكه الجماعة بينما الخطاب هو ما اختاره المتحدث من ذلك المخزون ليعبر به عن فكرته ، هذان المصطلحان عند سوسير هما اللغة والكلام وإمتدت هذه الثنائيات لتشمل دراسة اللغة كنظام في عصر محدد وأصبحت الدراسة التزامنية هي السائدة في ذلك العصر (٣٩) وهكذا إتجه فكر سوسير نحو قطبي الإشارة اللذين سماهما بالمملكتين العائمتين وهما قطبي الدال والمدلول ، وهذه هي المنطلقات الأساسية التي افرزت كل المدارس النقدية المعتمدة على الألسنية ، وتنبثق البنيوية من خلال هذه الأفكار اللسانية لتتصدر دراسة الأدب في فرنسا وامريكا .

والقول بأن الإشارة لا تتم إلا من خلال تمايزها عن سواها كما في الضلالة والهداية يؤدي إلى تحول عناصر اللغة من صفة الدال إلى مدلول خارج عنه فاللغة في النص الأدبي تدل على نفسها وتلقي المدلول القديم لكلمات تحل هي مكانها ، وهنا تتصادم المملكتان ، كما يقول سوسير مملكة الصوت ومملكة المعنى حيث يحقق الصوت انتصاره بنفسه ويحدث حينئذٍ التوتر الصوتي الذي ينتج عنه علاقة إشكالية بين الضدين المتكافئين المعنى المجازي والمعنى المرجعي (٤٠) هنا نتبين أثر المدرسة الشكلية التي إنتعشت في روسيا (١٩١٥ – ١٩٣٠) كان مبدؤها يقوم على أن لغة الأدب ليست نقل للافكار وإنما الشكل فيها هو الجوهر ومن هنا جاء اسم الشكلية وشاعت أفكار هذه المدرسة (عام ١٩٦٥) وتمثلت البنيوية هذه الفكرة بخوضها في فكرة النظام أو النسق أو حتى العلاقات المتضادة بين المفردات كما هو في التحليل اللغوي للنص الأدبي . (٤١)

من هنا تعتبر ثنائية سوسير التي تقابل بين اللغة والكلام محور القضية البنائية من الناحية المنهجية إذ يرى سوسير أن اللغة شكل وليست جوهر مما أدي إلى تركز الدراسات اللغوية على الظواهر غير الواعية وإدخال فكرة النظام في التحليل اللغوي إذ أن علم الصوتيات المعاصر لا يكتفي بإعلان أن الحروف هي عناصر في نظام شامل إنما يعرض نظم صوتية محددة ويوضح بنيتها . وفي التحليل الفونولوجي (٤٢) تؤخذ الكلمات كوحدات قائمة برأسها فهو يعتبر إيضاح هذه

---

[٣٩] مثل دراسة الادب الجاهلي من منظور بنيوي دراسة الدكتور كمال ابو ديب .
فرق ديسوسير بين المنهج الوصفي والتاريخي وبين اللغة كنظام اجتماعي واللغة كممارسة فردية .

[٤٠] الخطيئة والتكفير – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الرابعة – ١٩٩٨ - الدكتور محمد الغزامي ص ٣٢ .

[٤١] مقال بعنوان (اصول البنيوية في علم اللغة والدراسات الاثنولوجية – مجلة الفكر – المجلد الثالث العدد الاول ص ١٦٥ – ١٦٦) .

[٤٢] وممن قان بالوصف الفنولوجي بواعز الذي وصف النظام وفقاً لاحوالكل لغة ثن ثبت هذا الرأي في الدراسات الوصفية في امريكا .
انظر مدخل الى علم اللغة – رمضان عبد التواب ص ١٨٥ .

العلاقات بين هذه الأشياء مرحلة في التحليل العلمي محاولاً الوصول إلى اكتشاف النظام ، مراحل التحليل تقوم على الظواهر الواعية وغير الواعية ونمضـي من خلال ذلك إلى اللغة الكامنة خاف الظواهر اللغوية الواعية .

يمكن القول أن البنيويين خطو خطوات واسعة لتبني النموذج اللغـوي كأسـاس لتحليـل النصوص الادبية وطوروا نظرية عامة للدراسة اللغوية للنص ، ولكن هذا الخيار اللغوي أسـلمهم لمأزق أصبحوا فيه سجناء للغة ثم إن النموذج اللغوي أثبت عدم قدرته لتحقيق المعنى كما سيتضح ذلك من خلال الدراسة ، وأصبح في نظرهم البحث عن الأبنية وكأنه غاية في نفسه. (٤٣)

لأن علاقة الفكر واللغة التي ندرسها في هذا لفصل تتجلى في فـصل الـنص عـن ذات المؤلف والناقد وبالتالي فصل اللغة عن الفكر وهذا ناتج من فكر سوسير عن الثنائيات المتـضادة فهو يرى استغلال النسق اللغوي عن الواقع الخارجي وباعتبار مفهوم العلامة عنـد الجرجـاني ومفهوم النسق عند سوسير يقترب الفكر المعاصر من الفكر العربي القديم .

يمكن القول أن الإتجاه إلى بنية اللغات لم ينتج عن فكر إنما هو عقيدة يمكن أن ننظر من خلال بنية اللغة إلى فكر أصحاب هذه اللغة والكيفية التي يدركون بها الواقع ومدى إرتباط ذلـك بالفكر الغيبي المستقبلي والماضوي وبالتالي معرفة أيدلوجية الأمم في النظر إلى الكون ونظامـه والإنسان وقيمه . ونشير إلى ملمح جوهرى هام أن الفلسفة البنيوية قامت علـى فكـرة الثنائيـة ومصطلحات البنائية تحمل في ظاهر لفظها مبدأ الثنائية مثل كتاب جدليـة (الخفـاء والتجلـي) للدكتور كمال أبو ديب ، وترتكز الدراسة البنيوية في تحليلها على التضاد بين عالمين متجـاورين في النص والقيم الخلافية ، والغياب والحضور ، والبنية التحتية والفوقية ، والتوليـد والتحويـل ، واللغة والكلام .

ينتقد الدكتور صلاح فضل ، في حديثه عن كتاب جدلية الخفاء والتجلي ، وينتقد الثنائيـة ويقول (٤٤) (الذي اعتمد على اقتطاع جزازات من الشعر يتبدى فيها لون من الثنائيـة ...ويقـول بالرغم من أن محور الثنائية أساسي في المنهج البنيوي إلا أنه ليس وصفة جاهزة تصلح لاكتشاف الخواص المميزة لكل نص شعري ، يبوح كل نص بمحوره ومركز الثقل فيه بعد أن يتم إختيـاره بطريقة لا توحى بالقصد إلى اثبات فكرة مسبقة ، والإختصار على المـستوى الثنـائي المباشـر

---

[٤٣] المرايا المحدبة دكتور عبد العزيز حموده- ص٢٨٦ .

[٤٤] نظرية البنائية في النقد الادبي ، دكتور صلاح فضل- دار الشروق – الطبعة الاولى ١٩٩٨- ص ٨ .

مصادرة قد تمنع الباحث من الإستجابة الحرة الواعية للنص وإكتشاف نظامه الخاص ، وقد تحول بينه وبين العثور على البنية الخفية العميقة الكامنة خلف التكاثر الثنائي أو غيره).

وخلاصة الأمر يمكن القول أن تحرك الفكر الفلسفي بين محوري الشك واليقين والموضوع والذات ، والخارج والداخل وهي ثنائيات تمثل المدخل الأساسي والتفسير الوحيد للتفاوت بين المدارس اللغوية حول وظيفة اللغة أي أن التناقضات اللا نهائية في تجريدية لوك تؤدي إلى الشك عند هيوم ونيتشا وتتكرر وتتذبذب بنفس الديناميكية في نظريات اللغة .[45]

ففي فترة اليقين يوجد مركز ثابت للوجود وهو خارج العقل فيقلب القول بمرجعية اللغة التي تصبح وظيفتها عملية مقابلة محددة ، بل إرتباطاً بين الدال والمدلول يؤكد القيمة الإحالية الواضحة للغة ، فالعلاقة بين الألفاظ والأشياء علاقة طبيعية لا تترك مجالاً للغموض، فالألفاظ علامات داخل العقل يستخدمها الإنسان لنقل الأفكار التي ولدتها الأشياء الخارجية.

يمكن القول أن موقف كانط لا يختلف عن موقف لوك حول المركز الثابت ، سواء أكان هذا المركز الثابت خارج العقل في العالم المادي المحسوس عند الواقعيين أم داخل العقل عند المثاليين.

وحينما يسود الشك الفلسفي ، وينتفي المركز الثابت للوجود ، تتحول اللغة إلى علامات لا نهائية الدلالة ، وهكذا يؤدي الشك والإضطراب بين الداخل والخارج إلى (اللعب الحر) باللغة.[46]

الثنائيات والفكر الفلسفي وقد أثرت هذه الثنائية تأثيراً بالغاً في الفكر الفلسفي ثم الفكر البلاغي ويبدو أن قضية اللفظ والمعنى ليست إلا انعكاساً للصورة والمادة وقد بسطت تأثيرها على كثير من مجالات الدرس البلاغي وهذا الإدراك الفلسفي لثنائية اللفظ والمعنى انتقل بكثير من أبعاده إلى الفكر البلاغي وبرغم محاولة الجرجاني الخروج من ثنائية اللفظ والمعنى عندما وجه همه إلى العلاقات الكائنة بين الجمل ظلت الثنائية قائمة حتى آل الأمر إلى تصور ثنائي الدلالة المعنى ومعنى المعنى .

إن النظر في البحث البديعي يؤكد أن رجال البلاغة قد أهمهم تحسس بنية الجملة بحيث يقدمون صورة متكاملة لعناصر العمل الأدبي ، ولقد كان منطلقهم التدقيق في البنيات الجزئية التي

---

[45] مثل النظرية التوليدية النظرية الشعرية ، والتوزيعية ، الوصفية ، التاريخية ، البنيوية .

[46] المرايا المحدبة – د. عبد العزيز حموده – ص ٩٥ - ٩٦ .

تتكون منها البنية في شكلها الجزئي ثم تراكيب البنيات ونجد أن العرب لم تتعامل بظاهر الكـلام ولكنها تستنبط منه دلالات بلاغية كقواعد الخروج عن النحو وقواعد المجاز . (٤٧)

وهنا نشير إلى عمل الدرس اللساني الحديث الذي يبحث عن المقصود العميق وقد عرفت العربية ذلك في تركيباتها المجازية أو البلاغية عامة إذ تخرج من إطار الشكل التركيبي المحـض إلى معنى بلاغي أو أسلوبي عميق ندركه من خلال التنظيم اللغوي للمفردات.

النظم والتفكير :

من المسلم به أن النظم قد يؤدي إلى صورة خاصة في التفكير وقـد يـؤثر فـي طـرق الإستدلال . يقول فندريس في كتابه (اللغة) : (إن اللغة تستطيع في بعض الأحيان أن تعدل عن العقلية وتنظّمها ، فعادة وضع الفعل في مكان بعينه دائما يمكن أن تؤدي الى صورة خاصة فـي التفكير وأن يكون لها أثر في طرق الاستدلال ... إن اللغة إذا كانت مرنة خفيفة مقتـصرة علـى الحد الأدنى من القواعد النحوية ، سمحت للفكرة بالظهور في وضوح تام وأتاحـت لـه حريـة الحركة ، وعلى العكس من ذلك تختنق الفكرة من التضييق الذي يصيبها في لغة جامـدة ثقيلـة ، لكن عقلية المتكلمين تنصرف لتضاد أي مشكلة من أشكال اللغة). (٤٨)

وتحقيقاً لما سبق نجد أن علماء اللغة اكتشفوا من خلال النظم العربي اهتمام العربية بالفعل وغلبت الجملة الفعلية على كلام العرب ، ذلك أننا لو نظرنا الى كتبهم لأهتدينا إلى هذه الظـاهرة وقد أثبت ذلك علي الجارم في مقال له فزعم (أن العقلية العربيـة تقتـضي أن تكـون الأصـل والغالب الكثير في التعبير لأن العربي جرت سليقته إلى الإهتمام بالحدث لا الإهتمام بمن أوقـع الحدث أو ممن وقع منه الحدث. (٤٩)

ويقول السامرائي في كتابه (فقه اللغة المقارن) . ومما يجب الإشارة إليه أن هذه الجملة المصدرة باسم المسند إليه فاعلاً متأثراً بمسند الفعل كثرت في عربيتنا الحديثة ، وسبب ذلك يرجع إلى هؤلاء الكاتبين متأثرين بالأساليب المترجمة ويتبين صدق هذا في الأخبار التي تزيعها وكالات الأنباء، وفي الأقاصيص المترجمة ، ثم سرت هذه الظاهرة إلى كتاباتنا). (٥٠)

---

[٤٧] قال ابن الاعرابي : (سأل الحجاج رجلاً قدم من الحجاز عن المطر ، فقال : تتابعت علينا الاسمية حتى منعت الشفار وتظالمت المعزه وحتلبت الدره بالحرة) – البيان والتبيين الجاحظ ص ١٦٢- ١٦٤ .

[٤٨] اللغة فندريس ص ٣٠٢ .

[٤٩] فقه اللغة المقارنة السامرائي ص55 .

[٥٠] المرجع السابق .

ويعزو رفيق العجم في كتابه (أثر الخصوصية العربية في المعرفة الإسلامية) [٥١] يعزو ذلك إلى تأخر الفاعل في الجملة الأوربية إنما هو لثبوت الشخصية الإنسانية ، فإن ثبـوت هـذه الشخصية ملازم للتفكير الأوربي . ولكن هذا القول واجه إعتراضاً من العقاد [٥٢] والسامرائي [٥٣] فرفضوا هذه التعليلات المنطقية التي ليست صالحة لتفسير الإختلاف بين هـذه اللغـات ولغتنـا العربية ، كما هي ليست صالحة لدراسة أساليب العرب ووصفهم .

وخلاصة الأمر أن الجملة الإسمية موجودة في اللغة العربية [٥٤] وليست مع وجودها قليلة الاستعمال في مواضعها فليس تقديم الفعل على الفاعل فيها عجزاً عن التركيب الذي يتقـدم فيـه الفعل على الفاعل ، ولكنه تقسيم الكلام على حسب مواضعه وتصحيح لموقع الفعل وموقع الفاعل من إرادة المتكلم وفهم السامع ، ومتى تبين لنا الفرق بين موقع الفعل والفاعل في الجملة الإسـمية والفعلية فالاكتفاء بالجملة الاسمية كما تقع في كلام الأوربيين نقص منتقد وليس بالمزية التي تـدل على الكمال والإرتقاء ، ويقول العقاد أن اللغات الأوربية بتراكيبها اللفظية ليـست دلـيلاً لتعليـل الإختلاف بالعقول والأفهام أو بقواعد النحو والبلاغة ، وعلة هذا الإختلاف أن اللغة العربية أوفى وأكمل من اللغات الأوروبية ، وأن اللغات الأوروبية إنتقلت من أطوارها الأولى التـي إزدهـرت فيها قبل أن تتنوع فيها أوضاع الكلمات والجمل على حسب موضـوعات التفكيـر والإدراك [٥٥] . فالعربية كما أثبتت الدراسات تفردت بالجملة الإسمية المحضة دون غيرهـا مـن اللغـات فقـد إستخدمت هذه اللغات فعلاً رابطاً بين جزئي الجملة الإسمية السامية ، وبدون هذا الفعل لا يمكـن تشكيل جملة صحيحة إسنادية . أما الجملة الإسنادية في العربية تتألف أصـلاً مـن إسـمين دون رابطة إسنادية على قرار الرابطة المعروفة بفعل الكون في الهند اوروبية والتي لا يقوم إسناد في هذه اللغات إلا بها أو بالفعل المتصرف. ويلاحظ أن العربية استعانت لإبراز الإسناد بالـضمير ظاهراً أو مقدراً، وبذلك أصبح تقدير الضمير وارداً أياً كان الخبر جامداً أو مشتقاً ، لأنه لا بد من رابط يربط المبتدأ بالخبر ، كما استعانت العربية . وقد يسعى هؤلاء على اختلاف مناهجهم إلـى الحاق الجملة الإسمية بالفعلية بتقدير فعل (الكون) قبل المبتدأ وبعده ونمثل ذلـك فـي (يكـون

---

[٥١] اثر الخصوصية العربية في المعرفة الاسلامية فيق العجم ص ٣٨ .

[٥٢] اشتات مجتمعات في اللغة والادب – العقاد ص٤٣ .

[٥٣] فقه اللغة المقارنة - السامرائي ص ٥٥ .

[٥٤] يرى برجستر سر ان الجملة الاسمية المحضة من اقدم تركيبات اللغات ، غير ان اللغات السامية حافظت على هذه الجملة في حين تخلت عنها سائر اللغات في الجملة الاسمية كثيرة الاستعمال في اللغات السامية دون الاحتياج الى الفعل الرابط بين جزئي الجملة ، اذاً فالمسألة ليست تخص نمطاً قليل الاستعمال الطاريء الوجود بل تتعلق بنوع قديم متأصل في الجمل التي اطّرد استعمالها عبر العصور . مبادي اللسانيات احمد محمد قدور ص ٢٢٢ .

[٥٥] اشتات مجتمعات في اللغة والادب ، العقاد ص ٤٤ .

محمد رسول ا) وعلى الثاني (محمد يكون رسول ا) والجملة أصلاً (محمد رسـول ا)
وليس ضرورياً أن نركب هذا المركب الصعب من التأويل المجرد وجر العربية إلى لغات أخرى لها خصائصها وطرق تراكيبها المختلفة .[٥٦] ونخشى أن تكون مقارنة اللغات أو وصف اللغـات كما هو في المدارس البنيوية أن يكون إختراقاً وتعدياً على خصوصيات اللغة العربية الفـصحى ، ويمكن القول أن المنهج البنيوي بدأ وصفياً بحتاً ثم صار فلسفياً يجر اللغات إلى فكرة العالميـة أو النحو الكلي ، ونتدرع في هذا الأمر بقول إبن جني :(لو أحست العجم بلطاف صناعة العرب وما فيها من الغموض والرقة لاعتذرت من إعترافها بلغتها فضلاً عن التقديم لها والتسوية بينهـا ... وأن العربية إذا وجدت مذاهب العجم لانبهرت منه ، ولكن الأمر بضد ذلك ، ذلك أننا نسأل علماء الغربية فيمن أصله أعجمي وقد تدرب بلغته ، قبل إستعرابه ، عن حال اللغتين فلا يجمع بينهما ، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك ، لبعدها في نفسه وتقدم لطف العربية في رأيه وحـسه ... ولـم نرى واحداً من أشياخنا يسوون بينهما ولا يقربون بين حاليهما ، وكأن هذا الموضع ليس للخلاف فيه مجال عند الكافة .[٥٧]

كما يمكن القول أن ذلك من سلبيات النحو الوصفي الذي يختصر على الوصـف العلمـي المحايد دون أن يتطرق الى الصحة والخطأ ونظر إلى القواعد نظرة جديدة تـرى فيهـا جهـات إشتراك بين حالات متشابهة توصف وتصنف بعد إستقراء الأمثلة والأساليب المتداولة .

ولأن اللسانيات تنهج نهجاً وصفياً ينبذ كل موقف معياري فقد تجاوزت حدود المعياريـة إلى الإهتمام العلمي بالتركيب وصولاً إلى الكليات اللغوية التي تشترك فيها اللغات الإنسانية .

ونلاحظ أن الجانب الفلسفي للدراسة البنيوية يتضح من خلال البحوث اللغوية التي يكـون موضوعها بحوث فيما وراء الطبيعة خاصة وأن أصل اللغات فكرة فلسفية ، بالإضـافة إلـى أن الأحكام الصادرة أحكام ذاتية لا موضوعية بها ، تلعب دوراً كبيراً في إستنباط الأحكام وتوجيههـا الوجهة الفلسفية المناسبة كما هو ملاحظ فيما سبق.

---

[٥٦] مبادي اللسانيات – احمج قدور – ٢٢٢ .
[٥٧] الخصائص – بن جنى – الجزء الاول – ص٢٥٩ .

المبحث الثاني

مفهوم الملكة والاكتساب في الثقافة الإسلامية العربية والثقافة الغربية

أصبح مفهوم الاكتساب اللغوي والملكة اللغوية من المفاهيم الفلسفية التـي تبـارت فيهـا الألسنة وإصطرعت فيها الأقلام .

ونحن في بداية حديثنا عن البناء اللغوي والأنظمة اللغوية لا بد من الوقوف على مفهـوم الملكة والإكتساب أو القدرة والكفاية بالمفهوم الحديث كي نتوصل بذلك إلـى المفـاهيم الفلـسفية والنظريات التي أقحمت في الدراسات اللغوية ، وكانت تلك المفاهيم النواة الأولى لظهـور مبـدأ الثنائية اللغوية [٥٨] الأمر الذي جعل ثنائية الداخل والخارج هي البداية الأولى للإقتحام الثقافي في شئون اللغويات ولا سيما اللغة العربية وبنيتها.

لا شك أن اللغة هي الظاهرة الإجتماعية التي أثارت ما أثـارت فـي مختلـف الثقافـات الإنسانية فهي اللغة والكلام والنظم والخطاب.

والثقافة الإسلامية واحدة من الثقافات التي وقفت أمام هذا المفهوم وقفة علمية جادة ونحن في إطار معالجتنا لهذا الموضوع نقارن مفهوم الملكة في الاكتساب في الثقافتين العربية والغربية لنؤكد أن الحضارات المتباينة تتعايش فيإ زمني واحد والأقرب إلى ذلك التعايش اللغوي ولا سيما الشبه الكبير بين نظرية الجرجاني وتشومسكي يقرب شرح مفهوم الكفايـة اللغويـة أو البنيـة أو مفهوم الملكة والاكتساب عند علماء العرب وعلماء الغرب يؤكد كل ذلـك أن حلقـات المعرفـة الإنسانية لا تتراكم بطريقة طبقية بل تتعايش في شكل ثقافات متباينة بجمعها اطار زمني واحـد،

---

[٥٨] نقصد بالثنائية اللغوية ، الدراسات الثنائية في اللغة المنطوق والمقدر البنية العميقة والسحطية والاصل والفرع في النحو العربي المعنى المباشر والمعنى الايحائي واللغة والكلام . ومن المؤلفات في هذا المضمار الثنائيات اللغوية في اللغة العربية نهاد الموس - ،وعلى رأس هذه الدراسات دراسة النبوية التوليدية – البنية التحتية والفوقية العميقة والسحطية عند تشومسكي والجرجاني او الدراسات التي عكست هذا المبدأ الفلسفي . ولا شك ان هناك فرصة بين الثنائية والازدواجية فالثنائية تمثل لغتين مختلفتين في مجتمع لغوي واحد والازدواجية مستويين مختلفين في مجتمع لغوي واحد كالفصحى والعامية في العربية . انظر الثنائيات في اللغة العربية من عصر النهضة – نهاد الموس – ص١٢٥ .

والحق أن الثقافة العربية الإسلامية عالجت اللغة بطرق مختلفة ، وأن النحاة واللغويين جاءوا من أقل الباحثين عناية بموضوع إكتساب اللغة والإنشغال بجمع اللغة وتحديد النقي منهـا والـشائب، وبذلوا جهوداً كبيراً في تحليل النظام إلى جزيئات مزهلة وبدقة غير عادية.

أما الذين عنوا بإكتساب اللغة من اللغويين فهم تلك الفئة التي حاولت فلسفة اللغة والبحـث عن كليات تـربط بين الإنسان والكلام وأولئك الذين لهم صلة باللغة وعلـوم أخـرى كالتفـسير والكلام والفلسفة [٥٩] وتدل المصطلحات الواردة في موضوع اللغة واكتسابها إلى انشغال الثقافـة العربية الإسلامية بهذه الظاهرة حيث إجتمع الطبع والجبلة والغريزة ، والفطرة والعادة، والـسجية والملكة ولعل إيراد هذه التعريفات الواردة لهذه المصطلحات يكشف عن بعض مكنوناتها الدلالية ، ولعل معجم السيد الشريف الجرجاني يحمل نسبة لا بأس بها من مضامين هذه المصطلحات . [٦٠]

والإشارة إلى هذه المصطلحات ، يهدف إلى تأكيد قضية أساسية وهي أن إكتساب اللغـة موضوع شغل بال العديد من الثقافات وأثمرت هذه المواقف المتنوعة دقة علمية تشير إلـى قـوة الكثافة العلمية في بعض مصطلحات الملكة والجبلة والطبع.

فالـ ـوجود اللغوي بالقوة يمكـ ـ ـن أن يكـون ذا صـلة وثيقـة بمفـاهيم كـالفطرة والإستعدادات التي يتميز بها الإنسان من غيره مـ ـ ـن الكائنات أو مقابلاً لهذا التصور الخلدوني عند كل مـ ـن دي سوبيروتشومسكي[٦١] عند الأول ثنائية تركز على اللغة والكلام ومتمحـورة حول الفروق بين العام والخاص ، وبين المجرد والمحسوس .

وأما الثاني فتتمثل ثنائيته حول القدرة والأداء وهدفها أن تثبت قدرة الانسان الفطرية على الإكتساب [٦٢] إن الثنائية الخلدونية في القوة والفعل والقابلية والأداء لا تحتمل أن يقال أن هنـاك تصنيفاً في التفسير وإخراج النص عن مراده [٦٣] بل أن هذه الوجهة التي ترد عند ابـن خلـدون راسخة مع الفكر الإسلامي المنادي بتميز الإنسان عن غيره من الكائنـات باللغـة والعقـل [٦٤] وثانيهما أن هذه الثنائية وردت عند عدد كبير من الفلاسفة والمفسرون وعلماء الكـلام واكتـسبت بهذا ثراءاً عقلانياً مع مسيرتها الزمنية .

---

٥٩ مثل أبو حيان التوحيدي والفارابي وماوردي .

٦٠ كتاب التعريفات – للسيد الشريف الجرجاني .

٦١ على اختلاف بين الثنائيتين في المنطلق الفلسفي " ومن ثم في الاجراءات التحليلية والغايات .

٦٢ في النص الادبي – دراسات اسلوبية احصائية سعد وصلوح ط ٣ -٢٠٠٢م . ص ٣١ .

٦٣ على اعتبارهم المتغيرات الاسلوبية ، او على متغير اسلوبي حاصية مائزة (Distinctive) .

٦٤ او فضلة (Redundart) هي متغير اسلوبي بالفعل وخاصية اسلوبية بالقوة وهي بذلك قابلة لكشف عن انواع التشكيل الاسلوبي ، ، الذي خضعت له من قبل المنشيء . مثل الصور البيانية التي تكشف عما وراء النص من دلالات ايحائية انظر في النص الادبي – دراسات اسلوبية احصائية سعد مصلوح ص٣١ – انظر وظيفة الصور في البيئة الشعرية) عنوان في كتاب الثنائية صلاح فضل .

ويؤكد ابن خلدون أن اللغة ملكة مستقرة في اللسان : (أعلم أن اللغة في المتعارف عليه هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني فلا بد أن تعتبر ملكة مستقرة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان وهو في كل أمة بحسب إصطلاحاتهم ، وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد الدلالية لتعبر الكلمات فيها على كثير من المعاني من المجرور أعنى المضاف مثل الحروف التي تفضي بالأفعال إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب ، أما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ تخصه بالدلالة ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما تقدره بكلام العرب) .[٦٥]

وهنا إختلاف التصور الخلدوني عن الملكة من تصور تشومسكي ، لأن الملكة عند الأول مقررة في العضو الفاعل فيها وهو اللسان وعند الثاني مقدرة في العقل أو الدماغ ، وهي نظام متميز للدماغ له حالة أولية يشترك فيها البشر جميعاً ، وإذا ما توفر لهذه الملكة التجربة الملائمة إنتقلت من الحالة الأولية اإلى المستقرة نسبياً وتتضمن الحالة المحصلة لغة مبنية داخلياً (إمتلاك لغة خاصة)، وهذا ما سنبسط القول فيه أثناء حديثنا عن الملكة اللغوية أو الكفاية عند تشومسكي .

ونلاحظ في النص السابق أن ابن خلدون جعل الأفضلية لملكة اللغة العربية عن ملكة الأعاجم ولا سيما في الإيجاز ، وهنا إشارة إلى الأحوال والهيئات التي تصاحب مفردات العربية للإبانة عن المقاصد .[٦٦] يقول: (والبيان والبلاغة في اللسان المضري أكثر وأعرق لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها ويبقى ما تقتضيه الأحوال في تأدية المقصود لأنها صفاته وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بالألفاظ وتأليفها من تقديم وتأخيرأو حذف أو حركة إعراب وقد يدل عليها بالحروف المستغلة ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في البيان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات ... فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل من جميع الألسن).

وبهذا لم تكن ملكة العربية للمتعلم حفظاً لمفردات معانيها كبقية اللغات بل الحصول على ملكة العربية من خلال الأمثال والشواهد وأن تحزو حزو العرب في تركيبهم للمعاني المصاحبة للأحوال، فحصول الملكة من خلال البيئة التي تتيح للغة فرصة الظهور بها .ولما كانت اللغة مجموعة من العادات التي يكتسبها كل إنسان في بيئته المحيطة به ، فلا داعي لبذل جهود كبيرة في تعليم قواعد اللغة ومصطلحاتها التحليلية ، أما المعنى والدلالة فلم تلق العناية لإرتباطها بالعقل والمعرفة. [٦٧]

---

[٦٥] مقدمة بن خلدون (ج) ص ٥٤٦ واكثر ما تميزت به العربية الايجاز .

[٦٦] مقدمة ابن خلدون (ج) ص ٥٥٦ .

[٦٧] بحوث في اللغة والتربية – محمد خليل عمايده – دار وائل – عمان الأردن – الطبعة الأولى (٢٠٠٢م) -ص ٥٦٢ .

ويقول ابن خلدون (لو فرضنا صبياً من صبيانهم نشأ وربى في جيلهم فإنه يتعلم لغتهم ، ويحكم شأن الإعراب والبلاغة فيها حتى يستولى على غايتها ، وليس من العلم القانوني في شيء إنما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه ، وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعـد ذلـك حيـث تحصل الملكة ويعتبر كواحد ممن نشأ في جيلهم وربى بين صبيانهم والقوانين بمعزل عن هذا ...) .[٦٨]

ونلاحظ أن ابن خلدون له ركائز ثابتة في الملكة وتحصيلها وهذه الملكة إنمـا تحـصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه ، وليست تحـصل بمعرفـة القوانين العلمية لأن اللغة في إصطلاحها ملكة يمكن تعلمها من سائر الملكات وبهـذا تقـرر (إن حصول ملكة اللسان العربيإ هو يكثره الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المقال الـذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه وتتنزل بذلك منزلة من نشأ منهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة واعتبر ابن خلدون الملكات صناعات لا يتم حصولها إلا بالتكرار والمران ، وهذا أسلوب تعليمي واضح يجعل الملكة تجربة وممارسة وليست بديهية ناتجة مـن (الحدس) [٦٩] كما إعتبرها بعض علماء الغرب وعلى رأسهم تشومسكي.

فالغربيون إعتبروا الملكة في الدماغ وحصولها أمر بيولوجي مقدر في دمـاغ الإنـسان ، فهي بديهية فطرية [٧٠]، أما ابن خلدون جعلها كسباً لهذا العضو الفاعل عـن طريـق الممارسـة والتكرار لأن الملكات في منطقه صناعات ، ويشير إلى ذلك بقوله :(أعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحـسب تمـام الملكة او نقصانها وليس ذلك بالنظر إلى المفردات انما هو بالنظر إلى التراكيـب وإذا حـصلت الملكة الثانية في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الـذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة ، والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صـفة ثـم

---

[٦٨] المرجع السابق (ج) ص ٥٦٣ .

[٦٩] الحدس اللغوي هو مقدرة متكلم اللغة على اعطاء معلومات حول مجموعة من الكلمات المتلاحقة من حيث انها تؤلف جملة صحيحة او جملة متزحة من قواعد اللغة فاستباق قواعد اللغة عند لانسني تنتج من الحدس اللغوي ، أما اللغة العربية الفصيحة لا يدركها الكتكلم والمستمع العادي بل هي ملكة يتحصل عليها بالاطلاع والاستقرار وحفظ شواهد العربية ، بل نحصل له ملكة من كثرة قراءة شعراء العرب ليدرك البيت المكسور من البيت الموزون .

[٧٠] افترض العلم الحديث ان تمركز اللغة في احد شقي المخ فطري في الاساس وخصوصاً بالنسبة للجنس أما الملكة غير الطبع فهي مقررة في اللسان وهو العضو الفاعل للغة .

انظر سيكلوجية اللغة والمرض العقلي – سيد يوسف جمعة – ص ١٤٢

تتكرر فتكون حالاً ومعنى الحال إنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكـة أي صـفة راسخة) . (٧١)

وهذا تعريف واضح للملكات وكيفية تكوينها في عقل الإنسان ، وأسلوب تعليمي واضـح المعالم لكيفية حصول المرء على ملكة لغة ثانية ، وتحديد خطة واضحة المعالم لبنـاء الملكـات وأشارإلى أن طالب العلم يحصل على علم اللسان ولا يحصل على الملكة .

ومن المؤكد أن طالب العلم قد يسلك في مدارج العلماء فيعرف شيئاً عن النظام وقد يعرف الكثير عن الأنظمة اللغوية ولكن هذه المعرفة إنما تفيد علماً بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكـة بالفعل بمحلها .(٧٢)

وينبه ابن خلدون أن الملكة غير الطبع ، فالملكات تكتسب من أعـراف التخاطـب فـي الأمصار ، والأمصار تتعرض للفتح والإختلاط بين الأجناس ، وكل هذا يؤثر في نوع الملكـات التي يكتسبها أبناء تلك الأمصار (٧٣) والحكم بفساد لسان أو صلاحيته ليس أمراً لغوياً كما أشـار إلى ذلك بن خلدون ، وإنما هو أمر إجتماعي يحكم عليه بمقدار مغايرة لغة أهل اللسان للغة مضر التي نزل بها القرآن (٧٤) ويعرض ابن خلدون لمسألة الثنائية اللغوية ، إتقان لغتـين أمـر سـائر وممكن لأن اللغة عنده صناعة وملكة ويبين إن وصول المتعلم الأجنبي إلى مستوى الـتمكن مـن اللغتين أمر صعب والسبب في ذلك أنه كما بيناه ملكة في اللسان فإذا سبقت إلـى محلـه ملكـة أخرى قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة لأن تمام الملكة وحصولها للطبائع التي يدل علـى الفطرة الأولى أسهل وأيسر وإذا تقدمتها ملكة أخرى كانت منازعة لها في المادة القابلة وعائقة عن سرعة القبول فوقعت المنافاة وتعذر التمام في الملكات الصناعية كلها. (٧٥)

ويؤكد ابن خلدون أن الملكة غير الطبع ، وهنا فرق بين عمل اللغة وصـناعتها وطبيعـة الإنسان الفطرية لمعرفة اللغة فيقول : (إن اللغات لما كانت ملكات كما مر كان تعلمها ممكناً شأن سائر الملكات ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفـظ كلامهـم القديم الجاري على ألسنتهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب وأشعارهم حتى يتنزل لكثرة حفظه كلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم).

---

[٧١] مقدمة بن خلدون – الجزء الأول – ص ٥٥٤ .

٧٢ المرجع السابق – ص ٥٥٨ .

[٧٣] وهذا رد واضح للدراسات اللسانية الغربية والنظريات اللغوية التحليلية والتركيبية التي حاولت أن تفسر اللغة العربية تفسيراً تركيبياً أو ذهنياً منطقياً رياضاً ، وجعلت حكومة اللغات ذهنية وليست اجتماعية ، فاهتمت بدراسة الأنظمة اللغوية بعيداً عن السياق التاريخي والاجتماعي والفكري .

[٧٤] مقدمة ابن خلدون ج ١ – ص ٥٥٨ .

[٧٥] المصدر السابق ج١ – ٥٦٨ .

وذلك يوضح الفرق بين الإنسان والحيوان في القدرة الفطرية على إستخدام اللغـــة و إستعداد الطفل البشري لتمييز الأصوات التي تستخدمها اللغة الأصلية ، وفهم مضامينها ، وتعلـم استخدام هذه الأصوات بسرعة وكفاءة لا قبل للحيوان بها ، يثير عدداً من الأسئلة عن التكوينـات البيولوجية ووظائف هذه التكوينات في الكائن البشري .[٧٦] فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عـن ذلك اللسان الأصلي أبعد لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم كما قلنا ، وهذه ملكة ممتزجة من الملكـة الأولى التي كانت للعرب ومن الثانية التي للعجم فعلى مقدار ما يسمعونه من العجم ويربون عليه يبعدون عن الملكة).

ولا شك أن الملكة في نظر ابن خلدون تكون الطرف الثاني من موضوع اللغة وأن العمق الذي يتناول هذه الملكة من الأمور المزهلة ، فيحدد دلالتها وطرق تكوينها والعوامل الاجتماعيـة المؤثرة فيها ويفصل بين قضية أثر ملكة على أخرى وبين علاقات المهارات اللغويـة وخاصـة السمع بهذه الملكة [٧٧] ويصدر بن خلدون موقعه عن وجود ملكتين عند الشخص الواحد قـد بـدأ يجد طريقة عند بعض العلماء المحدثين ومنهم اللغويين والأطباء المتخصصون وبعـض علمـاء النفس الذين رأوا اللغتين تتجاوران ولكنهما مستقلتان ، وعند مجموعة أخـرى تتعـايش اللغتـان بطريقة مشتركة فهل العلاقة بينهما علاقة منفصلة أو مشتركة ؟ .

فاللسانيات اللغوية الغربية جعلت العمليتين متداخلتين ، وخاصة عندما سلّطت الضوء على عملية النطق ، ووجدت أن نُطق أصوات اللغة الأم يؤثر في نطق أصوات اللغة الثانية ، ومثلـت ذلك بمخروطين متقابلين من جهة رأسيهما حيث يقع على رأس كل واحد منهما نطق اللغة ، وتقع القواعد اللغوية الصرفية في الوسط ، لأنها الضابط الذي يضبط العلاقة بين المفردات التي تتألف منها تراكيب مقبولة ، تقابل المخروطين دون تداخلهما يشير إلى بداية تعلم اللغة الثانية ، وعنـدما يتداخلان يظهر تأثير نطق اللغة الأم في اللغة الثانية . [٧٨]

أما ابن خلدون يقرر على وجود كل من الملكتين بصورة مستقلة قائمة بنفسها يطول فـي هذا الصدد : (فلأن البعد عن اللسان ، إنما هو بمخالطة العُجمي فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي ابعد ، لان الملكة إنما تحصل بالتعليم ، كما ذكر ، وهذه ملكة ممتزجـة

---

[٧٦] سيكولوجية اللغة والمرض العقلي – سيد جمعة – ص ٥٧- ٦٨ (يفهم نص العبارة عن المقاصد منهم ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في تمييزه على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاءه وحفظه من أساليبهم وتركيب ألفاظهم فتحصل له هذه الملكة وتحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع والفهم الحس لمنازع العربية وأساليبهم في التركيب – مقدمة بن خلدون – ج ١ – ص ٨٥٩ .

[٧٧] المرجع السابق – الجزءالاول- ص ٥٥٨ .

[٧٨] اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج – د. سميرشريف – عالم الكتب الحديث- الطبعة الاولى ٢٠٠٥م – ص ٤٥٤ – انظر (كفايات العلم اللغة الثانية ومشكلاتها وتعلمها) .

من الملكة الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم ، فعلى مقدار ما يسمعونه مـن العجم ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى .[٧٩]

ويقول الدكتور عمايرة : (من الواضح أن ابن خلدون يميل إلى النظـر إلـى أن الحيـز الذهني واحد، وما يحصل عن متعلم اللغتين أو الملكتين هو زحام بينهما وليس تعاوناً). [٨٠]

ومن الواضح أن بن خلدون قد سبق عصره في الحديث عن موضوع الملكة الذي أصـبح الآن مفهوماً من المفاهيم الفلسفية التي أدت إلى ظهور نظريات معرفية حديثة،[٨١] اهتمت بإنتـاج اللغة والكفاءة اللغوية ، وتركيزهم على القدرة الإبداعية في استخدام اللغة ، والتي تعنـي عنـدهم قدرة المتكلم والمستمع على إنتاج وفهم العديد من الجمل التي لا يحدها عدد، ومن هنا كان إهتمام الغربيين بالجانب المادي أو المرئي والأثر الو راثي المعنوي ، وبالتالي ظهر المنهج الوصـفي – كأحد فروع علم اللغة بالمعرفة التي ينبغي للناس إمتلاكها لكي يتكلموا اللغة ويفهموها وهـو مـا جذب إنتباه علماء النفس [٨٢] لأن يفسروا طبيعة العقل البشري على إكتساب المعـارف ، وبنـاءاً على ذلك بدأ علماء النفس يولون قدراً من إهتمامهم لعلم التراكيب .

كشف ابن خلدون عن وعيه الكلي بوظيفة اللغة ونظر إلى اللغة نظرة وظيفية فـالعلوم عنده علوم مقاصد والعربية والمنطق وأمثالها لا ينبغي أن ينظر إليها إلا من حيث أنه آلـة لـذلك لغير فقط ولا يوسع فيها الكلام وتفرع المسائل لأن ذلك مخرج لها عند المقصود منها وما هي آلة له لا غير.[٨٣]

وهـذه إشارة إلى أن عمل اللسانيات الحديثة التي جعلت اللغة غاية بل جعلت اللغة هي الفكر [٨٤] واللغة هي العالم المدرك ، وصاروا من وراء ذلك إلى علمنة اللغة وهذا رد حاسم مـن ابن خلدون وأعتبر هـذا كل الأعمال لغو مخرج عن المقصود ، بل ربما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع أن شأنهم أهم والعمر يقـصر عـن تحـصيل الجميع لهذه الصورة . [٨٥]

---

[٧٩] مقدمة بن خلدون – الجزء الاول – ص ٥٥٨ .
[٨٠] بحوث في اللغة والتربية – محمد خليل عمايره – ص ٥٣٤.
[٨١] انظر سيكلوجية اللغة والمرض العقلي – سيد جمعة – ص ٧٨ .
[٨٢] من النظريات الحديثة لمعرفة اللغة النظرية التوليدية التحويلية للعالم الغربي تشومسكي .
[٨٣] المرجع السابق – الجزء الأول – ص ٥٦١ .
٨٤ انتهى واتسون مؤسس المدرسة السلوكية التفكير هو اللغى اما فيجوتكسي وبياجيه يريا العقل بين اللغة والتفكير أما الأتجاه الثالث يرى أن اللغة هي الوعاء الذي يقدم الفكر من خلاله . أنظر سيكولوجية اللغة والمرض العقلي – د. سيد جمعة ص ١٢٢ – ١٢٥ .
[٨٥] مقدمة أبن خلدون الجزء الأول – ص ٥٥٨ .

فالإبحار في العلوم التي هي آلة لغو مضر لمتعام اللغة ويخرج اللغـة عـن وظيفتهـا الإنسانية ، وهي عبارة المتكلم عن مقصوده فتلك العبارة فعل لساني وليس عقلـي كمـا زعمـوا بعض علماء الغرب . [٨٦]

ويشير ابن خلدون إلى إجتماعية اللغة ، لأنها تختلف في كل أمة في حسب إصطلاحاتها فالملكة عنه حفظ سائر كلام العرب ، وتستقيم الملكات بمعرفة القوانين فقط ويقد مقارنة بين الملكة والعلم بقوانين الملكة أو اللغة والعلم بقوانين اللغة ، الخياطة ومعرفة قوانين الخياطـة والنجـارة وقوانين الخشب ، أن صناعة العربية أن ما هي مهرفة قوانين هذه الملكة ومقايسها الخاصة . [٨٧]

وجه نقداً لأزعاً للنحاء ضمنه في حديثه عن الصناعات قـائلاً (فـأن يقـول بـصير بالخياطة غير محكم لملكتها بالتعبيير عن بعض أنواعها ، الخياطة هي أن ندخل في الخـيط فـي خرت الأبرة ثم يفرزها في نقد الثوب مجتمعين فيجردها في الجانب الآخر بمقدار كذا ثم يردهـا إلى حيث أبتدأت ويخرجها قدام منفزها الأول . يخرج ما بين الثقفبين الأولين ثم يتهاوى على ذلك إلى أخر العمل فيعطي صورة الحبك والتثبيت والتنقيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالهـا وهـو إذا طولب بهذا العمل أو شئ من لم يحكمه وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع العلم بهذه الملكـة فـي نفسه فأن العلم بقوانين الإعراب أنما هو علم بكيفية العمل ولذلك نجد كثيراً من جهـابزة النحـاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين وإذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه ... لم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي وكذلك نجد كثيراً من يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور أن تلك الملكة غير صناعة العربيـة لأنهـا مستغنية عنها بالجملة) .[٨٨]

وأضح أن ابن خلدون فرق بين اللغة والعلم بقوانين اللغة ولذلك ولذا إعتبر كتاب سبويه مؤلفاً لبناء الملكات وليس مؤلفاً لقوانين العربية ، (بحسب إحتوائها على كثير من أمثال العـرب وشواهد أسفارهم ، فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة فنجد العاتق عليه والمحصل له قـد حصل حظ من كلام العرب ، وإندرج في محفوظه في أماكنهم ومفاصل حاجاتهم وشبه به شـأن الملكة فاستوى تعليمه وكان أبلغ في الإفادة من المخالطين من كتاب سيبويه ، من يقفل عن التفطن لهذا ويحصل على علم اللسان ولا يحصل عليه ملكة) . [٨٩]

---

[٨٦] أنظر كتاب الغريزة اللغوية كيف يبدع العقل اللغة تأليف استيفا بنكر – تعريف الدكتور حمزة قبلان النزيمي – دار المريخ للنشر . الإبداع في اللغة والحوسبة أنظر الفصل السابع من كتاب اللسانيات المجال والوظيفة المنهج – د. سمير شريف – ص ٥٦٢ – ٥٦٤ .

[٨٧] مقدمة أبن خلدون الجزء الأول – ص ٥٥٨ .

[٨٨] المرجع السابق – الجزء الأول – ص ٥٦١ .

[٨٩] المرجع السابق .

فالذي رفع كتاب سيبويه إلى هذه المكانة المرموقة هو كثرة شواهده التي تدرب المتعلم وتقود خطواته إلى مدارج الملكة ، فأما اولئك الذين لا يفتطنون إلى هذا الجانب الأدبي من كتـاب سيبويه فقد يحصلون على المعرفة ولكنهم يصدون عن تحصيل الملكة (ومن هؤلاء المخالطين من كتاب سيبويه من يقفل عن التفطن لهذا فيحصل على علم اللسان ولا يحصل عليه ملكة) .

وهنا يشير ابن خلدون إلى كيفية تعلم اللغة وطريقة تعلم الإنسان لها تتحد عن طريـق تعلمها بطريقة تنمي الملكة صارت اللغة من ضمن الوسائل ، تعلم قوانينها فاللغة بالنسبة له بعيدة المسلك والمنال .

وهنا إشارة بعيدة كما تنبئ بها ابن خلدون من أن دراسة قوانين اللغة ونظمها وقواعدها بعيدة المسلك فهي غير مقصودة في ذاتها ولا غاية في نفسها ، ونشير في ذلك إلـى الدراسـات اللسانية الحديثة التي جعلت جل اهمامها محاولة البرهنية على الوجود السيكولوجي النحوي علـى أساس البناء والتراكيب ، ولا سيما مفاهيم تشومسكي حول بناء العبارة والتحويلات وإشتقاق البنية السطحية من الجملة أو ربط البنية السطحية بالمعنى العميق النظريات النحوية الحديثة من توليدية وتحويلية [٩٠] وتوزيعية ونظامية وتكاملية . [٩١] وكل ذلك نابع من أثر دراسات علم النفس اللغـة بالتسأل على كيفية تمثل الجمل في الذاكرة ، وأصبح الإدراك وظيفة معرفية نشطة تعـي وتفهـم وتنظم وتستخرج المعاني والدلات وهو عملية القيام بالتحليل والتركيب ، وبناءاً على ذلك وقد بدأ علماء النفس يولون قدراً من إهتمامهم بعلم التركيب الذي كان لم يشغل لهم بالاً ، وخصوصاً بعد أن قدم اللغوي الشهير تشومسكي (١٩٥٧م) نظريته باللغة القائمة على أساس نسق مـن القواعـد البنائية التي تمكن متكلم أي لغة من أن تمتد بين الجمل النحوية وسلاسل الكلمات غيـر المفيـدة بقواعد نحوية ، ومن الملاح أن الناس يفعلون ذلك دون أن يكون قادرين على ذكر القواعد التـي ترشد أدائهم . [٩٢]

وقد نشأ على يد تشومسكي أتجاه أخر على دراسة اللغة يسمى الإتجاه العقلي ويرى أن هنالك حقيقة عقلية تكمن ضمن السلوك الفعلي . وكل أداء كلامي يخفي وراءه معرفـة ضـمنية بقواعد معينة وتعتبر اللغة في ظل المبدأ العقلي تنظيماً عقلياً فريداً من نوعه تستمد حقيقتهـا مـن حيث أنها أداة للتعبير والتفكير .

---

[٩٠] القواعد التوليدية هي إكتشاف القواعد الضمنية الكامنة ضمن الكفاءة التي تقود عملية الكلام التي يكتسبها الطفل .

[٩١] اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج – د. سمير شريف – ص ١٧٣ – ٢١٥ .

[٩٢] سيكولوجية اللغة والمرض العقلي د. سيد جمعه - دار غريب للطباعة القاهرة – الطبعة الثانية (١٩٩٧م) – ص ٧٨ – ٨١ .

ويؤكد تشومسكي في ذلك أن الطفل من خلال إتقانه للقواعد التي تحكـم بنـاء لغتـه ، يظهر نوعاً من الإبداع في استخدام اللغة وفهم تلفظات الآخر وإن كانت جديدة .

أن اللغة مهارة مفتوحة النهايات وكل من يستطيع استخدامها يمكنه إنتاج وفهم جمل لـم يسبق له استخدامها وأكثر من ذلك أن للطفل مهارة لغوية فطرية تسمى جهاز إكتساب اللغة ، وهو ميكانزم افتراضي داخلي يمكّن الأطفال من السيطرة على الإشارات القادمـة واعطاءهـا معنـى وإنتاج استجابة وتقوم قواعد اللغة عند الأطفال بطريقة طبيعية ، حتى وأن كانوا ينتمون لمستويات شديدةو الإختلاف ، وتطاع القواعد في حدود معينة دون أن يظهر ما يدل على فهمها . (٩٣)

ويرى تشومسكي أن التمييز بين الكفاءة اللغوية والأداة اللغوي ضرورة أساسـية فـي وصف اللغة فيعين مهمة عالم اللغة قائلاً (أن مهمة عالم اللغة تكمن في أنه ينطلق من معطيـات الأداء اللغوي وليحدد نظام القواعد العميقة الذي يستعمله كل من المتكلم والمستمع في أداء لغـوي فعلي بعد أن يكون قد ملكه . (٩٤)

ونحن إذ نذكر مجهودات الغرب في هذا المضمار ، نبرهن من خلاله على ما قاله ابن خلدون أن العلم بقوانين العربية لا يعني العلم بقوانين الملكة ، فالكفاءة اللغوية عنده تتحـدد مـن كثرة مدارسة الشواهد الأدبية وحفظها ومطالعتها . وليس العلم بقوانين النظم ، وهنا إختلف مفهوم الإكتساب اللغوي عند الغربيين والعرب ، ولا سيما ابن خلدون وتشومسكي في أن الأول يجعـل المقدرة دربة ومران بعد الإستعداد الفطري والغريزي ، والثاني يجعل بإتجاه العقلي هو المسيطر بطبيعته الفطرية على إنتاج وفهم اللغة فاللغة إبداع يستخدمه الفرد دون قيود عن طريـق قواعـد النحو .

ركز أبن خلود على التعلم بالتالي صارت اللغى عنده وسيلة أما تعلـم قوانيهـا بعيـدة المسلك والمنال وهنا إشارة جليلة إلى وظيفة اللغة بقصد المنفعه والاتصال وليس بقصد التحليـل والتعليل والفك والتركيب ، بل صار به الأمر إلى ترجيح برنامج تعليمي على آخر ، وكل ذلك في إطار المعيار الوظيفي للغة أي استعمال اللغة وليس تحليلها ، يقول (وأهـل الـصناعة العربيـة بالاندلس ومعلموها أقرب إلى تحصيل هذه الملكة وتعلمها من سواهم حسب قيامهم على شـواهد العرب وأمثالهم والتفقه في كثير من التراكيب في مجالس تعليمه فيسبق إلى المتبدئ كثيـر مـن الملكة أثناء التعليم فتنقطع النفس لها وتستعد إلى تحصيلها وقبولها ... (٩٥)

---

[٩٣] سيكولوجية اللغة والمرض العقلي د. سيد جمعه - دار غريب للطباعة القاهرة – الطبعة الثانية (١٩٩٧م) – ص ٧٢ – ٧٣ .
[٩٤] المرجع السابق – ٤٥ .
[٩٥] مقدمة أبن خلدون – الجزء الأول – ص ٥٦١ .

(أما معلمي المغرب قد أخرجوا صناعة العربية مجرى العلوم بحثاً وقطعوا النظر عـن التفقه في تراكيب الكلام المعرب إذا أعربوا شاهداً ورجحو مذهباً من جهة الإقتضاء الذهني ومن جهة محامل اللسان وتراكيبه) . (٩٦)

وفي هذا النص إشارة لافتة إلى أن العلوم اللغوية أو العلم بالملكة بخلاف العلم بقوانين الملكة ، إذ الملكة طبع للعلم بها صناعة وأي بحـث لا يوافـق التراكيـب والأسـاليب العربيـة المتعارف عليها من قبل الملكات بحث منطقي يقتضي صناعة جدلية . (٩٧)

بخلاف محامل اللسان وتراكيبه وتلك القوانين كانت عوناً للحصول على ملكة ومعرفـة اللسان معرفة جيدة ، لكن عللوها أضافوا إليها قوانين منطقية ابعدت المتعلم عن اللسان العربي ، لأن حصوله ليس بتركيب مقولات منطقية أنما بحفظ سائر كلامه . ولهذا وجه ابن خلدون حملـة لازعة على النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم على التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأن اللسان العربي فسد اعتباراً بما وقع بآواخر الكلم من فساد الإعـراب الـذي يتدارسون قوانينه وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألقاها القصد في أفئدتهم ، وإلا فنحن نجـد اليوم الكثير من الفاظ العرب لم تتزل في موضعها الأول . (٩٨)

وإذا كان هذا تعليق ابن خلدون ، ما دخل النحو العربي من المقاييس المنطقيـة ، ومـا أصاب الإعراب من فساد فما باله لو سمع ما أحدثه الغربيون من دراسات منطقية جدلية لدراسـة بنية اللغة ، بل جعلوا اللغات كلها تسعى لأنماط عليا أو نموذج مثـالي كلـي ، يجعـل اللغـات الإنسانية كلها تشترك في قواعد النحو أو ما سموه قواعد النحو الكلي ، وما طرأ على المعنى من دراسات عميقة كامنة خلف الصور البيانية إذ كان بهذا العهد ، فبلاعتنا العربيـة لهـذا العـصر إنحرفت إلى علم الأسلوب الحديث أصبح المجاز والكناية والإستعارة إنحرافات عن العمود الثابت للعربية ، وأصبحت غاية في نفسه ، بل بنية الشعر ومضامينه تتحد لمعرفة أنماط الصور البيانية الواردة في النص وهي في تفسيرها لمعنى النص تابعه لانماط عليا آخرى تمثـل نـسقاً ثابتـاً أو منظومة دائرية ، وأي خروج عن هذه الإنساق يعتبر خروجاً عن اللغة ، وهذا بعـض دعـاوى البنيوية ، كما سنرى ذلك من خلال بحثنا هذا الذي أثرنا أن يكون المدخل الأساسي للدراسة فيـه ينطلق من مفهوم الملكة والإكتساب والقدرة والكفاية وصولاً إلى التفريق بين اللغة والكـلام عنـد دوسوسير ، والبنية العميقة والسطيحة عند تشومسكي ، الملفوظ والمقدر في عرف النحاة العرب

---

[٩٦] المرجع السابق – ص ٥٦٢ .

[٩٧] مثل ما سنجده في الدراسات البنيوية التي تجعل التحويل والفك والتركيب أساساً لدراسة النظم اللغوية وتتمثل ذلك في مدارسها المختلفة من توليدية وتحويلية وبنيوية أدبية وذلك ما سنجده في سناء هذا البحث .

[٩٨] مقدمة أبن خلدون الجزء الأول – ص ٥٥٦ .

والأصل والفرع لتطبيق النحو والإزدواجية اللغوية حيث الفسحى والعامية وما تشاكل من عناصر أنبثقت من الفكر البنيوي ودراسات بنيت على الفلسفة التشومسكية .

ولما كان الإبداع هو القاسم المشترك بين اللغات الإنـسانية لاحـظ تشومـسكي مـن الضروري أن تكون النظرية اللغوية مبنية على مراعاة ما هو مشترك في الذهنية اللغويـة لـدى أبناء الثقافات اللغوية المختلفة ، مع التركيز للخصوصيات كل لغة بل بما كان الخصوصيات مـن دلالة في بعض الظواهر اللغوية على الأصل المشترك . [(٩٩)]

الكفاءة اللغوية والأداء :

تتكون اللغة من قائمة من الإشارات وقائمة من القواعد الأساسية الناظمة لتركيـب هـذه الإشارات ، فتطابق القائمة الأولة مع الكفاءة اللغوية بوصفها إتقاناً للنظام اللغوي والأداء بوصـفه الاستعمال اللغوي لهذا النظام ، أما القائمة الثانية قائمة قواعد الإشارات والرموز تكون المكونات التبادلية . [(١٠٠)]

عرف تشومسكي الكفاية بأنها القدرة على بناء أنموذج لغوي ذهني مشترك بين المرسـل والمستقبل هيكله الصوت ولحمته الدلالة وعلى أساسه تتمثل القواعد اللغوية .

وتتضمن الكفاية اللغوية مهارات ذهنية متعددة من أهمها التصور الـذي يجعـل كلامنـا منظماً ، ثم التتابع الذي يجعل المهارات الذهنية قادرة على الالتقاء والاستمرار ثم الاستدعاء الذي يجعل اللغة مطواعاً للحضور في المواقف الحياتية ، ثم الاختيار الذي يجعلنا قادرين على انتقـاء التعبير المناسب لكل موقف ، ثم التقويم الذي يجعلنا نحكم على سلامة لغتنا أو خطئها . [(١٠١)]

وتعتبر قضية الكفاءة من القضايا الشائعه في الدراسة اللغوية في الوقت الراهن والتركيز على المعرفة الضمنية بالقواعد التي تؤلف بين الأنماط النحوية ، والمفردات المعجمية والأشـكال الصوتية للغة والقدرة على انتاج أي شكل أو نمط لغوي وكذلك القدرة على فهم ما ينتجه الآخرون ويحد تشومسكي المعنى الإصطلاحي للكفاء بقوله (الكفاءة تشير إلى قدرة المتكلم المستمع المثالي على أن يربط بين الاصوات والمعاني طبقاً لقواعد لغته ويعتبر النحو نموذجاً للكفاءة المثالية الذي يمدنا بعلاقة أو رابطة بين الصوت والمعنى) . [(١٠٢)]

---

[٩٩] اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج د . سمير شريف – الطبعة الأولى الأردن (٢٠٠٥م) – ص ١٧٣ .
[١٠٠] نحو نظرية إسلوبية لسانية ترجمة خالد محمود جمعة – الطبعه الأولى (٢٠٠٣م) – دار الفكر دمشق – ص ١٩٥ .
[١٠١] اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج – د. سمير شريف – ص ١٧٧ – ١٧٨ .
[١٠٢] سيكولوجية اللغة والمرض العقلي – سيد جمعه – ص ٤٤ .

ومعنى هذا أن القدرة على انتاج اللغة وفهمها تسمى الكفاءة وهذه الكفاءة بمثابـة مقـدرة تجسد العملية التي يقوم بها بهدف صياغة الجملة من هنا كان هدف تشومسكي إكتشاف القواعـد الضمنية الكامنة ضمن الكفاءة .

نقف قليلاً هنا ونرجع إلى ما قاله ابن خلدون عن الطبع والملكة واعتبر ابن خلدون الملكة أمر جماعي يحكم عليه بمقدار مغايرة لغة مضر التي نزل بها القرآن الكريم .

وهنا يثار سؤال هام حول الكفاءة ، وتحدث عمايرة عن الكفاءة في كتابه (بحوث في اللغة والتربية والثقافة) مورداً عدة تساؤلات :-

* ما الكفاءة اللغوية ؟ .
* هل هي اتقان أصوات اللغة ؟ .
* هل هي معرفة مفرداتها وتراكيبها ؟ .
* هل هي معرفة قواعد العربية وحفظ الألفية وشرحها ، ثم اهي كفاءة أم كفاءات ؟ .
* هل تشمل الكفاءة العربية الفصحة ولهجاتها ؟ .
* وأين الثقافة من موضوع الكفاءة ؟ .
* هل الثقافة هي القدرة على التعامل مع الموضوعات اليومية ؟ .
* أين خصوصيات الثقافة في عمق نظرتها للإنسان والكون وبساطة الممارسات اللغوية العادية ؟ .

للبحث العلمي مساهمات جادة وعلامات هادية في طريق الوصول إلـى فهـم ناضـج للكفاءة اللغوية ومحاولة اللسانيات أن تميز بين الكفاءة اللغوية والأداء اللغوي ، ويعد الأداء أساساً مهماً في نظرية الكفاءة اللغوية وذلك يوضح أهمية الكفاءة كاساس لأي نظرية .

النظريات المفسرة لاكتساب اللغة في الثقافة الغربية :

يعتبر نموذج الكفاءة والأداء هو السبب وراء ظهور مصطلحي البنية العميقـة والنبيـة السطحية وهما يمثلان ركيزة البحث اللغوي عند التحويليين .

عند محاولة استخدام نظرية نحوية شكلية كنموذج للسلوك اللغوي البـشري ينبغـي أن نؤكد التمييز بين الكفاءة والأداء ، وتفترض النظرية الشكلية أن الكفاءة توجد في مكان ما في شكل ما ، في عقل مستخدم اللغة ، وهي قدرته على الأداء بطرائق معينة وبالتالي فإن الكفاءة اللغويـة هي النموذج لما يفترض وجوده في عقل المتكلم .

وهي هنا أن القدرة على انتاج اللغة وفهمه تسمى الكفاءة هذه الكفاءة حصل عليها الإنسان من خلال مراحل إكتسابه اللغة .

لما كانت اللغة هي سلوك العقلي المعقد أتجهت الدراسات السيكلوجية لمعرفة عمليات فهم اللغة وانتاجها واكتسابها ومن هنا ظهر علم النفس اللغوي بنظرياته المعرفية المتعددة ليدرس القواعد التي تحكم السلوك اللغوي ، فتدرجت الدراسات من الخصائص الفيزائية المتصلة بالسمع إلى الجوانب النفسية الإجتماعية ، وحاولت الدراسة النفسية للغة كنظام أن تكتشف العوامل السيكلوجية المعرفية والإدراكية المتضمنة في استخدام اللغة .

وبناءاً على هذا الإهتمام النفسي برزت العديد من النظريات التي تفسر كيف يتم إكتساب اللغة ، وأنحصرت النظريات في ثلاث نظريات علمية :- [١٠٣]

(١) نظريات التعلم الشرطي من لدن واطسون واسكنر وغيرهم .

(٢) النظريات العقلية يمثلها تشومسكي ؟ .

(٣) النظريات المعرفية وترتبط بأعمال جان بياجيه .

أثارت اللغة عدد غير قليل من الأراء عند مختاف المدارس الفكرية والفلسفية والنفسية والإجتماعية ، بل كل ذلك مسبوق بالتفكير حول أصل اللغات ونشأتها . [١٠٤]

والاساطير التي نسجت حول هذه الأفكار . ولكن تمثل الدراسات النفسية أكثر الدراسات اهتماماً باللغة وتنوعت النظريات المعرفية ، ويمكن القول أن اختلاف مواطن التحديد عند المعرفية ، ناتج من تنوع أهداف هذه المدارس ومجالات اهتمامه ، خلفيات كل مدرسة ، ولذا جاءت اللغة ومتابعة مراحلها عند بياجيه خلال اهتمامهم بتحليل المراحل التي يمر بها الإنسان حتى ينضج تفكيره . [١٠٥] وجاءت اللغة في المدرسة التحويلية نابعه من البحث عن عناصر أخرى ، من علماء هذه المدرسة في اللغة وطرق توليد الجملة وعالمية اللغة ، وقد غيرت هذه المدرسة من طرق الاهتمام بموضوعات اساسية في البعدين النظري والتطبيقي في الدراسة اللغوية وأدت الدراسة التحويلية من خلال تفاعلها مع علم الإجتماع إلى بروز علمين أخذا وضعاً متميزاً في العقدين الأخيرين علم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة النفسي .

يقول دكتور عبد القادر الفاسي في حديثه عن المحاور الأساسية التي يمكن أن تفسر التحليل اللغوي فلسفياً ونفسياً بالإضافة إلى المحور السيني والصادي الذين مثلا فيهما القراءات

---

١٠٣ سيكولوجية اللغة والمرض العقلي – سيد جمعه – ص ٧٠ – ٧٥ .

١٠٤ الظاهرة اللغوية الأصل والتطور والمستقبل – د. محمد عبد الحي – الإمارات – مركز إعلام الوزير .

١٠٥ الظاهرة اللغوية الأصل والتطور والمستقبل – د. محمد عبد الحي – الإمارات – مركز إعلام الوزير – ص ٧٢ .

الواعية وغير الواعية في النشاط العلمي . وهناك ثنائيات وأساليب تـتحكم فـي هـذه المحـاور كالثبوت والتحول وثنائية الأساليب كالرومانتيكية في العلم وهي ثنائيات اعيدت تسميتها بنـسق أو الحدث .

ساهمت النظرية التوليدية التحويلية التي تميز بين المستويين العميـق والـسطحي فـي أبراز بعض الأطر الجديدة لمفاهيم منها الخطأ اللغوي والإزدواجية التي تتمثل في الصراع الثقافي بين الفصحى والعامية ، والوصفية والمعيارية ، والداخل والخارج في بنيـة الـشعر والتزامنـي التعاقدي في اللغة والكلام وكثير من الثنائيات التي كانت موروثاً جينياً لأول نـواه ظهـرت فـي الدراسات اللسانية الحديثة على يد تشومسكي في مفهوم الكفاية والقدرة والأداء والحق أن المدارس اللسانية الحديثة في الغرب تنتمي إلى صياغها التاريخي الخاص ، وتشكل جدل متبادل عبر صور الزمان .[١٠٦] إما أن نبني هذه الصورة على التكامل أو التقاطع وهذا ما سيبوح به بحثنا .

المدرسة المعرفية :

تهتم بالعمليات العقلية التي يمارسها الإنسان وهو يتعلم اللغة الأولى أو الثانية من خلال اللغة التي تحيط بها والمرحلة التي يمر بها من حيث نضج جهـازه العـصبي مـع إدراك هـذه المدرسة لأهمية البيئة وما تقدمه من مثيرات للإنسان ، فانها تهتم بالإنـسان وطبيعتهـا الذهنيـة وطريقة تعامله مع عناصر البيئة .[١٠٧] فالمتعلم يمارس دوراً إيجابياً من خلال ضبط المثيـرات والتحكم فيها قبولاً ورفضاً وفقاً لأهدافه ودوافعه واستعدادته أن إيجابية الإنسانية بتعلم اللغة تقـف وراء ذلك الكم الهائل من الجمل الجديدة التي ينتجها مكتسب اللغة .[١٠٨] عن طريـق صـياغته وتأليفه لجملها عن طريق حفظها وتقليد الآخرين .

يمكن القول أن الآلية التي تحكم بنيوية بلو فيلد أنما تمثل تمظهر اللساني فـي إطـار المدرسة السلوكية كما أن بوادر المنهج التحليلي لدى هاريس وتطويرها في عقلية متماسكة لـدى تشومسكي في مراجعته لكتاب أسكنر .

أن الكفاءة اللغوية (Ling ustic competence) التي تميز الإنسان عن غيره من الكائنـات البشرية تجعله متميز على المستوى النوعي عن تلك الكائنات وتمارس هذه الكفاءة دوراً أساسـياً في تعليم اللغات إذ هي الشبكة المؤهلة لإلتقاط المعاني وإدراك النظم اللغوية المختلفة من خـلال تراكم الخبرات مع بيئات تلك اللغات ويصل المطاف ببدايات تشكل قدرات غير محدودة في بعـد

---

١٠٦ الثنائيات في قضايا اللغة العربية من عصر النهضة إلى عصر العولمة – نهاد الموسى – ص ١٧ .
١٠٧ النظرية المعرفية في كتاب سيكولوجية اللغة والمرض العقلي – د. سيد جمعة – ص ٧٠ – ٧١ .
١٠٨ بحوث في اللغة والثقافة والتربية – د. محمد عمايرة – ص ٣٣٤ .

المتلقي ، لأن ذلك الإنسان في تفاعل مستمر بين الأخذ والعطاء ، ويتكون عند الإنسان بعد تراكم أنماط الخبرات العمرية طاقة في الأداء على مستوى الكفاءة يمارس الإنسان التلقي كـأن يفهـم المسموع أو المقروء ولكنه على مستوى الأداء يتجاوز هذا ويقدم المادة الحية المسموعة والمقروء . [١٠٩] فهو المتكلم أو الكاتب الذي يستطيع أن نميزه بجملة أصواته ونـوع مفرداتـه وأسـاليبه البلاغية . [١١٠]

وقاد التميز بين الأداء والكفاءة بين المرسل والمستقبل إلى التفريق بين مـستويين مـن مستويات التحليل اللغوي . المستوى الأول هو مستوى البنية العميقة وتمثل القواعد التحويلية التي تصل اللغة إلى مرحلة البنية السطحية أي مرحلة التعبير عن أغراض المتعلمين من تأكـد ونفـي واستفهام وغير ذلك من الإضافات المعنوية .

حاول عدد من الباحثين بالإضافة إلى تشومسكي إلى التعمق في العلاقـة بـين اللغـة وتراكيبها والمفاهيم التي يمر بها الإنسان من خلال مراحل نموه المختلفة فكان من هؤلاء بياجيـه الذي توصل إلى أن النمو الفردي في الإنسان يساير النمو المعرفي . وجاءت دراسـات اسـكنر لتغزيز الأبعاد نفسها التي وردت عند بياجيه التي تؤكد أن اللغة من أبعاد النضج المعرفي .

أما الإتجاه الوظيفي في دراسة اللغة يرى أن المنحى التشريطي البسيط لا يمكـن مـن إيجاد تفسير كافي للسلوك اللغوي ، ولا سيما من ناحية المعنى ، فالمعنى لا يمكن إيجاده منفـرد كما أن معنى الجملة لا يمكن أشتقاقه من مجرد جمع معاني الكلمات بل التراكيب هي التي تحكـم تكوين معاني الكلمات في الجملة فاللغة لها إمكانات غير محدودة ، من حيث عدد الجمل الممكنـة وبالتالي فأن أي نظرية لغوية سيكلوجية ينبغي قادرة على تناوب طبقة متصلة والإمكانيـة غيـر محدودة للغة لكي يعكس كفاءة المتكلم والمستمع . [١١١]

وقد أقترح مار [١١٢] امكانية وجود تفسير وظيفي لتنظيم اللغة مع تحولات نحوية تشكل نظاماً مصمماً على نحو جيد يطابق تنظيم الذاكرة وبهذا المعيار الوظيفي للغة يـستطيع اللغـوي تفسير مفهوم الكفاءة والأداء وفقاً لفهم وظيفة اللغة ، إذا حتماً تتوقف وظيفة مـا ضـمن إطـار إكتساب الفرد للغة ، وليس ضمن ما يقوله الغربيين على اساس تطور بيلوجي باعتبار اللغة عضو

---

[١٠٩] بحوث في اللغة والثقافة والتربية – د. محمد عمايرة.

[١١٠] ظهر التمييز بين الكفاءة والأداء بصورة واضحة في كتاب تشومسكي (ملامح النظرية التركيبية) – اللالثنية التوليدية التحويلية – د. مشال ذكريا - ص ١٨ .

[١١١] بحوث في اللغة والتربية والثقافة – د. محمد عمايرة – ص ٤٣٤ .

[١١٢] علم اللغة التقابلي – محمود سليمان ياقت – ص ١٦٦ .

بيلوجي . [113] والهدف الأساسي للغة وهو هدف وظيفي يعتبر اللغة وسيلة ولكن البنيوية المجسدة في شخص تشومسكي رفضت الوظيفة الإقتصادية للغة ، وذكر أن هنالك وظائف أخـرى للغـة يمكن أن تستخدم اللغة من أجل اللعب أو خلق النشاط الإبداعي العقلي . لأنه اعتبر الكفاءة اللغوية عضو موجود في الدماغ يساعد على الإفراز اللغوي بغض النظر عن الضواط التي تحكمها لأنها موجدة في حيز آخر في منطقة الدماغ ، هذا ما ستشير إليه في عرضـنا للبنيـة الداخليـة للغـة المجسدة .

يمكن القول أن دراسة النحو التحويلي حولت مركز الإهتمام من السلوك الفعلي والممكن من نتائج السلوك إلى دراسة نظام المعرفة التي تكمن وراء استخدام وفهم اللغة ، وهكـذا حولـت هذه الدراسة مركز الاهتمام إلى الموهبة الفطرية التي تجعل من الممكن للبشر أن يحـصل علـى مثل هذه المعرفة .

وكان التحول في الإهتمام تحولاً من دراسة اللغة المجسدة إلى دارسـة اللغـة المبنيـة داخلياً الممثلة في العقل ، النحو التحويلي يصور ما عرفه المرء ، أي ما قد عرف بـشئ كملتـه المبادئ الفكرية النحو الكلي هو تحديد هذه المبادئ المحددة بيولوجياً تؤلف مكون مـن مكونـات العقل الإنساني وهو الملكة اللغوية . والوصف اللغوي للحالة الأولى يقتضي بناء نحـوي كلـي ، لأنها حالة مشتركة بين المخلوقات البشرية أما وصف الحالة القارة يعني بناء النحو الخاص بلغـة من اللغات . وقضية الكليات اللغوية قضية علمية ، والقول بأن كذا سمة كلية في اللغة الإنـسانية يعني أنه ليس ثمة لغة يمكنها الإستقناء عن تلك السمى ، وهذا يعد مقولة علمية قابلـة للإختبـار .[114] وإذا كانت هناك سمات مشتركة بين اللغات ما هي العناصر التي يمكن أن تعامـل بـشكل تنبؤئ في اللغة الإنسانية إذا كان من المستحيل مبدئياً وصف البنية الدلالية لأي لغة وصفاً علميـاً ينتج عن ذلك عدم استطاعة المرء التنبؤ بالكليات الدلالية ، والحقيقة أن البنية الدلالية والـصوتية والوظيفية في اللغات المنفردة يمكن أن توصف وصفاً عليماً فأنها لا تعني أن هناك في نظام اللغة العام نظريات علمية في إنتظار أن تكتشف وهنا إنتقال إلى نظرية النحو العـالمي ، وهـي مـن النظريات التي تشير إلى مجموعة النظريات المتوفرة عن طريق الضوابط البيولوجية . [115]

---

[113] يعد أسكنر من ابرز مؤسسسي علم النفس السيلوكي (١٩٥٧م) كتابه (السلوك اللفظي) أنظر الثنائيات في قضايا اللغة العربية من عصر النضهة إلى عصر العولمة – د . نهاد الموسى – ص ١٧ .

[114] اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية – د. عبد القادر الفاسي الفهري سلسلة المعرفة اللسانية – دار توقبال – المغرب – طبعة (١٩٨٥م) – (١٩٨٩م) – ص ٣٤ .

[115] نحو نظرية فلسفية لسانية – د. مازن الواعر – ص ٢٠٣ – ٢٠٦ .

يمكن القول أن اهتمام الدراسات اللسانية بقصد الكفـاءة والملكـة راجـع لارتباطهـا لنظريتين أساسيتن في الفهم الغربي والنظريات اللسانية الحديثة ، نظرية النحو التحويلي ، نظرية النحو الكلي ، والنحو التحويلي هو وصف للأداء اللغوي ، لأن الوصف الدقيق للغة مـن اللغـات يعني تحديد الإمكانيات التبادلية الكامنة لهذه اللغة والذي يستغنى عنها ويتوسل بها مستخدم اللغة ، فوصف الإستخدام اللغوي عند الفرد ليس كافياً لفكرة النحو التحويلي بل محاولة تحديد مجموعـة أمكانيات التعزيرية في اللغة وهذه الإمكانات كامنة عند مستخدم اللغة حتى أنه بالمختزن لديه يفهم الجملة .

تشومسكي والمعرفة اللغوية :

المعرفة اللغوية عبارة عن تصورات حول اللغة تشرح بطريقة علمية ، كيـف يكـون الفرد ذو المعطيات المحددة تماماً نظاماً غنياً من هذه المعرفة ، والطفل الموضوع فـي مجتمـع لساني ما يذود بمجموعة من الجمل المحددة وغالب ما تكون ناقصة أو مجزئة رغماً عـن ذالـك ينجح الطفل بمدة قصيرة من إمتلاك قواعد لغته المعقدة التي يمكن الحصول عليهـا بالإسـتقراء والخبرة والتجربة .[116] فالمعرفة المضمرة والمستترة يجب أن تحدد على نحو ضيق جداً مـن خلال خصيصة بيولوجيا ما ، وكل ما وجهتنا حالة متشابه أي معرفة معطيـات محـددة ناقـصة ومتشابه بين كل الأفراد وإستنتجنا أن مجموعة من الضوابط الأولية تقوم بدور هام فـي تحديـد النظام المعرفي الذي يركبه العقل ، نجد أنفسنا نواجه متناقضات على الرغم من أنه ليس هنالـك متناقضات على الإطلاق . حيثما يمكن بناء معرفة غنية و ومعقدة بطريقة نموذجية كما هي الحال في معرفة اللغة يجب أن تكون هناك ضوابط وحدود تفرضها موهبة بيولوجيا خاصة على النظام المعرفي التي يمكن تطويرها بواسطة العقل ولو لم يوجد حدود صارمة للمعرفة المكتسبة ومعرفة واسعه مثل معرفة اللغة ، سبب أن دور معرفة الحدود لم يستطع بناء عـدد هائـل مـن أنظمـة المعرفة التي كل منهما يوافق ما كان قد أعطي من خلال الخبر ة والتجربة وهكذا فأن الاكتـساب النموذجي في نظام معرفة محددة يمتد إلى ما بعد الخبرة والتجربة ، سيكون مـستحيلاً أن نبنـي أنظمة إمكان تحديد من أي هذه ؟ . الأنظمة هو النظام الصحيح وهكذا أشار تشومسكي أننا يمكن أن نحصل على نظام المعرفة من خلال الخبرة والتجربة وكيف يتم الانتقال من الخبرة الى نظـام الضوابط الفكرية والبيولوجيا .

---

[116] اللالثنلية التوليدية التحويلية – د. مشال ذكريا – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر – الطبعة الثانية - (١٩٨٦م) – ص ٥٨ .

أدى هذا التحول إلى إعادة صياغة كثير من الاسئلة الخاصة بدراسـة اللغـة كمـا أن معرفة شخص للغة ما حالة عقلية تتحقق في نسق آلي مادي وتقوم بتصور تجريدي بلغـة مبنيـة داخلياً على انها نظام محدد يحاول التوليديون تحديد سماتها ، فخصائص هذا النظام آليات تـصف المبادئ التي تحكم هذه الآليات ووظائفها ، وتشبه هذه الدراسة ما يسمى بعلم اللغة والنحو مـشيراً إلى البحث التدريبي عن الطرق التي يبنى بها النظام البصري للتجربة المرئية ويفسرها ، وهكـذا النحو الكلي ، دراسة لوجه من وجوه الموهبة البيولوجية الفطرية التي تتحدد انه سوف يكون لدينا نظام بصري إنساني وليس نظام حشري ، ومفهوم معرفة اللغة مبنية داخلياً يقارب معرفة اللغـة وهكذا للمفهوم التجريبي وجوه عدة لمفهوم اللغة البدهي . [١١٧]

وأن علم اللسانيات الحديثة ولا سيما النظريات النفـسية والإجتماعيـة سـعت لخدمـة النظريات اللسانية بصورة كلية بصفة علمية وجاءت دراسات تشومسكي وسوسير صداً لدراسات علماء النفس ونلاحظ اهتمام المدرسة التحويلية بالإنسان وطبيعته الذهنية وطريقـة تعاملـه مـع عناصر البيئة ، كانت إنعكاساً مباشراً لأبحاث علماء النفس وإنتهائهم إلى وجود منطقة خاصة من خلايا المخ يدعونها مركز الكلام مركز الكلام في الحقيقة ليس إلا جزء من المركز العام المسمى مركز الكلام ومركز الكلام شبكة تصل خيوطها بين عدد عظيم من نقاط النشاط المختلفة في المخ ويتضافر فيها العناصر العضوية والنفسية على إحداث أثر واحد يسمى الكلام ومن هنا جاء تمييز اللسانيين للغة والكلام ، ويعد دي سوسير رائد علم اللغة الحديث أول حاول التمييز بين لغة النظام والغة كاستعمال إذ كان علم اللغة يعني بكل حقيقة تمد بسبب ، فإن الأمر يصبح بالغاً لكي يتجنب ذلك ، لا بد من عزل اللغة ودراستها بوصفها نظاماً إجتماعياً بل مجموعة من الحقائق وليست هذه الحقائق إلا أوضاع لشئون جارية ترتبط بعضها البعض ، في وحدة المعاني والأفكار التي إلا في ذهن الإنسان ، والتي يعبر عنها باللغة . [١١٨]

فاللغة نظام اشاري سيمولوجي وهو الاصطلاح الذي استخدمه سوسير واللغة بوصـفها نظاماً ليست سوى نظام من أنظمة اللغة التي يمكن أن تدرس بعلاقتها بالأنظمة الأخرى كالعادات والسلوك الاجتماعي .

<u>وثارت فكرة التمييز بين اللغة والكلام تساؤلات عديدة عند علماء اللغة اهمها :-</u>

---

[١١٧] السان والإنسان – د. حسن ظاظا – مكتبة الدراسات اللغوية – القاهرة – (١٩٧١م) – ص ٣٤ – ٣٥ .

[١١٨] مجلة فصول العدد الأول – المجلد الثاني – (١٩٨١م) – ص ١٧٢ .

إذا كان الدليل المادي المتوفر للتحليل العلمي يمثل نتيجة ملموسة لسلوك الكلام ، فهـل نحن بحاجة للتسليم بوجود كيان سمعي وغير سلوكي يسمى اللغة ؟ . وهل يـستوي أن نـدرس السلوم اللغوي أو السلوك الكلامي ؟ .

وهذه التساؤلات تبرر مهمة البعض ولا سيما علماء الذين يهمهم السلوك سواء كان لغة أو كلام . أما علم اللغة فيختلف عن سابقه لان علم اللغة يدرس الكلام الذي ينتجه مستخدمون في منطقة معينة لان اللغة بناء متكامل من المعرفة يضم المنطوقات ، أما عالم النفس يركز الاهتمـام على الطرائق التي يترجم فيها الكفاءة ويستخدمها في مواقف معينة وبالمكانزيمات الـسيكولوجية التي تقف خلف الأداء اللغوي ، ولذا هم يرون أنهم من أجل فهم سلوك اللغة علينا نفهم القواعـد التي تحكم ذلك السلوك .

وقواعد السلوك اللغوي هي قواعد لغوية أساسية وبناء على ذلك وبناء على ذلك لكـي نحصل على نموذج لغوي علينا أن نكون نموذج لكفاءة لغوية وأصـبحت صـورة اللغـة التـي يدرسونها قضية علماء النفس ، اهي المنطوقة أو المكتوبة أم العامية أم الفصحى أو مـا يعـرف بالثنائية اللغوية ؟ .[119]

لا شك أن دراسة اللغة تتطلب عينة من الكلام تجمع بأي وسيلة مكتوبة أو منطوقـة ، وتيوقف الأسلوب المستخدم على صفة الدراسة وأهدافها والقدرة على التعامل معها .

وبناءاً على ذلك لكي نحصل على نموذج للأداء علينا أن نكون نموذج للكفاية ، وهـذا الكلام الصادر من علماء النفس ولا سيما اختيارهم بلغة الأداء يعضد كـلام تشومـسكي مـن أن الشخص الذي يتكلم لغة ما قد كون نظام داخلي للقواعد بطريقة محددة ونحن عندما نـتكلم نقتفـي قواعد اللغة دون وعي هذه القواعد عفوية يمتلكها المتكلم ، كالبنية النحوية تتبـع قواعـد ثابتـة ومتعارف عليها مع أن الغالبية منا لا تحس بوجودها [120] ، فنحن نمارس ذكائنا في كيفيـة فهـم الجمل السليمة في لغتنا وهنا نضع حـداً بين المقولات التي تحمل مضمون دلالي وبـين الهـراء حتى وأن كان سليماً مـن وجة نحوية . فالكفاءة اللغوية هي التي تجعله قادراً على استخدام لغتـه استخداماً سليماً ، وانتاج ما لا يحصى من التراكيب ، التي لا تخرج عن العرف اللغوي كما ذكر ابن خلدون في قوله (فافتراض القدرة يعني أن المعرفة اللغوية المخزونة التي يكتسبها متعلم اللغة هي عينها التي يستعملها بصفة غير واعية في فهم وانتاج اللغة وأن هذه المعرفة التي تمكن مـن

---

[119] الثنائية اللغوية تعني دراسة الوضع اللغوي في لغة من اللغات – أنظر الثنائية في قضايا اللغة العربية – د. نهاد الموسى – ص ٢٥٥ .

[120] اللالثنية التوليدية التحويلية – د. مشال ذكريا – ص ٣٤ .

التكلم والفهم هي المعرفة التي تصلح في الحكم على المتواليات ، بأن بعضها ينتمـي إلـى لغتـه وبعضها لا ينتمي إليها .

وافتراض القـدرة افتـراض موحـد بـين اللـسانيات النظريـة والـنفس لـسانيات Psychologicligustics بصفة هذه الأخيرة تتوق إلى تحليل تفسيري للعمليـات الذهنيـة التـي وراء السلوك الكلامي Verbal beveiouse ولا يمكن تمثيل المعرفة اللغوية في غياب العمليات الـضرورية لبناء تمثلات هادفة للمعرفة ، وحفظها ، وتأويلها . ومن هنا وجب أن تكون علاقة شـفافية بـين الانحاء الصورية المبرهن على كفايتها لغوياً ، وبين النماذج النفسية للاستعمال اللغوي . [١٢١]

وأخذت اللسانيات الحديثة تجمع الادلة التي تبن أن صورة تمثيل المعرفة اللغويـة فـي الانحاء التوليدية لا نستعمل بأي كيفية من الكيفيات في اداء الجمل وانتاجها ، ولا يمكن أن تكـون تلك الصور التي توجد في الأنماط التوليدية .

ومن المعلوم إن كل نظريات التمثيل الذهني تقر أن معرفة المتكلم للغة ممثلة ذهنياً في شكل من نوع خاص ولكن هذه البني المعرفية الباطنية لا يمكن تمثيلها في النمـاذج التحويليـة ، فضلاً عن أن الموقف العلمي النظرية التوليدية اتسم بتجاهل شبه تام بنظرية النحاة العـرب مـا صدر عنه من مؤلفاتهم ، سيبويه أبن جني وعبد القاهر ، وما عرف به في تلك المؤلفات وجرده أصولاً كلية على نحو غير ملتبس الذي استصفاه ابن هشام في (المغني) . [١٢٢] من ذكر الجهـات التي يدخل الإعتراض على المعرب من جهته .

وإعتبر تشومسكي معرفة النحو الكلي إشارة إلى الطبيعة الإجتماعية للغة ، وهنـا لـم يجعل نظريته التجريبية بحتة بل جعل الدراسات الإجتماعية للغة لا يكتب لها التقـدم إلا بدراسـة الحالة الأولية وجعل معرفة الفرد الكلمات يعرف معانيها يرجع للمعرفة اللغويـة الأوليـة وهـذه المرحلة خاصة بمعجم الشخص وهذا يمثل مدخل للمعرفة اللغوية ثم بعد ذلك يعرف تفاصل الفكرة . بصورة دقيقة دون الإبتعاد عن نظام المعرفة الخاص بالفرد وبالتالي يدرك الوجوه الإجتماعيـة وهنا سؤال هل يمكن أن ينشا أي أختلاف أو تناقض بين المعنى الأول والمعنى الإجتماعي وكيف يتم التوفيق بين المبدأ والتطبيق ، إذا سيكون لكل فرد انقسام في نشاطه اللغوي وثنائية في اكتساب اللغة .

* ما هو مصدر هذه المعرفة هل هي منبثقة من العقل أو منفجرة منه ؟ ،

---

[١٢١] اللسانيات وقضايا اللغة العربية – عبد القادر الفاسي الفهري – ص ٤٩ .

[١٢٢] كتاب المغنى للأبن هشام الجزء الأول - ص ١٤٨

* ما هي وظيفة هذه المعرفة هل تظل كامنة في العقل لحين يحصل الاكتساب الفعلي أم ننتظـر موقفاً حسياً نخرجها فتصبح فعل لغوي مكتسب ؟ .

ما هذه الثنائية ، معرفة اللغة تعلم عن طريق الممارسة والتقليد مـن خـلال الجماعـة اللغوية ولكن تشومسكي جعل للفرد سلطة على المجتمع بجعله اللغة منفصلة عنه ، وبعزل اللغـة عن المجتمع تنعزل المعاني ويصبح الإنسان خالقاً للغة إذا اللغة عشوائية يمكن القول أن مفهـوم اللغة البدهي أو المداخل العلمية للغة أدى للكشف عن أفكار فنية تتعلق باللغة ، والأفكـار الفنيـة عبارة عن القواعد التي تصف السلوك اللغوي وبالتالي لم تصبح اللغة أداء وظيفية الأمـر الـذي جعل سوسير يترك مفهوم الجملة لانها تتعلق بالجانب المنطوق وهو جانب الأداء إلى جانب النسخ أو النظام ركزت المدرسة الوصفية الأمريكية على الأصوات وبنية الكلمة بغـض النظـر علـى الجمل والعبارات .

لا ريب أن ظواهر المداول اللغوي لدى أي جماعة تتصل بالتجانس لأنها لو لـم تكـن كذلك لإمتنع التواصل بين المتكلمين وأول شروط تحديد التفاهم أن يكـون المرسـل والمـستقبل كلاهما على علماً بالشفرة المشتركة من حيث رموزها وعلاماتها وقواعد تأليفها بيد أن التنوع في تجليات الشفرة اللغوية الواحدة حقيقة أثبتتها التجربة ، فالسلوك اللغوي تتباين تباين ظـاهراً بـين أبناء الجماعة اللغوية الواحدة . [(١٢٣)] حتى أن التجارب المختزنة لتقطع أن الفرد الواحد لا يكـرر كلمة واحدة عند أدائها بجميع خصائصها الأولى في طرفين مختلفين ، وهكـذا تتنـازع الـسلوك اللغوي عوامل جغرافية محلية وانتماءات اجتماعية متقاطعه حتى يبلغ التنوع مداه شـكلاً أو مـا اصطلاح على تسميته بلهجة الفرد وهي مجموعة السمات المميزة للسلوك اللغوي .

هذا التنوع حاولت النظرية اللسانية الحديثة تفسيره من خلال ثنائية اللغة والكلام عنـد تشومسكي على خلاف بين الثنائيتين في المنطلق الفلسفي ويسمى الإجراءات التحليلية والغايات .
كما حققت المدارس الاسلوبية الحديثة هذا التجانس في تحليلها الأدبي لا سيما جاكسون [(١٢٤)] الذي استقاها من الاتجاه البنيوي لمدرسة براغ .

ولا شك أن هذه الدراسات اللسانية تتقاطع مع اللسانيات التقريرية التي أفترضت ما هو عام أو مشترك بين اللغات مع اللسانيات التي تفرض التنوع من داخل النظام نفسه ، علـى حـين تقوم اللسانيات التقريرية على إجمال مبدأ التنوع وافتراض الوحدة والتجانس والمثالية في ظروف

---

[١٢٣] في النص الأدبي دراسة أسلوبية احصائية د . سعد مصلوح – صبعة (٢٠٠٣م) – ص ١٩ .
[١٢٤] حاول جابسون وضع قانون عام للغة الشعرية يبين فيه أن اللغة الشعرية تتميز بسقوط المحور الرأسي على المحور الأفقي وعلاقات تقوم بين العناصر الأفقية (الكلمات) وهي عناصر إستبدالية وبتبادل والعلاقات ننجز جمل آخرى جديدة وهي دراسة علمية للآدب متأثر بعلم اللسانيات العام تقوم على التطابق وإمكانية التكرار وعمومية الرمز – أنظر النظرية البنائية – د. صلاح فضل – ص ٢١ .

التواصل اللغوي ، عن هذا يعبر تشومسكي باوضح عبارة إذ يقول (أن النظرية اللـسانية معنيـة اولاً وقبل كل شئ بإنسان مثالي في سلوكه اللغوي تكلماً وسماعاً يعيش فـي جماعـات لـسانية متجانسة تمام التجانس وهو عارف بلغته تمام المعرفة ولا يخضع في ممارسة هذه المعرفـة فـي أثناء أداه اللغوي في تلك الظروف التي لا صلة لها بجانب النحـوي ، مثـل محدوديـة الـذاكرة والعوارض التي تتوزع اهتمامه واهتمامه) وما يمكن أمكانه من أخطاء عشوائية أو مميزة ، وذلكم هو الموقف كما يبد لدى مؤسس اللسانيات العامة الحديثة ولم يقرأ بعد الأساب المقنعـه ممـا أدى إلى تعديل هذا الموقف . [١٢٥]

العلاقة بين علم النفس والنحو التوليدي التحويلي:

ساعد البحث في الكليات اللغوية أو الظواهر العالمية في التعرف علي الجوانب التي تشابه فيها تلك اللغات، وقد كان الهدف الأساسي للأعمال العملية التي درست تلك الظاهرة البحث فـي أوجه التشابة دون الجري وراء الإختلافات في تلك اللغات، وكان أول ما درسـوه قواعـد بنـاء الجملة مع مقارنتها باللغات الأخرى، ثم وسعوا من دائرة بحثهم ودرسوا تلك القواعد في اللغـات الأخرى.

ويمكن الإستفادة من القواعد المتحركة أو الكلية أو العالمية في اللغـات حيـث ربطهـا بالجوانب النفسية، وتعود العلاقة التي نشأت بين علم اللغة وعلم النفس إلـي اللغـوي الأمريكـي ليونارد بلومفيلد (١٨٨٧-١٩٤٨) الذي اعتمد في دراسته للغة علي معطيات علم النفس التي كانت سائدة في عصره وظهر ذلك في كتابه (Language) الذي تأثر فيه بالمنهج السلوكي في علم الـنفس واعتبر علم النفس السلوكي هو الطريقة الوحيدة التي يمكن في ضوئها دراسة الدلالات اللغويـة، والدليل علي ذلك توقفه حول الحدث الكلامي وتحليله في بنود المذهب السلوكي. ومن المعـروف أن السلوكية في علم النفس هي الإستجابة الكلية التي يبديها كائن حي إزاء أي موقف يواجهه لذلك لا يقصد بها التصرف المسيى أو الصحيح [١٢٦] ولذا يمكن القول إن النحو التحـويلي أخـذ هـذا المعطي حيث يتجاهل القصد والإبانه ووظيفة الاتصال ولم يعتبر اللغة وسيلة بل اعتبرهـا غايـة بالإضافة إلي إشتراك الإنسان والحيوان في التنظيم الإتصالي. وقد تحدث سكنر عن المتغيـرات التي تضبط السلوك اللفظي وتحكمه، وتفاعل تلك المتغيرات فيما بينها، وكان هدفه الأساسي تحديد

---

[١٢٥] في النص الآدبي دراسة أسلوبية إحصائية – د. سعد مصلوح – ص ٢١ .

[١٢٦] علم اللغة التقابلي - محمد سليمان ياقوت - ص ١٦٦ . وضع الالسنه التوليدية التحويلية في الوقت الذي كانت فيه الالسنه في الولايات المتحدة ترشح أنذاك إتجاهاً بيانياً متأثراً بصورة المذهب السيكولوجي السلوكي الذي يعتبر اللغة كتابه عن مجموعة عادات صوتية تتكيف بمثيرات البيئة. والأثر الواضح أن في النظرية التوليدية أن الإستجابة ترتبط بالمثير دون تدخل الأفكار الذهنية أو القواعد النحوية وهذا يؤكد فكرة سوسير أيضاً أن العلاقة بين الكلمة ومعناه علاقة إعتيادية . انظر النظرية التوليدية التحويلية -ميشال زكريا ص ٢٦.

الاستجابات اللفظية والتنبوء بها، وهذا درس في إطار التحليل الوظيفي للـسلوك اللفظـي، وقـد اختار تفسير السلوك اللفظي لأنه يهتم بالمتكلم والمحصول اللفظي المحدد الخاص به دون الإهتمام بالقواعد التي تضبط النظام اللغوي ، ومع ذلك فإن سكنر لم يعمل القواعد والنحو، لأنه مجموعـة الإمكانات اللغوية التي تقع بين الألفاظ ولابد من المحافظة عليها في إطار الجماعة. (١٢٧) ولاشـك أن أول الذين إستفادوا من كتابات سكنر ، تشومكي الذي شرع في كتابه (التراكيب اللغوية) بعـد أن قرأ كتاب لسكنر (السلوك اللفظي).(١٢٨)

ومن الأشياء التي ميزت تشومكي حديثه عن (الإبداعية) في اللغات الإنسانية، لأن اللغـة يتم إنتاجها وفهمها خلال تلك العملية الإبداعية وأوضح تشومكي أن النظرية النحويـة يجـب أن تعكس (الكفاءة) التي يمتلكها كل الناطقين باللغة علي تكوين جمل واستيعابها علي الرغم من أنهم لم يسمعوا بها من قبل. (١٢٩)

ولذلك لم تعبأ النظرية النحوية التوليدية بمسألة الخطأ اللغوي واعتبرته سلوكاً إيجابياً يدل علي إبداعية اللغة التي تلفظ ما تلفظ من التراكيب. وهذا الأمر البنيوي التركيبي، الغربـي الفكـر نابع من لغاتهم التي تعتمد علي التراكيب اللغوية دون النظر إلـي سـياقات الحـال والمقامـات والظروف الإيحائية في اللغة العربية (١٣٠) لأن السلوك اللغوي إنما هو سلوك عقلاني دقيق يعتمـد علي مجموعة من القوانين التحويلية التي تحول الجملة (النواة) الأولي إلـي تلـك الجملـة التـي يصدرها المتكلم ويفهمها.

وقد تأثر علم النفس بما في النحو التحويلي من حيث المقدرة علي انتـاج جمـل جديـدة وفهمها في ضوء القوانين النحوية الخاصة بالجملة، وأهتم علم النفس بالتحويلات التـي يطبعهـا المتكلم علي الجملة النواة حتي يصل إلي الجملة التي يصدرها بالفعل ويظهر ذلك في تساؤلهم عن وجود مجموعة من القوانين التحويلية داخل العقل الإنساني ، تشبه تلك التي يصفها اللغويين، وعن إختزال أبناء اللغة لمجموعة من تلك القوانين داخل المخ أو الدماغ وتساءلوا عن الدور الذي تؤديه تلك القوانين في إنتاج الجمل وفهمها. وقد ربط تشومكي علم اللغة بالدراسات النفسية والفلـسفية، ومن مؤلفاته التي ظهرت بعد كتابه (التراكيب النحوية) وقد أكد في تلك المؤلفات عن أهمية النحو

---

[١٢٧] علم اللغة التقابلي- محمود سليمان ياقوت ص ١٦٦ .

[١٢٨] الثنائيات في اللغة العربية منذعصور النهضة إلي عصر العولمة / نهاد الموسي ص ٣٨ .

[١٢٩] د ميشال ذكريا - الالسنة التوليدية- ص ٣١ .

[١٣٠] يقول العقاد في تراكيب العربية ليس في وسع من يفهم مواضع الكلام أن يجهل الفرق بين (محمد حضر) (حضر محمد) فاللغة العربية في تراكيبها أوفي وأكمل من اللغات الأوربية التي إزدهرت قبل أن تتنوع. انظر أشتات مجتمعات في اللغة والأدب- العقاد - نهضة مصر (١٩٩٥م) - ص ٤٤ .

التحويلي في دراسة العقل البشري وفي التعرف علي خصائصه وإتجاهاته، ووصـف د. مـازن الواعر في كتابه (دراسات نحويةودلالية وفلسفية في ضوء اللسانيات المعاصرة) . [١٣١]

إن تشومكي وصف علم اللغة بأنه أحد فروع علم النفس وليس فرعاً بذاته ولكنه لم يقصد بهذا الوصف بأن يتحول البحث في اللغة الى البحث في إستعمال، أي مـن المقـدرة أو الكفـاءة اللغوية إلي الممارسة أو الإعداد اللغوي وكل ما قاله تشومكي هو أن أهم ما في الدراسة العلميـة للغة، لا سيما النحو التحويلي، هو ما تقدمه بالنسبة لإدراكنا للعمليات الذهنية الخاصة بإنتاج اللغة وفهمها.

وظيفة العقل الأولي والتنوع اللغوي العقلي وموازنتها بعد أن استقرينا نظريات التعلم وتقاطعها مع النحو التحويلي وما أفرزته من قوانين (النحو الكلي) هناك سؤال جوهري يفـرض نفـسه علـي علماء اللغة النفسانيين، وهو كيف تؤدي هذه الوظيفة للعقل الأولي في الظـروف الأكثـر تعقـداً للتنوع اللغوي العقلي؟ ويجيب تشومكي [١٣٢] يبدو واضحاً أن أي دراسة معقولة لطبيعـة اللغـة واكتسابها واستخدامها في ظروف الحياة الحقيقية يجب أن تقبل هذا الإفتراضات وأن تتقدم حينئـذ علي أساس لون من التمييز التجريبي غير النهائي بخاصية العقد الأولي ، كما يشير تـشومكي إلى أن قدرة اللغة التى تدرس فى ظروف حقيقية وبالتالي الاكتساب العقلي للغة ولم يجـب علـى الظروف المتنوعه للغات ، بل جعل الأمثلة المتجانسة دليلاً لوجود العقل الاول، ثم مـن خـلال معرفة (النحو الكي) ، عند هذه الجماعة المتجانسة تستطيع الوصول إلى الأنحاء المختلفـة، أى أن خاصية العقل التي يصورها النحو الكلي خاصية نوعية مشتركة بين جميع البشر ، وكل ذلـك ليؤكد أن النحو الكلي يستطيع أن يجد الحقائق المجردة عن التنوعات الممكنة الملكـة اللغويـة ، وكل ذلك على افتراض (التماثل الكامل) أما التنوع فلم يجعل له مكاناً فى فرضيته.[١٣٣]

البنية اللغوية والبنية الاجتماعية :-

لا شك أن اللغة فاعلة خطيرة في حياة الإنسان فهى تجد له حياتة وتصوغ تفكيره ، لأنه لا وجود لفكرة لا تستطيع أن تتحول إلى قول شخصيتها ويحولها من أفعال إلى وجـود، ونحـن كعرب نجد أنفسنا في اللغة فهي موروثنا الحضاري وبها انزل ا القران الكريم بإعجازه وبيانه .

---

[١٣١] دراسات نحويةودلالية وفلسفية في ضوء اللسانيات المعاصرة) دار المتنبي – دمشق طبعة (٢٠٠١م) – ص ١٨٤-١٨٧ .

[١٣٢] المعرفة اللغوية طبيعتها واصولها واستخدامها - تاليف تشومسكي - ترجمة محمد فتيح – دار الفكر العربي القاهرة – الطبعة الاولى (١٩٩٣م)- ص ٧٨-١١٥

[١٣٣] النحو التحويلي هو أول نقد الذي كان تشومكي متبعاً فيه فأن همبولت الذي درس ذلك علي نحو (باثين) كقطعة للغة السكرتيه). أنظر الثنائيات في اللغة العربية من عصر النهضة إلي عصر العولمة - نهاد الموسي-ص ٣٤ .

يقول بارت: ترتبط الكفاية اللغوية بصفة أساسية بتنظيم قوانين لغوية تتيح لمن يدركها أن ينتج جمل غير متناهية وان يفهم بموجب هذا التنظيم نفسه الجمل التي ينتجها الآخرون .
فعندما يتكلم تشومكى عن آلية محددة وقادرة على إنتاج عدد غير متناه من الجمل فهو يحال كيف أن جهازاً محدود كالعقل الإنساني قادر على القيام انتاجات هي في الحق غير متناهية.

ومن هذه الزاوية يمكن تحديد الكفاية اللغوية بأنها معرفة الإنسان الضمنية باللغة ، وهـى معرفه الإنسان بقواعد اللغة التي تقود عملية التكلم بها . فالأداء الكلامي هو الاستعمال الآني للغة ضمن سياق معين وفى الأداء الكلامي يعود متكلم اللغة بصورة طبيعية إلى القواعد الكافيـة مـن ضمن كفايته اللغوية ، فالكفاية اللغوية هي تقود عملية الأداء الكلامي .

الكفاية اللغوية وتعلم النحو العربي:

كانت مناهج البحث اللغوي التي إنبثقت منها علوم اللغة العربية ، قائمة علي ركائز علمية دقيقة تشمل الوصف والجمع والإستنباط والتعقيد وقد أثبتوا وصفاً دقيقاً لهذه اللغة بتنوع لهجاتهـا ورصد القوانين العامة للنحو العربي، ورصد جزئيات القواعد، واثبتوا البيئات الجغرافيـة التـي أثبتت كل القواعد.

لم يكن التأليف في النحو العربي في بدايته ذو أهداف تعليمية مباشرة بل كان يعني جمـع اللغة العربية ووصفها بهدف الحفاظ عليها وتدوينها لتكون هادياً للأمة في التعرف علـي كتابهـا الكريم الذي جاء معجزاً لصياغته وايجازه وإنتفعت حركة تعليم العربيـة مـن المكتبـة اللغويـة العربية، وكانت في بدايتها تنطلق من الملكة. إن الملكة اللغويـة تبنـي مـن خـلال الإحتكـاك بالنصوص الأدبية المؤثرة، فالبدايات بالقراءة والحفظ تقود إلي صقل الملكة، والوصول بها إلـي الفصاحة، وكان من مسار تلك المدرسة في التعليم، كتب أدت أجيالاً وما زالـت تـؤدي، ومنهـا (البيان والتبيين) للجاحظ، و(الكامل في اللغة والأدب) للمبرد، وكتـاب (العمـده) لأبـن رشـيق القيرواني، وكتاب (الخصائص) لأبي الفتح بن جني.

أدرك عدد كبير من علماء اللغة المعنيين بتعليمها أن النحو كعلم يمكن أن يكـون هـدفاً لذاته، ويمكن لعالم لغوي أن يسلخ عدداً غير قليل من سنوات عمره في استقـصاء لهجـة مـن اللهجات، وقد يأتي عالم آخر ويستكمل ما بدأه وهكذا، ولكن الحصيلة التعليميـة لهـذه الجهـود محدودة، خاصة فيما يتصل بعلاقة اللسان وبناء الملكة اللغوية.

وهذا الأمر يوافق ما قاله بن خلدون الذي دعا إلي حفظ شواهد العرب من منظوم ومنثور أو المعرفة التامة بالكلام المعنوي الذي نزل بها القرآن وكتب بها الحديث.

أما صناعة الإعراب والعلم بقوانين اللغة فقط لا يعين علي تحصيل الملكـة أي الكفـاءة اللغوية، يقول ابن خلدون [134] (أهل صناعة العربية بالأندلس ومعلموها أقرب إلي تحصيل هـذه الملكة وتعليمها من سواهم. ليس قيامهم علي شواهد العرب وأمثالهم والتفقه في كثير من التراكيب في مجالس تعليمهم فيسبق إلي المبتدئ كثير من التراكيب في مجالس تعليمهم. فتنقطع النفس لهـا وتستعد إلي تحصيلها وقبولها .....أما معلمي المغرب فأجروا صناعة العربية مجري العلوم بحثاً وقطعوا النظر علي التفقه في تراكيب كلام العرب إلا إذا أعربوا شـاهداً [135] ورجحـوا مـذهباً مرجعه الاقتضاء الذهني لا مرجعه محامل اللسان وتراكيبه). فالكفاءة اللغوية للعربيـة الفـصحي عامة وللنحو العربي خاصة لا تتحقق إلا بحفظ كلام العرب ومعرفة القرآن الكريم حفظاً وتفسيراً. لأن الذوق العربي يربوا علي تراكيبهم وأساليبهم وكل ما خالف ذلك فهو هجـين. ولهـذا كانـت قضية الإعراب من القضايا التي دخل بها المستشرقون وغيرهم للأخذ من العربية، بإعتبارهم أن الإعراب جانب شكلي ولكنهم لم يفهموا قيمة الإعراب في العربية بل كفاءة العرب اللغوية تتحـدد بمعرفة الإعراب الذي لا يتم إلا بفهم شواهد العرب وأمثالهم ومقاصـد كلامهـم الـذي يخدمـه الإعراب للوصول إلي المعني.

ويتحدد بذلك مفهوم الملكة وطريقة تعلمها، بحسب تعلمها فإن تعلمها بطريقة تنمي الملكة صارت اللغة من ضمن الوسائل، أما تعلم قوانين اللغة بالنسبة له بعيدة المسالك والمنال.

يمكن القول أنه ليس من السهل تبني فهم واحد للكفاءة اللغويـة ولكـن الإنتفـاع بهـذه المساهمات مهم،ففي الأصوات مثلاً، أن متعلم اللغة حيث يعلمها يواجه صـعوبات فـي إتقانهـا، والأمر يندرج علي اللغة العربية فهناك أصوات يتعسر المتعلمون في إتقانها.

ويعرض بن خلدون لمسألة الثنائية اللغوية، أي إتقان لغتين ويحتكم إلي قناعته الراسـخة المتمثلة في كون اللغة صناعة وملكة، ويؤكد بن خلدون أن وصول المتعلم الأجنبي إلي مـستوي التمكن في اللغتين أمر صعب، ولكن هذا لا يعني أنه لا يتعلم أجزاء من تلك اللغة، أن القضية هي أن يصل إلي درجة (الذوق)، خاصة وأنه يربط بين الذوق في الطعام واللغة ، ووسيلة الاثنين هي اللسان.

---

[134] مقدمة ابن خلدون - ج ١- ص ٥٦١ .

[135]. زيادة الأعجم تعلم اللغة العربية ينطلق إلي التأليف من الشعر وكان ينظم الشعر رغـم أن نطقه مشوب بلكنة، ولم يجد سيبويه غضاضة من إستشهاد بشعره، وكثير اللحن تعني عدم قدرته علي التعامل الشفوي بلغة عربية سليمة. أنظر علوم اللغة العربية- محمود فلهمي حجازي - ص ٢٨٢.

وأقبل كثير من الأعاجم [١٣٦] علي العربية ، وبلغوا فيها شأواً عظيماً، فـالتحول اللغـوي يحدث من جيل إلي جيل بواسطة عوامل أهمها احتكاك اللغة العربية باللغة الوافـدة، ويستعـصي التحول في المناطق الجبلية الوعرة لمتانة لغتها وصلابة لسانها.[١٣٧]

الملكة وحركة التصحيح اللغوي:-

علي الرغم من تباين اللغات وتعقدها، فإن أي طفل عاد يستطيع أن يتعلم أية لغة يحتك بها في محيطه اللساني، وهذا ما يوحي بأن كل المخلوقات البشرية تشترك في بنية معرفية محـدودة نسميها (بالملكة اللغوية) وهذه الملكة ما هي إلا نسق كلي للتمثيل الذهني للغة وهـدف النظريـة اللسانية أن تكتشف هذا النسق أو النحو الكلي، وتحدد مميزاته، وتحدد كذلك مـضمون الأنحـاء الخاصة وطرق بنائها. [١٣٨] يقول بن خلدون: (لو فرضنا صبياً من صبيانهم نشأ وتربـي فـي جيلهم فإنه يتعلم لغتهم، ويحكم شأن الإعراب والبلاغة فيها حتي يستولي علي غايتها، وليس مـن العلم القانوني في شئ، وإنما هو بحصول الملكة في لسانه ونطقه، وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل، بحفظ كلامهم وأشعارهم وضبط المداومة علي ذلك بحيث تحصل الملكة ويعتبـر كواحد من ممن نشأ في جيلهم وربى بين أجيالهم والقوانين بمعزل عن هذا واستبصر لهذه الملكـة عندما ترسخ وتستقر في (الذوق) الذي أصطلح عليه أهل صياغة البيان وإنما هو موضوع لإدراك الطعوم لكن لما كان كل هذا في ملكة اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل الإدراك الطعوم أُستُعير له أسمه). [١٣٩]

وقوله (ليس من العلم القانوني في شئ تعني النحو التقليدي علي مستوي القواعد اللغويـة فحصول الملكة من خلال البيئة، لأن اللغة ظاهرة إنسانية تستكمل وجودها منه خلال البيئة التـي تنتج لها فرصة الظهور بها ولما كانت اللغة مجموعة من العادات التي يكتسبها كل إنسان في بيئته المحيطة به، فلا داعي لبذل جهود كثيرة في تعليم قواعد اللغة ومصطلحاتها التحليلية، أما المعنـي والدلالة فلم تلق العناية لإرتباطها بالعقل والمعرفة.

إن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتي يرتـسم فـي خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم علي كلامهم حتي حصلت الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد علي نحـو كلامهـم

---

١٣٦. زيادة الأعجم تعلم اللغة العربية ينطلق إلي التأليف من الشعر وكان ينظم الشعر رغـم أن نطقه مشوب بلكنة، ولم يجد سيبويه غضاضة من إستشهاد بشعره، وكثير اللحن تعني عدم قدرته علي التعامل الشفوي بلغة عربية سليمة. أنظر علوم اللغة العربية- محمود فلهمي حجازي - ص ٢٨٢.

١٣٧ علوم اللغة العربية / محمد فهمي حجازي/ ص ٢٨٢ .

١٣٨ اللسانيات واللغة العربية / عبد القادر الفاسي الفهري ص ٤٣.

١٣٩ مقدمة بن خلدون /ج١/ ص ٥٦٣.

ولا شك أن اللحن والتنبيه إلي مواطن الخطأ من الأمور التي صاحبتنا في حياتنـا الثقافيـة [١٤٠]، وهي نابعة من الحرص علي النقاء اللغوي بمعناه التقليدي المتمثل فـي محاكـاة عـصور الإحتجاج، علي مستوي المعجم والقواعد اللغوية. إن مكتبة اللحن [١٤٢] مكتبة غنية تعكس حرصاً علي اللغة وأدائها، ولكن الإلحاح في قضية البقاء اللغوي قد يقف حجر عثر في طريـق تكـوين الملكات اللغوية، وتنتهي بالطالب خاصة المتوسط والضعيف إلي الشعور بأن السلامة اللغوية أمر غير ممكن والعامية هي الملاذ الطبيعي والرئة الصحيحة للتعامل اللغوي، بناء علي أن الملكـة لا تحتاج إلي الأطمئنان والسكينة في البيئة اللغوية. [١٤٣]

يقول ابن خلدون: (لو فرضنا صبياً من صبيانهم نشأ وتربي في جيلهم فإنه يتعلم لغـتهم، ويحكم شأن الأعراب والبلاغة فيها حتي يستولي علي غايتها، وليس من العلم القانوني في شـئ، وإنما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه، وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلـك الجيـل [١٤٤] وقوله (ليس من العلم القانوني في شئ) تعني للنحو التقليدي علي مستوي القواعـد اللغويـة فحصول الملكة من خلال البيئة التي تتيح لها فرصة الظهور بها، ولما كانت اللغة مجموعة مـن العادات التي يكتسبها كل إنسان من بيئته المحيطة بـه ، فلا داعي لبذل جهود كبيرة فـي تعلـيم قواعد اللغة ومصطلحاتها التحليلية ، أما المعني والدلالة فلم تلق عناية لإرتباطها بالعقل والمعرفة.

الانحراف والأداء :

لم يعجز علماء اللغة عن إيجاد تفسيرات علمية لعملية الإنحراف والأداء ، أو الخطأ فـي الإستعمال اللغوي ، نجد لها تفسيراً في كتاب (اللسان والإنسان)[١٤٥] ماذا يحدث عنـدما أكـون مستمعاً لا متكلماً أنصت إلى مخاطب (ما) فأوافقه أو أخالفه أو أتجاوب معه أو أنفر منه ، إن في كل تلك الأحوال متكلم يستعمل نفس الألفاظ والجمل التي استعملها ، ومع ذلك يختلف حكمي عما اقول بين لحظة وأخرى ، بل قد أستمع ولا أفهم وقد أفهم ولا أقتنع وقد أقتنع ثم أكابر ، كل هـذه مرتبطة بنشاط الإنسان واللسان له مزالق ومسالك ، وباب معرفة ذلك كله هـو معرفـة اللغـة. ومعرفة اللغة هنا كفاءة اللغة المختزنة في الدماغ ، والمتكلم الذي عنده فكـرة عظيمـة ، ولكنـه يعجز عن عرضها ، والمتكلم الذي أصابته الثرثرة الوبائية كل ذلك يـدخل فـي نطـاق (الفقـر

---

١٤٠ المرجع السابق ٥٦٣.
١٤١ بحوث في اللغة والتربية/ محمد عمايره/ ص ٣٤٤.
١٤٢ مقدمة بن خلدون /ح ١/ ص٥٦٣.
١٤٣ المصدر السابق /ج١/ص٥٦١.
١٤٤ مقدمة بن خلدون /ج١/ ص ٥٦٣.
١٤٥ اللسان والإنسان – د حسن ظاظا – ص ٣٤ - ٣٥ .

اللغوي) من أين ينتج هذا الفقر اللغوي ، أهو إنحراف سيكولوجي أم عدم كفاءة الكفـاءة اللغويـة وتمكنها من المعرفة المختزنة في الذهن فجاء الأداء عاجزاً عن مطابقة المعرفة اللغوية أو المقدرة اللغوية .

أخذت النظرية التحويلية التي تميز بين المستويين السطحي والعميق من مستويات اللغـة في إبراز بعض الأمور الجديدة لمفاهيم منها (الخطأ اللغوي) ، و نظرت إلى موضوع الأخطـاء اللغوية من خلال مستويات تباينها عن المفهوم المرغوب في نقله .

ويشتمل التجديد الذي قدمته المدرسة التحويلية باب الأخطاء التي يقـع فيهـا المـتكلم ، وقدمت هذه المدرسة وجهت نظرها في أخطاء متعلم اللغة الأجنبية ، ليست مجرد تحوير أو نقـل من اللغة الأولى إلى اللغة الجديدة ، بل تظهر هذه الأخطاء بعداً كان يفضل كثيراً وهو أن المتعلم من خلال هذه الأخطاء يقدم شيئاً ملموساً إيجابياً وهو في طريقه في تعلم نظام اللغة .

ونلاحظ في هذه الزاوية اهتمام النحو التحويلي بالأخطاء بل اعتبرت الخطأ اللغوي سلوك إيجابي يشير إلى نسق اللغة الخاص ومن هنا سميت الاخطـاء إنحرافـات .[١٤٦] وهـذا ملمـح رياضي منطقي إذ جعلت الإنحرافات إبداعاً حتى ولو كان يخل بالنظام اللغوي الثابت لأنه تحرك نحو اللغة الطبيعية او اللغة الإنسانية أو الظاهرة الكلية .

ولذلك اعتمد المنهج التحويلي المنهج الوصفي لانه يختصر على تفسير اللبس الواقع فـي شكل لغوي واحد يستفاد به مقصدان او اكثر وهنا لا بد من الإشارة إلى العلاقة الوثيقة بين البنائية ومصطلاحات . فرويد ترتبط دراسات عالم لنفسي لا كان بعلم اللغة اعمق ارتبـاط إذ أنهـا قـد اصبحت بفضله نظرية علمية مستقة ومحورها أنه يمكن وصفاً لا شعور بطريقة علم اللغة البنائي ومن هنا اعتمد على اسس التي تعود برمتها إلى بنية العمل البنائي فـلا شـعور لغـة متماسـكة الشعور يعكس تنظيم اللغة بشكل بعيد عن عامل الثقافة الجماعية اللاشعور ولذلك أهـتم فرويـد بدراسة التداعيات اللغوية واللعب بالألفاظ وخطأ اللسان ، إذ أن التحليل اللغوي هو المنهج الملائم لدراسة اللاشعور من هنا نتبين علاقة وثيقة بين فرويد والنظام البنائي الذي اكتشفه علـم اللغـة الحديث هذه العلاقة التي دفعت (لاكان) إلى تأكيد أن بنية اللاشعور أنما هي بنية لغوية .[١٤٧]

وبالتالي أصبح التحليل اللغوي أنسب المناهج للتحليل العلمي لآن علم اللغة هو الذي يقدم احسن النموازج المنتجة بشرح قواعد المادة اللغوية وهنا نتذكر التوليد والتحويل والبنية العميقـة

---

[١٤٦] أن الأداء الكلامي لا يخلو عادة من بعض الإنحرافات عن قوانين اللغة لذلك لا يعكس مباشرة الكفاية اللغوية – أنظر اللالثنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية – د . مشال ذكريا – ص ٣٣ .

[١٤٧] النظرية البنائية – د. صلاح فضل – دار الشروق – الطبعة الأولى (١٩٩٨م) – ص ١٧٥ .

والبنية السطحية وكذلك المفردات والتراكيب ومسألة الثقافة هي مسألة هامة فـي تلقـي اللغـوي وتعلمه .

لم يكن تعلم اللغة العربية موضوعات خلافياً في الثقافة العربية الإسلامية ، فتعلم اللغة له مكانته في مختلف فروع الثقافة وكانت مساهمات العرب في حركة التأليف العربيـة تقـف نـداً لمساهمات المستوى العالمي بينما الانحصار في واحدة من لغات العالم الإسـلامي كـان يعنـي المحلية والمحدودية كان تعلم العربية مطلباً عاماً يشترك فيه فئات المجتمع . فالخليفة يـرى مـن واجبه عثرت لسان أحد المارة على قارعة الطريق الملك يرى أن من وسائل التمكين في الحكم أن يوفر لاولياء العهد المأدبين والعلماء وكان إهتمام الثقافة العربية بموضوع الملكة أمراً مشهوداً في كل مراحلها أما الآن أنقلب الأمر على عقبيه . الملك الذي كان يحمي عامته من التفلت والإنزلاق من قواعد العربية أصبح الآن ينادي تحت قناع تيسير النحو وتبسيطه والنحو الميـسر وصـعوبة الإعراب ، بل أنتهى عهد منظومات النحو أصبح النحو قواعد رياضية قابلة للاستبدال والتحويـل بل الأختزال أيضاً . وحسب الإختراق الثقافي تحت مسميات العلمية والعالمية وشـرعت الأقـلام للتأليف لخدمة هذه النظريات العالية حتى ولو أدى ذلك الأمر إلى لي عنق العربية . [١٤٨]

ويحضرني في هذا المقام حديث الدكتور محمود محمد شاكر في كتابه رسالة في الطريق إلى ثقافتنا (المستشرق فتى أعجمي ... ناشئ في لسان أمته وتعليم بلاده ومغـروس فـي أدابهـا وثقافتها حتى استوى رجلاً في العشرين من عمره أو الخامسة مـن العـشرين ، فهـو قـادر أو مفترض أنه قادر تمام القدرة على التفكير والنظر ، أو مفترض أنه مؤهل أن ينزل مـن ثقافتـه ميدان المنهج وما قبل المنهج بقدم ثابتة ، نعم ، هذا ممكن أن يكون كذلك ، ولكن الفتـى يتحـول فجأءة عن سلوك هذا الطريق ليبدأ في تعلم لغة أخرى ، مفارق كل المفارقة اللسان الذي نشأ فيـه صغيراً أو الثقافة التي ارتضع لبانها يافعاً ، يدخل قسم اللغات الشرقية في جامعة مـن جامعـات الاعاجم فيبتدي تعلم أ ب ت وأبجد هوز في العربية ويتلقى نحوها وصرفها ... وتواريخها بلسان غير عربي ، ثم يستمع إلى محاضر في آداب العرب وتاريخها بلسان غير عربي ويقضي بـذلك بضع سنوات قلائل ، ثم يخرج لنا مستشرقاً يفنى في اللسان العربي والتاريخ العربي وعجب فوق العجب ... [١٤٩]

وهذه الإشارات جوهرية تمس موضوع تطبيق بعض مناهج الدراسات اللسانية الحديثة في بنية العربية ، بل أن البنيوية اللغوية تحاول جاهدة في تمثيل مناهجها المتعددة بأنساقها المختلفـة

---

[١٤٨] بحوث في اللغة والتربية – د. محمد عمايرة – ص ٤٦١ .

[١٤٩] رسالة في الطريق إلى ثقافتنا محمود محمد شاكر – مكتبة الخانجي مصر – (١٩٨٧م) ص – ٦٦ .

في أنظمة العربية وتراكيبها والتي لا شك في أن لها خصوصية تميزها بأنهـا ارتبطـت بكتـاب عظيم ألا وهو القرآن الكريم . ومن أكثر الموضوعات التي اقحمت في العربية الثنائيات اللغويـة وقضية المعنى الرمزي وقضية اللغة والكلام ونظريـة النحـو التحـويلي والإعـراب العربـي والإزدواجية والتباين بين العربية الفصحى ولهجاتها استغرق جهود مضنية في دول الإستـشراق بهدف الوصول إلى نتيجة مفادها أن العربية تسير في خطى اللاتينية نحو موت محقق وسـتخاف العربية بناتها التي لم تدخر المؤسسات الغربية جهداً في دراستها لتأهيلها لهذا الدور .

والأمر عند معظم العاملين في هذه المدرسة لا يتجاوز التفاوت في الظـروف المحيطـة للعربية لتلحق باللاتينية ، فكانت العربية مثار البحث اللغوي الإجتماعي من خلال هـذا البحـوث التي استثمرت فيها المناهج الغربية نتائج الصلة الوثيقة بين العقيدة والنص المقدس . وأثـر ذلـك كله في نشر اللغة ، التنصير اللغوي . كان من الممكن أن تطلع الإنسانية على نمط مختلف مـن أنماط المقاومة اللغوية ، لكن الحرص على السير في خطى اللاتينية . [١٥٠] التي في النهاية واحد من التجارب الغربية تشكل قالباً يفرض على غيرها من اللغات وعند الإنتقال من الكفاءة اللغويـة وقفت المؤسسات القائمة على شئون الكفاءة موقفاً متردداً من موضوع إمكانيـة تحقـق الكفـاءة اللغوية في الفصحى وظهرت مسميات مختلفة كالعربية الوسطى وسعيه في تبرير حالة الـضعف التي أشار إليها شاكر من قبل والمتفشية بين غير الناطقين بالعربية من خريجي أقسام الإستشراق العربي ، وممن نصبوا انفسهم ولاة أمراً لها واعتبار الفصحى لغة ما قبل الموت .[١٥١]

ومن المؤكد أن هذه المواقف اللغوية وغيرها كانت صداً لتقاطعات كثيـرة بـين الأمـة الغربية والأمة الإسلامية وهي تشكل نوعاً من أنواع الصراع الحضاري التي تعانيه الأمـة فـي مستقبلها التعليمي والعقدي . والغريب في الأمر أن الإختراق الثقافي لم يعد رهين عوامل خارجية تجد صدى في نفوس الباحثين على مستوى فردي رغبةً في العلمية أو إنتاج البحوث ، بل وصـل الامر إلى رعاية هذا الإختراق الثقافي وتهيئة أفضل الظروف وإمكانات لضمان فعاليته عن طريق مؤسسات ضخمة داخل الوطن العربي وخارجه يقول عمايرة في هذا الـصدد (تعـددت وجـوه الإختراق الثقافي في الوطن العربي ، ففي التعليم أجبرت العربية على التراجع في التعليم الجامعي في الكليات العلمية وفي الإقتصاد ، ورغم كل ما يقال عن النفط والجيوب التي ملأها ، فإن البنوك

---

[١٥٠] حاول العلماء في منتصف القرن التاسع عشر – مقارنة اللغات الأريبية – لأثبات أنها ترجع إلى أصل لغوي واحد وقد فعل الهنود ذلك ووصفوا أصوات اللغة السنسكرتية وكان الهدف من ذلك أن يقف المتعلون على طريقة نطق الأوصات عند قراءة كتابهم المقدس ووصف بانيني كل صوت بمعزل عن مقطعه وصفاً صحيحاً مـن حيث المخرج وصفاته النطقية . أنظر اللسانيات النطقية المجال والوظيفة والمنهج د . سمير شريف – ص ١٧ .

[١٥١] بحوث في اللغة والتربية والثقافة – د. محمد عمايرة – ص ٤٦٥ .

الدولية تكاد تملك بعض الأنظمة العربية ، وفـ ـي المجال السياسي ولدت أجيال اقليمية أكثر منها قومية أو عربية أو إسلامية) .[152] وهكذا نسلط الضوء على أكبر وجه مـ ـن وجـ ـوه الإختـ ـراق الثقافي الذي تمثل في الفكر البنائي الذي اخترق كل مجالات اللغة دون مراعـ ـاة لأي خـ ـصوصية عقدية وثقافية .

---

[152] بحوث في اللغة والتربية والثقافة – د. محمد عمايرة – ص ٤٦٥

المبحث الثالث

اللغة وعلم النفس

أدرك علماء اللغة ولا سيما الغربيين [١] العلاقة الوثيقة بين علم اللغة والظواهر النفسية، ولذا ظهر إهتمام كل منهما بمشكلات الآخر وطرحت الأسئلة الآتية :-

(أ) كيف تعالج المشاكل النفسية في علم اللغة.

(ب) وكيف تعالج المشكلات اللغوية في علم النفس.

فدراسة علم النفس تاج إ دراسة الظواهر اللغوية ، كما أن دراسة علم اللغة تاج هي الأخرى إ دراسة الظواهر النفسية، وكل دراسة ذين العلم ، دون ملاحظة للأخرى لا تع با طلوب ولا تتحقق النتائج ا رجوة منها.

ولذا نشأ علم النفس اللغوي [٢] وتناوله علماء اللغة وعلماء النفس بالبحث والدراسة كشعبة مستغلة تخدم أهداف كل منهما.

إن علم النفس عما نعرفه، هو العلم الذي يدرس القوانين العامة للسلوك، ومن بين الموضوعات الكبرى التي يدرسها موضوعات التعليم والدوافع والإدراك، والفروق الفردية كالقدرة الشخصية وما إلى ذلك [٣].

وعالم النفس في محاولته دراسة هذه المجالات يوجه أهتماماً أقل نسبياً إلى المحتوى الخاص للسلوك الذي يقوم بدراسته منه إلى القوانين العامة التي يفترض أنها تقوم وراء هذا السلوك المراد دراسته ، فلا يهمه كثيراً من دراسته للتعلم مثلاً ما إذا كان يدرس استجابات حيوان أم استجابات إنسان في تعلمه كمجموعة من الكلمات عديمة المعنى، ومن هنا كان طبيعياً ، أن نتوقع ألا يوجه علم النفس إهتماماً بشكل مباشر إلى دراسة اللغويات، لأن اللغويات هي دراسة تركيب استجابات معينة متعلمة على نحو (ما) تتحدد إلى درجة كبيرة بواسطة البنية الإجتماعية للفرد .

فالاستجابات اللفظية ال يدرسها اللغوي هي نوع واحد من الاستجابات ال كن أن يدرسها السيكولوجي وليس ة حاجة ماسة بالضرورة لأن يعزو أ ية خاصة ذه الاستجابات كموضوع للبحث إذا قورنت بغ ها . [٤]

ونلاحظ أن الوظيفة اللغوية عند علماء النفس تتحدد نظام من الاستجابات، ومن هنا اتضحت العلاقة ب علم النفس وعلم اللغة وتعود هذه الرابطة إ العا الأمريكي ليوناردبلومفيلد . [١] (١٨٨٧م – ١٩٤٨م) الذي اعتمد دراسته للغة على معطيات علم

---

[١] علوم اللغة بين القديم والجديد – عبد الغفار هلال - ص ١١١ .

[٢] علم النفس اللغوي مسصطلح ظهر سنة ١٩٥٤م – وتعاون على وضعه علماء النفس واللسانيات – وهذا الفن الجديد في المعرفة الإنسانية يدرس كيف تطؤ مقاصد المتكلم ونوايه على الخطاء في شكل إشارات لسانية تنصهر في اللغة التي تتواضع على أنماطها مجموعة بشرية معينة يحولها الرابط اللغوي إلى مجموعة ثقافية – كما يدرس سبل تواصل المستقبلين لذلك الحطاب أي تأويل تلك الإشارات . هو يعكف على عمليتي التركيب والتأويل ثم أتسع هذا العلم في الستينيات بعد ظهور نظرية النحو التوليدي لفضل نظرية تشومسكي وتحدد عندئذ موضوعه بدراسة ظاهرة الكلام المرسل وظتهرة الإدراك دى المستقبل ، وهكذا تميز هذا العلم تماماً عن علم نفس الكلام – أنظر الأسلوب والإسلوبية عبد السلام المسدي دار سعاد الصباح – الطبعه الرابعة ١٩٩٣م – ص ١٩٤.

[٣] سيكلوجية اللغة والمرض العقلي – سيد جمعه - ص ٢٠ .

٤ مقال اللغة والفكر عند الطفل – د. سيد غنيم – عالم الفكر – المجلد الثاني العدد الأول – (١٩٧١م) بتصرف .

النفس ال كانت سائدة عصره، وظهر ذلك كتابه (Language) الذي تأثر فيه با نهج السلوكي علم النفس، واعتـ علم النفس السلوكي هو الطريقة الوحيدة ال كن ضوئها دراسة الدلالات اللغوية، والدليل على ذلك توقفه حول (ا دث الكلامي) و ليله بنود ا ذهب السلوكي، من ا عروف أن السلوكية علم النفس هي الاستجابة الكلية ال يبديها كائن حي إزاء أي موقف يواجهه، لذلك لا يقصد ا التصرف ا سن أو القبيح اه الآخرين (٢) ويعد سكنر أستاذ علم النفس من أبرز مؤسسي علم النفس السلوكي وأقواهم ، و عام (١٩٥٧) كتابه (السلوك اللفظي) الذي يعد أهم اولة بذلت سبيل دراسة التفاصيل ا اصة باكتساب اللغة إطار نظرية التعلم السلوكي ، لذلك توقف سكنر أمام ا ثـ والاستجابة والتعزيز، وإمكانات التعزيز عنده هي مل ظروف البيئة ال دد انتقاء التصرفات اللفظية. (٣)

وقد دث سكنر عن ا تغـ ات ال تضبط السلوك اللفظي و كمه ، وتفاعل تلك ا تغـ ات فيما بينها والتنبؤ ا وهذا يدرس إطار التحليل الوظيفي للسلوك اللفظي .

وقد اختار تعبـ السلوك اللفظي لأنه يهتم با تكلم الفرد ذو ا صول اللفظي ا دد ا اص به دون الإهتمام بالقواعد ال تضبط النظام اللغوي و كمه ، ومع ذلك فإن سكنر يهمل قواعد النحو، لأ ا موعة من الإمكانات ال تقع بـ الألفاظ ولا بد من ا افظة عليها إطار ا ماعة اللغوية (٤) وهنا إشارة إ أن اكتساب اللغة يتم عن طريق التعزيز والتشجيع وليس عن طريق ا اولة وا طأ ولا سيما عند الطفل .

فاللغة طراز فريد من سلوك الفرد، وأن ما يظهر منه لا يكشف عن العمليات ا فية ال ري داخل الفرد كالتآزرات العصبية والعقلية بـ أعضاء الكلام وتكوين الكلام ا خ واستقباله لدى السامع .

و تم ا دارس ا عرفية علم النفس ختلف أهدافها و الات إهتمامها ، وخلفيات كل مدرسة بالعمليات العقلية ال ارسها الإنسان وهو يتعلم اللغة من خلال البيئة ال يط به وا رحلة ال ر ا ،من حيث نضج جهازه العصـ ، مع إدراك هذه ا درسة لأ ية البيئة وما تقدمه من مثـ ات للإنسان ، فإ ا تم بالإنسان وطبيعته الذهنية وطريقة تعامله مع عناصر البيئة ، فا تعلم ارس دوراً إ ابياً من خلال ضبط ا ثـ ات والتحكم فيها قبولاً ورفضاً وفقاً لأهدافه ودوافعه واستعداداته .

وأن إ ابية الإنسانية تعلم اللغة تقف وراء ذلك الكم ا ائل من ا مل ا ديدة ال ينتجها مكتسب اللغة عن طريق صياغته وتأليفه ملها ، عن طريق حفظها وتقليد الآخرين ا (1) وبالتا حاولت ا درسة السلوكية أن تنظر إ الإنسان بعيداً عن كل هذه ا اولات ال يط به ، وأن تتعامل معه على أنه ظاهرة مادية تكم إ قوا تشبه إ حدٍ كبـ ، تلك القوا ال تسـ ا ادي بأوضاعها ا ختلفة .

---

[١] لساني أمريكي درس اللسانيات العامة وعنى باللغات الهند أوربي ولا سيما من حيث وظائف الأصوات ومظاهر الكلم أو الصرفيات – الأسلوب والأسلوبية – عبد السلام المسدي – ص ٢٤٢ .

[٢] أهتم علم النفس الشرطي ومؤسسه بابلوف طبيب روسي (١٩٤٩ – ١٩٣٦م) بالفيزلوجيا ولا سيما بالضهم والمنعكسات اللعابية فإهتدى إلى المعاكسات الشرطية ثم ناظر بين سيكولوجيات الإنسان والحيوان وقرر أن عالم الإنسان تديره قوانين مطابقة لمقتضيات المـنعكس الركي إلا أن الإشارات الحسية تحل محلها الإشارات اللغوية الزهنية ولقد كان لنظرية بافلوف أثر بالغ في إثبات وحدة العالم . المرجـع السابق – ص ٢٤١ .

[٣] علم اللغة التقابلي – محمود سليمات ياقوت – ص ١٦٦ .

[٤] المرجع السابق – ص "١٦٦" .

[١] بحوث في اللغة والثقافة والتربية – د. محمد عمايره .

والتفت عَلماء النفس معرفة الأنظمة الداخلية للعقل البشري ومن هنا كان إهتمام بياجيه موجهاً إ لغة الطفل كوسيلة تكشف عن عمليات التفك عنده ولقد ميز بياجيه ب نوع من كلام الطفل الأول ، الكلام ا ركزي الذات ، والثا الكلام ا كيف للمجتمع ، وكان بياجيه [٢] أول عا نفسي يوجه الإهتمام إ مركزية الذات حياة الطفل وفكره ولغته على السواء . [٣]

ومن هنا ندرك أن بياجيه حاول أن يوضح الفرق ب فكر الراشد وهو فكر مكيف للمجتمع ، وفكر الطفل وهو فكر مركزي الذات ، فالراشد يفكر تفك اً اجتماعياً فهو يتمثل دائماً م العقل صورة ا وجود بالقوة أو بالفعل .

وكان فيجوتسكي من العلماء الذين ناقشوا بياجيه حول نسبة الكلام ا ركزي الذات والكلام ا كيف للمجتمع وحاول فيجوتسكي إيضاح مفهوم الكلام ا ركزي الذات وطبيعته ، توضيح العلاقة الداخلية ب الفكر واللغة ا راحل الأو من النمو ، وأخذ فيجوتسكي على بياجيه أنه ظل بعيداً عن إدراك ة الكلام ا ركزي أي علاقاته التكوينية بالكلام الداخلي ، وبذلك حاول فيجوتسكي توضيح العلاقة ا بكرة ب الفكر والكلام وذهب إ أن هذه ا رحلة ا بكرة لا تكشف عن علاقة توافقية ب ا ذور التكوينية للأفكار والكلمات ، وأن توافق الفكر والكلام ليس هو نقطة البداية أو الشرط الأساسي للنمو ، لأنه يأ إ الوجود خلال عملية ائية للشعور الإنسا ، فالعلاقة ب الفكر واللغة علاقة أولية وإ ا تظهر العلاقة بينهما خلال و التفك والكلام عند الطفل .

ومع ذلك ومن ا طأ النظر إ كل من الفكر واللغة باعتبار ا عمليت منفصلت على و ، إما يس ان بشكل متوازٍ أو تقطع إحد ا الآخرى عند نقطة معينة ، وبذلك تصبح العلاقة التوافقية بينهما آلية .

ولكي نفسر صفات التفك كلمات ننظر إ الكل الذي ينتميان إليه ، ولذلك كان لزاماً أن ننظر إ الكل باعتباره وحدات .

وبناءً على أن ا ع هو وحدة (التفك الكلمات) وأن مع الكلمة ينمو ويتطور ولا يتغ [١] فعلم النفس القد نظر إ العلاقة ب الكلام وا ع نظرة ترابطية بسيطة تقوم على أساس حدوث تأث الكلمة وتأث الشئ الذي تش إليه .

ومع القول بفكرة الترابط هناك قولاً آخر يرد التفك إ عملية التداعي ، والقول بوجود قوان خاصة تنظم ـ ـ رى الفكر من ناحية أخرى ولكن مدرسة ا شتطالت (الصيغه) . [٢] وهي من ا دارس ا ديثة علم النفس ، حاولت التغلب على ا بدأ العام على نظرية التداعي ، و رير اللغة والفكر من ربقة قوان التداعي واخضاعها لقوان صياغه التراكيب .

أبقت هذه ا درسة الفصل التام ب اللغة والفكر فالكلمات نظرهم تدخل تركيب الأشياء ، فالرابطة ب الكلمة ومعناها تصبح مسألة تداعِي بسيط وإ ا أصبحت مسألة تركيب وبذلك أزالت مدرسة ا شتطالت كل الفوارق ب الفكر وصورته العليا والإدراك وصورته الأكثر بدائية ، وبذلك ردت التفك ا بدع عند الراشد والكلمة الأو عند الطفل ، والعملية العقلية عند الشمبانزي ارب كوهلر إ قاسم مشترك تركي عام . [٣]

و كن القول أن مدرسة ا شتطالت أحتفظت بدأ الأستقلال ب الفكر واللغة ، وأنكرت وجود قوان خاصة للفكر فكل شئ ينتهي إ قوان التركيب العام .

---

[٢] عالم نفساني سويسري – أهتم نأة الزكاة عند الإنسان وتميزت بحوثه في علم النفس التكويني بالمزج بين تقديرات علم المنطق والأصولية وهو الذي لفتى لعملية تولد الأنظمة في زكاء الإنسان – وربط المنحى الوظيفي بالتوليدي فأخذت البنائية منه هذا الإتجاه – النظرية البنائية >ز صلاح فضل – ص ١٧٩ .

[٣] سايكلوجية اللغة والمرض العقلي – سيد جمعه – ص ٣٢ .

[١] المعنى لا يتغير وقد تقوى الرابطة وتضعف وما يظهر بإعتباره نمو يؤدي إلى التغير في العلاقات الترابطية بين الكلمات والأشياء – أنظر اللغة والفكر عند الطفل – سيد غنيم – مجلد الفكر المجلد الثاني العدد الأول – ص ١١٩ .

[٢] مدرسة الصيغة والتراكيب مؤسسها كوهلر – كان متمكناً في علم الطبيعة ركز إهتمامه على نماذج ميدانية الذي يقضي بأن الإشارات تسطضم بالزهن – بشكل منفصل عنها لا تلبث إلى أن تصل إلى الجهاز العصبي إلى أشكال منظمة وتظل مهمة الباحث العثور على هذه القوانين المنظمة – النظرية البنائية – د. صلاح فضل – ص ١٧٤ .

[٣] الكلمات تكتسب معنى وظيفياً يماثل أو يشابه المعنى الذي تكتسبه العصا عند الشمبانزي بإعتبارها وسيلة إلى الوصول إلأى الهدف .

وهكذا يبدو الفكر نظر هؤلاء منفصلاً عن اللغة لأن الكلمة وا ع تربطهما علاقات اثل وتشابه تعرف (بالتداعي البسيط) . [٤] وتوصل من خلال ذلك النقاش ب علاقة الفكر باللغة أن علاقة الفكر بالكلمة أولاً قبل كل شئ هي عمليته عقلية ، وليست شيئاً سوساً ، فهي انتقال من الفكر إ الكلمة وبالعكس و هذه العملية ضع العلاقة لتغي ات كن النظر إليها كنمو وظيفي . وهذا السريان ب الكلمة والفكر دث ركة داخلية خلال مستويات عدة :- [١]

ا طوة الأو :

ليل العلاقة ب الفكر والكلمة هي أذن ث هذه ا ستويات ال ر خلا ا الفكر قبل أن تصاغ غالب لغوي . وهناك مستويات من الكلام ا ظهر الداخلي الدلا للكلام ، وا ظهر ا ارجي الصو ورغم أ ما يكونان وحدة حقيقة إ أن لكلٍ منهما قوانينه ا اصة ا ركة .

فا ستوى الدلا أو مستويات الكلام الداخلي وبدون الفهم السليم للطبيعة السيكولوجية للكلام الداخلي يتعذر تفس العلاقة ب الفكر والكلمات يع صورها ا عقدة ، و ثل هذه ا شكلة أصعب ا شكلات ارتباطاً بنظرية الفكر واللغة . فالكلام الداخلي مصطلح يكتنفه الغموض فهو مصطلح سيكولوجي استخدم ظواهر تلفة .

فقد استخدم ع الذاكرة اللفظية وقد فهم ا صطلح أنه اختصار للعمل العادي للكلام ، فالكلام الداخلي هو كلام غ منطوق ، غ ملفوظ به ، وصف واطسون الكلام الباط بأنه ماوراء الصوت ، وعرفه بأنه منعكس كلامي ، ا زء ا ركي فيه له تعب صريح ، وقد فهم ا صطلح على أنه كل شئ يسبق الفعل ا ركي للكلام ا ذلك خ ات الكلام غ ا سية وغ ا ركية وال لا كن ديدها وهذا ا وقف ا تطور منطقياً يؤدي إ القول بأن الكلام الداخلي ليس كلاماً على الأطلاق ، بل هو فكر ونشاط وجدا إرادي لأنه يتضمن دوافع الكلام والفكر ال يع عنها كلمات ، نظر فيجوتسكي إ أن الكلام الداخلي ليس هو ما يسبق الكلام ا ارجي هو ويل الفكر ا كلمات ووضعه صيغة مادية موضوعة ، بينما يتحول الكلام الداخلي ا فكر ، ومن هنا فالكلام الداخلي ثل كلاً له قوانينه ا اصة فتركيب كل منهما تلف اماً . [٢]

وانتهى القول إ أن الكلام ا ركزي الذات ثل مرحلة تسبق و الكلام الداخلي وهذا لاعتبارات ثلاثة :-

وظيفية وتركيبية وتطورية ، فكلا النوع من الكلام قق وظيفة عقلية ، كما أن تركيب الكلام ا ركزي الذات قريب من الكلام الداخلي .

أما من الناحية التطورية د أنه عند بداية ا رحلة ا درسية تفي الكلام ا ركزي الذات بينما بنمو الكلام ا ركزي الذات ويزداد ح كن القول انه ول إليه ، وإذا كان هذا الانتقال دث بالفعل فإن الكلام ا ركزي يصبح غاية باعتباره مفتاح دراسة الكلام الداخلي ا اص ، ذلك أنه لا يزال حديثاً منطوقاً متفوهاً به ، حديثاً خارجياً عن طريقة تعب ه داخلياً وظيفته وتركيبه ، ومن هنا فالعملية الداخلية للكلام ضع للتجريب ، لنرى مظهرها ا ارجي فالكلام ا ركزي الذات يعت وذجاً لذلك فهو للكلام داخلي ولكنه قابل للملاحظة والتجريب ا باشر عملية داخلية طبيعته خارجية تعب ه .

وهكذا انتهى فيجوتسكي إ أن الكلام ا ركزي الذات ينمو ويتطور و هد لفهم الكلام الداخلي الذي ثّل مستوى الانتقال من الكلمة إ الفكر ، والانتقال من الكلام الداخلي إ ا ارجي ليس رد تر ة من لغة إ لغة أخرى أو رد إضافة ا ظهر الصو إ الكلام الداخلي ، ولكنه إعادة بناء الكلام ، أي ويل التراكيب البنائية ا اصة إ صور بنائية أخرى خاصة بالكلام ا ارجي . ولعل من أبرز صفات الكلام الداخلي وال يتميز ا غ ه هي ال عة إ الاختصار ، اختصار ا مل بشكل تفظ با سند وحده ، و ذف ا سند

---

[٤] النظرية البنائية في النقد الأدبي – د. صلاح فضل –ص ١٧٣ .
[١] اللغة والفكر عند الطفل د. سيد غنيم – مجلد الفكر المجلد الثاني العدد الأول – ص ١٢٠ .
[٢] سيكولوجية اللغوى والمرض العقلي – سيد جمعه – ص ١٢٥ .

إليه والكلمات الأخرى المرتبطة به ، وفكرة الاختصار في الكلام الخارجي إلقاء الضوء على طبيعة الكلام الداخلي الذي يعتبر الاختصار والاسناد بمثابة القاعدة .

وبذلك وصل فيجوتسكي بين اللغة والفكر وجعل الكلام المركزي الذات هو حلقة الاتصال التي تستمر في الظاهر ولكنها الواقع تأخذ صورة أخرى من حيث التركيب والوظيفة ، وليس معنى ذلك أنه فصل بين الفكر واللغة فهما في نظره حقيقتان مرتبطتان إحداهما بالأخرى برباط وثيق .

يمكن أن نلاحظ أن فيجوتسكي تصور أن الكلام لدى الطفل يكون اجتماعياً في البداية ثم يليه الكلام المتمركز حول الذات وبعده الكلام الداخلي (التفكير) وهو يناقض التصور السلوكي والتتابع الارتقائي لدى بياجيه .

ويقرر فيجوتسكي أن اللغة والتفكير عمليتان ليستا متماثلتين ولا يوجد تماثل بين وحدات التفكير ووحدات الكلام ، فالتفكير له بنائه الخاص .

أما بياجيه يقرر أن الارتقاء المعرفي يحدث أولاً ثم يتبعه الارتقاء اللغوي ويتميز تفكير الطفل خلال تفاعل الطفل مع الأشياء بيئته ، ويتأثر ارتقاء اللغة بهذا التفاعل ولكنه لا ينمو مع النمو المعرفي .

ويرى بياجيه أن الكلام المتمركز حول الذات ينظّم ويوجه الذات وبذلك نلاحظ أن الكلام المركزي الذات والكلام الاجتماعي وظيفة كل منهما كانت محل خلاف وجدل بين بياجيه وفيجوتسكي .[1]

وهكذا إهتم علماء النفس ولا سيما بياجيه بمراحل النمو العقلي عند الطفل ، واطلق بياجيه على مراحل نمو القدرة على استخدام الصورة الذهنية والرموز مرحلة ما قبل العمليات وفي هذه الفترة تكون لدى الطفل مفاهيم غير ناضجة وبمجرد وصول الطفل إلى هذه المرحلة تأخذ القدرة على استخدام الـــرموز والصور الذهنية في الإزدياد بشكل عام فتزداد قدرته اللغوية[2] .

ونخلص من ذلك إلى أن الفصل بين التفكير واللغة ليس حسناً ، وأن العلاقة بين الكلمة ومعناها علاقة خارجية بحتة ، وبالتالي يدرسون خصائص الفكر مستغلاً عن خصائص الكلام .

فاللغة ليست إلا مظهراً متميزاً فحسب من مظاهر ما يسميه بياجيه الوظيفة الرمزية ، دون أن تكـــون اللغة هي التي تخلق التفكير الذكي ، إذ ثمة أشكال مختلفة تتحقق بها تلك الوظيفة .

ومع آخر يرى بياجيه إن اللغة وسيط يعمل ضمن وسائط أخرى وإن كان على قدر عالٍ من التميز فإن هذا يعني المطابقة أو التوحيد بينهما وبين الفكر دون أن تكون الأولى هي مصدر الثاني ومنبعه ، وإنه المصدر الآخر للترابطات المستدعاه من مخزون الذاكرة ، ولا يمكن إنكار فائدته ولكنه عقيم ومن يمكن القول أن ما يجعل اللغة مفيدة للتفكير هو المساعدة التي تقدمها الكلمات للتفكير عند ما يبدأ التفكير من وسيط أكثر ملائمة هو التخيل البصري مع الوعي بأن التفكير من خلال الكلمات . أمر غير كاف فالوسيط البصري ، من منظور ، أقوى تفوقاً ، لأنه يقدم مكافئات بنائية لكل خصائص الأشياء ، فالميزة الأساسية هي التي يتمتع بها الوسيط البصري عن نظيره اللفظي ، دون أن ننكر اشتراطهم في التنوع وهو قدرة الوسيط البصري ، على تمثل الأشكال ذات بعدين أو ثلاثة أبعاد داخل المكان بالمقارنة بالبعد الواحد الذي تطرحه اللغة اللفظية .[3]

نستشف من ذلك أن دراسة اللغات أخذت منحاً آخر في دراسة اللغة ، وهو إهتمام الباحثين اللغويين بدراسة مكونات اللغة ، فتعمل هذه الدراسة على دراسة النظام الذي يضبط ترتيبها أو يتبع تطورها التاريخي . ومن أهم أسباب دراسة اللغة بالنسبة لتشومسكي اعتبار اللغة مرآة للعقل Amirrorogmind ولا نقصد بذلك أن المفاهيم التي نفيد عنها والاستخدامات المختلفة للغة تعكس أنماط التفكير

---

[1] مقال اللغة والفكر عند الطفل – د. سيد غنيم – مجلة الفكر المجلد الثاني العدد الأول (بتصرف) .
[2] مقدمة في اللغويات المعاصرة د. شحادة فادح وآخرون – ص ١٩ .
[3] اللفظ والمعنى بين الأيداولوجيا والتأسيس المعرفي د. طارق النعمان – ص ٢٨٦ .

الإنسا فحسب ، ولكن الأمر الأكثر أ يه هو أن دراسة اللغة قد تساعدنا   اكتشاف قواعد ومبادئ ردة تضبط بنية اللغة واستخدامها ، مبادئ فطرية مستمدة من ا ميزات العقلية للجنس البشري ، فاللغة الإنسانية نظام معقد جداً ولذلك فإن إدراك هذا النظام وس غوره يعتـ إ ازاً فكرياً خارقاً وهي نتاج الذكاء البشري ، ومن   اكتسا ا من خلال عمليات غ إرادية ودون وعي ا .

اللسانيات وعلم النفس :

إن ا دف من دراسة اللغة لا تقتصر على فهم بنية اللغة ووظيفتها بل يتعدى ذلك إ   اولتنا فهم عمليات الفكر الإنسا   ، وبذلك تصبح دراسة اللغة هي دراسة الدماغ الإنسا   ، وهذا ما أوضحه تشومسكي   كتابه (تأملات   اللغة) Naamchomskg alection of lamquage . وقد ربط تشومسكي علم اللغة بالدراسات النفسية   مؤلفاته ال ظهرت بعد (كتابه) التراكيب النحوية وقد أكد   تلك ا ؤلفات عن أ ية النحو التحويلي   دراسة العقل البشري ، و   التعرف على خصائصه وا اهاته ، ووصف أن علم اللغة أحد فروع علم النفس ، وليس فرعاً بذاته ، ولكنه   يقصد ذا الوصف أن يتحول البحث   اللغة إ البحث   استعمال اللغة ، أي من ا قدرة أو الكفاءة اللغوية إ ا مارسات أو الأداء اللغوي ، وكل ما يقوله تشومسكي هو أن أهم ما   الدراسة العلمية للغة ، لا سيما النحو التوليدي هي ما تقدمه بالنسبة لإدراكنا للعمليات الذهنية ا اصة بإنتاج اللغة وفهمها .[١]

وحاول تشومسكي   كل دراساته أن يوضح العلاقة بـ اللسانيات وعلم النفس ، و لص تشومكس إ   نتيجة مؤداها أن اللسانيات هي جزء من علم النفس على ا دى ا نظور ، ولكنها جزء من علم البيولوجيا على ا دى البعيد .[٢]

وأكد تشومسكي أنه لا كن لأي علم أن يقيد نفسه بالطريقة النافعه وا فيدة ، بشكل من الأشكال دون الإهتمام بطبيعة تلك ا عرفة .

فلو قيد علم النفس بدراسة أساليب التعليم والإدراك والكلام فأنه سيلغي   حقل دراسته النظام نفسه ا ستفاد منه وبذلك فإنه سوف يدين نفسه بالعقم . وا اه اللسانيات لدراسة نظام اللغة خلق حلقة وصل بـ هذين العلم .

و   هذا الإطار اعتـ تشومسكي علم اللسانيات الذي يهتم بالنظام ا عر اللغوي النفسي ولا يهتم بالطريقة ال يكتسب ا النظام ستعيد نفسها وتلغي من حقلها القضايات ذات الأ ية الكـ ى .

ويستطرد في ذلك الأمر بتأكيده أن علم النفس اللغوي ينبغي أن يشمل دراسـة النظـام اللغوي المكتسب النحو وأساليب الاكتساب المرتبطة مع النحوالعالمي ، ويعتبر هؤلاء البنيويون أن اللغة عادة من العادات تكتسب بالمحاكة والقياس ، وعامل القياس هو الذي يفسر بـه البنيويـون كيف أن الإنسان استناداً إلى صيغ إنسانية مقدرة سمعها فعلاً يستطيع أن يؤلف صيغاً لم يـسمعها قط في حياته ولا تعرف في عدها حداً ينتهي إليه .

ويعتبر بلو مفيلد أن كل بنية نحوية هي قياس وأن دراسة لغة من اللغـات تتمثـل فـي الكشف عن مجموعة العناصر التي يتعاطاها أفراد المجموعة اللسانية مما يؤلف قياسات تلك اللغة التي يستعملونها ، فالنحو حسب هذه المدرسة هو علم تصنيفي غايته ضبط الصيغ الأساسيه فـي اللغة حسب درجة التوتر لا غير . والذي دفع البنيويون إلى التزام الموضـوعية فـي الوصـف

---

[١] مقدمة في اللغويات المعاصرة –د. شحادة فادح وآرون – الجامعة الأردنية الطبعه الثانية ٢٠٠٣م – ص ١٩ .
[٢] نحو نظرية فلسفية ودلالية – د. مازن الواعر – ص ١٨١ – ١٨٨ .

فنبزوا كل عامل نفسي أو فلسفسي في تقدير الظاهر اللغوية ، وقاوموا كل اعتبار صفوي حتى نفوا وجود الخطأ في اللغة معتبرين أن كل ما ينطق به الإنسان صحيح نحوياً .

وبذلك اعتبرت اللسانيات نظام معرفي واحد من علم النفس وهذا النظام من السهل أن نعزله عن بقية الملكات العقلية المعرفية المتنوعة وذلك لدراسة غناه وتشابكه .

وهنا يشير تشومسكي لضرورة دراسة علماء النفس لمفهوم المقدرة اللغوية وهذا النموذج اللساني يقابله نموذج الأداء اللغوي ، فمجرد تعلم المقدرة اللغوية وامتلاكها يستطيع المتكلم أن يفهم وينتج عدداً غير محدود من الجمل الجديدة .

ويقرر تشومسكي يجب على علماء النفس أن يدرسوا هذا النظام كعضو عقلي متكامل ويتحدد شكل ذلك النظام وطبيعته ومعرفة النظرية المتعلقة ببيئته .

ولذلك قرر علماء اللغه وعلى رأسهم تشومسكي وسويسر أن اللغويات أقرب إلى علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي من علم النفس الإدراكي . فبينما تهتم الدراسات اللغوية ببنية الأنظمة اللغوية ، أو تستخدم في وظائفها المختلفة ، دونما اعتبار الآليات الفيسولوجية والسيكولوجية التي ينطوي عليها الحلول اللغوي دونما اعتبار لأي شئ ماعدا النظام اللغوي ، فإن فروعاً كثيرة من المعرفة تشترك مع اللغويات في سبيل التوصل إلى فهم أفضل للظواهر اللغوية ، وقد نتج عن هذا الإهتمام المشترك فروع متعددة أخرى أطلق عليها أسماء مميزة :- علم اللغة الاجتماعي ، علم اللغة النفسي ، اللغويات المعرفية ، واللغويات الإدراكية ، واللغويات العصبية ، واللغويات التاريخية . [1]

أما تشومسكي فيقرر أن اللغويات يجب أن تصنّف كفرع من فروع علم النفس الإدراكي . [2]

وتقودنا هذه العبارة إلى اعتبار تشومسكي حول المقدرة Compence ، أو الأداء اللغوي Performance مثل ما فعل سوسير في التفرقة بين الكلام واللغة ، على خلاف النظرة السلوكية للغة باعتبار اللغة نشاط يمكن ملاحظة بعض جوانبه كسلوك لغوي تفاعل واتصالي .

ويرى تشومسكي أن مقدرة الفرد اللغوية هي معرفته بلغة معينة أو معرفته للنظام اللغوي الذي يمكنه من إصدار مجموعة كبيرة لا حصر لها من الجمل التي تشكل لغته ، أما الأداء اللغوي فهو سلوك لغوي ، قيل عنه بأنه مرهون ، ليس فقط بمقدرة المتكلم اللغوية بل

---

[1] مقدمة في اللغويات المعاصرة – د. شحادة فادح وآخرون ص ٤٧ .

[2] من أكبر المداخل لنظرية التوليدية التحويلية لعلم النفس الفردي الذي يهتم بوجود المعنى الصيغة التي تحددها ملكة اللغة وكتاب المعرفة اللغوية تأليف تشومسكي ترجمة د. محمد فتيح – ص ٥٢ .

تشكّله من عوامل غير لغوية أيضاً تشمل فيما تشمل الأعراف والتقاليـد الاجتماعيـة ومعتقـدات الإنسان عن العالم من حوله ومواقف المتكلم العاطفية تجاه ما يفصح عنـه والافتراضـات التـي يحملها في ذهنه عن مواقف مما يتحدث إليه .

إن التمييز بين المقدرة اللغوية والأداء اللغوي ، يقع في صلب المواضيع التي تتناولهـا المدرسة التوليدية ويتركز على وصف المعرفة بأنها مجموعة من القواعد والأحكام التـي كونهـا المتكلم في ذهنه بفضل الوظيفة لقدرته الفطرية من أجل اكتـساب اللغـة والتـي طبقهـا علـى المعلومات اللغوية التي سمعها من خلال مرحلة الطفولة ، ويمكن النظر إلى القواعد التي يكتسبها اللغوي للغة معينة كأنموذج لمقدرة المتحدث بتلك اللغة .

إن التمييز بين المقدرة اللغوية والأداء يشبه إلى حدٍ ما التمييز الـذي عقـده سوسـير ، فالمنظومة بالنسبة لسوسير عبارة عن ظاهرة اجتماعية أو عرف اجتماعي تجريدي بمعنى أنها لا تمتلك وجوداً مادياً ، ولكنها تعتبر أمراً واقعاً في حالات معيّنة ضمن الـسلوك اللغـوي للأفـراد المنتمين للمجتمع اللغوي ، وبخلاف تشومسكي الذي يركّز على المعرفة النموذجية التي يمتلكهـا المتكلم ، فإن سوسير يعطي أهمية خاصة للطبيعة الاجتماعية للمنظومات اللغويـة ويـرى بـأن اللغويات أقـرب إلى علم الإجتماع وعلم النفس الاجتماعي .[3] منهما إلى علم النفس الإدراكي .[4]

وبالتالي يمكن تعريف علم اللغة النفسي بأنه العلم الذي يدرس اللغة في إطار علاقة كـل منهما بعلم النفس .

ويقول سيد جمعه ((ومما يؤخذ على هذا التعريف أنه يعتبر أن موضوع علم النفس هو النفس البشرية ، ومن المعروف الآن أن علم النفس هو العلم الذي يدرس السلوك حيث أن مفهوم السلوك مفهوم قابل للتعريف الإجرائي وللقياس الموضوعي)) .[1]

وقد لخّص الدكتور محمود سليمان ياقوت والدكتور سيّد جمعة الموضوعات التي يدرسها علم النفس اللغوي في النقاط الآتية :- [2]

(١) كيف يستطيع الفرد استخدام معرفته اللغوية ؟ .

(٢) كيف يمكن للفرد اكتساب المعرفة اللغوية ؟.

---

[3] طبق علم النفس الإجتماعي فكرة البنائية حين إقترح للتحليل العلاقات فكرة الميدان الكلي التي تشمل الـذات بجميـع نزعاتهـا مـن العلاقات المجاورة والإنفصال ومظاهر السلوك وحدود العناصر التي تكون هذا الميدان .

[4] مقدمة في اللغويات المعاصرة – د. شحادة فادح وآخرون – ص ٢١ .

[1] سايكولوجية اللغة والمرض العقلي - سيد جمعه – ص ١٨ .

[2] علم اللغة التقابلي محمود سليمان ياقوت –ص ١٧٠ – ١٧٠– سايكولوجية اللغة والمرض العقلي – د. سيد جمعه – ص ١٦ –٢٠ .

(٣) عملية اختيار المتكلم للمفردات التي يحتاجها للتعبير .
(٤) التعرف على طبيعة التذكر وتركيب الذاكرة أو ما يطلق عليه (المعجم الذهني) . والصعوبات التي تواجه ابن اللغة عند استحضار المفردات لاستعمالها .
(٥) وكيف يتعلم الطفل لغته الأم ودراسة أمراض اللغة والعلاقة بين اللغة وعلم الأمراض النفسية ؟.

وما كل هذا الإهتمام بدراسة اللغة ، ولما يولي علماء النفس كل هذه العناية لهذا المظهر من مظاهر السلوك ؟. [٣]

وهكذا أقر علماء اللغة اللسانيين أن دراسة اللغة يجب أن تقوم أولاً على دراسة العقـل الإنساني، وبذلك يرى أنه من الأوفق أن يكون علم اللغة فرعاً من فروع علم النفس الإداركـي . [٤] وهو رأي يوافق عليه معظم علماء اللغة . [٥]

ويفسح بعض علماء اللغة تعريفاً أوسع لهذا الفرع من العلم (علم النفس اللغوي أو علـم اللغة النفسي) باعتباره يدرس العلاقة بين اللغة والعقل الإنساني مثل اكتساب اللغة باعتبارها عملية عقلية نفسية ، وإدراك الكلام وطبيعه العلاقة بين اللغة والتفكير وعلاقة اللغة بالشخصية ووظيفـة اللغة وسيكولوجية القراءة وعيوب الكلام .

أما علماء النفس فيرون أن علم النفس يهتم بالعلاقة بين خـصال الأشـخاص وصـور التواصل وتشمل العملية التي يستخدمها المتكلم والكاتب فـي إصـدار الإشـارات أو الرمـوز ، والعملية التي يعادلها تحويل هذه الإشارات والرموز وتفسيرها ما يـسمى (بفـك الترميـز) [١] (Decoding) وهذه العملية نفسها هي التي يسلط عليها سوسير الضوء ، عن طريق توظيف ملكتـي الاستقبال والتنسيق وتشغيلهما . استحضر سوسير مفهوم النسق أو البنية أو النظام ، وهي صورة ميكانزم أو مجموع الصور اللفظية ، ذات الطبيعة النفسية المختزنة في أدمغة كل الأفراد تـشكّل التبلور الاجتماعي. [٢]

ومن هنا تتضح العلاقة بين علم النفس والدراسات اللغوية في العصر الحديث ، فتفجرت من تلك العملية الآلية للكلام كل النظريات اللغوية الحديثة .

ومن هنا أدرك علماء النفس المعرفيين بدورهم الحتمية اللغوية (Lingaisticdeter mincm).

---

[٣] مقدة في اللغويات المعاصرة – د. شحاده فادح وآخرون – ص ٢١ .
[٤] المرجع السابق – ص ٤٩ .
[٥] نحو نظرية لسانية دلالية فلسفية – د. مازن الواعر – ص ١٨١ .
[١] سيكولوجية اللغة والمرض العقلي – د. سيد جمعه – ص١٨ .
[٢] مدخل إلى لسانيات سوسير – د. مبارك حنون – ص ٢٨ .

أي أن اللغة هي التي تحدد الفكر بمعني أن اللغة تعكس الفكر ، وتعتبر اللغة جزء مـن جوانـب المعرفة وأصبح بذلك علم النفس المعرفي مجالاً خصباً من مجالات البحث منذ آواخر الخمسينيات وذلك مع ظهور أسلوب معالجة وتجهيز المعلومات .(lincormation proscessing) تلك الأداة الجيـدة للبحث في ميدان العمليات المعرفية ، وبناء على ذلك تم التركيز على دراسة قواعد اللغة المعروفة (بالنحو) . [٣]

وبذلك دخلت التخصصات الحديثة في مجال دراسة اللغة ، وأقدم بعض الباحثين علـى إدخال الحاسبات الآلية ، لاكتشاف القواعد النحوية ، ومن ذلك ما قدمه ماهر ١٩٩٦م وما قدمـه فريدمان (١٩٦٩م – ١٩٧١م) حيث أبتكرا برنامجاً يساعد علماء اللغـة علـى فحـص القواعـد التحويلية واستخدامها في إشتقاق الأبنية السطحية Transformational من الأبنيـة العميقـة Surface Structure وبين تأملات القدماء والمحدثين استطاع علم النفس أن يجعل من اللغة أحد الموضوعات التي تدخل في تحديد العوامل النفسية في الاستخدام اللغوي . [٤]

ووقفت نظرية تشومسكي (١٩٥٧م) باعتبارها الحلقة الأساسية لفهم تشعب دراسات اللغة في بعدها النفسي ووضح مفهوم تشومسكي الخاص لمستويات المعالجة المتضمنة في فهم العلاقات النحوية (النحو التحويلي) وأن اللغة عملية سايكولوجية نشطة تنشأ عن مجموعة سلبية محدودة من القواعد النحوية .

ونلاحظ من ذلك أن السلوك اللغوي عند تشومسكي سلوك عقلاني يعتمد على مجموعـة من القوانين التحويلية التي تحول الجملة (النواة) إلى تلك الجملة التي يصدرها المـتكلم ويفهمهـا السامع ، وقد تأثر علم النفس بما في النحو التوليدي من حديث عن المقدرة علـى إنتـاج الجمـل وفهمها .

والحق أن تفرد علم النفس اللغوي ينبع من فهمه للواقع السيكولوجي للغة كظاهرة معقدة في ضوء التراكيب أو النحو (علم التركيب) ، ولقد أصبح بفضل علم النفس اللغـوي أن نفهـم أن اللغة عملية سيكولوجية خاصة بالفرد ، مثل دور الخبرة السابقة في فهم اللغـة ، بينمـا يقتـصر تركيز علماء اللغة على مدى شيوع اللغة بين الأفراد والثقافات ، متمثلة على التفرد والانفتـاح ، وازدواجية التشكيل . [١]

---

[٣] مرجع سابع – د. سيد جمعه .
[٤] مرجع سابق – ص ١٦ .
١ مبادئ اللسانيات – أحمد محمد قدور – ص ١٤ .

ومن هنا يمكن القول أن مفاهيم علم النفس اللغـوي بمجالاتـه المختلفـة مـن الـذكاء الاصطناعي وعلم النفس الإدراكي وهذه الفلسفة العلية أثرت أثراً بالغاً في تطور دراسـات علـم اللغة الحديث ولعبت دورها بعيداً عن تأثيرات علم اللغة .

وقد كان لظهور نظرية تشومسكي في النحو التحـويلي التوليـدي (Qenerative grammers) تأثيرها في علم النفس خصوصاً مقولة النظرية بأن اللغة تنتج وتفهم من خلال عمليـة إبداعيـة . وقد أخذ علماء النفس مقولة (التوليدي) على أنها تعني القدرة على إنتاج عدد غير محـدود مـن الجمل الجديدة في إطار القواعد النحوية للغة في الوقت نفسه ، وذلك عن طريق امتلاك المـتكلم لمجموعة محددة من القواعد النحوية والمستمع بدوره يفهم هذه الجمل لأنه يمتلك نفس مجموعـة القواعد .

وكانت استجابة علماء النفس لتضمنيات نظرية تسومكسي مباشرة ، فقد إهتموا بمحاولة البحث عن الواقع أو الوجود السيكولوجي الفعلي لنموذج النحو التوليدي كما وصفه تشومـسكي ، أو نموذج الأداء السيكولوجي من ناحية أخرى ، ثم بدأ إهتمامهم يتحول إلـى النظـر المتعمـق لنموذج الكفاءة ذاته .

يمكن القول أن دراسة اللغة أصبحت قاسماً مشتركاً بين علماء اللغة ودراسـات علـم النفس ، فعلماء اللغة مهتمون بالوصف البنائي لظواهر اللغة أي بالقدرة الضمنية التي تجعل مـن الممكن أن يقوم الناس في المواقف المثالية بعمل أحكام خاصة عن مطابقة الكلام للقواعد اللغويـة العامة ، ولهذا فهم مهتمون بالتتابعات الصوتية وقواعد تكوين الجمل وقواعد فهم الكلمات .

أما علماء النفس فمهمتهم استخدام أساليبهم للبحث عن الطرائق التي تترجم فيها الكفـاءة لاستخدامها في مواقف عيانية والمكنزمات السيكولوجية التي تقف خلف الأداء اللغوي والعوامـل السيكولوجية التي تسبب انحراف الأداء عن الكفاءة . (٢)

وينتهي علماء النفس في أبحاثهم إلى وجود منطقة خاصة في خلايا المخ يدعونها مركز الكلام فليس مركز الكلام في الحقيقة إلا جزء من المركز العام الذي ينتهي إليه السمع والتـذكر ، وبهذا تأخذ الموجات الهائمة قيمتها اللغوية ودلالتها من هذا المركز العام المسمى (مركز الكـلام) وهي بدون ذلك لا تعني شيئاً ، ومركز الكلام ما هو إلا شبكة تصل خيوطها بين عدد عظيم مـن نقاط النشاط المختلفة في المخ وتتضافر فيها العناصر العضوية والعصبية والنفسية على احـداث أثر واحد هو الذي يسمى (الكلام) . (١)

---

[٢] سيكولوجية اللغة والمرض العقلي – د. سيّد جمعه – ص ٣٤ .
[١] اللسان والإنسان – د. حسن ظاظا – ص ٣٤ – ٣٥ .

نلاحظ نقصان المنهج التجريبي الحركات الباطنية في تكون الدلالة اللغوية ، ذلك أن المناهج التقليدية التي تهتم بدراسة الدلالة تنقسم إلى قسمين :-

الأولى : تسمى طريقة التعريف وهي طريقة تصنّف الأطفال تجريبياً عن طريق سؤالهم عما يلفظون به ، ولهذه الطريقة عيبان :-

الأول : أنها تتناول حصيلة منتهية من الدلالة ، التي لا تهتم بالتحولات والتطورات ، وهذه لا توضح ارتباط اللفظ بإدراك الطفل .

الثاني : أنها تستعمل ألفاظاً أخرى يعتقد أنها معادلة لما تسأل عنه فلا تُمثل هذه في عقل الطفل .

الثانية : تعتمد على التجريد والوسائل النفسية التي تكون الفكرة عن طريق تقديم مؤثرات معينة نطلب من الطفل أن يكشف القدر المشترك منها ، فإدراك الطفل للسمات المشابهة نوع من الدلالة عن دور التكوين ، وهذه الطريقة أيضاً لا تعني كشف العلاقة بين الكلمة ومدلولها . (٢)

ويقول رمضان عبد التواب في كتابه: (المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي) :-

((ونحن لا ننكر كما سبق أن قررنا أن العلاقة وثيقة بين هذه الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية وقد لاحظ علماء النفس بحق أن مسائل كثيرة تساعد مساعدة جدية على فهم الظواهر اللغوية كالتذكر والاسترجاع والتخيل وتداعي المعاني ، والإدراك ، والانتباه ، والحالات الوجدانية المختلفة ، وغير ذلك من مسائل علم النفس ، وهي التي تفسر لنا كيف يتعلم الطفل اللغة كلاماً ثم كتابه ، وكيف يصوغ الإنسان عباراته وكيف يعبر عن أفكاره وكيف يفهم السامع ما يسمع ويدرك القاري ما يقرأ من تلك الرموز الكتابية)) . (٣)

وهذا ما جعل تشومسكي يلتفت إلى دراسة علم النفس التي توضح مفهوم الكفاءة اللغوية والعوامل السيكولوجية المساعدة لمعرفة أو إنتاج الجمل وفهمها ، بل استند في نظريته على معطيات علم النفس .

وأهتم علم النفس بالجانب الانفعالي للغة وليس الجانب المنطقي وهنا نشير إلى ما أشار إليه تشومسكي حينما ميز بين اللغة والكلام واعتبر اللغة (قواعد النحو) والكلام الأداء الفعلي والمنطوق .

---

٢ المرجع السابق – ص ٧٣ .

٣ مدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي – د. رمضان عبد التواب – ص ١٣٩ .

وكذلك أشار إلى الفرق بين اللغة المنطقية واللغة الانفعالية وعلّق فندرس : ((أن الفـرق الأساسي بين اللغة الانفعالية والمنطقية ينحصر في تكون الجمل ويظهر الفرق جلياً في أن الترتيب المنطقي الـ ـ ـذي يفرضه التفكير المتصل وفقاً للأهمية الذاتية التي يخلعها عليه المتكلم)) . [١]

فاللغة العربية كثيراً ما تعتمد على قيمة الكلمات ، ووظيفتها الذاتية في الجملة بعيداً عن التركيب المجرد ، لأنها لغة وظيفية الغرض منها الإبانة والقصد وليس الكلام آلي مرسل ومستقبل دن مراعاة للمقام والسياق والمقال .

أنظر إلى قول العجاج :-

حتى إذ جن الظلامُ واختلط جاءوا بمذقٍ هل رأيت الذئبَ قط

يقول رمضان عبد التواب ((إننا هنا لسنا في حاجة إلى تأويل النحاة وإدعـائهم حـذف الوصف ، وأن الأصل بمزق مقول فيه (هل رأيت الذئب قط) وأن الجملة الطلبيـة مقبولـة لهـذا القول المقدر فما قصد العجاج إلى شئ من هذا)) . [٢]

وهنا إشاره إلى مراعاة الجوانب الأخرى في تفسير الجملة، إذ أن الجانب النحوي جانب منطقي لترتيب الأفكار أما الجانب الانفعالي جانب يشرح المعنى ويفسره ويبـين قيمـة الكلمـات ووظيفتها الذاتية بعيداً عن التركيب المجرد .

ولا شك أن ذلك يقودنا إلى قوله أن كثير من البنيويين يبعدون المعنـى فـي دراسـاتهم استبعاد كلياً ويهتمون بالشكل الخارجي للغة (التركيب) ، ويرى بعض علماء الغرب أن الكلام عن التحليل اللغوي بلا إشارة للمعنى شبيه بمن يصف طريقة صنع السفن [٣] دون الإشارة إلى البحر .

ولذلك يعد التحويليون التحليل اللغوي أمراً ضرورياً في شرح العلاقة بين الجمل التـي تحمل نفس المعنى وتختلف في ظاهر تراكيبها . [١]

وهنا إشارة أخرى إلى ارتباط علم النفس بالجانب اللغوي ، ويظهر جلياً في إدراك الحالة النفسية للمخاطب ، إذ أن الجانب الوجداني ضروري ومهم في تفسير المعنى وفقاً على الترتيب لا على التركيب المجرد .

الأسلوبية وعلم النفس :

---

[١] اللغة فندريس – ص ١٩٢ .
[٢] مناهج البحث اللغوي - رمضان عبد التواب – ص ١٨٨ .
[٣] أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة – مجلة المعرفة – د. نايف خرما – ص ٢٩٥ .
[١] النمط التوليدي والتحويلي واللغة يعني القواعد المنسجمة في ذهنه – هي التي تسمح بإدرك محتواه الكلام دلاليـاً مهمـا كانـت جـدة الصياغة التركيبية التي أفرق فيها – فكأن لكل متكلم معرفة خفية بالنحو التوليدي – الأسلوب والأسلوبية عبد السلام المسدي – ص ٢١٠ .

تتضح العلاقة بين الفكر البنائي وعلم النفس في ظهور النظرية الشعرية . فالنظرية الشعرية أو الأدبية في النقد الحديث تحتوي على عمليتين :-

أحدهما انحراف وهدم الأنماط التعبيرية العادية ، والأخرى إعادة بنائها وتصحيحها ، ولكي يقوم الشعر بهذه الوظيفة من الضروري أن يفقد معناه العادي في اللحظة التي رُكب فيها المعنى الجديد بالشكل التعبيري الأدبي ، من خلال التحول من العادي إلى المعنى الجديد يتغير الشكل ، ومعنى هذه البنية الجديدة لا يتحقق إلا بمعرفة علم نفس الظواهر .

إذ أن الشعر هو لغة عاطفية ، لذلك يميل الشاعر إلى الإيحاء ، فالقول بأن (سماء الخريف حزينة لأنها رمادية تشير إلى ذبول الكون ، وانطفاء الطبيعة ، والخطورة في النظرية الشعرية هنا أن الحزن لا يعتبر تجربة فردية للشاعر بل يشير إلى معنى رمزي هو انطفاء الطبيعة ، وذلك ما سنتطرق إليه في ثنايا بحثنا .

فحضور الإنسان في الظاهرة النقدية الأدبية ضروريُ إذ تتصل خصائص الكائن البشري بالتحليل الأدبي النفسي ، وتتفرع عنه شعب تحليلية واختبارية مرضية وعلاجية ، وعالم النفس ما فتيء يتطور و يحاول ارضاخ بحوثه إلى النقد الأدبي فامتزج علم اللغة وعلم النفس في الدراسات الأدبية الحديثة فشكلا (علم النفس اللغوي) .

ويقول عبد السلام المسدي [٢] : ((ولا نتصور دراسة شمولية للظاهرة الابداعية في المستقبل ما لم تنطلق من تصور اختصاصي يحتكم إلى مستثمرات علم النفس بمختلف فروعه فيسخّر الفهم للحدث الأدبي . ولا شك أن معرفة الحدث الأدبي في النقد الحديث تتم عن طريق التحليل اللغوي الاسلوبي لمكونات التركيب ، علماً بأن الاسلوبية تُعرض ممتزجة بسيكولوجية تقبل وجود رابطة بين العنصر الاسلوبي والعالم الداخلي لمؤلفه ، وهكذا فإن التحليل المتواقت لعمل أدبي ما يبقى في خدمة دراسات تناسلية بين المولود الأدبي وخالقه ، سواء أكانت هذه الدراسات مقبولة كثيراً أو قليلاً ، لأن مثل هذا المفهوم السيكولوجي للأسلوب يمثل تفسير خاطئاً للمقولة القائلة بأن الأسلوب هو الرجل نفسه)) .

وهكذا يفترض ابتداء أن الخلق الأدبي فوضى وانصهار لحساسية ومزاج ، ويفهم من ذلك أن الرجل يعبر بكلمات هي له خاصة ، ومن الخطأ أن يعد تعريفاً للاسلوب .

وحقيقي أن هذا المفهوم السيكولوجي للاسلوب مسئول عن طريقة في النقد الاسلوبي تسودها الانطباعية الجامحة متمثلة في شكل البحث عن إحساس أو عاطفة لكانت خاف رنين لفظي

---

[٢] المرجع السابق – ص ١٢٣ .

أو كلمة أو بناء تركيبي . إن هذه الطريقة تؤدي إلى حل العمل الأدبي وإذابته كموضوع جمالي . (١)

ونعتقد أن هناك فارق شاسع بين الدراسة المنهجية الهيكلية النفسية لكاتب ما والدراسـة المنبثقة من تحليل الاسلوب أو الاساليب السيكولوجية التي تعتمد على الانطباعية .

كما أن تطبيق التحليل النفسي في ذلك الميدان من الاسلوبية يمضي متـضمناً توسـيع مفهوم الاسلوب المدرك عبر مصطلحات التوافق التشابة والانتقاء لأنه ، هكذا يبرز الملمح غيـر الواعي لاستعمال بعض العناصر الاسلوبية مثل استعمال بعض الألفاظ والاستعارات وغير ذلك ، وبذلك تسود منطقة مفهوم الأسلوب عوامل نفسية . (٢)

النمو البيولوجي والنمو اللغوي :

يسير النمو اللغوي موازياً لمظاهر النمو الحركي ، مما يومئ بوجـود عمليـة نـضج فيسولوجي بالفعل لهذا التتابع الموازي .

ولا يعني الارتباط بين النمو اللغوي والنمو الحركي وجود أي علاقة سببية بين العمليتين ، فاكتساب اللغة مستقل تماماً عن القدرة على إخراج الألفاظ ، تلك القدرة التي تعتمد بدورها على الضبط الحركي . وذلك أن الأطفال يقومون بإصدار أصوات شبيهة بالكلام . ومعنى ذلـك أنهـم يكونوا من الناحية الفسيولوجية مؤهلين تماماً بالنطق بالجمل ، ومن ناحية أخرى فـإن الأطفـال الصم والبكم يكون في استطاعتهم مع ذلك أن يكتسبوا اللغة المكتوبة واللغة الإشارية . ومما يؤكد وجود عملية نضج فسيولوجية كأساس للنمو اللغوي ، ذلك التتابع المنتظم والمحدد لمراحل ذلـك النمو حتى بالنسبة للأطفال المعوقين من فاقدي البصر والسمع وكـذلك المتخلفـون ، وذلـك لأن الأطفال في هذه الفئات يمرون بنفس مراحل النمو اللغوي ، وإن كانت حصيلتهم مـن المفـردات تكون محدودة بسبب العجز عن التفاعل بين الآباء والأبناء .

كذلك وجد أن النمو اللغوي يسير في هذه المراحل ذاتها بصرف النظر عن اللغة والثقافة التي يعين فيها الطفل .

ولقد لخّص علماء النفس أربعة أسباب تدفع للاعتماد بأن الميول البيولوجية المحددة لدى الإنسان تجعل الصورة البشرية من التواصل ميزة نتفرد بها عن النوع البشري هي :-

(١) التخصصات التشريحية والفسيولوجية في ميكانزم الكلام والمراكز التي تحكم الكـلام فـي المخ .

---

[1] الأسلوبية والأسلوب – عبد السلام المسجي – ص ١٢٣ – ١٢٤ .

[2] مقال بعنوان الأسلوبية علماً وتاريخ – سليمان العطار – ص ١٤٢ – ١٤٣ .

(٢) التتابع المنتظم لمراحل النمو لدى كل الأطفال بغض النظر عن التباينات الثقافية .
(٣) فشل الكائنات [1] الأخرى في اكتساب المراحل البدائية للغة البشرية وبناء على ذلك فإن ملامح الجهاز العصبي المركزي تعطي البشر ميزة في استخدام اللغة ، والبشر يتميزون بمخ أكبر درجة من التلفيف المخي ، ومناطق ترابط أكثر من المناطق السمعية والبصرية ، وهناك ميزتان في الجهاز العصبي المركزي يدعى البعض أنها خاصتان باستخدام البشر للغة .

الميزة الأولى :

أن بعض القدرات المرتبطة باللغة تتركز في أمر الجانبين .

الميزة الثانية :

أن هناك فترة حاسمة وهامة في اكتساب اللغة بالإضافة إلى ملامح الجهاز العصبي المركزي ، التي تميز البشر وتجعلهم ينفردون بميزة التواصل هي خلال اللغة المنطوقة ، توجد ملامح تقع تحت فئة الملامح الطرفية ، وأهم الملامح الطرفية هي جهاز نطق بارع وعضلات قوية ولساناً مرناً يمكّنهم التحرك بحرية داخل تجويف الفم ، كما يمتلكون لساناً وبلعوماً كل هذه الملامح التشريحية تعطي البشر قدرة على إنتاج الأصوات الكلامية ، قال تعالى ((وجعلنا له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين)) وعلى أية حال فقد استفاد علم النفس اللغوي من دراسة الأساس العصبي للغة والعلم الذي يدرس العلاقة بين المخ والسلوك ، وكذلك علم اللغة العصبي وهو يعني بفهم العلاقة بين اللغات المختلفة ووظيفة وعمل المخ بالاضافة الى علاقة اللغة بالقدرات المعرفية [٢] .

ومن الأراء المعقولة في هذا الصدد القول بأن خلقة الإنسان من الناحية العضوية تختلف عن خلقه الحيوان من الناحية العضوية وهذا رداً على الذين حاولوا إجراء مقارنة في نظرياتهم بين الإنسان والحيوان ، إذ تزود الإنسان بجهاز صوتي وعصبي يمكنه من صنع اللغة وتبادلها وتنميتها ونحو ذلك . [١]

والذي لا شك فيه أن محاولة التعبير عن فكرة تجول بخاطر الإنسان قد نشأت مع تخلق الفكر الإنساني نفسه ، أي عندما ظهر الإنسان العاقل على هذه الأرض ، ذلك الإنسان الذي يمتاز عن فضائل الحيوان بادراك الروابط بين الأشياء والقدرة على التمييز بين ما يعرف له من ظواهر

---

[١] يصدق هذا على القردة العليا الشمبانزي التي تعطي أنماطاً من السلوك تجعلها أعلى من حيث الزكاة بالنسبة لشعبة الثديات – ورغم ذلك فأن تعاني من تقص القدرة على عوامل الإشارات الصوتية التي تصدرها إلى رموز لغوية – سايكلوجية اللغة والمرض العقلي د . سيد جمعة – ص ١٣٧.
[٢] السان والإنسان – د. حسن ظاظا – ص ٢٠ .
[١] سيكلوجية اللغة المرض العقلي – د. سيد جمعه – ص ١٣٨ – ١٤١ .

الكون ومحاولة الإنسان التعبير عن ذلك كانت بدون شك محاولة مركبة معقدة امتزج فيها الصياح بالحركات بالتعبير بالملامح ، إذ ليس واحد من وسائل التعبير المختلفة بأولى من غيره بالتقديم من حيث الزمن فلغة الإشارة ، ولغة اللفظ ، ليس هناك ما يثبت قدم بعضها ، بالرغم من أن مذاهب العلماء حاولوا فيها إثبات ذلك ، فقال بعضهم بالأصل الانفعالي للغة وذهب آخـرون إلـى لغـة الإشارة .

وكل الأساطير القديمة تشير إلى أن الصوت الإنساني قام مع الاشـارة ومـع الحركـة بالخطوة الأولى في التعبير عن أول وميض من النور المودع في الإنسان وهـو العقـل ، ولغـة الملامح فيها جزء كبير غير إرادي وهو تعبير عن عضو الإرادة والاتفاق الاجتماعي على دلالة معينة وعلى قصد وإبانة وإفهام وهي تعبير تلقائي أو غريزي اضطراري . [٢]

أما الكلام فهو رموز صوتية يشترط فيها أن تكون صادرة من أعضاء النطق بالذات لا غيرها . [٣]

وهذا يوافق ما قاله السلف ، وأشار ابن تيمية في شرحه لمفهوم (الفرقان) ، ((والكـلام هو اسم مصدر كلّم تكليماً ، وتلكم تكلماً ، ويراد به الكلام نفسه ، وذلك لأن الإنسان إذ تكلّم كـان كلامه لفعل منه وحركة هي مسمى المصدر ، وحصل عن الحركة صوت يقطع حروفاً هو نفـس المتكلم ، فالكلام والقول ونحو ذلك يتناول هـــذا وهذا ، ولهذا كان الكلام تارة يحصل نوعـاً من العمل إذا أريد به المصدر وتارة يجعل قسيماً له إذا أريد به ما يتكلم به وهو يتناول هذا وهذا .))[٤]

سوسير وعلم النفس :

أما في مجال اللسانيات فإننا نجد تمثيلاً وأضحاً لدى سوسير ، مؤسس اللسانيات النبوية ، حيث يصرح على نحو واضح بأن فكرنا من الناحية النفسية لا يعدو أن يكـون كتلـة مبهمـة الشكل غامضة الملامح ، وقد اتفق جميع الفلاسفة في كل العصور على الاعتـراف بأنـه لـولا الاستعانة بالدلائل لكنا عاجزين عن التمييز بين فكرتين تمييزاً واضحاً فمثل الفكر إذا اعتبرناه في حد ذاته كمثل السديم حيث لا شئ معين الحدود بالضرورة ، فلا أفكار موجود سـلفاً ولا وجـود لشئ متميز قبل ظهور اللغة . [١]

العلاقة بين المخ والسلوك اللغوي :

---

[٢] السان والإنسان – د. حسن ظاظا – ص ٢١ – ٢٢ .
[٣] المرجع السابق – ص ٢٦ .
[٤] مجموع فتاوة أبن تيمية – كتاب مقدمة التفسير المجلد الثالث عشر مكتبة المعارف – ص ٨ .
[١] مدخل للسانيات سوسير – د. مبارك حنون – ص ٣٢ .

أصبح المخ في العلم الحديث أساس العمليات المعرفية والسيكلوجية ، والسلوك اللغـوي والإدراك والتذكر والتفكير ويتم كله من خلال الوظائف المركبة مكتملة التنظيم التي تـشكّل فـي مجموعها المخ البشري .

وعلى مدى تاريخ العلم الحديث كان هناك مجموعة من المناهج المختلفـة تـربط بـين المعرفة ونشاط المخ ، وأكد بعض العلماء أن العمليات المعرفية والمخية عمليات متوازية ومستقلة ، واعتقد آخرون أن هذه العمليات المعرفية والعصبية شئ واحد .

ومن المسلمات الأساسية في التنظيم الدماغي حدوث نوع من عدم التنـاظر الـوظيفي ، فاذا كان الشق الأيسر يحتوي على مناطق اللغة فإن بعض الوظائف البصرية تحت سيطرة الـشق المقابل ويكون عدم التناظر أوضح في اللغة من الوظائف البصرية . وأشـار العلـم الحـديث أن تمركز اللغة ، في أحد شقي المخ فطري في الأساس وخصوصاً بالنسبة للجنس البشري ، وعليـه فإن التسليم ينظر به التنظيم الدماغي للغة في علم النفس ، قد استمد من خلال وجود بناء تشريحي عبر مناظره ، وعلى ذلك فاقتران عدم التناظر الدماغي يؤدي إلى عدم تناظر وظيفي .

ومخ الإنسان مزود بما يسمى بمناطق الترابط ، وهي المناطق التي تربط بـين مراكـز الإحساس والبصر والاسم والمسمى معاً ، وتتركز الروابط المسئوله عن وظائف الكلام في أحـد شقي المخ (لأيسر) حيث توجد التركيبات الترابطية للنحو والتـي تقـوم بالتحويـل الـضروري للإشارات البصرية والسمعية إلى تكوينات لفظية .

وإذا كان الكلام أساس بيولوجي لزم أن يكون هناك علاقة ما بين النمو اللغوي والنضج الفسيولوجي .

تـأمل ذلك جلياً وأحكم على ما قاله البنائيون بخصوص الملكـة والاكتـساب واللغـة والكلام ، إن هي إلا زاوية تدخل عن طريقها ايدولوجيات بأفكار علمية مقننة أدنـي مـا تحملـه علمانية فكرية وثنائيات لغوية وفكرية تجعل اضطراباً بين الداخل والخارج ، واللغـة والكـلام ، والواقع والمعنى . دون الاحتكام إلى قاعدة والقانون سوى التطور الطبيعي للكون عـن طريـق الانتحاب الطبيعي جرياً وراء فكرة التوليد والتحويل .

الكلية اللغوية وعلم النفس :

ويمكن القول أن البحث في الخطاب اللغوي أو الظواهر العالمية فـي التعـرف علـى الجوانب التي تتشابه فيها تلك اللغات ، وقد كان الهدف الأساسي للأعمال العملية التي درست تلك الظاهرة البحث في أوجه التشابه دون الجري وراء الاختلافات في تلك اللغات ، وكـان أول مـا

درسوه في قواعد بناء الجملة ، مع مقارنتها باللغات الأخرى كالفنلندية ، ثم وسـعوا مـن دائـرة بحثهم ، ودرسوا تلك القواعد في اللغات الأخرى .

ويمكن الإفادة من دراسة القواعد المشتركة أو الكلية أو العالمية للغـات حيـث ربطهـا بالجوانب النفسية وتعود العلاقة التي نشأت بين علم اللغة وعلم النفس إلى علماء أمثـال بياجيـه وسكنر وبلومفيلد ، ومن المعروف أن السلوكية في علم النفس هي الاستجابة الكلية التـي يبـدها كائن حي إزاء أي موقف يواجهه ، لذلك لم تهتم دراستهم حول اللغة بالجمل الصحيحة بل اهتمت فقط بما يبدو للكائن الحي ، لذلك درس الفكر الكلي أو النحو الكلي أو الأداء أو الحدث الكلامـي بغض النظر عن شذوذه أو إتباعه لقاعدة معيّنة إذ الغرض عند البنائي هو كشف البناء أو النظـام أو النسق دون مراعاة للمعايير اللغوية أو الحواجز العامة بين اللغات ، وهذا هو المحور الأساسي الذي ارتبط فيه علم النفس بالتيار البنائي الـذي يقـوم علـى الاسـتجابة الكليـة دون مراعـاة لخصوصيات اللغات ، ومن ثم أدراك النص كذلك في بنية كلية مهما تعددت الاشكال الأدبية فهي ناتجة من نسق كلي يجمعه الرمز الموحي بالمعنى وليست دلالة لغوية معيّنة .

المبحث الأول

أثر المنطق في الدراسات اللغوية

لو نظرنا بإمعان في الصلة بين الفكر واللغة ، وجدنا أن اللغة ليست مجرد ثوب يرتديـه المعنى دون أن يؤثر ويتأثر جوهرياً ، وإنما هناك تأثير متبادل بين اللغة والفكر ، فإنـه بفـضل اللغة ذات الألفاظ يفترق الإحساس الخالص عن العقل المجرد وبالتالي تستحيل معاني الألفاظ وهى في شأنها بصرية حسية إلى معاني عقليه خاليه من كل قيمة بصرية ، أي تستحيل إلـى معـاني مجردة ، فالتجريد معناه تجريد اللفظ من معناه أو مدلوله الحسي البصري واستحالته إلـى معنـى عقلي صرف ، وذلك بفضل اللغة ذات الألفاظ ، فكأن اللغة أخطر أثراً في تطور الفكـر ،لأنهـا تحيله من فكر عياني إلى فكر مجرد و وهو المرتبة العليا للتفكير الإنساني وليـست إذن مجـرد مرآة تعكس الفكر فحسب.

ومن هنا اعتني المنطق باللغة من ناحية أنها تعبر عن الفكر وأن هذا التعبيـر يجـب أن يكون محكماً دقيقاً حتى تعبر عن الفكر وأن هذا التعبير يجب أن يكون محكماً دقيقاً حتى لا يؤدى إلى لبس أو خطأ في التفكير ، فعلته أن يحال معاني الألفاظ اللغوية والتراكيب ، وأن ينتهي مـن هذا التحليل إلى القواعد الواجبة الإتباع في التعبير حتى يكون الفكر صحيحاً في شكله وموضوعه ، ومن هنا وجد المنطق أمامه علماً من علوم اللغة يعنى بهذه الناحية ألا وهو النحـو ، فكـان لا مناص إذن من تحديد الصلة بين كليهما ، خصوصاً وأنه قد يشتبه فيصبح موضوع العلمين واحداً من حيث أن النحو يبحث في اللغة المعبرة عن الفكر و المنطق يبحث عن الفكر المعبر عنه باللغة ، حتى قيل ((أن النحو منطق لغوى وأن المنطق نحو عقلي .)) [1]

فأثارت مسألة تحديد تلك الصلة مشكلة خطيرة في ميدان المنطق وفي ميدان النحو ممن حاول الربط بين المنطق واللغة الفارابي وخاصة فيما يتعلق بالألفاظ وكيفية اختيارها والقـوانين المنطقية التي يجب الالتزام بها عند تركيب أبنية جديدة أثناء عملية ربط الألفاظ بعضها بـبعض ، والتمييز في اللغة بين ما هو أولي وما هو ثانوي ، ثم إعادة بناء اللغـة بنـاء اسـتدلالياً يحقـق الاشتقاقية ويوفر الدقة ، ويستبعد عنها اللبس واللغو والتناقض وفـى ذلـك يقـول : (فإنهـا أي المعقولات من حيث هي مدلول عليها بالألفاظ ، ومن حيث هي كلية، وهى حيث هـي محمولـة وموضوعه ومن حيث هي معرفة بعضها ببعض ، ومن حيث هي مسؤول عنها ، ومن حيث هي

---

[1] المقابسات – أبو حيان االتوحيدي تحقيق محمد توفيق حسين – طبعة الإرشاد – بغداد (١٩٧٠م) – ص ١٦٩ .

تؤخذ أجوبه في السؤال عنها ، هي منطقية فيأخذها وينظر في تركيب بعضها إلى بعض من حيث تلحقها هذه التي ذكرت وفى أحوال المركبات منها بعد أن تركبت ، فإن المركبـات تعتبـر آلات وتسدد العقل نحو الصواب في المعقولات وتحرزه عن الخطأ فيما لا بد من أن يخالـط فيـه مثـل المعقولات إذا كانت المفردات التي منها ركبت مأخوذة بهذه الأحوال). [١]

ويقول في هذا الصدد صاحب كتاب (المنطق الصوري) [٢] : ((ويغلب على الظـن أن نشأة المنطق نفسه مرتبطة بالنحو ، فقد بدأت البذور الأولى للمنطق عنـد اليونـان فـي أبحـاث السفسطائية الخاصة باللغة والخطابة والنحو بوجه خاص ، إذ هم أرجعوا القبول إلى اللفظ ، ممـا يسر لهم أن يجعلوا من الجدل وسيلة للانتصار على الخصم . والقول الخطابي عندهم لا يقـصد منه حسن الكلام فحسب ، إنما هو الحقيقة الجديدة التي قالوا أنها نسبية في مقابل الحقيقة المطلقـة التي لم يعترفوا بها ، ولم يكن إيمانهم بقوة الكلام إلا إيمانهم بقوة الفكر ، فالإقناع هو بعينـه فـي التفكير ، أي أن السفسطائية قد بحثت في اللغة فأداها هذا البحث إلى المنطق)) .

ويرى أرسطو أن الكلام يعبر عنه بدقه عن أصول النفس والفكر ، فاللغـة تنظـر إلـى الألفاظ من ناحيتين ناحية وجودها مجردة في صورة أسماء - أفعال – حروف – ومن ناحيـة ثانية ارتباطها على هيئة جمل وكذلك الحال في ا لفكر نقسمه إلى أفكار مفرة وهى التـصورات وأفكار مرتبطة وهى القضايا والتصديقات .

فالتقسيم المنطقي الأولي إلى تصورات وتصديقات قد أخذه أر سطو من اللغة ، ولوحـة المقولات على تقسيم الكلام إلى أجزاء ، فالجوهر يقابل الاسم ، والكيف يقابل الـصفة ، والكـم يقابل العدد والإضافة تقابل صيغ التفضيل ، والفعل والانفعال، والوضع يقابل الأفعـال المتعديـة والمبنية للمجهول و اللازمة .

فما من شك في أن أرسطو قد استعان من وصفه للوحة المقولات بالتقسيمات اللغويـة ، وكل هذا يدل على ما كان لنحو من وضع المنطق .[٣]

ثم تزداد الصلة توثيقاً فيما بين المنطق والنحو لدى الرواقيين الذين أقروا بالعلاقة الوثيقة بين اللغة والفكر ، أما في الإسلام ظهرت الخصومة العنيفة بين النحويين والمناطقة ، وتكون النحـو فـي منتصف القرن الثاني الهجري على يد الخليل (١٧٥هـ) وسيبويه (١٨٠هـ) [٤].

فلسفة اللغة عند الفارابي – د. زينب عفيفي – دار قباء للطباعة والنشر – القاهرة (١٩٩٧م) – ص ٤٩- ٥٠ .
[٢] المنطق الصوري والرياضي – د. عبد الرحمن بدوي – الطبعة الرابعة (١٩٩٧م) مكتبة النضهة المصرية – ص ٣٣ – ٣٤ .
[٣] المرجع السابق – ص ٣٣ .
[٤] الإمتاع والمؤانست – أبو حيان التوحيدي – الجزء الأول – مطبعة أحمد أمين أحمد الزين – مطبعة التأليف الترجمة القاهر (١٩٩٣م) - ص ١١٥ .

أثار بعض الباحثين في العصر الحديث مشكلة أن فلسفة اللغة عند المعاصـرين تـرتبط باللغات الأوربية الحديثة ، فهل كان عند فلاسفة العرب فلسفة اللغة ؟ .

وإذا افترضنا أنهم بحثوا في فلسفة اللغة بمعنى ذلك أنها فلسفة خاصـة باللغـة العربيـة وليست فلسفة عامه ، والحق أن هذا السؤال قد أثير من قبل في القرن الثالث الهجري وبالتحديـد حوالي عام (٣٢٨هـ) وفى مركز الحضارة ببغداد حيث جرت تلك المناظرة الشهيرة بين متـى بن يونس [١] والسيرافى التي حفظها لنا تسجيل أبى حيان التوحيدي في كتابه (المقابـسات) فـي تساؤله هل يمكن اعتبار المنطق لأر سطو وهو نظرة قائمة على اللغة اليونانية ومرتبط بها ملزماً لمن يتكلم غير اليونانية ، إذا كان المنطق وضعه رجل يوناني على لغة أهلهـا واصـطلاحاتهم عليها ، وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها ... من أن يلزم الترك والهند والفرس والعرب . أن ينظروا وفيه ، ويتخذونه حكماً لهم وعليهم وقاضياً بينهم هذا ما يقال أيـضا علـى الفكـر البنيوي ونظرياته اللسانية ، التي تحاول وصف اللغات وفقاً لمعيار واحـد هـو النحـو الكلـى وفرضياته مع إلقاء الحواجز اللغوية وطرح خصوصية كل لغة لأنها تعتمد المنهج الوصفي الآلي وليس التاريخى.

وظهرت الصلة بين المنطق والنحو في القرن الثالث ، واتخذت أحدث حركة عنيفة في القرن الرابـع الذي شهد مناظرات عنيفة بين الأوساط النحوية والمنطقية ، ولعل أهم وثيقة خلّفها لنا ذلك القرن المنـاظرة التـى رواها أبو حيان التوحيدي في كتابه (الإمتاع والمؤانسة) جرت المناظرة بين متى بـن يـونس ، وأبـو سـعيد السيرافى حول المفاضلة بين النحو والمنطق.

فانقسم الناس حيال هذه إلى فريقين ، فريق فضل النحو على المنطـق وفريـق فـضل المنطق على النحو ، وتوسطت الفرقة الثانية الجمع بين النحو والمنطق ، يقول أبو حيان التوحيدي بعد عرض المشكلة في ثلاثة مقابسات [٢] : ((وبهذا تبين لك أن البحث عن المنطق يرمى بك إلى جانب النحو ، والبحث عن النحو يرمى بك إلى جانب المنطق ، ولو أراد أن الكمال غير مستطاع لكان يجب أن يكون المنطقي نحوياً والنحوي منطقياً ، خاصة النحو واللغة عربية والمنطق مترجم بها ومفهوم عليها)) . [٣]

---

[١] معجم الآدباء ياقوت الحمري – ص .
[٢] المقابسات لأبي الحيان التوحيدي – ص ١٧٧ .
[٣] المرجع السابق – المقابسات (٢٢ – ٢٣- ٢٤) .

وهناك مؤلفات عديدة كتبت عن هذه المشكلة فالسرخسي [1] تلميذ الكندي يكتـب كتابـاً عنوانه (الفرق بين النحو العربي والمنطق) ، ونجد كذلك يحي بن عدى ، يكتب كتاباً عن (الفرق بين نحو العرب والمنطق) ٠ [٢]

ونجد أن نحوي القرن الرابع كان لهم أكبر الأثر في إرساء دعائم الجمع بـين المنطـق والنحو فنجد حواشي الحسن بن سوار ، الذي أسـّس المدرسة الفلسفية في بغداد في نهاية القـرن الرابع ٠[٣] وهكذا تأثر نحوي القرن الرابع بالمنطق في أبحاثهم النحوية ، وكان ذلك بدء تـداخل الفلسفة والنحو٠

وهذا أبو الحسن الرماني النحوي (٣٨٤هـ) يقول عنه الحموي ((وكان يدمج كلامه في النحو بالمنطق حيث قال أبو على الفارسي إن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منـه شـيء ، وهذا يدل على أن الموقف كان مزدوجاً عند النحويين في هذا القرن ، فمنهم من جمع بين الاثنين ويظهر إن ذلك الجمع قد بدأ في أول الأمر قريباً غير مفهوم ، إذ أخذ النحويون على الرماني هذا المزج بين النحو والمنطق ٠))[٤]

مع أنه لم يأخذ بالمنطق الأرسطو طاليسي كما هو وبدأ كلامه غير مفهـوم حتـى قـال ياقوت : ((وكان يقال النحويون في زماننا ثلاثة واحد لا يفهم كلامه وهو الرماني، وواحد يفهـم بعض كلامه ، وهو أبو على الفارسي ، وواحد يفهم جميع كلامه وهو السيرافى))٠[5]

وقد نظروا إلى المنطق على أنه لغة عامه ، كما يقول أبو بشر متى في مناظرته ، لا تختلف الأمم فيها .

وفى القرن الخامس اختلط النحو بالمنطق وكذلك البلاغة ٠[٦] حتى نجد نحواً فلسفياً بدأ في الظهور على يد بن يعيش (٥٥٣هـ – ٦٤٣ هـ) في القرنين السادس والسابع الهجريين ٠[٧] وليس هذا فحسب بل أن القضية اتخذت مسار الحوار والمناقشة فناقشها أبو حيان التوحيدي فـي

---

[١] أبوالعباس أحمد بن محمد بن الطيب السرخسي – (٢٨٦هـ) – الذي إخترع نظام لغوي خاص مكون من أربعين حرفاً إستطاع بواطة قراءة لغات اليونان ومعجم السريان دون أدنى صعوبة وهو أول من ألف عن الفروق بين النحو المنطق بعنوان مقالة في تبين الفصل بين صناعتي المنطق الفلسفي والنحو العربي) – أنظر فلسفة اللغة عند الفارابي – د. زينب العفيفي – ص ٤٢ .

[٢] أنباه الرواى القفطي – الجز الثاني – ص ٦٦٢ .

[٣] المدارس النحوية – شوقي ضيف – ص ٣٢ .

[٤] المنطق السوري – د. عبد الرحمن ايوب – ص ٣٧ .

[5] معجم الأدباء – ياقوت الحمري –الجزء الرابع – ص ٧٥ .

[٦] المنطق السوري – د. عبد الرحمن ايوب – ص ٣٧ .

[٧] المرجع السابق – ص ٢٠٤ .

المقابسات ، وخصص أخوان الصفا الرسالة السابعة عشرة في إطار الطبيعيات فلسفة اللغة وقـد حاولوا تفسير الظواهر كما ميزوا بين المنطق اللفظي الذي وهـو أمـر جـسماني محـسوس ، والمنطق الفكري الذي هو روحاني عقلي كما تناولها ابن النديم (٣٧٧هـ) في مقالة كاملة بكتابه (الفهرست) وحاول الخوارزمي في (مفاتيح العلوم) أن يوضح وجوه الإعراب علـى مـذهب فلاسفة اليونان ، وكانت محاولة أبو عبد ا الأصفهاني (٢٨٠هـ - ٣٦٠) فـي كتابيـه (الخصائص والموازنة بين العربية والفارسية) و(التنبيه على حدوث التصحيف) تجاوراً للنـسق العربي ورؤية للمشترك والمختلف بين اللغات وهو ما تقوم به اللسانيات المقارنـة فـي العـصر الحديث٠

وهكذا عرف القرن الثالث أنماطاً من الفكر اللغوي تحاول أيضاح الصلة بين المنطق واللغـة ، وتعـد محاولة الفارابي مثالاً متميزاً للقاء الثقافات ، إذ لفت الانتباه إلى تداخل الثقافات العربية باليونانيـة مـع ثقافـات الشعوب الأخرى ٠

ولقد أنشأ النحويون العرب علماً تمهيدياً للنحو سموه (أصول النحو) يناظر علم أصـول الفقه بالنسبة للفقه ، والغرض من (أصول النحو) بيان الأصول العقلية التي انبنت عليها القواعـد النحوية ولابن الأنبارى كتاباً في (أسرار العربية) ومن بعده السكاكى فـي (مفتـاح العلـوم) ، فحرص على بيان الأسباب العقلية للقواعد النحوية والأوضاع اللغوية وهو خاتمة في باب (النحو) حتى ظهر نحو فلسفي على يد بن يعيش في القرن السابع ٠

إذن موضوع المنطق والنحو مشترك وهو اللغة ، لأن الألفاظ التي يعالجها النحـو هـي نفس الألفاظ التي يعالجها المنطق ، وقد نتج ارتباط وثيق بين اللفظ والفكر اقتضى أن لا يـستغني الفكر الصحيح ولا الحكم الصائب عن العلم بمعاني الألفاظ ، علماً وثيقاً ثابتاً ، ومن هنـا يؤكـد الفارابي أن موضوعات المنطق ليست سوى المعقولات من حيث تدل عليه الألفاظ و الألفاظ مـن حيث هي دالة على المعقولات ، فإذا حاولنا أن نحلل البرهان والقياس الجامع لوجدنا أنـه يتـألف من القضايا والقضايا تتألف من موضوعات ومجموعات ، وهى تساوى المبتدأ والخبـر والفعـل والفاعل في اللغة ، وهى عناصر مفردة إذا اجتمعت تكونت القضية ، وهـى الجملـة الخبريـة ، اسميه كانت أم فعليه ، وهذه العناصر تقابل في المنطـق المفـاهيم أو المعقـولات وعلـى هـذا فالمقولات هي أمور مسندة أو مقولة عن موضوع ، وبالاصطلاح المنطقي هو معنى كلى يمكن أن يدخل محمولاً في قضية ، فهي إذن ليست ألفاظاً بل هي مفاهيم تدل على خصائص وتحديدات واقعية للأشياء ،[1] وهكذا استمرت الصلة بين المنطق والنحو حتى العصر الحديث ، فبدأ النحـو

[1] المنطق الصوري – عبد الرحمن ايوب – ص ٥٠ .

الفلسفي على يد جماعة بوريال ١٦٦٠م في كتابها الموسوم باسم النحو العام المنطقي ومنذ ذلك التاريخ وكتب النحو العام ، أي المستخلص من العقل ، لا من الاستعمال اللغوي تنتشر ، ويبلغ ذلك التيار أوجه في القرن الثامن عشر ، كما أن الغربيين أحرص الناس على تبويبه لأن لغتهم تتحدث إلى العقل ولها من الدقة ما للعرض العلمي ٠

وهذا النحو المنطقي قد وضع في أول الأمر في مقابل النحو الذي لا يقوم إلا على الاستعمال وكانت الأكاديمية الفرنسية تجعل مهمتها لا للقواعد التي وضعها الاستعمال واستخلاص هذه القواعد من ملاحظة اللغة الحية ٠[1]

أما النحو المنطقي فيرى أن الفاصل هو العقل وعلى النحو أن يعتمد على المنطق في وضع قواعده ، وعن هذا الاتجاه نشأ تياران أحدهما يريد أن يصنع نحواً عاماً بواسطة البحث المقارن في علم اللسان ، والآخر يتلقى مبادئه من المنطق والشكل مباشرةً ، وكلا التيارين مرتبط بالآخر ، إذ الأول يعتمد على منهج المقارنة بين اللغات لكي يصل إلى وضع نحو عام تخضع له اللغات كلها ، ولكنه سرعان ما يلجأ إلى التيار الثاني كما يضع الأساس الفلسفي لهذا النحو العام ، وظهر هذان الاتجاهان بوضوح في القرن التاسع عشر حيث نهضت الدراسات الخاصة بفقه اللغات كلها خصوصاً اللغات الهند أوروبية ٠[2] فكان هذا ميسر لهم استخدام المنهج المقارن فدراسة النحو ، وهو المنهج الذي يتفق ومقتضيات العلم ، فاندفع علماء اللسان في هذا السبيل ، وانتهى بعضهم إلى ما انتهى إليه أصحاب نحو رويال ونحو (الأنسكلوبيدا) ٠ من القول بوجود نحو عام مشترك فيها اللغات جميعها والتيار الآخر تيار النحو العقلي ، قد قوى في أوائل هذا القرن ، وبناء على ذلك يجب علينا أن نوضح بالتفصيل التيارات التي عرضت لعلاقة النحو بالمنطق ، ونعنى تياري النحو العام والنحو المجرد ٠

أما تيار النحو العام ويقوم على أساس أبحاث علماء اللسان في دراستهم للصور اللغوية للغات المختلفة في عصور متباينة وتتبعوا تطورها ، وحللوا تراكيبها ، ولاحظوا أن من الممكن التحدث عن نحو مشترك بين اللغات ٠[3]

---

[1] المنطق الصوري – د. عبد الرحمن ايوب – ص ٣٨ .
[2] مبادئ اللسانيات – د. أحمد قدور – دار الفكر العربي – دمش – الطبعة الثانية (١٩٩٩م) - ص ١٥ .
[3] وخاصة الدراسات المقارنة بين اللغات الهند أوربيا التي كشفت أن هذه اللغات تنحدر من أصل واحد مشترك – المرجع السابق – ص ١٥ .

وأن المقولات النحوية أكثر كلية ، أما الاختلاف يتناول طرق التعبير ، بينمـا الأفكـار الرئيسية متحدة وهذه الواقعة تدل على أن الفكر الإنساني أكثر إطراداً مما يعتقد عادةً ، وفيه تقييد للاجتماعيين الذين ذهبوا أن لكل جنس منطقه الخاص .

والذي يستخاص من هذه الاكتشافات اللسانية هو أن العقل واحد على الرغم من الاختلاف المادي الهائل بين اللغات وما هناك من درجات لصور متعددة ومن شأن هذا أن يعطى النتائج هذه قيمة فلسفية أكثر لأنه يحق لنا أن نؤكد أن تركيب لغاتنا لا ينسب إلى منطق لاتيني أوربي أو آري ولكنه ينسب إلى المنطق فحسب.[1] ولكننا نؤمن على القول الذي يرى لكل لغة منطق خاص بها ، وإذا صح التعبير ، أو نظام داخلي يشكل ثقافتها ورؤيتها إلى العالم .

وتجدر الإشارة في هذا الصدد بقول الدكتور عثمان أمين حين عرض آراء المستـشرقين الفرنسيين ، يشير أنه بينما تجد اللغات الهند أوروبية إنها جعلت التعبير عن نظام العالم الخارجي ، نجد اللغة العربية وكأنها هي لغة التأمل الداخلي تأمل الفكر والروح وكأنما هي مجعولـة لكـي يتذوق أصحابها مقصداً من المقاصد الإلهية [٢] و من هنا كانت المصدر لديهم للوصول إلى الفعل الإلهي... وهى بفضل تركيبها الداخلي ، وطراز الخاوة الذي توحي به تعطى قدرة خاصة على التجريد والنزوع إلى الكلية والشمول [٣] .

أما المستشرق الفرنسي يؤكد أن اللغة العربية والحضارة العربية الإسلامية تزودان الدارس لهما بنظرة جديدة إلى العالم .

وإذا كان بعض المستشرقين قد اعتبروا أن الدراسات الفيلولوجية فـي العربيـة تعنـي بدراسة القواعد الصرفية والنحوية ونقد النصوص والآثار الأدبية ، فإن البعض الآخر ، وجـد أن الاهتمام بالحياة العقلية من جميع وجوهها ، وتاريخ الأديان والكتب المقدسة الدينيـة واللاهوتيـة وتاريخ الفلسفة ، ومن هنا فإن الكشف عن أسرار اللغة والوقوف على القوانين التي تسير عليها ، ومعرفة سر تطورها ودراسة ظواهرها ، قد استحوذت على اهتمام الكثيرين من مفكري الإسلام ولغوييه ، فاسترعت انتباه علماء اللغة فى القرن الأول الهجري و المناطقة فـي القـرن الثـاني الهجري فانصرفوا يسجلون الظواهر اللغوية ويبحثون عن أسرار هذه الظواهر ويحاولون تعليلها ، [٤] فاللغة لها نظامها الداخلي ، وليس هذا النظام انعكاساً مباشراً للواقع الخارجي بل هو رؤيـة

---

[1] المنطق الصوري – د. عبد الرحمن بدوي – ص ٤١ .

[2] وعلى ذلك فالنحو والمنطق آلتان تخصان الكلام من وجهيه النفسي واللساني نستفيد منهما في النظر إلى الموجودات لمعرفتهم الدلاليـة بواسطة الأولى والعقلية بواسطة الثانية وهنا يهيئان الفكر عن كسف عالم الما ورائيات – فلسفة اللغة عند الفارابي – د. زينب عفيفي – ص ٢١١ .

[3] المرجع السابق – ص ٣٩ – ٤٠ .

[4] المرجع السابق .

له بطريقة ما ، كما استحوذت على انتباه اللسانيين في العصر الحديث . أن دراسة اللغة بنيوياً لا تتناول الدراسة معجمياً و بل تطورها وحياتها في المجتمع ، فقضية انتـشار لغـة مـن اللغـات والظروف التي مهدت لذلك وأثر ذلك في بنية اللغة تُعد من موضوعات علـم اللغـة التـاريخي وارتباط اللغة بوظيفتها أو بوظائفها المختلفة في الجماعة اللغوية يؤثر في حياة اللغـة ٠ وهنـاك فرق بين أن تكون اللغة لغة جماعة محدودة وأن تكون لغة حضارية.[5]

ولكن اللسانيين وفلاسفة اللغة حاولوا كسر الحواجز بين اللغات جميعها ، أية لغة حتى لو كانت بدائية صالحة للوصف اللساني و ويقول عبد الرحمن ايوب : ((اللغة تخضع للمنطق إذاً في تركيبها ، و العلة في ذلك أن الفاعل في التطور اللغوي هو العقل الإنساني ، فلا يمكن إذن أن لا يكون لوظائفه في تكوينه وتركيبها ، والعقل الإنساني واحد بين جميع الشعوب و الأجناس ، فلا بد إذن من أن يكون في اللغات شيء ثابت مشترك بينهما جميعاً ، وعلى هذا ميزوا بين نوعين مـن المبادئ في اللغة ، مبادئ ذات حقيقة أبدية وتتبع تحليل الفكر الناشئة هي عنه هذا مـن ناحيـة ، ومن ناحية أخرى المبادئ المشروطة المتوقفة على المواضعات والاتفاق ، والتي هي العلة فـي تعدد اللغات أو المبادئ الأولى .هي التي تكون النحو العام ، والأخرى موضوع النحو الخـاص ، والنحو العام يمكن أن يكون شرعاً إذ هو يشرع باسم أعلى السلطات ، وأعنى بها سلطة اعقـل ، وهى ليس شيئاً آخر غير المنطق وتطبيقه على التعبير . أما أصحاب النحو المجـرد حـاولوا أن يضعوا نحواً مجرداً من كل رمز خاص ، على أساس نظريتهم في المعنى أو الدلالة فعنـدهم أن كل معرفة يجب أن تدرك حية في الشعور ويقول ايوب : (إذا نحن نظرنا إليها من هذه الناحية وجدنا أن أفعال العقل العارف هي أفعال دلاله و هذه الدلالة تتحقق خارجيـاً فـي رمـوز هـي الأصوات ، أي اللغة ، فالمعرفة تدل على نفسها في اللغة) . [1]

فلما كان كل تعبير بدوره ذا قيمه موضوعيه أي ذا معنى قابل لأن يتحقق ، فإن هذا مـن شأنه أن يجعله قابلاً لتكوين منطق مجرد ، فالنحو لا يستخدم إلا التفكير الصوري معبراً عنه في اللغة ، فهو من ناحية يهب الألفاظ قيمتها التصويرية ومن ناحية أخرى يحتوى على هيئة صـور جمالية ٠

ولخص عبد الرحمن أيوب بناء على هذه النظرية ، الصلة بين المنطق والنحو في النقاط الآتية :-

---

[5] علم اللغة العربية – مدخل في ضوء التراث واللغات السامية – د. محمود فهمي حجازي – دار غريب للطباعة والنشر القاهرة – ص ٤٠ .

[1] المنطق الصوري – د. عبد الرحمن أيوب – ص ٤٠ .

(١) النحو هو التفكير المعبر بالنسبة إلى ما يعبر عنه ٠

(٢) مبدأ الفعل يتمثل في الوقائع فيخضع النظام أمام الصورة ٠

(٣) التوازي المنطقي والاتفاقى القبلي بين النحو والمنطق٠

ونلاحظ أن العملية الذهنية التي هي موضوع المنطق أشار إليها بالتوازي المنطقي ولا شك أن هناك تشابه واتساق بين قوانين النحو والمنطق ، وأن من اليسير أن نجد في قوانين النحو ما يناظرها من قوانين المنطق فإن لم تكن قوانينها واحدة فهي متقاربة موصولة وفى ذلك يقول الفارابي :-

(وصناعة ا نطق تناسب صناعة النحو ، ذلك أن نسبة صناعة ا نطق إ العقل وا عقولات (ا عا) كنسبة صناعة النحو إ اللسان والألفاظ فكل ما يعطينا علم النحو من القوان الألفاظ ، فإن علم ا نطق يعطينا نظائرها ا عقولات٠

فاللغوي لا يمكن أن يستغني عن المنطق بأي حال من الأحوال والنحاة لا يـستطيعون أن يفصلوا المعاني (معاني الألفاظ ودلالتها) وإلا إذا ما استطاعوا أن يفرقوا بين الفاعل والمفعول ، ذلك لأن كل عملية نحوية ، وكل صيغة تقتضي الرفع أو النصب أو الجر لا يمكن أن تتم آليـاً ، بل لا بد وأن تمر بعمليات عقلية تعرض المعنى أولا وتستجيب للحدث الواقع مع المعنى ، فتـأتى الصيغ النحوية مستجيبة لهذه العملية العقلية ، والعملية العقلية في صميمها هـي التـي تفحـص المعاني والأحداث وتربطها ربطاً عقلياً وأن إدراك العلاقات فيما بينها هي عمليـة منطقيـة مـن الطراز الأول ، فالنحاة حينما يمضون في طريق تخريج قوانينهم وقواعدهم وتطبيقها على اللغـة هم في نفس الوقت يقومون بعمليات منطقية مضمرة [1] ، وهذا مـا اتخـذه تشومـسكى أساسـاً بدراساته البنيوية التي تجعل القواعد المضمرة أو العميقة أو التحتية هي المعاني الذهنية المقصودة في دراسة النحو ، وهى معاني تشترك فيها اللغات جميعاً و كما زعم تشومسكى والفارابي ومـن بعد عبد الرحمن أيوب في العصر الحديث ٠

وهذه هي خطورة الأمر في تشكيل لغة على فكر منطق واحد ، أو كما يدعى بـالمنطق العام ، ولذلك تشير إلى مدى خطورة الدرس البنيوي للغات ، لأنه بمثابة العين الثاقبة لنزع الفكر الحضاري لكل لغة كما سبق أن فهمنا من مقولة د٠ عثمان أمين ، ولى عنق هذه البنية الداخليـة لتوافق مبدأ المنطق العام في كل اللغات ٠

ولكن رأى (التوازي المنطقي) واجه الكثير من الاعتراضات ، أهمها أن النحو ليس قانوناً للفكر، كما أن المنطق ليس علماً بالأشياء وغاية اللغة تضافر الألفاظ للتعبير عن المعنى ، وغاية المنطق تنظيم التـصورات على نحو يؤدى إلى الصواب في التفكير ٠

---

[1] فلسفة اللغة عند الفارابي – زينب عفيفي – ص ٢٠٤ .

واللغة نادراً ما تتركب كالفكر الذي تترجم عنه وإنما يغترف الإنسان من موارد الألفـاظ والنحو بقدر استطاعته ، يختار من هذه الشكول ما يتوافق مع تصوره العقلي ، والقصد في التعبير اللفظي أن يثير فكرة مساوية لما في أذهاننا ، ولا يعنينا بعد السبيل الذي تحقق من هذا الغرض ٠ ثم أن اللغة دائماً اضمار يه وما تضمره لا يتناول فقط الغرض الثانوي بل يتناول الجوهر ، فمـن القضايا ما يضمر على هيئة قضية واحدة كثيراً من الأحكام وعلى العكس من ذلك يمكن التعبيـر عن حكم واحد بواسطة كثير من القضايا ، لم يكتمل أو يحدد أو يصحح بعضها بعضاً.

وموضوع القضية ليس دائماً موضوع الحكم وكذلك المحمول والرابطة النحوية ليس دائماً الرابطة المنطقية ، وهكذا نجد أن تراكيب اللغة ليست دائماً في تناظر مع تراكيب الفكر٠[1]

وهذه الإشارات التي تجعل اللغة مركزها في عقل الإنسان وأنها ناتجة من تطور أدمغتنا هي نظريـات ضاربة في جذور التاريخ القديم أحيتها الدراسات اللسانية الحديثة ٠

ولا سيما قضايا الكل المشترك بين اللغات وأن أصل اللغات فطرى غريزي أو جيني ممـا أدى إلـى ظهور قضايا فلسفية كالتواطؤ و التوازي المنطقي والنحو الكلى والتوليدي التحويلي والاشتراك في البنية العميقـة للغات ٠ وهذه الدراسات وإن تعرضنا لها من باب التمهيد للفكر الذي ننوي إلقاء الضوء عليه ، فهـي دراسـات عميقة وجهود جدلية ومناقشات سفسطائية لا طائل من ورائها خلطت بين الفكر واللغة ، وكان ديدنها ودأبها تقرير فكرة (النحو العام) أو النحو المشترك).

للسير من وراء ذلك إلى ليبرالية اللغة أو كسر الحواجز بين اللغات وهـذه هـي سـلطة العولمة التي تحاول فرضها على اللغات ، لجعلها تنتمي إلى أصل واحد [2] ولغة أُم تفرعت عنها اللغات الإنجليزية التي سيطرت على الدراسات العلمية والتكنولوجية في هذا القرن ٠

وهنا نعلق تعليقاً سيتضح لنا أكثر من خلال البحث ، حين علّق سابير واعتـرض علـى التقسيم العام للغات إلى الحاقية و تصريفية وعازلة [3] واعتبر ذلك تقسيماً سطحياً ، لأن اللغـات تختلف بعضها عن بعض تماماً من حيث الروح ، كما أن معظم اللغات لا تنتمي إلى هذه الفصائل بصوره خالصة نقية من الشوائب ، فالعربية تنتمي إلى الإلصاقية والتصريفية في آن واحد ، ولذا يجب القول إذا كانت تقسيم اللغات إلى فصائل يعتمد نظراً سطحياً خارجياً فمن باب أولى القـول بالكليات نظراً سطحياً لأنه يتنافى مع روح اللغات وخصائصها الذاتية ٠

---

[1] هذا القول يؤدي إلى وجود تراكيب تحمل معاني عديدة وفي ظاهرها تحمل أمراً وأحداً وكذلك تؤدي لوجود تراكيب غيـر صـحيحة دلالية كما نتجت من جملة شرب الحليب الطفل .

[2] أعتدى تشومسكي بنحو (بانيني) للسنسكرتية قطعة من النحو التحويلي – أنظر الثنائيات بقضاية اللغة العربية من عصر النهضة إلـى عصر العولمة – د . نهاد الموسى – ص ٣٨ .

[3] اللسان والإنسان – حسن ظاظا – ص ١٥٣ .

المبحث الثانى

تطبيقات على صلة النحو بالمنطق

لا شك أن الكلمات علامات على أفكارنا إنها علامات شأنها شـأن سـائر العلامـات ، ويتوافر فيها كل شرائط العلامات ، أول هذه الشروط هو التطابق المتواطئ بين العلامة والإدراك المعْلم ، ولكل إدراك علامة واحـدة ، ولكل علامة إدراك واحد،فهذا هو مبدأ (التواطؤ) [1] وهـذا المبدأ يكون أكثر وضوحاً في تطبيقه على تحليل اللغات ، وأن كل تصور يجب أن يعبر عنه فـي اللغة بتعبير واحد لواحد . [2]

من ذلك ندرك أن المنطقي قد لا يعنى بالألفاظ الدالة على الأشياء فهذه قد تخـتص بهـا المعاجم اللغوية ، ولكن المنطقي يعنى بالألفاظ التي يستخدمها العقل في عملياتـه العقليـة التـي يشترك فيها الناس ، فلا يمكن أن تختلف أمة عن أخرى في الإشارة إلـى الاسـم أو الأداة ، أو الفعل أو حتى إن اختلفت قد يكون الاختلاف سطحياً ظاهرياً وعمومياً ، فمثل هذه الألفاظ تـدخل في المنطق تحت تقاسيم أخرى مثل أنها تدخل تحت مقولة الجوهر أو الموضوع والمحمول ٠[3]

فالمنطقي لا يعني بالناحية المادية للألفاظ ، بل يهتم بالناحية الصورية وقواعد الارتباط الصوري بـين المعنى وغيره من المعاني التي تكون الألفاظ صورها المنطوقة ، وصورية اللغـة تتمثـل فـي قواعـد النحـو والإعراب وبذلك يتفق اللفظ المركب في المنطق إلى قسمين :-

التام والناقص ، التام منه ما هو خبري ، مثل : (الحديد معدن) والإنشائي مثل (مـا أجمل الحديقة) و التقييدي مثل (نهر النيل) وهو يشابه المضاف والمضاف إليه ، وغير التقييدي (في البيت) وهو ما يسمى بشبه الجملة يلاحظ الفارابي أن هناك تطابقاً تاماً بـين النحـويين و المناطقة ، وفى هذا الجانب فالمركب التام عند المناطقة يفيد إفادة يحسن السكوت عليهـا ، وهـو عند اللغويين يفيد معنى ما ، والمقصود من الفائدة من الجملة عند النحويين هو المقصود تمامـاً من صحة جمل المحمول على الموضوع عند المناطقة أو الحكم.[4]

هكذا فتحليل ا مل ا فيدة عند النحاة واللغوي كان لا بد أن يلتزم بقواعد ا نطق وشروطه ، و ا لا شك فيه أن أي لغة تشتمل على جزأين :-

<u>الجـزء الأول :</u> تحليل القواعد التكوينية للغة ٠

---

[1] التواطو مصطلح فلسفي مثل الجوهري والذات له سلطة مستقلة في الفكر الفلسفي – فلسفة اللغة عند الفارابي – د. زينب عفيفي – ص ١٨ .

[2] مقال بعنوان اللغة والمنطق – د. عبد الرحمن بدوي – مجلد عالم الفكر – المجلد الثاني العـــدد الأول – الكويت (١٩٧١م) – ص ٨١ .

[3] فلسفة اللغة عند الفارابي – د. زينب عفيفي – ص ٢٠٦ – ٢٠٧ .

[4] المرجع السابق – ص ٢١٠ – ٢١١ .

والجزء الثاني : يبحث في القواعد التحويلية لهذه اللغة ، وهى تعنى كيف تتحول جمل معطـاة إلى جمل أخرى أو كيف تستخرج من جمل تعتبر مقدمات جمل أخرى مرتبطة بهـا ٠ فـالجزء الأول يكاد يقترب من النحو ، أما الجزء الثاني التحويلي فإنه ينطبق على المنطق وخاصة المنطق الاستدلالي القياسي ويفترض بصفة عامه أن النحو والمنطق يتمايزان كل عن الآخر من حيث أن النحو يعنى بالتعبير اللغوي ، أما المنطق يعنى بمعاني الأفكار٠ وعلى ذلك فـالنحو أو المنطـق آلتان تخصان الكلام من الناحية اللسانية والنفسية ، ونستفيد منهما في نظرتنا إلـى الموجـودات لمعرفتها الدلالية بواسطة النحو ، والعقلية بواسطة المنطق ، وهما معاً يهيئان الفكر ليكشف عـن طبائع الموجودات الأولى في عالم ألما ورائيات [1] ولذلك نؤكد مدى ارتباط النظام اللغوي نحويـاً وفكرياً بالنظام العام أو النظرة إلى الكون والإنسان ، بل أن معرفة العالم ارتبطت ارتباطاً وثيقـاً باللغة وأبنيتها ،إذ هي ليست أنظمة مجردة بل هي ثقافة المتكلمين الذين يتكلمـون اللغـة ومـرآة فكرهم الذي تعكس تصورهم للكون والموجودات وما اهتمام النقد البنيوي بدراسة النصوص مـن خلال التحليل اللغوي إلا واحدة من الوسائل اللغوية المعينة للكشف عمـا وراء النـصوص مـن معرفة كامنة وفكر يشكّل أيديولوجيا اللغة ، وما فكرة البنية العميقة عند تشومسكى إلا أيـديولوجيا فكرية ولغوية للبحث عن الفكر المشترك بين اللغات خلف المعنى الظاهر ٠

ويمكن القول أن الخطاب الرباني جاء موافقاً لكون اللغة عامل أساسي في تصوير الوجود وظاهرة اجتماعية تعكس حضارة الأمم لذلك اختلفت معجزة النبي (ص) عن معجـزات الأنبيـاء السابقين بأنها معجزه حضارية وعقلية تبلورت في بيان اللغة الذي يعتبر أداة ووسيلة لفهم المعاني العميقة في القرآن الكريم ، قال تعالى :((اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق أقـرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم)) ٠ وكذلك قوله تعالى : ((الـرحمن علـم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان)) ، وربط خلق الإنسان بإعطائه ملكة البيان يتحقق فيه الجانـب الإنساني كاملاً ويشهد الحضور والغيبة ، فالقراءة هنا قراءتان قراءة كونية شـهودية ، وقـراءة للغيب وذلك كله لا يتمثل إلا بالقراءة التي هي مستوى من مستويات اللغـة ٠ فاللغـة ترميـز وظاهرة اجتماعية تعكس تصور الإنسان للكون والموجودات من حوله فيتحقق الوجود الحضاري ، ومن مظاهر القراءة السليمة البيان والإبانة عن المعنى ٠ والإبانة في العربية تتم بالإعراب الذي يعقد المعاني بصورة مركبة في أذهان العرب والواقع أن التطور الحديث جعل النحـو والمنطـق شيئاً واحداً ، واعتبر الإعراب باعتباره الخاصية الصورية للجملة نظامـاً يجمـع بـين القواعـد

---

[1] فلسفة اللغة عند الفارابي – د. زينب عفيفي – ص ٢١٠.

التكوينية والتحويلية معاً ، ونلاحظ أن المناطقة اعتمدوا في استدلالهم على أسلوب صوري بحـت أو رمزي أبعد هؤلاء عن المعنى لأن العمليات العقلية لا تعني سوى سلسلة من الرموز المكتوبة أو المنطوقة ٠ (٢)

وهذا ما بني عليه تشومسكى نظريته التحويلية أو الاستدلالية ، والبعد عن المعنى المعـين واهتمامـه بسلاسل الجمل الناتجة عن الجمل النواة ، وهذه دراسة تركيبية تصنيفية بعيده عن المعـاني العقليـة والحـضارة والتاريخ والثقافة وهى دراسة عرضية للجمل لا طولية ٠

ونلاحظ من ذلك أسبقية الفلسفة العربية والإسلامية عند الفارابي علـى الفكـر الغربـي الحديث ونظرياته اللسانية التي حاولت أن تحلّل بنية اللغات منطقياً أي عقلياً معتمدة على تحليـل الجمل من الناحية التكوينية (النحوية) والناحية التحويلية الاستدلالية ، لمعرفة النظام العام للغات والعمليات العقلية المشتركة بين بنى البشر جميعاً ٠

والحق أن العرب في الدراسات البنيوية كان لهم قصب السبق في دراسة اللغة بـصورة وصفية وتاريخية ٠ ولا سيما على يد الخليل وسيبويه كما نلاحظ الجانب الفلسفي على يد الفارابي واضحاً ٠

أما في العصر الحديث تبلورت هذه المفاهيم فـي نظريات لغوية متعددة ومدارس لسانية ظهرت بعد القرن التاسع ركّزت على الجانب العقلي للغة . أول بادرة ظهرت على يد العـالم (١) الفرنسي دى سوسير (١٨٥٧ – ١٩٥٣) ، الذي فصل بين اللسان كنظام والكلام كـأداء فعلـى ، وعند تشومسكى وأتباعه في النحو (الكلى) ، ونظرية المعرفة اللغوية ونظرية النحو التحـويلي والتوليدي ٠

كل هذه الدراسات تنصب جانب العمليات العقلية أو ا اصية الصورية للجمل تلف اللغات على أمل الوصول إ و (كلى) وعا ي . ونتيجة لارتباط النحو با نطق كث من الدراسات اللسانية ا عاصرة ولا سيما النظريات اللغوية ا ديثة ونتيجة لارتباط النحو الكلى أو التحويلي التوليدي عند تشومسكى ، خضعت كث اً من ظواهر اللغات بدأ التحليل البنيوي أو الوصف ، ومن بينها اللغة العربية وإخضاعها إ قوان منطقية ، وكل من خالف هذه القوان أو خرج عنها فهو غ واضح أو ملتبس بل هو غ منطقي ، أو بالأحرى ضع بعد لفرضيات و مينات النحو (الكلى) ا تمثل النظرية التحويلية التوليدية لتشومسكى ٠

وقد تناول الدكتور عبد الرحمن في مجلة الفكر مقالاً بعنـوان (اللغـة والمنطـق فـي الدراسات الحالية) (٢) ، أكّد فيه الصلة الوثيقة بين اللغة والمنطق وأجرى ذلك على قواعد اللغـة العربية ، وأول مبدأ منطقي حاول أن يفرض سلطته على العربية هو مبدأ التواطؤ الذي يقوم على أن التعبير اللغوي يعبر عنه في اللغة بتعبير واحد ٠

---

[٢] المرجع السابق – ص ٢١١ .

[١] دي سوسير المحاضرات التي ألقاها في جامعة جنيف ثم نشرت بعد وفاته تحت عنوان محاضرات في (اللغويات العام) وهو أول مـن أستخدم كلمة نظام واللغة نظام لا يعرف غير نسقه الخاص الكتاب مدخل لسانيات سوسير – د. مبارك حنون – ص ٣٢ .

[٢] مقال بعنوان اللغة والمنطق – مجاد عالم الفكر – المجلد الثاني العدد الأول (١٩٧١م) – ص ٨٢ .

وبالتالي اعتبر الإطناب والتكرار والتضاد والاشتقاق اللغوي وعلامات الإعراب ، كلهـا ظواهر لغوية مخالفة للمبدأ الفكري السابق (التواطؤ) ، وهى في نظر المنطق تكـرارات تثقـل كاهل اللغة و واعتبروا اللغات المتطورة هي التي تقضى على تطورها من حيث تمسكها به .

وبناء على ذلك اعتبر الإطناب والتكرار ، التي هي وجوه بلاغية لها وظائف أسـلوبية محددة ، في لغتنا العربية ، غير مبرره منطقياً ، ويتبين من هذا أن المنطق الشعبي غير المشعور به والذي تقوم عليه لغاتنا ، يحمل في ذاته مبدأ عاماً لاستبعاد الاستعمالات المزدوجـة والتكـرار الزائد والمنطق الواعي على حد تعبيره ، يمسك بالتطور الطبيعي من حيث إنه يقضى عليه .

واعتبر الجمع في المنطق الشعبي يعبر عنه أربع مرات في العبارة الآتية : (الأولاد الطيبـون هـم مطيعون) وذلك في الاسم وصفته والضمير الدال على الرابطة (هم) والصفة المحمولة ، وبالمثل نجـد معنـى المؤنث يعبر عنه ثلاث مرات في العبارة التالية (الأم الطيبة مجتهدة) مرتين في النعتين (الصفة زائد المحمول) وكذلك فكرة الشخص في اللغة العربية يعبر عنها مرتين في الضمير أو الاسم الذي يقوم مقام الفاعل ثم صـفة الفعل .

وهنا يلاحظ المرء أن الأصل في هذه الاطنابات أنه من تطور لغاتنا القديمة ، التي لم تكن في حاجـة إلى ضمير فاعل إلى جانب الفعل ، بل الشخص واضح في شكل الفعل كما هو في العربية كذلك ، لكـن حينمـا ضعفت أشكال الفعل تدريجياً ، أحس المرء بحاجة إلى تحديد الإشارة إلى الشخص ، فأضافوا الضمير إلى الفعـل ومع ذلك احتفظ في نفس الوقت بكل أشكال الفعل ذات الدلالات على الشخص ، ومعنى هذا أننا نعبر عن الفكـرة الواحدة مرتين والآن قد صارت أحوال الإعراب من اللغات المنحدرة من اللاتينية إلى الـزوال ودخلـت محلهـا حروف الجر وهذه نهاية تطور منطقي .

أولاً عند تحليل لغة من اللغات أو وصف بنيتها يجب علينا مراعاة منطقها الداخلي ، ثم لا تقبل مقارنة خصائص لغة للغة أخرى وبهذا علينا أن نبين أن علم الصرف هـو العلـم الـذي يبحث في طرائق بناء الكلمة وما يطرأ على هذا البناء من تغييرات لفظية ، ويبرز هذا التعريـف خصائص هذا العلم الذي يكشف عن الطرق التي تنمي اللغة ، وتزودها بالمباني التـي ينـدرج عليها ما لا حصر له من الكلمات ، فهو علم وظيفي ، عندما يكون معنى الوظيفة تزويد اللغة بكم هائل من الكلمات ، وهو علم توليدي أيضاً ، لأنه يولد من ا لأصول القليلة فروعاً كثيرة .[1]

ويمكن التنبيه على أن دراسة تاريخ الألفاظ عبر مقارنتها باللغات الأخرى وهومن صميم علم اللغة المقارنة (علم اللغة التقابلي) . الأمر الذي يمكن أن يقال أن دراسة الألفاظ وتطورهـا في لغة (ما) أو مقارنتها باللغات الأخرى ليس له علاقة بالدرس الـصرفي ، ولـذلك لا مجـال

---

[1] اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج – د. سمير ستيته – الطبعة الأولى ٢٠٠٥م عالم الكتب الحديث – ص ١٠٥ .

للحديث عن تداخل بينها وبين الصرف لأن الصرف هو العلم الوحيد الذي يبحث في ثراء اللغـة من داخلها ، بخلاف الاتجاهات الأخرى التي تحاول دراسة الألفاظ باعتبار سمتها التاريخي.(٢)

فعلم الصرف أيضاً علم معياري ، وقد عد البعض ذلك مذمة ومنقصة ، تكون له معاييره التي يلتزم بها العلماء والباحثين · ونلاحظ أن المعاصرين احتشدوا في نقد معياريـه الـصرف ، ونلاحظ أن الدكتور عبد الرحمن أيوب اعتبر الاشتقاق اللغوي يناقض مبدأ التواطؤ ، صحيح أنـه يبدو أن مقتضيات المنطق منطقية في اللغات الهند أوربية ، وذلك بأن يضاف إلى الجذور المعبرة عن المعاني بادئات ولواحق تعبر عن علاقات محددة ثابتة ، ولكن اللواحق غير محددة مما يـدل على معاني عديدة ، بحيث لا يوجد تواطؤ أبداً ·(٣)

فالعربية اعتمدت على الاشتقاق اللغوي لمعرفة أصول كلام العرب من الزوائد الداخليـة عليه ، واعتمدت على المنهج التصريفى وهـو المبدأ الأساس الذي يقـوم عليـه الاشـتقاق ، بخلاف اللغات الهندأوروبيه التي اعتمدت على الزوائد واللواحق والبادئات لإضافة معنى جديـد للمفردة . (٤)

ويرجع تفسير المناطقة إلى مجافاة الاشتقاق لمبدأ التناقض وهو أن العربية في تـصريفها تعتمد على جذر الكلمة ، فالاشتقاق الأكبر يأخذ أصلاً من الأصول الثلاثية ويعقـد عليـه وعلـى تقاليبه الستة معناً واحداً وإن تباعد شيء منها ، رد بلطف الصنعة والتأويل إليه ، مثل لفظ (قَوَلَ) وتقلباتها تعبر كلها عن الإسراع والخفة (٥) ، ونلاحظ هنا مخالفة الاشتقاق لمبدأ التواطؤ ، بـل أغلب ظواهر اللغة تخالفه ·

وتتابعاً لتأكيد مبدأ التواطؤ ، نفى أيوب الضمير الملحق بالفعل ، واعتبـاره أن الـضمير تكرار وأن الفعل وحده قادر على وصف حدث شخصه الذي فعله ، ويلزمنا أن نـشرح مفهـوم (المورفيم) في الصرف ، لتوضيح المسألة بصوره أدق ، المورفيم هو الوحدة الـصرفية الـدنيا الدالة على معناها بحيث أن تغييرها يغير المعنى ·(١) ويتفرع المورفيم باعتبار الظهور وعدمـه إلى فرعين هما :-

---

٢ المرجع السابق – ص ١٠٦ .

٣ مقال بعنوان اللغة والمنطق في الدراسات الحالية – د. عبد الرحمن بدوي – مجلة عالم الفكر – الكويت – المجلد الثاني العدد الأول – ص ٨١ .

٤ علوم اللغة العربية في ضوء التراث واللغات السامية – د. محمود فهمي حجازي – ص ٦٤ .

٥ الخصائص لأبن جني – الجزء الأول – تحقيق عبدالحميد هنداوي – دار الكتب العلمية الطبعة الأولى – بيروت (٢٠٠١م) ص ٥٩ – ٦٦ .

١ اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج – د. سمير شريف – ص ١٠٩ .

ذو وجود مستكن له Potential ومن أمثلته الضمائر المستترة في العربية ، وسمى الغربيون المورفيم الغير ملفوظ (الصفر) مثل مفهوم الجمع في كلمة (رجال) لأن مورفيم الجمـع فـي رجال كائن لا من حيث علاقة الجمع ولكن من حيث مخالفته للفرد وهذه المخالفة علامة للجمع ، ويصح أن يوصف مورفيم الجمع في رجال بأنه المورفيم الصفر.

فالمورفيم الصفر ذو طبيعة تركيبية ، لا صرفية بنائية بمعنى أن التركيب هو الـذي يظهـر تقـدير المورفيم والضمير المستتر لا يظهر إلا عن طريق التركيب ، وهناك نوع آخر يعرف بالمورفيم المفـرغ وهـو الذي أفرغ من دلالته ، والأصل في المورفيم أن يؤدى وظيفة ، وتعطيل هذه الوظيفة تفريغ منها مثل (ال) التـي تفرغ من وظيفتها التصريفية إذا ألصقت بالأعلام .

أما المورفيم الظاهر وهو الواقع في دائرة النطق المتحصل عليه بالسمع مثـل (رجـل) وتحتوى على خصائص دلالية لكل واحدة منها مورفيم في ذاته مثل (رجل) تأخذ مورفيمات ثلاثة (الإفراد - التذكير - التنكير) .والأفعال من المورفيمات الظاهرة ، لأنها واقعـة فـي مجـال النطق متحصل عليها بالسمع ، والأفعال باعتبارها منطوقة تحتوى على خصائص دلالية كل واحد منها مورفيم في ذاته (كتب) تحمل حدث الكتابة . والإسناد والتـذكير والإفـراد والـزمن وأن مورفيم الإسناد في الفعل (كتب) يتضمن . (مفرد – مذكر – غائب) وفى ضوء هذا التحليل علينا أن ننظر فيما انتهى إليه الباحثين العرب ممن نظروا إلى فتحه البناء في الفعل الماضي المـسند، إلى مذكر (غائب) كما في (كتب) لقد عد بعضهم الفتحة هذه لاحقة ضميريه كما زعـم ذلـك ، وليس الأمر كذلك بكل تأكيد ، فإن هذه الفتحة [٢] ليست إشارة سالبه إلى أن الفعل معـزول عـن سائر اللواحق التي تصرفه إلى جذور أخرى فهو معزول عن التثنية (كتبا) والجمـع (كتبـوا) وعن الإسناد لأي ضمير تطرد الحركة كما في كتبت - كتبتي ، وقد أدرك ذلك النحاة العـرب بعبقريتهم الفذة فلم يجعلوها ضميراً أو لاحقة ضميرية ، كان معنى هذا بالضرورة أنـك تجعـل مورفيم الفاعلية متعدداً في مثل (زيد كتب رسالة) والمنطق اللغوي يقتضي أن الفاعل الواحد لا يتعدد ، فإذا وجد ما قد يوهم بخلاف ذلك فالحل في أن يكون الفاعل [١] فاعلاً وما يشير إليه إنمـا هو إشارة ليس غير كما في قوله تعالى : ((ثم عموا وصموا كثيرٌ منهم)) [٢] .

---

[٢] سقطت هذه الفتحة القصير من بعض اللغات السامية كما فقدت في الهجات العربية الحديثة وسقوطها مرتبط بسقوط حركات الإعـراب والسبب الرئيس هو شيوع الوقف بالسكون والدليل على أصالة الفتحة أن نراها قبل إتصال الفعل بضمائر النصب المتصلة بها لأننـا لا نراها مثل كلمة أعانني بحيث يتصل ذلك الضمير بالأفعال المسندة لغير بضمير الغائب المفرد – مدخل إلى علم اللغـة رمـضان عبـد التواب – ص ٢٦٩ .

[١] والعالم الخارجى هو مزيج من الظواهرالمتباينه وأن العقول الإنسانيه هى التى تتدخل لتكشف عما فيه من تنظيم ووسيلتها إلى ذلك الأنساق اللغوية التى توجد فى العقول الإنسانية ذاتها فنحن الذين نقوم بتقسم الطبيعة وكيف تنظر الجماعـات التـى تتكلم لغات مستقلة إلى الشىء الواحد نظرات مختلفة ودراسة الضمائر فى اللغات المختلفة تبين اختلاف الأنمـاط اللغويـه والثقافية الأخرى من المجتمعات المختلفة بينما تتعدد ضمائر الخطاب فى العربية نجد ضميراً واحداً (فى الإنجليزية) (you)

فالفاعل هو كثير وما واو الجماعة في عموا وصموا إلا إشارتان إلى الفاعل ،أما حديثه عن الضمائر فمن المعروف أن الضمائر إما ظاهرة ، وإما مستترة فالظاهرة باعتبارها مورفيمات ظاهرة تنقسم عند النحاة العرب إلى قسمين : ضمائر خطاب وتتمثل في ضمائر المتكلمين ، وضمائر الغيبة .

وتدل مقارنة اللغات السامية على أنه في تلك اللغات تلحق الفعل علامة التثنية والجمع ، للفاعل المثنى والجموع ، كما تلحقه علامة التأنيث عندما يكون الفاعل مؤنثاً . وقد تخلصت العربية من هذه الظاهرة رويداً رويدا أخذاً بمبدأ الاستغناء عن بعض العادات عند تكدسها للدلالة على الظاهرة الواحدة ، فإن الذي كان يدل على التثنية هو علامة التثنية في الفعل ووضع الفاعل صفة المثنى وإذا استغنت اللغة عن العلامة المتعللة بالفعل لم تخسر الدلالة على التثنية والجمع لوجود ما يدل عليها في صفة الفاعل نفسها ، ولذلك قال سيبويه : ((وإنما قالت العرب قال قومك ، لأنهم اكتفوا بما أظهروا عن أن يقولوا فحذفوا ذلك اكتفاء بما أظهروا)) . [٣]

وتشير ضمائر الغائب إلى أن العربية تستعمل الضمائر (هو ، هي) في سياق الحديث عما هو حاضر من غير أن يكون خطابك موجهاً إليه فإن الحديث عن (هو) وهي (حاضر) أسلوب شائع في اللغات الإنسانية وهو أسلوب من الأساليب البلاغية يعرف بالالتفات ، ويعتبر المورفيم الظاهر من الناحية الوظيفية نوعان :-

(١) متعدد الوظائف النحوية .

(٢) متعدد الوظائف الدلالية والسياقية :-

(أ) الأول مثل كلمة (مَن) تأتى للشرط والاستفهام والاسم الموصول.

(ب) والثاني مثل حروف الجر التي تختلف دلالتها باختلاف السياق.

)ومن خلال تسليط الضوء على هذه الضمائر معناه أن الأنماط اللغوية ليست عملها هو تحديد الحركات الحسية والتفكير ولكن عملها هو توجيه الإدراك والفكر فى اتجاهات معينه مألوفة مستعينه فى ذلك بالأنماط الثقافية الأخرى كتب (ليست اللواحق التى تتصل بالفعل الماضى للدلاله على جنس الفاعل وعدده . ومن قال أكلونى البراغيث قلت على حد قوله : (مروت برجل أورين أبواه) أو إن كان قد ضرب لهذه الظاهره (أمثله أخرى فى كتابه : فقال : (وأعلم ان العرب وان يقول : (ضربونى قومك) , فكأنهم أرادوا أن يجمعوا للجمع علاقة , كما فعلوا للمؤنث علامة وهى قليلة (أنظر كتاب سيبويه (ج١ / ص ٢٣٦ –٢٣٧ .

[٢] سورة المائدة – الآية – ٧١ .

[٣] كتاب سبويه – الجزء الأول – مؤسسة العلمي (١٩٦٧م) – ص ٢٣٤ .

وضمائر المثنى والجمع مورفيمات ظاهرة ، والمورفيمات الظاهرة نوعان : حر ومقيد ، الحر هو الذي يقوم بنفسه من غير حاجة إلى غيره كالأسماء ، والمقيد هو الذي لا يقوم بنفسه بل هو في حاجة إلى غيره وذلك كالضمائر المتصلة في العربية ٠

وقد يؤدى الصوت الواحد وظيفة دلالية في حال وجوده في الكلمة وهنا ينظر إليه باعتبار أنه وحده صوتيه مؤثرة في المعنى فهو لذلك فونيم وينظر إليه باعتباره وحـده صـرفيه ذات معنى ، إنه بهذا الاعتبار مورفيم ، وهذا الصوت الذي يؤدى وظيفة صوتيه وصرفيه يـسمى (مورفونيم) مثل ألف المثنى سواء أكانت ضميراً في حضرا أم علامة تثنيه في غلامان وكـذلك واو الجماعة والياء في جمع المذكر السالم ٠

أما ضمير الرفع المتحرك في العربية ، فإن الباحث قد يقع في خطأ إذا عـده وحركتـه مورفونيماً واحداً ، فالتاء وحدها مورفونيم والحركة مورفونيم آخر ، لأن الضمة هي التي تحـدد الخطاب بالمتكلم في (كتب) وإن الكسرة هي التي تصرف الخطاب إلى المخاطبة المؤنثة المفـردة في (كتبتِ) والألف في (كتبتما) هي التي تصرف الجمع إلى اثنين ، وهكذا فليس هناك تكرار [1] إنما هي وظائف صوتيه وصرفيه ودلالية سياقية تفيد المعنى وهى سمة أساسية فـي النظـام العربي الصوتي والصرفي والدلالي الذي يتمثل في ظاهرة الإعراب ٠

تلك هي آراء المفسرين والنحاة و اللغويين والعرب ، ومن هذه الظاهرة وهم يقلّبـون لكـل الأوجـه الممكنة في العربية ، من التخريج والتأويل ٠ ونلاحظ أن العرب في وصفهم لبنية اللغة راعوا الجانب التـاريخي وأولوه عناية شديدة ، وما ذكر لغة بنى تميم و ولغة طي ، ولغة بلحارث بن كعب إلا مجاراة التطور التـاريخي لظواهر اللغة كما لاحظنا في لغة (أكلوني البراغيث) أما الوصف البنيوي المجرد يؤدى إلى قواعد منطقية تسلب اللغة خصوصيتها وتاريخها و وما القول بتكرار الفاعل وبذكر الضمير إطنابا إلا لعدم معرفتهم باسـتعمال اللغـة والوجوه الممكنة لإعرابها كما لاحظنا في تقليب وجوه الاحتمال في الشواهد الـسابقة مراعـاةً للتمثيـل الـذهني والصوري للغة العربية ، وإذا أخذنا لغة بنظام لغة أخرى أمر يأباه العقل ويرفضه الفحص العلمي الدقيق ٠الـذى يتمثل في ظاهرة الإعراب ، وهذا النحو العربي والصرف هما اللذين تميزت بهما العربية دون غيرها من اللغات ، وهو علم معياري ٠ والقول بالتواطؤ ينفى المعيارية ، ويجعل اللغة هيئة للمنطق ، ومن ثم رهينة للعقـل الـذي ينتج ما ينتج وفق الاستعمال الآني دون مراعاة للتطور التاريخي أو خصوصية كل لغة بمراعاة بنيتها أو منطقهـا الداخلي الذي تحمله ٠

---

[1] وهذه الظاهرة , بقيت في العربية الفصحى والقرآن الكريم والحديث الشريف و قوله عز وجل : (واسروا النجـوى الـذين ظلمـوا) الأنبياء (٢١) أي تتناجوا فيما بينهم بالتكذيب ثم بيّن من هم , وقال تعالى (ظلموا أي الذين أشركوا) فالذين ظلموا , بدل من الواو في (أسروا) وهو عائد على الناس المتقدم ذكرهم , وقال المبرد , وهو كقولك : (إن الذين في الدار انطلقوا بنو عبد ا) و فبنوا بـدل من الواو في : (انطلقوا) وقيل: هو رفع على الزم , أي هم الذين ظلموا , قيل على حذف القول , أي يقول الذين ظلموا , وقيل راجح أن يكون منصوباً بمعنى (أعني الذين ظلموا) , وأجاز الفراء أن يكون خفضاً , بمعنى اقترب الناس الذين ظلموا حسابهم , فهذه أقوال : و أجاز الأخفش الرفع على لغة من قال : (أكلوني البراغيث , وهو حسن) , و قال الكسائى : , وفيه تقديم وتأخير و محازاة (الـذين ظلموا أسروا النجوى) - تفسير الطبري /ج١١/ص٢٦٨ ٠ معاني القرآن / للفراء /ج١ - ص٣١٦ .

أما حروف الجر فحديث الدكتور عنها أن تسعى العربية لاستبعادها لأن اللغات المتطورة تسعى إلى استبعاد الاستعمالات المزدوجة كحروف الجر مع علامتها ، وتسعى لجذب كلمات للتعبير عن الامتثالات التي ليست لها علاقة ٠

وقد أشار الدكتور فهمي حجازي [1] إلى أن العربية لجأت إلى فك الإضافة بالكلام وتقول :- ((هو منظر عام للواجهة الأمامية لجامعة القاهرة)) تفصيلاً للعبارة الموحدة (منظر واجهة جامعة القاهرة) ، فالجملة إضافة كلمة منظر إلى واجهة ، وكلمة واجهة إلى جامعة ، ولكن استخدام حرف الجر بين المضاف والمضاف إليه فك لحالة الإعراب وهى الإضافة ٠

وهكذا يسعى المنطق الباطني إلى استعمال مبدأ التواطؤ أو على الأقل أنه يقترب منه ، ولكنه في هذا يعوقه الاستعمال المنقول أو التطور اللغوي لكل لغة ، وحتى لغتنا الحديثة ذات التطور العالمي أثقلت كاهلها بقايا الأحوال النفسية السابقة على التاريخ وعلى المنطق ،إنها تتخلص من هذه البقايا ببطء شديد في اللغة المصنوعة التي تضرب صفحاً عن الماضي [2] فيكون من الممكن استكمال مبدأ التواطؤ بكل دقه وتحقيق كل مقتضيات المنطق ٠[3]

وبالمعنى أن مبدأ التواطؤ الذي أراده الدكتور أيوب ينفى عن العربية خصوصيتها من تضاد وترادف ومشترك لفظي و اشتقاق ٠كما أن مبدأ التواطؤ هذا يتوافق مع التحويل والاستبدال ، أما العربية لا يتوافق معها ذلك لأنها لغة تصر يفيه إعرابيه وليست تركيبية ، بل الجانب التركيبي إذا لم يفصح عن معنى فهو معادلة رياضية غير قابله للتحليل ٠

وكذلك يمكن القول أن اللغة ظاهره غير مادية ، شأنها شأن العرف والعادات و وهناك فرق أساسي بين بحث الظواهر المادية في مجتمع ما وبحث الظواهر غير المادية في المجتمع ويمكن استيعاب الظواهر المادية بوصفها وصفاً مباشراً ، لكن دارس الظواهر غير المادية يواجه مجموع العناصر غير المرئية وقد تداخلت جزئياتها تداخلاً كاملاً وهذا بشأن علم اللغة في بحثه اللغة، وبملاحظة جزئياتها وأن يصنّفها تصنيفاً رياضياً، وأن يبلور العلاقات[1] الكامنة خلف هذه الجزئيات المتكاملة ٠

---

[1] علوم اللغة العربية - محمود فهمي حجازي - ص٣٠٧
[2] مقال اللغة والمنطق في الدراسات الحالية – د٠ عبد الرحمن بدوي – مجلة الفكر – المجلد الاول - العدد الثاني ١٩٧١م ٠
[3] علم اللغة العربية في ضوء التراث واللغات السامية - محمود فهمي حجازي - ص ١٣ ٠
[1] علوم اللغة العربية - محمود فهمي حجازي – ص ١٣ .

ونخلص من كل ذلك ضرورة استصحاب الجانب التاريخي لوصف أي لغة من اللغـات ولا سيما إذا كانت لغة حضارية ذات تراث وكتاب مقدس وحضارة عريقة ، كما أن ارتباط اللغة بوظيفتها أو بوظائفها المختلفة في الجماعة اللغوية يؤثر بالضرورة في حياة اللغة . [٢]

ولذلك نؤكد أن العربية بإعرابها واشتقاقها خالدة خلود النص الكريم محفوظة من التطور الذي يقـضى على تطور اللغات بصورة طبيعية وأن منطقها منطق إلهي رباني (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) ، يوحي بقدرة ا في إعجازه وبيانه وليس هناك تكرار ولا زيادة بل كلٌّ بوظيفته النحوية الصرفية والدلالية والـصوتية ، وقال تعالى ((إنّا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون)) .

[٢] الظاهرة اللغوية الأصل التطور المستقبل – د. محمد عبد الحي – دولة الإمارات المتحدة – مكتب نائب رئيس الوزراء لشئون الإعلام - ص ٦٢ .

أظهرت البحوث اللغوية الحديثة خصائص أساسية تتميز بها لغة الإنسان هي الازدواجية والإعتباطية وتتمثل خاصة الإزدواجية في أن اللغة نظام مزدوج أي له مستويان أحدهما أساسي والآخر ثانوي ، ويقوم التحليل في المستوى الأول على الوحدات المكونة له وهي الكلمات وفق بعض الإتجاهات التحليلية ، أو المورفيمات وفق إتجاهات تحليلية أخرى وهي وحدات كبيرة نسبياً وتتميز بأنها غير ذات معنى ويقوم التحليل في المستوى الثاني على العناصر المكونة له وهي الوحدات الصوتية (الفونيمات) وهي وحدات صغيرة نسبياً تتميز بأنها غير ذات معنى ، وهذه الخاصية الإزدواجية تمكن الإنسان وفق قوانين من خلق تآلف الكلمات في عدد صغير لا يتجاوز الثلاثين أو الأربعين صوتاً وهو ما يتضح من المستوى الثانوي ويمكنه كذلك من خلق عدد غير محدد عن طريق تراكيب الوحدات الكثيرة الكلمات أو (المورفيمات) وفق قوانين ، الأمر الذي ينقلنا إلى خاصية الإنتاجية أو الإبداع ، وهو ما يتصل بخاصية أخرى وهي التمايز ، أي ينطق الإنسان القول وحدة واحدة ، إلا أن المستمع والمتكلم يمكنهما تحليل القول إلى أجزاء تتمايز بعضها عن بعض وكذلك تتميز لغة الإنسان بالإعتباطية أي عدم وجود علاقة مضرة لإرتباط معنى معين بصفة معينة أو تركيب معين ، وهي خصائص مترابطة ومتداخلة وتتفاعل الواحدة مع الآخرى لأنتاج الكلام . [١]

المبحث الثالث

النحو صورة اللغة

إذا ورد   أذهاننا سؤال اذا (النحو) أي اذا سلّطت النظريات ا ديثة أسهمها على (النحو) واعت ت النحو نشاط عقلي يشترك فيه البشر   يعاً ؟ . يقول الدكتور حسام ا طيب   كتابه (اللغة العربية إضاءات عصرية) : (النحو صورة اللغة ولغتنا العربية مبنية على علاقات متداخلة و تاج ا تكلم   ا إ   ملاحظة ارتباطات متعددة ولا سيما إذا ماتت السليقة اللغوية ، وصارت اللغة تؤخذ بالتلق والتعليم لا بالفطرة والطبيعة ، ومهما بلغ متكلم العربية اليوم من طول الباع ورسوخ العلم ، فإنه لا يستطيع إلا أن يو   الناحية اللغوية جانباً من نشاطه الذه   أثناء النطق أو الكتابة فعليه مثلاً أن يلاحظ   ل الكلمة من الإعراب ،   رك آخر حرف فيها على   و ما يقتضي ا ال ،

---

١ اللغة وعلم اللغة تأليف جونزليون ترجمة د. مصطفى التوني – دار النهضة العربية القاهرة – (١٩٨٨م) .

وعليه أيضاً أن يلاحظ ا طابقة التعريف والتنك والتذك والتأنيث ، و الإفراد والتثنية وا مع ، وعليه أن تاط ا ينصرف ولا ينصرف وأن ترس لإعراب ا ث وا مع السا ويلاحظ اسم ا نقوص إ آخر ذلك من الارتباطات ال يستحيل مراعا ا إلا بإتقان النحو جيداً ، وهكذا يتبين أن النحو من حيث ا بدأ غ معلوم وأنه لا بد من أن يآ صعباً عميقاً لأن اللغة غنية ومتنوعة الارتباطات ، و ن لا نؤمن أن دراسة النحو كّن الدارس من ناحية اللغة ، وتقدره على التعب الصحيح ، ولكننا نعتقد أن للنحو شأن تقد اللسان و ضبط اللغة ، وهو دوراً مهماً كلما قللنا من شأنه يظل مياً لا سبيل إ إ اله) . [1]

وبالتا يلعب النحو العر دوراً هاماً تعلق اللغات ا عربة كن أن نصل إ أن النحو صورة اللغة ، وكلما كانت اللغة صعبة ومتعددة الارتباطات كان النحو صعباً وقاعدته متشابكة ومتداخلة .

ويشير حسام الخطيب إلى تميز العربية وبالتالي تميز نحوها ويعلل بذلك إلى أن العربية لها مشاكل لغوية نوعية تجعلها لا تدخل في مظلة اللغات العالمية :- [2]

(أ) الخصائص النوعية الذاتية ، وهي الخصائص الموجودة في طبيعة اللغة العربية التي تجعل منها لغة مستغلة متميزة عـن سائر اللغات بإجماع هذه الخصائص معاً ، ومن أبرز هذه الخصائص :-

(١) الاشتقاق .

(٢) الإعراب .

(٣) غني المفردات بظواهر اللغة ترادف ، وتضاد ، ومشترك لفظي .

(٤) السليقة اللغوية وفطرة العرب على القول الفصيح .

(ب) الخصائص النوعية الناتجة عن الظروف والملابسات وارتباط العربيـة بالـدين الإسـلامي والقومية العربية ، مما يجعل المحافظة عليها وبقائها قضية لا تحتمل الشك .

ونلاحظ أن الخلاف العصري ينصب على الوسيلة ، والعربية تنفرد بتجربة لا مثيل لها بين اللغات وهي محافظتها على طبيعتها طوال أربعة عشر قرناً أو أكثر وقد تكون هذه المحافظة العلة الأولى للمشكلة اللغوية الراهنة ؟ .

وهل يبقى الاضطراب ما بقينا نحاول السير على نحو الأوائل ، متراجعين بين الماضي والحاضر ، وما هو الحد الأمثل لاحترام قدسية اللغة ، في ظل هذه الفرضيات الحديثة التي تخدم أغراضاً ومآرب تتناسب مع ثقافتها ومن ثم مع لغتها التي تخضع لعوامل التغير والتبدل دوماً .

النحو بين مكونات اللغة البنائية وحركة الأصول المعيارية :

النحو أحد مستويات اللغة لذا فإن تذوق نواتج القيمة ليس أمراً اعتباطيـاً لأن مكونـات البناء اللغوي وترابط الأواصر ، وحركة العناصر وسير البنية الدلاليـة تـنهض علـى قواعـد

---

[1] اللغة العربية إضاءات عصرية – د. حسام الخطيب – (١٩٩٠م) الهيئة العامة للكتاب – ص ٨٠ .

[2] المرجع السابق – ص ٨٢ .

ومقاييس المعيارية . على هذا النحو تنظّم وتوظّف صوب استقامة تراكيب هذه اللغـة وسـلامة صياغتها .

والنحو صناعة علمية تقوم على النظم المترابط وصور المعنى وعلم بأقيسة تغير الكلام وأواصرها بالنسبة للغة مستخرج بالإستقراء الموصل إلى معرفة قضاياه . وشد بنية أجزائه والنحو معني بالمعني بالوظيفي الذي يهتم بتحديد جزيئات الفعل والتراكيب ، وتقسيم هذا المعنى الوظيفي بالتغير (فاعل + مفعول به + حال) وفقاً لسير النظام ، أما المعنى المعجمي الثابت يكشف عن مستوى الدلالة داخل المعجمي .

إذن كل من المعنى الحقيقي والمعنى المعجمي مرتبط بالآخر ، وعلى هذا أن معرفتنـا للأعجمية شرط للمعرفة الوظيفية . هكذا سار النحو تعليمياً ، لكنه ما لبث أن ارتـبط بـالمنطق ، وكان ذلك بسبب جريهم وراء الأثر في المقولات النحوية ، وبالتالي حرص أهل العربية القـدامى تحري الضبط والدقة في التركيب ، فأسسوا ثوابت يقيمون عليها الأحكام المعاييرية وبناء أحكامهم هذه على أربعة أصول :-

السماع والقرآن ، الحديث وكلام العرب والإجماع ، إجماع الرواة وإجماع النحاة .

أورد الدكتور عبد القادر عبد الجليل سؤالاً في كتابه (علم اللسانيان الحديثة نظم الـتحكم وقواعد البيانات) . [1] :-

(ما الإعراب وما حقيقته ، ليس تاريخاً بل فعلاً وصفياً تطبيقيـاً ؟ . ومـــا موقـف اللسانيات الحديثة التصحيحية منه ؟ وكيف تراه وهي تحال النص لغوياً ، ونحوياً ؟ .

وعرف الإعراب بأنه وظيفة إدراكية تمارس نشاطها في مجال الصياغ . وهـو تحليـل الوحدات اللغوية الداخلة في تركيب قواعدية . وبيان جوهر وجودها وما هية حدودها ، والإعراب مرتبط بهوية العربي ووجدانه ، والإعراب مرتبط باللغة العربية ومرتبط بالقرآن الكريم والمسألة تتعلق بالانتماء اللساني ، وهذا لا يكون موجوداً إلا إذا كان لساناً معرباً .

في الصناعة الإعرابية لا بد من ضرورة التفريق بين الحالات التقديرية وحالات تفسير المعنى ، ومن هذا المتجه يقتضي الأمر الرصد الواعي لعلاقة المعنى بالوظيفة الإعرابية ، وعدم الانقياد وراء ظواهر قد تؤدي إلى إضطراب الإعراب .

في الصناعة الإعرابية تظهر على سطوح الوحدات التركيبية رموز المسميات الوظيفيـة حيث توزعت بين الأصلية والفرعية ، وقد أورد في كتابه (نظرية العامل بين النـسبة المعدومـة

---

[1] علم اللسانيات الحديثة – نظم التحكم وقواعد البيانات – د . عبد القادر عبد الجليل – دار صفاء للنشر والتوزيع – عمـان – الطعـة الأولى (٢٠٠٢م) – ص ٤٦١ .

والإستغراق في الكم المتصاعد للتقديرات) . [٢] في تقييد النحاة لنظرية العامـل رسـوخ للمـنهج الاستنباطي الذي يقوم على تلمس البنية التحتية للوحدات اللغوية ، وهي تمتطي صهوة النصوص والنحو باعتباره عمل لكل عمل عامل ولكل عامل أثر ، وأثر العامل يتجسد في الحركة الإعرابية على هذا أدخلت فى مجال النحو نظرية مقتبسة من الفقه والفلسفة والمنطق . تعتمد مبـدأ العلـة والمعلول ، وفي اعتماد نظرية العامل تطبيق تراكيب النحو ، ومحاولة من النحاة لتفسير الظواهر الوظيفية في داخل التركيب ، ويقول : ((ومن أجل أن تستمد هذه النظرية أسباب رسوخها كان لا بد أن يلتمسوا لها عوامل القوة ، ويخصون أسوارها بالثبوت والتجلي حتى أن اضـطرهم الأمـر إلى الاستغراق في الكم والتقديرات والتحليل والتمثيل الخارجي عن حدود المعقول مـن القـضايا والمحاكمات)) .

وقالوا إعراباً لكل مرفوع رافع ولكل منصوب ناصب ، وهكذا [٣] وعلى هـذه القواعـد الأربعة صنّف النحاة مادة النحو العربي .

والأصل ألا يجتمع عاملان على معمول واحد ، وبالإمكان أن يمتلك العامل الواحد أكثر من معمول واحد ، وقد أدت هذه النظرية إلى ولادات متعددة من البناء التركيبي مما وزع القاعدة وأدى إلى هوامش من الانزياحات على مستوى البني التحتية .

واعتبرت هذه النظرية متجهاً توليدياً كشف حجاب البني التحتية للنصوص ، مخلّفاً جملاً ثانوية .

وعرض كذلك فصلاً بعنوان (التوليدية والإنتاج الوظيفي) . [١] مبيناً فيـه أن تقـديرات العرب التي تفرضها القواعد النحوية ، تتساوي مع البناء التوليدي المتفـرع لوظـائف الوحـدات اللغوية داخل التركيب .

ويقول : ((إن هذه التوليدية لمجموعه الجمل ، وإن كانت تفسر تقديراً افتراضياً ، فإنها خارج المنهج البنائي لتؤكد حضور نظرية العامل)) .

وحال نص الندبة (وأزيداه) (وازيداً أغثني) فإن التحليل اللساني يتكون من مركب صوتي يتألف من بنية الصوت الصائت (و) ، والصائت الطويل الألف ، وهو في هذا اللون من التـزاوج يحمل وظيفة ندائيةاستغاثية مندوبة وحالته الشبيهة بمرور الصائت الطويل الألف زيـداً بالاسـم المخصوص المندوب ، أما الألف المصاحبة للمفرد فإنها ارتكاز زماني مفتوح يتمدد على المساحة

---

[٢] المرجع السابق – ص ٤٦٧ .

[٣] المرجع السابق – ص ٤٦٨ .

[١ ١] علم اللسانيات الحديثة – نظم التحكم وقواعد البيانات – د . عبد القادر عبد الجليل – دار صفاء للنشر والتوزيع – عمان – الطبعـة الأولى (٢٠٠٢م) – ص ٤٦١ .

الممتدة بين المندوب ومكان وجود المتكلم . ولجأ إلى الهاء الحنجري الاحتكاكي المهموس المرقق لأن وجوده ازاحة النفس ، ويختلف هذا الصوت عندما توصل أطراف الأصوات (وازيداً أعثني) ! . لأنه عوض (بالهمز النبري) بعد الصائت الطويل . ويقول معللأ النص فـي (زيـداً) بأنـه (ضرب تخييلي) فيقول ، ((أما قول النحاة بأنه منصوب بفعل محذوف وجوباً تقديره أنادي وأدعو ، فأنه ضرب تخييلي ، ولكنه يساعد على إنتاج تراكيب متعددة))؟ .

ويضيف على هذا الجانب التخييلي قوله (ونحن نفيد من نظرية العامل فـ ـي عمليـة التوليد ، ولكن قد نراها تشكّل حالة سلب وتشتت في مسير معيارية القواعد النحويـة ، وأدائهـا الوظيفي الموجب ، حيث كان لها الدور الفاعل في تحويل النحو إلى جدل عقلي قائم على المنطق اللامنتهي . [٢]

ولكن العرب لم تجعل كل النحو وفقاً لنظرية العامل ، لأنها اعتبرت الجمل التي لا محل لها من الإعراب وركّزت على صورها الوظيفية داخل السياق .

فالعرب اعتبرت الجري وراء نظرية العامل إسراف متعسف وإغراق لا منطقي ، وقـد امتلئت كتب النحو بتأويل الإعراب وتقديره من مثل قوله (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى) . [١] ، وقال تعال (والذين هادوا والنصارى والـصابئين) [٢] الظـاهر الـصابئين ، معطوف على اسم إن الذين والتي محل نصب ، والمفروض الصابئون ، والتأويل أن (الصابئون) معطوفة على مكان اسم إن قبل أن تباشره الأداة أي على المبتدأ الذي حقه الرفع. وهكـذا سـعت البنيوية نحو نظرية العامل باعتباره فكر يركّز على مفهوم البنية العميقة والبنيـة الـسطحية ، أي على الباطن والداخل والخارج ، ومفهوم العلاقة الذي يجعل الكلمة يعرف معناهـا مـن خـلال مجاورتها للكلمات الأخرى في تضاد وتشابه ، وعدم اعتبارها للمعنى الخارجي وتفـسير الـنص وتأويله من ذاته ، كل ذلك كان حرياً بها أن تظفر بنظرية العامل لتجعل من نحونا العربي بهـذه النظرية جزء من النحو الكلي ونسيت أن مناهج النحو متداخلة ومظـاهره متعـددة فـلا ينبغـي الاحتكام إلى ظاهرة واحدة في النحو العربي لتبرير نظرية التوليد . والإعـراب يكـون إنتاجـه وظيفياً لا يمس المعنى في شئ وليس هنالك جانب تغير المعنى إلا من خلال الجماعة اللغويـة . ومن خلال ما أقرته من سماع وقياس وإجماع واستصحاب ، وليس شذوذاً على قواعد العربية .

---

[٢] المرجع السابق – ص ٥٠٠ .
[١] سورة المائدة – الآية ٦٩ .
[٢] سورة البقرة – الآية ٦٢ .

وبالتالي يبقى الإعراب شاهداً على التوجه الوظيفي داخل السياقات ، يتـصاعد وظيفيـاً كلما دعت الضرورة لإ براز حركة القيم وتوجهاتها الدلالية . وتبقى البنيـة الأساسـية واحـدة ، والبني الثانوية متعددة ، تنمو بنمو الاحتمالات والفروض التي يطرحها التقدير والتأويل .

ونلاحظ في الإعراب أن هناك بنية أساسية محورية تحكم التركيـب ، ولـيس لظـاهر المنطوق مثل (كلمت ليلي هندأ وبشرى) ليلي البنية الاساسية أو الظاهرة الفتحة ولكـن التحليـل الإعرابي النحوي يعتمد على البنية الأساسية ، إذاً ليس في العربية ظاهر وبـاطن ولكـن هنـاك جانب وظيفي تؤديه الكلمة داخـــل السياق ولا تمس المعنى في شئ ، مثل قوله تعـال : (ومـا ربك بظلام للعبيد) [٣] ، وقال تعالى ، (هل من خالقٍ غير ا) [٤] فالأسماء مجـرورة ظـاهراً ، ولكنها حاملة لوظيفة نحوية أخرى خبر في الآية الأولى ، مبتدأ فـي الآيـة الثانيـة . فالتحليـل الإعرابي النحوي يعتمد على البنية الأساسية لا على الظاهر المنطـوق أو مـا يعـرف (بالبنيـة السطحية) ، ونشير هنا إلى ما قاله تمام حسان:- [١] ((المعنى النحوي لا يمكن أن يفسر بالإعراب وحده ، بل مع مجموعة القرائن)) .

ومن كل ذلك نستطيع القول أن النحو العربي له طابع نوعي خاص يرتبط بتفسير القرآن الكريم ومعرفته ، فالإعراب متعلقاً بالعربية ، ومتعلق بالمعنى القائم على السياق الإجتماعي والتاريخي والثقافي ، فوصف بنية العربية لا يتم بصورة تركيبية مجردة بل لا بد من إيجاد أمثلة تقوَّى جانب التركيب معنوياً وليس وصفياً كما عُرض في النصوص السابقة . خلافاً لما احتكم إليه النحو العالمي الذي يصنّف اللغات بصورة آلية وفقاً لقانون الإحتكاك الديكارتي .

---

[٣] سورة فصلت – الية ٤٦ .

[٤] سورة الفاطر – الآية ٣ .

[١] اللغة العربية معناه ومبناه – تمام حسان .

الوصف والتوصيف في العربية :

لا شك أن النظر في العربية وصفاً لمن ينشدون تعلمها من الناس ولحفظ قواعدها مـن الذوبان ، وشغل علماء العربية بذلك الوصف منذ أن شرعوا في وضع قواعدها في القـرن الأول الهجري حتى الآن ، وإتخذ علماء العربية في صيرورة الوصف مناهج متباينة . [1]

كما أن المنهج الوصفي هو الأساس المنهجي ضمن بقية الأسس التي اعتمـدت عليهـا البنيوية ، فاللغة من الأمور التي لا يمكن إخضاعها لطرائق البحث العلمـي الـدقيق لاخـتلاف مواضعها كالبحث في أصل اللغات مثلاً ، يقول محمد المبارك : ((وهذا القـسم مـن البحـث الإجتماعي كثرت فيه النظريات وتعددت واختلفت ولا سبيل إلى إلزامنا بإحدى هـذه النظريـات فليست هي من الحقائق العلمية التي لا يختلف فيها اثنان ، بل يمكن اعتبارها من قبيل ميتافيزيقيـا علم الطبيعة حينما حال الكيميائي والفيزيائي نفسه عن أصل المادة ونشوئها وهذا خارج عن دائرة اختصاصه وليس لبحثه فيه قيمة علمية كبحثه في تركيب المادة و قوانينها وتفاعلها بل إن البحـث في هذه الأصول الإجتماعية النظرية أصبح أكثر تعقيداً ، وهذا البحث في العلوم الطبيعية يـدخل

---

[1] الثنائيات وقضايا اللغة العربية - نهاد الموسى - ص ٢٤٥ .

فيما يسمى بفلسفة العلوم ، لا في العلوم نفسها من حيث الاختصاص ، ومثيلاتها في علم الاجتماع أحرى أن تسمى (فلسفة علم الاجتماع) فلا تكون لها القيمة العلمية التي تدعيها.))[٢]

وهنا نقد واضح للمنهج الوصفي وخاصة في الدراسات الاجتماعيـة التـي لا تخـضع للتجربة ، ولا سيما اللغة التي تختلف من بيئة إلى أخرى ، وهذه الدراسة اللغوية دراسة فلسفية ، لأن القوانين اللغوية تختلف من لغة إلى أخرى ، فلا يجوز إلزامنا بهذه النظريات . والقول عنـد تشومكى ، أن المعرفة اللغوية في المرحلة القارة يمكن تمثيلها بواسطة نسق من القواعد يرسـم خصائص العبارات اللغوية ، وهذا النسق نحو توليدي يقدم تمثيلات مختلفة لهذه العبارات وعلـى الأخص تمثيلاً صوتياً ودلالياً منطقياً ، وتحديد طبيعة هذه الأنظمة التمثيلية وعناصرها وقواعدها يبقى مسألة تجريبية والنحو الذي يبنيه اللغوي لتمثيل هذه الحالة يكون كافياً من الناحية الوصـفية إذا مثل بصفة لائقة ، نظام القواعد الممثلة ذهنياً واستعمال لفظ (نحو) يدل على النسق الممثـل ذهنياً أي الحالة المعرفية التي يصل إليها فرد معين ، وهو يدل كذلك على النظرية المبنية لمحاولة رصد خصائص هذا النحو الباطني ، فالنحو الكلى يحدد المرحلة القارة وليست التجربـة ، وهـو كذلك تفسيري في نظر تشومكسى .

فاللساني يفسر سمات التماثل بين اللغات والتباين بينها محدداً ما يندرج ضمن الكليـات اللغوية التي تكون العضو الذهني البشرى الذي ينتج اللغة ، وما يندرج ضمن البارامترات التي قد تختلف اللغات فـــي تثبيت قيمها ودور اللساني في تفسير هذه الحركة من اللاوعي إلى الوعي .[١] وهنا يتبادر سؤال جوهري هل يكون عمل اللغوي وصفاً كاملاً للعمليات العقلية التي يـصدر عنها أبناء اللغة ؟ .

يتوجه الوصف لكل ما ينتظمه من عرض النظام اللغوي إلى الإنسان بما ركّب في العقل الإنساني من قابلية لاستدخال هذا النظام بقواعده ومعطياته وآليات عمله في معالجة ذلك وبرمجته ، وهى قابلية كامنة في العقل الإنساني تزوده بحدس قادر على ملء ثغرات الوصف .

أما في التوصيف فإن النظام اللغوي كأنما يعرض على صفحة بيضاء ويحاول التوصيف أن يكشف عن هذا الحدس ، بالإنجاز اللغوي الذي يشفّ عن طريقة عمل العقل. فتـصدر اللغـة عن تلك البينة العقلية وتستوي في نظامها الذي تكتسبه أو نتعلمه ، وننظر في اللغة نظـراً عقليـاً

---

[٢] مجلة المسلم المعاصر - مقال الأستاذ - محمد المبارك - العدد ١٢ - ص ٢٤ .
[١] اللسانيات واللغة العربية - د.عبد القادر الفاسى - المقدمه.

فنكشف نظامها ، فتكون في حال الاكتساب نظاماً تصدر عنه دون أن نتبينه ، وتكون في حال التعلم نظاماً نتبعه عن وعى صريح .[٢]

كانت وجهة نظر الغربيين أن اللغة تستخدم وبشكل غير محدد وسائل محددة وأن قواعد اللغة يجب أن تصنّف العمليات التي تجعل هذا ممكناً ، كانت وجهة النظر هذه نتاجاً لإهتمام ملح ضمن الفلسفة العقلية للغة ، إذن يمكن القول أن لتناول اللغة جانبان هما الدرس والاستعمال ، فأما الدرس فقد سعى للكشف عن تكوين كل لغة بواسطة النظر في عناصرها على مستوى الجملة وما دونها نظراً تحليلياً يعتمد على التبويب والتصنيف والتأصيل . طبق البنيويون هذا الإتجاه على تجريد المفاهيم وافتراضها عند عدم وجود ما يقابلها في الاستعمال ، ولذلك يعترف النحو العربي بواجب الحذف وعود الضمير على متغير غير مركوز وتقدير العامل في الاشتغال وغير ذلك من الظواهر التي تقوم على الافتراض لا على الواقع النطقي .

فالنظام اللغوي نظام افتراضي يقضى بأمور يفرضها على تفسير الاستعمال ويصدر الأحكام الصارمة مما يدعو إلى شيء من الإعتزاز عن كثير من الظواهر التي توجد في أكثر النصوص قبولاً وأعظمها أثراً في السامعين [٣] والأدلة على ذلك كثيرة من ذلك قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى ...)[١] وقوله تعالى (وقالتا أتينا طائعين) [٢] ، وقول العرب (مكره أخاك لا بطل) ، وقول إمرؤ القيس :

كأن ثبيراً في عرانين وبله   كبيرُ أناسٍ في بجادٍ مزملِ [٣]

وحكم نظام اللغة في ذلك أن تقول (طائعتين) و (الصابئين) ، وهذا هو معنى افتراضه للنظام وقيامه على أساس من التجريد والتصنيف والتعقيد للحكم على الاستعمال من بعد حدوثه من أجل فهمه وتقويمه ، وقد اعتبر الدكتور حاسم البهنساوى في كتابه (أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث) [٤] : ((اللجؤ إلى التأويل دليل التناقض في الأحكام ، نتيجة تضارب المناهج أو عدم دقتها ، ومعلوم أن التأويل ما هو إلا محاولة لجعل قواعد اللغة تتمشى مع قواعد المنطق علماً بأن قضايا المنطق لا يجوز تطبيقها على قواعد النحو ، ومن هنا جاءت محاولات النحاة لتفسير علل البناء والإعراب)).

---

٢ الثنائيات وقضاية اللغة العربية - نهاد الموسى - ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .
٣ اللسانيات واللغة العربية – د. عبد القادر الفاسي – ص ٤٥ .
١ سورة المائدة – الأية ٥١ .
٢ سورة فصلت الآية ١١ .
٣ أنه أراد مزمل فيه حزف حرف الجر فارتفع الضمير فأستشرف أسم المفعول – الخصائص لأبن جني الجزء الأول – ص ٢١٨ .
٤ أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث – حاتم البهنساوي – ص ٢٤ .

فاللجؤ إلى التقدير ليس مغالاة ولا افتراضاً ولا تعسفاً يقول د. سمير شريف :((نحن لا ننكر أنه تقدير ، ولكنه تقدير يقتضيه منطق اللغة نفسها ليس تحكماً ولا اعتسافاً في النظر والتأويل ولا رياضة عقلية بعيدة عن اللغة وعندما نقول الجملة المعترضة لا محل لها من الإعراب معنى ذلك أننا ننفي عنها أن تكون عاملاً وننفي عنها أن تكون معمولاً لغيرها وانه تصور تفسيري للغة وليس تصوراً افتراضياً وشتان بين التفسير والافتراض)) . [5]

والحقيقة أن التأويل لا يدعوا إلى التناقض والافتراض ولا سيما في النحو العربي ، أما دراسات النحو الغربي لم تكن ذات مسار واتجاه واحد ، إنما جاءت في صورة مزيج من الآراء وخليط من الأفكار ووجهات النظر المتباينة التي ظهرت عبر عصور مختلفة ، اعتمدت فيها على آراء وأقوال عن تركيب الجملة عند أفلاطون و أرسطو ، كما اعتمدت كذلك على نظريات عن أجزاء الكلام تعود إلى الرواقيين واعتمدت أيضاً على أفكار عن المعنى وطبيعته في بعض فترات القرون الوسطى ، واعتمدت كذلك على فرضيات عن علامة اللغة بالفعل منحدرة عن قواعد وضعت في القرن الثامن عشر في إنجلترا كما أنها اعتمدت على دراسات عن تاريخ اللغة تعود إلى القرن التاسع عشر .

وفى هذا الصدد يقول كمال بشر : [1] ((إن سمة الخلط والاضطراب هذه التي تميز المنهج التقليدي في الدراسات اللغوية والنحوية في أوروبا ، نجد مثيلاتها في الدراسات النحوية التقليدية عند العرب حيث جاءت أعمال هؤلاء خليطاً من أمشاج وأنواع شتى من الاتجاهات والأفكار والمبادئ التي يصعب أن نعثر على الخيوط بينها أو أن ندرك مدى ارتباطها ببعضها البعض ، إن هذه الاتجاهات وما يصاحبها من أفكار ومبادئ ليس من النادر أن تجد التناقض بينها واضحاً ، وأن نحس بالاضطراب الناتج عند محاولة تطبيق هذا الخليط المتناسق من أساليب البحث .))

وللفصل في هذه القضية نؤكد على أن النحاة العرب اعتمدوا على المعيارية وكان اتجاهاً سائداً عندهم ، حيث أسسوا القواعد وفق قوالب معينة من اللغة لا يحيدون عنها ، تلك القوالب ، هي ما يجب أن يتكلمها الناس من هنا جاء اهتمامهم بتخليص اللغة من الشواذ والشوائب ، بقصد المحافظة عليها من اللحن والتحريف عند العرب ، مع المحافظة على أصالة اللغة وترسيخ مفهومها الجمالي .

---

[5] اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج – د. سمير شريف – ص ٢٤٤ .
[1] دراسات في علم اللغة العام - القسم الثاني/ كمال بشر – ص ٤٥ .

ومن ثم فإن هذا المنهج يعتمد على الأمثلة والشواهد القائمة مع التمثيل بضرورة القياس على معيار صحتها باعتبار أن الأقدم هو الأصوب والأفصح ، [2] واعتبر القياس معياراً سـيطر على النحاة الأوائل ، والقياس نوعين قياس يتعاطاه المتكلم إذ يحذو حذو غيره من أبناء الجماعة اللغوية ، وقياس عرفي عند النحويين واتسمت به مدرسة البصرة وأن ثمة أمور في اللغة لا تؤخذ إلا عن طريق السماع البحت دون أن يكون خاضعاً لقانون مطرد ، وأن ثمـة ظـواهر لغويـة تخضع لمثل هذا القانون ، وأنهم جعلوا الاستقراء حكَمُ في استظهار القوانين ، وهـذا مبـدأ مـن مبادئ الفكر العلمي ، فالأصل في معايير الكلام عند العرب اتجاهان : -

(١) اتجاه يخوض وجوه الاستعمال المختلفة .

(٢) اتجاه يخضع الكلام لمعايير بعينها .

فالقياس أسلوب النظر في الكلام لاستخراج الأحكام والأوضاع ونظمهـا مـن قـوانين خاصة تضبطها ، وبهذا كانوا يجعلون المعرفة بالعربية عن طريق القياس .

واعتبر القياس قاعدة ، اصطناعية مقابلة لمعرفة السليقة اللغوية ، فهو تحويل المعرفـة من السليقة إلى الصناعة التي تقوم على أصول التفكير العلمي [3] ، وفسرت الدكتورة منى اليـاس في كتابها (القياس في النحو) تعارض الأفكار النحوية من وجهة نفـسية : ((إن مـن الحقـائق المعروفة في علم النفس أن المهارات التي يكتسبها الإنسان بالممارسة الطويلة حتى يصبح يؤديها دونما تنبيه إلى جزئياتها ، وإذا ما حاول أن يفكر في كل خطوة أو جزئية من جزئيات العمل الذي أتقنه على نحو واع أدى ذلك إلى أن يتعثر في أدائه ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالمهارة اللغوية أو ما يسمى (السليقة اللغوية) فإن الإنسان بطول الممارسة يتقن الكلام علـى أصـول ، فـإذا مـا اصطنع كلامه بتفكير واعٍ في موقع كل لفظ وكيف ينبغي أن يكون ، فقد يؤدى ذلك إلى ضـرب من البلبة والتعثر ، ولما كان تجريد الأقيسة والقواعد لا يعدو في تطبيقه أن يكـون تغييـراً فـي مبادئ محددة عن أمور يدركها المتكلمون لهذه اللغة بإحساسهم ، كان لا بد في أول الأمـر مـن وجود هذا الضرب من البلبلة في أعمال الرواد الأوائل ، وكان العامل الأول في تصحيحهم هـو الفكرة التي ظلت الموجه الأول للنحويين في أعمالهم ، في مختلف الأطوار التي تقلب فيهـا هـذا العلم ألا وهو استنباط للقوانين التي يجرى عليها العرب الخاص في كلامهم ليؤمن باحتذائها اللحن والخطأ اللغوي عامة)) . [1]

---

[2] التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث / حاتم البهنساوى- ص ٢٢ .

[3] المرجع السابق – ص ٢٣ .

[1] القياس في النحو – منى الياس – الطبعة الأولى – (١٩٨٥م) – دار الفكر – ص ٢٠ .

والأداء اللغوي أو الوصف يستشف به الناظر في اللغة باللغة بعض ما يؤدى وراءها من عمل العقل [٢] وذلك ما قاله تشومسكى أن ابن اللغة في لغته يصدر عن قواعدها في العقل تلقائيـاً وأنه لا قبل له بأنه ينبئ عن ذلك بالعبارة الصريحة الدالة على وعيه بتلك القواعد [٣] .

وكان هذا شأن الإعرابي الذي يسأل : أتهمز الفأرة ؟ فيجيب إنما تهمزها القطط و يسأل في جمع (حرنجم) فيجيب ، وإيش فرقه حتى أجمعه ، لأن الإعرابي إنما يفهـم (الهمـز) و (الجمـع) وهمز في مصطلح علماء العربية يدل على مفاهيم العام المتعارف عليه عنـد أهـل اللغـة مـن الناطقين بها وذلك فرق ظاهر بين اللغوي والاصطلاحي . [٤]

وأشار نهاد الموسى [٥] بأن الاستعمال يشفّ عن الحدس بالإنجاز اللغوي الذي يشفّ عن طريقة عمل العقل وهذا ما قاله تشومسكى أن اللغة تصدر عن تلك العقلية .

ولكي نجيب على السؤال السابق ، هل عمل اللغوي يمثل وصفاً كاملاً للعمليات العقلية التـي يصدر عنها أبناء اللغة ؟ وهذا يذكّرنا بما نشره مازن الو اعر في كتابه (نحـو نظريـة لـسانية (دلالية فلسفية) فصلاً بعنوان (حكومة اللغة العربية أهي اجتماعية أم ذهنية) ، وحتى نجيب على السؤالين معاً لنقبل كل الافتراضات السابقة وما يقوم به عمل اللسانيين الغربيين من تطبيق البنـى العميقة على قواعد التأويل والتقدير والحذف في العربية ، تشير إلى أن أبنية العربيـة والمعـايير التي تستند إليها أسس النحو العربي ، حتى نصل إلى نتيجة مفادها أن بنية العربية تختلف عن بنية النظريات النحوية الغربية لا سيما فيما اسماه تشومسكى المعرفة اللغوية أو البنية العميقة .

ويشير العنوان إلى أن قواعد اللغة العربية وشرحها لا تستند إلى أسس علمية تقوم على الاستقراء والاستنتاج الموضوعي الدقيق .

صحيح أن اللغة العربية تتأثر مثل بقية اللغات الأخرى بالمجتمع إلا أن هـذا التـأثير لا يمت إلى بنيتها بل يشمل فقط الألفاظ ودلالتها ويشمل أيضا أصواتها .

فليس هناك عوامل اجتماعية وتاريخية تؤثر في هذه القواعد ، والضوابط التي تعمل داخـل بنيـة اللغة ، وصحيح أيضاً أن اللغة العربية خلّدت العادات والتقاليد الاجتماعية العربية ولكـن هـذا لا يعنى أن هذه التقاليد هي التي حدت بنية اللغة وقواعدها . [١]

---

[٢] فالبنيوية تقوم أساساً على تحليل عناصر اللغة بالاستعانة بالعناصر الأخرى التي تمثل عليها تلك اللغة حيث يقـوم الباحـث بوصـف العناصر الصوتية محاولاً من خلالها الوصول إلى توين الوحدات المورفولوجية , لتكون بـدورها العبـارات فالجمـل ٠ ولا شـك أن المدارس اللغوية الحديثة و التي ظهرت في أوروبا وأمريكا تنتمي إلى هذا المنهج .

[٣] الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث – د. حاتم البهنساوى - ص ٢٥ .

[٤] الثنائيات وقضاية اللغة العربية – نهاد الموسى – ٢٤٥ – ٢٤٦ .

[٥] قد يكون الاستعمال مقابلاً للقياس , فيأتي من ذلك أن يكون الاستعمال دالاً على ما تواتر على ألسنة الناس , وهذا يختلف من زمن إلى زمن والمقصود بالاستعمال ما كان وما زال على السنة الفصحاء والبلغاء في كل زمان . لا ما تجرى به السنة العامة يظـل للـسانيات المجال والوظيفة والمنهج - د. سمير شريف ستيته - ص ٣١٠- ٣١١ .

إن النحاة العرب وضعوا الإرث النحوي وحددوا معالمه التاريخية والجغرافية فربطـوا الدرس النحوي نفسه بهذه الحدود الزمانية و المكانية . فاعتمد النحاة العرب على المعيارية وكان إتجاهاً سائداً عندهم ، حيث أسسوا القواعد وفق قوالب معينه من اللغة ، لا يحيدون عنها ، تلـك القوالب هي مـا يجب أن يتكلفه الناس . ولا شك أن هذه القوالب شكلتها معالم تاريخية وجغرافية .[٢]

والمعروف أن حركة التأليف في المعاجم العربية قامت على أساس المادة التي جمعهـا اللغويون يصدرون في اختيارهم للرواة عن مبدأ أساس هو تسجيل اللغة الفحصى والابتعاد عـن الصيغ والألفاظ غير الفصحى .

ولهذا المعيار ركّز اللغويون عملهم على لغة البدو ، ورفضوا اللهجات ، فشغلتهم قضية الفصاحة عن باقي القضايا ، ولقد أثمرت حـركة جمع اللغة مجموعة من الكتب والرسائل ، ألّف الأصمعي في (خلق الإنسان) و (الإبل) والخيل إلى أن برزت حركـة الـدوائر العلميـة ، أو حركة تأليف المعاجم ، ولقد كان لما ألّفه الأصمعي وأبو زيد الأنصاري أكبر الأثر فـي تـأليف المعاجم العربية وفى هذه الفترة ألّف سيبويه كتابه ، وتوالت المؤلفات في القرن الثالث ، فألف ابن هشام (شرح شواهد المغنى) ، وظهر معجم (تاج العروس للزبيدى) .

وبدأ الاهتمام بتأليف الكتب اللغوية الهادفة إلى تعليم الفصحى والابتعاد عـن التـأثيرات العامة في الاستخدام اللغوي ، وألّف الكسائى رسالة في لحن العامة (١٠٨هـ ـ) و (إصـلاح المنطق) ، لابن السكيت (٢٤٤ هـ) ، ودرة الغواص) للحريـرى (٥١٦ هـ ـ) ، و(أدب الكاتب) لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) ، (ولحن العوام) للزبيدى (٣٧٩ هـ) ، (وتثقيف الـسان) لابن مكي الصقلي (٥٠١ هـ) ، (ورفع الأصر عـــــن كلام أهل مصر) ليوسف المغربي (٨٠١٩ هـ) كل هذه المؤلفات مجموعة كتب لحن العامة التي ألفت في الدراسات العربية.[١]

وما كتب لحن العوام إلا ضبط أبناء الجماعة اللغوية للاستعمال اللغوي الذي يجرى على القياس المطرد من قبل الجماعة اللغوية ، وهذه حقيقة الاجتماع التي تبنـى عليهـا الاسـتعمالات اللغوية .

فالمقياس معيار يتعاطاه المتكلم إذ يحذو حذو غيره من أبناء الجماعة اللغويـة ويـشير مازن الواعر إلى أن النحاة والبلاغيين العرب القدامى مثلاً ولا سيما سيبويه والجرجانى كانوا قد

---

[١] نحو نظرية لسانية نحوية ودلالية وفلسفية - د. مازن الواعر - ص ٩٧ – ١١١ .
[٢] علم اللغة العربية - محمود فهمي حجازي - ص ١١٥ - ١١٦ .
[١] نحو نظريه نحويه فلسفيه داليه - د. مازن الواعر – ص ٩٧ – ٩٨ .

درسوا اللغة العربية من خلال قواعد النحو وقواعد الخروج عـن النحـو دون ربطهـا بحركـة المجتمع وتقاليده ، ويمكنها في الوقت نفسه توريث هذه العادات من جيل إلى جيل ، ويتبع هذا أن اللغة ليست وعاء لفظياً من أوعية الفكر ، من أجل أن يحمل المعنى ، ذلك أن اللغة هـي الفكـر والفكر هو اللغة فهما وجهان لعملة واحدة .

وهذا يجعل مازن يؤكد على ما قاله الفكر البنيوي الممثل في شخص تشومسكى بذهنيـة اللغة ، كما يؤكد المنهج الوصفي الذي انبنت عليه المبادئ البنيوية والذي نادى به سوسير ولـيس المنهج التاريخي . وهذا يعنى أن اللغة بقواعدها الصوتية والنحوية والدلالية ليست سلوكاً خارجـاً عن الإنسان .

ويعلّق على ذلك لكي نفهم علاقة اللغة بالفكر ، يجب أن نربط مقاييس اللغـة بـالفكر ، وننظر هل هي مقاييس ذهنية أم اجتماعية ، ويضيف د . سيد جمعة صاحب كتاب (سـيكولوجية اللغة والمرض العقلي) ، والواقع لقد اقتبس الباحثون العرب فكرة اجتماعية اللغة مـن جرجـى زيدان ، والذي يعد متأخراً عن ركب الدراسات اللغوية الحديثة ، وحتى القديمة كما يتـصورها علماء العرب الأوائل ، مما يجعل هذه الفرضية لا تستند إلى أساس علمي ولا تواكب التطـورات المذهلة في الدراسات اللغوية الحديثة ذات الأبعاد البيولوجية والحاسوبية والفلسفية والنفسية . [٢]

ويقترح بعض الباحثين العرب الذين يأخذون بالحكومة الاجتماعية للغة حججاً تبرهن في رأيهم على صحة قانون الغلبة الاجتماعي في قواعد اللغة العربية ، ومن هذه الحجج مسألة العامل ، إن مسألة العامل والمعمول هي نظرية نحوية دقيقة انطلق منها سيبويه متأثراً بالبذور الرياضية الأولى التي ورثها عن استاذه الخليل وذلك لتحليل بنيه اللغة العربية وقد تبعه في هـذا المـسار الجرجانى في كتابه (العوامل المائة) .

ومن وجهة نظر لسانية حديثة نستطيع أن نقول ، إن نظرية العامل نظرية هامـة جـداً وتأتى أهميتها في تشابهها بالنظرية التجريدية التي وضعها لتشومسكى واسماها (Gover Ment And Binding Theary) أي نظرية العامل والربط الإحالي تلك النظرية التي يقترح جهازها عوامل عديدة تحكم التحويل والتوليد في التراكيب اللغوية . [١] هذا من الوجهة النحوية أما من الوجهة الدلالية ، فإن نظرية العامل تشبه نظرية اللساني الأمريكي ولتركوك (١٩٧٩م) والتـي اسـماها نظريـة

---

[٢] سيكولوجية اللغة والمرض العقلي - سيّد جمعة – ص .

[١] مقال البنية التحتية بين عبد القاهر و تشومسكى - مجلة الفيصل – العدد ٧٠ / (١٩٢٢م) .

الحالات الدلالية [٢] ، (Case Government Theory) فطبقاً لهذه النظرية يعد الفعل العامل الرئيـسي الذي يحكم العناصر اللغوية ،نحوياً ودلالياً .

إن هذا المفهوم يتشابه بما كان قد اقترحه سيبويه من أن الفعل يتميز بالثقل وأن الاسـم يتميز بالخفة [٣] إذا كانت نظرية تشومسكى النحوية ونظرية كوك الدلالية ، تشبهان نظرية سيبويه النحوية ، ونظرية الجرجاني الدلالية ، فإنه يمكننا أن نتصور مدى خطأ الفرضية التي تـرى أن العامل هو حجة قانون الغلبة الاجتماعي في اللغة العربية [٤] وقبل أن نجيب على حجـة مـازن الواعر ، لا بد أن نحدد ضوابط اللغة العربية من قياس ، وإعراب وعامـل ، ورتبـة وأصـل ، وفرع والسلوك الاجتماعي ، والسلوك الذهني .

ضوابط اللغة العربية اجتماعية أم ذهنية :

لا شك أن قواعد اللغة العربية مؤسسة على عوامل اجتماعية حكمت المجتمع العربي القديم ، بمعنى أن ضوابط اللغة العربية بقواعدها وضوابطها هي في جوهرها اجتماعية أي سلوك اجتماعي .

ويجيب في هـــذا المبحث الإجابة على السؤال الآتي : ضوابط اللغة اجتماعية أم ذهنية ؟ .

موقف العرب من ضوابط اللغة : -

اللغة عند العرب تواضع واصطلاح واتفاق ، وجوز بن جني أن اللغة الهام وتواضـع ، وعقد فصلاً بعنوان (أفي وقت واحـد وضعت أم تلاحق تابع منها بفـارط ، كيـف تـصرفت العربية ، وعلى أي الأمرين كان ابتداءها ، فأجاب ابن جني : (فإنها لا بد أن يكون قد وقع فـي أول الأمر بعضها ، ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه ، لحضور الداعي إليه ، فزيد فيها شـيئاً فشيئاً ، إلا أنه على قياس ما كان سبق منها في حروفه ، وتأليفه وإعرابه ، وليست عن معينه ، لا يخالف الثاني الأول ولا الثالث الثاني كذلك متصلاً متتابعاً وليس أحد من العـرب الفـصحاء إلا يقول أنه يحكي كلام أبيه وسلفه يتوارثونه آخر عن أول ، وتابع من تبع وليس كذلك أهل الحضر لأنهم يتظاهرون بأنهم تركوا وخالفوا كلام من ينتسب إلى اللغة العربية الفصيحة ، غير أن كـلام

---

[٢] دراسات نحوية ودلالية وفلسفية في ضوء اللسانيات المعاصرة – د٠مازن الواعر - ص ٩٨ .
[٣] كتاب سيبويه – ج١ – ص ١٣ .
[٤] نحو نظرية لسانية فلسفية ودلالية - د٠ مازن الواعر – ص ٩٧ .

أهل الحضر معناه كلام فصحاء العرب في حروفهم وتأليفهم إلا أنهم أخلّوا بأشياء مـن إعـراب الكلام الفصيح) [1] .

وهنا إشارة واضحة عن عالمنا ابن جني على أن العربية تواضع واصطلاح بين العرب ، ومتوارثة بين أبناء العربية ، وإذا حدث زيادة فيها واعتراها جديد فهي قيـاس مـا كـان فـي الحروف ، والتأليف والإعراب وهنا إشارة إلى النظام اللغوي جميعه ، علـى حـسب اللـسانيات الحديثة الصوتي والنحوي والدلالي وليس هناك واحد من أبناء العربية يدعى أنه استحدث فيها إلا ما اعترى كلامه من التفريط في بعض قواعد الإعراب الفصيح ، وهـى نهايـات الكلـم ولـيس الترتيب والنظام التأليفي المعروف في بنية العربية .

لقد هجس علماء العربية بأن وصفهم للغة إنما كان نموذجاً محاكياً للنموذج الذي يـصدر عنه أهل اللغة ، وتلك مقولة ابن جني [2] (في أن النحو انتحاء سِمت كلام العرب ليلحـق مـن ليس من أهل العربية بأهلها . ولكن هذه المماهاة أو المحاكاة ، في انتحاء سـمت العربيـة إنمـا تتّصل في بنى البشر من الناطقين بلغة أخرى وهم يحتزون في حدسهم اللغوي المركّب فيهم ابتداء ولعله يعوضهم فوائت الوصف التي لا يقترح بها مصممو سمت العربية وراسموا قواعدها .

على أن بعض علماء العربية قد أوغلوا في استنباط قوانين العربية وعللها وإنما كـانوا يصيبون ما كان يصدر عنه العربي ، وذلك متأول عمل ابن جني في (الخصائص) إن العـرب أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها وحملناه عليها . [1]

ولعل مما أغرى ابن جني بهذه الدعوى ما لاحظه من جرى العربي على سمت مطرد ، ولكنها ثقل دعوى بأن قواعد علماء العربية هي ما يجرى في عقول أبنائها ، ولعل الخليـل كـان أقرب إلى الصنعة إذ تمثـّل أن العرب قد جرت في كلامها على سلائقها ، وأنه قام في عقولهـا علل ذلك ، ولكن ذلك لم ينتقل عنها ، إنما يجتهد في تفسيره وتعليله مقدراً أن يسبق ما قـام فـي عقول أبناء العربية غير قاطع بأنه يبلغ في ذلك كلمة الفصل والحقيقة الكاملة إذا فسح لغيـره أن يلتمس ذلك لعله يبلغ منه ما لم يبلغ الخليل نفسه [2] ، وظل علماء العربية يصفون النظام اللغـوي ويتحروا من وراء ذلك معرفة الأصل والفرع ، ومن اشتقاق الكلم في العربية ، كيف يتفق المنبثق

---

[1] الخصائص – لأبن جني الجزء الأول – ص ٤١٤ .
[2] المرجع السابق – الجزء الأول – ص ٨٨ .
[1] المرجع السابق – الجزء الأول – ص ١٩٠ .
[2] الثنائيات في قضاية اللغة العربية – نهاد الموسى – ص ٢٤٦ .

وهو فرع والمنبثق منه وهو الأصل ولا يقع فرق بينهما - إذا وقع - إلا باختلاف الحركـات أو الزوائد فيكون البناء غير البناء والأصول واحدة .

و أفاض ابن يعيش في هذه المقارنة عند شرحه لقول ابن جني في الأصل والزوائـد، وأن الأصل عبارة عن الحروف التي تلزم الكلمة في كل موضع من تصرفها [٣] فقد قـرر ابـن يعيش أن هذه الحروف في الأصل تجرى مجرى الجنس للأنواع نحو الحياة للإنـسان والفـرس والطائر ، ولا بد من وجودها في كل واحد من هذه الأنـواع ، وإن اختلفـت حقائقهـا كالمـادة للمصنوعات نحو الخشب للباب والكرسي والسرير ، لا بد من الخشب من جميع هذه الـصور . فكذلك الحروف الأصول هي مادة لما يبنى منها يضرب (ضارب) ومضروب ، فإن (ض – ر – ب) موجودة في جميع الأبنية [٤] .

غلبة الأصول على الفروع :

إن مصطلح أصل من المصطلحات التي عرفها الخليل واتخذ منها في كتاب(العين) حيـث قال الخليل : (ليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أو أكثر من خمسة أحـرف ، فمهمـا وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل أو اسم فاعلم أنها زائدة على البناء وليس مـن أصـول الكلمة) . [٥]

إن مصطلح الأصل عند الخليل هو المقابل للزوائد ، وأن الأصل هو أساس بناء الكلمـة وقد استقر الأصل بهذا المفهوم في كتب النحاة في القرن الرابع الهجري ، ولم يـستخدم سـيبويه مصطلح (الأصل) بالمعنى الاصطلاحي إنما استخدم مصطلح (الأولية) محل الأصل ، ويتـضح ذلك من النص الآتي: قال سيبويه (المبتدأ الأول المبنى وما بعده عليه فهو مسند ومسند إليه).[١]

ووجدت أولية الأصل عند الرماني وأولية الشيء وأوليته في الوجود فقال:((الأصل أول يبنى عليه ثاني ، والفرع يبنى عليه أول)) وقد سبق السراج الرماني فـي اسـتخدام مـصطلح (الأصل) فقال الأسماء المبنية التي تضارع المعرفة وهذه الأسماء على ضربين مفـرد ومركـب ويبدأ بذكر المفرد إذا كان هو الأصل و لأن التركيب هو ضم مفرد إلى مفرد .

---

[٣] الإيضاح في علل النحو – الزجاجي – تحقيق مازن المبارك – مكتبة دار العروبة القاهرة – (١٣٧٨هـ) (١٩٥٩م) – ص ٦٦ .
[٤] شرح الملوكي في التصريف – لأبن يعيش – تحقيق فخر الدين قباوة – المكتبة العربية – حلب – (١٩٧٢م) – ص ١٠٨ – ١٠٩ .
[٥] كتاب العين – للخليل – الجزء الأول – ص ٤٩ .
[١] كتاب سبويه الجزء الثاني – ص ١٢٦ .

ووجدت فكرة أولية الأصل عند السيرافى من قبل الرماني وما يميز الرماني تعريفه المصطلح ، ويتضح من شرح السيرافى في باب المسند والمسند إليه في كتاب سيبويه فقال : ((إن فيه أربعة أوجه أجودها وأرضاها أن يكون المسند معناه الحديث ، والخبر والمسند إليه والوجه الثالث أن يكون المسند هو الثاني في التركيب ، والمسند إليه هو الأول ويكون بمنزلة المبنى والمبنى عليه ...)) ويرجح أشرف النواجى صاحب كتاب (مصطلحات علم أصول النحو) أن فكرة الأصل أولاً والفعل ثانياً قد أخذها الرماني من قبل السيرافى عن سيبويه حيث أنها من شرح الكتاب و ووضح السيرافى أن سيبويه جعل المبنى عليه هو المبتدأ من قبل أنك حيث جئت به ، فجعلته أصلاً لما بعده ولم يبنى على شيء ثم جئت بما بعده ، وهو محتاج إلى ما قبله فصار عليه ، فذلك مثل مبنى الثاني و إذا كان هو الفرع وقبل الأول مبنى عليه .(٢) وإذا كان هذا الأصل كما تبنى الفروع على الأصول .

ونظر ابن جني إلى مفهوم الأصل على أنه الحروف الأصلية في الكلمة أما الزائدة فهو المتصرف في الكلمة . وبين ابن جني أن الأصل عبارة عند أهل الصناعة عن الحروف التي تلزم الكلمة في كل موضع من تصرفها إلا أن يحذف شيء من الأصول تخفيفاً ، أو لعلة عارضة فإنه لذاك في تقدير الثبات ، وقد احتاط التصريفيون في سمة ذلك بأن قالوا به في التمثيل من الفعل والموازنة له ،فاء الفعل وعينه ولامه ، بل وقابلوا الزائد لفظه بعينه في نفس المثال المصنوع لاعتبار ولم يقابلوا به فاء الفعل ولا عينه ولا لامه بل لفظوا به البتة ، من ذلك قولنا قد فعل ... فالحروف إذاً كلها أصول .

فإذا قلت يقعد زدت الياء ، وصار مثاله (يفعل) [1] يمكن القول أن مفهوم الأصل عند النحاة بالنظر إلى الوجود النظري والتقديري في مقابل الوجود الحقيقي، ويوضح مثل الوجود الحقيقي (قول) والوجود النظري (قال) . والأصل عند ابن جني معناه القاعدة الأساسية التي تبنى عليها اللغة ، ويتضح من ذلك فيما رسمناه ولا يتابعك على ما أوردناه :-(فأحد أمرين إما أن تكون لم تنعم النظر فيه فيقعد بك فكرك عنه ، أو أن لهذه اللغة أصولاً و أوائلاً قد تخفى عنا وتقصر أسبابها دوننا [2] و كما قال سيبويه أو لأن الأول وصل إليه علم لم يصل الآخر) [3] .

---

[2] كشاف أصول النحو العربي – د. أشرف نواجي – دار غريب للطباعة (٢٠٠٢م) – ص ١٣ .
[1] الخصائص – لابن جني الجزء الأول – ص ١٣ .
[2] الخصائص – لابن جني الجزء الأول – ص ٥١٣ .
[3] المرجع السابق – الجزء الأول – ص ١١٣ .

وورد مصطلح (الفرع) والمعمول عليه و قال : ((إذا ثبت ذلك في باب ما عينه يـاء أو واواً وجعلته الأصل في ذلك ، وجعلت ما عينه صحيح فرعاً له ومحمولاً عليه)) [٤] .

واستخدم ابن جني مصطلح (الوضع في اللغة وأصل الوضع في استخدامه وصار الأول والأصل مترادفين .

وذكر فصلاً بعنوان (باب في إقرار الألفاظ على أوضاعها الأول ما لم يـدع داع إلـى الترك والتحول من ذلك) [5] واستخدمت مصطلحات (الحال الأول) و (الأحوال الأول) وأولية الحال) قال ابن جني[٦] (أعلم أن بعض ما ندعي أصله من هو أنفى قد ينطق به على ما ندعيـه من حاله ... وهو أقوى الأدلة على صحة ما يعتقده من تصور الأحوال الأول ، وتلـك اللغتـان مختلفتان فيهما القبيلتان كالحجازية و التميمية ألا ترى أن نقول في الأمر المضاعف من التميميـة نحو شد وضن ... أن الأصل أشدد ... ومع هذا فهكذا لغة أهل الحجاز وهـو الفـصحى وقـد استخدم ابن السراج مصطلحات أصول الكلام ، واستخدم مصطلح الأصل بمعنى القاعدة ، وقـد ذكر ابن فارس في كتابه (الصاحبي في فقه اللغة) الأصل والفرع ولكن بمفهوم مختلف عن ذلك حيث جعلت الأسماء والصفات فـروع ، والأصل موضوع اللغـة وأولويتهـا ونـشأتها فـي مخاطبتها .[٧]

وهكذا بعد أن استعرضنا مفهوم الأصل والفرع عند العرب ، نؤكد أن العربية تذي ضوابطها رسم الأول وعلى ت العرب القدامى ، فالأصل هو القاعدة الأساسية ال تب عليها اللغة

.

بالإضافة إلى ضوابط أخرى كالسماع والقياس ، يقول ابن جني : (إذا رأيت شيئاً مـن هذا النحو لا ينقاد لك فأحد أمرين : إما أنك لم تنعم النظر فيه جيداً ، وإما لأن لهذه أصولاً وأوائل قد تخفى عليك ، ولهذا كـان للعرب قوالب معروفه تسير عليها القواعد قياساً على الأصل ، أمـا إذا لم يكن له قياس ولا إجماع ولا سماع وأصل فهـو مردود عندهم ، ولهذا قال ابـن جنـي ((والشيء إذا كان بحيث لا أصل يسوغه ولا قياس يحتمله ولا سماع ورد به ، فما كانت هذه سبيله وجب إطراحه والتوقف على لغة من أورده)) .[١]

---

[٤] المرجع السابق – الجزء الثاني – ص ١٦٦ .
[٥] المرجع السابق – الجزء الثاني – ص ٢١٩ .
[٦] المرجع السابق – الجزء الثالث – ص ٢٦٠ – ٢٦١ .
٧ الصاحبي في فقه اللغة – أبن فارس .
[١] الخصائص – لأبن جني – الجزء الأول – ص ٥١٣ .

وأشار ابن جني إلى ((الإجماع ، والإجماع هنا توافق بين أبناء الجماعة اللغوية ، فاللغة العربية اجتماع وتوافق ، وكل ما استحدث بخلاف ما قالته العرب لا أصل له ولا سماع ولا قياس فهو مردود)).

ويقول ابن جني ((معاذ ا   أن ندعى أن جميع اللغة تستدرك بالأدلة قياساً ، لكـن مـا أمكن ذلك فيه قلنا به ، ونبهنا عليه ، كما فعله من قبلنا ممن نحن لـه متبعـون ، وعلـى مثالـه وأوضاعه حاذون)) . [٢] واعتبرت الصورة الذهنية للغة أصل ، ونطقها فرع ، و إنمـا كانـت الأصول من أصل أن تكون ضوابط كليه للظواهر اللغوية المختلفة وكانت الفروع ضرباً من النمو لتلك الأصول وهكذا اعتبر الأصل ضابطاً من ضوابط العربية المميزة ، ولهذا كان للعرب قواعد تسير عليها قياساً على الأصل .

التأويل والافتراض :

يرجع التأويل والافتراض عند العرب لاهتمامهم بموقـع الكلمـة ودلالاتهـا و أوضـح الجرجانى ذلك حيث يقول : ((إن قلت أجاءك رجل)) فأنت تريد أن تسأله هل كان مجيء مـن الرجال إليه ؟ فإن قدمت الاسم فقلت (أرجل جاءك) فأنت تسأل عن جنس من جاء أرجل هو أم امرأة . [٣]

وقد أفضى النظر التأويلى عند النحاة العرب ، إلى ما لم يتنبه إليه ، أصـحاب نظريـة القوالب [٤] ففي بعض التراكيب قد تحتمل الكلمة الواحدة عدد من التخريجات الإعرابية ، وما هي في حقيقتها إلا صور من التأويل النحوي و(التقدير) ففي مثل قول بعضهم في إعراب قوله تعالى : (وثموداً فما أبقى) [١] أن ثموداً حسب الموقع والدور ، مفعول مقدم ولكن العربية تخرج الكلمـة تخريجات تراعي المعنى وليس الدور والموقع فقط ، فالتصور الذهني القالـب بحـسب نظريـة القوالب ، فهو الموقع ذاته لا يتغير وهذا هو الذي دفع النحاة العرب إلى القول بوجود الخبر جملة

---

[٢] المرجع السابق – الجزء الأول – ص ٤٢٣ .

[٣] دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني –ص ٦٧.

[٤] مدرسة القوالب مؤسس هذه النظرية كينث بل أستاذ اللسانيات في جامعة متشجان تمتاز هذه النظرية بأنها تدرس النص مثلما تـدرس الجملة وتقوم النظريةعلى إعتبار الوحدة القالبية وهي إيطار ذهني تصوري يمكن ملئه بعناصر لغوية منظوقة تسمى الشواغل وتحال هذه النظرية إلى أربعة وحدات :- (١) الموقع – الدور – الصنف – التكاسك . أنظر اللسانيات الوظيفة والمجال والمنهج د. سمير شريف – ص ١٣١ .

[١] أعرب سبويه أما سموداً على تقدير زيد ضربته وهو عربياً كثير قال تعالى (أنا كل شئ خلقنه بقدر) ، ثموداً بحسب نظرية القوالـب (الموقع مفعول هذا ممتنع في العربية لأن ما نافي الصدر فلا يعمل ما قبلها فيما بعدها وأنما هو معطوف على عاأً أو هو بتقدير وأهلـك ثموداً وهنا نبه أبن هشام على المعرب أن يراعي المعنى الصحيح ولا ينظر في صحته إلى الصناعة – كتاب سبيويه – الجزء الأول – ص ٩٢ .

، والحال جملة ، والنعت جملة ، وقالوا عن المبتدأ الذي تشغل موقعه (أن) المصدرية والفعل (مصدر مؤول من أن الفعل) في محل رفع مبتدأ ، وقالوا أن المبتدأ الذي شغل موقعه (أن) واسمها وخبرها ، أنه مصدر مؤول فى محل رفع مبتدأ ، وبذلك يكون النحاة العرب قد سبقوا إلى الكشف عن أهمية الموقع ، وحالاته قبل أن يتنبه اللسانيون إلى ذلك مؤخراً .

ونبه ابن هشام على المعرب يجب أن يراعى المعنى الصحيح ، ولا ينظر في صحته إلى الصناعة ، والمقصود بالصناعة هنا الشكل أو القالب بحسب المفهوم الحديث ، فالتقدير في العربية تنبه وتصورات ذهنية يتنبه لها أصحاب مدرسة القوالب .

وكذلك أشار ابن هشام إلى جهة أن يخرج الكلام على خلاف الأصل أو على خلاف الظاهر لغير مقتضاً كقولهم في قوله تعالى: (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس) . [٢] إن الكاف نعت لمصدر محذوف ، أي إبطالاً كالذي ، ويلزمه أن يقدر إبطالاً كإبطال الذي ينفق ، والوجه أن يكون كالذي حالاً من الواو أي لا تبطلوا صدقاتكم مشبهين الذي ينفق ، فهذا الوجه لا حذف فيه [٣] وهذا شكل آخر يختلف حتى عن التقدير والتأويل والافتراض بمعنى إذا جاء الافتراض أو التصور الذهني أو التقدير غير مقتضى لمعنى يقصده الأصل ، فهذا متشبه يجب أن يتجاوزه المعرب لأن التقدير اقتضاءُ لأصل المعنى ، والخروج على الأصل دون أن يلزم المعنى خلافاً للمعرب ، والموقع يجب أن لا يشتبه به.

وهذا أيضا ما لم تذكره القوالب ، ونلاحظ أن العرب حين اقتادوا إلى التأويل والافتراض ، لم يتركوا ذلك للأذهان تتلاعب فيه كيفما تشاء بل جعلوا قيوداً للمقدر ذكره بن هشام في كتابه (المغنى) .

فالتأويل والافتراض لا يكون عن فراغ بل من جملة القول التي تعينك على معرفة المقدر أو غير الملفوظ ، فمثلاً في حديثهم عن عود الضمير إلى المصدر بذكر فعله وأن لم يوجد له ذكر ، قال تعالى : (ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم ا من فضله هو خير لهم) قوله (هو) ضمير للبخل وأن لم يكن مذكوراً لدلالة (يبخلون) عليه ، ومنه قولهم (من كذبَ كان شراً له) أي كان الكذب شراً له ، ومنه قوله تعالى : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) فإن فاعل (زادهم) ضمير مستتر جوازاً تقديره

---

[٢] سورة البقرة – الآية ٢٦٤ .
[٣] المغي - لأبن هشام – الجزء الثاني – ص ٢٥٥ .

(هو) يعود إلى قول الناس ولم يتقدم صراحةً ، وإنما تقدم ضمن الفعل الذي هو(قال لهم النـاس) ونظير هذا إضافتهم أسماء الزمان إلى الفعل نحو قوله تعالى: (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) وإن كانت الإضافة إلى الأفعال غير جائزة ، وإنما جاز ذلك لأن المقصود بالإضافة إلى الفعـل مصدره من حيث كان ذكر الفعل يقوم مقام ذكر مصدره ، فالتقدير فيه (هذا يوم ينفع الـصادقين صدقهم) [1] وهنا يمكن أن نستدرك ما يعرف عند اللسانيين بالتحقق النحوي ويقـصد بـالتحقق النحوي Realization الطريقة التي نستدل بها على المعاني النحوية ، فكـل فاعـل يـسمى فـاعلاً بشرطين : -

كون الفعل مسنداً إلى الاسم ويكون الرجل فاعلاً في جملة (مات الرجل في حادث) نعم لـم يقم الرجل بفعل الموت حتى يكون فاعلاً لكن الموت أسند إليه فكان فاعلاً بالمعنى النحوي ، وتعميم المفهوم على كل ما ينطبق عليه الحد ، وبهذا التعميم نستطيع أن نعرف كل فاعل ، ولهذا الشرط ينتقل الذهني من المفهوم المحدد لمصطلح ما إلى ما يمكن أن يطبق عليه فـي الكـلام ، فيعرف أن هذه الكلمة فاعل ، غير أن المتكلم لا تعنيه المعاني النحوية في كثير أو قليل ، بخاصة إذا لم يكن متخصصاً أو معنياً بها فكيف يتكلم المتكلم ، وتقع المعاني النحوية في موقعها الصحيح دون أن يقصد ذلك ؟ إن الذي يحدث في الذهن ، يعمل على تطويـع هـذه النمـاذج للمقامـات والمواقف المختلفة ، فيتكلم المتكلم وهو يصوغ الكلمات للنظام النحوي من لغته ، ويظهر الانتقال بمقتضى ذلك من المقام إلى السياق الذي يظهر في اختيار الكلمات . [2]

ثنائية المنطوق والمقدر وهذه ترتبط بثنائية الذهن واللسان ومتفّرعـة عنهـا ،والنحـو العربي في مجمله مبنى على المنطوق والمقدر و باعتبار أن التقدير وعىَ لغوىَ بالصورة الذهنية للكلمة أو الجملة ، أو وعي بما كانت عليه أو بما يمكن تصوره فى أنها كانت عليه وما ذلـك إلا من أصل تصور النظام اللغوي وقد اطردت أحكامه واتسق بعضها مع بعض ، والمنطوق والمقدر يضمان قواعد اللغة كلها ، فالمنطوق له صورتان إحداهما تظهر فيها التوافق بين الكلمة منطوقـة ومتصورة ، دون وجود خلاف بينهما فكلمة (كتب) ليس لوجهها المنطوق صورة تخالف وجهها المختزن فـي الذهن ، والأخرى يظهر التخالف فيها بين المقدر والمنطوق فكلمـة (قـال) لهـا صوره مقدرة عند النحاة ، وهى (قول) وسواء حدث أن العرب قالت (قول) أم لم تكـن قالتـه ،

---

[1] الإنصاف في مسائل الخلاف - لابن الأنبارى - ص ١٤٠-١٤١٠ .
[2] اللسانيات الوظيفة والمجال والمنهج - د.سمير شريف ... – ص ٢٠٤ ٠

فإن هذه الصورة الذهنية المقدرة تفرض نفسها ، ليصبح تفسير مجيء المضارع بالواو (يقـول) وكذلك المصدر (قول) ، ولا ينبغي أن نتصور أن هذه الواو جاءت من فـراغ ، فاللغـة نظـام والنظام لا بد له من تصور مطرد يفسره . إذن هذا ليس تناقض ولا تأويل ، إنمـا هـو نظـام لغوى تجريدي نفسر به المنطوق ويسير وفقاً عليه ، هذا بالنسبة للمطرد في قياس العربية ، أمـا الشاذ ليس إلا أنه مرتبط كذلك بثنائية المنطوق والمقدر ارتباطاً عضوياً ، فـالاطراد هـو حكـم التصور الذهني للغة ، وهو حكم مبنى على أن القياس على ما هو منطوق ، وموافـق التـصور الذهني قياس مطرد وأن ما خرج عن هذا التصور يحكم عليه بالشذوذ ، إذ كان قد سـمع ممـن يحكم لهم بأنهم أهل اللسان الحقيقيون ، فيقال مثلاً : (أن الفعل المضارع يجزم (بلم) ، وقد سمع منصوباً (بلم) من بعض العرب، وهو شاذ لا ينقاس . [1]

ويقول د.سمير شريف [2] : ((ينبغى أن ينظر إلى الظواهر الشاذة في اللغة من زاويـة تاريخية تطورية أو باعتبار مقارنتها باللغات التي تنتهي إلى أسرة لغوية واحدة ، فبعض الظواهر الشاذة في العربية قد تكون أثراً من آثار التطور التاريخي في العربية نفسها . ومن هنا تبـين أن اللغة في بنيتها لغة تاريخية تعاقبية تعتمد على المنهج التاريخي في دراستها وليس المنهج الوصفي التوقيتي الذي يمثل ظاهرة معينة ، وإن كل تفسير يطرأ عليها إنما هو تفسير تاريخي مثل تعـدد روايات الأبيات ، والشواهد النحوية الشاذة واسقاط الإعراب مـن بعـض النـصوص العربيـة الفصيحة ، وكل هذا مرصود في نحونا العربي على اعتبار أنه تطور تـاريخي ولـيس ظـاهرة وصفية . ولا شك أن الأثر البنيوي في الدراسات العربية ، قد وضح وضوحاً ليس من ورائه لبس ، خاصة في الدراسات الثنائية ، أي دراسة ظواهر اللغة العربية من باب الوصف الثنائي ، ثنائية الصواب والخطأ ، والمنطوق والمقدر ، الأصل والفرع ، والقياس والسماع ، الـذهن واللسان ، وتتوالى الثنائيات بتوالي البحث اللغوي ، الفصحى والعاميـة ، الـداخل والخـارج ، الفـوقي والسطحي ، ولا شك أن كل ذلك منتوج بنيوي ، وأثر من آثار الفكر السوسيري ، الذي ظهر في صورة اللغة والكلام ، والملكة أو القدرة والأداء ، بـــل تطبيـق لفكـرة تشومـسكى البنيـة السطحية في العربية ، ومـن أثر هذا الدراسات ظهور مؤلفات في العربية ، تحمـل ازدواجيـة التركيب اللغوي ، (الفصحى و العامية) . وكتاب (الثنائيات وقضايا اللغة العربية من عـصر

---

[1] اللسانيات المجال ووظيفة والمنهج – د. سمير شريف – ص ٥٥٠ .
[2] المرجع السابق – ص ٥٥٤ .

النهضة إلى العولمة) لنهاد الموسى بمثل هذا الكتاب كل القضايا الثنائية التي ظهرت فـي اللغـة العربية .

المنهج الوصفي والمعياري

لا شك أن علم اللسانيات هو العلم الذي يقرأ اللغة الإنسانية وفق منظور علمـي دقيـق ويستند إلى مطابقة الأحداث وتسجيلها ، قائماً على الوصف وبناء النماذج وتحليلها بالإفـادة مـن معطيات العلوم والمعارف الإنسانية الأخرى ويرمي هذا العلم إلى الكشف عن ظـواهر لـسانية وبيان عناصرها ووظائفها وعلاقاتها الإدراكية الإفرادية والتركيبية داخل وخارج بنية النص .

بدأت اللسانيات تشق طريقها منذ آواخر القرن التاسع عشر متخذتاً من العلمية متجهاً لها في الدرس والتحليل وإحتل علم اللسانيات الطبقة التالية بعد علم الاجماع والطبيعة ، وتميزت الدراسات اللسانية في القرن الثامن عشر فى أوربا بدورانها في أشكال ضيقة من الدوائر البحثية ، حيث تعالج مسائل متفرقة فـي علم البنية ، والنظم وعلم الأسلوب في جوانب تربوية وتعليمية .

ولم يكن العلماء يعرضوا هذه البحوث الثلاثة إلا استطراداً وفي صورة ناقصة وبطريقة تبعد كثيراً عن مناهج البحث العلمي . [١]

وفي بدايات القرن التاسع عشر بدأ البحث التاريخي المقارن بين قواعد اللغات الأوربيـة والهندية وظهر علم القواعد التاريخي . [٢] ومن خلال علم القواعد المقارن ظهرت الحاجـة إلـى تسجيل ظواهر كل لغة تبعاً لمراحلها التطورية المختلفة .

ولعل المرحلة الثالثة من مراحل الدراسات اللسانية كانت تحت ريادة العلمـاء الألمـان Maxmullery الذين دعموا بحوثهم في اللغات السامية واللغات ا لآشورية القديمة ، علـم القواعـد المقارن وأخضعوا بحوثهم إلى ميدان أوسع في كشف القوانين التي تخضع لها كل لغة إنسانية في تطورها وارتقائها . [٣]

وفي آواخر القرن التاسع عشر دعت ضرورة البحث العلمي إلى نفض غبـار التأمـل الافتراضي ، و الاستغراق في وجوه المنطق والفلسفة إلى كشف بواطن اللسانيات بالإفـادة مـن معطيات العلوم الأخرى ، لذا غادرت اللسانيات البحث في الجانب الميتافيزيقي إلى جانـب أكثـر رسوخاً في جوانب اللغة .

وتميزت دراسة آواخر القرن العشرين بالآتي :-

(١) التراث ا تواصل للأعمال والقواعد اللغوية ال أعدها علماء أوربيون بطرق تلفة منذ العصور القد ة . [١]

(٢) الفهم المتعاظم لعلم الصوتيات والفونولوجيا .

(٣) تمثل العلم اللغوي وبشكل خاص في توجيه التاريخ لمواقف عامـة للقـرن التاسـع عـشر والنظرية الوصفية للعلوم الطبيعية .

ويعود الفضل في التحول اللساني إلى دي سوسير وقد اعتبرت آراء سوسير في كتابـه (اللغة) (١٩١٦م) نقطة تحول في الدراسات اللسانية (١٩٦٧م) حيث شهدت مناقشات مستفيـضة

---

[١] علم اللغة – عبد الواحد وافي – ص ١٤ .
[٢] علم اللسانيات الحديثة قواعد التحكم والبيانات – عبد القادر خليل – ص ١٠٩ .
[٣] علم الغة – عبد الواحد وافي – ص ٥٥ .
[١] مثل دراسة الأساطير أو ميسلوجيا الشعوب عند إستراوس ونظام القرابة ودراسة العقل الجمعي لدور كائن – دراسة ألا شعور واللعب بالألفاظ عند بياجيه ولا كان ودراسة البنية التحتية والفوقية لماركس .

من قبل اللسانيات أصبح البعض منها مذهباً أو منهجاً للدراسة اللسانية ونظـراً لاخـتلاط علـم اللسانيات بالعلوم اللسانية الأخرى كعلم التاريخ والأنثربولوجيا وعلم الإجتماع ، وقد أدى ذلك إلى الإفادة من توسيع نطاق دائرته البحثية وتوالد علوم معرفية لسانية معتمدة مناهج الأصـول التـي أنحدرت منها .

وقد استعرض الدكتور عبد القادر عبد الجليل في كتابه (اللسانيات الحديثة قواعد التحكم ونظم البيانات) . [٢] رسماً توزيعياً لنواتج دخول المناهج اللسانية دوائر العلوم والمعارف الإنسانية ، ومن أهم النواتج التي جعلها في قمة الرسم التوليدي التحويلي ، ثـم المعيـاري ، الـسيميائي ، الفيزيائي والتطوري والسلوكي والفلسفي المنطقي ثم البنيوي .

إذن يمكن القول أن كل هذه المناهج كانت نتيجة لدرسات إنسانية أو نتيجة لأفكار فلسفة هذه العلوم ، كل ما ظهرت فكرة علمية في علم من العلوم الإنسانية كان في المقابل لهـا مـنهج لغوى ، مثل السلوكي والبنيوي والتحويلي وذلك واضح مما استعرضناه مـن هذه العلوم وفلسفاتها .

المنهج الوصفي :

يعد دي سوسير رائد المنهج الوصفي البنيوي ، أرسى مفاهيم البنيوية وثبت أركانهـا ، فالبنيوية تقوم أساساً على تحليل عناصر اللغة بالاستعانة بالعناصر الأخرى . التي تشتمل عليهـا تلك اللغة حيث يقوم الباحث بوصف العناصر الصوتية ، محاولاً الوصول إلى تكـون الوحـدات المورفولوجية ، لتكون العبارات فالجمل ، فالمنهج البنيوي ينظر إلى اللغة علـى أنهـا مؤسـسة جماعية ، تفرض نفسها على الأفراد ، وتتناقل بصورة جبرية من جيل إلى جيل آخر منذ أن كان الناس تشفّ أشكالها من أشكال سابقة تنحدر هي نفسها من أشكال أكثر بدائية ، دون توقـف مـن أصل وحيد أو أصول أولية متعددة ، من جهة أخرى تدل كل كلمة على مفهوم يشكّل معناها.

فالبنيوية تؤمن بأن اللغة عبارة عن نظام يتكون من عدة أنظمة فهي من حيـث كونهـا مجموعة من العلامات أو الرموز ، إلا أن هذه العلامات وتلك الرموز تتكون أولاً مـن أصـول تحدثها أعضاء النطق وتدركها الأذن ، وهذه الاصوات تتركب بطريقة اصطلاحية فـي وحـدات ذات دلالة تنميها الكلمات والجمل ، وكل ذلك يشكّل في النهاية بطريقة مخصوصة النظم في اللغة وهي النظام الصوتي والفونولوجي والنحوي والدلالي ، وجميعها ذات وجود مستغل نسميه النظام

---

[٢] علم اللسانيات الحديثة قواعد التحكم والبيانات – عبد القادر خليل – ص ١١١ .

اللغوي ويعتبر دي سوسير رائد البنيوية بما أرساه من مبادئ في التحليل اللغوي وخاصة التفرقـة بين الدراسة الوصفية والتاريخية .

والبحث اللغوي يصدر أحكاماً على الوقائع لا على القيم أهميته تكمن في كونـه علمـاً واقعياً يصف الظواهر كما لا كما ينبغي أن تكون فهو علم تقريري وصفي وطرح قضية المعيارية والوصفية في الدراسات اللغوية ، يوحي بأن المنهجين الوصفي والمعياري يقفان علـى طرفـي نقيض فالبحث اللغوي إما أن يكون بحثاً وصفياً تقريرياً ، ومن ثم يكون عملياً ، وإمـا أن يكـون بحثاً أخلاقياً وغائياً ، ومن ثم يحرم هذه الصفة ، ونحن من جهتنا نعمل على الجمع بين الاثنـين بمعنى أن منهج البحث في علم اللغة العربية وصفي تقريري أولاً وغائي معياري ثانياً ومـن ثـم ينتفى هذا التناقض .

والتقسيم التقليدي للعلوم ، إما علوم وصفية أو علوم معيارية الأولى تهتم بما هو كـائن مثل العلوم الطبيعية ، والثانية تهتم بواسطة ما ينبغي أن يكون .

والمنهج الوصفي ينبذ أي موقف معياري ينطلق من الخطأ والصواب لأنه يفرق بين مـا هو علمي وما هو تعليمي فالدرس العلمي يتوسل بالمنهج الوصفي أساساً والدرس التعليمي يحتكم إلى الخطأ والصواب .

وأن اللسانيات جردت الدرس اللغوي من المنطق والمعيار والنزعة التعليمية وسعت إلى دراسة اللغة لذاتها من غير التفات إلى ما كان يفرض عليها من مناهج أو يقودهـا إلـى غايـات أخرى بعيدة . [١]

ولذلك إتخذ النقد البنيوي النصوص اللغوية التى تتخذ كشفرات تشرح نفسها بنفسها مـن غير التفات إلى عوامل أخرى ثقافية أو إجتماعية أو سياسية أو دينية . وبالتالي برز نوعان مـن أنواع النحو :-

أحدهما أطلق عليه النحو (المعياري) والآخر أطلق عليه (النحو الوصفي) ولا شك فيهـا أن ظهور النحو الوصفي لم يلغ النحو المعياري الذي كان متداولاً في الاوساط التربويـة ، لقـد ظلت مشكلات صحة التعبير أو عثرات الكلام ، وقل ولا تقل ومجاراة الأساليب القديمة و الاقتداء بفحول الأدب ومواضع الدراسات التربوية ، فالنحو المعياري يقوم علـى أسـاس التمييـز بـين مستويات اللغة ، فالنحو الوصفي نظر إلى القول نظرة جديدة نرى فيها جهات اشتراك بين حالات متشابهة توصف وتصنف بعد استقراء واسع لكثير من الأمثلة .

---

[١] مبادئ اللسانيات –أحمد قدور – ص ٢٣ .

فاللسانيات كما ذكرنا سابقاً تنهج نهجاً ينبذ كل موقف معياري ، فقد تجاوز حدود النحو المعياري إلى الإهتمام العلمي بالقواعد والتركيب . وصولاً إلى الكليات اللغوية التي تشترك فيهـا اللغات الإنسانية .

معيارية اللغة عند العرب :

اعتمد النحاة العرب على المعيارية وكان إتجاهاً سائداً عندهم حيث أسسوا القواعد وفـق قوالب معينة من اللغة ، لا يحيدون عنها ، تلك القوالب هي ما يجب أن يتكلمها الناس ومن هنـا جـاء إهتمامهم بتخليص اللغة من الشواذ والشوائب ، بقصد المحافظة عليها من اللحن والتحريف .[1]

وجمع العرب المادة اللغوية بالاستقراء من كلام البدو الذين فطنوا للغة العربية ، وقامت حركة التأليف من المعاجم العربية على أساس المادة التي جمعها اللغويون في البادية فـي القـرن الثاني الهجري ، وكان اللغويون يصدرون في اختيارهم للرواة عن مبدأ أساسي هو تسجيل اللغـة الفصحى واستبعاد الصيغ والألفاظ غير الفصحى وبهذا المعيار ركّز اللغويون عملهم علـى لغـة البدو ورفضوا اللهجات فشغلتهم قضية الفصاحة عن باقي القضايا ، ولقد أثمرت حركة جمع اللغة مجموعة من الكتب والرسائل ، ألّف الأصمعي كتاب (خلق الإنسان) و (الإبل) و (الخيل) إلـى أن برزت إلى الدوائر العلمية حركة تأليف المعاجم ، ولقد كـان لتأليفـات الأصـمعي وأبوزيـد الأنصاري أكبر الأثر في تأليف المعاجم العربية وفي هذه الفترة ألـف سـيبويه كتابـه وتوالـت المؤلفات في القرون التالية وألّف (شرح شواهد مغنى اللبيب) وبالجانب الآخر (تـاج العـروس) للزبيدي .

المعيارية والقياس : [1]

اعتمد العرب على القياس كعملية فكريةيقوم بها الإنسان الذي ينتمي إلى جماعة لغوية ويجرى بمقتضاها الاستعمال المطرد وهذه حقيقة الإجماع التي تنبني عليها استعمالات لغوية ، واعتبر القياس معياراً مسيطراً على النحاة الأوائل ، والقياس نوعان :-

(١) قياس يتعاطاه المتكلم إذ يحذوا حذو غيره من أبناء الجماعة اللغوية .

---

[1] بدأ الإهتمام بتأليف الكتب اللغوية الهادفة إلى تعليم الفصحى والإبتعاد عن التأثيرات العامية في الإستخدام اللغوي ألف الكسائي في لحن العامة (٨٩هـ) – وإصلاح المنطق لأبن السكيت (٢٤٤هـ) ودرة القواص للحرير (٥١٦هـ) وأب الكاتب بأن قتيبة (٢٧٦هـ) ولحن العوام للزبيدي (٣٧٦هـ) تثقيف اللسان لأبن مكي الصقلي – كل هذه المؤلفات مجموعة كتب لحن العامة التي ألفت في الدراسة العربية أنظر علوم اللغة العربية – د. محمود فهمي حجازي – ص ٩٥ – ٩٩ ، ١١٥ - ١١٦ .

[1] أول من نهج النحو ومد القياس أبو إسحاق الحضرمي (١١٧هـ) وأول من أهتدى بفطنته إلى ثمة الظواهر في العربية تحكمها قوانين جامعه تنتظم جزئياتها – الإقتراح في النحو – جلال الدين السيوطي .

(٢) وقياس عرضي عند النحويين وأتسمت به مدرسة البصرة [٢] ودخل القياس في تعريف النحو عندما قال قائلهم (النحو هو العلم بمقايس مستنبطة من استقراء الكلام) . [٣]

(٣) يعتبر القياس أداة من أدوات البحث اللغوي ومدى ملائمة صور النحويين الأوائـل لمنـاهج البحث الحديثة في ميدان اللغة . [٤]

وأول من نهج النحو ومد القياس والعلل أبو أسحاق الحضرمي (١١٧هـ) ويمكن القول أن أبا أسحاق أول من أهتدى بفطنته إلى أن ثمة ظواهر في العربية تحكمها قوانين جامعة لتنظيم جزئياتها . [٥]

أن ثمة أمور في اللغة لا تؤخذ إلا عن طريق السماع البحت دون أن يكون خاضعاً لقانون مطرد وأن ثمة ظواهر لغوية تخضع لمثل هذا القانون ، وأنه جعل الاستقراء حكم ومن استظهار القوانين فمفهوم القياس عند العرب هو القانون المطرد وهذا مبدأ من مبادئ التفكير العلمي .

فالأصل في معايير الكلام عند العرب إتجاهان :-

(١) إتجاه يتوخى وجوه الاستعمال المختلفة .

(٢) إتجاه يخصع الكلام لمعايير بعينها .

القياس أسلوب النظر في الكلام لاستخراج الأحكام والأوضاع ونظمها في قوانين خاصة بعينها ، ولهذا كانوا يجعلون المعرفة بالعربية عن طريق القياس .

إذا كانت هذه هي ضوابط اللغة ومعياريتها إذن القول بالإبداعية والتوليد لا يتفق إلا مع استثناءات العربية وخطأها وشواذها لأنه يمثل الانحراف في المجال البنيوي غاية في نفسه باعتبارها ملكة العقل المولد للمعاني بنفسه وليس السياق أو القانون النحوي بل الحكم الإجتماعي مرفوض لأنهم يعزلون التركيب عن موقفه ويعتمدون على صياغته الآلية بغض النظر عن معناه ، وهذا ما استصفته العربية قديماً عند وضع النحو العربي منذ أبي الأسود الدؤلي لحفظ السان من الذلل .

أورد سيبويه في كتابه (كلاماً عن كيفية صدور الكلام العربي وأنواعه الـصادرة فمنـه مستقيم حسن ومحال مستقيم كذب ، ومستقيم قبيح وما هو محال كذب أما المستقيم الحسن فقولـك (أتيتك أمس وسآتيك غداً ، وأما المحال فإن نقض أول كلام بآخره منقول (أتيتك غـداً وسـآتيك

---

[٢] المدارس النحوية – شوقي ضيف .
[٣] القياس في النحو – د. منى إلياس – ص ١٠ .
[٤] المرجع السابق .
[٥] الإقتراح في النحو – السيوطي .

أمس) وأما المستقيم الكذب فقولك (حملت الجمل وشربت ماء البحر) وأما المستقيم القبيح فإن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك (قد زيداً رايت) (ولن زيدُ يأتيك) وأشباه هذا وأما المحال الكذب فإن تقول (سوف أشرب ماء البحر أمس) . [١]

وإذا نظرنا إلى مفهوم الجمل الأصولية عند التوليديين أي الجمل الموافقة للأصول اللغوية ، والجمل غير الصحيحة بالجمل غير الأصولية ولا ينحصر الحكم بأصولية الجمل بقبول جمل معينة أو برفضها ، إنما ينص على وجود درجات متباينة من حيث انحرافها عن قواعد اللغة ، وترتبط درجة غير أصولية الجملة بالمستوى الذي تنتمي إليه القاعدة التي تنحرف الجمل عنها . فمصطلح (المقبولية) يرجع إلى المنطوقات التي هي طبيعة بصورة أما تفهم مباشرة دونما حاجة إلى تحليل ، ومقبولية الجملة مسألة تدرج ، هناك جمل أكثر مقبولية من غيرها ، فالجملة التي ضرب تشومسكي مثلاً له (من تظن أن علياً كان يود أخوه الذي حصل على الدكتوره من إنجلترا (١٩٨٠م) أن يزور شقيقه عمه ؟) .

فالمقبولية عندهم ترتبط بالأداء من حيث النحوية لاحظ عدم الإهتمام بالمعنى وليس الجملة عند العرب سلسلة من طبقات تراكمية ومفردات وهيئات متتابعه تركيباً دون النظر إلى العلائق الترابطية التي تسري بينها كالعلاقات الإسنادية وعلاقة الإبدال والتأكيد والتقوية والسببية والمفعولية . [٢]

فالنحو العربي أو النظامي يحدد مجموعة من الجمل السليمة في اللغة ويهدف إلى إيجاد تصنيف للجمل أي وسيلة لتصنيف جمل معينة بطريقة وصفية ، فالتشومسكيون أو البنيويون الموسومون بالتوليد يسمون الجمل المستعمله الجمل سليمة التركيب وإذا سئل أي الجمل هي أجاب أن النظرية التوليدية لتصف اللغات ، وليس الجمل بما في ذلك التركيبيات الشاذة ، باعتبارها منطوقات كلامية بل إبداعية .

إذاً يمكن القول أن أحكام المقبولية أو الجمل الأصولية تقبل في أن تذودنا بدليل مباشر يتعلق بالوصفية النحوية ، وذلك بسبب تداخل عوامل عديدة ، فنحوية الجمل عامل من العوامل الكثيرة التي تحدد مقبولية الجمل .

وطالما قلنا أن النظرية التوليدية التحويلية تصف اللغات وليس الجمل بما في ذلك التركيبات الشاذه من هنا ظهر الإهتمام اللغوي بالانحراف عن النمط المثالي للغة وأصبحت الدراسات الأسلوبية تقوم على دراسات الانحراف متأثراً بمنطلقات النحو التحويلي التوليدي ، وها

---

[١] أنظر كتاب سبويه الجزء الأول مؤسسة العلمي للمطبوعات بيروت – الطبعة الثاني (١٩٨٧م) – ج ـ ١ – ص ١٦ .
[٢] مبادئ اللسانيات – أحمد قدور – ص ٢٤٥ .

هو معروف من قيام هذا النحو على فكرة البنية العميقة والبنية الظاهرة التي تتولد عن البنية الأولى محكومة بمجموعة من القواعد التوليدية وهذا ما سيتضح في حديثنا عن النظرية الشعرية لجاكسون وعن انبثاق النظام الشعري من قواعد اللغة العادية ، وأدرك الغربيون أن كثيراً من الأسس المحورية للغويات التوليدية الحديثة تحمل نظرية عامة مجردة من لغة الشعر .

وبالتالي ظهرت أصداء القول بالانحراف عن النمط أو المغايرة له كسمة من السمات التي تمتاز بها اللغة الأدبية ، يبدو أن سمة الانحراف عنده تصدر عن منطلق تحويلي ، بحكم قيام النظرية الأدبية على فكرة الظاهر والباطن ، وتولد الظاهر المنحرف عن الباطن المثالي .

ومن هنا نستطيع إدراك الصلة بين دور النحو في توليد الجمل بالاعتماد على الاصوات والدلالة ، ثم الإشارة إلى هذه الجمل وانحرافها ، وإلى أن هذا الانحراف يشكل قدراً من تأثيرها الشعري ، ويصرح بأن كثيراً من الانحرافات النحوية تنشط من خلال قواعد النظام الشعري ، وتشمل فيها الاستعارات المنحرفة دلالياً مع الوضع في الاعتبار أن كل انحراف نحوي يتولد عنه تأثير شعري .

ويبدو في ذلك تحكيم النظر المنطقي ، أو المعاملة المنطقية للغة ، حيث توصف بالشذوذ تلك الجمل التي تشتمل على خطأ فيما أطلقوا عليه حدود الاختيار Selection Restrictions وهي الحدود الخاصة باختيار المفردات الصالحة لتكوين جمل جيدة التشكيل من الوجهة الدلالية وذلك على أساس مدى القابلية للتضام Combina Bilitty أي قابلية مجموعة معينة من الكلمات للتساند وفقاً لقواعد الاختيار هذه ، ومبدأ صلاحية التساند الذي قام بمثابة المعضلة المنطقية التي وقف أمامها التحويليون ، وأنه على أساسه قيل بانحراف الجمل للنمط العام المتمثل في البنية العميقة ومن هنا أدركنا الصلة بين مغايرة اللغة الأدبية للنمط العام وقريب من ذلك صنيع العرب في البلاغة العربية ولا سيما في اعتناق المذهب البصري في اللغة والنحو ، المذهب الذي يلتزم بثبات القاعدة واطّرادها بما يتيح ذلك في تتبع الفرصة أمام كل محاولة لمغايرة النمط و الانحراف عنه .

فحديث البلاغيين عن المجاز و الاستعارة ما هو إلا صدى لهذا الاعتقاد وإن كان البلاغيون العرب لم يرتّبوا على مثل هذه الأفكار النتيجة الطبيعية لها وهي إمكان أن يكون المستوى العادي منشقاً أساساً من المستوي الفني بعد أن يصل إلى مرحلة الآلية والشيوع .

وعلى نحو ما أنبثق الحديث عن المجاز العقلي في النقد العربي من ثنايا الخلل في قواعد الإسناد بمعنى انعدام الملاءمة بين المسند والمسند إليه أو الموصوف والصفة ، كذلك نتج من

الاخلال بما يسمى قواعد الاختيار التي تنتج من التضام أو ما يسمى بالبنيـات غيـر النحويـة Structure Ungrammatical وهي ما يربط بينها وبين المعايير المجازية .

هذا فضلاً عن اعترافهم بكثرة ترداد الجمل غير النحوية في الشعر ، وربط عبد الحكـم راضي في كتابه (نظرية اللغة في النقد العربي) [1] حديث بن جني في كتابه(الخصائص) عن قوة الإعراب وقوة المعنى ، وكيف تتحقق القيمة الأخيرة من خلال ضعف الإعراب لا قوتـه ، كمـا يبعثه أيضاً في حديثه في شجاعة العربية وارتكاب الشاعر للضرورات عن عمد إخـلال علـى تجربة الأساليب المحفوفة بمخاطر الخروج على القواعد المعيارية .

ويمكن القول أن البلاغيين العرب وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني قد كان لهم وعيٌ مسبق بفردية العمل الأدبي وليس خرقه لنظام اللغة ، بل بما هو متعارف عليه عند العرب وعلى نهج كلامهم مما ظهر ذلك النظام أي الدراسة الأسلوبية وفق منطق المنهج التحويلي . وذلك في القول بفكرة الانتقاء باعتباره عملية يقوم بها الأديب ذاته من بين الإمكانات التي يقدمها النظام اللغوي العام .

وعلى نحو ما صنع النقاد العرب في التمييز بين ظاهر العبارة وباطنها وتخريج الباطن على أنه البنية المثالية المتمشية مع قواعد الصواب لغوياً ونحوياً خلافاً للظاهر الذي قـد يكـون خارجاً على هذه القواعد وبليغاً في نفس الوقت ، صنع المحدثون من الباحثين في الأسلوب الأدبي ممن تابعوا المنهج التحويلي في دراسة اللغة . فالبنية العميقة في تصور هولاء هي البنية الكاملـة التي تجبر فيها تجاوزات البنية السطحية Surface Structure والتي يقال بهـا فـي الأسـاس حـلاً بمشكلات البنية السطحية التي صارت صفاتها مجالاً للدرس البلاغي .

ونخلص من ذلك إلى أن ما ذهبنا إليه في المباحث الأولى عن الملكـة و الاكتـساب أو القدرة والأداء ، وما ذهب إليه سوسير عن اللغة والكلام ، وما ذهب إليه تشومسكي عـن البنيـة العميقة السطحية وما ذهب إليه النقاد على المستوى الفني للغة والعادي أو النمطـي أو المثـالي ، ومن ثم القول بفكرة الانحراف من مستوى الأسلوب ، أو ما قال به أصحاب (التشذيذ) في اللغـة وفقاً لمنطق المنهج التحويلي .

كل هذه الثنائيات أو المآخذ اللغوية مصدرها النظر المنطقي إلى اللغـة وهـو النظـر المفضي إلى الصورية والتجريد ، وبالتالي إلى تقدير ما ليس له وجود فـي الحقيقـة بمعـى أن

---

[1] نظرية الغة في النقد العربي – عبد الحكيم راضي –ص ٤٩٨ – ٥٠١ .

الصورة المثالية التي يرسمها الآخذون بالمنطق في دراسة اللغة تجئ غير واقعية لأن اللغة غير خاضعة لقوانين المنطق وهذا ما أجملناه في (مبحث اللغة والمنطق) .

ويتمثّل جوهر النحو التحويلي في دراسة اللغة في الإدعاء بأن هناك كليات نحوية ، حيث طور البنيويون فرضية الكليات النحوية ، وأصبحت هذه النظرية أعمق من نظريات الكليات الصوتية وبناء على ذلك سعي تشومسكي إلى إيجاد وسائل تحليلية تشبه في إجرائها الدراسة العلمية للغة ، ولجأ تشومسكي إلى صنع تجريدة تأخذ صيغة النظريات العامة للغة ، والنظريات الخاصة بكل لغة ، وهذه النظريات يُعنى فيها إلى التحليل الجزئي و مجاله محدود لا يغطي كل المواد اللغوية ، ولا بد من استخدام الأهداف التفسيرية من اللجؤ إلى أمثلة رديكالية ، كما فعل تشومسكي في النظرية التوليدية التحويلية ، أمثلة المتكلم المستمع المثالي لاكتساب اللغة لمجموعة لسانية متجانسة ، وأمثلة النحو النواة ، ومبدأ التحتية ومقصود به أن اللغات تختلف في تركيبها الظاهر وتتفق في بنيتها العميقة .

تضارب المنهج الوصفي والمنهج المعياري [1] في الدراسات البنيوية

البحث اللغوي يصدر أحكاماً على الوقائع لا على القيم ، وأهميته تمكن في كونه علماً واقعياً يصف الظواهر كما هي ، لا كما ينبغي أن تكون فهو علم تقريري وصفي وطرح قضية المعيارية والوصفية في الدراسات اللغوية يوحي بأن المنهجيين الوصفي و المعياري يقفان على طرفي نقيض ، فالبحث اللغوي إما أن يكون بحثاً وصفياً تقريرياً ، ومن ثم يكون عملياً ، وإما أن يكون بحثاً أخلاقياً وغائياً ، ومن ثم يُحرم هذه الصفة ، ونحن من جهتنا نعمل على الجمع بين الاثنين بمعنى أن منهج البحث في علم اللغة العربية وصفي تقريري أولاً ، وغائي معياري ثانياً ، ومن ثم ينتفى هذا التناقض والتقسيم التقليدي للعلوم ، إما علوم وصفية ، أو علوم معيارية ، الأولى تهتم بما هو كائن مثل العلوم الطبيعية ، والثانية تهتم بدراسة ما ينبغي أن يكون . والمنهج الوصفي ينبذ أي موقف معياري ينطلق من الخطأ والصواب ، لأنه يفرق بين ما هو علمي وما هو تعليمي ، فالدرس العلمي يتوسل بالمنهج الوصفي أساساً ، والدرس التعليمي يحتكم إلى الخطأ والصواب . [1]

---

[1] كلمة معيار تطلق بمعناها الوصفي على النموذج تامتخذ أساساً للغة أو النمطية – أنظر اللغة بين المعيارية والوصفية – د. تمام حسان

[1] مبادئ اللسانيات – أحمد قدور – ص ٢٣ .

وأن اللسانيات كعلم يدرس اللغة من ناحية عملية جردت الدرس اللغوي مـن المنطـق المعياي والنزعة التعليمية وسعت الدراسة اللغة لذاتها من غير إلتفاف إلى ما كان يعرض عليهـا من مناهج أو يقودها إلى غايات أخرى بعيدة .

ولذلك أتخذ النقد البنيوي النصوص اللغوية التي تتخذ كشفرات تشرح نفسها بنفسها مـن غير التفات إلى عوامل أخرى ثقافية إجتماعية وسياسية ودينية .

وبناء على ذلك ورد نوعان من أنواع النحو :-

(١) النحو المعياري .

(٢) والنحو الوصفي .

ولا شك في أن ظهور النحو الوصفي لم يلغ النحو المعياري الذي يعنى متـداولاً فـي الأوساط التربوية ، لقد ظلت مشكلات صحة التعبير ووعثرات الكلام ، وقل ولا تقـل ومجـاراة الأساليب القديمة والاقتداء بفحول الأدب ومواضع الدراسات التربوية في النحو المعيـاري تقـوم على أساس التمييز بين مستويات اللغة ، أما النحو الوصفي نحو ينظر إلى القواعد نظرة جديـدة ترى فيها وجهات تشترك بين حالات متشابهة توصف وتصنف بعد استقراء واسـع لكثيـر مـن الأمثلة ، كما جرى ذلك في مقارنة اللغة السنسكريتية للبحث عن نقاط تشابه بينهما الأمـر الـذي كان له أثر بالغ في تفعيل الدراسات المقارنة من ثم الدراسات الوصفية البنيوية .

فاللسانيات كما هو ملاحظ تنهج نهجاً وصفياً ينبذ كل موقف معياري ، فقـد تجـاوزت حدود النحو المعياري إلى الإهتمام العلمي لقواعد التراكيب ، وصولاً إلى الكليات اللغويـة التـي تشترك فيها اللغات الإنسانية . (٢)

تضارب المنهج الوصفي والمنهج المعياري في الدرس الصوتي :-

قـد نلحظ في الدراسات الصوتية للفونيم تذبذباً واضطراباً بـين المـستوى الفـونيمي المجرد ، والمستوى الفونولوجي الوظيفي ، ففي دراسة عبد الصبور شاهين في كتابه نلحظ هـذا التضارب بين المنهج الوصفي والبنيوي والمنهج المعياري التقليدي الـذي انبنـت عليـه أفكـار الصرفين العرب .

وفي تشخيصه لخصائص الواو والياء ، يصف الواو والياء بأنها انزلاق بين حركتين أي ليست حركة كاملة بل هو صوت بيني ، وهذا وصف فونتيكي مجرد ينفي عـن الـواو واليـاء كينونتهم الفونيمية ، ويقرر المؤلف أن الواو والياء في المضارع المعتل المنصوب عارضـتان ، وطارئتان وليستا بأصليتين وأنهما تخلقتا من مجرد اقتران حركة الإعراب بحركة عـين الفعـل

---

[٢] المرجع السابق – ص ٢١٥ – ٢١٦ .

ونفي بالضرورة كون الواو والياء أصلاً يمثلان لام الفعل . ولقد قرر شاهين أن وجود الانـزلاق في مثل (يسعيان) ضرورة يفرضها منع تتابع ثلاثة فتحات بين فتحة وعين الفعل والفتحة الطويلة التي هي علامة التثنية ، وإذا طرحنا سوائلاً لما كان الانزلاق في يسعيان يائياً ولم يكن واوياً ما دامت علة اجتلابه هي كراهية توالي ثلاث فتحات ليس غير .

وهنا تنتج خطورة التحليل الفونتيكي الفونيمي ، في مقابل المعيارية الصرفية العربيـة . ويبدو ذلك في وصف الياء والواو وصفاً طارئاً عارضاً ليس أصلاً من أصول الكلمة كما هو في حالة الإعلال عند العرب حين نقول بكل بساطة وقعت (و) ساكنة بعد كسر فقلبت ياء ووقعـت الياء ساكنة بعد ضم فقلبت واو وهكذا بعد رد الفعل إلى أصله الواوي اليائي . (1)

والقول بأن الواو والياء صوت بيني عارض إعداد صريح لكينونتهما الفونيمية وهنا تخشى على البنية التي ترفع شعار نظام قواعد النحو (الكلي) أن تهدم ملامح النحو و الصرف عند العرب .

المعروف عند الوصفين أن التسلسل الهرمي للنظم اللغوية يفرض اعتبـار الفونيمـات وليس (الفونات Phono) هي المادة التي تشكّل منها الوحدات الصرفية (Morphemrs) وبذلك يكـون تحديد الفونيم مرحلة وسيطة في التحليل بين المستوى الفونتكي والمستوى الصرفي وعلى ذلك فإن المعالجة الصرفية للإعلال الواوي أو اليائي لا يمكن أن تتم إلا بعد معرفة الياء والواو في قلـت وبعت أقرب إلى غير المعتل . (2)

تحديد الهوية الفونيمية للواو والياء فإما أن يعزيا إلى صنف الحركات وإما إلى صـنف السواكن .

ولذلك وصف عبد الصبور الواو والياء بأنهما صامتان إعتباريان ووصفهما مـن بعـد بالهامشية المطلقة والواقع أن كونهما من الصوامت يبتدر إلى التحليل الصوتي أو الفونيتكي .

وتقرر أن العربية جعلت الواو الياء من الفونيمات السواكن (3) ويأخذان موقع الـسواكن ويعطيان أحكامهما .

وهذه الفكرة الفوينمية الخالصة ساقت المؤلف لإسقاط الواو والياء وجريـان الماضـي الأجوف مثل (قال) (باع) على (فال)لا فعل بدعوى سقوط العين فيه ، ووجـوب وزن الماضـي

---

[1] كتاب سيبويه (باب ما تغلب الواو فيه ياء أن كانت متحركة والياء قبلها ساكن أو كانت ساكنة والياء بعدها متحـرك) – جـ ـ٢ ص ٤٤٨ .

[2] كتاب سبويه الجزء الثاني – ص ٣١٦ .

[3] دراسات نقدية في لسانيات العربية المعاصرة – سعد مصلوح – ص ٢٢٥ – ٢٣١ .

الناقص قبل (رمي) (غزا) على (فع) لا فعل بدعوى سقوط اللام فيه وقيس علـى ذلـك أبـواب الأعلال كلها . [1]

واضح أن عقد الصلة بين هذه المعطيات الصوتية والميزان الـصرفي للقـضاء علـى منهجية الصرف العربي التجريدية ذات المكونات الأساسية والمكونات الإضافية . [2]

التي باستخدامها يقاس المنطوق ويعرف الأصل والمحذوف والزائد فالوصـفيون فـي مراعاتهم للفونيم أهملوا جانب (الحركات) الأمر الذي جعلهم يقولوا الكلمة ثلاثية الأصل وثنائيـة المنطوق ، المنطوق في العربية هو النطق بالفعل وهذا النطق يشمل على ثلاثة عناصر هي (قال) هي القاف والحركة الطويلة اللام على (فرض التسكين) .

والقول بثنائية المنطوق أن النطق لم يتضمن الأصل الثالث وانعدم ، ونحن نعلم أنه لـم يسقط ولكنه تحول وقياساً على المعلوم في الميزان الصرفي يرجع إلى أصله ولا يكـون انزلاقـاً طارئاً عارضاً يلغى من الكلمة حيناً وينصرف حيناً آخر . [3]

الأفعال المعتلة منها ما كان أجوف مثل (قال) أوناقص مثل (دعا) أو نوع الفيف المقرون مثل (روى) فإن كل هذه الأفعال وما شابههما تعد آخر مرحلة من مراحل تطورها في اللغات السامية . أما أولى هذه المراحل ، قولَ ، ودعوىَ ، ورويَ على نمط الصحيح تماماً وبغيت بعض الأفعال في العربية على هذه المرحلة (عورَ) (حورَ) استحوذ في قوله تعالى (استحوذ عليهم الشيطان) المجادلة . [4]

وقد فطن ابن جني إلى المرحلة التالية مرحلة لتسكين أو ضياع الحركة بعد الواو والياء للتخفيف فيصبح الفعل على نحو (قوْل) (بيعْ) ومن ذلك قوله أن أصل قام قوم ، فابدلوا الواوالفاً كذالك إلا أنك لم تقلب واحد من الحرفين إلا بعد أن أسكنته استثقالاً لحركته . صوت الياء صوت صامت في مثل يقول وهو صوت مجهول بينه وبين صوت الكسرة وهو من أصوات العلة أو الحركات وكذلك الواو صوتاً صامت واحد وولد وهو مجهول بينه وبين الضمة الخالصة فرق يسير والهمزة صوت شديد مهموس مرقق عده سيبويه من الأصوات المشهورة ورجح كمال بشر لا بالمجهور ولا بالمهموس .

---

[1] المرجع السابق – ص ٢٢٢ .

[2] قالوا في باب ما كان من الواو والياء سعى يسعى ومحى يمحي فعلوا به بما فعلوا نظائرهم من الغير المعتل وقالوا بهو يبهو لأن نظير هذا عير المعتل لا يكون إلا يفعل ونظائر الأول مختلفان وقالوا يمحو كما فعلوا بغير المعتل أما الحروف الثلاثة من باع يبيع أنما أجروا الواو والياء مجرى المتقاربين من السكون والتحرك فإذا الأول ساكن لم يصل إليه الإدقام لأنه لا يسكن حرفان فصار إلى قوم وبيع وقد بقيت هذه المرحلة عند هذه القبائل وجاءت كلمت حبلى وفُعلى وهدى في الوصف والوقف - أنظر كتاب سبويه الجـزء الثـاني – ص ٢٨٧ – كتاب الخصائص أبن جني الجزء الثاني – ص ٤٧١ .

[3] دراسات نقدية في اللسانيات العربية المعاصرة – سعد مصلوح – ص ٢٢٥ – ٢٣١ .

[4] سورة المجادة الأية (٥٨) .

أما التطور الأخير فيتمثل في التحول من الإمالة إلى الفتح الخالص ، وذلك أن الحركة الناتجة من انكماش الصوت المركب ، تتطور في اللغات المختلفة فتحول فتحة طويلة مثل (قام) و (باع) (قضى) (ورمى) خلقت تلك ركاماً لغوياً في العربية الفصحى واللغات السامية واللهجات ومن كل ذلك نرى أن ما يقوله النحاة من أن (قال) أصلها (قول) صحيح ، بصرف النظر عن تعليلهم هذا ، بتحرك الواو وأنفتاح ما قبلها .

ونقف هنا عند فكرة الأصل ، والأصل هنا الصيغة الأقدم التي خرجت عنها الصيغة الآخرى الأحدث ، وتقوم فكرة الميزان الصرفي عند النحاه العرب على أساس أن أكثر الألفاظ العربية من أصل ثلاثي . [1] والقول بفكرة الأصل قول معياري يجعل اللغة ذات قياس صرفي تحتكم إليه ، ولكن ابن جني في كتابه (الخصائص) عقد باباً سماه باب مراتب الأشياء وتنزيلها تقديراً وحكماً لا زمانا ووقتاً وقال : ((هذا الموضع كثير إلا بهام لأكثر من يسمعه لا حقيقة تحته وذلك كقولنا الأصل في قام قوم ، وفي باع ، بيع فهذا يوهم أن هذه الألفاظ وما كان نحو مما يدعى أن له أصلاً يخالف ظاهر لفظه ، قد كان مرة يعلل حتى أنهم يقولون في موضع قام زيد ، قوم زيد ، وكذلك يقول محمد وليس الامر كذلك ، بل بضمه وذلك أنه لم يكن قط مع اللفظ به إلا على ما تراه وتسمعه . وإنما معنى قولنا وأنه كان أصله كذا أنه لوجاء مجئ الصحيح ولم يعلل لوجب أن يكون مجيئه على ما ذكرنا ، فأما أن تكون استعملت وقتاً من الزمان كذلك ، ثم انصرف عنه فيما بعد إلى هذا اللفظ ، فخطأ لا يعتقده أحد من أهل النظر .)) [2]

أصول الأشياء المتغيرة وهذه الظاهرة اللغوية قديمة مثل غيرها من الظواهر اللغوية وهذا ما سماه رمضان عبد التواب (بالركام اللغوي) [3] . وهذا يوكد أن دراسة اللغة العربية الفصحى تكون ناقصة أو مبتورة عن سياقها الحضاري إذا لم تستصحب معنا التاريخ أو المنهج التاريخي في دراستها .

والأفعال المعتلة من أجوف أوناقص أو لفيف مقرون ، تعد آخر مرحلة من مراحل تطورها في اللغات السامية . أولى المراحل (قول) ، (وخوف) ، (وقضى) ، (وهدى) ، على نمط الصحيح تماماً وهذه المرحلة بقيت كما هي في الحبشة ، وبقى منها في العربية (عور) و(حور) و(هيف) (واستنوق) إلى قولنا استنوق الجمل وهو مثل عربي ، يقال أن طرفه بن العبد هو أول من قال حيث سمع (المتلمس) ينشد شعراً ويقول فيه .

---

[1] علوم اللغة العربية – محمود فهمي حجازي – ص ٢٠٥ .
[2] الخصائص لأبن جني الجزء الثاني – ص ٢٥٦ .
[3] المدخل إلى علم اللغة – د. رمضان عبد التواب – ص ٢٩٨ .

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكـ ـ ـدم

المرحلة الثانية مرحلة التسكين وضياع الحركة بعد الواو والياء للتخفيف فيصبح الفعـل نحو (قوْل) ، (وبيْع) ، (وخوْف) ، (ومضى) (ورمى) ... الخ .

وقد فطن ابن جني إلى ضرورة وجود هذه المرحلة في تطور الأفعال المعتلة فقـال : (ومن ذلك قولهم أن أصل قام قوم فابدلوا الواو ألفاً ، وكذلك باع ، أصله بيع ، ثم أبدلت الياء الفاً لتحركها وأنفتاح ما قبلها ، وهو لعمري كذلك ، إلا أنك لم تقلب وأحداً من الحـرفين إلا بعـد أن أسكنته ستثقالاً لحركته ، فصار إلى (قوْم) (وبَيعْ) ونلاحظ أن تسكين الوسط للتخفيف وفي العربية كثير مثل (هوْى) (وأفْعى) ، (وحْبلى) ، وقالوا عنه إنه لغة بكر بن وائل وأناس كثير من تميم) . [1]

والمرحلة الثالثة في تطور الأفعال ، هي المرحلة التي تـسمى فـي عـرف اللغـويين المحدثين انكماش الأصوات المركبة وهي الواو والياء المسبوقتان بالفتحة منها مثل (قَوْل) و(بيتْ) ومن الملاحظ في تطور اللغات هو انكماش هذه الأصوات ، وتتحول الواو المفتوح ما قبلها إلـى ضمة طويلة كقولنا (يوْم) وكذلك الياء إلى الكسرة طولة أمثل (الليل) ، (وزيت) . [2]

وتوجد هذه المرحلة في اللهجات العربية التي تميل ، في مثل قولـه تعـال (والـضحى والليل إذا سجى) ومن ذلك يقول الزجاج : ((والإمالة إلى الكسرة لغة بني تميم وكثير من العرب ، ووجهها أنها الأصل من ذوات الياء ، فا ميلت لتدل على ذلك .))

ويقول محمود فهمي حجازي ومعنى هذا أن دراسة تطور النظـام الـصوتي للعربيـة الفصحى هي دراسة صوتية تاريخية وتطور الأبنية الصرفية ووسائل تكوين المفردات في العربية على مدى القرون مما يدخل في الدرسة الصرفية التاريخية . [3]

فإنما جاء عن الأصل حيث أسكنوا ولم يحتاجوا إلى التحريك ، وكذلك المضاعف نحـو دع يدُعُ ، لأن هذه الحروف التي هي عينات أكثر ما يكون سواكن ولا تحرك إلا في وضع الجزم موضع السكون لام فعلي تسكن فيه بغير الجزم نحو رَدْدَن ويرْدُدْنَ ، فلما كان السلوك فيه أكثـر جعلت بمنزلة ما لا تكون فيه الإ ساكناً وأجريت على التي يلزمها السكون وقد تحرك في لح يَلـح و بمنزله دع يَدَعُ ، فخالفت ياء التسكين . [4]

---

١ الخصائص – لأبن جني – الجزء الثاني –ص ٢٥٤ .
[2] المرجع السابق – ٢٩٣ .
[3] علم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية . محمود فهمي حجازي – ص ٤٠ .
[4] كتاب سيبويه – الجزء الثاني الطبعة الثانية – (١٩٦٧م) – ص ٢٠٥ .

وهنا استخدم سيبويه قاعدة النظير بالنظير أي قياس المثل وهذا قياس (صوتي) صرفي ، تتمازج فيه الصوامت والحركات ، والمثل وهو مفهوم (الأصل) عند العرب ، وهنا الأصل (تفعلٌ) (تِفِعَلُ) وهذا وصف معياري وليس وصفي بنيوي .

ويجب أن ترتبط صور تمثيل البنية المركبة بالصورة الصوتية وهذا أيضاً يرافق ما فعل بالنسبة للجملة البسيطة من إعادة الكتابة ، أي تعديل في بنيـة الـصوت لأن الـصوت يـستقي عناصره من سلف تاريخي تجريدي ، عن طريق توالي التغيير الصوتي وبتطويع هـذه الفكـرة يمكن للعناصر المعجمية أن تفرض شكل تجريدي في تمثيل البنية المركبية ، وأي تحويـل عـن طريق متوالية من القواعد الصوتية والفونولوجيا إلى شكلها الصوتي الفعلي وهـذه هـي الفكـرة الأساسية للفونولوجيا التوليديه المعاصرة .

وذلك أن المدخل المعجمي سوف يحدد ضمن سمات البنية الصوتية التي لا تنتج عـن طريق القواعد العامة كالصفات المخرجية للوحدات الصوتية وصفاتها المتعلقة بـالجهر الهمـس والهيئة الاحتكاكية ، ففي المصفوفة الفونولوجية المدخل المعجمي لكلمـة (مـسجد) يـشار إلـى الوحدات الصوتية لهذه الكلمة بصفاتها الصوتية ، فسوف يشار إلى الميم بصفاتها المميزة ، أنفى شفوى مجهور ، والعمود الثاني إلى حركة الميم بصفاتها المميزة أمامية متسعة غيـر مـستديرة وقصيرة . [1]

ويوضح تشومسكي أن مسئولية تحديد الشكل الصوتي الفعلي والتمثيل الصوتي الذي يحقق النطق طبقاً له تقع على عاتق القواعد الفونولوجية وذلك أن مسلسل الكلمات بسماتها الصوتية المحددة ، تدخل ضمن البني السطحية أي المكون الفونولوجي لتنطبق عليه القواعد الفونولوجية ومن ثم يتحدد تمثله الصوتي ، قد تصبح (اذنين) (اذدان) (الشمش) الشمس) قول ، قال ، إلا في المكون الفونولوجي وهنا إشارة إلى أن القواعد الصوتية قواعد معجمية فالنحو التوليدي يصف اللغات الإنسانية ولا يميز خصوصيات كل لغة .

ونلاحظ كذلك أن المنهج الوصفي يصف اللغة على أنها أداة عقلية فحـسب ، وهـذا لا يصح ، لأن الإنسان كما يتكلم يصوغ أفكاره فأنه يتكلم ليؤثر في غيره من الناس ، وليعبر عـن آرائه و إحساسه وشعوره ، بـل أنه يمكن القول بأن التعبير عن أي فكرة لا يخلو مـن لـون عاطفي . [2]

---

[1] كتاب المعرفة اللغوية لتشومسكي - ترجمة محمد فتيح – ص ١٢٨ .
[2] اللغة - فندريس – ص ١٨٣ .

ولذلك نجد أن من أهم سمات المدرسة الوظيفية دراسة الجوانب الجمالية والأدبيـة فـي الاستعمال اللغوي بخلاف مدرسة تشومسكي التي حصر تركيزها على الجوانب الشكلية المنطقيـة من اللغة على حساب اعتبارات أكثر إنسانية ويمكن القول أن مدرسة براغ شكلت حلقـة اتـصال بين اللسانيات والبنيوية ولأنها ركّزت إهتمامها على العناصر اللغوية ودورها أيضاً في المعنـى ، كما اعتبرت البنيوية الجانب اللغوي وتفكيك عناصرها ليبين قيمة النص الأدبي ومعناه .

ويقول محمد زياد كبة مترجم كتاب مدارس اللسانيات التسابق والتطور :((علمٌ غالباً ما يتوجه مما رسوه المعاصرون إلى اللسانيات كمثل يحتزى من المنهج الذي يتبعونه في النقد الادبي دون ان يفقهوا في كثير من الحالات المفاهيم اللغوية التي يتخذونها أمثلة لهم .)) [(1)]

ونلاحظ أن الوصفين لم يكتفوا بالتمييز بين الوصف اللغـوي والمعيـار اللغـوي بـل اعتبروا المعيارية نشاط غير ملائم ولا يليق بالمحترفين ولذلك يجب على جميع اللسانين اجتنابه.

يعلق زياد كبة وهذا الموقف الأخير برمته غير عقلاني لأن الثقافة العالية بحاجة إلى معايير من أجل الاستعمال اللغوي وأن ننظر إلى اللغة المستعملة ، وهذا يؤكد وظيفة اللغة التي تنظر إلى اللغة من زاوية المتكلم لا من زاوية الباحث ، كما هو عند العرب حيث فكروا في اللغة تفكيراً معيارياً ليبينوا موقفهم من الاستعمال لا أن يفكروا في اللغة تفكيراً وصفياً). [(٢)]

ويقول تمام حسان (والحق أن العنصر الإجتماعي لا يمكن تجاهله في اللغة مـا دمنـا نعترف بوجود أسلوب خاص لكل متكلم ، ويجوز الارتجال في اللغة و الاحتجاج بأقوال الأفـراد سواء شعراء أم خطباء لأن الاعتراف بهذه الشخصية اعترافاً آخر بتطور في اللغة) . [(٣)]

وهذا جانب وصفي يخرج على الأشكال المتعارفة للغات وينادى بالارتجال وهذا أثر من آثار البنيوية .

---

[١] مدارس اللسانيات التسابق والتطور – محمد زياد كبة – تأليف جفري سامسون – ص ١٥ .
[٢] المرجع السابق – ص ١٥ .
[٣] اللغة بين المعيارية والوصفية تمام حسان – ص ٨٧ .

النحو التوليدي [1] والنحو النظامي

لا شك أن هناك فارقاً بين النظرية وبين الحقيقة العلمية ، من حيث كون النظرية اجتهاداً مصدره الحدس [2] وكون الحقيقة أمراً قائماً على الملاحظة والإستقراء ، والأمر الذي لا ريب فيه أن النحو العربي قام على استقراء كلام العرب ، وكان أكثر قولهم العربية تقول كذا ولا تقول كذا .

ويقول تمام حسان [3] إن عمل تشومسكي ما كان أن له أن يتم لولا اعتماده على ما سبقه من الاستقراء الذي تلقاه وانتفع من نتائجه من بلومفيد وهاريس ، فالاستقراء قائم عملياً في نظرية تشومسكي ، من هذه الناحية بني رأيه على استقراء غيره ثم قام بنقد هذا الاستقراء وكذلك قام العرب بالاستنباط مما تم استقراءه من كلام العرب ، فجردوا المادة التي تم استقراءها من فكرة الأصل ، أصل الوضع وأصل القياسي و الاشتقاق والعدول والرد ، وكان ذلك مبنياً على أسس موضوعية لا على علل غائية التي تصلح في مجال الفلسفة والنظريات المجردة والنظرية التوليدية أثارت أسئلة ميتافيزقيا ما هي اللغة ، وكيف ينتج الإنسان اللغة . [4]

فالنحو التقليدي لم يعالج السؤال الأساسي في بناء نظرية تشومسكي اللغوية ما الذي تتألف منه معرفة اللغة ؟ .

فلم يعالج النحو التقليدي ذلك بسبب اعتماده الضمني على ذكاء القارئ الذي يحلل اللغة ، فالنحو التقليدي أو التعليم الجيد يذودنا بقائمة كاملة من الاستثناءات كالأفعال الشاذة ونماذج وأمثلة

---

[1] وكلمة توليد ناتجة من فكرة الأصل المشترك ونلاحظ ذلك في الدراسات المقارنة التي بدأها بوب (١٨٦٧م) (١٨١٦) في كتابة المعروف (نظام تعريف اللغة السنسكرتية ومقارنته بالأنظمة الصرفية المعروفة في اللغات اليونانية والأتينية والفارسية والجارمانية ، لم يكن تأثر اللغويين بالأسلوب المقارن في العلوم الطبيعية أمراً عارضاً وأنما كان مقصوداً ، وفشليجل الذي دعا إلى ضرورة إيجاد القواعد المقارنة صرح بأن ذلك سيتم بالوسيلة نفسها التي توسل بها علم التشريح من القائه ضوءاً ساطعاً على الحلقات الأولى من الكائنات ولذلك يلاحظ تأثر أصحاب المقارنات اللغوية بالمصطلحات الشائعة في العلوم الطبيعية كالتوليد والتحويل . والمقارنة بين اللغات تبحث عن التشابه بين أشكال اللغتين ولا بد أن تثبت أن اللغتين قريبتين من الناحية التوليدية ، أما أن يكون أحدهما منحدرة من الأخرى وإما أن ينحدرا معاً من أصل مشترك . مبادئ اللسانيات – أحمد قدور – دار الفكر العربي (٩/١٩٩٩ – ص ١٥ .

[2] مناهج البحث في اللغة – رمضان عبد التواب – ص ١٨٧ .

[3] اللغة بين المعيارية والوصفية – تمام حسان – ص ١٠ .

[4] المعرفة اللغوية – محمد فتيح – ص ٥٨ – ٥٩ .

التراكيب القياسية وملاحظة التفصيلات والعموميات الخاصة بأشكال ومعاني التراكيب في المستويات المختلفة ، ولكنه أي النحو التقليدي لا ينظر في السؤال عن الكيفية التي يستخدم بها قارئ النحو أمثال هذه المعلومات المستخدمة ولا ينظر في طبيعة وعناصر هذه المعرفة ولا ينظر في بماذا تتألف معرفة اللغة ، والنحو هنا صورة منظمة ومركبة للمادة اللغوية التي يعرض بها متعلم اللغة التعليقات العامة والملاحظة المتبصرة في الغالب .

وقد ذكر تشومسكي في كتابه عيبين رئيسيين للنحـو التقليـدي :- Aspec + of the thearg afsbntax .

العيب الأول :

أن هذا النحو رغم ما قد يتضمنه من قوائم كاملة وواضحة تخص الاستثناءات وصـور الشذوذ ، يذودنا فقط بمجرد أمثلة وإشارات تتعلق بالعمليات التركيبية القياسية المنتجة .

العيب الثاني :

وإليه يعود فشل الأنحاء التقليدية على حد تعبيره في محاولتهـا لتقـديم وصـف دقيـق للعمليات القياسية الخاصة ببناء الجملة وتأويلها في أن هناك ترتيباً طبيعياً للأفكار يعكسه ترتيـب الكلمات ، ومن ثم لا تنتسب قواعد صياغه الجملة في الحقيقة إلى النحو بل إلى حقل آخر يـدرس فيه ترتيب الأفكار ، وينبغي أن نشير هنا إلى ما نسب من فشل وعجز النحـو العربـي أن يقـدم وصفاً دقيقاً لبناء الجملة مثلاً يمنع من صياغة الجملتين التاليتين :-

(١) ضرب أن ينجح محمد عليا .

(٢) اصطف محمد .

ويجيز نظريهما :-

(٣) ضرب خالد علياً .

(٤) اصطف الجنود .

وجد تشومسكي أن هناك بعض الجمل التي تحتمل معنيين مختلفـين ولا يميـز الـشكل الخارجي بينهما فجملة (كان عقاب علي صارماً) لا يتضح معناها خارج الصياغ ولا ندري إذكان على هو الذي عاقب إنساناً آخر أم أن إنساناً آخر هو الذي عاقب علياً كانت مثل هذه الجملة التي يكتنفها اللبس من الوجهه التركيبية هي التي أدت تشومسكي إلى التأكيد بأن لهـذه الجمـل معنـاً ظاهراً (سطحياً) وهو الذي له معنى مقصوداً (عميقاً) Deepstracture الذي ينظم العلاقة بين المعنى

المقصود العميق والظاهر السطحي ، فتلك القوانين التي تطبق على الأول ، فتحولها إلى الثـاني ، وقد أطلق على هذه القوانين اسم (القوانين التحويلية) Transfmational and rales. [1]

فالنحو العربي ليس فيه الآلية المتوفرة في النحو التوليدي التي تحقق هذا الغرض وهـي الآلية المتعلقة بالخصائص المقولية و الانتقائية وقواعدها التي تحدد في معجم الأفعال وما يـشبه خصائصها المقولية و الانتقالية المحددة للمواقع التي تظهر فيها ، فالمعجم يتـضمن فـي مدخلـه الخاص بالقول (ضرب) ما يشير إلى أنه يظهر في موقع يكون فيه الفاعل اسماً صريحاً لا مؤولاً ومـــن ثم تجاز الجملة (٣) ولا تجاز الجملة (١) كما يتضمن المدخل المعجمي الخاص بالفعل (اصطف) ما يشير إلى أن فاعله اسم صريح متعدي وهو ما يحيز الجملة (٤) لا يجيزالجملة (٢) .

ويضيف تشومسكي أن ما يؤكد فشل هذا النحو أيضاً أن يقوم بصورة واضحة تركيباً ما يساعد على إزالة الغموض الدلالي في الجملة التالية :-

تحدثت إليه راكباً إذ ليس فيه الآلية الموجودة في النحو التوليدي المتعلقة بالبنية العميقـة والسطحية ، التي تمكنه من التدليل على مثل هذه الجملة ببنيتين عميقتين مختلفتين يرتبط كل منهما بتأويل دلالي غير ما يرتبط بالأخرى .

فأما البنية الأولى فهي البنية التالية المحددة للمتكلم على أنه صاحب الحال (تحدثت إليـه وأنا راكب) ، والبنية التالية فهي (تحدثت إليه وهو راكب) وهي البنية المجردة بـضمير الغائـب على أنه صاحب الحال . [1]

فالعربية في تحليل هذه الجملة لا تعتمد على آلية اللغة إنما تعتمد على النظـام اللغـوي المتعارف عليه من خلال النظم التركيبي المحدد الخاضع لعملية الإعراب ، كعملية عقلية تحليليـة تعتمد على المعنى والسياق معاً ، وليس طريقة تجريدية بحته ،إنما هي طريقة تعليميـة خاضـعه للممارسة العملية فنقول (راكب) اسم فاعل يدل على صاحب الحال ولم يراد به الحال فـصلح أن يقع حالاً نحو (قاعد) و(قائم) لأنه اسم فاعل .

والعربية تتأمل الإعـراب وتراعي المعنى ، وذكر ذلك ابن هشام فـــي كتابه (المغني) [2] :- (ومن الجهات التي يجب أن يراعيها المعرب أن يحمل كلاماً على شئ ، ويشهد اســتعمال

---

[1] اللغة وعلم اللغة – ترجمة مصطفى التوني .
[1] أنظر باب الفاعل الذي يتعده فعله إلى مفعوله –كتاب سبويه الجزء الأول – ص ٢٤ .
[2] مقني البيب - ابن هشام – الجزء الأل – ص ١٨٢ .

آخر في نظير ذلك الموقع بخلافه . وقول بعضهم في قوله تعالى (ولمن صبر وغفر إن ذلك مـن عزم الأمور) . [3]

إن الرابط الإشارة وأن الصابر والغافر جعلا من عزم الأمور مبالغـة ، والـصواب أن الإشارة للصبر بدليل (وأن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) ولم يقل إنكم .

يقول إبراهيم مصطفى (وتأليف الكلمات في كل لغة يجرى على نظام خاص بها لا تكون الكلمات مبهمة ولا مصورة لما يراد حتى يجري عليه ولا تزيغ عنه) . [4]

وبناء على ذلك يمكن القول أن النحو التوليدي التحويلي (٤) منهج عقلي في دراسة اللغة ، يبحث عن القواعد النحوية الكامنة وراء بناء الجملة ويهتم بالكشف عن وجود عدد غير متناهٍي من الجمل في أي لغه وتوضيح نوع من سلاسل الكلمات لتشكل جملاً ، وأيها لا يشكل جملاً وكذلك يصف البنية النحوية لكل جملة ويسعى التوليديون منها وراء ذلك إلى التأكيد بأن اللغات تتشابه على مستوى المقصود (العميق) من المعاني ويحاولون الكشف عن هذه التشابهات الكلية .

ويعد هاريس وتشومسكي المؤسسين الأوائل لعلم اللغة التوليدي ونشر هـاريس بحوثـه (١٩٥٢م – ١٩٥٧م) وعرف التحويل بأنه عملية نحوية تغير ترتيب المكونات فيها داخل جملـة (ما) وبوسعها حذف عناصر أو أضافتها أو استبدالها .

وميز بين مجموعتين فرعيتين الجملة النحوية الكلية مثل (١) الجملة النواة والجملة غير النواة .

---

[3] سورة الشورى – الآية ٤٣ .
[4] إحياء النحو – مصطفى إبراهيم – ص ٢ .

النحو الوظيفي والنحو التحويلي

أقبل علم اللغة على اللسانيات التزامنية بصورة واسعه بعدها أوضح الفرق بينهما وبين اللسانيات التعاقبية [1] (١٩١١م) ، أجمع مجموعة من العلماء الغربيين (١٩٢٦م) أطلقوا علـيهم مدرسة براغ وتتميز هذه المدرسة بنظرتها إلى اللغة من خلال الوظيفة بهدف إبراز الوظائف التي كانت مدارس البنيوية المختلفة تؤديها في استعمال اللغة بأجمعها .

فعلماء مدرسة براغ ينظرون إلى اللغة كأنها (محرك) محاولين فهم وظائفهما ، لم تكتفي مدرسة براغ بالحدث عن ما هية اللغة ، بل تحدثوا عن السبب وراء إتخاذ اللغات أشكالها التـي عليها .

وطور علماء مدرسة براغ فكرة المنظور الوظيفي للجملة ، والتفسير الوظيفي للجملـة يتعلق باستعمال المسند إليه المسند إليه بأنه المحكوم عليه والمسند هو المخبر عنه أي المتحـدث عنه ، والمسند هو المخبر به أي المحدث به ، وهذا التعريف رد عليـه باعتراضـين ، الأول أن الجملة تفيد أكثر من حكم وتتضمن أكثر من محكوم عليه ومثال ذلك (على أعطى الكتـاب إلـى فاطمة) فقد تحدثنا عن (علي) و (الكتاب) و(فاطمة) ، وتحدثنا بثلاثة أمور فعلي معطى ، والكتاب معطى ، وفاطمة آخذة الكتاب أو مقدم لها الكتاب أفنجعل كلاً من علي والكتاب وفاطمة مسنداً إليه ، ربما يقول قائل إن المحكوم عليه في هذه الجملة هو (على)المحكوم به هو إعطاءه الكتاب إلى فاطمة ، ولكن نقول أن هذا قائمٌ على المعنى الاصطلاحي للمسند إليه ، والثانية ، قد يكون المسند

---

[1] التزامنية تعني تحليل الغات بإعتباره نظم تواصل خلال حقبة معينة من الزمن مع إهمال الطريق الذي سلكته تلك اللغـات وتاريخهـا وإكشاف العلاقة بينها وإعادة ترتيب الكلمات المفقودة . والتعاقبية تعني دراسة اللغات حتى وصلت على ما هي عليه – أنظر اللغة وعلم اللغة ترجمة مصطفى التوني الجزء الثاني – ص ٥٥ – ٥٧ .

إليه بالمعنى النحوي ليس هو المتحدث عنه حقيقة فإذا قلت (الطيور أكلت كل الفاكهة) فيحتمل أنني أتحدث عن الفاكهة المقصودة ولا أتحدث عن الطيور .

وعرف الرضي الإسناد بقوله :((المراد بالإسناد أن يخبر في الحال أو في الأصل بكلمة أو أكثر عن أخرى على أن يكون المخبر عنه أهم ما يخبر عنه بذلك الخبر في الذكر وأخص بـه ثم يقول وقولنا على أن يكون المخبر عنه أهم ما عبر عنه احتراس عن كون الفعل خبراً عن أحد من المنصوبات في نحو (ضرب زيدٌ عمراً أمامك يوم الجمعة ضرباً) (وضرب زيد يوم الجمعة ضرباً) فـإن المرفوعة في الموضعين أخص بالفعل وأهم بالذكر مـن المنـصوبات)) وليبـين الرضي أن الأهم عند المتكلم يكون مرفوعاً وتقديم المفعول ليس لأنه أهم بل هو توسع في الكلام.

يمكن القول أن الجملة تبدأ في نظر النحويين من مسند ومسند إليه أي فعـل وفاعـل أو نائب فاعل أو من مبتدأ وخبر منها الحال أو الأصل مبتدأ وخبر . [(١)]

فأصبحت هذه الفكرة سبباً في تفسير الفوارق البنيوية للغات مثل نـسبة وقـوع المبنـي للمجهول منها الإنجليزية بالمقارنة مع بقية اللغات ، أما تشومسكي يكتفي بأن يـدرج التحـويلات النحوية مثل المبنى للمجهول في لغة ما دون أن يشير إلى سبب يكمن وراء حاجة اللغة إليهـا أو لماذا تحتوي لغة ما على بعض التراكيب المعينة بينما لا توجد هذه التراكيب في لغة أخرى أو لا تستخدم إلا نادراً وتستخدم الانجليزية ترتيب المفردات من أجل تحديد العلاقـات النحويـة مثـل الفاعل والمفعول به ، وبهذا فهي ليست حرة في تبديل أماكن المفردات ، وكذلك العربية ويمكن أن تحل المعضلة باستعمال صيغة المبني للمجهول ، وهي تمكننا من التوفيق بين الرغبة فـي عـدم التصريح بالقائم بالفعل وبين المتطلب النحوي الذي يوجب أن يكون كل فعل تام فاعلاً . [(٢)]

ففكرة المنظور الوظيفي للجملة تبين لنا عمل التراكيب مثل صيغة المبني للمجهـل فـي الإنجليزية مثلاً والذي تقوم به وسائل أخرى في اللغات المختلفة الأمريكية لـم يكتفـوا بـالتمييز ونلاحظ أن الوصفيين الأمريكيين لم يكتفوا بالتمييز بين الوصف اللغوي والمعيار اللغوي .

ويمكن القول أن التفكير اللغوي لدى أبناء الجماعة اللغوية الواحدة يعمل على التمييز بين هذه الأنواع من الجمل بمقتضى ملكة موجودة لدى الناطقين بلغتهم وردت تسميتها فـي أعمـال تشومسكي (بالحدس) كما وصفه تشومسكي بمقتضى الآليات الذهنية الآتية :- [(٣)]

أولاً : الاستصحاب :

علم اللغة ترجمة مصطفى التونى – ص ٦٢

[٢] مثل لقد روي أن تبني المشروع عمل غير حكيم هذه العبارة محبب لدى البرقراطيون الذين يهدفون إلى التنصل من مسئولية قرارهم اللسانيات التسابق والتطور – أحمد زياد – ص ١٠٧ .

٣ اللسانيات والمجال والوظيفة والمنهج - د. سمير شريف – ص ١٧٦ .

ونقصد به استدامة ما كان ثابتاً ونفي ما كان منفياً بمقتضى ذلك فنحن نستصحب ما عرفناه من أنظمة اللغة فنبقى عليه في استعمالاتنا وترفض ما ترفضه قوانين اللغة ، وينبغي ذلك دون خرق تلك القوانين أو ما يسمى بمفهوم الانزياح والانحراف في المفهوم البنائي .

ثانياً : القياس :

ويقصد به الحاق أمر غير منصوص على حكمه ، بأمر آخر منصوص عليه فقياس استعمالات جديدة لم تكن مسموعة على استعمالات مسموعة .

ثالثاً : الاستحسان :

ويقصد به استحسان تراكيب واستعمالات لغوية ، وإن كان العرف اللغوي لا يجري بها ، وهذا هو الذي يجعلنا نسوغ الضرورة الشعرية مثلاً على الرغم من أننا لا نستسيغها في الخطاب العام .

رابعاً : الذريعة :

وهي الوسيلة التي يتزرع بها أهل اللغة وعلماؤها لمنع شئ أو إجازته وأما الأول يتمثل في العربية بالحرص على الإعراب وعدم التساهل فيه ، لأن ذلك التساهل يؤدي إلى فساد النظام الإعرابي برمته .

ولا يفوتنا قصة على بن طالب الذي سمع إعرابياً يقرأ قوله تعالى (إن ا برىءٌ من المشركين ورسولِه) ففزع على وقالوا أئتوني برجل وليكن فطناً وليضع قواعد النحو العربي ، فجاء بأبي الأسود الدؤلي الذي وضع قوانين النحو ، تلافياً لهذا الخطأ العقدي من وراء تلك القراءة الخاطئة .

وبمقتضى ذريعة المنع يتكون جدس صارم عند علماء اللغة ومعلميها وأما ذريعة الإجازة فهي التي تجعل أصحابها يتصورون ضرورة إجازة تراكيب واستعمالات معاصرة يتزرعون بدعوى موائمة اللغة للحياة المعاصرة .

وإذا كان (الحدس) طريقاً لمعرفة الاستعمالات اللغوية ، فأنه يظل عاجز على إدراك تعدد الدلالات في المعنى ، لأن التعدد الدلالي تحكمه ظواهر لغوية مثل المشترك اللفظي والترادف والتضاد والتشابه والاستعارة والمجاز وكلها قوانين لغوية يحكمها السابق العام والقصد.

بل اعتبروا المعيارية نشاط غير ملائم ولا يليق بالمحترفين ولذلك يجب علـى جميـع اللسانين اجتنابها . ويعلّق زياد كبة على ذاك بقوله (فهذا الموقف الأخير برمته غير عقلانـي لآن الثقافة العالية بحاجة إلى معايير من أجل الاستعمال اللغوي رغم أنه من المفضل أن تستقى مثـل هذه المعايير من خلال نقاش علمي بدلاً من أن يفرضها مجمع لغوي ومن المفترض أن يكـون التدريس في حقل اللسانيات من العوامل المساعدة لا أن يقف حجر عثرة أمام صـياغته لمعـايير الملائمة ومن المؤكد بل من الصعب على المرء أن يتحدث بشكل منطقي عـن الاسـتعمالات الجديرة بالقبول وتلك التي يجب أن تستبعد ما لم يرى أن اللغة أداة أو مجموعـة مـن الأدوات تستعمل في أداء عدد من الأعمال بكفاءة قد تقل أو تكثر . [1]

وهذا يؤكد طبيعة اللغة التي تنظر إلى اللغة من زاوية المتكلم لا من زاوية الباحث ، كما هو عند العرب حيث فكروا في اللغة تفكيراً معيارياً ليبينوا موقف المتكلم من الاسـتعمال لا أن يفكروا في اللغة تفكيراً وصفياً .

ويقول تمام حسان (والحق أن العنصر الإجتماعي لا يمكن تجاهله في اللغـة مـا دمنـا نعترف بوجود أسلوب خاص لكل متكلم ، وبجواز الارتجال في اللغة ، و الاحتجاج بأقوال الأفراد ، سواء اكانوا شعراء أم خطباء لأن الاعتراف بهذه الشخصية اعتراف آخر بالتطور [1] ومن أهم سمات المدرسة الوظيفية دراسة الجوانب الجمالية والأدبية في الاستعمال اللغوي بخلاف مدرسـة تشومسكي التي حصر تركيزها على الجوانب الشكلية المنطقية من اللغة على حـساب اعتبـارات أكثر إنسانية .

ويمكن القول أن مدرسة براغ شكّلت حلقة اتصال بين اللسانيات والبنيوية . ويقول زياد كبة :((علم غالباً ما يتوجه ممارسوه المعاصرون إلى اللسانيات كمثال يحتذى في المـنهج الـذي يتبعونه في النقد الأدبي ليفقهوا في كثير من الحالات المفاهيم اللغوية التي يتخذونها أمثلة لهم .[2]

اللسانيات من بين العلوم أما مدرسة براغ فلم تشاطرهم هذا الانحياز بالإضافة إلى أنهـا لم تعرف اللسانيات التزامنية والتعاقبية لأنها لم تهتم بالمنهجية بجانب أنها تهـتم بنظـام التسلـسل التاريخي ، تعزو أي تغيير لغوي إلى الوضع التزامني لها كما يتحدد به في الوقت نفسه.

---

[1] مدارس اللسانيات التسابق والتطور – زياد كبة – ص ١٠٩ .
[1] لأنها ركزت إهتمامه على العناصر اللغوية وأعتبرت الجانب اللغوي يفكك النص ويبين قيمته .
[2] المرجع السابق – ص ١١٥ .

يمكن القول أن لغوي مدرسة براغ استطاعوا التمييز بين معيارية اللغة وتنظيمها ، فأدخلوا تحت التنظيم القواعد التي يمكن وبناءً على اختلاف الموقف اللغوي للباحث والأساس المادي في البحث والمنهج أن تعد من أحسن الأحوال تشخيصاً لما يراه مؤلفها معياراً لغوياً .

ولا شك أن الوصفيين قد اعتبروا اللسانيات العامة مجموعة من أساليب الوصف وليست متصلة بالمعتقدات المتعلقة بطبيعة اللغة . [٣]

كما أن رؤية اللسانيات كأسلوب بدلاً من رؤيتها كنظرية يحرر اللسانيات من المواقف المشددة بشأن الخصائص الضرورية للغة ، واعتقد هؤلاء أن غاية التنويع في اللسانيات هي التعبير والإجراءات التي يمكن أن تطبق من أجل اشتقاق النحو الصحيح للغة ما من مادة لغوية ذات معلومات ملاحظة بطريقة آلية بحته ، بهذه الطريقة يتحصل على معالجة المعلومات الخام الملاحظة حول أي لغة وسبكها في نحو كامل لتلك اللغة دون تدخل في جانب اللغوي كإنسان .

ويقودنا الحديث هنا إلى القرن التاسع عشر وعلمائه الذين أتخذوا الظواهر اللغوية وفقاً للقوانين المفسرة للظواهر الطبيعية [١] فلجأ علماء اللغة لتفسير التغير اللغوي وهكذا أقامت مدرسة النحاة الشبان على أساس الاقتناع بأن التغيير الصوتي يتم دون تدخل إرادة الإنسان ، فانصرف البحث إلى مادة اللغة ، ولهذا فقد اقتصر البحث على ما يدرك حسياً أي الظواهر الموجودة فعلاً في نصوص قديمة أو لهجية وعلى هذا فقد كان البحث اللغوي في صورته الوصفية شبيهاً بالعلوم الطبيعية البايولوجيا في قصر الإهتمام على ما يدرك إدراكاً مباشراً ويتضح هذا الموقف في وصف علماء اللغة لأنفسهم بأنهم يبحثون اللغة كظاهرة طبيعية ، ولذا كان الهدف الأسمى في دراسة الظواهر اللغوية لقوانين مفسرة ، ولايكون التفسير آنذاك إلا تاريخياً .

وتجدر الإشارة إلى اللغويين القدامى لا سيما العرب ودأبوا على عد كل انحراف عن انظمة أو دلالات ألفاظها خطأ يجب أن يقاوم ، وحجتهم في ذلك هي أن المظاهر الجديدة تخالف القواعد والنصوص . وهدف الباحث في اللغة يختلف عن موقف المتكلم ، هدف المتكلم صحة الاستعمال ، وهدف الباحث الوصف عن طريق المنهج الصالح ، والمنهج الصالح يعترف بطبيعة اللغة ، باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، ولا بد لها والحالة هذه أن تدرس على نحو ما تدرس الظواهر الإجتماعية بالملاحظة والاستقراء ثم التقعيد .

---

[٣] المرجع السابق – ص ٧٢ .
[١] أصول البنيوية – مجلة الفكر – د. محمود فهمي حجازي المجلد الثاني العدد الأول – ص ١٥٨ .

فنظر الباحث إلى اللغة باعتبارها نظام رمزية ، لكل رمز منها طابعه ووظيفته ينظر المتكلم إلى اللغة باعتبارها مسلكاً اجتماعياً يجري في نماذج معينة من الأداء ، وأن المجتمع هو الذي يحدد هذه النماذج . [٢]

ومن المؤكد أن المرء يسعى لإيجاد الاستعمالات الجديرة بالقبول واستبعاد الاستعمالات الخاطئة ، ولأنه يرى اللغة أداة من الأدوات المستعملة بكفاءة . [٣]

النحو النظامي :

يعرف النحو في مدرسة لندن باسم (النحو النظامي) Syatem grammer والنظام هو مجموعة الاختيارات المانعه لبعضها البعض ، تمارس عملها في البنية اللغوية ، وأهم مميزات النحو النظامي في مدرسة لندن ، الاختيارات المختلفة التي يجريها المرء سواء أكانت تلك الإختيارات تتخذ بوعي أو بلا وعي .

أي الجمل المحددة التي ينطق بها في العدد غير المحدود من الجمل .

مقارنة المنهج النظامي بنحو تشومسكي :

النحو النظامي يعرف بمجموعة الجمل السليمة في اللغة من خلال إعطاء مجموعة من القواعد لإعادة كتابة رموز أخرى ، حيث رمزنا برمز محدد وطبقنا القواعد بشكل مطرد كانت النتيجة النهائية الجمل (الهدف) ومثل هذا النحو يمكّن من تعريف مجموعة من الجمل المختلفة لا شئ إلا لأن المرء يواجه اختيارات عند تطبيق القواعد .

أما نقاط الاختيار عند تشومسكي تتم في المكون الأساسي حيث يتوسع رمز عنصر ما وفق قوانين كبيرة متموجة لكي يصبح مكتوباً بالرموز الجديدة ، البديلة ، يمكن استخدام الأقواس العادية لبيان إن كان بإمكان عنصر ما أن يقع في الصفة الناتجة عن إعادة كتابة رمز العنصر وتظهر اختيارات أخرى عند تطبيق التحويلات فبعض التحويلات اختيارية وبعضها الآخر يطبق بالتبادل كما تحتوي بعض تعريفات النظرية التحويلية على ترتيبات بديلة لتطبيق التحويلات مما يؤدي إلى تغيير طبيعة النتيجة النهائية التي تعتمد على الترتيب المتّبع ، وغالباً ما نلاحظ أن اختياراً معينةً في تطبيق القواعد التحويلية ، لا يتحقق إلا بتبنّي خيارات أخرى في المكون الأساسي لكن نحو تشومسكي ، لا يبذل أي جهد لإيضاح ، مثل هذا الاعتماد المتبادل بين الخيارات ، فهو لا يقع ضمن نطاق أهدافه أبداً .

---

[٢] اللغة بين المعيارية والوصفية – تمام حسان – ص ٢٢ .
[٣] المعرفة اللغوية – محمد فتيح – ص ٥٩ .

أما النحو النظامي فإن المكون المركزي هو جدول يضم كامل الاختيارات المتوفرة في بناء الجملة مع تحديد للعلاقات بين الاختيارات وهذا يعني أنه لا يمكن لنظام معين من البدائل أن يمارس نشاطه أي إذا تم انتقاء أواختيار معين في نظام محدد آخر ، وهكذا تعطي (النظم) وجميع البدائل أسماء معينة ضمن كل نظام ، ويعتبر من البديهي أن لعناصر الاختيار هـــذه عناصر دلالية ملازمة . ولن تكون العناصر الدلالية الملازمة هذه في العادة ، عناصـر دلاليـة خاصـة بالمعنى الاخباري ، إذ أنها تحدد أساساً باختبار المفردات لا باختبار البنية النحوية .

ويقول التحويليون أن من نظم الاختيار التي تعمل في الجملة الإنجليزية نظاماً يـسمى (بالتعدي) يساعد في الاختيار بين الجملة المكثفة وهي الجملة الدالة على البنية كمـا فـي قولنـا (تبدوسعيدة) الموسعه فهي الدالة على العمل فالجملة الوضعية مثل (السجناء مشوا) وهي الجملـة التي لا تدل على عمل موجه وأفعاله هي التي تدل على عمل موجه ، فإذا وقع الاختيـار علـى الفاعل وحده تعارض بين الجملة العاملة وفيها يكون المسند إليه هو الفاعل كمـا فـي (غـسلت الثياب) والمستقبلة وفيها يكون المسند إليه هدفاً كما في (الثياب غسلت) .

ويعد كتاب (أساليب اللسانيات البنيوية) (١٩٥١م) لهاريس أكثر الكتب تعبيراً عن منهج إجراءات الاكتشاف فهو يطرح قواعد مفصلة حول الانتقال من مجموعة عبارات كلامية مدونة برموز صوتية إلى التحليل الفونيمي الصوتي الوظيفي والتحليل الصرفي ثـم تـسجيل القوالـب النحوية .

واعترض تشومسكي على منهج إجراءات الاكتشاف في كتاب (نحو اللغة) وما تعنـي صياغة مجموعة من التعاميم أو نظريات تصف ملاحظة المرء حول اللغة بل يجب معرفة الإلهام المبدع لهذا النظرية ومعرفة نمط الجهاز العقلي الناتج لهذه الطبيعة ، وأن المهمة الرئيسية للنظرية اللغوية كما يعتمد تشومسكي يتمثل في العثور على عمل ذلك الجهاز . أن إتباع المعرفة الإنسانية يعتبر قدرة الإنسان على تفسير ملاحظاته حول لغته أكثر من غيره بالإبداع وليس بالقوانين وتعلم اللغة يرجع إلى مقدرتنا على التخيل ، فالطفل يمتلك القدرة على التعليم وانشتاين يمتلك أيضاً هذه القدرة ولكن بمرتبة أعلى .

فتعلم اللغة يتم باتباع الخطوط العقلية المبرمجة في أدمغتنا منـذ الـولادة وهـي أشـبه بالقضبان التي تسير عليها الحافلات .

ويقول زياد (ومثل هذه الفكرة تنطوي على نتيجة مفادها أن قدرتنا على تعلم لغتنا الأم لا بد من أن تكون منفصلة تماماً عن قدرتنا على إتقان المهارات والأفكار الأخرى) . [1]

وهذه بدايات تشومسكي ، لإخراج البنيوية كقضية فلسفة لسانية ونلاحظ أن هذا الـرأي أيضاً يعتبر اللغة (مادة) وليس نشاط إنساني .

يمثل اللسانيون الوصفيون التعامل مع اللسانيات بإحدى طريقين :-

فقد أتخذ فريق منهم منحي مفاده أي التحليل اللغوي ليس اكتشاف البنية التـي وجـدت بصورة مستقلة عن أبحاث اللسانين ، بل هي مسألة اختراع البنية التي يفرضها اللغوي على اللغة التي يدرسها ويرى ذلك الفريق أن اللسانيات معنية بالشعوذة بدلاً من الحقيقة الأبدية . [2] وتجـدر الإشارة إلى اللغويين القدامى ولا سيما العرب .

أما في النحو التحويلي القياسي ترتبط الفروق النحوية بين هذه الجمل بكيفية إعادة كتابة التركيب الفعلي وبعض الرموز المعنية ، كما ترتبط بقرارنا حول تطبيق تحويلية المبنى للمجهول ، ليس في النحو التحويلي ما يشير إلى أن اختيار تطبيق تحويله المبني للمجهول نشأ فقـط عـن انتقادات معينة عند إعادة كتابة التركيب الفعلي وليس هناك أسماء خاصة للبني البديلة التي تنـشأ عن الاختيارات المتنوعة حتى إذا استخدمنا عبارة خاصة لوصف بنية نحوية معينة هذه ليـست سوى عبارة موروثة عن مفردات فقه اللغة التقليدي . [1]

تهتم مدرسة لندن بتحديد مجال الاختيارات المتاحة أمام المتكلم أكثر من تحديد كيفية تحقيق مجموعه الاختيارات المعنية من المجموعة المتاحة كسلسلة من الكلمات ، فوجود علاقة منتظمة بين الأشكال النحوية الخارجية المجموعة فى أنماط الجملة تتعلق بالقرار بأنها تؤلف بدائل تخص نظاماً واحداً ويحدد النظم من خلال حدس المحلل ليس العلاقة الدلالية بين أنماط الجمل وليس هناك قواعد تحدد الاختيارات النحوية .

ولكن النظم والخيارات وعلاقاتها المتبادلة تصبح محددة و واضحة وهـذا يوضـح أن لسانيو مدرسة لندن لم يصدروا إلى الاهتمام للسؤال عن أنواع القـول المـستعملة فـي تحقيـق الاختيارات النظامية لعدم إهتمامهم بموضوع الكليات اللغوية .

أما تشومسكي وأتباعه النحو عندهم مكون أساسي يحدد مجموعة مـن البنـي العميقـة بالإضافة إلى عدد من القواعد التحويلية التي تحول البني العميقة إلى سطحية ويهتم التشومسكيون

---

[1] مدارس اللسانيات التسابق والتطور – محمد زياد – ص ٧٥ .
[2] المرجع السابق – ص ٦٨ .
[1] المرجع سابق – ص ٢٤٤ .

بتفاصيل القواعد التحويلية أكبر من تفاصيل الأساس ويعتبر المكون الأساسي نتيجة منطقية فجـل إهتمامهم في القواعد التي تحول البني التحتية إلى شكل قابل للفظ . [٢]

أما النحو النظامي يحدد مجموعة من الجمل السليمة في اللغة ويهدف إلى إيجاد تصنيف الجمل ، أي وسيلة لتصنيف جمل معينة بطريقة وصفية ، فالتشومسكيون يسمون الجمل المستعملة بالجمل السليمة التركيب وإذا سئل أي الجمل أجاب أن النظرية التوليدية التحويليلة تصنّف اللغات وليس الجمل .

أما النحو النظامي يقدم مجموعة من المصطلحات الوصفية التي تصنف الجمل بـصورة مفصلة وتبين كيف أنها تشبه الجمل الأخرى وتختلف عنها .

ويدعي النحويون النظاميون أن نظريتهم تلبى حاجات المهتمين باللغـة علـى اخـتلاف مذاهبهم أكثر مما يفعل المنهج التوليدي ، وبالمقارنة بالنسبة لأهمية النظـرتين بالنـسبة للعلـوم الأخرى أن النظرية التوليدية تستحوذ على إهتمام علماء النفس ، أن اللسانيات النظاميـة موضـع إهتمام علماء الإجتماع فعالم النفس يريد نظرية تصف اللغات لكي يرى ما هي أنواع اللغات التي يستطيع الإنسان استعمالها أما من ناحية الإجتماع فإن ا لاختيارات الفرديـة المتاحـة هـي مـن المعطيات الثابتة ويسعى عالم الإجتماع إلى امتلاك القدرة على وصف الإختيارات المعنية التـي تظهر في فئات معينة من مجموع الاختيارات التي تنتجها لغتهم ، يقول محمد زياد (اعتـرف أن هذا التمييز بين علم النفس وعلم الإجتماع ، مبسط جداً ، لكنه دقيق بصورة عامة ، بالإضافة إلى أن النحو النظامي يعتبر أكثر جدوى من مجالات النقد الادبي وتعليم اللغة) .

فإذا أردنا تعلم مصطلحات لغة معينة ، ووصف جملة مستغلة في لغة ما لا بد من وجود نظرية تمكننا من وصف الجملة بدلاً من أن تكون مصممة لوصف اللغات ككل .

فالعلاقات بين النظام الصوتي علاقات غير مباشرة كذلك الإمكانيات النحويـة تـستغل بطريقة مختلفة بدلاً من أن تستعمل كل منها لأداء وظيفة دلالية واحدة فقط .

فالمجموعة الفعلية الإنجليزية عندها الجامد والمتصرف ليس هناك عنصر معين يـلازم الحالات الجامدة ، مثل (بعد أن أنهى الدورة) (اجتاز الامتحان) فالمثال الأول يؤدي وظيفة ظرفية والثاني وظيفة الاسم (اجتاز الامتحان) ولست اجد معناً واحداً تتعادل فيه هذه الوظائف المختلفة .

فالشكل النحوي ثابت فقط بالمقارنة مع شكل المجموعات الفعلية المعربة . فالتمييز بـين (تظن أنها رائعة) (ويظنها رائعة) يمثل نظاماً معيناً ولا يبدو أي خلاف في المعنى ويطلق النظام

---

[٢] مدارس اللسانيات التسابق والتطور – محمد زياد – ص ٢٤٥ .

برابطة أو بدون رابطة . النقد الذي وجه للنظرية أن تكون هناك تسميات بديلة للتمييز بين الفارق الضئيل في المعنى وإن لم يكن هناك أي اختلاف دلالي . أما المشكلات التـي تعتـرض الـنمط الخاص بالنظرية النظامية عند ما يكل هاليدي (١٩٦١م) والتي تعتبر من أشهر النظريات النظامية ، وفكرة الرتبة وهي مقياس حجم الوحدة النحوية ، فالمورفيم أخفض الرتب والجملة أعلاها .

لا بد لأي نظام نحوي من العمل وفق رتبة معينة ، وهناك عدد من الرتب المتوسطة في أيه لغة من اللغات وتمثل الجمل في النحو التوليدي بأشجار منظمة ، يحتوي كل غصن على العدد نفسه من العقد المتوسطة بين الجذر والأوراق ، أما نحو تشومسكي تخضع المورفيمات مباشـرة الى الجذر الممثل بالعقدة (ج) أما المورفيمات الأخرى فلا يمكن الوصول اليها إلا عـن طريـق سلسلة طويلة من العقد والأغصان المتوسطة التي تمثل تطبيق قواعد كثيرة ، أما هاليدي بفكرتـه الرتبة يقترح كلية من البنية النحوية لم تكن معروفة ويقول الغربيون أن الفكرة كاذبة في التجريب . ويعلّق زياد كبة يبدو أنه محق في ذاك فاللغات ليست منتظمة بتلـك الـصورة علـى وجـه الخصوص . [1]

أما الحساسية فهي مقياس للدقة النسبية للمقولات النحوية ، وهكذا فإن كلمة (سيارة) تتميز عن كلمة (لامعة) في مستوى نحوي واضح جداً ، كما أن هناك سياقات فعلية قليلة يمكن فيها لإحدى هاتين الكلمتين أن تحل محل الأخرى من جملة سليمة التركيب .

ومن ناحية أخرى تتميز كلمة (سيدة) (امرة) في مستوى أكثر حساسية إذ يمكن استعمال كلتيهما بالتبادل من الوجهة النحوية لكن كلمة (امرة) لا تجمع بإضافة (أت) .

فعدم الحساسية كالعجز عن التمييز بين (سيدة) (وامراة) كلاهما خطأ ، فالتمييز بين ولد وبنت لا يزيد حساسية النحو ولكنه يخلط بين ما هو أجوف وما هو خطأ نحوي .

لأداء عبارة (الولد حامل) تنتمي الي اللغة ولكن لا يمكن التعبير عنها منهجياً . وبالتالي لا يمكن التعبير عنه بطريقة سليمة نحو ياً أي ماليس بالنحو هو الدلالة ، وهنا تعجـز اللـسانيات التي ترى النحو لسانيات شكلية ، فالنحو كامل الحساسية يميز بين جميع الكلمات التي لها سـلوك خاص بها مهما كان هذا السلوك . [1]

وهنا تكمن صعوبة النحو النظامي فى (الحدس) فمسألة التراكيب التي تعبر عن حـالات مختلفة لعنصر دلالي واحد في نظام واحد ، يكون القرار هنا قراراً حدسياً ، إذ لا يمكن للنحو أن يرقى للعلم . إذ حاول النحو النظامي تحقيق قواعد الخيارات فإن القواعد النهائيـة ربمـا تحـدد

---

[1] المرجع السابق – ص ٢٤٧ – ٢٤٨ .

[1] المرجع السابق – ص ٢٥١ .

التحليل إلى نظام بصورة مستغلة عن الحدس حول المعنى . وإذا كان الحدس يشكل عقبـة أمـام النظرية النظامية ، فإن تشومسكي ممن ينقدون أنفسهم بهذا الهجوم ؟ .

من ذلك أصبحت مدرسة لندن لها مكانة علمية راقية في الربط العلمي اللساني في الوقت الذي أصبح علم اللسانيات حكراً على المفكرين البرهانيين الذين يقومون الأفكار في إطار البني ، إطار الحقيقة المجردة ، فالفريق الأمريكي أصبح طاعناً على العمل اللساني على حد تعبير كبـة فالفكرة مهما كانت غير مختمرة ، تؤخذ محمل الجد إن كانـت صـادرة مـن معهـد مـاثيوس للتكنولوجيا حتى ولو كانت مسبوقة بأعمال قيمه اتخذت في الأماكن الخاطئة فعلى الرغم مـن أن كل هذه الأعمال لا ترفض ، لكنها تؤول إلى الإهمال . وفي لندن وكذلك فـي بقيـة الجامعـات البريطانية وجامعات دول الكمونويلث هناك علماء ما فتئوا يفهمون ضمن إطار المـنهج الفيرثـي ولكن عددهم ضئيل الآن وأن منشوراتهم تضاءلت على الأقل أمام الجيل الجديد المفتـون بتـأثير تشومسكي ولسوء الحظ يبدو أن المنطق السليم الذي تستطيع مدرسة لندن أن تقدم منه كـل مـا يمكن أن تقدمه منهج فيرث . [٢]

وبعد قرن من التجاهل أو الذم الشامل ظهرت من جديد أفكار تشبه أفكار العقلانين وذلك فى منتصف الخمسينات من هذا القرن وبدأت المحاولات الجادة للدرس النحوي القائم على أساس من تصور النحو على أنه يفسر القدرة الكامنة في عقل المتكلم القومي ، وليس مجرد وصف لمادة لغوية يعجز كثيراً عن الكشف عن الظواهر المتعددة لهذه القدرة من إدراك الترادف بين الجمـل والغموض الدلالي التركيبي وما إلى ذلك وهذه المحاولة ضمنها تشومسكي في كتابه المطبوع عام (١٩٥٧م) Syatactic Stracture والذي تدرج الى النظرية التوليدية التحويلية . [١]

والنحو التوليدي للغة (ما) يعني توضيحي وهي نظرية تهتم بـشكل ومعنـى الـصور التعبيرية ومن أكبر المداخل لهذه النظرية علم النفس الفردي الذي يهتم بوجوده المعنى والـصيغة التي تحددها ملكة اللغة وهي ما يفهم على أنه وحدة من وحدات العقل الإنساني وطبيعة هذه الملكة هي مادة بحث النظرية العامة للبينة اللغوية التي تهدف إلى اكتشاف إطار المبـادئ والعناصـر المشتركة بين ما يمكن تحققه من اللغات الإنسانية . وغالباً ما تسمى هذه النظرية (النحو الكلـي) Universal Language ويمكن أن ننظر إلى النحو الكلي على أنه تحديد لسمات ملكة اللغـة المحـددة

---

[٢] يعد فيرث هو المؤسس الحقيقي للسانيات النظامية وهي نظرية نظامية حديثة تقدم تصورات نظرية وتطبيقية تعالج اللغـى بإعتبارهـا نظاماً صوتياً وصرفياً ونحوياً شاعت أفكار هذه المرحلة في بريطانية وأمريكى – انظر اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج – د. سمير شريف – ص ٢٠١ – ٢٠٣ .

[١] أنظر كتاب المعرفة اللغوية ترجمة محمد فتيح – ص ٥٢ – ٥٣ .

جينياً كما يمكن للمرء أن ينظر إلى هذه الملكة على أنها أداة اكتساب اللغة أي مكون فطري من مكونات العقل الإنساني .

Alanguge Aquistion Device يؤدي إلى إيجاد لغة خاصة عبر التفاعل مع التجارب الخاصة فهي أداة تحول التجربة إلى نظام مكتسب من المعرفة أي إلى معرفة لغة أخرى .

ومثلت دراسة النحو التوليدي تحولاً في الدراسات اللغوية تحول من السلوك إلى حالات الدماغ Mind Brain وهنا انتقل البحث اللغوي إلى معرفة طبيعة اللغة وأصولها واستخداماتها وهذا ما أجمله تشومسكي في كتابه المعرفة للغوية .[٢]

ونلاحظ أن فكرة تشومسكي عن النحو العالمي ترجع إلى المعرفة الفطرية أي بما أن العقل البشري واحد ، إذن كل اللغات الصادرة من العقل واحدة يرجع ذلك الى تأثر تشومسكي ولا سيما دي سوسير الذي أشار إلى أن طبيعة نظام اللغة وهو الموضوع الحقيقي لدراسة اللغة لأنه يشتمل أنماط منتظمة ، ويعرف هذا النظام المقصود بالتحتي ، والتفتت أنظار علماء اللغة الوصفيين لاكتشاف هذه البنية الأفقية ووصفها . ولما كان هذا النظام موحداً في نظر سابير ودي سوسير سمي (باللسان) والمقصود به الأنظمة والأنماط التي تعود إليها منطوقات اللغة ، وهو نظام الإشارات والمواضعات التي يشترك فيها جميع أفراد المجتمع اللغوي المعين ، أما الكلام فهو كلام الفرد أوالمنطوق الفعلي نفسه .[١]

ولما كان العقل البشري واحداً دعت المدارس اللغوية إلى منهج لغوي واحد وتبنت المنهج العقلي لدراسة اللغة ، وأدى ذلك المنهج إلى ظهور مدارس بنيوية وصفية تدرس تراكيب اللغات دون اعتبار للمعنى ، بل أن أحدهم وهو بلومفيلد من الذين أسهموا في تطوير المدرسة اللغوية البنيوية أقر بأن إعتبارا المعاني أضعف نقطة في دراسة اللغات .

وبالتالي حاولت المدارس الألسنية التي أتت بعد دي سوسير استبعاد المعنى من تحليلاتهم اللغوية .

وسعت هذه المدرسة إلى تحليل الجمل على أساس أنها مؤلفة من طبقات من مكونات الجملة ، بعضها أكبر من بعض ، إلى أن يتم تحليلها إلى عناصرها الأولية من الكلمات والمورفيمات مثل الجمل الآتية يكتب المعلمون النشيطون مقالةً ، على النحو الآتي :- (١)

الجملة

---

[٢] اللغة وعلم اللغة ترجمة مصطفى التوني – ص ٦٨ – ٧٤ .

[١] مناهج البحث اللغوي – د. رمضان عبد التواب – ص ١٨٦ .اللغة وعلم اللغة تأليف وليم جونز ترجمة مصطفى التوني – ص ٧٢ .

يكتب	المعلمون	النشيطون	مقالتن
ي + كتب	المعلم + و ن	النشيط + و ن	مقالة + ن
كتب ال +	المعلم + ون	ال + نشيط + و ن	مقالة
كتب	معلم	نشيط	مقالة
كتب	علم	نشط	قال

وذلك يرجع إلى إقرارهم جميعاً بما قاله سوسير اللغة شكل وليس مادة فانصب بحـثهم على الجانب الشكلي وهو جانب تركيبي يحال الجمل إلى عناصرها الأساسية دون مراعاة لجانب المعنى وما يحيط به من مقام وسياق .

ودراسة تشومسكي توضح كيف يمكن للنحو أن يدخل في نطـاق الوصـف اللغـوي العلمي ، وحاول إيجاد وسيلة شكلية تولد مجموعة السلاسل الصرفية والنحوية مثـل مـا تولـد المعادلة س^{٢} + ع^{٢} = ٢٥ مجموعة نقاط الدائرة ، وادخل تشومسكي كلمـة (تولـد) الرياضـية فأصبح منهجه النحو التوليدي والنحو البنيوي ، وصف بحالة لسان معـين مثـل (نحـو لعبـة الشطرنج) حيث يتعلق الأمر بموضوع مركب ونسق يوظّف قيم متعايشة للنحو يـدرس اللـسان بصفته نسق والنحو عند دي سوسير تزامني لذلك لا وجود لنحو تاريخي ، كما أن النحـو يجمـع بين الصرف والتركيب ، أما علم المعاجم فيعتبر خارج النحو .

والتركيب يتوقف على الوظائف ، والصرف يتناول الأشكال فالتركيب والصرف يمثلان التأليف بين الأشكال والتجريدات المنطقية فالأشكال والوظائف متعلقـة بعـضها بـبعض فلـيس للصرف موضوع واقعي ومستقل بحيث لا يمكنه أن يشكل مجالاً معرفياً متميزاً عن التركيب وأن كل ما يكون حالة لسان ينبغي أن يتعلق بنظرية المركبات ونظرية الترابطات .

فالإعراب شكل من أشكال الترابط الموجودة في ذهن الذوات المتكلّمـة وينـدرج فـي التركيب أي نظرية تجميع الكلمات وأن كل قضية نحوية يجب أن تبـين مـن زاويـة التـرابط

والتركيب ، يجب إعادة كل قضية من زاوية نظامها المركبي والترابطي وعلى هذا النحو يجب تنسيق مادة النحو كلها على مستوى المحورين الطبيعيين ، وهذا التقسيم وحده هو الذي يبين ما الذي ينبغي تفسيره في الإطارات المستعملة ، وحتى الكيانات التجريدية توضح المسائل النحوية على المستويين السابقين .

ويمكن القول أن مجموع التصنيفات الواعية التي يقوم بها النحوي الذي يدرس لغة معينة دون استدعاء التاريخ ، يجب أن تتطابق مع مجموعة الترابطات الواعية أو غير الواعية الموظفة للكلام . وهذه التصنيفات تثبت في أذهاننا فصائل الكلمات والوحدات الاستبدالية الإعرابية والعناصر المكونة الجذور واللواحق والعلاقات الإعرابية .

فالترابطات في النحو تحدث مثل الترابطات من الكلمات المشتركة في المعنى (علم – تعليم) أن أصوات ثلاثة علامات إعرابية لا تتماثل فيما بينها من حيث الترابط (فتح – ضم – كسر) إلا أنها ترتبط مع ذلك بقيمة مشتركة تملي استعمالاً متماثلاً ، هذا يحقق الترابط المنطقي أو الذهني ، فتأخذ الإضافة وحروف الجر موقعها في اللسان بواسطة طرق مماثلة تربط العلامات الإعرابية فيما بينها في الذهن والكشف عن الحالات الإعرابية والعلامة الإعرابية كمفهومين عامين . [1]

يقوم التحليل النبيوي التوليدي على تقسيم الجملة إلى أجزاء أصغر منها يمكن تقسيم هذه الأجزاء إلى مكوناتها الدنيا ، ونجد لهذا التحليل نظيراً أو في منه في النحو العربي الا وهو إعراب النحويين للكلمات والجمل ، وأنما كان الإعراب أوفي منه لأنه لا يكتفي بتقسيم الجملة إلى مكوناتها بل يزيد على ذلك ببيان نوع الكلمة اسماً كانت أو فعلاً وإذا كانت فعلاً فهل هي ماضي أم مضارع أم أمر ؟ . ثم يذكر العلاقة بين الكميتين اللتين تؤديان وظيفة الإضافة ويذكر العامل ومعموله ، وحركة الدال على موقع الكلمة في الجملة . [1]

ويمكننا أن نوجز مراحل النظرية التوليدية التحويلية في المراحل الآتية :- [2]

(أ) منهج المباني التركيبية :

ويقوم على ثلاثة مكونات للتراكيب اللغوية هي :-

(١) المكون التوليدي	(٢) والتحويلي	(٣) الصوتي الصرفي .

(ب) المنهج المعياري :

---

[1] بادي اللسانيات – أحمد محمد قدور – طبعة (١٩٩٩م) – ص ١٢٠ – ١٢٣ .
[1] اللسانيات المجال والوظيفى والمنهج – د. سمير شريف – ص ١٧٠ .
[2] المرجع السابق – ص ٨٢ – ٨٨ .

ويقوم على المستوى الصوتي الذي يفسر البنية السطحية والمستوى الدلالي الذي يفـسر البنية العميقة ولاحظ تشومسكي أن البنية السطحية لا تبرز الدلالة المعجمية فوضع فرضيات :-

(١) الفرضية المعجمية القائمة على اعتبار معاني المفردات الأصلية .

(٢) الفرضية التفسيرية القائمة على اعتبار رؤية المتكلم مـن تركيز مقصد وإهتمام أو نقيض ذلك .

(٣) المنهج النحوي الدلالي يركز على دلالات التراكيب النحوية كما لمبدأ الفاعل والمفعول بـه ، والفضلة .

(٤) المنهج الدلالي التصنيفي تصنيف دلالات الفاظ بإعتبارها يميزها من حركة وسكون ، وشعور وظرف وسبب ونتيجة .

(٥) منهج الربط العاملي : ويتكون من عدة فرضيات أو تصورات :-

(ا) فرضية زمرة السينات :

وهي تمثّل وحدات معجمية ويمكن أن يولد من هذه الزمرة جُمل أخرى بمقتضى قواعد خاصة مثل (الرجلان مكرمان أخيهما ، الرجلان مكرمان لأخيهما) .

(ب) فرضية الأدوار المحورية :

تحديد الأدوار المحورية في الجملة المواقع ذات الدلالة المركزية في الجملة وتشمل المركبات الاسمية والفعلية التي يمكن أن يكون لكل واحدة منها عُمدة .

(ج) فرضية الحالة :

تعالج الجُمل التي تشبه الجُمل التي فيها مصادر مؤولة في العربية وتعمل على استقراء التغييرات واستباط القواعد التي تحكم تحول المركب الاسمي والفعلي إلى مصادر مؤولة .

(د) فرضية الربط :

تقوم على دراسة أنماط الإحالة والعود الضميري ويمكن تعريف الربط بأن العنصر (أ) يربط العنصر (ب) إذا كان الأول يتحكم باعتبار المكونات بالثاني .

(هـ) فرضية العامل :

تدرس هذه الفرضية عناصر السيطرة والتحكم التي تستخدمها اللغة في بنـاء التراكيـب والجُمل ويمكنها أن تستوعب جوانب نظرية العامل في النحو العربي .

(و) منهج الثنائيات :

يُعد منهج الثنائيات عمود النظرية التوليدية التحويلية ويقوم هذا التصور على افتـراض مؤداه أن اللغة مجموعة كبيرة من النظائر الصغرى المتقابلة ، أي وجود أحـدهما بحاجـة إلـى

وجـود الأخرى وهذا نتيجة حتمية كما نظر سوسير إلى أن اللغة ذات بعدين أولهما قائم على أداء منطوق مدرك بالحس ويظهر تحققه منطوقاً مسموعاً ، والأدوات القصدية ، هذا البُعد منطقـي لا نطقي ويظهر تحققه في بناء منظم ومنسق ويظهر تحققه في عود الضمير على متقدم أو متأخر ، وفي ربط الكلمات والجمل التي تقرر أداء المعنى على نحو مفهوم ومما يتصل بالبعـد المنطقـي لبناء التراكيب والجمل أو ما عرف بمفهوم البنية العميقة والبنية السطحية فـي النحـو التوليـدي التحويلي .

مفهوم البنية العميقة والبنية السطحية :

ولم تتعامل العرب بظاهر الكلام ولكنها تستنبط منه دلالات بلاغية كقواعد الخروج عن النحو وقواعد المجاز ، والتقديم والتأخير والاستعارة قال ابن الإعرابي : ((سأل الحجاج رجلاً قدم من الحجاز عن المطر ، فقال تتابعت علينا الاسمية وحتى منعـت الـشفار وتظالمـت المعـزى وأحتلبت الدرة بالحرة)) فهم الكلام لا يتم بالظاهر إلا بعد معرفة ذهنية الكلمات وقصورها وهـذا سر من أسرار العربية وقال رجل دخل على الحجاج فسأله عن المطر فقال :((ما أصـابني مـن مطر ولكنني سمعت رائداً يقول هلم أخويكم إلى محلةٍ تطفأ فيها النيران وتتنافس فيها المعـزى ، وتتعب بها الحرة حتى تدل الدرة)) .

وقيل لرؤية ما وراءك قال (الثرى يابس ، والمرعى عابس) ، وقالت أمراة من الإعراب أصبحنا ما ترقد لنا فرس ولا ينام لنا حرس .

ومن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر إلى المجاز أي من البنية السطحية إلـى البنيـة العميقة وكل دلالات الجاحظ البلاغية استنباطية بالدرس الحديث من السطحي إلى العميق .

وقال بعثت لقوم رائد بعد سنيتن تتابعت عليهم فلما رجع إليهم قالوا له مـا وراءك قـال رأيت بقلاً تبع بقلاً من الجمل البروك وشكت منه الشاه (وهم الرجل بأخيه) أمـا قـول (الجمـل البروك) فقال لما قام قائماً لم يتمكن منه لقصره ، وأما قوله (وشكت منه النساء) فأنه مأخوذ مـن الشكوة ، وجمع الشكوة شكاء والشكوة مسك السحلة ما دامت ترضع والشكاء أصغر من الوطـاب يقول لمن يكثر اللبن بعد فيمحض مافي الوطاب ، وقوله :((وهم الرجل بأخيه أي هم أن يـدعوه إلى منزله لم كان يصنعون في أيام الخصب ، وقـال غيره الخصب يدعو أي طلـب الطوائـل ، وغذو الجيران إلى أن ياكل القوي من ما هو أضعف منه .)) [1]

---

[1] البيان والتبين – الجاحظ – الجزء الثاني – ص ١٦١ – ١٦٢ .

المعنى المعجمي والمعنى النحوي

ينطلق أصحاب التحليل التجزيئي للمعنى من نظرية ترى أن معنى الكلمة هو مجموعة العناصر التكوينية أو المعنوية أو المكونات الدلالية . ولا شك أن إرجاع الكلمات إلى مكوناتها الأساسية ، وبعد إجراء التحويل من البني السطحية إلى البني العميقة ، يصبح اقصاء المعجم عن البنية العميقة في القواعد التوليدية والتحويلية وجعل انتاج جُمل غير صحيحة دلالياً وارداً أي ليس ما يمنع من صدور الجملة التالية :-

(شرب الحليب الطفل) ، [1] وقد استخدم التحليل إلى العناصر الأساسية للحكم على المفردات الداخلة في الترادف إثباتاً ونفياً .

وللتمييز بين تعدد المعنى والمشرك اللفظي ، وغير ذلك من العلاقات الدلالية مصطلح حديث يدل على العلاقات بين الكلمات منها نواح متعدد كالترادف و الاشتراك والتضاد ونحو ذلك .

---

[1] النظرية التوليدية التحويلية – د. ميشال ذكريا .

وقد تولد هذا المصطلح من دراسات الحقول الدلالية [٢] إذ تبين أن معنى الكلمة لا يتضح إلا من خلال علاقاته مع الكلمات الأخرى ، ضمن الحقل الذي تنتمي إليه . ويلاحظ أن اللغويين القدامى ولا سيما العرب تنبهوا على ما ينضوي تحت هذا المصطلح (العلاقات الدلالية) ولكن الدرس الحديث ينطلق من وجهة وصفية خالية من أي أثر معياري ، ويجعل هذه العلاقات في نسق واحد . [٣] وسعى إلى أن تكون نتائجه منطقية على كل اللغات فالمعنى في الدرس اللغوي الحديث يقصد به المعنى المعجمي الإجتماعي الوظيفي وهو وظيفة الجزء التحليلي في النظام أو في السياق .

والذي عناه النحويون بأن أول واجب يجب على المعرب إدراكه من هذه الأمور الثلاثة هو المعنى المعجمي الإجتماعي ، إذ بهما يمكن تحديد المعنى الوظيفي ، مما يبين ذلك قول ابن هشام بعدما صرح بأن أول واجب على المعرب أن يفهم معنى ما يعربه : لم ولهذا لا يجوز إعراب فواتح السور على القول بأنها من المتشابه الذي أستأثر ا تعالى بعلمه . [٤]

وبناء على ذلك استأثرت الدراسات اللغوية الحديثة دراسة النماذج الشكلية للغة المعبرة عن القدرات العقلية لمستعمل اللغة ، وهذه المهمة ممكنة في كل حالة لأن المتكلم يستعمل في نصه عدداً محدداً من التراكيب . وبدراسة هذه التراكيب المستعملة بالفعل يكون بالإمكان التوصل إلى مجموعة متناهية من الأحكام التي تصف السلوك اللغوي الصحيح للمتكلم ، والاستعمال المتكرر لهذه القواعد أو التحويلات المنبثقة منها هو الذي يمكّن المتكلم من إنتاج جُمل لا نهاية لها من الناحية المنطقية على الأقل .

وهذه القواعد نفسها هي التي تمكّن المتكلم من الحكم على الجُمل التي يسمعها أو يقرؤها فيرفض ما لا يتفق منها مع قواعد اللغة ، وهي التي تعينه على فهم الجُمل الجديدة التي سمعها أو قرأها لأول مرة ، وهي التي تساعده على فهم الجُمل الغامضة أو المزدوجة المعنى ، وغير ذلك من أمور ترتبط بالعمليات العقلية التي تمثّل اللغة .

ولقد إهتم الإتجاه التحويلي بإبراز العلاقة بين اللغة والعقل من جانبين آخرين :-

الأول :- ما يسمى بالمظاهر العالمية للغة ، ويتمثل هذا الجانب في الجهاز الفطري الكامن في الإنسان والذي يمكنه من اكتساب اللغة ، ويتمثل الجانب الثاني في فكرة البناء العميق ، فما دامت اللغة هي عمل العقل ، فمعنى ذلك أن هناك دائماً عوامل تكمن تحتها ، هذه العوامل هي

---

[٢] التحليل الدلالي إجراءاته ومناهجه – د. كريم حسام الدين – دراسة حول معجم البهزليين .

[٣] مبادئ اللسانيات – أحمد قدور – ص ٣٠٩ .

[٤] الجملة تركيبة طبيعتها ووظيفتها – إبراهيم عبادة – ص ١٥٣ .

عبارة عن الأشكال اللغوية المجردة المختزنة في الإنسان ومن المعروف أن هذه الأشكال اللغويـة يجمعها قوانين هدفها الربط بين الصوت والمعنى ، وقـد أعطيـت القواعـد التحويليـة مطلـق الصلاحيات لإجراء التعديلات المناسبة الكفيلة بتوصيل الجملة إلى بنائهـا الـسطحي ، والـشكل المنطوق والمكتوب . [1]

ونحن هنا أمام طرفي نقيض في نحونا النظامي الذي يجعل الإعراب معولاً على المعنى ، وقائداً له ، والنحو التحويلي الذي يجعل النحو عملية ميكانيكية تحقق عناصره بشكل آلي بينما تتبع القواعد الموضوعة ابتداء تلك العملية ، ولم تعط النظرية أي تبرير وظيفي لحدوث التحويلات في مراحل مختلفة من توليد الجمل ، لقد أخرجت من الاعتبار الظروف النفسية التي يكون فيها المتكلم ، كما أهملت إهمالاً تاماً مسألة السياق الذي يقع فيه الكلام واعتبرت اللغة مجرد نشاط عقلي .

ولا شك أن نحو اللغة العربية ولا سيما ظاهرة الإعراب تمثل الاتجاه الوظيفي الذي يقف على الطرف النقيض للإتجاه التحويلي .

وفي أوآخـر القرن التاسع عشر اتجه البحث اللغوي الحديث إلى الدراسـة الوظيفيـة ، وظهر الإتجاه الوظيفي ، وهو يعني بكيفية استخدام اللغة وبالقيمة الاتصالية للغة ، فاللغة في نظر هذا الإتجاه عبارة عن وسيلة اتصال يستخدمها أفراد المجتمع للتوصل إلى أهداف وغايات.

ونلاحظ أن هذا الإتجاه الوظيفي هو التيار اللغوي الوحيد الذي وقف ضد التيار العقلـي والذي يتمثل في نظرية تشومسكي العقلانية ، التي أهتمت بمجموعة العلاقات الرياضية المفـسرة لميكانيكية اللغة ، وليس وظيفية اللغة في البيئة اللغوية أو كيفية أدائها للمعاني .

والجانب الوظيفي للغة ليس شيئاً منفصلاً عن النظام اللغـوي نفـسه ، فتـداخل الأدوار والمشاركين في النظام النحوي ، في كل لغة ترتبط ارتباطاً مباشراً بالوظيفة التي تؤديها الجمـل في السياقات المختلفة . ويقول هاليدي : ((إذ كان بإمكاننا أن نغير مستوى الرسمية في كلامنا أو كتابتنا ، أو أن ننتقل بحرية من نمط سياقها في معنى معين إلى نمط آخر ... ، فلأن طبيعة اللغة على شاكله بحيث أن جميع هذه الوظائف مبنية بحسب طاقتها الاستيعابية الكلية .)) [1]

وبذلك فإن الإتجاه الوظيفي يربط بين النظام اللغوي ، وكيفية توظيف هذا النظـام لأداء المعاني ، ولا يتحقق ذلك إلا بدراسة مستويات التحليل اللغوي .

---

[1] التجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة – د. يحيى أحمد مجاد عالم الفكر المجاد العشرون – العدد الثالث – (١٩٨٩م) – ص ٧٠ .
[1] التجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة – د. يحيى أحمد مجاد عالم الفكر المجاد العشرون – العدد الثالث – (١٩٨٩م) – ص ٧٠ .

إن النمط الوظيفي الذي نجده عند مدرسة لندن يتعامل مع أربعة مستويات في التحليل اللغوي تمثل الأنظمة المختلفة في اللغة ، وقبل أن نتعرف على هذه المستويات يستحسن أن نتوقف عند مصطلحين مهمين أوردهما فيرث يمثلان الأساس الفكري لهذا التحليل يرى فيرث أن للغة محورين :-

محور النظام ويمثل العلاقات الرأسية ، أي ثوابت اللغة مثل التقسيم في النظام الصرفي ، ومحور البناء وتمثّله العلاقات الأفقية التي تتميز بالتجدد ، مثل الجمل المختلفة في اللغة ، وفي النظام اللغوي يستمد البناء القيم المختلفة اللازمة فالأبنية المختلفة في شكلها الصحيح هي انعكاس للنظام مما فيه من قواعد مؤسسة . ولا يمكن أن نفهم عنصراً بمنأى عن العنصر الآخر ، فالجانبان مرتبطان ببعضهما أشد ا لارتباط ، ويوضح فيرث هذا الارتباط بالترميز الشكلي لكيفية كتابه المصطلحين باللغة الإنجليزية على النحو الآتي :-

System

Structure

ويمكن دراسة النظام والبناء على عدد من المستويات : -

المستوى الصوتي :

لقد اعتبر فيرث أن النظام الصوتي للغة يتالف من عدة أنظمة ، وليس من نظام آحادي متمثل في سرد الوحدة الصوتية (الفونيمات) على أساس توزيعها الخطي . ولذلك فالتحليل ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار التشكيلات الصوتية التي تبرز في أماكن مختلفة من المقطع أثناء الاستعمال ، وكالمظاهر التي نصادفها في حالتي الوقف والوصل . [١]

فالمنهج النحوي العربي يراعى حالتي الوقف والوصل لتثبيت المعنى ، لذلك إهتم أصحاب القراءات القرآنية بمواضع الوقف في القرآن ، وحددوا مواضع الوقف فيها الوقف والوصل فيها مواضع يستوي فيها الوقف والوصل وقد أوردت كتب القراءات ذلك تفصيلاً ، كما اختصت بذلك كتب عرفت بكتب الوقف و الابتداء أشهرها (الوقف والابتداء) لأبي بكر بن الانباري (٣٢٨هـ) ، وقد ربطت هذه الكتب بين الوقف وتمام المعنى والجملة ، حتى إنه ليروي عن ابن الانباري قوله : ((من تمام معرفة القرآن معرفة الوقف والابتداء إذ لا يتأتي لأحد معرفة معاني القرآن إلا بمعرفة الفواصل .)) [٢]

---

[١] الإعراب ومعاني القرآن – د. محمد خضر – ص ٨٤ .
[٢] المرجع السابق – ص ١٦١ .

وقد وقف معربوا القرآن عند الاستئناف والعطف وأثرهما في توجيه الإعراب سـواء أكان كا بعد حرف العطف اسماً أم فعلاً ، فإذا اتصلت اللفظة بما قبلها فإنها تتصل بمعناه ، كمـا تأخذ حكمه الإعرابى بالعطف ، وإذا انقطعت عما قبلها دخلت جملة مستأنفة لها معناها المستغل ، ولها حكمها الإعرابي ومن هنا اختلف التوجيه الإعرابي لما بعـد حـرف العطـف ، وارتـبط الاستئناف برفع الفعل أيضاً ، لأنه يقع بالاستئناف موقع ا لاسم ، كما يتضح فـي تعـدد أوجـه إعراب الفصل كما ارتبط برفع الاسم وإن اختلف توجيهه سواء أجعل مبتدأ أم خبر لمبتدأ محذوف أم فاعلاً لعقل مقد ر . [٣]

وقد عرف معربوا القرآن أن الاستئناف مؤذن بتمام كلام قبله ، وبداية كـلام جديـد ، وصف أمثلة ذلك ما جاء في قول ا تعالى : (أم حَسبٍ الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) . (٤) تم الكلام ثم استئنف (سواءٌ محياهم ومماتهم) .

وقـ ـ ـد يجوز فـي الكلام اتصالاً معنوياً بما قبله أو بما بعده فـي مثل قول ا تعالى : (كذلك ليبين ا ُ لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة) .

يجوز أن يكون تتفكرون في الدينا والآخرة من صلة تنفكرون ولمعنى لعلكم تتفكرون في أمر الدنيا وأمر الآخرة ، ويجوز أن يكون في الدنيا والآخرة من صلة كذلك قال تعالى : (ليبـين ا لكم الآيات) أي يبين لكم الآيات من أمر الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون . [٥]

وقد يكون الكلام واجب الانقطاع عما قبله من مثل قوله تعالى (إن مثل عيسى عنـد ا كمثل آدم خلقه من تراب) .

حيث ينقطع الفعل خلقه عما قبله ولا يجوز نحوياً أن يكون في موضع النحو أو الحـال لآدم؛ لأنه معرفة وهي فعل ماضي خلقه من تراب ليست تتصل بآدم أن ما هو مبين قصة آدم ولا يجوز في الكلام أن نقول (مررت بزيد قام) ؛ لأن زيد معرفة لا تتصل به قام ولا يوصل بـه ولا يكون حالاً لأن الماضي لا يكون حالاً أتت فيها ولكنها تقول مثاك مثل زيد ، تريد أنك تشبهه بهـا ، ثم تخبر بقصة زيد فتقول (فعل كذا وكذا) وهذا النوع هو الذي سماه ابـن هـشام بعـد ذلـك الاستئناف النحوي . [١]

---

[٣] المرجع السابق .
[٤] سورة الجاسية – الآية ٢١ .
[٥] سورة آل عمران – الآية ٥٩ .
[١] مغني البيب – بن هشام – الجزء الثاني – ص ٣٧٨ .

وقوله تعالى : (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنودهُ بغياً وعدواً حتـى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به نبو إسرائيل وأنا من المسلمين).[2] قراءها بعضهم بالكسر على الاستئناف وتقرأ (أنه) على وقوع الإيمان عليها ، زعموا أن فرعون قالهـا حين الجمه الماء ، فعلى فتح الهمزة يكون (آمنت) عاملاً في المصدر المؤول من الجملة بعـده ، وعلى كسرها تكون جملة مستأنفة لها استغلالها عما قبلها .[3]

وهكذا وقف معربوا القرآن عند ا لاستناف والعطف وأثرها في توجيه الإعراب سواء أكان ما بعد حرف العطف اسماً أم فعلاً ، فإذا اتصلت اللفظة بما قبلها فإنها تتصل بمعناه ، كما تأخذ حكمة الإعرابي بالعطف وإذا انقطعت عما قبلها دخلت جملة مستأنفة ، لها معناها المستغل ولها حكمها العرابي المستغل ، ومن هنا اختلف التوجيه الإعرابي لما وُجد حرف االعطف . ويظهر أهمية ارتباط المعنى بالتحليل النحوي في تعدد أوجه الإعراب ، وفهل يبتغى التعدد الإعرابي تعدد دلالي ، أم أن تغيير العلاقة أو الموضع لا انعكاس له على المعنى ؟ .

لقد تعددت أوجه إعراب الأسماء والأفعال ، وارتبط ذلك بالمعنى ، في الاسماء تعددت أوجه الإعراب مع اتحاد العلامة في الرفع الذي ارتبط التعـدد فيـه ببنيـة العلامـة ، وبتقـدير المحزوف وبالوقف والابتداء . تعددت أوجه الرفع للفظة الواحدة ، سواء أكان ذلك فـي ظهـور علامة الرفع أو في غيابها ، ولعل أشهر الأمثلة إعرابهم لقوله تعالى : (آلم ذلك الكتاب لا ريـب فيه هدى للمتقين) حيث ارتبط تعدد أوجه الرفع بغياب العلامة الإعربية (ذلك – هـدى) وبتقـدير محزوف ، وبالوقف والابتداء ، وقد أجاز الفراء رفع (هدىُ) من ثلاثة أوجه :-

(١) الرفع على الخبر وتكون (ذلك) مبتدأ و (الكتاب) نعت له . وجملة (لا ريب فيه) تكون حينئذ اعتراضية أو حالية .

(٢) أن يكون تابعاً لموضوع ولا ريب فيه وهي جملة في موضع خبر المبتدأ (ذلك) .

(٣) الرفع على الاستئناف ويكون (هدى) قـد جاءت بعد تمام الجملة مـن المبتدأ والخبر قبلها .[1]

وفي ما تقدم يمكننا أن نقول أن معربي القرآن لم يشيروا إلى اختلاف دلالـي لتوجيـه الرفع في الآيات السابقة . ولم نجد اختلاف المعنى ونلاحظ كذلك أن في العربية عدد محدود مـن علامات الإعراب يتوزع على الوظائف النحوية المختلفة ، وبطبيعة الحال لا بد أن تشترك أكثـر

---

[2] سورلاة يونس – الآية ٩ .
[3] المرجع السابق .
[1] مغني البيب – بن هشام – الجزء الثاني – ص ٣٧٨ .

من وظيفة نحوية في علامة واحدة ، فكان ذلك سبباً من أسباب تعدد أوجه الإعراب مع اتحاد العلامة . وقد يأتي تعدد الإعراب نتيجة للتوسع حيث يجوز للظرف المتصرف أن يعرب نصاً على الظرفية أو بالرفع على موقعه الإعرابي وقد جاءت أمثلة من ذلك عند معربي القرآن فقد قالوا ذلك لقوله تعالى : (والركب أسفل منكم) [٢] حيث يجوز النصب على الظرفية والرفع على التوسع فيختلف المعنى حسب العلامة الإعرابية ففي قوله (أسفلَ منكم) نصبت ، يريد مكاناً أسفل منكم ، ولو وصفهم بالسفل وأراد والركب أشد سفلاً لجاز الرفع . [٣]

وكذلك باب الاشتغال الذي يجوز فيه تعدد أوجه الإعراب ووقوف النحاة عند قوله تعالى (والسارق والسارقة فأقطعوا أيديهما) [٤] فقالوا ، مرفوعان بما عاد من ذكرهما على النصب وفيهما جائز ، كما يجوز (أزيدٌ ضربته ، وأزيداً ضربت) وإنما تختار العرب الرفع في (السارق والسارقة) لأنهما غير محددين ، فوجها توجيه الجزاء ، كقول من سرق فاقطعوا يده ، (مَن) لا يكون إلا رفعاً ، ولو أراد سارقاً بعينه أو سارقة بعينها لكان النصب وجه الكلام ويجيز الرفع والنصب ، لكنه يوجه اختيار الرفع فيربط بينه وبين المعنى فإذا كان السارق والسارقة غير معنيين يختار العرب الرفع لأن ذلك يشبه الجزاء أو بمعنى آخر فيه استمرار الجملة الأسمية التي لا تتحدد بزمان ، فإذا عُين السارق والسارقة كان الوجه النصب لأن ذلك يشبه الجمل الفعلية في تحديدها ، فينصب السارقَ على المفعولية والنصب بالفعل المذكور في الجملة أما الرفع بالابتداء وما بعد المرفوع خبر .

الواضح من هذا العرض الموجز اختلاف أوجه الإعراب وارتباط المعنى ، في دراسات اللغويين أو معربي القرآن بالإعراب ، فالجانب الوظيفي للغة جانب هام ويمثل المعنى ، وهذا ما أشارت إليه مدرسة لندن التي وجهت إهتمامها إلى النحو النظامي ، الذي وضع أسسه النظرية هاليدي ، ثم توسع أتباعه في التطبيقات والتفريعات ، والنحو النظامي مبني على أساس تعدد وظائف اللغة ، وهذا المبدأ ينعكس على النظام اللغوي ، فنجد أن كل تركيب أو بناء لغوي يؤدي وظيفة مختلفة ، وهذا يعني أن مستعمل اللغة يجد أمامه من الوسائل التعبيرية ما يمكنه من التعبير عن أفكاره ، هذه الوسائل ليست في الواقع إلا سوى استعمالات فعلية للنظام اللغوي ، ومن ثم فإنه من الصحيح أن نقول إن الوسائل التعبيرية المتاحة للمتكلم ، أو الاستعمالات الممكنة التي يلجأ

---

[٢] سورة الأنفال – الآية ٤٢ .
[٣] المرجع السابق .
[٤] سورة المائدة – الآية ٣٨ .

إليها مستعمل اللغة تكون في حدود الإمكانيات اللغوية الموجودة في اللغة ، هذه الإمكانيات عبارة عن خصوصيات كل لغة .

و التركيز على الجانب الوظيفي للغة ما من قبل النحو النظامي ، يجعل المهمة الرئيسية التي ينبغي الاضطلاع لها منذ البداية في تصنيف هذه الوظائف المؤسسة ضـمن نظـام نحـوي يعكس بالدرجة ا لأولى تلك الاستعمالات ولا شك أن النظام العربي من جهـة الإعـراب نظـام نحوي يقوم على أسس دلالية وظيفية ، لأنه نحو مصمم بكيفية معينة تمكّن المـستعمل مـن أداء المعاني المختلفة كما سبق أن أشرنا لذلك من أمثلة الاشتقال والوقف والوصـل . وغيرهـا مـن الأنظمة النحوية المتعددة التي تؤدي إلى المعنى ، فالنحو بذلك يمثّل وسائل أداء تلك اللغة للمعاني .

يمكن القول أن النمط الوظيفي الذي اقترحه هايمز والذي سبق أن عرفـه العـرب فـي الاستخدامات المختلفة لأوجه الإعراب ، يعتبر في جوهره رد فعل للتيار العقلاني الـذي نـشره تشومسكي وأتباعه منذ منتصف السيتينات لقد قصر تشومسكي الفرد بلغته على الملكة الذهنية التي سماها (القدرة) .

والجانب التنفيذي الذي سماه (الأداء) والقدرة تتمثل في تمكّن الفرد من القواعد الضمنية التي يلجأ إلى استعمالها أثناء الأداء ، أما الأداء فهو الاستعمال العقلي للغة .

والأمر اللافت للنظر أن تشومسكي يرى أن معرفة الفرد بلغته تنحـصر فـي الملكـة النحوية التي يتمتع بها والتي تمكّنهم من توليد جمل جديدة ، لقد توقف هايمز عنـد هـذه النقطـه ورأى أن تعريف تشومسكي للقدرة اللغوية تعريف ضيق لا يتناسب والطبيعية الإجماليـة للغـة ، ومن ثم اقترح أن تستبدل بفكرة القدرة على الاتصال ، أن اللغة وسيلة اتصال في المجتمع ، ومن ثم فإن أي حديث عن قدرة المرء على اللغة ينبغي أن يـرتبط باسـتعمالها فـي بيئـات ثقافيـه حضارية معينة ، ويرى هايمز أن قدره المرء على اللغة لها أربعة أوجه تنبع كلها من اسـتعمال اللغة :-

(١) إلى أي حـد يكون الشئ ممكناً Possibe (نحوياً) ، هذا المظهر يشير إلـى إماكنيـات اللغـة وانفتاحها .

(٢) إلى أي حد يكون الشئ معقولاً Peesible استناداً إلى وسال التنفيذ المتاحـة والتركيـز علـى الجوانب النفسية التي نتسخدمها في تنفيذ اللغة ، مثل الذاكرة ، والتخطيط الذهنى للكلام والفهم.

(٣) إلى أي حدٍ يكون الشئ مناسباً Apprpriate وذلك ضمن السياق الذي تستعمل فيه هذا الـشئ ، وهذا يشير إلى فكرة الاستعمال اللغوية ، والأساليب التي يلجأ مستخدم اللغة إليها فـي الظـروف المختلفة متخذاً حالة ما يناسبه من مفردات وطريقة تعبير مع مراعاة الأعراف والتقاليد الإجتماعية .

(٤) إلى أي حد يكون الشئ قد أنجز من حيث الأداء أي ماذا نطق المتكلم من عبـارات وجمـل ومـا يستنتج هذا النطق من سلوك ، وهذا المظهر يتكلم في محوري المتكلم والمتلقى في آن واحد ، ماذا يستطيع أن يقول الفرد ، وماذا لا يستطيع أن يستقبله المتلقي . [(١)]

والصورة النهائية لهذه المظاهر الأربعة هي أن مفهوم القدرة لم يعـد مقـصوراً علـى المعرفة البحتة بقواعد اللغة وتوليد عدد لا متناهي من الجمل ، إنما ُأدخلت فيه اعتبارات طبيعيـة جعلته يشمل أموراً أخرى منها النية والقصد في التعبير ، وذلك يظهر جلياً في باب الاشـتغال ، الذي يجوز فيه رفع اسم ونصبه ، كما سبق في المفردات قوله تعالى (السارق والسارقة فـاقطعوا أيديهما) . فإن كانا على نية الإغراء وتقدير الفعل مرفوعان ، أما الأمر والنهي ممـا يـضمران كثيراً ويحسن فيهما الإضمار (زيداً فاضرب أخاه). [(٢)]

فالرفع بتقدير الخبر عند سيبويه ، على معنى قوله تعالى (فـرض ا علـيكم الـسارق والسارقة) ... وسيبويه اختار النصب . ونلاحظ هنا تدخل عنصر النية والقصد في التعبير ، هناك اعتبار آخر يتمثل في التقاليد الاجتماعية الموروثة في استعمال اللغة ، وهنا نـشير إلـى وجـه إعرابي آخر ، ووهو الإعمال والإهمال وهذا الوجه يتوقف على موروث شعبي في استخدام اللغة من نصب خبر (ما) المشبهه (بليس) ، جعل الحجازيون (ما) مشبهه بليس فنصبوا بها الخبر ، كما تنصب ليس الخبر ، وهذا العمل مرتبط بمعنى النفي ، [(٣)] فإذا انتقض معنى النفي أو قدم الخبـر بطل عملها ومن هنا لا تعمل في مثل قوله تعالى (ما أنتم إلا بشر مثلنا) حيث انتقض معنى النفي ومشابهة (ما) بليس يربط بين عملها وبين الاستعمال اللهجي . حيث قال في قوله تعالى : (ما هذا بشرا) [(١)] و إن أهل الحجاز ينصبون الخبر ، أما أهل نجد فيصرفونه ويجعل الرفع أقوى الوجهين [(٢)] .

---

[١] الإتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة – د. يحيى أحمد – مجلد فكر المجلد العشرون (١٩٨٩م) – ص ٩٥ .
[٢] معاني القرآن – الفراء – الجزء الأول – ص ٢٠٦
٣ المرجع السابق – الجزء الثاني – ص ٤٣ .
[١] سورة يوسف – الآية ٣١ .
[٢] المقني لأبن هشام – الجزء الثاني –ص ٣٥٤ .

أما سيبويه يزعم أن بشراً منصوب خبر ما ، ويجعلونه بمنزلة (ليس) و (ما) معناها ليس فيها النفي وهذه لغة أهل الحجاز ، وهي اللغة القديمة الجيدة .

وهنا ربط بين معنى (ما) من جهة وبين الاستعمال اللهجي من جهة أخرى . (٣)

ونلاحظ أن العرب قد فطنوا إلى هذه الجوانب الوظيفية في تحليل اللغة ، وطبقوا ذلك في الأوجه الإعرابية التي تعتبر وسيلة هامة من وسائل تحليل النصوص العربية ، كما لاحظنا ذلك من أمثلة القرآن الكريم .

أما إتجاه هايمز لا يقترح نموذجاً لغوياً يمكّننا من الاستفادة من هذه الملامح الاتـصالية في التحليل ، كالذي وجدنا مثلاً عند مدرسة براغ ومدرسة لندن ولذلك فإن النموذج الوظيفي الذي يقدمه عبارة عن مقترحات عملية في الجانب الدلالي . (٤)

ونضيف على تعدد وجوه الإعراب وارتباطه بالمعنى الوظيفي جانب آخر تختص به بنية العربية التركيبية في تحليلها أولاً :-

البدء بالكلمة وذلك في إتجاهين :

الإتجاه الأول :

يمكن أن نسميه البيان التصنيفي The caleg oral statement وذلك ببيان اللواحـق الأماميـة والخلفية التي تتمثل عناصر مستغلة في تكوين الجملة كالضمائر وياء النسب واللواصق التي تمثل علامات التثنية والجمع وعلامات الإعراب ، فيذهب النحويون في تحليل مثـل (رأ يتكمـا) إلـى تجزئتها إلى الجزئيات ذات الدلالات على النحو الآتي :-

رأى فعل ماضي ، ت ضمير ، م حرف عماد أ حرف دال على النسبة .

وعنى النحويون عند الإعراب بتحديد الصيغ الصرفية فيحددون نوع الفعل ونوع الاسـم وبخاصة الملبس منها ، حتى لا يكون اللبس مزلقاً لخطأ في التحليل على المـستوى التركيبـي أو الوظيفي ، فالفعل (تعاونوا) قد يكون أمراً وقد يكون مضارعاً مجزوماً ، وقد اجتمعا فـي قولـه تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) (٥) في الأولى أمر والثاني مضارع مجذوم .

ويقول سيبويه :((ليس في الأسماء جزم لتمكّنها وللحاق التنوين ، فاذا ذهب التنوين لـم يجمعوا على الاسم ذهابه وذهاب الحركة ، وليس في الأفعال المضارعة جر ، كما أنه ليس فـي

---

[٣] سورةكتاب سبويه – الجزء الأول – ص ٥٩ .

[٤] الألثنية –مجلد عالم الفكر – مقال بعنوان الإتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة – د. يحيى أحمد – المجلد العشرون (١٩٨٩م) –ص ٩٥ .

[5] سورة المائدة – الآية ٢ .

الاسماء جـــزم . لأن المجرور داخل في المضاف إليه معاقب للتنوين ، وليس ذلك في هـذه الأفعال ، وإنما ضارعت أسماء الفاعلين أنك تقول : (أن عبد ا ليفعل) فيوافق قولك لفاعل .)) (١)

ويعلل رفع المثنى بالألف ونصبه وجره بالياء فيقول : ((يكون في الرفع ألفاً ، ولم تكن واواً ليفصل بين التثنية والجمع على حد التثنية . ويكون في الجر ياء مفتوحاً ما قبلها ، ولم يكسر ليفصل بين التثنية والجمع ، ولم يجعلوا النصب ألفاً ليكون مثله في الجمع ، وكان مـع هـذا أن يكون تابعاً للجر منه أولى . لأن الجر للاسم لا يجاوزه الرفع قد ينتقل إلى الفعل فكان هذا أغلب وأقوى . (٢)

والمعنى أن علامة رفع المثنى هي الألف ، وأن الرفع من جنس الواو ، ولـم يجعلـوا الواو علامة الرفع لئلا يلتبس المثنى المرفوع بجمع المذكر السالم المرفوع . إذ هو الجمع الـذي على حد التثنية ، وعلامة جر المثنى ياء مفتوح ما قبلها ، ولم يكن ما قبلها مكسور لـئلا يلتـبس المثنى المجرور بجمع المذكر السالم في حال جره .

وعلامة الجر هي نفسها علامة النصب ، ومع أن الفتحة في جنس الألف لم يكن نصبه بالألف ، لأن نصبه بالياء يجعله نظير جمع المذكر السالم الذي ينصب أيضاً بالياء ، أما العلة في عدم نصبه بالواو ليكون إذ ذاك نظير جمع المذكر الذي يرفع بالواو فلأن النصب في الأسماء أقرب إلى الجر منه إلى الرفع ، وذلك لأن الجر يختص بالاسم فلا يتجاوزه إلى الفعل فهو الصق به .

وأما الرفع فيكون للاسماء كما يكون للافعال المضارعة ، فلما كان الجر ألصق بالاسماء في الرفع انضم النصب اليه .

والملاحظ في هذه التعديلات أن العرب أولت المعنى اهتماماً بارزاً ، وقاست التـشبيه بالتشبيه وحمل النظير على نظيره ، واعتمادها ذوق العرب في طلب الخفة وفرارها مـن القـبح والثقل . وهذا على المستوى الصوتي في جانب تحليل اللغة .

ويعد هذا الطرح الموجز لعلاقة المعنى ، أو الوضع التركيبي والتحليلي ، يتبين لنا أن ما قاله المحدثون حول النحو العربي ممن تأثروا بالنظريات الحديثة كالنظرية البنائية التي فصلت التركيب وعزلته عن كثير من مستويات اللغة السابقة صوتياً وسياقياً ودلالياً , خطأ . ونرد على ما قاله تمام حسان في كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها) حيث تحدث عن أن نحو العربية تلفيق

---

[١] كتاب سبويه – الجزء الأول – ص ١٠ .
[٢] المرجع السابق – ص ١٤ .

من قبل النحاة العرب ، ورأى أن النحو لا يمس معنى الجملة إلا من الناحية الوظيفية كالإثبات والنفي والشرط والتوكيد والاستفهام ، إلا من الناحية الإجتماعية التي تبنى على اعتبار المقام في تحديد المعنى . ويضيف (أي النحو لم يعط عناية للناحية التركيبية لتحديد التركيب المناسب لكل إسناد من حيث الرتبة والأداء والعلاقة ، ربما أن النحاة درسوا الزمن النحوي على المستوى الصرفي وهي في عزلتها عن التركيب) . [1]

وهم يرون في ذلك أنه كان ينبغي على النحاة الوصول بالتحليـل إلـى التركيـب لأن التحليل والتركيب يختلفان في صناعة النحو . ولم يفهموا أن المكونات التحليلية هي حاول لما قـد يكون بين النظام والسياق من تضارب أو هي معالم سياقية لا وجود لها فـي الـسياق المنطـوق وبنيته ، ولكن النحاة العرب لم يفطنوا إلى طبيعة المنطوق وبنيته ، كما لم يفطنـوا إلـى طبيعـة التعارض بين مطالب التركيب والتحليل فوقعوا في أخطاء منهجية . [2]

كما أنهم تاثروا بمناهج الوصف البنائية فوصفوا النحو العربي بأنه نحو تعليمي ولـيس علمي " يقول تمام ((إن الغاية التي نشأ النحو العربي من أجلها وهي ضبط اللغـة وإيجـاد الأداة التي تعصم اللاحنين من الخطأ ، فرضت على هذا النحو أن يتّسم في جملته بسمة النحو التعليمي لا النحو العلمي أو بعبارة أخرى أن يكون في عمومه نحواً معيارياً لا نحواً وصفياً)). [3]

ويمكننا أن نجمل كل هـذا الصراع بين نحونا العربي النظامي والنحو التحويلي البنائي ، إلى نظرة الأول المعيارية ونظرة الثاني الفلسفية ويرجع ذلك إلى قضايا المنطق (الأحكام التحليلية والأحكام التركيبية) . وهي قضايا منطقية يقوم عليها الفكر ولا سيما الفكر البنائي ، ولكي نفهم الإعراب كوسيلة تحليلية والنظرية البنائية التحويلية كوسيلة تركيبية يجب ربط الفكر النقدي بالفكر المنطقي النابع منه حتى نتبين القضايا من أصولها .

فالأحكام التحليلية هي التي يكون فيها المحمول مستخلصاً من ماهية الموضوع ، والتركيبية هي التي يكون فيها المحمول معبراً عن صفة لا تدخل في مفهوم الموضوع ، فاذا كانت الصفة المحمولة على الموضوع داخل في تعريفه كانت القضية تحليلية ، واذا لم تكن داخله في حده كانت تركيبية ، فان من الواجب أن نعد كل الاحكام الصحيحة تحليلية اذا نظرنا الى الصفة بأنها داخلة في مفهوم الموضوع . واذا فسرنا المفهوم بانه مجموع الصفات التي أعرفها عن الشئ فان القضايا تحليلية او تركيبية تبعاً لعلمي بالشئ . فالجسم ممتد ، تحليلية لان الامتداد صفة داخل

---

[1] اللغة العربية ومعناها ومبناها – د. تمام حسان – ص ١٦ .
[2] المرجع السابق – ص ٧ .
[3] المرجع السابق – ص ١٢ .

الجسم ، أما الجسم ذو ثقل) تركيبية لانه أضاف الى صفاته صفة جديدة ، وعلى هذا فالقضية التركيبية هي التي تأتي بمحمول لا يدخل في تعريف الموضوع . فالقضية التحليلية تحصيل حاصل لا تكشف عن جديد والتعريف يقتصر على ما يجمع كل صفات الشئ الاساسية ، فالقضايا المركبة تقوم على اساس الماهية ، ولا تدخل الاعراض ، فتعريف المثلث لا يتضمن أن مجموع ضلعيه أكبر من الضلع الثالث ، والواقع أن القضايا التركيبية هي التي تدل على علم جديد وهذه الصفة العلمية في القضايا التركيبية تضيف شيئاً جديداً .

اما التحليلية تعريف لفظي بين الموضوع والمحمول لمسمى واحد . والقضايا التركيبيـة نحصل عليها إما بالتجربة أو الاستدلال الرياضي أو القياسي .

والتجربة ينبوع دائم لايجاد قضية تركيبية لانها تدلنا علـى صـفات جديـدة ، وكـذلك الاستدلال الرياضي حيث نستخلص دون تجربة حقائق جديدة . فاذا سقناها في قضايا اصبحت هذه القضايا تركيبية أما القياس يعتبر النتيجة قضية تركيبية .

وذلك ينطبق على قضايا النحو ، فالنحو التوليدي التحويلي استدلالي رياضي يقـوم دون تجربة سابقة من قضايا تحليلية تركيبية .

أما القياسي مثل أحوال الاعراب كل حالة منها تعتبر قـضية تركيبيـة وهـذا النحـو او الاعراب نتائج لمقدمات أولية موجودة في النحو الكلي . اذاً يمثل النحو الكلـي مقـدمات أوليـة ومقدمة كبرى لنتائج النحو العام وما الاعراب وأحواله الا نتيجة من هذه المسلمات أو البـديهيات الموجودة في النحو الاستدلالي الرياضي والنحو التركيبي .

ودراسة النحو التحليل كقضية تحليلية لا يكشف عن جديد ولا يضيف شيئاً ذا بال بخلاف النحو التحويلي الاستدلالي الرياضي .

إذاً يمكن القول ان نظرية النحو التوليدي او التركيبي نابعة من هذا التقـسيم المنطقـي للقضايا وهو تقسيم وضعه كنت مؤسس الفلسفة الوصفية . (1)

وقد تاثر علماء القرن التاسع عشر بهذا الفكر المنطقي وحاولوا تأسيس علم اللسانيات ، ولكنهم وقفوا عند تأسيس هذا العلم حول موضوعه ، وهو في محاولته لتحديد موضوع اللسانيات أكد أنه لا يمكن أن يقوم ويتأسس على قاعدة المعطيات المتنافرة أي على التنوع اللغوي الهائل والخطاب البشري ، إذ المادة موفورة الوقائع مـن حيث العلم أي الحصر ، لذا تعتبر المادة نقيضاً للعلم . فالعلم ينطلق من الواقعي ليبتعد عنه مادامت المعرفة ليست هي

---

[1] المنطق الصوري الرياضي – د. عبد الرحمن بدوي – ص ١٣٤ – ١٣٥ .

الملاحظة الحسية ، بل هي خاف كلام جديد وإضافة إلى الواقع الذي تنطلق منه إن المعرفة تحويل للواقع المعطى وتغيير له . والعلم يعمل على تقسيم المعطيات ولا يعمل على تعدادها إنه ينظّمها ويقيم علاقات بينها بغية تحويلها إلى (شئ) قابل لأن يكون موضوع العلم . أنه الشئ المستهدف الشئ القابل لأن يكون علماً .

وهذا يتوافق مع ما ذكره سويسر في كتابه (محاضرات في علم اللغة العام) ويتواف ـ ق ذلك تماماً مع الاتجاه السائد نحو (النحو الكلي) أو العالمي بغية توحيد اللغات ، ويرجع ذلك إلى أن موضوع العلم يبدو موحداً منسجماً ، يدعو إلى فكرة توحيد اللغات وتوصل إل ـ ى أن يحق ـ ق الوحدة العميقة للوقائع هو وحدة وجهات النظر ورأى أن وحدة وجهات النظ ـ ر تك ـ ون بالمق ـ صد التركيبي . فيقول : ((أي مقصد تحليلي لم يفض قط الى أي نتيجة ، لهذا السبب نستتبع مق ـ صداً تركيبياً)) . [1]

وبناء على ذلك انكفأ سوسير على تفكيك اللغة وتحليلها الى مجموعة من المظاهر التي تتكون منها ، وتوصل من ذلك إلى أن عملية التركيب هي الحل الأنسب لتخطي كل المشاكل ، ويكومن هذا الحل في اللسان واتخاذه معياراً لكل التحليلات اللغوية ، لأنه لا يمكن أن يتخذ بصورة مستغلة عن الوقائع المتنافرة . فهو شئ مجرد يجعلنا نتخاص من المواد اللسانية المختلفة (اللغات) ، لأن اللغة تنسب إلى المجال الفردي والاجتماعي ، ف ـ ي حين أن اللسان كلاً في ذاته .

رفض اللغة لأنها تمثل التعدد لا الوحدة وأنها مفتوحة إلى الخارج ، أما اللسان لا ينسجم مع العالم الخارجي . واعتبر بذلك وحدة الجنس البشري في اللسان كما اعتبر تشومسكي وح ـ ـ دة النحو في عمل الدماغ . وهكذا انكشف الفكر البنائي فلسفياً وليس منهجياً ، لأنه أتخ ـ ذ معطي ـ ات منطقية وبني عليها آرائه اللغوية .

كما هو في اللغة الفنية والنحو التوليدي والنظرية الشعرية والاس ـ تبدال ب ـ ين عناص ـ ر الاختيار اللغوي ، وكل ذلك تحت مفهوم حرية الإبداع دون قيد ولا شرط .

يتطلب أصحاب التحليل التجزيئي للمعنى من نظرية ترى أن معنى الكلمة هو مجموع ـ ة العناصر التكوينية أو المعنوية أو المكونات الدلالية ولا شك أن إرجاع الكلم ـ ات إل ـ ى مكوناته ـ ا الأساسية ، وبعد إجراء التحويل من البنية السطحية إلى البني العميقة ، يصبح إقصاء المعجم عن البنية العميقة في القواعد التوليدية التحويلية وجعل إنتاج جمل غير صحيحة دلالياً وارد إذ ليس ما

---

[1] المنطق الصوري الرياضي – د. عبد الرحمن بدوي – ص ٢١ – ٢٢ .

يمنع من صدور الجملة التالية (شرب الحليب الطفل) وقد استخدم التحليل إلى العناصر الأساسـية للحكم على المفردات الداخلة في الترادف إثباتاً ونفياً .

وللتمييز بين تعدد المعنى والمشترك اللفظي ، وغير ذلك من العلاقات الدلالية مـصطلح حديث يدل على العلاقات بين الكلمات من نواحٍ متعددة كالترادف والاشتراك والتضاد ونحو ذلك.

وقد تولّد هذا المصطلح من دراسة الحقول الدلالية إذ تبين أن معنى الكلمة لا يتـضح إلا من خلال علاقاتها مع الكلمات الآخرى ، ضمن الحقل الذي تنتمي إليـه . ويلاحـظ أن قـوانين القدامى ولا سيما العرب تنبهوا على ما ينضوي تحت هذا المصطلح (العلاقات الدلالية) ، ولكـن الدرس الحديث يتطلب من النحوي وصف لغة خالية من أي أثر معياري ، ويجعل هذه العلاقـات في نسق واحد . [1]

وسعى إلى أن تكون نتائجه منطقية على كل اللغات فالمعنى في الدرس اللغوي الحـديث يقصد به المعنى المعجمي الاجتماعي الوظيفي وهو وظيفة الجزء التحليلي فـي النظـام أو فـي السياق .

والذي عناه النحويون بأن أول واجب يجب على المعرب إدراكه من هذه الأمور الثلاثة هو المعنى المعجمي الإجتماعي ، إذ بهما يمكن تحديد المعنى الوظيفي ويتبين ذلك من قول ابـن هشام بعد أن صرح بأن أول واجب على المعرب أن يفهم معنى ما يعربه لهذا لا يجوز إعـراب فواتح السور على القول بأنها من المتشابه الذي أستأثر ا تعالى بعلمه .

وبناء على ذلك استأثرت الدراسات اللغوية الحديثة دراسة النماذج الشكلية للغة المعبـرة عن القدرات العقلية لمستعمل اللغة وهذه المهمة ممكنة لكل حالة لأن المتكلم يستعمل عدداً محـدداً من التراتيب وبدراسة هذه التراتيب المستعملة بالفعل يكون بالإمكان التوصل إلى مجموعة متناهية من الأحكام التي تصف السلوك اللغوي والاستعمال المتكرر للقواعد أو التحويلات هو الذي يمكن المتكلم من إنتاج جمل لا نهائية من الناحية المنطقية على الأقل .

هذه القواعد نفسها هي التي تمكّن المتكلم من الحكم على الجمل التي يسمعها ويرفض ما لا يتفق منها مع قواعد اللغة وهي التي تساعده على فهم الجمل الغامضة أو المزدوجة وغير ذلك من أمور ترتبط بالعمليات العقلية التي تمثل اللغة .

ولقد اهتم الإتجاه التحولي بإبراز العلاقة بين اللغة والعقل من جانبين آخرين :-

<u>الأول :</u>

---

[1] النظرية التوليدية التحويلية – د . مشال ذكريا – ص ١٧ .

المظاهر العالمية للغة ويمثل هذا الجانب الجهاز الفطري في الإنسان الذي يمكّنه من اكتساب اللغة .

الثاني :

في فكرة البناء العميق بمعنى العوامل التي تشكّل الأشكال اللغوية المجردة المختزنة في الدماغ ولذا اعطيت القواعد التحويلية مطلق الصلاحيات لإجراء التعديلات المناسبة الكفيلة بتوصيل الجملة إلى بنائها السطحي .

المبحث الأول

مقدمة :

العلوم الإنسانية والصراع الأيديولوجي : -

حين نشأت الحداثة فـي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القـرن العـشرين ، تحولـت الحداثة إلى مشروع تمرد يبحث من خلال التجريب عن حلٍ ما للإنسان ، وقد كان التمرد علـى المجتمع ، وأدت القطيعة مع المجتمع إلى إسقاط كل الرؤى المعرفية التي يمكن البناء عليها لـيس الرؤى الدينية فقط ، بل التأملية والعقلية ، وتفجرت النزاعات الإنسانية المتمردة في كل الاتجاهات .

إن الحداثة بما تحمل من تمرد على أشكال القيم تتسم بانفلات الغرائز في الأدب والفنـو ومن أهم نقاط الحداثة قضية المطلق وإدعاء نسبية الحقيقة ، والحداثة تدعي نسبية الحقيقة وأنه لا يوجد شيء حقيقي ، وإذا سقط المطلق (الإطار المرجعي) وهى قـضية ربوبيـة ا تعـالى ، وألوهيته ، أصبح كل شيء نسبياً ، ويرجع ذلك لخصوصية الغرب الذي أتخذ العلمانية كرد فعـل سلوكي ضد الدين ، إلى جانب الثورة الصناعية التي كان لها أثرها في تطـوير أشـكال التمـرد وتجذير القطيعة على المستوى النظري والتجريبي ، وهذا ما نلمسه مـن الـشواهد الاجتماعيـة والثقافية الكثيرة ٠

وبالتالي أصبحت الحداثة قطيعة معرفية مع الماضي والقيم دون أن يعنى ذلك انقطاعـاً في المسار التاريخي ، ومـن هنا رصدت عدة تطورات فكرية وتاريخية أسهمت في توليد الحداثة .

ففي عام (١٨٥٩م) ظهر كتاب (أصل الأنواع) لدارون ومنهجه الذي ينتهي بـالغرب إلى نذع القداسة عن الإنسان وكونه مخلوقاً ، ونسبته إلى الطبيعة والإعلاء من شأن القوة في مقابل القيمة (فكرة البقاء للأقوى وليس للأصلح)وفى عام (١٨٦٧م) صدر كتاب (رأس المال) لماركس وكان هذا محاولة لهدم مفهوم الاقتصاد الرأسمالي الموجود فـي الغـرب ، وفـى عـام (١٨٨٢ - ١٨٨٣) ظهر كتاب (نيتشة) وهو كتاب (العلم المرح) وطرقت فكرة (مـوت المؤلف) وفى عام (١٨٨٩م) صدر كتاب (الغصن الذهبي) لجـيمس فريـزر ، وتكلـم عـن الأساطير المؤسسة للمسيحية وعلاقتها بالأساطير الأخرى ، وفى عام (١٨٩٥م) اكتـشاف أشـعة إكس وبداية دخول العالم الداخلي للإنسان ٠

وفـى سنة (١٩٠٠م) كتاب (تفسير الأحلام) (لفرويد) ، وفى (١٩٥٠م) (النظريـة النسبية) لأنشتين ، كل هذه التراكمات أدت إلى تحطيم كافة التصورات الكلية لدى العالم الغربـي

الذي تشكل رؤيته للكون ، والتي كانت تحمل في طياتها كثيراً من الانحرافات ، واكتشف العقـل الغربي حجم الأخطاء في تصوراته الكلية التي أحدثت صدمة ضخمة بما يحمله الفكر من حقائق.

ومن هنا فإن الحداثة لم تأت من فراغ ، ولكنها جاءت وفق سياق تاريخي متتابع خاص بالتطور التلقائي الذي مر به التاريخ الغربي عبر الاكتشافات والآراء النظرية والفكرية والفلسفية والعلمية ، فهذا ارتبط بفلسفة التنوير ، وليس هناك لحظة انقلاب ولكنها تراكمات ، أي لم تكـن هناك لحظة تاريخية بذاتها مثلت لحظة انقلاب ، ولكن مجمل ما حدث هو انقلاب كلـي ، فثـورة الفكر الغربي على الكنيسة ، تمخضت عن مدرسـتين همـا : - المدرسـة العقليـة المثاليـة ، والمدرسة التجريبية ، وكلا المدرستين نتاج لاستبداد العقل الغربي وانفـصامه ، وبنـاء تـصور للوجود وابتداع القوانين التي تدير شؤون الحياة .

ء أن الإنسان الكامل هو الذي يدير الكون بدلاً من الإله وافتقاد ا داثة للمرجعية النفسية يعلن عن إفلاس القيم وضحالة فكرية ، وركود ا ضارة .

وهل عُهد في الفكر الإنساني وفى تاريخ الثقافات أن تقوم مذاهب على هـذا المـستوى المرعى من الشمول وتتقدم وتتطور و تموت في عقود ثلاثة كما في البنيوية وعقدين كما فـي التفكيكية . [1]

وبعد هذا العرض المقتضب لحالة الفكر الغربي ، وسقطات الحداثة وتخبطهـا ، شـكّل خصوصية مهزوزة للعقل الأوروبي ، ينتقل من فكر إلى فكر ، وفى كل مرة يُلْبِس زاوية من هذه الزوايا جبة إمارة الكون .

ولذا يمكن القول أن فكرة القواعد الكلية و هي فكرة تأملية تضع مشروعاً بديلاً من الإله الذي يسيطر على الكون ، ومن خلال العقل الإنساني ، أو بمعنى أدق القضاء علـى المـشروع التنويري الذي نتج عن قمة عصر النهضة ، بمعنى أنه ليس هناك مثاليون أو مـاديون يـضعوا تصوراً للحياة .

ومن الأخطاء التي يقع فيها المشتغلون بالعلوم الإنسانية بعامة والعلـوم الاجتماعيـة والأنثروبولوجية بخاصة أنهم يتجاهلون في دراستهم للنظريات والمدارس المختلفة الظروف العامة التي لابست ظهور تلك النظريات وقيام تلك المدارس ، ويسقطون من اعتبارهم الأوضاع السياسة والاقتصادية التي كانت تسود والتي يحتمل أن يكون لها أثراً كبير في حياة أصحاب تلك النظريات أنفسهم ، وفى تشكيل أفكارهم ، واتخاذهم مواقف محددة من المذاهب والأيديولوجيات التي كانـت

---

[1] مقال بعنوان سقطات الحداثة والخصوصية الغربية , وائل عبد الغنى - مجلة البيان - مجلة شهرية تصدر عن المنتدى الإسلامي - العدد (١٩٠) – ص ٤٦ – ٥٣ .

تشيع في ذلك الحين ولقد ترتب على ذلك أن أصبحت تلك النظريات تعرض فـي شـكل أفكـار ومبادئ مجردة خالية من الحياة ، كما ساعد ذلك ذيوع كثير من القضايا والأحكام التي تؤخذ الآن على أنها مسلمات أولية يؤمن الجميع بصحتها باعتبارها مبادئ وأسس جوهرية لا تقبل الشك ولا المناقشة مثل المبادئ الوضعية أو الموضوعية .

وقد ظهرت الدعاوى العلمية نتيجة لتأثر أصحابها بآراء واتجاهات وظروف معينة كمـا يكمن تحتها أسباب ودوافع ذات صيغة أيديولوجية أو سياسية ، و إن أفلح هؤلاء أن يضعوا عليها طابعاً علمياً محايداً .

ويقول د٠ أحمد أبو زيد : - [1] (إن الأزمة التي تمر بها العلوم الإنسانية فـي الوقـت الراهن ٠ تبدو في ظاهرها أزمة خاصة بالمناهج ولكنها في حقيقة الأمر لها أبعاداً أيديولوجيـة) وسنحاول أن نبين أن تأثير هذه الأيديولوجيات في العلوم الإنسانية بعامة وعلم اللغة بخاصة أمـر طبيعي ، وإن كان العلماء أنفسهم ينكرون وجوده ٠

وليس من شك في أن خبرة العالِم وتجربته لهما أثر كبير في تحديد نظرتـه وتكـوين أفكاره ، واتخاذه موقفاً معيناً في تحليله للظواهر التي يهتم ببحثها ٠

والبحث في الأساس الأيديولوجي والسياسة أمر في غاية الدقة ، لأنه خليـق أن يكـشف عـن الأصول (غير العلمية) لتلك العلوم ، ولكنه موضوع ، لا يخلو من فائدة ، لأنه خليق بأن يساعد الباحثين على الاختيار عن وعى بين مختلف الاتجاهات التي تسير عليها تلـك العلـوم ، وهـذا الاختيار الواعي هو الذي يؤدى إلى قيام المدارس المختلفة داخل التخصص الواحد ٠ وعدم وجود مدارس في تلك العلوم يرجع إلى إغفالنا دراسة تلك الأسس الأيديولوجية بل غفلتنا عن وجودها مما أدى بنا إلى الاكتفاء بترديد تلك النظريات دون معرفة لأعماقهـا وأبعادهـا ٠ لا شـك أن القوانين اللغوية تعبر عن الواقع الاجتماعي للغة ، وليس واقعاً آخر، فالقانون هو تشخيص للحقيقة الاجتماعية المعاشة ، كما نراها كائنة أي مبدأ ينتمي لنسق فكرى معين حين يخرج مـن مجالـه الأصلي فإن مقصده سيختلف بصورة جوهرية فالبنيوية كمذهب فكرى لا يرى أي خـصوصية للتاريخ، وارتباطه بحقبة معينة في مجتمعات معينة يفقد منهجهم الشمولية والتعميم ٠ وبذلك كـان النقاد واللغويون عاجزون عن رؤية الخلفية الأيديولوجية للمنهج العلمي الذي أرسته البنيوية ولذلك لم يستطيعوا إدراك أنه حين نغفل منهجاً ما أي واقع مغاير للواقع الذي نما فيه فإننا نتجاهل كـل

[1] مقال بعنوان الإنسانية والصراع الأيديولوجي - د ٠أحمد أبو زيد , مجلة عالم الفكر - المجلد الثاني - العدد الثاني - ص ١٤٢.

الخلفيات الثقافية والاجتماعية التي تحكمت بوجوده ، وهذا ما سيعود بأخطاء فادحة في أي حكـم يتم إطلاقه ٠

بذلك يمكن القول أن لكل عصر نظامه الثقافي ولكل ثقافة منطقهـا الخـاص بهـا، وأن انتقال المعارف من نظام ثقافي آخر بدون استيعاب الظروف التاريخية التي أنتجت هذه المعـارف يفضي إلى انفصام هائل بين الفكر وسياقه الواقعي فليس لأي مفهـوم دلالـة (مطلقـة) فـوق الثقافات المتغايرة والمتغيرة و ولذا فإذا لجأت ثقافة (ما) إلى الاقتباس ففي داخل هـذه الثقافـة ينبغي البحث عن المبرر الذي أدى إلى ذلك ، بالإضافة إلى أن ما نقتبسه لا يظل محافظاً ، علـى مدلول أصلى أو مجرد ، فلكل ثقافة حقلها المعرفي الخاص ، يتعلق بمدلول المفاهيم مهما كانـت أنسابها المختلفة ٠ لا شك إن هذا يطرح مسألة استعمال المفاهيم المقتبسة سواء مـن الغـرب أو الماضي ، وهل استلهامها ممكن داخل ظرفية مختلفة عن تلك التي نشأت فيها هذه المفاهيم في هذا الإطار ؟ ولا سيما أن كل مفهوم هو صياغة نظرية لها مقصد ، وهذا المقصد هو الذي يعطـى الدلالة الحقيقية للمفهوم إن المفهوم إذن لا يكتسب معناً لذاته ، بل بحسب ما يقصد إليـه ، هكـذا تتولد المفاهيم داخل ثقافة ما لتعكس الصور الأساسية والتي تقيم بها هذه الثقافـة علاقتهـا مـع الواقع ٠ [1]

لا شك أن عصر التنوير وفلاسفته الذين مهدوا ، بأفكارهم وآرائهم ونظـراتهم النافـذة لحياة المجتمع الأوروبي ،و لظهور حركات التحرر والفكر السياسي التي سادت أوروبا في القرن التاسع عشر وأهم ما يميز فلاسفة التنوير هو قدرة العقل على فهم الكون واسـتيعابه وإخـضاعه لحاجات الناس ومعنى ذلك أن العقل والعلم يستطيع الإنسان بهما أن يحقق درجة مـن الحريـة ، وإذا كانت دراسة الطبيعة البشرية تكشف عما هو موجود وقائم بالفعل بل وأيضا عما هو ممكن ، فإن دراسة التاريخ والمجتمع خليقة بأن تكشف ليس فقط سير الأحداث ، وأسـرار الأوضـاع القائمة بالفعل ، بل أيضا عن كل الإمكانات الأخرى التي يمكن أن تتوالد عـن هـذه الأوضـاع ووسيلة تعديلها وتفسيرها ٠

وبالتالي بدأت الحركات النقدية على أيدي فلاسفة التاريخ وبخاصة هيجل الذي حاول أن يحدد مراحل التقدم الإنساني التي كان يعتبرها بمثابة نمو مستمر للحركة ٠ وبالتالي كانت فلسفته النقدية تهتم بالكشف عما حققته نظم المجتمعات السابقة من حرية وعقلانية ، وكذلك الكشف عـن

---

[1] أنظر في ذلك (الخطاب العربي المعاصر قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة – ١٩٧٨ – ١٩٨٧ م فادى إسماعيل – المعهد العالمي للفكر الإسلامي ٠ – (١٩٩٤م) .

الحركات الفكرية الجديدة التي ظهرت في المجتمع المعاصر ، وقد يكون في إمكانها دحـر نظـم المجتمع القديم وإلحاق الهزيمة به بل وقلب تلك النظم تماماً٠

وامتدت حركة النقد على الأوضاع التقليدية حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وتناولت مختلف نواحي الحياة البشرية والاقتصادية والسياسية ، وأدت إلى ظهـور أيـديولوجيات جديـدة كاللبرالية والاشتراكية التي تؤمن بوجود علاقة بين العقل والحرية ، وأن العقلانية شرط أسـاس لحرية الإنسان ٠

ومن ثم سقطت كل المفاهيم القيمية الفلسفية والمجتمعية ، وبالتـالي أصـبحت الحداثـة قطيعة معرفية مع الماضي والقيم دون أن يعني ذلك انقطاعاً مع المسار التاريخي .

ويمكن القول أن الحداثة لم تأت من فراغ ، ولكنها جاءت وفق سياق تـاريخي متتـابع خـاص بالتطور التلقائي الذي مر به التاريخ الغربي عبـر الاكتـشافات والآراء والنظريـات الفكريـة والفلسفية والعلمية ، فهذا مرتبط بفلسفة التنوير ، وليس هناك لحظة انقلاب ولكنها تراكمات ، فلم تكن هناك لحظة تاريخية بذاتها مثلت لحظة انقلاب ، ولكن مجمل ما حدث هو انقـلاب كلـي ، فثورة الفكر الغربي على الكنيسة تمخضت عن مدرستين هما : -

(١) المدرسة العقلية المثالية .

(٢) المدرسة التجريبية .[١]

ولقد ذهب الليبراليون إلى إمكان (صنع) التاريخ بطريقة عقلانية وعن طريق الأفراد الأحرار مما يؤكد دور العقل في حياة الافراد في الشئون الإنسانية ٠

وهذا هو ما يعنيه دوركهايم من أن التغيرات التي تحدث في المجتمع الصناعي تـؤدي إلى تفكك الوحدات القديمة ، وهو الأمر الذي يستوجب من المجتمع أن يعبر على أساس جديـد للتوازن حتى يستطيع أن يستمر في الوجود٠[٢]

هذه فلسفة التاريخ التي تصف التاريخ بأنه حرية الإنسان في التعبير عن أفكاره ، وهو تطـور ذاتي للروح البشرية ٠ [٣]

وبناء على ذلك لم يصبح مفهوم الحداثة البنائي تتابعاً للأحداث كرصد المرور الزمني ، بل أصبح البحث عن الأنظمة وتحليلها ، وانتقل الصراع بين التاريخ والنظم الاجتماعية ، مما أدى إلى انتصار علم الاجتماع ، كما سبق ، فانحسر الفكر التاريخي فـي هـذه الظـروف العلميـة

---

[١] العلوم الإنسانية والصراع الأيديولوجي - د ٠أحمد أبو زيد – مجلة عالم الفكر - المجلد الثاني – العدد الثاني – ص ١٤٦ .

[٢] مقال بعنوان العلوم الإنسانية والصراع الأيديولوجي – مجلة الفكر – المجلد الثاني - العدد الثاني - د٠ أحمد أبو زيد - ص ١٥٥ .

[٣] اللغة بين المعيارية والوصفية - د٠ تمام حسان - ص ٢٤ .

الصناعية التي سيطرت فيها الآلة ، فأفرزت أشكالاً رياضية ، أعلنت فيه هذه الأشكال سياسـتها المطلقة ٠

فالتصور البنائى للعالم لم ينحصر في المجال البنائى الدلالي الذي يتمثل في عقل الإنسان التحليلي ، وأن الإنسان هو خالق الأشكال والأنظمة ، والعقل الإنساني يـصنف ويؤلـف ويغيـر ويـركب معتمداً على التنويعات ليصل إلى ما لا يتغير ٠ وقدرته هذه تحدد العقل والمعقول ٠

أما مـا عدا ذلك من مضمونات لا معقولة تتضح في الفجوة القائمة بين الأشكال والأبنية ، وبالتالي أصبح التاريخ والمجتمع وكثير من الأنظمة بقايا متروكة ومهجورة لا قيمة لها ٠[١]

كن القول أن أكـ العوامل ا هجورة وا تروكة ذلك النظام عاملي التاريخ والثقافة والدين ، ولذلك اعتـ ت النظريات البنائية هذه العوامل عوامل (هامشية) تظهر الفجوة بـ الأبنية والأشكال ٠[٢]

ويقول الشكليون أن عناصر علم النفس والتاريخ والاجتماع إلى آخـر ذلـك ، والتـي يحتويها العمل في أحيان كثيرة لا تهمنا في حد ذاتها ، كل ما يهمنا هوالدفعة التي تحققهـا داخـل وحدة الشكل ٠[٣]

ومن هنا أصبح التاريخ تحولاً لأنظمة لا مجرد انتهاء لمرحلة خاصة وبدء مرحلة جديدة ، فالدراسة البنائية للتاريخ تعتمد أساساً على المنهج الوصفي للأبنية ، لأن دراسة هـذا التتـابع تعتمد أساساً على المنهج النموذجي المقارن ، وتلجأ إلى حصر المضمون التاريخي فـي إطـار نموذج محدد يسهل التعامل معها ودراسة تحولاتها وتغيراتها ٠ [٤]

فالدراسة البنائية للتاريخ تدعو إلى الوصف اللازمنى للأبنية ، ودراسة التطور التاريخي تعتمد أولاً على النماذج المقارنة ودراسة تحولاتها ٠[٥]

فالأحداث التاريخية تحال على أساس بنائي أي وصف النظام في لحظة معينة ، ثم لا يلبث أن يحدث هناك تدخل من جانب عمليات التغيير يؤدى إلى بنية ثانيه في لحظة ثانيه ، ثم تتداخل عوامل التغيير فتؤدى إلى بنية ثالثة ٠

تعد الأبنية أقساماً متداخلة زمان ومكان ـددين ، خلال ـموعة من العمليات القابلة للوصف ، وهذا يعـ تغيـ اً مستمراً ، لذلك ليس هناك قطيعة التاريخ إلا إذا كان النموذج ا وجود غـ صا للتعبـ عن الأحداث ٠[٦]

---

[1] النظرية البنائية - د٠ صلاح فضل - ١٨٣ ٠

[2] النظرية التوليدية التحويلية - مشال زكريا – ص ٨ .

[3] مجلة البيان - مقال بعنوان – سقطة الحداثة والخصوصية الغربية - وائل عبد الغنى – العدد ١٩٠ – تصدر عن المنتدى الاسلامى – ص ٤٦ ٠

[4] النظرية البنائية فى النقد الأدبى - د٠صلاح فضل - ص ١٨٣ ٠

[5] ولعل أقدم فروع الدراسات اللغوية فى العالم هى الدراسات الوصفية , بل هو خير ما أنتجه أئمة اللغة فى العالم القديم وأوضح مثـال على ذلك ما قام به الهنود القدماء فى دراسة اللغة السنسكرتيه ٠ درسوا الكتب المقدسة دراسة وصفية وجعلوا لهـا قواعـد , سـموها السنسكرتية , وأقدم مؤلف وصل إلينا كتاب (بانتي) ٣٥٠ – ٢٥٠ م٠ق٠م٠ انظر اللغة بين المعيارية والوصفية – د٠تمام حسان - ص ٢٣ ٠

لا شك أن سوسير بنى لسانياته على تقـويم الماضـي ، أي الألـسنة الـسابقة ، والمرحلة السابقة لا تعنى حقبة تاريخية محددة و إنما مجالاً معرفياً يـشمل موضـوعات متنوعة ، ولا نعنى بدراسة مرحلة أو انتهاء مرحلة ، بل هيمنة المرحلة التالية على الـسابقة ، إذن التعايش غير المتكافئ بين المراحل ، ومراحل العلم عنده انحـصرت فـي النحـو ، والفيلولوجيا [(1)] منهج خاص للمقارنة بين نصوص من حقب مختلفة ، وتحديد اللغة الخاصة لكـل مؤلف ، وتحديد الكتابات المحررة بألسنة قديمة وغامضة وتفسيرها ولا شك أن النقد الفيلولـوجى ظل أسير العلاقة باللغة المكتوبة متجاهلاً بذلك اللسان الحي ٠[(٢)]

وموضوع اللسانيات في هذه المرحلة هو اللسان ، ومن ثم فـلا دخـل لتـاريخ الأدب والتقاليد ، ومنهج اللسانيات الوصف أ ى وصف كل لسان على حدة ، أما الفيلولوجيا تقوم بمقارنة الألسنة أي تسليط الضوء على لسان بواسطة لسان آخر.

فالبنائية اول إقامة بناء مغلق يلعب فيه النظام دوراً متميزاً على حسب التغي ، فالبنائية فقدت الثقة بالتاريخ واقتصر تطبيقها على الأنظمة القائمة كالأساط ، فالبنائية كانت خلاصة ارب تار ية للفكر الغر ٠

ونتيجة لذلك أصبح داء العبث وانعدام المعنى يسري في العقل الباطن بحيث يصعب على الإنسان تحديد ملامحه وتحليل أسبابه ، وأصبح أدب العبث مرآة تعكس وتكبر ما يعانى منه إنسان النصف الثاني من القرن العشرين ، سواء أكان يعانى من التفكك والتشتت وعدم وضوح الرؤيـة وعدم القدرة على تحديد الوسيلة والغاية ، والفصل بين الواقع والخيال والتكرار الناتج عن الافتقار إلى الأفكار الجديدة الخلاقة أو الرتابة التي تحول الحياة إلى وجود بدائي وهذا بدوره ينعكس على أسلوب الحديث حيث تكثر الجمل والتراكيب التي لا تخضع لأية قواعد في النحو والصرف ، بل أن الكلمات ذاتها تتحول إلى مجرد أصوات مدغومة مثل تلك التي تصدر عن الطيور والحيوانات ٠ وهذه الفوضى الفكرية واللغوية تؤدى إلى وجود الأفكار التي تربط بينها في كـلام الشخـصية الواحدة في لحظة معينة ٠

---

٦ مدخل للسانيات سوسيير – د. مبارك حنون – ص ١٣ .

[١] هو العلم الذي يقوم بمقارن النصوص من الجوانب التاريخية واللغوية والتاريخية ويعتبر علم الفيلولوجيا أساس علم اللغة أو غيره من العلوم التي تعنى تفسير النصوص وتحليل مادتها – علوم اللغة العربية في ضوء التراث واللغات السامية –د. محمود فهمي حجازي – ص ٣٤ .

٢ الدراسة البنائية تسعى لابراز الموروث فى الموروث أو الأعروقة فى النسق المعرفة , لتكشف عن الطبقة الحضرية الموغلة فـى العمق ليميزها من أروفة أخرى لها طبعتها وتركيبتها الخاصة , لذا لا بد من أن يجدها من خلال تارسخ تكوينها , وهذا العمل شبه متفرد , لذلك يلجأ إلى مصدري اللغة والنص الدينى كبعدى تكوين وإلى النصوص الأخرى كأنماط معرفية ٠ يتم من خلالها تحليل وتفكيك بناها للعثور على الخواص المعرفية لما اصطلح على تسمية ذاتاً عربية لها خصوصيتها , أثر الخـصوصية العربيـة فـى المعرفـة الاسلامية - د رفيق العجم - ص ٨ ٠

وبدأ الشكل الفنى الجديد يعتمد على الحركة النفسية التي تحل محل مطابقة الشخصيات للواقع ، ولذلك يختفي التسلسل والسبب ويعتمد الشكل الجديد على تصوير الوعي الحاد بهذا الفراغ . والعبث عن طريق المنطق العقلاني وعن طريق تجارب معزولة في فراغ بعيد عن التجربة الإنسانية الشاملة التي لا يكون لها وجود على الإطلاق .

ولذلك يستعين هذا الأدب بالإيحاءات الفرويدية التي تتخطى عالم المنطق المتعارف عليه ، كالأحكام مثلاً ، أي معنى العمل الأدبي بتركيز في إبراز اللا معنى حتى يمكن تحويله إلى تكوين منطقي متسق .[1]

إن مفهوم الفراغ أو المراوغة يرتبط بجوهر البنيوية القائم على إنكار القيمة المرجعية (Refrential) للوحدة اللغوية خارج النسق الذي يحدد قدرتها على الدلالة . فذاتية النسق اللغوي ورفض الربط التقليدي بين الدال والمدلول . ناتج من فكرة الفراغ التي ترتبط بالانقطاعات المعرفية والفجوات المترتبة على عمليات الإزاحة المعرفية ، حينما يزيح عصر معرفي عصراً آخر مولداً فراغاً في النقطة المنفصلة ، وهو المبدأ الذي أشار إليه البنائيون ، إزاحة معرفية تمثلت في الانتقال من الإنسان أو العقل البشري إلى اللغة ، إن الانقطاعات المعرفية وما صاحبها من عمليات إزاحة أواحلال مستمرة ارتبطت في الفكر الفلسفي بعملية التفتيت والشرذمة التي تعرض لها الكون بعد فترة طويلة ، كان الفكر الإنساني في أثناءها يرى الوجود وحدة متكاملة ، تجمع بين الإله والإنسان والكون واللغة ، من دون ذلك التفتيت لم تكن عمليات الإزاحة ممكنة ، وهكذا أزاح العقل اللغة بالمفهوم (الكانطي) في حقبة معرفية ثم أزاحت اللغة العقل والإنسان في حقبة أخرى ، وهنا نلاحظ مدى ارتباط الفكر الفلسفي بمفهوم المعنى ، ومفهوم الفراغ الذي أشارت إليه فلسفة التاريخ بقولها مناطق مهجورة أو متروكة ولكن ذلك يبرهن أن وظيفة اللغة كما هو مفهوم التاريخ عندهم ليست تمثيل الواقع ، ولكنها تهدف عن طريق التكرارات التلقائية للغة ، اكتشاف لفراغ غير معروف ، واستعادة أشياء لم يسبق قولها ، ويخلص إلى إقامة علاقات بين الفراغ القائم في قلب اللغة الأدبية والفراغ المطلق للوجود .

وهو فراغ يحاول الإنسان شغله باستمرار عن طريق التوليد [2] والإبداع وإلقاء الضوء على ما يقوله النص ، بل على ما لا يقوله .

وبناء على ما سبق يمكن القول أن الفكر الغربي في القرن الثامن عشر قطع أشواطاً في التحرر الفكري الديني حتى أطلق على هذا العصر عصر التنوير ، ولم يقصد بالتنوير سوى إبعاد

---

[1] أنظر المدرسة العبثية – كتاب المذاهب الأدبية من الكلاسكية إلى العبثية - نبيل راغب – ص ١٩٧ – ١٩٨ .
[2] المرآة المحدبة – د. عبد العزيز حمودة – ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .

الوحي عن التوجيه وأهم ميزة اختص بها عصر التنوير هي الإيمان بقدرة العقل على فهم الكـون واستيعابه و إخضاعه لحاجات الناس ٠

واعتبر القرن الثامن عشر عصر الهدم ، ولخص الدارسون السمات التي طبعـت هـذا العصر في الآتي : -

(١) نمو العقل وإحساسه بنفسه وقدرته .

(٢) إخضاع كل حدث تاريخي للعقل .

(٣) الإيمان بالأخوة الإنسانية على أساس الثقافة العقلية وليس الدينية ظز

ويقول هنري أيكن [١] عن القرن التاسع عشر بأنه عصر الأيديولوجية والبناء الجذري للعقائد ، ولذلك نجد فلاسفة القرن التاسع عشر الذين شكّو في وجود علة أولـى للأشـياء ، بـل اعتقدوا أن الإله قد مات في العلم ولم يعد للألوهية أية فائدة للناس في عصر العلـم والمؤسـسات العلمانية والسياسية والاجتماعية ، وكان الغرض هو نقد ثوري عميق للتفكير الديني ٠[٢]

إذن انبنت أفكارهم على الدراسة الوضعية كما هو عند سوسير الـذي يتجـاوز حـدود المنهج المعياري ، حتى يصل الأمر إلى مستوى التقييم وطرح البديل في مقابل معـايير محـددة تنبثق من الوحي وتوجيهاته .

ولا ضير في ذلك إذ العلمانية تهتم بدراسة وقائع الطبيعة والإنسان والمجتمع دراسة علمية بعيدة عن التصورات والمفاهيم الدينية ، واستوحت منهجها فى العلوم الإنـسانية مـن النمـوذج الطبيعي التجريبي باعتباره الوسيلة الوحيدة للكشف عن الحقيقة العلمية سـواء فـي الجوانـب الطبيعية أو الإنسانية ٠ والتخاص من الفكر الديني ونلحظ ذلك في تبني علماء القرن التاسع عشر مناهج الفكر التجريبي الذي يهدف إلى إقصاء التجريديات والتأملات للوقـائع والتجربـة تجربـة اجتماعية ، تقوم على مقارنة الظواهر في حالة تباينها واختلافها ودراسة العادات والتقاليد ومقارنة اللغات والتجربة الوضعية تغفل ذلك لسد الطريق أمام التفكير الديني والهدف من ذلك غرس عقلية لا تفكر باصطلاحات غير علمية وترفض التفكير الديني على أساس أنه غير علمي .

وتأثر ذلك الاتجاه بأفكار اليهودي دوركهايم التي تقوم على أن الظواهر تخضع لقـوانين طبيعية وبالتالي تضع البحث العلمي والظواهر الاجتماعية (كاللغة) أشياء خارجة عـن ذواتنـا ، توصف كالظواهر الطبيعية ، وأن نتحرر من كل فكرة سابقة حول هذه الظـواهر ، وأن تـأتى معرفتنا بها من الخارج عن طريق الملاحظة والمشاهدة وليس عن طريق التأمل والاستبطان ، بل

---

[١] هنير ايكون صاحب كتاب (عصر الإيدولوجيا من مفكري القرن التاسع عشر) .
٢ مناهج البحث الإجتماعي – محمد محمد مذبان – ص ٤١ .

تسلك مسلكاً عقلياً ، خاصاً ، لأننا لا نستطيع الكشف عن خواصها الذاتية عن طريـق الملاحظـة الداخلية، مهما بلغت من الدقة .

فالنظرية الوصفية تقوم على أساس أن الإنسان في بنائه الداخلي النفسي محكـوم كليـاً ببنائه الميتافيزيقي العضوي المادي ، والمفهوم الفيزيقي الخاص للـنفس الإنـسانية يهمـل كـل العوامل الأخرى كالشعور والدوافع ، والآراء الحرة ، وحينما تتعرض الدراسة الوضعية لدراسـة الظواهر الاجتماعية غير المادية تعطيها دلالات واقعية وتستبعد عنها العناصر الغيبية التي تكون جزءاً جوهرياً في حقيقتها .

مصطلح البنية :

جاء في المعجم الوسيط : (بنى الشيء بنياً وبناء وبنياناً ، أقام جداره ونحوه ، يقـال : بنى السفينة ، وبنى الخباء ، واستعمل مجازاً في معان كثيرة تدور حول التأسيس والتنمية ، يقـال بنى مجده ، وبنى الرجال ٠٠٠ والبناء : المبنى ، جمع أبنية ٠٠٠ وعند النحاة : لـزوم آخـر الكلمة حالة واحدة مع اختلاف العوامل عليها ٠٠٠ والبنية : ما بني ٠ جمع بنى ٠

البنية بالكسر ما بنى جمع بنى ، والبنية : هيئـة البنـاء ، ومنـه بنيـة الكلمـة : أي صيغتها٠٠٠ والبنية : كل ما يبنى وتطلق على الكعبة [1] باستثناء مثل هذه الإشارات فإن المعاجم العربية لا تقدم الكثير للباحث عند محاولته تقصي سيرة المصطلح (بنيـة) ممـا جعـل بعـض الباحثين يقرر في تسرع أن المصطلح غائبا في النصوص القديمة ، إذ قرر صـلاح فـضل أن القرآن الكريم قد استخدم اشتقاقات (بنى) نيفاً وعشرين مرة ولكن لـم يـرد فيـه ولا فـي النصوص القديمة كلمة (بنية) ٠ [2]

والحق أن المفردة لم ترد في القرآن الكريم ولا في الحديث النبوي ولكنهـا وردت فـي النصوص القديمة ، وإن لم يكن ذلك بالكثرة التي نالتها وصيفاتها ، بناء ، مبنى ، أبنية ، وغيرها ، فقد عرف النحويون والصرفيون مصطلح (بنية) منذ وقت مبكر واسـتخدموه فـي تعقيـدهم لقوانين الصرف ، ومن الإشارات الباكره لذلك تعريف بن عقيل للتصريف بأنه : (عبارة عن علم يبحث فيه عن أحكام بنية الكلمة العربية وما لحروفها من أصالة وزيادة وصحة وإعـلال وشـبه ذلك) [3] وكذلك تعريف (ا بن هشام له بقوله [4] : (هو تغيير في بنية الكلم عرض فـي كتـب

[1] المعجم الوسيط - مكتبة الصحوة - المنوفية - مصر - د ت – ص ٧٥
[2] النظرية البنائية في النقد الأدبي – د٠ صلاح فضل - ص ١٢١
[3] شرح بن عقيل - تحقيق محمد محي الدين - دار الفكر - دمشق الطبعة الثاني - ١٩٨٥ - ص ١٩ .
[4] أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك - ج٤ – ط ٥ - دار الجبل - بيروت - ١٩٧٩ ٠ تحقيق فخر الدين قيادة - ص ٣٦ .

الصرفيين بهذا المعنى . وقد حد هذا التصور الصرفي المفردة (بنية) وحصرها في تركيب حروف الكلمة مما حرمها من توسيع دلالتها فلم نكد نجد لها غير هذا المعنى في المعاجم القديمة ، فقد رسخت لها هذه الدلالة الصرفية فهي (الصيغة في المادة اللتى تتألف منها الكلمة ، أي حروفها وحركاتها وسكونها مع اعتبار الحروف الزائدة والأصلية كل في موضعه) .

عرف الغربيون المصطلح (بنية) Structure منذ فترة مبكرة إذ تنص بعض المعاجم الأوروبية على أن المعمار قد استخدم هذا المصطلح منذ منتصف القرن السابع عشر ، وقد اشتقت الكلمة من الأصل اللاتيني Sture الذي يعني البناء أو الطريقة التي قام بها مبنى ما ثم مفهوم الكلمة ليشمل وضع الأجزاء في مبنى ما من وجهة النظر الفنية المعمارية .[١]

ورغم أن العالم اللغوي دى سوسير لم يستخدم مصطلح بنية في محاضراته التي جمعها تلاميذه بعد وفاته في كتاب يحمل (محاضرات في علم اللغة العام)، إلا أن تعريفه للغة بأنها (نسق عضوي منظم من العلامات) واستخدامه المصطلحات مثل (النسق) والنظام) كان البذرة الأولى للدراسات اللغوية التي نظرت للغة باعتبارها نظاماً أو بنية ، ويكاد يتفق الباحثون في أن النزعة البنيوية اللغوية لم تظهر إلى حيز الوجود إلا في عام (١٩٢٨م) في المؤتمر الدولي لعلوم اللسان الذي عقد بلاهاي بهولندا حيث قدم ثلاثة من العلماء الروس : هم ياكبسون، وكارسفسكي ، وتروتبسكوي بحثاً علمياً تضمن الأصول الأولى لهذه النزعة وذلك في المؤتمر الأول للغويين السلاف الذي انعقد في براغ (١٩٢٩م) وقد استخدموا في ذلك البحث كلمة (بنية) بالمعنى المستعمل اليوم ، ودعوا إلى استخدام المنهج البنيوي بوصفه منهجاً علمياً صالحاً لاكتشاف قوانين بينية النظم اللغوية وتطورها .[٢]

ويعتبر ليفي استراوس من أوائل الذين أسسوا لهذا المفهوم عبر دراساته المكثفة في الانثربولوجيا ، وقد عرف البنية بالقول : (البنية تحمل أولاً وقبل كل شيء طابع النسق أو النظام ، فالبنية تتألف من عناصر يكون من شأن أي تحول يعرض للواحد منها أن يحدث تحولاً في باقي العناصر الأخرى) [٣] وهو التعريف الذي يمد جذوره في تربة سوسير وتعريفه للغة باعتبارها نسقاً أو نظاماً وقد أثار العديد من الباحثين الإشكاليات التي تثيرها البنية والبنيوية ، مثل خطورة إغفال المعنى ، أي إحالة الدراسة إلى دراسة صورية تهتم بالشكل وتغفل المضمون ، وذلك يفهم من خلال تعريف البنية بأنها تتألف من عناصر يكون من شأن أي تحول يعرض

---

[١] النظرية البنيوية – صلاح فضل – ص ١٩٢ .
[٢] مدارس اللسانيات التسابق والتطور – محمد زياد كبة – ص ١١٥ – ١٣٣ .
[٣] مقال بعنوان أصول البنيوية في الدراسات الأثنولوجيا – د. محمود فهمي حجازي - المجلد الثاني – العدد الأول (١٩٧١م) – ص ١٧٨ .

للواحد منها أن يحدث تحولاً في باقي العناصر الأخرى ، وهو التعريف الذي يمد جـذوره فـي تربة دي سوسير وتعريفه للغة باعتبارها نسقاً أو نظاماً٠

ومن هذا يعرف د٠صلاح فضل : (البنية عبارة عن مجموعة متشابكة من العلاقـات ، وهذه العلاقات تتوقف فيها الأجزاء أو العناصر على بعضها من ناحية وعلى علاقتها بالكل مـن ناحية أخرى ٠) [١]

وقد حاول لوسيان غولدمان تأسيس بنيوية لا تغفل الدلالة ، وهي البنيوية التكوينيـة ، فالعمل الأدبي عند غولدمان هو (تعبير عن رؤية للعالم ، وعن طريقة النظر والإحساس بعـالم ملموس بيشتمل على كائنات وأشياء ، والكاتب إنسان يعثر على شكل ملائم للخلاق ويعبر عن هذا العالم ، وهذا المفهوم يتسق مع النظرة إلى الخطاب الأدبي باعتباره تضافراً وثيقـاً بـين الـشكل والمضمون [٢] ٠

وبهذا فالشكل هو الموقف الذي يشكل العلم ، ولذلك الدلالة كامنة في الكلمات والعلاقات التي تقيمها بين بعضها البعض ٠

ونلاحظ أن البنيوية اعتمدت فصلها ب الشكل وا ضمون على تقسيم البنية إ بنية سطحية أو شكلية ثل الشكل ، وبنية عميقة ثل الدلالة ، ونع بالبنية السطحية أو الشكلية أو الظاهرية هنا كل ما يشكل عناصر هذا ا طاب من سرد وحدث ، أي شكل ا طاب الذي يكسبه فنية و نحه خصائصه ال يزه عن غ ه ، أما البنية العميقة أو البنية الدلالية فيع ا ا وضوعات أي الدلالات ال ينطوي عليها هذا ا طاب ، إذ ينطوي مفهوم البنية الدلالية على دمج الشكلية با وضوعات ، ولا يغفل التحليل الداخلي للنتاج وإدراجه ضمن البنيات التار ية والاجتماعية وغ ها ٠[٣]

أما المفهوم الأصولي للبنيوية بدأ من الفكرة الأفلاطونية التي جعلت نمو المعرفة أشـبه بنمو الفاكهة ، مهما يمكن أن تتفاوت الأسباب الخارجية فإن ما يجعل العصائر تصل إلى مستوى نضجها التام وهو قوة الشجرة الداخلية وميزتها ويبدو أن هذه الفكرة طبقت على اللغـة ، وهـي تشير إلى معرفة لغة خاصة تنمو وتنضج على مدى سلسلة من الأحداث تتحدد في جزء منها ذاتياً ، مع تعديلات تعكس الاستخدام الملاحظ بدلاً من أن تنمو في صورة النظام البصري أو غيـره من الاكتساب المادي للجوارح ، الذي يتحدد على مدى سلسلة من الأحـداث تحـددها إرشـادات جينية بفضل تأثيرات العوامل البيئية ٠

وارتبطت أيضا بفكرة اتحاد الفكر باللغة ، وقوبلت هذه الأفكار بصورة عامة باسـتنكار شديد في أوساط البحث اللغوي في أواخر القرن التاسع عشر ، واستمر الحـال هكـذا ، حتـى

---

[١] النظرية البنائية في النقد الأدبي - د٠ صلاح فضل - ص ١٩١ .
[٢] البنيوية التكوينية والنقد الادبي - ترجمة محمد سبيلا وآخرون - الطبعة الثانية - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت (١٩٨٦م) – ص ١٧ .
[٣] المرجع السابق – ص ٤٦ .

الخمسينيات من هذا القرن ، وقد تطور هذا الموقف جزئياً بتأثير فلسفة تجريبية قامت علـى يـد البلومفيلديين المعروفة (بالسلوكية) ولإدراك تناقض موقف السلوكيين مع إمكانيات دراسة القدرة اللغوية الكامنة في عقل المتكلم القومي ، فهم مقتنعون أن كل تجربة أو بحث أو عمـل يجـب أن يقتصر على الظواهر التي يمكن ملاحظتها مباشرة وهذا منافياً للقدرة اللغوية الكامنة في الدماغ .

وأدى هذا الموقف السلوكي إلى صور النجاح المتعلقة بالدراسات التاريخية والوصـفية ولا سيما الاكتشاف المتعلق بالقوانين الصوتية الذي أدى لفهم اللغات وعلاقة بعضها بـبعض ، وظهر الموقف السلوكي كنتيجة طبيعيةلدراسة نوعيةفى اللغات أعنى مما كـان معروفـاً لـدى الأوائل ، وهي اللغات التي انتهكت الأفكار السابقة للنحو العام كما يزعم العقلانيين .[1]

وبعد قرن من التجاهل ظهرت أفكار النحو الكلي وبدأت دراسة النحو على أنه مجـرد تفسير للقدرة الكامنة في عقل المتكلم القومي ، وليس مجرد وصف لمادة لغوية وأدى ذلك لظهور (نظرية النحو التوليدي التحويلي) .

وبعد ذلك العرض الموجز يمكن القول أن تغلغل المشروع البنيوي في واقعنا الثقافي في منتصف الثمانينيات ،أمر مؤلم حقاً فقد كانت البنيوية في بلاد النشأة ، قـد دفنـت ووريـت بالتراب منذ عام (١٩٦٦م) ، على يد الذين نادوا بالتفكيك .

والقراءة تمثل عند البنائي حياة النصوص و أن تمارس النقد معناه أن نشارك فـي دور الحياة لثقافتنا ننتج حياة هذه الثقافة لتنتج بدورها حياة أفضل وهذا جديد يحدده نقاد الحداثة للقارئ الذي لم يكن له دور في النقد التقليدي سوى التقييم .

وهذه ا رحلة ثل تطور الإ اه البنائي الذي خرج من تفسـ النص الداخلي بالنسق الأصغر أو الأكـ إ ا تلقي ، وهي نظام داخل نظام .

وتلقف العرب ذلك الاتجاه وحاول كمال أبو ديب في كتابه (الرؤى المقنعة نحو مـنهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي) تطبيق ذلك الاتجاه البنائي وهى من أول الدراسات البنيوية في أدبنا العربي ، ويقول أبو ديب معتبراً ذلك الفكر تقدماً والبحث عن التجربة الإنسانية التي تسكنه ، وأنني إذ أفعل ذلك فإنني في النهاية أحاول أن أطورمنهج نقدي يستطيع أن يكشف عـن علاقـة النص المدروس بالتجربة مع العالم الخارجي ، أي علاقتنا بالمجتمع وبالصراعات التي تدور فيه ، بل أبعاده المتعددة ، ومن هذا المنظور يبدو لي أن محاولة الربط بين العمليتين تلغـي الحكـم الذي يصدر عن التصور المسبق ، فالبنيوية هي ما أنجزه الغربيون وهذا خطأ في حق نـصوصنا التاريخية والأدبية بل في حق أعظم نص القرآن الكريم هذا خطأ جسيم وخطر بالغ يقـول الجـر

---

[1] المعرفة اللغوية - ترجمة محمد فتيح – ص ٥١ – ٥٣ .

جاني : (لو فرضنا أن تنخلع من هذه الألفاظ التي هي لغات دلالتها ، لما كان شيء منها أحـق بالتقديم من شيء ، ولا تصور أن يجيء فيها ترتيب ونظم) .

ثم يقول (ولو حفّظْت صبياً شطر (كتاب العين) أو الجمهرة ، من غير أن تفسر لـه شيئاً منه ، وأخذته بأن يضبط صور الألفاظ و هيئاتها ، ويؤديها كما يؤدي أصـناف الطيـور ، لرأيته ولا يخطر له ببال أن من شأنه أن يؤخر لفظاً ويقدم آخر ، بل كان حاله حال مـن يرمـي الحصى ويعد الجوز - اللهم إلا أن تسومه أنت أن يأتي بها على حروف المعجم لـيحفظ نـسق الكتاب) [1] وإذا قلنا بالجانب الشكلي فقط نرد بقول الجر جاني : (وإن تعسف متعـسف فـي تلاؤم الحروف ، فبلغ به أن يكون الأصل في الإعجاز ، وأخرج سائر ما ذكروا من أقسام البلاغة مـن أن يكون له دخل أو تأثير فيما له كان القرآن معجزاً ، كان الوجه أن يقال له و إنه يلومـك على قياس قولك أن تجوز أن يكون هاهنا نظم للألفاظ وترتيب ، لا على نـسق المعـاني ، ولا على وجه يقصد به الفائدة ، ثم يكون مع ذلك معجزاً ، وكفى به فساداً) [2]

---

[1] دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني – ص ٥٠ .
[2] المرجع السابق – ص ٦٠ .

المبحث الثاني

البنيوية الأصل و النشأة و التطور

أصول الفكر الكلي البنائي :

منذ أن طبقت بنية المجموع على العناصر المختلفة لا على العمليات الجبرية فحسب ، أصبح من الممكن افتتاح عصر الرياضيات الحديثة وكانت نقطة الانطلاق من هذه العملية تتمثل في نوع الاستدلال الاستقرائي الذي لا يتم فيه حصر مسبق للأعداد أو الأشكال أو الأبنية ، وقد أدى هذا المنهج إلى اكتشاف الأبنية الأم ذات الطبيعة التي تعتمد على أفكار التجاور والاستمرار حين تجتمع العناصر بروابط معينة ، لا شك أن هذا المنهج منهج عملي ولكن تطبيقه على اللغات أمر في غاية الخطورة لأن لكل لغة خصوصيتها وميزتها النوعية وخاصة اللغة العربية لغة القرآن الكريم والحديث الشريف الذي يمثل فيها الإيحاء والتصوير مصدراً من مصادر الجمال الفني في المعنى وليس التركيب فقط .

وبالإضافة إلى أن قواعد العربية تسير وفقاً للمعنى وليست قواعد تجريدية صماء تمثل أبنية تتفرع عنها مجموعات ولا يظل البناء ثابتاً بل في كثير من الأحيان يتحول وفقاً لمجريات السياق ومقامات الحال ، فنقول مفعولاً به في موقع الحال ، والحال في موقع المبتدأ ، والمبتدأ في موقع الفاعل ، وهكذا الكثير من الأمثلة التي تحمل ذلك كما ذكرنا ذلك في النحو الوظيفي ، ولذلك يتمثل الفخ الذي أعذر إليه البنيويين هو إغفال المعنى والاهتمام بالشكل الفائق ، ومن ثم ظهرت مقولات مثل (موت المؤلف) التي أطلقها رولان بارت[1] ومقولة (موت الإنسان) ، عند ميشيل فوكو[2] ، وكان أثر ذلك جلياً في عــزل النص عن سياقه التاريخي والاجتماعي والعقدي بـل أن تلغى دور الإنسانية وفاعليتها ويتمثل الخطر الأكبر في استخدام المنهج الرياضي . لا تهتم الرياضيات بما ترمز إليه هذه الحروف أو الأرقام مما يعفيها من كثير من مشاكل التطبيق ويضعها على قمة عالية من التجريد ، ويترتب على ذلك نتائج أهمها انحصار خصائص العناصر الأساسية للغات في كونها مجرد أبنية ميزتها الوحيدة ، هي أنها تختلف فيما بينها واعتبار أية خصائص أخرى تنتمي للعناصر أو لمجموعة منها مجرد علاقة ، لا تخرج البنية المنطقية عن أسس البنية الرياضية مما يضعها في مأمن من جانب التطبيق ، ولا يهم إن كانت رموزها تمثل شيئاً فعلياً أم لا والشيء الذي لم يثبت حتى الآن وجود علاقات بين اللغات تشبه علاقات الأبنية الرياضية . وحتى لو ظهرت علاقات مثل التحويل والتوليد والبنية العميقة والبنية السطحية لا بد من ضمان أن خصائص اللغات الذاتية لا تتدخل في

---

[1] رولان بارت – ناقد فرنسي - ثار على النقد التقليدى حتى شك في قيمته في ميدان الأدب أحدث نقداً جديداً يقوم على فلسفة الخطاب وله كتاب (الدرجة الصفر في الكتابة) انظر الإسلوبية والأسلوب - د . عبد السلام المسدي – ص ٢٤٠ .

[2] ميشيل فوكو - فلسوف فرنسي – يعد من أعلام البنيوية في ميدان الفلسفة ولا سيما الأصولية منها أما فلـسفته فمحورهـا الإنـسان بوصفه عاقلاً ناطقاً متنزلاً في الزمن من مؤلفاته (الأسماء والمسميات) مرجع سابق – ص ٢٥١ .

تكييف هذه العلاقات بشكل مختلف عما قدرناه للبنية ٠وذلك بأن نجري مقارنه في قواعد النحو التجريدي في اللغات بصورة عامة دون أن نأخذ في الاعتبار خصائص كل لغة ، أو نطبق مفهوم الشعرية أو الإنشائية دون مراعاة خصوصية كل أدب ، أو نص أدبي ٠ أمر في غاية التطرف ومجانبة الصواب ولا سيما أن الأصل في اللغة العربية لغة مقدسة ولغة شرعية لا تحتمل التأويل الباطني والخفي والكامن خلف النص ، وإلا لرجعنا إلى عهود تأويل النصوص بالظاهر والباطن كما حدث في التاريخ الإسلامي ، ونحي سنة تأويل القارئ للنص وفقاً لهواه وفلسفته التي يركن إليها فيحرف النصوص ٠ مثلما فعل أهل الكتاب يقول ابن تيمية : (وقد تبين من ذلك أن من فسر القرآن أو الحديث ، أو تأوله على غير التفسير عن الصحابة والتابعين فهو مفترى على الله يحرف الكلم عن مواضعه ، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد ، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام) . [١]

ويقول أيضا (في مقدمة التفسير) : (ومما ينبغي أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي (ص) لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة ، فإنه قد عرف تفسيره وما أريد بذلك من جهة النبي (ص) لم يحتج في ذلك إلى استدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم) . [٢]

فالبنيوية اعتمدت على الشكل ، والشكل هو الذي يحدد الاتحاد بين الصوت والمعنى ، صنيع عقلي منطلق من المادة اللغوية ومبتعد عنها ، وبالتالي لا علاقة للقيمة بالمادة أي المعنى غير متصل باللغة إنما هو متصل بالشكل أي بالعقل الذي يوجد فيه نظام العلاقة والتعارض والتضايف ولا قيمة لكلمة إلا داخل نسق لساني معين ٠ [٣]

فالاحتكام إلى العقل والتجريد بصورة منطقية آلية خطر بالغ وليس العقل هو الطريق الوحيد لمعرفة العلم ٠ يقول ابن تيميه : (طرق العلم : الحس والخبر، والنظر ، وكل إنسان يستدل في هذه الثلاثة في بعض الأمور لكي يكون بعض الأنواع أغلب على بعض الناس في الدين وغير الدين ، كالطب ، فإنه تجريبيات وقياسات وأهله منهم من تغلب عليه التجربة ومنهم من يغلب عليه القياس والقياس أصله التجربة ، والتجربة لا بد فيها من قياس لكن مثل قياس العاديات لا تعرف فيه العلة المناسبة ، وصاحب القياس من يستخرج العلة المناسبة ويعلق الحكم بها ، والعقل خاصة القياس والاعتبار والقضايا الكلية ، فلا بد له من الحسيات التي هي الأصل يعتبر بها و الحس إن لم يكن مع صاحبه عقل وإلا فقد يغلط ٠ والناس يقولون : غلط الحس ، والغلط

---

[١] مقدمة في التفسير – أبن تيمية المجلد الثالث عشر – ص ٢٤٣ .
[٢] المرجع السابق – ص٢٧ .
[٣] مدخل للسانيات سوسير – د. مبارك حنون – ص ١٠١ .

تارة من الحس وتارة من صاحبه ، فإن الحس يرى أمراً معيناً ، فيظن صاحبه فيه شيئاً آخر فيؤتي من ظنه فلا بد له من العقل) ٠ [١]

وهكذا يكون المنهج العلمي ، إما أن يكون عقلانياً كالمدرسة العقلية هذه ، فهذا إفراط وتعسف على إنسانية الإنسان وإما أن ندمج العقل بالتجربة وقد أثار العديد من الباحثين الإشكاليات التي تنشدها البنيوية مثل خطورة إذابة الواقع العيني في ثنايا ضرب من المنطق الكلي والرياضي ، مما يؤدي بالضرورة إلى إغفال المعنى ، أي إحالة الدراسة إلى دراسة صورية تهتم بالشكل وتغفل المضمون ، كما أن عناصر البنية التي يهتم بحصرها الباحث تفتقر إلى أي دلالة تنطوي عليها٠

فالبنيوية منظور فكرى فلسفي يعبر عن رؤية العالم وعن طريقة للنظر والإحساس بعالم ملموس يشتمل على كائنات وأشياء والكاتب إنسان يعثر على شكل ملائم يعبر عن هذا العالم ٠ [٢]

وهذا المفهوم يتسق مع النظرة إلى الخطاب الأدبي باعتباره تضافراً وثيقاً بين الشكل والمضمون فالشكل الأدبي ليس وعاء للتجربة ولكنه التجربة ذاتها وقد تشكلت بهذا النسق المعين ، ومن هنا فإن الشكل نفسه رؤية وموقف ومضمون ، ولا تجوز محاكمته من منطق انفصاله عن الرؤية التي ينطوي عليها أو المضمون الذي يقدمه ، أو العالم الذي يتشكل عبر عناصره و أدواته المختلفة ٠ إن الدلالة كامنة والعلاقات التي تقيمها بين بعضها البعض ولذا اندمجت الشكلية بالموضوعات ولذلك قسم اللغويون البنية إلى قسمين : سطحية أو عميقة دلالية إذ ينطوي مفهوم البنية الدلالية ، على دمج البنية الشكلية بالموضوعات ، ربما يغفل التحليل الداخلي النتاج وإدراجه ضمن البنيات التاريخية والاجتماعية وغيرها ٠

فالنص البنيوي نص تشكيلي يصرف المتلقي عن الدلالات المرجعية للكلمات ، وتتحول الكلمة إلى إشارة ، لتدل على معنى ، وإنما تثير في الذهن إشارات أخرى وتجلب صوراً لا يمكن حصرها .

وهنا نشير إلى أن العلم ينقسم عندنا إلى قسمين علم نظري وضروري، والنظري مستند إلى الضروري والضروري هو العلم الذي يلزم نفس المخلوق لزوماً ، لا يمكنه ، الانفكاك عنه ، وهي عند الصوفية ، تعلم علم اليقين ، فإن لم يكن علم ضروري لا بد له من دليل والدليل يكون مستلزماً للمدلول عليه ، بحيث يلزم من انتفاء الدليل انتقاء المدلول عليه ، فقالوا : فإن كان لو دفع ذلك الاعتقاد الذي حصل له لزم دفع شيء مما يعلم بالضرورة ، فهذا هو الدليل ، وإن لم يكن كذلك فهذا هو

---

[١] مقدمة في التفسير – أبن تيمية – المجلد الثالث عشر – ص ٧٦ .

[٢] البنيوية التكوينية - ترجمة محمد سبيلا وآخرون - الناشر مؤسسة الأبحاث العربية - مجلة الآفاق – اتحاد كتـاب المغـرب – الطبعة الثالثة ١٩٨٦م - ص ٩٥ - ١١٥ .

شيء لا يلتفت إليه) فإذا لم يكن دال ولا مدلول بل بوجود دال ليس له دليل فهذا هوس وجنون فهؤلاء يتبعون ظناً يوافق أهوائهم وتفسيراتهم فيحولون النصوص وفقاً لتفسيراتهم التي لا تخضع إلا لنظام شكلي تسيطر عليه عقلياً فأفسر اللغة باللغة دون مراعاة للحدث التاريخي أو الديني أو الثقافي .

واعتمد الاتجاه البنيوي في فلسفته العصرية على قيمتي الكتابة والقراءة أو الكتابة القراءة بمعنى أن الكتابة تقرأ القارئ والنص يتكلم طبقاً لرغبات القارئ ، في النص لا يتكلم إلا القارئ ٠ أي فهم النص بتوقعاته ومفاجآته ناتج من القارئ ، وحتى معانيه يفهمها القارئ حسبما يشاء أي أن قيمة النص هي أن يجعل القارئ يكتبه أو يعيد كتابته ، أن يحطم قاعدة التعامل بين كاتب منتج وقارئ مستهلك ، وهما وجهان لحقيقة واحدة وقيمة واحدة ، الكتابة فعل أشبه بالقراءة ، والقراءة فعل أشبه بالكتابة وقيمتها ليست في الشيء المنتج للمعنى بل في الإنتاج نفسه ، ولكن الأدب الفعل هو وحده شاهد للعصر فمشكلة الكاتب هي تحرير الكتابة من كل المواضعات التي فرضها الأدب ، لأن هذه المواضعات جميعها لم تعد صالحة للتعبير عن عالمنا الممزق .

والاقتراح البنيوي أن نرجع إلى لغة ثانية لغة بريئة آدمية وان نعود إلى درجة الصفر حيث لا توجد أية علامة مميزة ، والسخرية في ذلك حتى لو نجح في ذلك سيجد نفسه أسير هذه الطريقة الجديدة التي ستصبح بدورها تقليداً ٠[1] فلسفة الكتابة هروب مستمر هدفه عالم واحد خالي من كل تميز وتحديد نقيض لعالمنا الحاضر الذي بلغ النهاية والتعقيد ٠ عالم هو حرية تامة عالم تعطلت فيه اللغات وغابت الحدود التي رسمها الإنسان فهو حلول كامل ، فراغ مطلق مـن هذا العالم لن تكون هناك أشياء لن تكون هناك قيم ثابتة وإنما هو فعل محض ٠إن مفهوم بارت (للكتابة) يشف عن نزعة اشتراكية إنسانية طوبوية ، وقد يقال أن هذا المفهوم الاشتراكي الإنساني الطوبوي ينسحب إلى مرحلة مبكرة في تطور بارت الفكري ، ومن ثم لا ينبغي إقحامه في البنيوية وكتاب بارت درجة الصفصر في الكتابة وهى الفكرة نفسها أي الرجوع إلى لغة آدمية بريئة ، تحمل آثاراً قوية من الماركسية والوجودية معاً ٠

البنيوية ترى أن مبدأ التجربة اللفظية مختلف عن مبدأ التجربة الكتابية ، فالكتابة ليست تصوير للكلام ، ولكنها تحول له ، وهي وسيلة للسان ومن ثم فإنها علامة على الكلمة الملفوظة أي محاولة لربطها بعلامة ، ويعبر محورا اللغة الأفقي والرأسي عن الصور التي هي تحمل المعنى وتربط بين المدلول الظاهري والمدلول الواقعي .

---

[1] مقال موقف من البنيوية - د٠ شكرى عياد – مجلة فصول - المجلد الثاني العدد الأول - يناير ١٩٨١م - ص ١٩٢.

والأشكال ا مالية تع عن رؤية العا ، وتفهم هذه الأشكال يربط ب تطور التصوير ا ديث وتطور ا يز الأد الذي يكسر تتابع السياق والتعاقب الذه لإبعاد كل عمق تار ي ، وذلك لق عا لا ذه شبيه با رافة ٠ وهذا يعكس حالة عدم الاستقرار ال ترهق الإنسان ا عاصر .

وقد كان لهذا الاتجاه صداً في ظهور كتابات عشوائية أو كتابات مجنونة تبلورت فيها الرغبة في خلق لغة متحررة من القيود ، وذلك عن طريق اختراع ألفاظ أو تراكمات نحوية وأشكال كتابية غير مألوفة وتبدو هذه الكتابات المغرقة في الرمزية كأنها تتعامل مع العلامة لا من أجل المعنى الحرفي أو المقصود ، بل من أجل حيز تختلط فيه اللغة بالعالم المحسوس ، وما النفي إلا مجاز علاقته بين المنقول والمنقول إليه هي الحالة النفسية الواحدة في كل .[1]

فلسفة الكتابة :

الأعمال الأدبية الصالحة للتعبير أي إعادة كتابتها بواسطة تحليلها وفقاً لكتاب (الحياة) أو كتاب الأدب الكبير هذه النصوص توصف بأنها منتجة للمعنى ، وليست نواتج عن معنى ، هذه النصوص التي يراد بها أن تكتب حاضر دائم ، لا يمكن أن يوضع فوقه أي قول مترتب عليه ، لذلك رفض البنيويون التعليل ، حتى لا يحول إلى ماضي٠ الأمر الذي جعلها ترفض تاريخ النص الذي يكتب في حالة الكتابة ، قبل أن تصبح لعبة العالم اللانهائية ، العالم باعتباره لعبة محترقة ومقطعة وموقوفة ومجمدة بنظام واحد (أيديولوجية ، جنس أدبي ، نقد) ، يختصر كثرة المفردات ، وانفتاح الشبكات ، ولا نهائية اللغات ، النص الذي جعل ليكتب ، هو الروائي بلا رواية ، والشعر بلا قصيدة ، والمقالة بلا حديث ، والكتابة بلا أسلوب ، الإنتاج بلا نتاج ، البناء بلا بنية ٠ [2]

ونلاحظ أن النص الأدبي الذي يريده البنائي نصاً حدياً متطرفاً ، إنتاج بلا نتاج، يكون به عدد من الأصوات يسمح بالنظر إليه كواحد من الاختلافات التي لا نهاية لها ، وغاية الناقد إظهار هذه الأصوات الكثيرة التي يتكون منها ، وليس له معنى كلي . ومعناه يتحقق بفضل هذه الحركة المستمرة بين سطوحه ، فالناقد يفسر العمل الأدبي ، يحطم العمل الأدبي في سبيل اكتشاف الأصوات الكثيرة التي يتكون منها ، واللعب الدائر فيما بينها ، ومن ثم فالعالم لعبة لا نهائية ، كثرة مفردات ولغات لا نهائية ، هذا التفسير يحصر كل ذلك بنظام مجمد واحد ، أدبية الأدب ، النقد البنيوي ، أو فلسفة الفكر البنيوى الأيديولوجية التي تدعوا إلى وحدة العالم في فكر كلي واحد أو بنية منظمة للعقل الإنساني يشرح الفعل الإنساني في مختلف الحضارات ٠ ووفقاً

---

[1] الدوريات الفرنسية – هدى وصفي – مجلد فصول – المجلد العدد (١٩٧١م) – ص ٢٨٣ .

[2] مقال بعنوان موقف من البنيوية - د شكري عياد – مجلة فصول - المجلد الأول - العدد الثاني - ص ١٩٢ .

لهذه البنية ، لذلك اعتبروا الأدب (فعلاً) فعلاً محض، وبالتغير الحـديث جريـاً وراء الـسلطة والمنصب والجاه ، يجدوه حطاماً ، ثم يجربوا ثانية و ويجدوه حطاماً ويجربوا ثالثة وهكذا عالم بلا قيم ثابتة ، دين جديد، كأن الزمن استدار كهيئة يوم خلق ا السماوات والأرض ·[1] عالم واحـد بلا تمييز بلا حدود بلا فواصل بلا حضارات نقيض لعالمنا الذي بلغ النهاية في التعقيد ·

أكدت الدراسات الغربية أن اتخاذ لغة نموذجية للغة (ما) يمثل بعداً سياسياً مقصوراً في ذاته ، فعلى سبيل المثال تبدو اللغة الإنجليزية نموذجية ، بفضل الأهمية السياسية والثقافية للندن ، وتبدو اللغة الفرنسية النموذجية في وضع مماثل نتيجة لهيمنـة بـاريس ، وهـذا لا يعنـي معيارية اللغة الفرنسية النموذجية، وهذا لا يعني أن معيارية اللغة ليست ، بشكل جزئي حالة مـن التدخل المقصود ، ولذا تعد اللغات الإنجليزية والفرنسية كلغتين مكتوبتين أكثر معياريـة مـن اللغات الرئيسية الأخرى في أوروبا ، وفي ظل هذه الحالات يلاحظ أن اللغة المكتوبة تميل إلى أن تكون أكثر معيارية من حديث أولئك الذين يستخدمونها وعلى كل حال فإنه يعمل بافتراض وجود مستوى مقبول للغة المكتوبة فإنه يعمل كنموذج للياقة في كلام المثقفين في أي مجتمع تجابه فيـه اللغة المكتوبة إمكانية التقدم الاجتماعي ، والمعنى أن ما يعني باللغة النموذجية ، أن هذه اللهجـة التي يستخدمها في المواقف الرسمية متطابقة إلى حد ما في النحو والمفـردات مـع المـستوى المكتوب ، ولا شك أن الاختلاف بين اللغات المعيارية واللهجات الدارجة بعيد ولا سـيما فـي التمييز الوظيفي بينهما ، الذي يعتبر نوعاً من الثنائية اللغوية أو الازدواج اللغوي ·

واللغة النموذجية تمثل قوة ارتباط تاريخي بين اللغة والقومية ، لذلك يمكـن أن نعتبـر عملية التوحيد اللغوي بقرار سياسي إذا كانت تتضمن اختيار إحدى اللهجـات الدارجـة المميـزة العديدة المستخدمة ، أنها تضع المتكلمين الأصليين في اللهجة الدارجة موضـع الاختيـار فـي وضع أفضل من الناحيتين السياسية والاجتماعية من المتكلمين للهجات الدارجة الأخرى ·

لذا يمكن الإشارة إلى أن استخدام اللغة العربية الفصحى في البلاد العربية دليـل علـى التميز الثقافي والسياسي ، ويمكن القول أن اللغة النموذجية تميل إلى الاتصاف بالمعيارية سـواء أكان ذلك عن قصد أم لا ·

والغرض من هذه الملاحظات توضيح العلاقة بين اللغات المعيارية من ناحية واللغـات الرسمية والقومية من ناحية أخرى وإلى تقعيد التنوع الموجود فيما يتعلـق باللغـات المعياريـة واللهجات الدارجة .

---

[1] مقال بعنوان موقف من البنيوية - د شكري عياد – مجلة فصول - المجلد الأول - العدد الثاني - ص ١٩٢ .

البنيوية منهج فكري وأداة للتحليل تقوم على فكرة الكلية أو المجموع المنتظم اهتمـت بجميع نواحي المعرفة الإنسانية ، وإن كانت قد اشتهرت في مجال علم اللغة والنقـد الأدبـي ، ويمكن تصنيفها ضمن مناهج النقد المادي الملحد ، اشتق لفظ البنيوية من البنية إذ تقول : كـل ظاهرة إنسانية كانت أم أدبية تشكل بنية ، ولدراسة هذه البنية يجب علينا أن نحللها أو نفككها إلى عناصرها · المؤلفة منها بدون أن ننظر إلى أية عوامل خارجية عنها .·

ويقول شكري عيادا ذهب البنيوي عمد أصولاً فكرية ميزته عن ا ذاهب النقدية ولا سيما الشكلي الروس إذ حفز ياكبسون النقد البنيوي أن يهتم بالشكلي الروس ، هذه تأث ات واضحة عملت تكوين النقد البنيوي من خلال التر ة ، بالإضافة إ التأث ا بهم الذي يسمى روح العصر أو بدعة العصر .

ويقول شكري (فالبنيوية التي تبدو لكثيرين بدعة جديدة ليست في الواقع إلا وجهاً مـن وجوه الحداثة التي تمتد جذورها إلى أواخر القرن الماضي ، ··· ولكن الحداثة إذا كانت تعنـي قطع الوشائج التي تربط اللغة بما هو مبزول وعادي بحيث تتخلص من تبعيتهـا لغيرهـا كـأداة توصيل · فلا شك أن البنيوية تدفع بهذه العملية إلى أقصى مداها فإذا اذن لنا أن نتحـدث عـن مذهب تجريدي في الأدب ينفي تماماً وظيفة التصوير أو المحاكـاة ، التـي ينفيهـا المـذهب التجريدي في الفنون التشكيلية ، فإن ذلك المذهب هو البنيوية · [1]

لم تهتم البنيوية بالأسس العقدية والفكرية لأي ظاهرة إنسانية أو أخلاقية أو اجتماعية ، ومن هنا يمكن تصنيفها من المناهج المادية الإلحادية مثل المناهج الوضعية ، وإن كانـت هـي بذاتها ليست عقيدة وإنما منهج طريقة في البحث ·

البنيوية التي تبدو للكثيرين بدعة جديدة ليست فىالواقع إلا وجهاً من وجوه الحداثة التي تمتد جذورها إلى الآن ، ولكن إذا كانت الحداثة تعني أساساً قطع الوشائج التي تربط اللغة بما هو مبزول وعادي ، بحيث تتخلص من تبعيتها لغيرها كأداة توصيل فلا شك أن البنيوية ترتفع بهذه العملية إلى أقصى مداها ·

فالبنيوية كذلك مذهب تجريدي لذلك اتجهت إلى الرواية التي استطاعت بواسطة التحليل البنيوي أن تكشف عن أدق الحيل اللغوية التي يعتمد إليها القصصي لينسلخ عن الواقع ·

كما أن الرواية تعمل في مستويات عديدة تتعلق بالحياة الاجتماعية والثقافية والعلاقـات هي جوهر النظام بحثاً وراء تطوير جزء من الأجزاء لذلك يقول شكري عياد (البنيوية تحـاكم التاريخ لأنه يغفل العلاقات بين الأجزاء مع أن هذه العلاقات هي جوهر النظام) وهذا أثر واضح من آثار سوسير الذي اعتبر اللغة ظاهرة اجتماعية وكائناً حياً يقدم على ظواهر مترابطة وماهية كل عنصر وقف على بقية العناصر الأخرى ·

---

[1] مقال بعنوان موقف من البنيوية - د شكري عياد – مجلة فصول - المجلد الأول - العدد الثاني – ص ١٩١ – ١٩٤ ·

ويقول المسدي: (ليست البنيوية في بادئ أمرها إلا تعميماً لهذه النظريـة علـى بقيـة أجزاء الظواهر الإنسانية حتى غزت حقول علم الأجناس البشرية وفلسفة العلوم وكذلك مجـالات النقد الأدبي ، إذ تبلورت البنيوية فلسفةً ونظرة في الوجود بعد أن تأثر بإفرازات العلوم الصحيحة ولا سيما الرياضيات الحديثة عادت إلى منبعها الأم اللسانيات فأحـدثت فيهـا أطـواراً جديـدة وربطت بينها وبين الأدب ربطاً تبين في ما سلف بعض ثماره ونعرج عليه الآن لنحدد به أصول نشأة الإسلوبية البنيوية المعاصرة) . [1]

إن دراسة أي ظاهرة أو تحليلها من الوجهة البنيوية ، يعني أن يباشر الدارس أو المحلل وضعها بحيثيتها وتفاصيلها وعناصرها ، بشكل موضوعي من غيـر تـدخل فكـره أو عقيدتـه الخاصةفى هذا ، أو تدخل عوامل خارجية مثل حياة الكاتب أو التاريخ في بنيات الـنص وكمـا يقول البنيويون ، نقطة الارتكاز هي الوثيقة لا الجوانب ولا الإطار Testiscontest وأيـضا البنيـة تكتفي بذاتها ولا يتطلب إدراكها اللجوء إلى أي من العناصر الغريبة عن طبيعتها وكل ظاهرة تبعاً للنظرية - البنيوية – يمكن أن تشكل بنية بحد ذاتها ، فالأحرف الصوتية بنية ، والضمائر بنيـة والأفعال بنية . تتلاقى المواقف البنيوية عند مبادئ عامة مشتركة لـدى المفكـرين والغـربيين وفـي شتى التطبيقات العملية التي قاموا بها ، وهي تكاد تندرج في المحصلات التالية :-

(١) السعي لحل معضلة التنوع والتشتت بالتوصل إلى ثوابت في كل مؤسسة بشرية .

(٢) القول بأن فكرة الكلية أو المجموع المنتظم هي أساس البنيوية ، والسرد التي تؤول إليه فـي نتيجتها الأخيرة .

يمكن القول أن البنيوية التي سارت في خط متصاعد منذ نشوئها ، وبذل العلماء جهـداً كبيراً لاعتمادها إسلوباً في قضايا اللغة والعلوم الإنسانية والفنون ، فإنهم ما اطمـأنوا إلـى أنهـم توصلوا من خلالها إلى المنهج الصحيح المؤدي إلى حقائق ثابتة .

في مجال النقد الأدبي ، فإن النقد البنيوي له اتجا ه خاص في دراسة الأثر الأدبي الـذي يتلخص في أن الأنفعال والأحكام والوجدانية عاجزة تماماً عن تحقيق ما تنجزه دراسة العناصر الأساسية المكونة لهذا الأثر ، لذا يجب أن تفحصه في ذاته ، من أجـل مـضمونه ، وسـياقه ، وترابطه العضوي ، فهذا أمر ضروري لا بد من اكتشاف ما فيه من ملامح فنيـة مـستغلة مـن وجودها عن كل ما يحيط بها من عوامل خارجية .

---

[1] الأسلوبية والأسلوب - المسدى – ص ٥٠ - ٥١ .

إن البنيوية لم تلتزم حدودها ، وآنست في نفسها القدرة على حـل جميـع المعـضلات وتحليل كل الظواهر ، حسب منهجها ، وكان يخيل إلى البنيويين أن الـنص لا يحتـاج إلا إلـى تحليل بنيوى كي تنفتح للناقد كل أبنية معانيه المبهمة أو المتوارية خاف نقاب السطح ، في حين أن التحليل البنيوي ليس إلا تحليلاً لمستوى واحد من مستويات تحليل أي بنية رمزيـة ، نـصية كانت أم غير نصية والأسس الفكرية والعقائدية التي قامت عليها ، كلها تعد علوماً مـساعدة فـي تحليل البنية أو الظاهرة إنسانية كانت أم مادية ٠

وبذلك البنائية ليست ظاهرة منعزلة ، إنها إلى حد ما تعبير عن اتجاه عام فـي الفكـر أصبح في العقود الماضية أكثر وضوحاً في كل مجالات البحث العلمي تقريباً وما يميـز البنائيـة بمعناها الأعم الاهتمام العظيم بالعلاقات التي ترتبط بين الكينونات أكثر من الاهتمام بالكينونـات ذاتها ، وهناك صلة طبيعة في هذا الجانب بين البنائية و الرياضيات وأخذ الانتقادات التي وجهت للبنائية وأكثرها شيوعاً أنها تبالغ في تنظيم أنماط علاقات الحقائق التي تبحثها وتبالغ في روعتها وعموميتها [١] ٠

ويش وليام جونز مكان آخر بأ ا منهج بقوله كن أن تعد البنائية جزئياً رد فعل منهجي صحيح على ا اه وصف اللغات الوطنية العا ا ديد من خلال فصائل النحو التقليدي الغر [٢]

<u>ويمكن القول أن هناك ثلاثة ظواهر ساهمت في بروز الفكر البنيوي : -</u>

(١) الوصف التزامني للغات ذاك المنهج السوسيري الذي يقدم الاجابه على السؤال (لماذا تكون الأشياء على ما هي عليه) فبدلاً من أن يرسم صورة التطور التاريخي يضع معاني معينة يظهـر كيف كل الصيغ والمعاني على علاقة متبادلة في نقطة زمنية محددة في نظام لغوي معين ، فهـو وصف بنيوي وظيفي ، ما دامت اللغة لا تتطور حسب وجهة سوسير ٠ فالوصف اللغوي للغة ما يخبرنا كيف تتلائم المكونات كلها معاً ٠

(٢) الفصل بين اللغة والكلام ، اللغة شكل وليست مادة ، مصطلح شكل مصطلح فلسفي ارتـبط بفكرة هامبولت عن الشكل الداخلي للغة ، أو عند الشكليين الروس الشكل المقابل للمحتوي ، وهو مصطلح مضال ، وبنية ما يقتضي أنها مستغلة عن المادة فيزيائياً أو الوسيلة التي تحقق بهـا ، والبنية بهذا المعنى مكافئ تقريبي للنظام ، وهو نظام ثنائي من المستوى مـن العلاقـات الأفقيـة والرأسية ، إن هذا هو معنى بنية ، والمعنى الذي يعطي تأكيد خاص لعلاقات التضاد والتضام في

---

[١] اللغة وعلم اللغة - تأليف وليام جونز - ترجمة مصطفي التونى - ص ٦٢ .
[٢] المرجع السابق - ص ٦١ .

إطار نظام لغوي ، ولذلك مثلت البنيوية كل مدارس القرن العشرين التي شملت تصورات معينة .

(٣) اللغات نظم إشارية ترتبط فيها الإشارة بما تشير إليه ارتباطاً عشوائياً ، وهو مبـدأ سوسـير الشائع عن العشوائية بالإشارة اللغوية و وإن الإشارة ليست صفة دلالة ، إنما هي كينونة مركبـة من فرض البنية على نوعين من المادة بواسطة علاقة التضاد والتضام في النظـام اللغـوي ، أي المعنى هو المعنى الوصفي أكثر من معناه الحقيقي [١] .

ولا شك أن كل هذه الملامح كان لها أثر من صياغة البنائية كمفهوم فكري عام وهـي اتجاه ذو انضباط داخلي شديد والبنائية قوة مؤثرة في تطور منهج فرنـسي مميـز فـي علـم السيمولوجيا وتطبيقاتها في النقد الأدبي . وفى تحليل المجتمع والثقافة .[٢]

وخطورة النظام الذاتي تكمن في أن اللغة حقائق اجتماعية تختلف عن الأشياء المادية ولا تقل واقعية عنها و إنها خارجية بالنسبة للفرد وأنها تخضع الفرد لسيطرتها ، وأنها نظام من القيم يساعد العرف الاجتماعي على استمرارها [٣].

ويقول د. صلاح (وإذا كان مصطلح البنية يثير انطباعاً مرتبطاً بشيء مادي كأنه هيكل عظمي أو التصميم الداخلي للأعمال الأدبية بما يمثل من خيوط رئيسية منظوره فإنـه ينبغـي أن نأخذ في الاعتبار أن البنية الأدبية ليست شيئاً حسياً يمكن إدراكه في الظاهر ،... إنما هي تصور تجريدي يعتمد على الرموز وعمليات التوصيل آلتي تتعلق بالواقع المباشر ، وتعد البنيـة ذاتهـا شيئاً وسيطاً وراء الواقع) . [٤] .

أما تعريف البنية في الشعر ليست سوى مجموعة من الأنظمة الدالة التي تقـوم فـي مكان وسط بين اللغة من ناحية والشيء الخارجي من ناحية أخرى . فالبنية في الـنص الأدبـي تعبر من خلال بناءها وشكلها عن رؤية العالم الكامنة [١] صلاح فضل في طريقة تشكيله لهـذه الصورة .

والمعنى من ذلك أن بنية العمل الأدبي شكل بنائي لا يخرج بقية الأنظمة الأخـرى ، إذ يمكن شرح النص من خلال مقارنته بنصوص أخرى من نوعه ، مثلاً الممارسات الدينية والعقائد الفكرية والنصوص الدينية كبنية لا تنفصل عن بقية النظام تشرح من خلال مقارنتها بالنـصوص

---

[١] اللغة وعلم اللغة - تأليف وليام جونز - ترجمة مصطفي التونى – ص ٦٠ .
[٢] المرجع السابق – ص ٦٢ .
[٣] المرجع السابق – ص ٥٩ .
[٤] النظرية البنائية – د. صلاح فضل – ص ١٩٦ – ١٩٧ .
[١] النظرية البنائية – د. صلاح فضل – ص ١٩٨ .

الأخرى ويتم تفكيكها وشرحها وفقاً لهذا البناء ٠ أي وفقاً للغة الرمزية التي تمثـل لغـة جمعيـة متعددة الدلالة لا تكف عن توليد المعاني المختلفة في كل استعمال خاص . [٢]

وتكمن الخطورة في هذا المنهج على أن شرح النص يكون بإيحاء من حدس القـارئ ، وهو حدس جدلي ، ليس المهم عنده الوصول إلى شرح النص بنتيجة إيجابية ، تصل إلـى دلالـة أخيرة ، إنما المهم هو الدخول من خلال التحليل الدائب في لعبة الدلالة نفسها ، أي تعـدد وجـوه النص وجماعيته ٠ أنظر خطورة ذلك الأمر الذي تكمن خطورته بالنسبة للنصوص الشرعية في جانبين : -

الأول :

مقارنة النصوص باعتبارها أشكال و أنظمة لبنية واحدة أو نسق محـدد ، يـتم شـرح النصوص وفقاً عليه ، أي وفقاً للمنظورا لفكري ٠

الثاني :

النص في تفسيره لا يحتكم إلى معنى محدد بـل تتعدد وجـوه النص ، بجماعية القراءة ، [٢] ٠ بناء على اللغة الرمزية التي هـي لغة متعددة الدلالة لا تكف عن توليد المعـاني ٠وأي نص لا يخضع لهذا البناء فهو نص عاجز لأنه لا يخضع للتأويل الذي يخضع بدوره لنظام الناقد ، وموقفه الأيديولوجي ، يعني يفسر النص حسب رؤيته الأيديولوجية تجاه الكون أو الطبيعـة أو أي شيء يقوله النص ٠ فهو ميت مطـروح على أيدي الناقد يقلبه حيث شـاء ٠ وهنـا تكمـن خطورة المذهب البنائي في تحليل النصوص الشرعية وفقاً لعقائد قراء يقلبونهـا وفقـاً لعقـولهم القاصره عن فهمه ٠ وهذا يذكرنا بما قاله أصحاب الإعجاز البلاغي في القرآن ٠

فالبنيوية مدرسة فكرية ساهم فيها مؤسسيين مختلفي التخصص ، ليفى ستراوس الفرنسي (١٩٠٨) اختصاصه علم الانثربولوجيا فالبنيوية استبطان أو منهجية ، غرضه الوصـول إلـى أقصى أعماق النص ، والكشف عن ذروة المعنى الذي يكون بمثابة خلاصـة جوهريـة لمنطـق النص ، وقد حققت البنيوية نجاحاً كبيراً على يد رولان بارت ومايكل ريفاتير[١] وتودروف[٢] ، ونلاحظ أن البنيوية اتجهت إلى تراثها الغربي وأخذت تدرسة دراسة بنيويـة أو قـراءة بنيويـة

---

[٢] المرجع السابق – ص ١٩٩ .

[١] أستاذ بجامعة كلومبيا مختص بالدراسات الأسلوبية منذ مطلع العقد الخامس من مؤلفاته (محاولات في الإسلوبية البنيوية) أنظر الأسلوب والأسلوبية – د. عبد السلام المسدي – ص ٢٤٧ .

[٢] فرنسي الجنسية له كتاب نظرية الأدب –أنظر المرجع السابق – ص ٢٤٤ .

مستترة مثل ماركس وفرويد ، وإن دل ذلك إنما يدل على أن جوهر البنيوية هو جدل تضاد ثنائي

. وفكر فلسفي يطبق على أفكار فلسفية تحمل جدل منطقي وتعارضات واختلافات جدلية . [٣]

تمثل الثنائية محوراً أساساً في المنهج البنيوى ، ومصطلحات البنئاية تحمل في لفظهـا مبـدأ الثنائية ، مثل كتاب (جدلية الخفاء والتجلي) [٤] للدكتور كمال أبو ديـب ، وترتكـز الدراسـة البنيوية في تحليلها على التضاد بين عالمين متجاورين في الـنص والقـيم الخلافيـة ، والغيـاب والحضور ، والبنية التحتية والفوقية،أو السطحية و العميقة والتوليد والتحويل و اللغـة والكـلام ، الدال والمدلول .

وينتقد الدكتور صلاح فضل هذه الثنائية في حديثة عن كتاب (جدلية الخفاء والتحلي) الذي اعتمد على اقتطاع جزازات من الشعر يتبدى فيها لون من الثنائية ، يقـول : (بـالرغم مـن أن محور الثنائية أساسي في المنهج البنيوي إلا أنه ليس وصفة جاهز تـصلح لإكتـشاف الخـواص المميزة لكل نص شعري ، بل يبوح كل نص بمحوراه ومركز الثقل فيه بعد أن يـتم اختيـاره بطريقة لا توحي بالقصد إلى إثبات فكرة مسبقة ، ، والاقتصار على المستوى الثنـائي المباشـر مصادرة قد تمنع الباحثين من الاستجابة الحرة الواعية للنص واكتشاف نظامـه الخـاص ، وقـد تحول بينه وبين العثور على البنية الخفية الكامنة خلف التكاثر الثنائي أو غيره .

البنيوية فكر فلسفي :

هناك نوعان من الأبنية ، النوع الذي اكتشفه اللغويون والذي يرتبط بتصورات النظـام والتوفيقات والمخالفة ، والنوع الآخر الذي ركز عليه الفلاسفة وما يرتبط بـه مـن أفكـار عـن النموذج والجنس والشكل ، وليس الفصل بينها حاسماً ولا قاطعاً ، فكلاهما يستفيد من مقـولات الآخر ، وإن كان هذا لا يحول بيننا وبين القول بصفة عامة . إن هناك تيارين في البنائية أحدهما لغوي والثاني فلسفي و أن التيار الأول أشد وأقوى ، نظراً لأن العمل الأدبي إنما هـو ترتيـب لغوي قبل أي شيء آخر .

ومعنى هذا فإن البنائية الفلسفية تتميز بكثير من التماسك إذ إنها تبرز الخصائص الشكلية للعمل الفني وعلاقته بالأعمال الأخرى التي تنتمي إلى نفس الجنس الأدبي ، مـع ملاحظـة أي الأجناس الأدبية لا تكف عن الحركة الدائبة بفضل العطاءات التي يضفيها كـل أديـب خاضـع لظروف ثقافية وتاريخية معينة ، وكذلك تبلور علاقته بالأعمال الأخرى لنفس المؤلف أو في نفس العصر ، وبهذا تعتبر البنائية الفلسفية ذات طابع مقارن ، ولما كانت المقارنة تعقـد أحيانـاً بـين

---

[٣] مقال بعنوان عرض الدوريات الأجنبية - د.فريال جبورى غزول - مجلة فصول النقدية - المجلد - العدد - ص ٢٧٤ .
[٤] كتاب (جدلية الخفاء والتجلي) قدمه الدكتور كمال أو ريب - وصدر (١٩٧٩) .

أعمال غير متعاصره أو بين مراحل زمنية مختلفة ، فإنه لا بد من أن تأخذ في اعتبارها الجانب التاريخي ، ولهذا فإن البنائية الفلسفية مع اعتمادها على النظم الوصفية في التوقيتية لا تستطيع إغفال التطور التاريخي الذي يرصده النقاد المؤرخون ومن هنا فإن الماركسية تحتفل بهذا اللون من البنائية لأنه يتقيد بالعناصر الاجتماعية والاقتصادية كعناصر حاسمة في تأثيرها على الأبنية الشكلية للأعمال الأدبية سواء أكانت لغوية أو جمالية .

المبحث الثالث

البنيوية أو البنائية الأصل والمستقبل والتطور

مصطلح البنائية متعدد النشأة ، ومن المتعارف عليه أن مولدها يمكن تمييزه في علم اللغة بنشر كتاب دي سوسير (محاضرات في علم اللغة العام ١٩١٦م) وكثير من أفكار هذا الكتاب ترجع إلى القرن التاسع عشر .

واعتمد الإتجاه البنائي على نظرة سوسير إلى دراسة علم اللغة بصورة تزامنية ، والوصف التزامني يختلف عن التفسير التاريخي في كونه بنيوياً أي يقدم جواباً للسؤال ولماذا تكون الاشياء على ما هي عليه ؟ أي يظهر كيف أن الصيغ والمعاني على علاقة متبادلة في نقطة زمنية محددة في نظام لغوي معين ، فالوصف التزامني يصنف الدور الذي يلعبه كل مكون

في النظام التزامني وحينما نفعل ذلك نوضح كيفية ملائمة اللغة مع نفسها وكيفية أدائها لعملهـا ، وهو تفسير بنيوي ووظيفي للحقائق يخبرنا كيف تتلائم المكونات كلها معاً . [١]

يمكن القول أن البنيوية تقوم على أساس نظرى مؤداه أن البنية تتـألف مـن عناصـر ومكونات جزئية ، وأن أي تغير يطرأ على أي واحد من هذه المكونات لا بد أن يؤثر في سـائر المكونات والعناصر الأخرى . [٢]

وعلى هذا الأساس فالبنيوية مبدأ عام يصلح أن يتبنى في اللغه والإجماع وقال الفيلسوف أرنس كاسيرر Frnet cassortrt ١٩٤٥م (البنائية ليست ظاهرة منعزلة ، أنها إلى حدما تعبـر عـن اتجاه عام في الفكر أصبح في العقود الماضية أكثر وضوحاً في كل مجالات البحث العلمي تقريباً . وما يميز البنائية بمعناها الأعم الإهتمام العظيم بالعلاقات التي تربط بين الكينونات أكثـر مـن الإهتمام بالكينونات ذاتها .

ونؤجز القول في ظهور هذا الفكر البنائي ومراحله الأولية ، وأن الباحثين في علم اللغة يتفقون تمالم الإتفاق على أن اللغوي السويسري فردينان دي سوسـير (١٨٥٧م – ١٩١٣م) قـد وضع الاسس النظرية التي مهدت لتحويل البحث للقواعد من المنهج التاريخي المقارن إلى البنيوية .

وبالتالي نقد دى سوسير التفسير التاريخي للغة بإعتباره تفسير جزئي واللغة عنده ليست المجموع الحسابي لكل الجمل التي نطقت بها مجموعة من البشر بل اللغة شئ آخر يربطهم جميعاً ولذاك طرح دي سوسير قضية بنية اللغة .

ويدين علم اللغة لدى سوسير كذلك تمييزه وبين النظرة الوصـفية والنظـرة التاريخيـة وأطلق عليهم علم اللغة الوصفي ، وعلم اللغة التاريخي ، يهتم أولهما بحث النظام اللغوي في فترة بعينها ، ويتناول الثاني النظام اللغوي عبر التاريخ ، فالأول دراسة عرضية والثاني دراسة طولية . الجديد هنا أن دي سوسير قـد أبرز أمكانية دراسة اللغة الواحدة ببيان عناصـرها المكونـة ، وكان الباحثون لا يربطون الجزئية قيد البحث بباقي الجزئيات المماثلة في نفس المجموعـة . وإذا كان النحاه الشبان قد قصدوا جهدهم على البحث المقارن بهدف تاريخي فإن دى سوسير أوضـح أمكانية بحث البنية اللغوية بحثاً وضعياً بجانب إمكانية بحيث البنية اللغوية عبر التاريخ . وتأكيـد دي سوسير على المنهج الوصفي نابع من نظريته للغة ، ،اصبحت هذه النظرية بعد ذلك منطلـق البحث البنيوي في اللغة . لقد أصبح الهدف من التحليل اللغوي تحديد العناصر الاساسية المكونـة

---

[١] اللغة وعلم اللغة – تأليف جون ليونز – ترجمة مصطفى التوني – الجزء الثاني – ص ٥٥ – ٥٦ .
[٢] اللسانيات المجال ووالوظيفة والمنهج – د. شريف سمير – ص ١٦١ .

التي يمكن إكتشافها عن طريق تقابل الصيغ ايضاح العلاقات المتبادلة بينهـا ، أي ايـضاح كـل الإمكانيات التي تجعل من اللغة نظاماً للتعامل بين البشر . [١]

وأوضح سوسير أن الرموز اللغوية ليس لها وجود مادي مباشر فما يمكن إدراكه بوسائل التسجيل الألية المختلفة ليس هو اللغة كنظام ، بل هي نماذج من الإستخدام اللغوي (الكلام) فالرمز اللغوي ذو طبيعة نفسية ، ومستقر فى عقل أبناء البيئة اللغوية ووجوده لا يجرء إلى كونه مدركاً بالوسائل المذكورة ، بل أن أبناء البئية اللغوية قد اعترفوا به اعترافاً يجعلهم يـستجيبون للرمـز الواحد نفس الاستجابة ، وشأن اللغة هنا شأن كل الأنظمة الرمزية ، ولكن اللغة أهم هذه الأنظمـة لتعقدها وتنوع إمكانياتها ، وكون جانبها (الدال والمدلول) ذوي طبيعة نفسيه ، وعلى هذا فالنظـام اللغوي مستقر عند أفراد البيئة اللغوية في اللا وعي . ومهمة البحث اللغوي أن يـستخرج تلـك العناصر والعلاقات المكونة للنظام اللغوي

ويرى سوسير أن اللغة ذات وجهين أحدهما نظام ذهني إجتماعي ذو وجود مستغل فـي أذهان أبناء الجماعة اللغوية الواحدة . وقد سمى سوسير هذا الوجه (اللغة) والآخر هو الـصورة التي يتحقق بها الوجود الذهني على لسان الفرد ، ولذلك سماه (الكلام) . ينطبق هذا التقسيم علـى جوانب اللغة كلها ، إبتداء من الأصوات وإنتهاء بالدلالة ، ولذلك تأثر تشومـسكي بـذلك الـرأي فوضع نظرية (النحو التوليدي التحويلي) .

ويوضح سوسير فكرته عن النظام الداخلىللغة فهي ذات قواعد منظمه ، وأصبحت هذه الفكره لها وجود عند علماء اللسان ، وإستثمر هذا التمثيل الذي قدمه سوسير لفهم قواعد اللغة التي لها وجدود قائم فى أذهان أبناء الجماعة اللغوية الواحدة . هذه القواعد لا تتغير بتغير الكلمـات ، ولا بإحلال كلمة محل أخرى بالضرورة . فموقع الإبتداء موقع محدد لا يغيره ولا يبدله فـى أن تحل فيه كلمة محل أخرى ، ففي هذا الموقع يمكن أن يحل ما لا نهاية له من الكلمـات . كـذلك موقع الخبر ، والفاعلية والحال ، فعلى الرغم من المحدودية التي يظهر عليها النظام الداخلى للغة ، فأنه على العكس من ذلك متسع ، فحاله حال الأمر الذي كلما ضاق أتسع ، فالموقع الواحد يحل فيه ما لا يحصى من الكلمات . وهذا يعني أن بنيوية نحو اللغة ذات نظام ذهني ضـيق ووجـود ظاهر متسع . [١]

بواس والطابع غير الواعي للظاهرة اللغوية :

---

[١] مقال أصول البنيوية في علم اللغة والدراسات الثنولوجية – د. محمود فهي حجازي – عام الفكر المجلد الثالث العدد الأول (١٩٧٢م) – ص ١٦٠ – ١٦١ .

[١] اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج د. سمير شريف – ص ١٦٣ .

نشأت البنيوية اللغوية في الولايات المتحدة الأمريكية في كنف الدرسات الأنتربولوجيـة ولقد توجه عدد من العلماء الأمريكان منهم بواعز Boasإلى دراسة أحوال بعـض قبائـل الهنـود الحمر ، وتقاليدهم ولغاتهم ، لجؤ إلى المنهج الوصفي في دراسة هذه للغات . وركز علـى بيـان المظهر الإجتماعي الذي يظهر في اللغة ، وفعل سابير وبلومفيلد كذلك وقد التقى هؤلاء جميعـاً حول أهمية البحث الميداني ، وتابعوا أستاذهم بواعز في الإهتمـام بالجانـب اللغـوي للدراسـة الأثنولوجية ، فدراسة المجتمعات تشترط في رأي بواعز معرفة لغة ذاك المجتمع لمعرفة تراثهم الأدبي وأسلوبهم في التعبير المجازي وصور الأخيلة ، وفهم ما يرتبط بأسماء الإمـاكن والقبائـل والأشخاص من إيحاءات اللغوية .

ولكن بواعز لم يقتصر على الجانب العملي بل ترجع أهميته في تأصيل البنيويـة إلـى تطويره بفكرة الطابع غير الواعي للظاهرة اللغوية .

وعقد بواعز مقارنة بين الظواهر اللغوية والظواهر الإجتماعية الأخرى فـي المجتمـع البدائي ، وأتفقت كل هذه الممارسات في كونها ذات أصول غير واعية ، ولكن كثيراً من الظواهر الأثنولوجية تتخذ بعد ذلك شكلاً واعياً ويضرب بواعز أمثلة لذلك ببعض الأفكار الدينية البدائيـة مثل فكرة وجود قوة كامنة في بعض الأشياء غير الحية ، هذه ذات أصول غير واعيـة ولكنهـا تحاط بنفسيرات ثانوية ، ويرى بواعز إلى ان هذه التفسيرات الثانوية هي أحد الاسباب الاساسية للخطأ وتنوع الرأى في التفسير العلمي . [٢]

ونلاحظ أن مقارنة بواعز للغة بإعتبارها ظاهرة غير واعية لا تخضع للتغييرات الثانوية ، وما أكثرها في الدراسات الأثنولوجية ، يجعل اللغة أفضل الظواهر التي يمكن دراسة بنيتهـا ، بمعزل عن العوامل المزعجة والمضللة الناجمة عن التغيرات الثانوية . ويقـصد بـذلك الجانـب التاريخي والثقافي والديني ودراسة اللغة كمادة دون الإعتبار إلى العوامل الإجتماعية وغيرهـا ، وهذا أثر أيداوجي بالغ الوضوح في الإتجاه البنائي .

وهذا أمر يمكن تصور تطبيقه على التراكيب اللغوية ، فأن الصورة الذهنية للغة تقابـل مخطط البناء ، وأما الكلمات فهي مادة التركيب ، والكلمات نفسها أصوات منظمة التوزيـع فـي وحدات صرفية تحدد بنية الكلمة وفي وحدات أخرى تحدد الصورة المعجمية للكلمـة مـن هـذه الكلمات يتم تكوين التراكيب ونلاحظ هنا الجانب المادي للغة الذي يجعل مخطـط البنـاء ، هـو

---

[٢] مقال أصول البنيوية في علم اللغة والدراسات الثنولوجية – د. محمود فهمي حجازي – عالم الفكر المجلد الثالث العدد الأول (١٩٧٢م) – ص ١٦١ – ١٦٢ .

الأساس الذي يختار له مواد البناء ولا يظهر البناء إلا بوجود مخطط ذهني ثم تختار المواد على أساس ذلك المخطط . [(١)]

وبالتالي اعتبر الوصفيون اللسانيات العامة مجموعة من أساليب الوصف وليست متعلقة بالمعتقدات المتعلقة بطبيعة اللغة .

ولا شك أن رؤية اللسانيات كأسلوب بدلاً من رؤيتها كنظرية أمر يحرر اللسانيين من المواقف المتشددة بشأن الخصائص الضرورية للغة ، وأعتقد هؤلاء أن غاية ا للسانيات هي التعبير عن الأجراءات التي يمكن أن تطبق من أجل أشتقاق النحو الصحيح للغة (ما) من مادة لغوية ذات معلومات ملاحظة بطريقة آلية بحته ، وبهذه الطريقة يتحصل على معالجتا لمعلومات الخام الملاحظة حول أي لغه وسبكها في نحو لتاك اللغة دون تدخل من جانب اللغوي كإنسان .

ويقودنا الحديث هنا عن القرن التاسع عشر وعلمائه الذين أخذوا يفسرون الظواهر اللغوية وفقاً للغويين المفسرة للظواهر الطبيعية ، فلجأ علماء اللغة لقوانيين تفسير التغير الصوتي. وهكذا قامت مدرسة النحاه الشبان على أساس الإقتناع بأن التغيير الصوتي يتم وفق قوانين صارمة لا تعرف الشذوذ ، وأن التغيير الصوتي يتم دون تدخل لإراده الإنسان ، فانصرف البحث إلى مادة اللغة ، ولهذا فقد أقتصر البحث على ما يدرك حسياً ، أي على الظواهر الموجودة فعلاً في نصوص قديمة أو لهجية .

كانت النزعة التطورية التي سادت علم اللغة والدراسات الأثنولوجية من قبل ، ترى أن إدراك الشئ وفهمه في معرفة تطوره التاريخي ، ولكن التحليل الفونولوجي يرى أن هذا ليس ايضاحاً لطبيعة الشئ ، ولا بد لفهم طبيعة الظاهرة أن تدرس داخل النظام حتى لتتضح مكانتها ، كجزء من كل وحتى تتبين العلاقات المحددة لها وحتى تتضح وظيفتها ولهذا لم يعد تصنيف الجزئيات بالمعيار التاريخي مقبولاً فلو وجدت جزئية ما في لغة قديمة قد أنقسمت إلى جزئيين مميزيين في لغة تطورت على تلك اللغة القديمة ، فهما في هذه اللغة الجديدة ظاهرتان متفصلتان بإعتبار الحالة المعاصرة لا بإعتبار الأصل الواحد . [(١)]

---

[١] اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج د. سمير شريف – ص ١٦٤ .

[١] مقال أصول البنيوية في علم اللغة والدراسات الثنولوجية – د. محمود فهمي حجازي – عالم الفكر المجلد الثالث العدد الأول (١٩٧٢م) – ص ١٦٧ .

البنيوية وعلم الدلالة

لقد كانت نظرية المجال الدلالي Semanticfield في العشرينات من القرن العشرين تتفـق تماماً مع التحول الذي حدث في الدراسات اللسانية من الإتجاه التاريخي إلى الإتجاه الوصفي على يد دي سوسير (١٩١١م) رائد الدراسات اللسانية الحديثة ، والذي ذهب إلى أن اللغة نظـام مـن العلامات وأن هذه العلامات تكتسب قيمتها من خلال علاقاتها بالعلاقات الأخرى ، والمكان الـذي

تحتله في النظام اللغوى أنها تعمل بوصفها نظاماً من العلامات ذات دلالة اصطلاحية ، ولم يهدف سوسير بهذا التحديد لمفهوم العلاقة أن يعيد الإعتبار للكامات أو العلاقة اللغوية ولكنه أهتم بتحديد قيمتها من خلال النظام اللغوي .

ولقد أوحت فكرة القيمة هذه بفكرة المجال الدلالي ، التي تعتبر بمثابـة نظريـة دلاليـة وصفية طبقاً لتعاليم سوسير لوضع تحديد وصفي بنائي ، و بعض اللغويين المحدثين نظرية Trier في المجال الدلالي أول محاولة لتطبيق سوسبير للنبائيةبصفة خاصة . [1]

تلاقت النبيوية بعلم الدلالة ، وشهد اللقاء بناء مجموعات من الكلمات على أساس وجـود خصائص معنية لهذه الكلمات ، كمحاولة لإعادة بناء معجم ، بعد أن أعرب اللغويون المحـدوثون عن عدم رضائهم عن الطريقة الآلية في تبويب الكلمات بطريق الألف باء ، وراوا أن تـصنيفها على أساس المعاني ، وظهرت محاولات كثيرة لتصنيف مفردات اللغة في معاجم المعاني معتمـد على فكرة المجال الدلالي التي تقوم على الملامح الدلالية إلى بناء هياكل أكثـر شـمولاً للغـه . واتسمت هذه المجاولات بالصفة البنائية التي ترى أن اللغة تتكون من أبنية وليس مجـر كلمـات منعزلة ، وتمكنا عن طريق المجال الدلالي التي ترى أن اللغة تتكون من أبنيتـه ولـيس مجـرد كلمات منعزلة يمكن عن طريق المجال الدلالي أن نقف على البنية الدلالية لكل لغة ، التي تختلف بإختلاف الثقافة والتجارب للمجموعة اللغوية .

أقام دكتور كريم حسام الدين ، دراسة لكشف البنية اللغوية لمعجم الهزليين الذي يمكن أن يعطينا صورة واضحة للبيئة اللغوية العربية في هذه الفترة الزمينة .

عالجت هذه الدراسة الكلمات التي أشتمل عليها معجم الهزليين في مجالين دلالين تنـاول الأول الأسماء والثاني الافعال بهدف تحديد دلالة كل كلمة ، يكـون معناهـا نتـاج أو محـصلة لعلاقاتها بالكلمات الأخرى في حقلها المعجمي ولقد قامت الدراسة على الآتي :-

(١) تحديد الحقول والمفاهيم الاساسية التي تضمنها المعجم الهزلي .

(٢) تحديد الكلمات والمفاهيم لكل حقل إلى جانب الكلمات التي يتضمنها هذا الحقل .

(٣) تحديد العلاقات بين الكلمات داخل الحقل ، مثل الترادف والتضمين والإشتمال والأشتراك والتقابل ، والتضاد . وبذلك أصبح المنهج الآني التزامني للغة أساساً لدراسة البنية ، وأصبح هدف تحليـل اللغـة بتحليـل عناصرها المكونة لها عن طريق تقابل الصيغ ايضاح العلاقات المتبادلة أي ايضاح كل الإمكانيات التي تجعل من اللغة نظاماً للتعامل بين البشر .

[1] المجال الدلالي إجراءته ومناهجه – د. كريم حسام الدين – دار غريب للنشر القاهرة .

وطالما أنه جعل اللغة نظام عقلي يشترك فيه أبناء البشرية ، لم يهتم سوسـير بالجانـب الدلالي ، واعتبر الرمز اللغوي ذى طبيعة نفسية ، أي أنه مستقرُ في عقل أبناء البيئـة اللغويـة ، ووجوده لا يرجع إلى كونه مدروساً بل أن أبناء البيئة اللغوية اعترفـوا بهـا اعترافـاً يجعلهـم يستجيبون للرمز الواحد نفس الاستجابة .

وشأن اللغة شأن كل الأنظمة الأخرى ، ولكن نظام اللغة أعقد ، وتختلف اللغة عن باقي الأنظمة في كون جانبي الدال والمدلول ذوا تي طبيعية نفسية ، وليس للرمز وجود مادي محسوس ، بـل هو تصوري ، فليست عملية النطق والأشياء المعينة أجزاء مكونة للنظام اللغوي ، وعلـى هذا فالنظام مستقر عند أفراد البيئة اللغوية في اللاوعي ، مهمة البحث اللغوي أن يستخرج تلـك العناصر والعلاقات المكونة للنظام اللغوي . [1]

وقاد هذا إلى اعتبار اللغة نظام من اختلافات ، وأدى هذا التصور النظري الذي انطلقت منه البنيوية ، بين اللغة كنظام من الإختلافات وبين الحدث الخطابي الذي يتمحض عنه ذلك النظام ، وتكون عندئذ بين مفهومين ثنائئن هما (اللغة والخطاب) فاللغة هي المخزون الذهني الذي تمتلكه الجماعة بينما الخطاب هو ما يختاره المتحدث من ذلك المخزون ليعبر به عن فكرته أو إرسـاله حسب عناصر الرسالة .

هذان المصطلحان عند سوسير هما (اللغه والخطاب) [2] وامتدت هذه الثنائيـة لتـشمل دراسة اللغة كنظام في عصر محدد كما أسماه سوسير (آنية) و (تزامنية) [3] كان ندرس ونميـز لغة العصر الجاهل مثلاً ، وتشمل دراسة اللغة من حيث ترابط العناصر بـين فتـرات تاريخيـة مختلفة (تعاقبية) وهذه تفاطعات شمولية تقابلها تقاطعات في داخل النظام اللغـوي ، ذات تحـرك ثنائي أيضاً تتحكم في تكوين الخطاب هما محوري الإختيار والتأليف .

(١) فالأول يرتبط بالمجتمع والعرف الجمعي (اللغة) ، والثاني يرتبط بالأفراد والحدث الكلامي ، وكانت هذه التفرقة أهم الإنجازات اللغويةلعلم اللغة الحديث .

(٢) ونلاحظ فيما ذهب إليه سوسير أن بناء الكلمات في اللغات الإنسانية مرتجل (Arbitara) غيـر قائم على المعنى وتلك مسألة قديمة حديثة ، فقد ذهب الجرجاني (٤٧١هـ) إلى أن نظم الأصوات في الكلمة ليست مما يستدعيه المعنى فلو أن واضع اللغة قال ربض بدلاً من ضرب لما يـؤدي

---

[1] مقال أصول البنيوية في علم اللغة والدراسات الثنولوجية – د. محمود فهمي حجازي – عالم الفكر المجلد الثالث العدد الأول (١٩٧٢م) – ص ١٥٦ – ١٦٠ .

[2] التحليل الدلالي إجراءاتعه ومناهجه – د. كريم حسام الدين – ص ٣٠ – ٣١ .

[3] اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج – د. سمير شريف – ص ٨٢ – ١٠٢ .

ذلك إلى فساد المعنى ، ومعنى ذلك لا يوجد علاقة بين بناء الكلمة ودلالتها ، علاقة جدليـة ، لا ترتبط بنفي وجود نظام خاص بكل لغة في ترتيب أصوات كلماتها . (١)

أذن توزيع الاصوات في كل لغة ، جزء فيما يجري به التعامل فيها وما أسـتقر عليهـا نظامهاً الصوتي . يقول د. سمير شريف (فالارتجال يوْهَن من تصور وإقامة أنظمة فـي بنـاء الكلمات وتوزيع الاصوات فيها ، فلا يعقل أن يطرد توزيع الأصوات (س.م.ع) مثلاً وعلى هـذا الترتيب في الفعل ماضياً ومضارعاً وأمراً ، وفي جميع المشتقات ، ثم يقال بعد ذلك إن هذا مـن باب الأرتجال والعشوائية والإعتباط . (٢)

مفهوم العلامة والأسلوب :

يمكن القول إن أقوى جذور النبيوية هي تلك التي تضرب في أعماق الدراسات اللغوية ، صحيح إن الإهتمام باللغة كظاهرة إجتماعية ونصية لا يمكن فصله عن تطورات الفلسفة العربيـة منذ أرسطو أنتهاء بالتيار البنائي ، إذ إن نظرته إلى اللغة ترتبت على مفهوم العلاقة بين الـداخل والخارج ، والعلاقات بين الدال والمدلول ، وخاصة في القرن السابع عشر في الدراسات التي قام بها (ميشل فوكو) في دراسته اللغوية (١٩٦٦م) Michelfoue بعنوان نظـام (الأشـياء) Theorder of things(١٩٧٠م) ويشير فيها إلى التحولات ، المعرفية التي صاحبت النظرة العامة للغة وفي القرن الساد س عشر كانت العلاقة بين الكلمة والشئ الذي تشير إليه وبين الدال والمدلول علاقة تشابه ، وكان يصعب تأكيد المعرفة من دون وجود رابطة حقيقية بين طرفي العلاقـة ، ومـع التحـول المعرفي Episteme الذي أمتد طوال القرنين الـسابع عـشر والثـامن عـشر ، تحويـل التـشابه Aesembbnce المفترض بين الدال والمدلول إلى التصوير والتمثيل Representation وهو درجة أكثر تعقيداً من العلاقة بين طرفي العلامة ، ولكن التحول المعرفي في نهاية القرن الثامن عشر ركـز علىالاستخدام البلاغي والرمزي للغة . (٣) وهو ما عرف عند جاكبسون بـالمحور الأسـتبدالي الذي يقوم على التشابه والتضاد ، وهو الذي يمثل المحور الرأسي من محـاور اللغـة ، بجانـب المحور التعاقبي لبناء الجمل وهو المحور الأفقي . وهذا المحور الأستبدالي هـو الـذي أتخذتـه البنيوية منفذاً للولوج في حرية التأويل والتفسير والشرح وفقاً لما يقيم على الإيحـاء والتـشابه والتماثل أي بالمفهوم البلاغي العربي الأستعارات والتشبيهات والمجازات .

---

[١] دلائل الإعجاز – الجرجاني – ص ٩٣ .
[٢] اللسانيات – د. سمير شريف – ص ٨٤ .
[٣] المرآة المحدبة – د. عبد العزيز حمودة – ص ١٨٢ – ١٨٣ .

وبذا لفت دي سوسير أنظار اللسانيات الحديثة إلى علم العلاقـة ، وطبـق فـي جميـع المعارف الإنسانية وشرح د. صلاح فضل هذا المنظور قائلاً (٣) : (بوسعنا أن نتصور علماً يتخذ موضوعاً له ودراسة حياة الرموز في رحاب الحياة الإجتماعية ، ويـصبح هـذا العـام جـزءاً مـــن علم النفس الإجتماعي ، وبالتالي مـن علـم الـنفس العـام ، ونحـن نطلـق عليـه (السمولوجيا) . [1]

أو علم العلامات ، وندرس فيه كيفية تكون الرموز ، والقوانين التي تحكمها ، ولما كان هذا العلم غير موجود حتى الأن ، فلا يمكننا أن نقول كيف سيصبح ، ولكننا نؤكد أن من حقه أن يوجد ، وأن مكانه محفوظ مسبقاً ، وليس علم اللغة إلا جزءاً من هذا العلم العام ، والقوانين التـي سيكتشفها علم العلاقات هذا يمكن تطبيقها على علم اللغة ، ولهذا يمثل مكانه المحدد في مجموعة العلوم التي تدرس الوقائع الإنسانية المختلفة .

وبالتالي أصبحت اللغة جزءاً من علم العلامات وأهتم النقاد البنيويون رولان بـارت – جاكسون) وأستلهموا المنهج اللغوي في دراستهم الادبية والنقدية ، واعتبروا علم العلاقات تابعـاً لعلم اللسانيات ، بل جعلوه فرعاً منه ، لأن أنظمة العلاقات التي يعرفها المجتمع تشبه إلـى حـد كبير نظام اللغة ، بل هي نفسها لغات وإن أختلفت مادتها .

فعلم الرموز وبيان مهامها ، تنهض به اللغة ، بالسبك والتوزيع تواصـلاً مـع العلـوم المعرفية والإنسانية الأخرى ، ويبقى الرمز اللغوي مركباً من دال ومدلول ، وهما جوهر القضية ، ويشير الدكتور صلاح فضل إلى أن هذين المستويين ينشطر ان إلى صورة ومـادة ، وبهـذا تتكون لدينا نواتج أربعة لهذاالمركب هي :-

(١) مـــادة التعبير : وهي المادة الأولية المنطوقة .

(٢) صـــورة التعبير : هي القواعد النحوية التي تنظم المادة .

(٣) مـادة المضمون : وهي العناصر الفكرية ، العاطفية التي تتكون فيها الدلالة .

(٤) صورة المضمون : وهي التنظيم الشكلي للمدلولات الذي يعتمد علـى حـضور أوعيـة الطابع الدلالي ، وهذا أصعب ، لإستحالة فصل الدال علىالمدلول فـي اللغات البشرية . [2]

---

[1] النظرية البنائية في النقد الأدبي – د. صلاح فضل – ص ٤٠٤ – ٤٣٠٤ .
[2] المرجع السابق – ص ٤٦٢ – ٤٦٣ .

ومنها كانت النظم السيمولوجية محل اختلاف أشكالها وطبيعة علاقاتها ، وقد تتغاير فيها المادة مع الصورة ، وهكذا نجده في شؤون الأشياء حيث تزدوج الوظائف فيها وإن كانت الجماعة اللغوية قد تعارفت عليها . [1]

ويمكن القول أن ذلك أثر فلسفي واضح ، ولا سيما أن الفكر الغربي تـأثر بـالتحويلات المعرفية الجوهرية التي حفل بها تاريخ الفلسفة الغربية ، ومع هذا التحول المعرفي الـذي أمتـد طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وتحول الكتابه المفترض بين الـدال والمـدلول إلـى التصوير والتمثيل وهو درجة أكثر تعقيداً ، ولم يعد تحديد الواقع عن طريق الحواس . مع التحول المعرفي أصبحت اللغة نظاماً له وحدته وتماسكه الخاص به ، وهو نظام يختلف عناستخدام اللغة ، نظاماً شكلياً يجمعه نسق ، يفرض على الأصوات والمفاتيح والجذور تنظيماً ليس تمثيلياً . [2]

و كن القول أن الفكر البنائي ثل زبدة ، الفلسفات الغربية وخلاصة انتاجها ء السن ، ويتضح ذلك ، فىان لوك سابق لسوس تنب آرائه حول اللغة حيث مثل اللغة كعلامات تتكون من دالات ومدلولات هي ا فاهيم داخل العقل البشري وليست رد أشياء مادية وخاصة ، ، وهو نفس ما قاله سويسر ح أكد أن الدلالات تش إ مفاهيم عقلية يتوصل إليها العقل ، بعد قيامه بعمليات التقييم والتصنيف وتبويب الإنطباعات ا سية يتوصل ا بعد هذا إ ا فاهيم ال تش إليها الدلالات اللغوية صوتية كانت أم مكتوبة .

ومثالية القرن التاسع عشر ال أسسها (كانت) تتعلق رفض للواقعية الأرسطية ، و ربة القرن السابع عشر ، ال تقصر ا ع والدلالة اللغوية النفسية على نظرية ا اكاه ويرى كانت أن مع النص يفهم ضوء النشاط الذه الذي دث داخل عقل الكاتب أو عقل القارئ .

كن القول أن هذا التذبذب ا اصل مرجعية ا ع إ الداخل أو ا ارج هو نفسه تذبذب الفكر الفلسفي الغر حول البحث عن حقيقة ا عرفة الإنسانية أهي فطرية تلقائية أم ريبية حسية ؟ .

لص من كل ذلك القول بأن البنيوي يرون أن الكلمة يتحدد معناها عن طريق لعب ا دلولات وحركتها ا رة ، وحينما يتم ديد مع ما أو تثبيته بصفة مؤقته يفككه قارئ أو مفسر آخر فإن ذلك سيتم ضوء أفق التوقعات عند القارئ ، وهو أفق متغ وزما ، لكنه يعيدنا إلىلا ائية الدلالة .

وذلك ما يعرف بالتفكيك وهي مرحلة متطورة من مراحل البنيوية تفي فيها ا ؤلف وته ، جرد إنتاجه النص ، لا تستطيع قيق الدلالة ضؤ قصدية لا وجود ا ، إذ كان النص ليس مغلقاً أو ائياً ، بل مفتوح أمام القارئ يدخله من أي زاوية شاء فما تبقى من النص إذن ؟ يتبقى لنا الكث ، وتبقى لنا كل شئ يكون النص على آخر ، وهـو اللغة ونظام العلامة ، الذي يتوقف على العلاقة ب النص والقارئ وهو منهج التفكيك ، فأن ليل اللغة ، أو العلاقة ب طر العلامة هو أداة ذلك ا نهج لكن اللغة با فهوم السوس ي خرافة ولا وجود ا إلا عقل البنيوي ، لأن فكر الاستبدال الإحلا ا ر للغة وهم نشأ عن نسياننا للجذور ا ازية للغة ، إن اللغة منذ البداية (أكذوبة) ومفهوم العلاقة الذي قدمه سوس منذ البدائية القرن العشرين مرفوض ، واللغة بذلك ا ع وهم ليس ا وجود له . [1]

مفهوم العلامة والنسق :

---

[1] علم اللسانيات الحديثة نظم التحكم وقواعدالبيانات – عبد القادر عبد الجليل – ص ٧٤ – ٨٧ .
[2] المرآة المحدبة – د. عبد العزيز حمودة – ص ١٨٣ .
[1] المرآة المحدبة – د. عبد العزيز حمودة – ص ٣٤٥ – ٣٤٧ .

اللسان عند سوسر مؤسسة إجتماعية إلا أن هذه المدرسة تتميز عن باقي المؤسسات السياسية والقانونية ، بعدة ملامح الشي الذي فرض على سوسر أستظهار نظام جديد للوقائع بغية فهم طبيعة اللسان .

يرتبط اللسان بجملة من الوقائع الإنسانية ، أصبح اللسان نسق دلائل معبرة عن أفكار ، فأصبح بذلك شبيهاً بالكتابة وأبجدية الصم والبكم والطقوس الرمزية والعلاقات العسكرية وهذه دلائل اصطلاحية معبرة عن أفكار ومع ذلك يكون اللسان شبيهاً بها إلا أن اللسان أهم هذه الانساق جميعاً . ربط سوسر اللسانيات بعلم السيمولوجيا ، علم الدلالة فالنظر إلى الكلمات وما يقابلها من الأشياء لا تعتبر نقد ما دراسة الألسنة ، ودرس الدليل عند الفرد من وجهة نظر علم النفس الفردي لا يتجاوز الإنجاز الفردى [٢] ولا يقف عند حقيقة الدليل الإجتماعي أو عند ما تؤول الدليل من حيث طبيعته الإجتماعية فلا نقف إلا عن ملامح اللسان التي تربط بالمؤسسات الأخرى ، الخاضعه لارادته ، مثل هذا التصور يؤدي بنا إلى الانحراف عن الهدف المتوخي إذ تعمل الخصائص التي لا تنسب إلا إلى الإنساق السيمولوجية عموماً أو اللسان بوجه خاص ذلك أن الدليل ينفرد من الأرادة الفردية أو الإجتماعية ، هي خاصة جوهرية .

وواضح هنا أشارت كلمة خاصة جوهرية إلى النسق الذي يحكم الدليل أو السيمولوجيا التي لا ترتبط بعناصر خارجية سوى وقائع رمزية يحكم النسق . [٣]

واعتبار اللسان نظام رمزي مثل غيره من الرموز العسكرية والكتابية فالمشروع البنيوي كله انبنى على فكرة سوسر التي ترى أن المعنى يستمد من النسق وليس العكس . وفكرة الدال تذكرنا بالمنهج السلوكي الذي ينظر إلى اللغة كمجموعة عادات صوتية يكنفها حافز البيئة فالمتكلم عند شعور معين تتولد عنه استجابة كلامية دون أن ترتبط هذه الإستجابة بشكل من أشكال التفكير . فالنسق في نظرية سوسر مرواغ . [١]

وقبل تعريف النسق يجب أن نوجز ما قاله سوسر تحديدا للسان ، فاللغة كل يحتوي على وقائع متباينة ، لذلك يمس عدد من العلوم المختلفة ، أما اللسانيات فتختلف عن بقية العلوم ، لآن موضوعات هذه العلوم ملاحظة . و يمكن النظر اليها من وجهات نظر مختلفة .

أما اللسانيات موضوعها ليس المعطى الحسي المباشر (الكلام) موضوعها موضوع معرفي منسجم قابل أن يخضع لمبادئ التحليل العلمي ومعاييره ، فموضوع العلم ينبغي أن يكون موحداً ومنسجماً ويستخلص سوسر أن الظاهره اللسانية تمثل على شكل وجه متناسب يستلزم وجود أحدهما وجود الأخر .

(١) المقاطع الصوتية هي وحدة مركبة فيزيائياً نطقيه .

(٢) الفكرة وهي وحدة مركبة فيزيوليوجية وذهنية .

فاللغة عنده جانبان جانب فردى وجانب إجتماعي . فاللغة نسق موضوع وتطور ، ومؤسسة راهنة ونتاج ماضي ، والعلاقة بينهما وثيقة جداً .

فالمعطيات اللغوية السابقة ثنائية ، واللسانيات تعالج المادة بصورة موحدة ، بالتالي نظر سوسر إلى اللسان بإعتباره نسق كلي غير محدس ، فالعلم ينطلق من الواقعي ليبتعد عنه مادامت المعرفة ليست هي الملاحظة الحسية ، فالمعرفة تحويل للواقع المجرد وتفسيره له . [٢]

إن أي نظام انساني لكي يصبح علماً يجب أن يستغل من الظراهر التي يسجلها إلى النسق الذي يحكمها من الكلام إلى اللغة اللغة لا معنى لأي تصوت بالنسبة لمتحدث ينقصه النسق اللغوي الذي يحكم معناه وما يعنيه هنا بالنسبة للأدب بالغ الأهمية ، إذلا يمكن لمنطوق أن يكون له معنى إذا أفتقدنا الأحساس بالنسق الأدبي الذي ينتمي إليه . [٣]

---

[٢] مدخل للسانيات سوسير – د. مبارك حنون – ص ٣٠ – ٣١ .
[٣] الالسنية التوالدية – د. مشال ذكريا – ص ٣٠ – ٣١ .
[١] المرآة المحدبة – د . عبد العزيز حمودة – ص ٢٢٢ .
[٢] مدخل للسانيات سوسير – د . مبارك حنون – ص ٢١ .

ويتحدد مفهوم النسق بصورة واضحة عندما يعارض سوس اللغة واللسان ، وأن كان اللسان قسماً اللغة ، واللغة وقائع مادية متنوعة ا كونات و تلطة الأشكال ، ولأ ا كذلك ، فأننا لا نعرف كيف وأين نضعها مادامت موزعة ب موعة من العلوم ، إ ا التعدد لا الوحدة ، ولأ ا التعدد فلا يصبح أن تكون موضوعاً لعلم مادام العلم يفترض وحدة ا وضوع ، بسبب هذا التعدد أن مشكلة اللغة موضوعاً معرفياً لا فتتقارها إ الإنسجام والتسابق ، فهي مفتوحة على ا ارج بكل أبعاده ، ومنخرطة فيه ، أما اللسان فهو كل ذاته أي أنه فضاء منسجم داخلي ، لا ينخرط العا ا ارجي ، اللسان شكل واحد ويستحيل أن يوزع على حقول معرفية تلفة . (١)

وا قصود بذلك أن نسق اللغة ليس شيئاً مادياً سوساً شأنه ذلك شأن قوان ا ركة ، فأن دراسة اللغة تبدأ بشواهد الكلام الفردي ، تسجلها وترصدها و للها ، تنتقل بعدد ذلك من مرحلة الرصد والتسجيل إ الضبط وإ وضع القواعد العامة ا كم الكلام ، هذا هو النسق وهذه هي اللغة ، وحينما نصل إ النسق فأن تطبيقه على الكلام ، هو الذي يعطي الكلام مع ، من دون هذا النسق يصبح الكلام أصواتاً ، كما أصبح ا ال الأد النص الأد بلا مع لأنه يفتقد النص الأد الذي ينتمي إليه . (٢)

فاللسان بإعتباره قوان ليس وظيفة الذات ا تكلمة ، بل هو النتاج الذي تزنه الفرد طاوعة ، بينما الكلام فعل فردي ينم عن الإدراك والذكاء ، واللسان هو القسم الإجتماعي منها اواللغة ا نفرده من أرادة الفرد الذي لا كنه فرده أن يبدعه ، هي لا توجد إلا بفضل تعاقد ب أعضاء ا ماعة والفرد ، فهو شئ متميز إذ بالرغم من افتقاد الإنسان لإ از الكلام فأن الإنسان تفظ باللسان ما دام قادراً على فهم الدلائل الصوتية وأن يسمعها ودلائل ا للسانيات ليست ريدات إذا الترابطات عبارة عن وقائع مقرها الدماغ .

النسق إذن موعه من القوان والقواعد العامة ا كم الإنتاج الفردي للنوع و كنه من الدلالة ، و ا كان النسق تشترك إنتاجه الظروف الإجتماعية ، فأن النسق ليس نظاماً ثابتاً جامداً ، أنه ذا التنظيم م ـ ـن جهة ، ومتغ التكيف مع الظروف من جهة ثانية . أي تفظ بينيته ا نظمة ويغ ملا ه عن طريق التكيف مع ا ستجدات الإجتماعية والثقافية . (٣) وبعد هذا التعريف ا ؤجز لفكرة النسق نش إ ان فكرة النسق أو النظام أصبحت مفهوماً طبق على نطاق وأسع لا سيما النطاق الأد النقدي ، ونلاحظ أن فكرة تطبيق النسق بدأت عند الإنثربولوجى أستراوس . (٤) الذي حاول تطبيق ا فهوم اللغوي على يط غ اللغة وهو الدراسة الأنثربولوجية ، وبذلك كانت نقطة البدء تطبيق النموذج اللغوي الات أخرى ومن بينها الأدب ويلتقي مفهوم الغرابة مع مفهوم النسق أو دراسة اللسانيات او إلتقاء العلوم الأخرى واللسانيات يرجع إ ان كل هذه العلوم تغترف من مع واحد هو اللغة الإنسانية ، وإعادة بناء اللسان الأصل لكل عائلة ، بالإضافة إ ما يستفيده كل طرف من الأطراف الأخرى ، فمفهوم القرابة الدرس الأنثربولوجي وأول انفصال دعابه سوس بأن جعل اللسان ، يفضل ييزه عن الكلام اىموضوع من ا مكن أن تدرسه بشكل مستغل ، فالالسنة ا يتة ا لا ا نتكلم ا نستطيع أن تتمثل عضويتها اللسانية ، وعلم اللسان يتخلى عن باقي عناصر اللغة .

فاللسان عنده شئ منسجم نسق دلائل ، وجوهريته تكمن وحدة ا ع والصورة السمعية ، الدال وا دلول لمكان طبيعة نفسه ، والدلائل اللسانية ليست ريدات إذ الترابطات عبارة عن وقائع مقرها الدماع فملكة الترابط والتنسيق هي ا نظمة للسان كنسق ، وأن اللسان يستمد نظامه من تلك ا لكة . (١)

إذن ا ع موقوف على طبيعة التجاور ب الأطراف ، والتنظيم والترتيب ب الكلمات بغض النظرعن أي مرجع آخر .

---

٣ المرآة المحدبة – د. عبد العزيز حمودة – ص ٢٢٢ .
١ مدخل للسانيات سوسير – د. مبارك حنون – ص ٢٣ .
٢ المرآة المحدبة – عبد العزيز حمودة – ص ٢٢٣ .
٣ المرجع السابق .
٤ تعني الإنثربولوجية بينما اللغة فعل إجتماعي الرجوع إلى النوع أو الجنس دليل على فكرة السان وهو وحدة الغات البشرية ودليل على فكرة النحو العالمي .
١ مدخل للسانيات سوسير – د. مبارك حنون – ص ٢٧ .

إن النسق الفردي ، وهو ال اللغة لة مكتملة أو موعة من ا مل تتكون من عناصر ووحدات لغوية صغرى ، قد تكون أصواتاً أو كلما تكتسب أ يتها من علاقا ا النسقية أو داخل النسق .

ويتمثل ا نهج اللغوي البنيوي على هذا الاساس دراسة العلاقات ال ثل وحدة النسق هذه ا رحلة يفرض علينا ذلك القول العودة إ الكلية وا زئية ، فا ديث عن العلاقات النسقية ال تنتظم الوحدات اللغوية الصغرى نسق كلي تث التساءل ا نطقي والبدهي ، هل الوحدات الصغرى مرصوصة حسب قواعد اللغة ثل موعها النسق الكلي النهائي ؟ .

والإجابة بذلك ترجع إ ا فهوم البنيوي الرامي إ أن الكل أك من موعة أجزائه ، وأن النسق الفردي لا ثل موع أجزائه ، لأنه هو جزء من نسق عام ، أو من بنية كلية كم قواعد الدلالة داخل النسق الفردي . [٢]

و هذا ا ال يقول تشومسكي ، أن اللغة الإنسانية تتجلى ء مظهر استعما ا الأبداعي من القدرة على التعب عن أفكار متجددة ، وعلى تفهم تعاب فكرية متجددة ، وذلك إطار لغة (مؤسسة) هي نتاج ثقا خاضع لقوان ومبادئ تص ا جزئيات وتعكس جزئياً خصائص عامة للفكر . [١]

وأحسب أن رفض البنيويون للمدونة القواعدية ناتج من هذه الفكرة أيضاً ، إذْ يز نشومسكي ب عملية التشريط والإبداع ، فلئن قارنا ب الإنسان وا اسبات الإلكترونية ، تراءي لنا أن ا اسبات ، أن قامت قدر ا على زين ا علومات قدرة الذاكرة الأنسانية ، فأ ا تبقى ، بصورة قاطعة ، رهناً للا ة نفسها فهي خاضعه بصورة أساسية لـ ة ددة تس عملها وت ز وجودها ووظيفتها . [٢]

و لص من كل ذلك إ القول بأ ن كلمة (نسق) ترتبط باللسان بل تصنف اللسان على أنه نسق يقوم على ملكة الترابط والتنسيق وتلعب هذه ا لكة دوراً كب اً تنظيم اللسان .

فمعرفة النسق اللسا غ مشروطة عرفة الظواهر اللسانية ا ارجية ، وخ دليل على ذلك الفصل هو أن كل جهة للنظر تراكم ا زئيات والتفاصيل وأن تعددت الوقائع وا عطيات ، بينما لق اللسانيات الداخلية منهجاً مغايراً ، لأ ا لا تقبل هذا النوع من الترتيب . ذلك أن اللسانيات نسق لا يعرف غ نظامه ا اص وهذا النظام نظام موضعي لا دخل للذات ا تكلمة فيه وشبه سوس اللسان بلعبة الشطرنج وبواسطة هذه يبدو التمييز ب ما هو داخلي وها هو خارجي .

فكون لعبة الشطرنج قد أنتقلت من فارس إ اوروبا ، فذلك يعتـ من قبيل ما هو خارجي ، أما ما يتعلق بالنسق والقواعد ، فيعتـ من قبيل ما هو داخلي .

فإذا غ ت القطعة ا شبية بقطعة عاجية ، فأن التغي لا علاقة له بالنسق ، إلا أن إذا مازدت عدد القطع أو نقصت هـذا العدد ، فأن هذا التغي س (النحو) اللغة مساً عميقاً . إن ما هو داخلي هو كل يفسر النسق بدرجة (ما) .

مثل الفرضيات النحوية ال افترضها تشومسكي (النحو الكلي) نظرية العامل العامل – الربط ا ا – وعود الضم والتقد والتأخ وغ ها من الأ اط النحوية العامة .

فالذات ا تكلمة تتحكم ميع اللسانيات ا ارجية السياسية وا ضارية أما اللسانيات الداخلية فلا تشغل بكل ذلك لان اللسان (نسق) لا يعرف غ نظامه ا اص ، أنه مكون من عناصر متفاعلة فيما بينها وفق نظام خاص ، ولا حاجة ذا النظام ا اص ا ميز إ عناصر خارجية وهذا يتضح أن الداخلي يناسب ا هاز العضوي ، فيما يناسب ا ارجي ما ليس نسق . [١]

---

[٢] المرآة المحدبة – د. عبد العزيز حمودة – ص ٢٢٥ .
[١] الالينية والتوليدية والتحويلية – د. مشال ذكريا – ص ٣٦ .
[٢] المرجع السابق – ص ٣٠ .
[١] مدخل للسانايت سوسير – د. مبارك حنون – ص ٣٨ – ٣٩ .

ولذلك رفضت البنائية التاريخ والثقافة وا انب الإجتماعي اللغة ودراسة اللغة عزل عن العوامل ا ارجية ـ ودراستها كلسان عام بغض النظر عن ا واجز اللغوية .

المبحث الأول
أصول البنيويّة والدراسات الأثنولوجية

ا هت الدراسات الإنسانية ا اهاً دقيقاً سبيل الكشف عن الأبعاد النفسية والاجتماعية وا ضارية للإنسانية ، و اوز العلماء مواجهة الظواهر الاجتماعية والثابتة وا تغ ة بصورة موضوعية .

وأدى ذلك الأمر إلى أن تتجه الدراسات الإنسانية نحو العلوم الطبيعية للاستفادة من مناهجها العلمية ولا سيما المسلمات والثوابت الأولية التي ترتكز عليها هذه العلوم ، ثم التطبيق الرياضي والكلي والصوري على فروعها المتعددة. وليس من شك في أن هذا التطور الذي يشمل الدراسات الإنسانية عامة ، قد دفعها إلى الاحتكام إلى المناهج العلمية لرصد الظواهر الاجتماعية وملاحظتها وتصنيفها والمقارنة بينها وظهر هذا الأثر العلمي جلياً في وضع الفروض التي تتطلب الملاحظة والرصد .[1]

وفى منتصف القرن التاسع عشر اتجهت الدراسات الاجتماعية نحو المأثور الشعبي ، ويدل ذلك على أن الاقتصار على الآثار المادية لحياة الإنسان لا يمكن أن يعطى البعد الصحيح لثقافة عصر ما ، ودفع ذلك المؤرخين إلى البحث عن وثائق أخرى تمنحهم الأبعاد الثقافية والحضارية ، واهتدوا إلى أن المأثور الشعبي كفيل بإبراز الجانب الحضاري والثقافي ، وتجلت من خلال تلك الملاحظات والدراسات لظواهر المأثور الشعبي في مختلف المجتمعات أي أنها تشبه ظواهر أخرى في الماضي مما لفت الأنظار إلى أن الظواهر الإنسانية وإن تنوعت تتشابه في كثير من الصفات فظهرت دراسات المأثورات الشعبية ومكانتها من الناحية الإنسانية وهى الحضارة المعاصرة من ناحية ، والتوقف عند وجوه المتشابه من المأثورات الشعبية في مختلف الأمم .

وتضافرت الجهود في جمع وتصنيف ومقارنة المأثورات الشعبية وانتقل التفكير الاجتماعي من موضوع العلاقة بين الفلكلور ومراحل الدراسات الإنسانية إلى طبيعة المادة الثقافية في كل النصوص والتحامها من ناحية الوظيفة الحالية أو السابقة بعالم الميثولوجيا .

وتوصلت الكث من الدراسات إ أن التنوع والتعدد ا أثورات الشعبية نابع من أصل كلي واحد ونظام معين وهو الأصل الأسطوري .

وهنا تتحقق علاقة العلوم الإنسانية بعضها ببعض من ناحية الأصل الذي انبثقت عنه ومهما اختلفنا حول هذه النقطة ، نريد أن نوضح أن الدراسات الإنسانية جعلت الفلكلور متشعباً عن ا يثولوجيا و مكملاً ا ، أو متشعباً عن الاثنولوجيا ومكملاً ا ، فإن يع ا ؤرخ والاجتماعي يتفقون الآن أن الفلكلور علم من العلوم الإنسانية يرتبط

---

[1] مقال بعنوان : المأثورات الشعبية والعالم المعاصر – د٠ أحمد رشدي صالح - مجلة عالم الفكر - المجلد الثالث - العدد الأول - ١٩٧١ – ص ٥٥-٨٢ ٠

بعلم اللغة العام والدراسات الأدبية ارتباطه بعلم الإنسان والأنثربولوجيا وعلم النفس وهذه العلوم تتكامل فيما بينها ، و ضع الآن للمنهج العلمي القائم على الواقعية وا لاحظة ا باشرة و التجربة .

وتأتى أهمية الدراسات الشعبية في أنها لا ترتبط بعلوم اللغة والدراسات الأدبية فحسب ، بل تستوعب علوم أخرى كعلم النفس والاجتماع ، لأنها تعكس الملاحظات الواقعية في بيئة ثقافية خاصة في مرحلة تاريخية معينة.

وبذلك تصبح المواد الشعبية منظومات معرفية تتجاوز الأدب الشعبي إلى معارف شعبية أخرى ، وأصبحت الدراسات الشعبية تستهدف الإنسان في بيئته وعصره ، ولم يكن الهدف في تحليل والنصوص تاريخياً ، بل يحمل بعداً إنسانيا عميقاً .

اتسع أمر هذه الدراسات حـ بلغ مرحلة دراسة الثقافات ا تعددة والوقوف على أوجه الشبه وا لاف بينها .

وقد عنى ا لأستاذ أحمد رشدي صالح بمكانة المأثورات الشعبية في العـالم المعاصـر وعرض مقالاً بعنوان : (المأثورات الشعبية والعالم المعاصر)[1] وتخللت المقال بعض النظريات التي جعلت المأثور الشعبي يرادف التخلف والجمود ، ولقد حرص الكاتب على أن يعرض لأهمية الجهود المبذولة من قبل اليونسكو في هذا المجال ، لأن هذه المنظمة المعنيـة بالتربيـة والعلـوم والثقافة أدركت أن مميزات كل ثقافة قومية ووضع كل خصائصها بالاعتبار يساعد علـى دعـم العلاقات الدولية ، وإن تجاهلت القيم العقلية أو الروحية الخاصة بكل ثقافة ،يعرض المـشروعات لأفدح الخسائر .

وانتهى الخبراء الدوليون إلى أن الحل الوحيد لذلك الـصراع بـين الثقافـات التقليديـة والمؤثرات الخارجية الجديدة أو التطور المادي السريع هو أن تمكّن الشعوب النامية من استحداث توازن بين القديم والجديد ، وهذا الحل يعنى بالمواد الفلكلورية عناية قـصوى . ولقـد حظيـت القصص الشعبية عناية فائقة من العلماء والأدباء وأفردت الدكتورة سهير القلماوي دراسة للقصص الشعبي ، وأوضحت أن السمات البارزة في الحكايات الشعبية كثيراً ما تتوسل بغيـر الكلمـة .[٢]
ولقد سجلت الدكتورة سهير مثالين لتلك الجهود :-

الأول : بحث عن بقاء القصة في شكل نحت زخرفي بعد ضياع الأصل .

---

١ مقال بعنوان المأثورات الشعبية والعالم المعاصر – د. أحمد رشدي صالح – مجلد عالم الفكر المجلد الثالث العدد الأأول – (١٩٧١م) .

٢ وهنا إشارة إلى اتجاه الأدب واللغة إلى علم العلامات أو دلالة العلاقة أما اصطلح على تسميته بالسيمولوجيا عند دى سوسير ، وكـل ذلك إعجاباً بما بذل من جهد اجتماعي الوصول إلي الأصل المشترك في المأثور الشعبي أو الميثيولوجيـا - أنظـر – البنائيـة - د. صلاح فضل – ص ٤٣ - ٤٤ .

الثاني : بحث عن إلقاء أطراف القصص الشعبية في شكل أغنية .

وهنا إشارة إلى اندثار الحكايات الشعبية وبقاء الآثار .وقد لخّصت الدكتورة سهير[1] مناهج الباحثين في القصص الشعبي ، وردتها إلى ثلاث مدارس ، وهذا ما يهمنا في أمر الإشارة إلى فكرة (الأصل) في اللغات والنحو الكلى أو الثقافة الكلية . أو النسق أو المجموع المنتظم ، :-

الأولى :

ترى الأصل الواحد ، وتعلل أسباب انتقاله .

الثانية :

ترى الأصول المتعددة تنبت في آن واحد في ظروف متشابهة ، وأزمان مختلفة أو سلم حضارة متكرر.

الثالثة :

لا تفرض فكرة الأصل بادئ ذي بدء ، وإنما ترى أن الثابت هو وجود بيئة حالية حية ، وتراث في البيئة يتمثله القاص الموهوب في شكل مخالف لتمثيل الجماعة له ، فإذا كان القاص الموهوب ينتقل فليس قوانين الجغرافيا أو التاريخ أو حتى الانثربولوجيا هي التي تتحكم في مسار القاص الموهوب ، وتحدد له انتقاله ويرجع الاهتمام بالقصص الشعبي باعتباره فن أدبي يعكس الاختلاف في الشكل ويعكس مرحلة التطور .

ونود من خلال هذا الطرح أن نوضح مدى العلاقة بين الدراسات الشعبية والعلوم الإنسانية [2] ، ولا سيما علم الاجتماع الذي أمد الدراسات الأدبية بكثير من الممارسات الشعبية ، لفهم أطوارها الثقافية وبيئاتها الاجتماعية .

ولقد عرض الدكتور محمد الجوهري [3]، في دراسته عن التراث الشعبي بين علمي الفلكلور والاجتماع ، الكثير من المجالات التي يلتقي فيها هذان العلمان اللذان أصبحا متعاونين وأصبح المنهج التكاملي بينهما هو الذي يحرص عليه المتخصصون وظهر لنا جلياً غاية

---

[1] مقال بعنوان القصص الشعبي د. سهير القلماوي – مجلة عالم الفكر المجلد الثالث العدد الأول – (١٩٧١م) – ص ١٣١ ١٥٠ .

[2] علماء اللغة يصرحون كثيراً بالمبدأ الذي يذهب إلى انه لا توجد لغات بدائية أي أن اللغات جميعها متساوية في التعقيد تقريباً وتفي بصورة متكافئة بالأغراض الاتصالية آلتي تمارس في المجتمعات آلتي تعمل فيه وهذا مبدأ تكافؤ اللغات عالمية وبدائية فاللغويون الذين يصرون على تكافؤ اللغات لا يؤيدون وجهة النظر التي تذهب إلى أن جميع الثقافات متكافئة في أهمية ذلك النوع الذي نسميه تربية فليست هنالك وجهة نظر تخصصية مشتركة والقول بذلك يرجع إلى المبدأ الذي يرى أن اللغة آلتي يتكلمها الشخص ليست لها علاقة بحياته العقلية والفنية وهذا تيار بنائي لغوي يبعد الثقافة عن البنية اللغوية فتختلط العالمية بالدارجه والبدائية بالمتحضرة ٠ اللغة وعلم اللغة - تأليف جون ليونز - ترجمة مصطفى التومى - ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ٠

[3] مقال بعنوان التراث الشعبي بين الفلكلور وعلم الاجتماع – د. محمد الجوهري - مجلة عالم الفكر - المجلد الثالث - العدد الأول - ١٩٧٢ ٠

الدكتورة الأساسي في المقال وهى توضيح العلاقات الحميمة بين علمي الفلكلور والاجتماع من خلال تلك النظرة الاجتماعية لهذا التراث الشعبي .

ويجمل الدكتور الجوهري الاتجاهات الرئيسية في هذه الدراسة فالاتجاه الاجتماعي والتاريخي والنفسي وهذه الدراسات تدعم المنهج التكاملي الذي يفسر العلاقة بين الشعب والثقافة الشعبية ، وركز الجوهري على الجوانب التي تعكسها الدراسات الاجتماعية للتراث الشعبي ويتلخص في الاهتمام بالأفراد حملة التراث الشعبي ومعرفة الأصل الاجتماعي للتراث الشعبي ، وعلاقة الفرد المبدع بالتراث الشعبي ثم الكشف عن القوى الإبداعية الخلاقة للتراث ، مع ملاحظة تغير التراث في الماضي و الحاضر ، للتنبؤ بما سيكون عليه الجماعة في المستقبل .وبين أن عوامل الثبات والتغيير كفيلة على تأكيد صلاحية التراث في الحياة الواقعية ، كما أن صلاحيته مرتهنة بالوجود الاجتماعي ، الذي يعين على رصد حركة التغيير في هذا التراث ومعرفة الظواهر المعاصرة بأبعادها الثقافية الحضارية ثم التنبؤ بما سوف تتحول إليه هذه الظواهر في المستقبل .

وزعم هؤلاء ببحوثهم تلك إلى أن الرجوع إلى التراث الشعبي أو المنهج التكاملي بين علم الاجتماع والفلكلور يساعد على رأب الصدع بين الحياة المادية المتسارعة والحياة الروحية في الوجود الإنساني ، وهذا يوافق تماماً ما قاله علماء الغرب في منتصف القرن التاسع عشر ، أن الزاوية بين الجانب المادي من ناحية وبين الجانب الروحي تأخذ في الانفراج بحيث توشك أن تنفصم أحدهما عن الأخرى ، وهذه ثمرة من ثمرات الحضارة المعاصرة .

ولعل الباعث الأساسي لدراسة علم الفلكلور موازاة العلوم الإنسانية أو الاجتماعية بالعلوم الطبيعية ، والاستفادة من منهجها في الملاحظة والتجربة والتنبؤ . وركّز الدكتور أحمد المرسى و في مقاله الذي عرضه بعنوان (الفلكلور والحضارة) [1] إلى أن المشكلة الأساسية في كيفية مواجهة الحضارة الحديثة بقوامها المادي المتغير الذي يعلل على تغير كل شئ في وقت واحد وهى استحداث التوازن الضروري بين الأصالة والمعاصرة . بحيث لا تتعرض حياة الفرد للتصدع ولا تصاب حياة الجماعة بالتفكك ، ولذلك ركّز الدكتور على ا لجانب الثقافي و الذي يقوم بوظائف القبول والتعديل والرفض والتكيف مع الأوضاع الجديدة وعند محاولة تتبع الفكر الإنساني العام ، وما يتصل به من المعارف الفلكلورية والانثربولوجية فإننا لا نعجب عندما نلاحظ أن هناك فلسفة للاتجاه العلمي ، الذي برز في أوائل القرن الثامن عشر ، وأن هذه الفلسفة قد

[1] مقال بعنوان الفلكلور الحضارة – د. أحمد مرسي كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد الفكر المجلد الثالث العدد الأول – (١٩٧١م) .

حاولت أن تحل المعضلة الكبيرة في الظواهر والكائنات القائمة على ما بـين الثبـات والتغييـر والوحدة والاختلاف من أواصر فإن هذا الاتجاه العلمي وما أثمره من فلسفة قد أثّر في الدراسـات الإنسانية ، وهذا يفسر وجوه الشبه التي وجدها الدارسون فى مجال التراث الشعبي على اختلافها .

وقد أدت هذه المفارقات التي قامت بين نصوص التراث الشعبي المختلفة ، إلى تحفيز الدراسات التي تقوم بدور تحليل العناصر الفلكلورية في المجتمعات المختلفة. وتصنيفها في بيئات لها أبعادها الثقافية مما دفع إلى عقد موازنات لها أهميتها بين هذه المواد وأسلم مبدأ التصنيف إلى تتبع التشابه والتغير ، منطقه ومداه . وأثمرت النتائج التحليلية إلى وجود عناصر كثيرة شائقة في كل مادة فلكلورية .

واتجهت الدراسات الاجتماعية نحو الأسطورة ونالت الأسـطورة حظهـا مـن الـشيوع والانتشار على يد ماكس مولر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهناك اتجاه يرى أن الأساطير نشأت نتيجة لقصور اللغة ، واتجاه آخر يرى أن الأساطير نشأت في تشخيص العناصر الكونية كما أكّد العلماء الغربيون وجود رابطة وثيقة بين الأساطير والطقوس ، وأنها ميثاق علمي للعقيدة البدائية ، وواقع ثقافي ممعن في التعقيد وتاريخاً مقدساً .[1]

ولما كانت الأساطير قد أمدت الدراسات الإنسانية على اختلاف فروعها بالكثير من الظواهر ، فإن الفلكلور علماً من العلوم الإنسانية يرتبط بعلم اللغة العام والدراسات الأدبية ارتباطه بعلم الإنسان أو الانثربولوجيا وعلم النفس ، وهذه العلوم تتكامل فيما بينها وتخضع للمنهج العلمي .

وأثبتت الدراسات أن الوثائق التاريخية وروائع الأدب لا يمكن أن تفهـم علـى وجههـا الصحيح إلا بالاعتماد على الفلكلور .[2]

وإذا اعتبرنا الأساطير بمثابة العقائد القديمة لإنسان ما قبل التاريخ هل يعقـل أن تفـسر نصوص حضارية معاصرة ، بل ثقافية خاصة نابعة من بيئة عربية إسلامية إلى أساطير ما قبـل التاريخ على القول أن القاسم بينهما فطرية الإنتاج وبديهيته وأوليته ليرجع إلى النسق الأول الذي صدر فيه وهو الأصل الأسطوري لنؤكد الارتباط العضوي بين المضمون القصـصي والأعمـال التي تحاكيها والمعني من ذلك رد جميع وسائل التعبير إلى أصل واحد ، ويقول عبد الحميد يونس : (أننا نرجح أن الأسطورة في أصلها عقيدة تحققها شـعيرة ، وأن الـشكل القصـصي تفـصيل وتسجيل معاصر أو متأخر ، وأن تعرضها للتغيير يرتبط بالوظيفة أكثر مما يرتبط بـأي شـيء

---

[1] مقال ا لفلكلور والميثولوجيا - مجلة الفكر - المجلد الثالث – العدد الأول - ص ١٨ – ١٩ .
[2] مقال تحليل عناصر الرواية كمنهج فلكلوري - - مجلة الفكر – المجلد الثالث - العدد الأول ١٩٧١م - ص ١٨١ - ٢٠٠ .

آخر وهى تحتفظ بصفتها الأسطورية ، ما دامت عقيدة لها قداستها وشعائرها ، فإذا تحولت مـن هذه الوظيفة إلى غيرها أصبحت عادة أو تقليد أو عرفاً اجتماعياً أو ملحمة أو حكاية شعبية) .[1]

إذن يمكن القول أن النصوص الصادرة من أصل أسطوري تشكّل عقائد وظيفتها الأساسية طرح العقيدة الأولى التي تمثلت في الأسطورة الأصل وإن تشكلت بأشكال مختلفة ونلاحظ هنا تأثر الفكر البنيوي بهذا الاتجاه أو إحيائه من جديد على اعتبار النصوص الأدبية ناتجة من عقيـدة أو لغة صادرة من الفكر الكلي ، انظر إلى ذلك التوازي بين الأساطير وما تفرعت عنه من أشكال أدبية مختلفة ترجع إلى المنبع الأصلي الأسطورة الأم .

وقد تبينت لنا هذه النقاط في الدراسات الأسطورية السابقة التي حاول الباحثين من خـلال دراستها التأكيد على مبدأ الكلى أو اللاشعوري أو الفكرة المثالية التي انبنت عليها الأساطير وهذه الفكرة هي في نفسها عقيدة تشكل عقائد ثانوية ، تفسر العالم وتشرحه . بالإضافة إلى أن كل قصة أو رواية لا يمكن فهمها إلا بعلاقاتها مع الآخرين ، ومن خلال القراءات المتعددة نحصل علـى منهج باطني يجمع بينها وهو الفكر اللاشعوري الذي يفسر النسق الكلي أو النظام المحكم . وهـذا هو المنهج الصوتي لتربتسكوي ومبادئه البنيوية العامة طبقها ستراوس على دراسته الأثنولوجية وبين لنا ستراوس الأساس النظري لمراحل التحليل الفونولوجي ، فالتحليل يبدأ بدراسة الظـواهر اللغوية (الواعية) ويمضى إلى البنية غير الواعية (اللغة) الكامنة خلـف الظـواهر اللغويـة الواعية .

ونتبين من ذلك أن مراحل التحليل تمضى على نفس الظواهر التي دُرسـت بهـا الآداب الشعبية و الظواهر الواعيـة و الظـواهر غيـر الواعيـة ، العلاقـات ، والنظـام ، ويحـاول الأنثربولوجيون بعد هذا أن ينقلوا منهج التحليل البنيوي كما تبلور عند الفونولوجيين إلـى بحـث الظواهر الأثنولوجية .[2]

ويمضى ستراوس في تطبيق ذلك على نظام القرابة فنظام القرابة لـيس تطـوراً تلقائيـاً لعلاقات بيولوجية بل هو نظام ثقافي ، وكذلك النظام اللغوي ، وهذا التحول مـن الطبيعـة إلـى الحضارة هو بداية الفكر الرمزي ، بالمعنى القائم في العلاقات ومن كل هذا يـرى سـتراوس أن اللاوعي الذي يخلع على الظواهر الاجتماعية الطابع المشترك والمميز لها هو المسؤول عن الفكر الرمزي بل هو قسم من أقسام الفكر الجماعي ، وبهذا طبق ستراوس منهجه في التحليل وطـور

---

[1] مقال تحليل عناصر الرواية كمنهج فلكلوري - - مجلة الفكر – المجلد الثالث - العدد الأول ١٩٧١م – ص ١٨ – ١٩ .

[2] مقال بعنوان (أصول البنيوية فى علم اللغة والدراسات الأثنولوجية) محمود فهمي حجـازي – المجلـد الثالـث – العـدد الأول - (١٩٧٢م)) – ص ١٦٨ .

نظرته إلى العلاقات الاجتماعية باعتبارها رموزاً للتبادل الاجتماعي تنتظم في اللاوعي عند البشر ، وبهذا تميز البشر في الحضارة عن باقي الكائنات في الطبيعة .[١]

ومن هنا ندرك أن أول التطورات الجوهرية في الدراسات البنيوية تقوم على التقدم الذي أحرزه التحليل الفونولوجي ، ودراسة القصص الشعبي والأساطير باعتبار أن النموذج اللغوي ، وفهمه أساس أي تطبيق في الحالات غير اللغوية .

وعلى هذا يتم تحليل اللغة والأدب باعتبارها أنساقاً لعناصر تستمد معناها من النسق العام الذي تحدد هي وحدته [٢] ويلمح ستراوس على افتراض وجود بنية كلية ، لا تتخلق داخل النـسق الفردي ، وهذا إشارة إلى أن الأساطير تمتلك نظام داخلي متماسك و ثـم ملمحـاً تنتمـي إليـه الأساطير يقول : (حين ننظر إلى جميع المنجزات الفكرية للإنسان ، . بقدر ما دونت عبر العالم كله ، نجد أن القاسم المشترك بينها هو إدخال النظام في نمط ما ، وإذا كان هـذا يمثـل حاجـة إنسانية للنظام في العقل الإنساني ، وما دام العقل الإنساني ، بعد كل حساب ، ليس سوى جـزء من ا لكون ، ولأن الكون ليس في حالة من الفوضى .[٣]

ونحن إذ نستعرض هذه الدراسات وأعماقها الفلسفية سعياً وراء تجذير هذا الفكر بإيضاح أصوله الحقيقية ومدى تداخل هذه المناهج والعلوم والدراسات لتأكيد أصول الفكر الكلي الثابت في وعى الإنسان حتى استدعاهم ذلك لدراسة الأساطير والعقائد الروحية الأولى لتعبر عن الأرضية المشتركة في التعبير عن الفكر الإنساني بصوره المختلفة .

أن في إطار تحليل مقدمات المعرفة الإنسانية تكشف النظرية الاجتماعية بتحليل الأساطير عن إن معنى (الكلي) ليس خاصاً بفرد من الأفراد ، بل يشترك الأفراد جميعاً في الأخذ به ، والتفكير في ضوئه ، في ذلك أن البنيويين جعلوا الكلي (عقيدة) أو دين أو فكرة مسبقة موجودة في أذهان البشر بالقوة ، فلو كانت هذه الفكرة حسية لما أمكن أن تكون عامة ، وأن المعاني الكلية هي وسيلة الاتصال الفكري بين أفراد المجتمع ، لأن التخاطب وتبادل الآراء وتلاقى العقول لا يتم إلا عن طريق احساسات جزئية فردية ، ولكن بفضل قدر متفق عليه من المعاني العامة والمدركات الكلية فالكلي من صنع المجموع ، أي أنه فكر متحد تتقابل فيه جميع الأفكار والمشاعر وهذا يفسر ما تتمتع به المعاني الكلية من ثبات .

---

[١] مقال بعنوان (أصول البنيوية فى علم اللغة والدراسات الأثنولوجية) محمود فهمي حجـازي – المجلـد الثالـث – العـدد الأول - (١٩٧٢م) - ص ١٧٨ ٠

[٢] المرايا المحدبة – د٠عبد العزيز حمودة - ص ٢٢٥ .

[٣] المرجع السابق - ص ٢٢٦ – ٢٢٧ ٠

ومن ثمار تجارب ومعارف تمثل الثروة العقلية الإنسانية ، وهذا سبب تفسير الفلاسفة أن العقل يذهب أبعد من حدود المعرفة التجريبية . [١]

وبذلك كان تعريف الأنثربولوجي الإنجليزي تايلور (١٨٧١م) في كتابه (الثقافة البدائية ١٩٧١) : (... ذلك المركب الذي يضم المعارف والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والعرف وكل المقدسات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع معين) . [٢]

ونلاحظ أن الفكر البنيوي يلغى في تحليله البيئة والمناخ والمصادر الطبيعية، ويساهم مع الجانب المعنوي الذي يتمثل في المعتقدات والأفكار والعادات في تشكيل الملامح الثقافية الخاصة لكل مجتمع ، وبالرغم من ذلك فإننا نرى أن كل المجتمعات الإنسانية تشترك في الملامح العامة الثقافية أو ما يسمى (بالكليات الثقافية) (Culural Universal) وبالرغم من اختلافها في هذه السمات الثقافية الخاصة إلا أنها تشترك في الأنماط الثقافية مثل نظام اللغة والقرابة والدين ، ولهذا نجد كثير من الأنثربولوجيين يقولون بمبدأ الوحدة النفسية للبشرية والذي يفسر أن تلك الشعوب المختلفة في الأنماط الثقافية على الرغم من تباعد المكان والزمان متشابهة ثقافيا ولعل هذا الإتجاه الأنثروبولوجي تأسر بفكرة الكليات اللغوية .

والبعض يرد هذا التشابه إ الانتشار الثقا أو هجرة الثقافات ، أما أصحاب النظرية التطورية يردون ذلك إ مبدأين متكاملا :-

(١) وحدة الطبيعة البشرية .

(٢) تشابه الظروف السائدة ، في تلك المجتمعات فالثقافة نظام متواصل ومتوارث يتكون من الأنماط الثقافية التي اصطلح عليها المجتمع يشترك فيها جميع الأفراد وتنتقل من جيل لآخر بالمحاكاة ، والتكرار والممارسة بشكل لا شعوري ، كما في تعلم الأفراد اللغة.[٣]

لا بد من الإشارة إلى جذور النظرة الكلية في الفكر الغربي حتى نتبين أصولها ، وما ترمى إليه من فلسفات ، ألمح أوجست كونت إلى ضرورة قيام علم مستقل لدراسة المجتمع حتى يخلّص هذه الدراسة من التصورات الدينية والآراء الخاصة ، وتوصل إلى قانون المراحل الثلاث ، وملخصه أن العقل البشرى وهو بصدد فهم حقائق الكون ومظاهره مر بثلاث مراحل ، هي المرحلة الميثولوجية (اللاهوتية) ، والمرحلة الميتافيزيقية والفلسفية ثم المرحلة الوضعية

---

[١] مقال بعنوان - التراث الشعبي بين الفلكلور وعلم الاجتماع – د. محمود الجوهري- مجلة عالم الفكر - المجلد الثاني - العدد الثاني - ص ٩٩ .

[٢] اللغة والثقافة - د.كريم الدين حسام - ص ٦١ .

[٣] مقال بعنوان - التراث الشعبي بين الفلكلور وعلم الاجتماع – د. محمود الجوهري - مجلة عالم الفكر - المجلد الثاني - العدد الثاني - ص ٩٩ - ١٠٠ .

العلمية أي الدراسة القائمة على الوصف والشرح والتحليل والوصول إلى القانون العلمي الذي يحكم الظاهرة .

ولاحظ كانت أن العقل يستقيم على ذاته ، فهو يفكر الدراسات المتصلة بالعلوم الرياضية والبيولوجية ، و يتجه اتجاهاً دينياً لاهوتياً ميتافيزيقياً .

فلا سبيل إذن لتعميم الوظيفة لتفسير مختلف ظواهر الكون والإنسان والمجتمع ، وهذا لا يتأتى إلا بقيام الطبقة الاجتماعية ثم علم الاجتماع فقيام هذا العلم حقق وحدة المعرفة الوضعية وعموميتها وتحققت الفكرة التي ألمح إليها كنت وهي كلية التجربة .

وبالتالي أصبح الاتجاه البنيوي سائداً ومسيطراً على الأجواء الفكرية فرنسا وأمريكا ولا سيما أن الخطاب الأدبي قد قاوم الوجودية مدة طويلة واتخذ منها عقيدته التي ظلت منغلقة عن الاتجاه البنيوي الستينيات والآن أصبحت البنيوية بدورها عقيدة .

لقد كانت الفلسفة حينها أكثر استعداداً لتقبل مبدأ رؤية العالم لأنها كانت على خير من ذلك كما أنها كانت تعلم أن جدلاً عريضاً كان قد نشأ خارج فرنسا منذ نصف القرن الماضي ، وان هذا الجدل كان يدور حول إمكانية تأويل ظواهر التعبير أو الرموز التي تكشف عن الحقيقة الإنسانية بواسطة شامل لا مدرك ، وظهور منهج يعالج الظاهرة الاجتماعية على مطابقة التفكير الفرنسي بتحليلاته الشاملة التي كان يمارسها على السواء كل من علم النفس التحليلي واللسانيات والنقد وعلم الأنثربولوجيا .

ويشرح غولدمان مفهوم رؤية العالم وعليه فإن شيئاً ما يسعى من خلالنا إلى إعطاء معنى لما نعرب عنه في نطاق فوضى غيمة سديمية للحياة اليومية والتعبير الرمزي ، فخطابنا المنقطـع يندمج في خطاب أوسع يملأ حيز الزمان والمكان الذي ينتمي إليه ، والكلام مهما كان غامضاً أو غير واضح (الجمل الغير مقبولة نحوياً) [١] فإنه يعكس وجهاً من الحقيقة التي تتجـاوز البنـي ولكنها تشمل مع ذلك كل الكائنات المعاصرة ، وكل الإمكانيات الرمزية لحقيقة (مـا) ، وبالتـالي فإنني لا أكشف إلا عما استطيع التعبير عنه في نطاق تاريخي ولا أنجز إلا ما يمكن أن ينجزه هذا (النسق) الواسع جداً والذي لا استطيع أن آخذ منه أي تصور .[٢]

ومن خلال ذلك كله ندرك أن المشكل المعرفي للبنيوية مشكل جدلي يقوم على أن الأجزاء لا تفهم إلا من داخل الكل وكل تفسير جزئي يفترض معرفة كلية .

---

[١] عض الرجل الكلب – شرب الحليب الولد – الأفكار الخضراء تنام مضطربة ، هذه الجمل هي التي بنى عليها تشومسكى نظريته لأنها تعبر عن حقيقة وحرية الإنسان في التعبير والتوليد الحمل اللانهائية .

[٢] البنيوية التكوينية - ترجمة محمد سبيلا وآخرون - ص ٩٤ – ٩٥ .

وكل موضوع داخلي ينتظر منظور تطلعي يسمح بتجاوزه أو بتحويله ، داخل منظومة لا تنبني إلا بعملية الانتقاء ، ويمثل النموذج الاستطلاعي رسماً افتراضياً للعمل الأدبي من حيـث أنه منظومة يفترض عملها شبكة من الدلالات المتعددة التي تبدو غير متجانسة . ومهمة المنظومة تنظيم العلاقات التي تربط المفاهيم التي تستقيها من الموضوع المـدروس ، والقـضاء علـى الانحرافات والتعارضات والانفصالات ، وفيما بعد تمدنا النظرة إلى العـالم بتوحيـد الموضـوع وإدراك الروابط بين أجزائه فلا يتخذ معناه الكامل إلا من هذه المرحلة .

و ي ذلك ا فهوم الذي يوحد ب هذه الثقافات ا تباينة مفهوم النظرة إ العا وهذا ا فهوم يكشف عن القواعد ال ضع ا الإنتاجات البشرية ، واستظهار معناها الذي لا بد وأن يكون تفياً ، وإن مفهوم النظرة إ العا يكشف عن وحدات داخل ا موعة و من فهو يثبت وحد ا و يزها .

ونلاحظ أن كل الدراسات الإنسانية فـي هـذا القـرن (علـم الـنفس - التـاريخ – والأنثربولوجيا - والأدب) استخدمت مفهوم النظرة إلى العالم كمفهوم كلى أو نموذج ذهنـي أو نموذج نفسي أو تمثل كلى جماعي ، في كل هذه الحالات يتعلق الأمر باللجوء إلى فكرة منظّمـة باستطاعتها القضاء على التعارضات الظاهرية من قبل الفـرد والمجتمـع والـصورة والدلالـة والسلوك والإبداع الخيالي . [1]

ومفهوم النظرة إلى العالم تعبير بنيوي وظيفي عن المكانة التي تحتلها داخل جماعة أوسع منها ، وهو كتفسير كلي عن طريق مفهوم النظرة إلى العالم ، وهـو مفهوم يحقّق التناسق .

وهكذا أضحت الدراسات الأدبية ليست علماً بالمضامين فهذا المبدأ قاصر على علم التاريخ ، وإنما لا بد له أن يدرس شروط انبثاق هذه المضامين ، والذي تعنيه هو التنوعات الدلالية القابلة للتولد من الآثار نفسها ليس هدفه أن يبحث المعاني المكتملة للأثر الأدبي ، بل عن المعنى الأجوف الذي يتسع لها كلها . يمثل الأدب نموذج توليدي يسعى للوصول إلى قواعد تشرح نتائجه ، كما أن علم اللغة الحديث يركز على وصف نحوية الجمل لا على دلالتها ، فإن علم الأدب يصنف إمكانات قبول الأعمال الأدبية لا معناها .

وهذا يؤكد بدوره أثر الفلسفة الماركسية البنيوية ، إن الأدب يمثل عنـدهم طاقـة كامنـة لكلمات ومجموعة من القواعد التي تتراكب خارج أي مؤلف وتشكل ما أسماه النقـاد (بمنطـق الرمز ، أو الأشكال الكبرى المفرغة للأدب) فالأدب يشمل مجـالين ، مجـال يـشمل الرمـوز

---

[2] البنيوية التكوينية - ترجمة محمد سبيلا وآخرون - ص ١١٣ – ١١٧ .

الصغرى كالأشكال البلاغية وظواهر الإيحاء والانحرافات الدلالية ، أما المجـال الآخـر يـشمل الرموز التي تزيد عن مستوى الجمل أي أجزاء القول التي يمكن أن تستنبط منها بنية ، وعلاقات التكامل تلك بين الوحدات الصغرى والكبرى ، وتحقق توالد المعاني وتكون البنية .[1]

فالبنائية تصور للمستويات ا تداخلة بنائياً ، وكل مستوى يكشف عن ضرورة التحليل ا نظم للعمل.

ولكل كن القول أن هذه الدراسات ا كثفة حول الأدب الشع تطبيق لثنائية سوس ال تقابل اللغة بالكلام ، وهى أو الدراسات البنائية ، ال تقوم على التحليل البنائى ، فالتحليل البنائى مع موعة من الأساط تنتمي إ مستوى القول الكلامي ، أي تلف الأساط ال ثل جزء خاص وعفوي لأسطورة مثالية كلية ذات هيكل عام يعت كاللغة بالنسبة للمظاهر ا ختلفة القول ا تعددة ا تمثلة أساط ا تمعات .

وهذا يعنى أن جميع الأساطير معظمها متشابك ومتواصل على اعتبار أنها تحقيق جزئي لنظام كلى شامل ، وهذا النظام في تحليل بنيته التي تتمثل في الأساطير يفسر العالم ويشرحه .[2] وأي تغيير أو تحويل في نظام ما يشرح أو يفسر للوصول من خلاله إلى النظام الشامل ، وهـذا هو الفكر الذي تسعى إليه البنيوية من خلال رجوعها إلى الأساطير باعتبار أنها تنوعات مختلفـة لنظام كلى واحد .

وحاول ستراوس تطبيق هذا المنهج على دراساته الاثنولوجية وألّف كتاباً (١٩٤٥) عـن التحليل البنيوي في علم اللغة والدراسات الأثنولوجية ، ويعد هذا أول تطبيق منهجي على الفكر البنيوي في دراسات إنسانية أخرى غير اللغة ، حاول ستراوس الاستفادة من منهج الـصوتيات ، الذي حددت مبادئه بصورة بنيوية يقوم عليها المنهج الفونولوجي وتؤكد مدى اعتماد الفكر البنيوي على الجانب اللاشعوري للغة ، وتتمثل في الآتي : - [3]

(١) لا يهتم علم الفونولوجيا بدراسة الظواهر اللغوية الشعورية بل يهتم بدراسة البنية التحتية اللاشعورية .

(٢) لا يدرس علم الفونولوجيا الأصوات منفصلة بل يدرس العلاقات القائمة بين الأصوات .

(٣) يرى علم الفونولوجيا أن ضروب العلاقات تؤلف نسقاً محكماً .

(٤) لا يسير علم الفونولوجيا على منهج تجريبي انطلاقاً من وقائع الملاحظة بل يسير على منهج منطقي استنباطي من نموذج قد تم تركيبة وإنشاءه ، مما سمح له بالوصول إلى قوانين عامة .

ثم جاء دوركهايم اليهودي وتبنى فكرة كونت ولا غرو أن دوركهايم يعتبر أحـد دعـائم الحركة العلمية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين ، وهو منـشئ

---

[1] النظرية البنائية د . صلاح فضل – ص ٢١٤ – ٢١٥ .
[2] المرجع السابق – ص ١٤٧ .
[3] اللغة والثقافة - د٠كريم حسام الدين - ص ٣٩ ٠

علم الاجتماع ، وجاء كتابه (قواعد المنهج الاجتماعي) ونبه فيه إلى ضرورة دراسة الظـواهر الاجتماعية بوضعها أشياء خارجية منفصلة عن المشاعر الذاتية ، ووصف منهجه بأنـه نزعـة سيسيولوجية واقعية ترفض الاستبطان وتتخذ موقفاً يماثل موقف عالم الطبيعيات .

وتقوم فلسفته على أن الظواهر العرقية ظواهر اجتماعية تعبر عن حقائق اجتماعية ، وأن المقولات العقلية والمعاني الكلية ثمرة من ثمرات التقليد الديني ، ومن ثم فهي من أصل اجتماعي ، بمعنى أنها ترجع عن أصولها إلى تحديدات اجتماعية . والمقولات الكلية عند ارسطو هي مبادئ العقل أو مقولات الفكر مثل الجوهر والعلية وفى هذا النطاق الاجتماعي أمكن لدوركهايم تحليـل المقولات والكليات مثل معنى (الكلى) الذي يتضمن مجموعة من الوحدات أو الموجودات أي كلية المجتمع وذاتيته [1] وقد سمى غولد مان البنائى الناقد هذه الكلية بالـذات الجماعيـة فـي الفعـل والتفكير ، باعتبارها تتوفر على حد أعلى من الوعي الممكن يشرطها ويحدد قدرتها على التـأثير والتغيير ، وسمى هذه البنية (بالبنيوية التكوينية) ، وهى فلسفة متكاملـة ذات منظـور نقـدي متطور ، تقوم على الجدل القائم بين الذات والموضوع ، أو بين القارئ والنص ، وهذه الجدليـة تمثل العلم التكويني لكل بنية ، كما أن البني تنفى وتكون بنى جديدة ، والبنيويـة التكوينيـة فـي اعتبارها كلية الظواهر وترابطها تنقد الواقع الناقص .[2] وتقول الدراسات النقدية أن غولدمان قد حدد المقولات الرئيسية لتفكيره النقدي وخاصة مقولة (الكلية) التي هي مقولة مركزية في أعماله .ولذلك تقرر البنيوية التكوينية أن أية دراسة لموضوع جزئي ومحدد ، لا يمكنهـا أن تتنـاول المظهر الواعي لهذا الموضوع إلا بإدراجه ضمن كل ليس شاملاً ، و إنما هو في جميع الحالات ، اكثر اتساعاً من الموضوع الجزئي المحدود .[3]

كما أن درجة ملائمة الموضوع الجزئي لا تكون كلية إلا أن يتقبل الوعي بمجموع الكـون والتاريخ ، وفى هذا الصدد نشير إلى ما رواه لوسيان غولدمان من تفسير للوعي الجماعي بالوعي الممكن ، وللوعي الواقعي الملموس بالوعي القائم وبدراسة الوقائع الملموسة نسعى إلـى وضـع نمذجه لأنماط الوعي الممكن المعتمدة على مضمونها خلال اللحظة التاريخية التي يبلغ فيها ذلك المضمون درجته العليا من التلاؤم ، وكذلك نضع نمذجه بنيوية لصيغ عدم التلاؤم القائم ، انطلاقاً من التغيرات الثانوية للوعي الخاطئ ، وهذه النموذجية لها طابع وضعي ، تخلص إلى القـول أن لوسيان جعل نموذجاً بنيوياً عالياً لكل نص يوافق الوعي الممكن (الجماعي) ويتلاءم معه وفقـاً

---

[1] مقال بعنوان : الفلسفة وعلم الاجتماع - مصطفى الخشاب - مجلة فكر - المجلد الثالث - العـدد الأول ١٩٧٢م – ص ٨٥ – ١٠٣ .

[2] البنيوية التكوينية - ترجمة محمد سبيلا وآخرون – ص ٨ .

[3] المرجع السابق - ص ١١ .

للوقائع الاجتماعية ، وكل نص خاطئ فهو نص قائم على طابع ذا عقلانيـة محـددة وذا غلبـة عاطفية من فكر وسلوك بعض الفئات الفردانية ، وهو طابع يرتبط بموقعهم المحيطى في عمليـة الإنتاج ، وهو موقع عن فهم مجموع السيرورة الاقتصادية والاجتماعية . يمكن القول أن إطـار الوعي الممكن لدى الجماعات الخاصة وداخل الحد الأقصى من التلاؤم مع الواقـع الـذي يبلغـه وعيها ، يجب أن نطرح مشكلة وعيهم القائم ، وهذه فكرة سيدولوجية فلسفية وتاريخية ، وهـى طريقة البنيوية التكوينية للوصول إلى فهم إيجابي للوقائع الاجتماعيـة .[1] ونجـد أن لوسـيان غولدمان يؤكد أن العمل البنيوي التكويني لا يقصد سوى الأعمال الكبرى المحددة ببنـاء رؤيـة للعالم وخارج هذا في الحكايات الشعبية مثلاً ، فليس من المستبعد بتاتاً أن يتوفر الشكل باستغلاله الذاتي و وذلك جوهر ديني ، ويبدو أن ما يميز رؤية العالم هو ما يجعلها تكون جواباً شاملاً ليس مشكل ولكن على مجموع المشاكل القائمة بالنسبة لمجموعة أو طبقة اجتماعية و وأن المشكل قد يظهر دائماً كمشكل كوني التجريد في حين أن الإشكالية ملموسة ومن هنا تعالج المشاكل بصيغ عالمية مجردة بأشكال النصوص الأدبية مثلاً ، فيما تتصل رؤية العالم بفهـم وتفـسير إشـكالية مسجلة في تاريخ المجتمعات .[2]

ويمكن القول أن المفهوم الأساس الذي تقوم عليه رؤية العالم هو مفهوم اللاشـعور ، إن هذا المفهوم يشكل الأرضية التي تقوم عليها سوسيولوجيا الثقافة أو الفن أو المعرفة . وهم يؤكدون بهذا التوافق بين المقولات والمفاهيم والفكر الجدلي الذي يقول : (إن الأجزاء لا تفهم إلا داخـل الكل وكل تفسير جزئي يفترض معرفة الكلية) .[3]

والتقاء البنائية حول الطابع غير الواعي للغة أو اللاشعور ، يؤكد اعتماد تحليل النص الأدبي عند البنيويين بفحص العلاقة بين النص كأدب والأسطورة كأيديولوجيـة ،أو فكـرة كليـة انبثقت منها هذه الأشكال الأدبية المتنوعة فأصبحت كالنسق أو النظام الـذي يحكـم الأشـكال أو الأجزاء .

وفى هذا خطورة على كتابنا المقدس القرآن الكريم والأدب العربي الإسلامي بقيمـه ، هـل يندرج تحت منظومة النسق الكلى ،أم يعتبر من الأعمال العالية التي لا تحقـق نموذجـاً بنيويـاً يستحق التحليل ،أم كيف ننظر إليها من خلال هذا الفكر المتطرف السلطوي الذي يقيم النص وفقاً لمنظوره ورؤاه وأدواته الفنية . وإحدى هذه المستويات (الصوتية - الـصرفية – النحويـة -

[1] البنيوية التكوينية - ترجمة محمد سبيلا وآخرون - ص ٣٩ .
[2] المرجع السابق - ص ٦٢ .
[3] المرجع السابق - ص ١١٨ .

الدلالية) قوانينه البنائية، مثل قوانين النحو والبلاغة وشبكات التداعي وقوانين الدلالـة والمواقـف الأيديولوجية والثقافة المتطورة ، وعلاقة النص الأدبي بالأبنية اللغوية ، فدراسـة جميـع هـذه المستويات وعلاقتها المتبادلة و التداعي الحر فيما بينها ، والأنشطة الخلاقة فيها هو ما يحدد البنية الأدبية . فالبنيوية تفجر الموضوع بانبثاقه من داخل النص ، بالتالي يقوم النقـد البنـائى بتوليـد المعاني اشتقاقاً من الشكل الذي هو الأثر الأدبي نفسه .

ولا بد من الإشارة إ جذور النظرة الكلية الفكر الأد ح نتبين أصو ا ، وما ترمى إليه من فلسفات .

نجد أن فكرة العالمية ، الكلية ، والوحدوية ، فكرة قديمة جداً في الفكر الغربي إذ كانـت الحضارة الغربية في كل مراحلها تسعى إلى وحدة العالمية، والوحدة عندهم تعنـى الانـسجام أو التناغم بين المكونات المختلفة للمجتمع الواحد ، أو الفرد الواحد ، من حيث أن الفرد يمتص القـيم الاجتماعية ويدل تماسك شخصيته على التماسك والتوافق بين هذه القيم كما تدل صراعاته النفسية على التعارض بينها ، وعلى رأس هذه المكونات الإيمان الغيبي المتمثل في الـدين مـن ناحيـة والعقل التجريبي المتمثل في العلوم الدقيقة من ناحية أخرى ، وبما أن الطرفين يمكن أن يتصاعد ا عند البحث في قوانين العقل ومعنى الوجود ، وهما موضوعات الفلسفة ، ولكـن الجمـع بـين الطرفين في الثقافة الغربية ينطوي على صعوبة . فالدين غيبي أسراري والعلم تجريبـي يعتمـد على حقائق ملموسة .

والحق أن تسخير الطبيعة لخدمة أغراض الإنسان يتطلب استخدام إحدى الطريقتين إمـا الاعتماد على القوى الغيبية ، وإما الاعتماد على العقل التجريبي موقع الصدام بـين الطـرفين ، وأصبحت اليد العليا في العصور الحديثة للعقل التجريبي ، وفى غمرة الصراع انطلـق العقـل التجريبي يهدم قدسية النص الذي يلتف حوله المؤمنون .

ونلاحظ أن التشكيك في الدين يجعل حاجات الإنسان المخيفة في أعماقـه لا تجـد لهـا إجابات شافية ، وفى هذه الأعماق تتصاعد أسئلة لا يجد العلم لها حلاً ، كغمغمة الطفل الرضيع ، (اللغة - اكتساب اللغة - ذاتية اللغة) ، ومن هنا كانت المحاولات المستمرة لإيجـاد بـديل للدين يقبله العقل ، يسمى دين العقل ، أو دين الإنسانية ، أو الدين بلا وحي ، وفى الاتجاه الآخر محاولة تفسير عقلي للدين .[١]

وفى هذين المجالين ترددت أفكار أوجست كونت ، وإليوت وهما مـن رواد البنيويـة ، ألمح أوجست كونت إلى ضرورة قيام علم مستغل حتى يخاص هذه الدراسة مـن التـصورات

---

[١] المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين - مجلة عالم المعرفة - شكري عياد – ص ١٥٤-١٥٦ .

الدينية والآراء الخاصة ، وتوصل إلى قانون المراحل الثلاث ، ولخّصه في أن العقل الإنـساني وهو بصدد فهم حقائق الكون ومظاهره مر بثلاثة مراحل ، هي المرحلة اللاهوتية ، الفلـسفية ، الوضعية العلمية .

وكذلك مفهوم العلاقات بين اللغات ، يعكس تصور ماركس ، في العلاقـات الإنتاجيـة ، فالعلاقات تكون البنية ، من خلال معرفة النموذج الذي تخضع له .[٢] والجهاز اللغوي يدور حول الوظيفة الخلافية لكل وحدة و على أساس أن مقابلتها بالوحدات الأخرى يمثل تشخيصها ، ولا شك أن كل سوسولوجيا الفكر تقبل بوجود تأثير الحياة الاجتماعية على الإبداع الأدبـي أمـا بالنـسبة للماركسية تعتبر ذلك مسلّمة أساسية مع إلحاحها بصفة خاصة ، على أهمية العوامل الاقتـصادية والعلاقات بين الطبقات الاجتماعية ، فالماركسية تربط القيم الروحيـة بـالعوارض الاجتماعيـة والاقتصادية ، والنقد البنيوي يرى أن القيم الفكرية الحقيقية لا تنفصل عـن الواقـع الاقتـصادي والاجتماعي ، بل هي قائمة بالذات على هذا الواقع بل ويرتبط ذلـك برؤيـة العـالم ، فـالفكر الماركسي يرى في الإبداع الأدبي تفسير عن رؤية العالم ولكن ليست من وقائع شخصية بـل وقائع اجتماعية .

ورؤية العالم تصبح في هذه الحالة بمثابة كيان مجرد أنها نسق من التفكير يفرض نفـسه على الناس بوجوده في أوضاع اقتصادية واجتماعية متشابهة وهذه الأوضاع عند المادية الجدليـة غير محددة بتأثير محيط اجتماعي معين ، بل قد تكون تحت تأثير أيديولوجيات بعيدة عن الـزمن والفضاء . وبالتالي يمكن القول أن الفكر الماركسي يتفق مع الفكر البنيوي في القول في وجـود العرى أو الفعل في اعتبارهم أن العمل الأدبي وقائع اجتماعية مختلفة (أفعال) ناتجة مـن بنيـات ذهنية موحدة .[٣]

رؤية الفكر الماركسي للعالم :

لا يمثل العالم بالنسبة لأصحاب الفكر الماركسي ومن بينهم البنيويين عالم الطبيعة والكون والموجودات ورؤية الإنسان من خلال عقيدته إلى هذا الكون وتصور وجوده فيه بل رؤية العالم تمثل عندهم نسق فكرى يسبق عملية تحقق النتاج .

وليست رؤية العالم واقعة فردية بل واقعة اجتماعية تنتهي إلى مجموعة أو طبقة . فإن أي رؤية للعالم هي وجهة نظر متناسقة ووحدوية حول مجموع فكر الأفراد وهو نسق فكرى يفـرض نفسه على الناس ، ونلاحظ أن رؤية العالم للطبقات الاجتماعية و الأفكار الذهنية لهذه الطبقات ،

---

[٢] النظرية البنائية فى النقد - د .صلاح فضل - ص ٢٨ .
[٣] البنيوية التكوينية - ترجمة محمد سبيلا وآخرون – ص ١٥- ١٦ .

فوجود رؤية العالم على مستوى المجموعة الاجتماعية يحققها الفرد بـصورة لا شـعورية ، أي رؤية المجموعة أو الطبقة الاجتماعية للعالم ثم إحساس الفرد بها دون أن يمـس ذلـك أفكـاره ونواياه ، ومهمة الناقد استخراج الدلالة الموضوعية للنتاج ثم إدخالها في علاقـة مـع العوامـل الاقتصادية والاجتماعية لتلك الفترة .

وهنا نلاحظ الفكر الماركسي في مفهوم الوعي الطبقي واعتماد المجتمع على الإنتاج بـل يظهر ذلك جلياً في مفهوم القيمة الذي يحدد قيمة النتاج الأدبي بمقدار تمثيلها لرؤية متناسقة للعالم على مستوى المفهوم وعلى مستوى الصورة اللفظية أو الصورة المسموعة ، وتعرف القيمة كتوتر بين الثراء الحسي و الوحدة التي تنظم هذا التعدد من مجموع متناسق وجيد وهذا المنظور صادق بقدر ما يكون الثراء والتعدد الحسي للنتاج كبيرين ، والقيمة الحقيقية هي التـي تـنظم ضـمنية مجموع عالم النتاج وكل قيمة لكل نتاج خاص ، لا تمثل قيمة إلا بأن تستدمج في قـيم أخـرى . وكذلك نلمح أثر الفكر الماركسي في مفهوم النتاج في البنيوية التي تجعل المقولات الفكرية والقيم ، هي منتوج التطور التاريخي للعالم الطبيعي والاجتماعي.

فالبنيوية التكوينية تقوم على المعايير الآتية :-

(١) لا يتيقن في فهم النتاج ، وعى المؤلف .(القيمة ناتج من نواتج الحياة الاجتماعية) .

(٢) من خلال التحليل والتغيير يتبين أن البنية الذهنية التي تسيطر على النتاج لهـا دور وظيفـي ودلالي .

وأن هذا النظام البنيوي التكويني نتيجة عمليات تحويل اجتماعية شمولية . ونلاحظ أن القاعدة الفكرية للبنيوية التكوينية ، تأخذ الطابع الجماعي للإبداع مع البنيات الاجتماعية الشاملة ، وهذه الفكرة أيضا متفقة مع الروح الماركسية التي تنظر إلى الإنتاج الفكري في ارتباطه بالبنية الاجتماعية التي يبدو لهذا النتاج وظيفة فيها .

ويؤكد الناقد غولدمان أن الأعمال الكبرى تظهر إذن البنية الأكثـر انـسجاماً لتطلعـات المجموعة للوصول إلى الوعي الممكن الأقصى والتمظهر بما يفكر فيه أعضاء جماعته دون أن يعرفوه ، فالعمل في هذه المجموعة هو الأساس والإبداع يحيل إلى وظيفة العمل الخلاقة بالعلاقـة مع المجموعة ، ويقول غولدمان مؤكداً ذلك أن هذه الإبداعات يمكن أن تنال بسهولة أكثر كدراسة بنيوية من الحقيقة التاريخية التي تربط بينها ، والتي تعد ، أي الإبداعات جزءاً منهـا ، وأعنـى

أيضا أن علاقة هذه الإبداعات الثقافية مع بعض الحقائق الاجتماعية والتاريخية في شكل مؤثرات تخفى العناصر البنائية لهذه الحقائق .[1]

البنيوية التكوينية تسعى لجعل كل عمل إبداعي ينفصل عن النسق التاريخي لكـي يكـون مستغلاً بذاته ، له ديناميكية داخلية خاصة .

وهذا الاستغلال ناتج من تطور الإنتاجية ا تمع ا يؤدى إ ظهور حياة اقتصادية ذاتية الاستقلال ، خاضعة لقوانينها ا اصة ومتزايدة الاستغلال عن كل مسلسل عر ثقا أو ف .

ونلاحظ أن غولدمان مؤسس البنيوية التكوينية قد تأثر بالفكر الماركسي راغباً في أن يمر الإبداع بوسيط الوعي الجماعي ، الأمر الذي يجعلنا نقرر أن النظرية البنيوية عاجزة عن أن تلغى التنوع اللغوي والأدبي .

ومن ثم لا نستطيع دراسة البنيوية بمعزل عن الفكر الماركسي ، الذي يمثل نقطة الارتكاز للواقعية الاشتراكية أولاً ثم البنيوية ثانياً .

ومن خلال تأثر الفكر الماركسي بالبنيوية نخاص إلى نقطتي التقاء بين الفكرين المتكاملين -:

النقطة الأولى :

البنية التحتية والبنية الفوقية .

النقطة الثانية :

هي العلاقة بين الوعي والوجود .

البنية الفوقية في مفهومه هي الأيديولوجيا والدين والسياسة . والثقافة والدين ، أما البنيـة التحتية أو القاعدة فهي القوى الاقتصادية والاجتماعية والعلاقات المتغيرة بينهما ، مـن صـراع طبقي مستمر بين رأس المال والطبقة العاملة ، في ظل هذا المفهوم ، فإن مكونات البنية الفوقية لا تنشأ من فراغ ولا يمكن دراستها بمعزل عن البنية التحتية التي يحددها وتحكم حركتها . وفى هذا لا تختلف الثقافة في ارتباطها بقوى البنية التحتية عن الأنظمة الأخرى التي تـشكل البنيـة الفوقية . وهذا يحقق المقولة الماركسية ليس وعى البشر هو الذي يحدد وجودهم و على النقيض ، أن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم وهى تؤكد تأثير البنية التحتية في البنية الفوقية .[1]

ويمكن القول أن النظرية البنائية نظرية فلسفية بل عقيدة ، ترى أن العالم يحكمه الفكـر . وأن مسار التاريخ الجدلي يكشف عن قوانين العقل وقد أيقن الناس أن حياتهم الثقافية وديانتهم من

---

[1] البنيوية التكوينية - ترجمة محمد سبيلا وآخرون - ص ٤٨-٦٣ .
[1] المرايا المحدبة - د .عبد العزيز حموده - ص ١٩١ ٠

خلق العقل البشري . وهذا يؤدى إلى القول بأن الأنظمة الناتجة من العقل البشري موحدة باعتبار أن ذهنيات البشر أو بنية الذهن البشرى موحدة إذاً الأنظمة أو الإنتاج سـيكون واحـداً مـا دام المصدر واحد هو العقل البشرى .

وإذا وقفنا قليلاً حول تأثير الفكر الماركسي في البنيوية يتضح ذلك جلياً في اعتبار اللغـة تحدد وعي الجماعات ، واعتبرت الأعمال الأدبية أشكالاً تحدد الإدراك ورؤية الإنـسان للعـالم ، وهى جزء من البنية الفوقية التي تشكلت عن ضرورات مادية ترتبط بطبيعة التطور فـي نمـط الإنتاج ، أو جزء من البنية المعقدة من الإدراك الاجتماعي التي تبرر الموقف الذي تنظـر فيـه طبقة اجتماعية على أخرى .

وليست رؤية العالم واقعة فردية بل واقعة اجتماعية تنتهي إلى مجموعة أو طبقة . فإن أي رؤية للعالم هي وجهة نظر متناسقة ووحدوية حول مجموع فكر الأفراد وهو نسق فكرى يفـرض نفسه على الناس ، ونلاحظ أن رؤية العالم للطبقات الاجتماعية و الأفكار الذهنية لهذه الطبقات ، فوجود رؤية العالم على مستوى المجموعة الاجتماعية يحققها الفرد بـصورة لا شـعورية ، أي رؤية المجموعة أو الطبقة الاجتماعية للعالم ثم إحساس الفرد بها دون أن يمـس ذلـك أفكـاره ونواياه ، ومهمة الناقد استخراج الدلالة الموضوعية للنتاج ثم إدخالها في علاقـة مـع العوامـل الاقتصادية والاجتماعية لتلك الفترة .

البنيوية والفكر ا اركسي :

والفكر ا اركسي نظرته إ الطبيعة البشرية عموماً نظرة نسبية قابلة للتطور الترقي والزوال والتحول ، والتاريخ نفسه ول بشرى .

بالإضافة إلى أن الماركسية لا تؤمن بالفكر المجرد ، بل الوجود الإنساني مستغرق فـي أسلوب عمله وفى نشاطه التاريخي ، ولو جاز أن نتحدث عن ماهية بشرية أو طبيعية إنـسانية ، لكان علينا أن نتصور هذه الماهية وتلك الطبيعة مندرجة في صميم التغير الكوني ، أو مندمجة في

باطن الصيرورة الظاهرة ، فقولنا أن الإنسان بطبيعته خير هذا الحكم العام المجرد لا يتفـق فـي شيء مع النظرة الجدلية إلى التاريخ والإنسان بصفة عامة . ويتضح عقد الـزواج البـائن بـين الماركسية والبنيوية في رفضها للأحكام المطلقة لأنها تشوه الواقع وتموه الحقيقة.

ويتضح الأثر الثاني في شرح المعنى شرحهم لطبيعة الإنسان ، فقولنا الإنسان خير هـذا الحكم العام المجرد من جهة وشرير من جهة أخرى لا يصف الإنسان وصفاً حقيقياً لأن هذا الحكم مجرد ولو سعيت لإضافة تعريفات أخرى على سبيل التأليف لما وصلت إلى الحقيقة لأن الإنسان مخلوق طبيعي يخضع لقانون التطور الذي يسود الكائنات جميعاً و التاريخ البشرى عملية طبيعية لا ينفصل فيها الإنسان عن الطبيعة بل ينمو ويتطور من خلالها ، والحق أن مـاركس يريـد أن يجعل منه كائناً حراً مستغلاً ، ولذلك فإنه يرفض أن يجعل منه كائناً مخلوقاً يستند إلى مبدأ مطلق ، وجعل الإنسان المركز المطلق للكون .

وتتحقق نظرة الفكر البنيوي في أسس الفكر الماركسي في أن حرية البـشر تتحـدد فـي معرفتهم بقوانين الطبيعة مع الإفادة منها في تحقيق بعض الأهداف ، مثل قوانين الأصل والتطور والتحول إذ حاول البنائيون الاستفادة منها في العلوم الإنسانية ولا سيما علم اللغة ، والنظريـات اللسانية كنظرية النحو التوليدي والتحويلي ، والفكر الكلى ، واستخدام مفاهيم الكتلة والمادة فـي الاستخدام اللغوي العام ، وفرض ذلك على قوانين اللغات للوصول بها إلى مبنى واحد يرجع إلى أصل واحد ينبثق من قوانين (كلية) ترجع إلى قوانين العلوم الطبيعية للإفادة ، منها فـي أهـداف اللغة الإنسانية وما فكرة النحو العالمي إلا دليل على ذلك .ومما نلحظ أن التفريق بين اللغة والكلام ، واللسان والإنسان ، والمادة والفكر والعقل والواقع هذا تفريق ماركسي أي نـابع مـن الفكـر الماركسي الذي يمايز بين العقل والمادة ، كما أن البنيويين اعتبروا اللغة إدراك العـالم ، ونلمـح ذلك من فكر ماركس الذي يفسر الحياة البشرية من أسفل إلى أعلى .

ويمكن القول أن ملامح الاتفاق بين الماركسية والبنيوية يتحدد في الصراع الحقيقي بـين الداخل والخراج ، فالبنيوية مثلت ذلك الصراع في التفريق بين اللغة والفكر والكلام (كأداء) ولمـا لم تجد في الكلام المتنوع والشكل الحضاري المتميز لكل لغة ، لجأت إلى أنظمة (اللغة) لتحقيـق الوحدة اللغوية والقانون الكلى ، ومن بعد الثقافة الكلية ، بل الدين الواحد الموجود ، وهو أنظمـة اللغة التي تفسر العالم والماركسية كذلك لجأت في هذا الصراع إلى العمل وهو صميم الخاصـية البشرية وأن العمل يكسب الإنسان حقيقته الواقعية .

فلسفة ماركس والحرية في الإبداع اللغوي :

كان ماركس ينظر للمجتمع الإنساني باعتباره مجتمعاً يقوم على الإنتـاج ، وهـو لـذلك يتكون من شبكة من العلاقات الاجتماعية التي يدخل فيها الناس أثناء عملية الإنتاج .[1] ولا شـك أن علاقات الإنتاج هذه تكون أساس المجتمع عند ماركس الذي ينهض عليه بناء فوقى يتكون من الصور الأيديولوجية والدين والفلسفة والفن .

وطالما أن الفكر الماركسي فكر ثوري ، شكلت ثورة قوة الإنتاج علـى نمـط العلاقـات الإنتاجية السائدة و الذي يجد تعبيراً عنه في الصراع الطبقي و على أساس هذه الثورة الرغبة في تحرير قوى الإنتاج التي تغلها القيود التي يفرضها نمط الإنتاج السائد ، مقـصود بهـا الطاقـات الإنتاجية الكامنة في الإنسان والطاقات الإنتاجية في الأدوات التي يستخدمها الإنسان . وهذا شكّل ثورة على نمط وقوى الإنتاج التي يتحدث عنها ماركس يقصد بها الطاقات الإنتاجية الكامنة فـي الإنسان . وهذه الثورة من شأنها أن تحرر الإنسان من الـدوافع الاكتـسابية الالـصيقة بالعمليـة الإنتاجية ، وتحرره من قيود تقويم العمل التي كانت تحد من حريته .

ونلاحظ من ذلك تأثر الفكر البنيوي في مرتبة الإبداعية وخاصة عند تشومسكى في النحو التوليدي ، إذن اللغة طاقة من طاقات الإنتاج الإنساني ، ولكن هناك قيود تفرض على هذا النتـاج وهي القوانين والقواعد النحوية ، والتوافق بين الفكريين تحرير هذه الطاقات الكامنة من القيود أو القوانين وبالتالي يستطيع الإنسان ممارسة الحرية في أروع صورها .أولاً لكي نوضح توضـيحاً كاملاً مدى ارتباط البنائية بالفكر الماركسي ترجع إلى الفكر السوسيري مفجر ثـورة اللـسانيات ومحدث النظريات النحوية الحديثة .

مفهوم اللغة المادي والفكر الماركسي :

وقف سوسير وقفة تقويمية على عمل اللسانيات المقارنة في العصور التي سبقته وفرضت عليه هذه الوقفة أن يردف عمله التقويمي لبعض الخلاصات المنهجية بغية تمييز اللـسانيات عـن مختلف العلوم التي تتقاسم معها المادة . تتكون مادة اللسانيات فـي نظـر سوسـير ، فـي كـل تمظهرات اللغة الإنسانية سواء تعلق الأمر بالشعوب المتوحشة أو الشعوب المتحضرة .

ولا تنحصر تمظهرات اللغة في اللغة المستقيمة أو اللغة الجيدة ، بل تشمل كـل أشـكال التعبير[1] فمادة اللغة إذن هي مجموع الوقائع المختلفة المتضاربة، و تجليـات تحققهـا مختلفـة باختلاف العصور و المستوى الحضاري ،ولذا تبدو المادة كتلة من الوقائع المتنـافرة المنفـصلة

---

[1] بتصرف مقال بعنوان الطبيعة البشرية كارل ماركس - عالم مفكر - المجلد الثاني - العدد الأول – ص (٢٥٥ – ٢٦٧).

[1] البنيوية التكوينية - محمد سبيلا - ص (علم الأشكال) .

.وهنا نلحظ المظهر الطبيعي للغة عند دى سوسير ، أي باعتبارها إنتاج طبيعي مثـل المنتجـات الطبيعية الكامنة في الكون فهي تشكل مادة وكتل[٢] متفرقة ونظر سوسير إلى أن هذه المادة الخام الأولية المتنافرة لا تشكل في نظره شكلاً معرفياً إلا إذا كانت متآلفة .[٣]

وطبق ذلك على نظرية التحول ، أي أن اللغة أشياء قابلة للتحول فيما بينها ، وإن كان كل لغة تعبر عن نفسها بطريقة مختلفة ، وقد أصبحت هذه حقيقة أساسية مسلماً بها الآن فـي عـالم النباتات .

ومعنى هـذا أنه لا بد من دراسة الأشياء كوقائع منعزلة ينتقل الاهتمام إلى العلاقـات التي تجمعها ، إذ أن هذه العلاقات كثيراً مـا تكون أبسط وأشد قابلية للفهم مـن الأشـياء التـي تحاول دراستها في نفسها .[٤] وبناء على ذلك حصر سوسير مهمة اللسانيات فـي ثـلاث نقـاط جوهرية [٥] : -

(١) وصف كل الألسنة والتاريخ لها ، أي تاريخ العائلات اللسانية ، وإعادة بناء الألسنة الأصـول لكل عائلة .

(٢) البحث عن القوى الفاعلة في كل الألسنة ، واستنباط القوانين العامة التي يمكن أن نعيد إليهـا كل ظواهر التاريخ الخاصة .

(٣) تمييز اللسانيات عن غيرها من العلوم وتجديد نفسها بنفسها . [٦]

ونلاحظ في الهدف الثاني لسوسير إشارة واضحة إلى (نظرية النحو الكلى) ونستصفي مـن كلام سوسير بناء لسانيات عامة تدرس الظواهر اللغوية ككل وتقف عند قواعـدها الكليـة مهمـا اختلفت الألسنة .

والهدف الخطير في هذه الأهداف جميعها ، يتجسد في إبعـاد العلـوم الأخـرى كالـدين والتراث والثقافة والتاريخ والعمل على تأسيس منهج متميز ، منهج وصفى علمـي قـادر علـى تجليت القواعد الكلية والمشتركة بين الألسنة المختلفة .

ونتبـ آثار ا اركسية أن البنيوية ورائدها دى سوس اعت (اللسان) ثروة تزنة ، وهى ثروة موزعة بشكل غ متكافئ إنه ثروة باطنة وخفية .

---

[٢] جعل تشومسكى اللغة معرفة التركيب , بعيداً عن العناصر السياسية والاجتماعية والغائية والمعيارية , اشارة إلـى إنبهـاره بـالعلوم الطبيعية فقال: (كما أن مفهومى الطاقة والكتلة عند الفيزيائى ليس مفهومى الاستخدام بالتالى يختلف الخطاب العادى ,للغة عن نظامها , لأن نظامها نوع من أنظمة العالم الطبيعى ٠ المعرفة اللغوية لتشومسكى - ترجمة محمد فتيح – ص٨٩ .

[٣] مدخل اللسانيات سوسير - د٠مبارك حنون – ص ١٦ .

[٤] النظرية البنائية - د٠صلاح فضل – ص ١٨٨ .

[٥] مدخل اللسانيات سوسير – د٠حنون مبارك – ص ١٦ .

[٦] هنا استبعاد التاريخ والدين والتراث والحضارة في وصف اللغات إذ يصبح الوصف للغة كمادة خام وكنشاط مادي .

واعتبر اللسان ثروة تعيد إنتاجها إنتاجاً موحداً وينتج من هذا الإنتـاج الموحـد التبلـور الاجتماعي ، إذ لا يكاد الأفراد بحكم الواقع الاجتماعي يختلفون على هذا المستوى ، وذلك علـى اعتبار الإنسان طاقة إنتاجية يملكها كل الأفراد تبقى لكل الأفراد واحداً ما دام اللسان نـسقاً مـن الدلائل المتميزة ، لأفكار متميزة .

ونلاحظ الفكر الماركسي واضحاً في اعتبار اللسان ثروة إنتاجية أو طاقـة كامنـة لـدى الأفراد تعيد نفسها عن طريق توظيف ملكتي الاستقبال والتنسيق وتشغيلهما و ونلاحظ هنا صورة المكانيزيوم ، ومجموع صور اللفظية ذات الطبيعة النفسية المختزنة في أدمغة كل الأفراد تـشكل الرابط الاجتماعي الذي يكون اللسان .[1]

ونلاحظ أن سوسير في فكره استحضر مفهوم النسق بهدف الإشارة إلى تلازم العناصـر اللسانية وتفاعلها واستحالة انفكاك بعضها عن بعض ، ولذلك يـدخل الإنـسان ضـمن المفهـوم الماركسي الذي يرى الطبيعة تتفاعل فيما بينها باعتبار الطبيعة وحدات إنتاجية تنتج نفسها بنفسها ، فمفهوم النسق يجعل اللغة نظاماً كلياً أو مخزون إنتاجي ينتج مختلف المنتجات التي تتفاعل فيما بينها وتخلق علاقات ترابطية فيما بينها لتغذى الوحدة الإنتاجية المنبثقة منها .[2]

ومصطلح البنية نفسه يقوم على نظام من العلاقات الداخلية التي تحدد خصائص جوهرية للشيء ، وتمثل واقعاً لا يمكن حصره في مجموعة العناصر المكونة له وخاضعاً لقـوانين تحكـم وجوده وتحولاته ، فيرون أن هذه التصورات قد سبقت بها الماركـسية وطبقهـا علميـاً علـى المجتمعات قبل أن تأتى البنائية فتطبقها على اللغة .

فالماركسية ترى أن الإنسان من خلال الإنتاج الاجتماعي للحياة يقيم بعض العلاقات الضرورية المستغلة عن إرادته ، وهى علاقات الإنتاج التي تنطبق في مرحلة من التطور على قوى الإنتاج المادية ، ومجموع علاقات النتاج هذه تمثل (بنية) اقتصادية للمجتمع ، والقاعدة الأساسية التي تقوم على أساسها الأبنية العليا التشريعية والسياسية ، وما يتصل بهما من أشكال الوعي الاجتماعي .

---

[1] مدخل اللسانيات سوسير - د .حنون مبارك - ص ٢٨ .

[2] لم تبحث اللغات الهجينة واللغات المولدة إلا حديثاً كنظام لغوية بحكم حقها الذاتى أكثر منها كلهجات ناقصة أو أقل قدراً مـن اللغـات الأوروبية التى انشقت منها , وما يترتب عليه أن تلك العمليات الخاصة (بالتهجين اللغوي أو التوليد اللغوي لا تزيد عن كونها عوامل هامشية في تطورات لغات العالم , ومن المعتقد أن اللهجات الدارجة الدنيا مدينة بكثير من سماتها البنيوية للغات المولدة التي كان ينطقها أسلافهم , وعندما نتأمل عمليتي التهجين والتوليد اللغويتين بشكل أعم نستطيع أن نذهب إلى أن كثيراً من أوجه الاختلاف بين اللهجات في التطور التاريخي تكون نتيجة لهاتين العمليتين , إذن ليس هناك شيء عن عمليتي التهجين والتوليد يربطهما عمل نحو متميز بما يعـرف بالتوسع الأوربي أو بتجارة الرقيق - اللغة وعلم اللغة – جون ليونز – ترجمة مصطفى التونى - ج٢ – ص ١٣٦ – ١٣٧ ٠

وبذلك يمكن القول أن العلاقة بين الماركسية والبنيوية واضحة فيما يتعلق بالإنتاج والبنية والظواهر الفوقية والسطحية .

ويقول الدكتور صلاح فضل : (إذا كان ثمة خلاف بينهما فإنـه يقتـصر علـى طريقـة استعمال مصطلح البنية فحسب ، وخاصة عندما تطرح البنائية منهجها الجـوهري فـى سـيطرة وجهة النظر التوقيتية الثابتة على التاريخية المتطورة) .

وكذلك مفهوم العلاقات بـ اللغات ، يعكس تصور ماركس العلاقات الإنتاجية، فالعلاقات تكون البنية ، من خلال معرفة النموذج الذي ضع له .[1]

والجهاز اللغوي يدور حول الوظيفة الخلافية لكل وحـدة ، علـى أسـاس أن مقابلتهـا بالوحدات الأخرى يمثل شخصيتها ، ولا شك أن كل سوسيولوجيا للفكر تقبل بوجود تأثير للحيـاة الاجتماعية على الإبداع الأدبي و أما بالنسبة للماركسية تعتبر ذلك مسلّمة أساسية مـع إلحاحهـا بصفة خاصة على أهمية العوامل الاقتصادية والعلاقات بين الطبقات الاجتماعية .

فا اركسية تربط القيم الروحية بالعوارض الاجتماعية والاقتصادية ، والنقد البنيوي يرى أن القيم الفكرية ا قيقية لا تنفصل من الواقع الاقتصادي والاجتماعي ، بل هي قائمة بالذات على هذا الواقع ، بل ويرتبط ذلك برؤية العا فالفكر ا اركسي يرى الإبداع الأد تعب عن رؤية العا ولكن ليست من وقائع شخصية بل وقائع اجتماعية .

ورؤية العالم في هذه الحالة بمثابة كيان مجرد إنها نسق من التفكير يفرض نفسه ، علـى ناس يوجدون في أوضاع اقتصادية واجتماعية متشابهة .[2]

وهذه الأوضاع عند المادية الجدلية غير محددة ، بتأثير محيط اجتماعي معين ، بـل قـد تكون تحت تأثير أيديولوجيات بعيدة في الزمن والفضاء ، ولكنه لا يوجد فكر فلسفي أو منهجية إلا حيث تستطيع المنظمة أن تحتضن الكلية الاجتماعية فضائياً أو زمانياً.وبالتالي يمكـن القـول أن الفكر الماركسي يتفق مع الفكر البنيوي في القول بوحدة الوعي والفعل ، باعتبـارهم أن العمـل الأدبي وقائع اجتماعية مختلفة (أفعال) ناتجة من بنيات ذهنية موحدة.

لا يمثل العالم بالنسبة لأصحاب الفكر الماركسي ومن بينهم البنيويون عالم الطبيعة والكون والموجودات فيه ، رؤية الإنسان من خلال عقيدته وتصور الكون ووجوده فيه ، بل رؤية العالم تمثل عندهم نسق فكرى يسبق عملية تحقق النتاج .

---

[1] البنائية – د .صلاح فضل – ص ٢٨ .
[2] البنيوية التكوينية - ترجمة محمد سبيلا وآخرون - ص ١٥ – ١٦ .

وليست رؤية العالم واقعة فردية بل واقعة اجتماعية تنتمي إلى مجموعة أو طبقة ، فإن أي رؤية للعالم هي وجهة نظر متناسقة وحدوية حول مجموع فكر الأفراد ، وهو نسق فكرى يفرض نفسه على الناس ونلاحظ أن رؤية العالم بالطبقات الاجتماعية ، والبنيـات الذهنيـة الاجتماعيـة يحققها الفرد بصوره لا شعورية ، أي رؤية المجموعة أو الطبقة الاجتماعية للعالم ثـم إحـساس الفرد بها دون أن يمس ذلك أفكاره ونواياه ، ومهمة الناقد استخراج الدلالة الموضوعية للنتاج ثـم إدخالها في علاقة مع العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لتلك الفترة .

وكما لاحظنا أثر الماركسية في المفهوم الطبقي واعتماد المجتمع على الإنتاج ، بل يظهر ذلك جلياً في مفهوم (القيمة) الذي يحدد قيمة النتاج الأدبي بمقدار تمثيلها لرؤية متناسقة للعالم على مستوى المفهوم والصوت أو الصورة اللفظية أو الحسية، وتعرف القيمة كتوتر بين الثراء الحسي والوحدة التي تنظم هذا التعدد في مجموع متناسق ويبدو هذا المنظور صادقاً بقدر ما يكون هـذا الثراء والتعدد الحسي للنتاج كبيرين ، والقيمة هي التي تنظم ضمنياً مجموع عالم النتاج .

وكل قيمة لكل نتاج خاص ، لا تمثل قيمة إلا بأن تستدمج في قيم أخرى . وكذلك نلمـح أثر الفكر الماركسي في مفهوم النتاج ، فـ ـ ـي البنيوية التي تجعل المقولات الفكريـة والقـيم ، هي منتوج التطور التاريخي للعالم الطبقي والاجتماعي . فالبنيوية التكوينية تقوم علـى المعـايير الآتية :-

(١) لا يتعين في فهم النتاج ، وعي المؤلف .[١]

(٢) من خلال التحليل والتفسير يتبين أن البنية الذهنية التي تسيطر على النتاج لهـا دور وظيفـي ودلالي .

(٣) وأن هذا النظام البنيوي التكويني نتيجة عمليات تحويل اجتماعية شمولية .

ونلاحظ أن القاعدة الفكرية للبنيوية التكوينية تأخذ الطابع الجماعي للإبداع مـع البنيـات الاجتماعية الشاملة ، وهذه الفكرة أيضا متفقة مع الروح الماركسية التي تنظر إلى النتاج الفكري في ارتباطه بالبنية الاجتماعية التي يبدو أن لهذا النتاج وظيفة فيها .

ويؤكد الناقد البنائى غولدمان أن الأعمال الكبرى تظهر إذن البنية الأكثر انسجاما لتطلعـات المجموعة للوصول إلى الوعي الممكن الأقصى ، و التمظهر لما يفكر فيه أعضاء جماعة دون أن يعرفوه ، فالعمل في هذه المجموعة هو الأساس في عين المجموعات ، يظهر مبدعاً ، والإبـداع يحيل إلى وظيفة العمل الخلاقة بالعلاقة مع المجموعة ويقول غولدمان مؤكـداً ذلـك (أن هـذه

---

[١] البنيوية التكوينية - ترجمة محمد سبيلا وآخرون - ص ٢٣ .

الإبداعات يمكن أن تنال بسهولة أكثر كدراسة بنيوية من الحقيقة التاريخية التي تربط بينها ، والتي تعد ، أي الإبداعات جزءاً منها ، وأعنى أيضاً أن تظهير علاقة هذه الإبداعات الثقافية مع بعض الحقائق الاجتماعية والتاريخية يشكل بمجرد تكونها ، مؤشرات ثمينة تخص العناصر البنائية لهذه الحقائق) . [١]

البنيوية والفكر الماركسي :

فالبنيوية والتكوينية تسعي لجعل كل عمل إبداعي ينفصل عن النسق التاريخي لكي يكون مستقلاً بذاته له ديناميكية داخلية خاصة .

وهذا الاستغلال ناتج عن تطور الإنتاجية في السوق مما يؤدى إلى ظهور حياة اقتصادية ذاتية الاستقلال عن مسلسل عرقي أو ثقافي أو فني .[٢]

والحق أن غولدمان متردد ومتغلغل في ممارسة البنيوية إذن يجعل البنيوية مرة توجه الأفراد والمجموعات نحو الانسجام مقاومة للتنبؤ ، ومن جهة أخرى يفرض وسيط الوعي الجماعي لتنظيم الإبداع .

الأمر الذي يجعلنا نقرر أن النظريات عاجزة عن أن تلغى التنوع اللغوي والأدبي .

ومن ثم لا نستطيع دراسة البنيوية بمعزل عن الفكر الماركسي و الذي يمثل نقطة الارتكاز للواقعية الاشتراكية أولاً ثم البنيوية ثانياً .ومن خلال تأثر الفكر الماركسي بالبنيوية نخلص إلى نقطتي الالتقاء بين الفكريين المتكاملين :-

النقطة الأولى : البنية التحتية والبنية الفوقية ،

النقطة الثانية : - هي العلاقة بين الوعي والوجود . فالبنية الفوقية عندهم هي الأيديولوجيا والدين والسياسة والثقافة والقانون ، أما البنية التحتية أو القاعدة ، فهي القوى الاقتصادية والاجتماعية والعلاقات المتغيرة بينهما ، من صراع طبقي مستمر بين رأس المال والطبقة العامة ، في ظل هذا المفهوم ، فإن مكونات البنية الفوقية لا تنشأ من فراغ ولا يمكن دراستها بمعزل عن البنية التحتية التي تحددها وتحكم حركتها . وفى هذا لا تختلف الثقافة في ارتباطها بقوى البنية التحتية عن الأنظمة الأخرى التي تشكل البنية الفوقية .وهذا تحقيقاً للمقولة الماركسية ، ليس وعي البشر هو الذي يحدد وجودهم ، على النقيض إن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم .[٣] وهى تؤكد تأثير البنية التحتية في البنية الفوقية.

---

[١] البنيوية التكوينية - ترجمة محمد سبيلا وآخرون - ص ٦٣ .
[٢] المرجع السابق – ص ٦٤ .
[٣] المرايا المحدبة – د .عبد العزيز حموده – ص ١٩١ .

أما هيجل يرى أن العالم يحكمه الفكر وأن مسار التاريخ الجدلي يكشف عن قوانين العقل ، وقد أيقن الناس أن حياتهم الثقافية وديانتهم في خلق العقل البشرى وهذا يؤدى إلى القـول بـأن الأنظمة الناتجة من العقل البشرى الموحدة باعتبار أن ذهنيات البشر أو بنية الذهن البشرى موحدة إذاً الأنظمة أو الإنتاج سيكون واحداً . ما دام المصدر واحد وهو العقل .

وإذا وقفنا قليلاً حول تأثير الفكر الماركسي في البنيوية يتضح ذلك جلياً في اعتبار اللغـة تحدد وعى الجماعات ، واعتبرت الأعمال الأدبية أشكالاً تحدد الإدراك ورؤية العالم و وهى جزء من البنيوية الفوقية التي تشكلت عن ضرورات مادية ترتبط بطبيعة التطورات في نمط الإنتاج أو جزء من البنية المعقدة من الإدراك الاجتماعي التي تبرر الموقف .

بالرغم من وجهة النظر الحديثة القائلة إن متكلمي اللغات المختلفة لديهم بالضرورة رؤية واحدة عن العالم أو إطار فكرى واحد بقدر ما تلقى التصورات الأكثر عمقاً والأكثر إثـارة مـن الناحية الفلسفية مثل الزمن ، والمسافة ، والعدد ، من الاهتمام ومع هذا لا يتبع ذلك إن المتكلمـين للغات المختلفة لديهم رؤية واحدة عن العالم فيما يتصل بالتصورات الأخرى الأقل أساسية ، فكثير من التصورات التي تتعامل معها متصلة بالثقافة اتصالاً لا ينفـصم أي أن فهمهـا يعتمـد علـى المعرفة العلمية التي تنتقل عن طريق المجتمع ، وتختلف من ثقافة لأخرى . فمـثلاً التـصورات التي ترتبط بالأمانة والقرابة ، والشرف ، تصورات وثيقة الصلة بالثقافـة ، وأن القـدرة علـى الرمز اللغوي لها أكبر الأثر في بعض اللغات منها في لغات أخرى .[1]

ودعاة فرضية (النسبية اللغوية) يذهبون إلى أن الكثير من الاختلافات في البنية النحوية والتي نجدها في اللغات التي تبلغ درجة أن بعض الأشياء التي يمكن أن تقال في لغة من اللغات لا يمكن أن تقال في لغة أخرى . مثل كلمة (موت الإله) و(الإله الخفي) ، كل هـذه التـصورات لا نجدها في اللغة العربية .

وبعد أن وقفنا على جذور الفكر البنيوي الفلسفية ، يمكن القول أن اللسانيين الأوروبيين قد بسطوا الفكر السوسيرى واختزلوه ، من قبل أعلام هذا الفكر من وطننا العربي ، وخاصة إن هذا الفكر قد تم إنتاجه في محيط ثقافي مغاير لمحيطنا الثقافي وان معالمه تستند إلى خلفيـات فلـسفية ومعرفية ، كعلم الاجتماع الدوركهايمى وعلـم الـنفس الترابطـي و وكلهـا تتـسم بالعقلانيـة والموضوعية والعلمانية .[2]

---

[1] اللغة وعلم اللغة – تأليف جون لوينز - ترجمة مصطفى التونى - ج٢ – ص ١٧٤ .

[2] مدخل للسانيات سوسير – د .حنون مبارك - ١٩٨٦م – ص ٧ - ٨ .

كما يمكن القول أن فكرة القيمة الرمزية أثر من آثار الفكر الماركسي وظلت مشكلة القيمة في الكتابات العلمية المعاصرة ، ومنها الكتابات النقدية التي تحاول أن تكون علمية ، لا يشار إليها إلا عرضاً مع التلميح أو التصريح بأنها بقايا من فكر عتيق ، ولكن البحث العلمي في الرموز يمكن أن يحول مشكلة القيمة إلى أفق جديد يجعلها ناتجاً من نواتج الحياة الاجتماعية وهذا ما تفعله السيمولوجيا أو دراسة الرموز ، موضوع هذه الدراسة هو النظم الرمزية المختلفة ومعلوم أن كل منتج من منتجات الإنسان ، يمكن أن يستخدم للتعبير عن معنى ، فالمنهج السيمولوجى دخل في الاتجاه البنيوي باعتبار أنه يحدد قيمة الرموز في الحضارات الإنسانية المختلفة ، بدائية مستوحشة أو عصرية متحضرة .

وبهذا المنهج التقت الدراسات الأنثربيولوجية والسيمولوجية في الفكر البنيوي .[١]

فالمنهج السيمولوجى يساعد على حل مشكلة القيمة وإزاحتها ، إذ يجعل الأدب معاملة بين كاتب وقارئ ، حسب نظم معينة من الرموز يمكن أن تتغير من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى بيئة ، ويرجئ بحث القيمة إلى أن ندرس الاختلافات التي تطرأ على الذوق الأدبي باختلاف العصور والبيئات .

ومفهوم القيمة في العمل الأدبي يتحدد بمقدار تمثل النتاج برؤية متناسقة للعالم على مستوى المفهوم وعلى مستوى الصورة اللفظية والحسية ، إن التفسير العلمي لنتاج ما ، لا ينفصل عن إفراز قيمته الفلسفية والجمالية مما يفترض استخراج الرؤية المعبرة عنها والتأويل الموضوعي لها .

والقيمة هي التي تخلق التوازن بين الثراء الحسي أو التنوع اللغوي والوحدة التي تنظم هذا التعدد في مجموع متناسق (وحدة بنيوية) أي القيم ليست فردية أخلاقية إنما هي قيم تنظم ضمنياً مجموع عالم النتاج الذي يشكل رؤية العالم أو رؤية إنسانية شاملة للكون والإنسان .[٢]

---

[١] مجلة فصول – مقال بعنوان موقف من البنيوية – د . شكرى عياد – المجلد الأول - العدد الثاني – يناير (١٩٨١م) - ص ١٩٤ .

[٢] البنيوية التكوينية - ترجمة محمد سبيلا وآخرون – ص ٥٠ .

المبحث الثالث

اللسانيات والفكر الكلي

والمقصود بالكليات عند اللسانيين ، وهو دراسة عدد من الظـواهر الملاحظـة لقـوانين خاصة تكون مجموعة متسقة يحكمها مبدأ عام وهو مبدأ (التفـسير) [١] وهـى مجموعـة مـن المسلّمات نستنتج منها نتائج تفسر النظرية .

ولا شك أن النظريات اللسانية قد تتفق في البعد الظاهر والبعد التحليلي ، ولكنها تختلف في المسلمات .[٢]

وهناك أسئلة خاصة تدور بخلد اللسانيين دون التقييد بسمة خاصة أو اتجاه خـاص بلغـة معينة :-

(١) ما الذي يمايز اللغات الطبيعية عن غيرها من اللغات ؟ .

(٢) ما هي السمات التي تلتقي فيها اللغات ، وما هي السمات التي تختلف فيها ؟ .

(٣) إلى أي مدى تغيرت اللغات وإلى مدى ظلت قارة ؟.

(٤) ما السمات اللغوية الواردة لتخصيص اكتساب الفعل للغة ؟ .

وهذه لا شك خصائص عامة لدراسة اللغات وهذه الأسئلة الموجهة تعين على إبراز الخصائص العامة للغات ، ومن ثم معرفة الخصائص الخاصة بكل لغة .

أما الخصائص والعلائق اللغوية الدالة على التفريق بين اللغات ومعانيها ، ومن ضـمن هذه الخصائص الخاصية النحوية التي تجعل كل لغة من اللغات تنفرد بمناهج ومبادئ وقيـود تخصصها ، ومن ضمن هذه القرارات عند التوليديين (تشومسكى) ما يلي : –

(١) صوغ أنحاء تولد البني اللغوية وتخصص سماتها اللغوية الدالة. [٣] .

(٢) اعتبار هذه النظريات نظريات علمية قابلة للتنبؤ .[٤]

---

[١] اللسانيات واللغة العربية – د. الفاسي الفهري – ص ١٣ .

[٢] مثل الدراسات اللسانية الحديثة التي أجريت بين نظريتي عبد القاهر الجرجانى و تشومسكى ورد ذلك في دراسات عديدة منها دراسة في مجلة الفيصل بعنوان (البنية التحتية والفوقية بين عبد القاهر وتشومسكى - مجلة الفيصل - العدد ٧٠ – ١٩٧٢م وسنورد ذلـك فى حديثنا عن النحو التحويلى لتشومسكى)٠

[٣] مثل نظرية العامل , التي اتخذها تشومسكى فرضية لتحكيم نظرية عن النحو التوليدي , أو البنية العميقة والسطحية للجمل, ومفهوم الأصل والفرع ٠

[٤] وهذه أيضاً فكرة ماركسية تقول : لا يكفى أن نقيم أحكاماً على العلم بالقوانين الضرورية , بل من أن نقيم وزناً لما تنطوي عليه الأحداث من احتمالات , وذلك لأنه كلما زادت معرفتنا بالاحتمالات الباطنة في الأحداث , أو كلما زادت قدرتنا على تكوين أحكام احتمال

(٣) بناء هذه الأنحاء توجهه قيود منهجية تماثل تلك التي نجدها في النظريات العلمية العادية مثل تغطية المادة اللغوية وصحتها وتمام التنبؤ ، والبساطة والعمومية .

وفى الخمسينيات من القرن التاسع عشر بدأت المحاولات الجادة للدرس النحـوي القـائم على أساس من تصور النحو على أنه يفسر القدرة الكامنة في عقل المتكلم وليس مجـرد وصـف لمادة لغوية تعجز كثيراً عن الكشف عـن الظواهر المتعددة لهذه القدرة من إدراك للترادف بـين الجمل والغموض الدلالي والتركيبي ، وهذه المحاولة ضمنها تشومـسكى فـي كتابـه (Syntactic Structure) وهى ما يؤرخ على أنه وحده من وحدات العقل الإنساني ، وطبيعة هذه الملكة هي مادة بحث النظرية العامة للبنية اللغوية التي تهدف إلى اكتشاف إطار المبادئ والعناصر المشتركة بين ما يمكن تحققه من اللغات الإنسانية . وغالباً ما تسمى هذه النظريـة النحـو الكلـي Universal Language .

ويمكن أن ينظر إلى النحو الكلى على أنه سمات ملكة اللغة المحددة جينياً ، كمـا يمكـن للمرء أن ينظر إلى هذه الملكة على أنها أداة اكتساب اللغة و أي مكون فطرى من مكونات العقل الإنساني Alanguge Acquisition Device يؤدى إلى إيجاد لغة خاصة عبر التفاعل مـع التجـارب الحاضرة فهي أداة تحول التجربة إلى نظام مكتسب من المعرفة إلى معرفة لغة أخرى . ومثلـت دراسة النحو التوليدي تحولاً في الدراسات اللغوية تحول السلوك إلى حالات الدماغ وهنـا انتقـل البحث اللغوي (Mind Brain) إلى معرفة طبيعة اللغة وأصولها واستخداماتها وهذا مـا أجملـه تشومسكى في كتابه (المعرفة اللغوية) .

صحيحة وزادت بالتالي قدرتنا على التحكم في شتى العوامل التي تعمل عملها في الموقف , بالتالي يسمح لنا أن نوجه الموقف نحو غاية محددة ونضع فيها اعتباراً لعناصر الصدفة والاحتمال والضرورة مقال بعنوان (الطبيعة البشرية للفكر الماركسي) مجلة الفكر - المجلد الثاني - العدد الأول - ص ٢٦٤ .

فلسفة الفكر الكلي وأصل اللغة

لقد شغل البحث عن أصل اللغة [(١)] ونشأتها أذهان الكثيرين من العلماء والكتاب ، ويبـدو أن المشكلة ترجع إلى العصور الأولى للفكر الإنساني حيث نجد عدداً كبيراً مـن الأسـاطير [(٢)] القديمة تدور كلها حول أصل اللغة ، وتحاول أن ترد اللغة إلى مصدر فائق للطبيعـة أو غيبـي إعجازي . وكان المظنون دائماً إلى أن حل مشكلة أصل اللغة سـوف يـؤدى إلـى حـل كـل الإشكاليات الخاصة بها ويرجع الاهتمام بدراسة أصل اللغة ونشأتها إلى علماء القرن التاسع عشر الذين كان يغلب عليهم الاتجاه التاريخي والتطوري [(٣)] في مختلف مجالات البحث والمعرفة بقصد التعرف على الأصول الأولى للأشياء ، وكانوا يهتمون بالتفسيرات الـسيكولوجية إلـى جانـب التأويل التاريخي [(٤)] ولا شك أن القوانين المنطقية تجريدات نفسية ، فقانون عدم التناقض ناشـئ من التجربة . التجربة التي نشعر فيها بأن المضيء والمعتم لا يجتمعان ، وهكذا نستطيع رد كـل العمليات المنطقية إلى قوانين نفسية مثل ظاهرة التضاد .[(٥)]

واعتبر الفكر الغربي الحديث هذين النوعين من التأويلات (النفسية والتاريخية) يـسيئان إلى الدراسة البنائية المنهجية لأي لغة من اللغات ، إذ لا بـد مـن أن تـأتى الدراسـة البنائيـة موضوعية إلى حد كبير وغير متأثرة بأية أفكار سابقة حتى يمكن استخدامها بطريقة محايدة عنـد عقد المقارنات [(٦)] وما فكرة التوليد [(٧)] التي سيطرت على لسانيات القرن التاسع عشر إلا ناتجـة من فكرة (الأصل) المشترك ونلحظ ذلك في الدراسات المقارنة التي بـدأ بهـا بـوب (١٨٦٧م–١٨١٦م) ، في كتابه المعروف نظام تصريف اللغة السنسكريتية ومقارنتها بالأنظمـة الـصرفية

---

[١] لقد شغلت مسألة الأصل اللغوي أذهان العرب قديماً , أوردها بن جنى في كتابه الخصائص - انظر - كتاب الخصائص - لابن جنى – (باب القول على أصل اللغة إلهام هي أم اصطلاح ؟ ثم يقول في ذلك بعد عرض آراء أصل اللغة (وأعلم فيما بعده أنني على تقـادم الوقت , دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع , فأجد الدواعي و الخوالج قوية التجاذب لي , مختلفة جهات التغوّل على فكرى , وذلك أنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة , الكريمة,اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة ٠٠٠٠٠ ما يملك عليّ جانب الفكر حتى يكـاد يطمح به أمام غلوه السحر فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا وفيه ما جذوته على أمثلتهم فعرفت بتتابعه وإنقياده وإن أضاف إلى ذلك وأورد الأخبار المأثورة بأنها من عند ا جل وعزّ فقوى في نفسي اعتقاد كونها توفيقاً من ا سبحانه وأنها وحي) الخـصائص - ج١ / ص (٩٩) ٠

[٢] هناك أسطورة قديمة تقول إن فرعون مصر أراد أن يعرف أي الشعبين أقدم المصريين أم اليونان , فأمر بإحضار طفلـين بمجـرد ولادتهما ووضعهما معاً مع تحريم النطق بكلام من أية لغة ٠ وبعد بضعة أشهر من بداية التجربة سمع الطفلان يقولان (بيكوس) وهى كلمة يونانية , فاستنتج فرعون أن الفرنجة هي أقدم لغات العالم ٠ أنظر اللسان والإنسان د٠ حسن ظاظا – ص (٩٦ – ٩٧) ٠

[٣] تلك الأسطورة تسير نحو القول بأن اللغة إلهاماً , ولكن هذا غير مقبول و لأن الطفل لو كان وحيداً لما استطاع إنشاء لغة أبداً ولو كانوا طفليين لأخرعا لغة (كالجذر اللغوية) المصدر السابق ٠

[٤] مقال (حضارة اللغة – د٠ أحمد أبو زيد - مجلة الفكر – المجلد الثانى - العدد الأول ١٩٧١م – ص ١٧ ٠

[٥] المنطق الصوري – د. عبد الرحمن بدوي – ص ٢٥ ولا ئك أن ظواهر اللغة كالمشترك اللفظي والتضاد والإشتقاق عوامـل تطـور تاريخي .

[٦] حضارة اللغة – د. أحمد أبو زيد مجلد الفكر – (١٩٧١م) المجلد الثاني العدد الأول – ص ١٧ .

[٧] تيار لساني ظهر في الولايات المتحدة في مدرسة عرفت باللسانيات التحويلية واللغة ملكة فطرية تكتسب بالحدث دون أن تعتمد مهـج الحدس معنى ذلك عقلنة ظاهر الحدس وهكذا يمكن للنحو أن يفس كيف أن الإنسان يستطيع أن يفهم أي جملة في لغته ويولد جمل تفهـم تلقائياً – الأسلوبية الأسلوب – عبد السلام المسدي – ص ٢١٠ .

المعروفة في اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية والجرمانية ولم يكن تأثير اللغويين بالأسلوب المقارن في العلوم الطبيعية أمراً عارضاً وإنما كان مقصوداً فشيجل الذي دعا إلى ضرورة إيجاد القواعد المقارنة صرح بأن ذلك سيتم بالوسيلة نفسها التي توسل بها علم التشريح في إلقائه ضوءاً ساطعاً على تأثير أصحاب المقارنات اللغوية بالمصطلحات الشائعة في العلوم الطبيعية كالتوليد والتحويل .

والمقارنة بين اللغات شجعت بفكرة الكليات اللغوية و على ما نظن ، ولا سيما الدراسات التاريخية التي ظهرت على يد وليام جونز و التي كشفت عن وجوه الشبه بين السنسكريتية والإغريقية واللاتينية في عام (١٧٩٦م) ، وبلغ القول إلى أن اللغة السنسكريتية لغة رائعة البنية و وهى أكثر كمالاً من الإغريقية ويبدو أن سمات القرابة لكل منهما من جهة أصول الكلمات وصيغ النحو أقوى من أن تكون وليدة الصدفة و وأنها من القوة لدرجة أن عالم في اللغة لا يمكن أن ينظر في ثلاثتهن دون أن يعتقد أنهن نبعن من أصلٍ واحد [1] وهنا أدى بهم هذا الإسراف في الإيمان بفكرة التطور التقدمي التي قال بها الاجتماعيون في القرن التاسع عشر ومحاولة اللغويين نقل هذه الفكرة إلى البحث اللغوي بسذاجة ، إذ أكثرهم رأى أن اللغة اليونانية واللاتينية هما أرقى صور الكلام البشرى وساعدهم على ذلك ارتباطهم بالتراث اليوناني واللاتيني في اللغة والتاريخ والحضارة ، فتبلور لديهم وجدانياً لا عقلياً ، حالة إعجاب أو تقديس لهاتين اللغتين ، وجعلها المثل الأعلى عند المقارنة والقياس ، في حين أنه محك النظر العلمي المتجرد ليس هناك أدنى دليل على امتياز لغوى لليونانية أو اللاتينية ، و تظل مشكلة تضيف النظم اللغوية عند البشر قائمة ، ومن حيث أنها لغات ولهجات بصرف النظر عن الناطقين بها ودرجتهم في الحضارة . [2]

ويعلّق تمام حسان قائلاً : [3] ((إن هذه الملاحظة التي ألقى بها وليام جونز في حلبة الدراسات اللغوية جذبت انتباه علماء اللغة بعنف إلى التفكير في هذه اللعبة الجديدة، لعبة مقارنة أصوات لغة بأصوات لغة أخرى ، وعقد صلة بين الأصوات ، رغم اختلاف لغاتها ، وردها جميعاً إلى أصل واحد .))

ولكن العالم الغربي إدوارد سابير دعا إلى ضرورة وصف كل لغة ، وفقاً لأحوالها الخاصة ، غير أنه رأى أيضاً أن الوحدات الأساسية كالاسم والفعل ، والعمليات النحوية الأساسية

---

[1] الثنائيات وقضاية اللغة العربية – د. نهاد الموسى – ص ٣٨ .
[2] مدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوى - د .رمضان عبد التواب – ص ٨٥ أنظر فرضية وورف وسابير – اللغة علم اللغة - تأيف جون اليونز ترجمة مصطفى التونى - ص ١١٦ – ١٨٨
[3] اللغة بين المعيارية والنصفية – تمام حسان – ص ٩٤ .

، كترتيب الكلمات هي أمور قائمة في جميع اللغات التي يتحمل أن تكـون لهـا عناصـر كليـة مشتركة ، وذلك في المستويات الأساسية الكبيرة التي تقوم عليها اللغات .[1]

كما إن فكرة تشومسكى عن النحو أيضا ترجع إلى فكرة المعرفة الفطريه القائمة على أن العقل البشرى واحد إذن كل اللغات الصادرة من العقل واحدة في أنظمتها الأساسـية [2] ويعـزى ذلك أيضاً إلى تأثير تشومسكى بفكر سابقيه ولا سيما دى سوسير (١٩١٦م) الذي أشـار إلـى أن طبيعة نظام اللغة هو الموضوع الحقيقي للدراسات اللغوية ، لأنه يشمل على أنمـاط منتظمـة ، ويعرف هذا النظام المقصود بالتحتي ، وانصرفت أنظار علماء اللغة الوصفيين لاكتـشاف هـذه البنية الأفقية ووصفها . ولما كان هذا النظام موحداً في نظر سابير ودى سوسير و سمي (باللسان) والمقصود به الأنظمة والأنماط التي تقود إليها منطوقات اللغة ، وهو نظام الإشارات والمواصفات التي يشترك فيها أفراد مجتمع لغوى معين .[3]

وسار المنهج الوصفي في دراسات القرن التاسع عشر لتفسير القـوانين اللغويـة وفقـاً للقوانين المفسرة للظواهر الطبيعية .[4] ولجأ علماء اللغة لتفسير التغير اللغوي . وهكـذا قامـت مدرسة النحاه الشبان على أساس الاقتناع بأن التغير الصوتي يتم وفق قوانين صارمة لا تعـرف الشذوذ ، وأن التغير الصوتي يتم دون تدخل إرادة الإنسان فانصرف البحث إلى مـادة اللغـة ، ولهذا فقد اقتصر البحث على ما يدرك حسياً ، أي على الظواهر الموجودة فعـلاً فـي نـصوص قديمة أو لهجية وعلى هذا فقد كان البحث اللغوي في صورته الوصفية شبيهاً بـالعلوم الطبيعيـة والبيولوجية في قصر الاهتمام على ما يدرك إدراكاً مباشراً ويتضح هذا الموقف في وصف علماء اللغة لأنفسهم بأنهم يبحثون اللغة كظاهرة طبيعية [5] ، ولاذا كان الهـدف الأسـمى فـي دراسـة الظواهر اللغوية الخروج بقوانين مفسرة ، ولم يكن التفسير آنذاك إلا تاريخياً [6] .

ويعد كتاب (أساليب اللسانيات البنيوية) (١٩٥١م) زيليخ هاريس تعبيـراً عـن مـنهج إجراءات الاكتشاف فهو يطرح قواعد مفصلة حول الانتقال من مجموعة عبارات كلامية مدونـة برموز صوتية إلى التحليل الفونيمى الصوتي الوظيفي والتحليل الصرفي ثم تسجيل منهج القوالب النحوية .[7]

---

[1] مدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي – د. رمضان عبد التواب – ص ٨٥ .
[2] المعرفة اللغوية – تأليف تشومسكي ترجمة محمد فتيح – ص ٨٢ .
[3] مدخل للسانيات سوسير – د. مبارك حنون – ص ١٨ .
[4] مبادئ اللسانيات – د. أحمد قدور – ص ١٤ .
[5] مدارس اللسانيات التسابق والتطور – ترجمة محمد زياد كبة – تأليف جفري سامسون – ص ٧٢ .
[6] مجلد عالم الفكر – مقال بعنوان أصول البنيوية في علم اللغة والدراسات الثنولوجيا – د. محمود فهمي حجازي – المجلد الثالث العدد الأول – ص ١٥٨ .
[7] مدارس اللسانايت التسابق والتطور ترجمة محمد زياد كبة – ص ٧٥ .

واعترض تشومسكي على منهج إجراءات الاكتشاف ، فكتابة نحو لغة ما تعني صـياغة مجموعة من التعاميم أو نظريات تصف ملاحظة المرء حول اللغة ، بل يجـب معرفـة الإلهـام المبدع لهذه النظرية ، ومعرفة الجهاز العقلي الناتج لهذه الطبيعة و وأن المهمة الرئيسية للنظريـة اللغوية كما يعتقد تشومسكي (١٩٦٥م) تتمثل في العثور على نمط عمل ذلك الجهـاز وان اتبـاع المعرفة الإنسانية يفسر قدرة الإنسان على تفسير ملاحظته حول لغته أكثر مـن غيـره بالإبـداع وليس بالقوانين ، وتعلم اللغة يرجع إلى مقدرتنا على التخيل ، فالطفل يمتلك القدرة على الـتعلّم وانشتاين يمتلك أيضا هذه القدرة ، ولكن بمرتبة أعلى [1] فاللغة عندهم ملكـة فطريـة تكتـسب بالحدس وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يتكلم باللغة إلا إذا سمع صيغها الأولية في نـشأته فـإن سماع تلك الصيغ ليس هـو الذي يحال القدرة اللغوية في الإنسان وإنما هو يقدح شرارتها فحسب [٢].

وبذلك نفوا كل عامل نفسي وفلسفي وتاريخي وأيديولوجي في تقرير الظاهرة اللغويـة ، وقاوموا كل اعتبار عفوي حتى نفوا وجود الخطأ في اللغة معتبرين إن كل ما ينطق به الإنـسان صحيح نحوياً . [٣]

فتعلم اللغة عند تشومسكي يتم باتباع الخطوط العقلية المبرمجة في أدمغتنا منـذ الـولادة ويقول مترجم كتاب (مدارس اللسانيات التسابق والتطور) : ((مثل هذه الفكرة تنطوي على نتيجـة مفادها أن قدرتنا على تعلم لغتنا الأم لا بد من أن تكون منفصلة تماماً عن قـدرتنا علـى إتقـان المهارات والأفكار الأخرى .)) [٤]

وبالتالي يمكن القول أن اللسانيين الوصفيين يفسرون اللغة بإحدى طريقتين : -

فريق إتخذ منحاً مفاده إن التحليل اللغوي ليس اكتشاف البنية التي وجدت بصورة مستقلة عن أبحاث اللسانيين ، بل هي مسألة اختراع البنية التي يفرضها اللغوي على اللغة التي يدرسها . ويرى ذلك الفريق أن اللسانيات معنية بالشعوذة ، بدلاً من الحقيقة الأبدية [5] .

فالقول بفرض بنية (ما) على اللغة المدروسة ، أدى إلى وجود مفاهيم تجريديـة أنبتـت عليها النظريات اللسانية الحديثة ، كالتوليدية التحويلية أو النحو الكلـي فالنمـاذج التـي يبنيهـا التوليديون تأخذ صيغة نظريات عامة ونظريات خاصة بكل لغة على حـدة ، وهـذه النظريـات

---

[١] المعرفة اللغوية طبيعتها أصولها إستخدامها – ترجمة محمد فتيح – دار الفكر العربي – الطبعة الأولى – (١٩٩٣م) – ص ٨٢ .
[٢] الأسلوبية والأسلوب – عبد السلام المسدي – ص ٣١١ .
[٣] المصدر السابق – ص ٢٥٨ .
[٤] مدارس اللسانيات التسابق والتطور – جفري سانسون – ترجمة محمد زياد كبة – ص ٧٥ .
[٥] المرجع السابق – ص ٦٨ .

مجردة ، وأن التحليل فيها جزئي أوله مجال محدود لا يغطى كل المواد اللغويـة و فالنظريـات اللسانية تلجأ إلى أمثلة الواقع اللغوي ، لبلوغ الأهداف التفسيرية ، ومن هذه الأمثلة أمثلة اكتـساب اللغة وأمثلة المجموعة اللسانية المتجانسة تمام التجانس وأمثلة النحو (النواة) [٢] [١] وتأسيساً لـذلك حاول تشومسكى مجاراة العلم الطبيعي في تطبيق نماذج رياضية مجردة ويعلق الفاسى الفهـرى على ذلك بقوله : ((إلا أننا لا ندرى بأي معنى تعتبر النماذج النحوية المجردة نمـازج رياضـية واللسانيات الرياضية تبدأ من حيث يبدأ المرء بدراسة الخصائص المجردة)) .[٣]

والمعنى أن هذه الخصائص المجردة للنظريات اللسانية لا تحول هذه النظريات إلى نماذج رياضية إذن فإن الأنحاء التوليدية ليست رياضية بهذا المعنى أما المدونة المعرفية للنظرية ، ويقصد بها أن الكفاية التفسيرية لا تتعارض مع التجريبية ، بل يحتمل أن تظل بعض الظواهر بدون تفسير و كما أن الظواهر التفسيرية لا تنأى بمجرداتها ويتعارض مع الترجمة ، بالتالي ينسب التوليديون نظرياتهم الى درجة عالية من الواقعية بغض النظر عن الإحساس الواقعي العادي .

وأي تهديد للنظرية أو أي احتمال خطأ يبعد ، وهذا ما حدث بالنسبة لتشومسكى في نظرية الربط العاملي حيث وجد أن هناك جمل تنبئ عن خطأ .

فالاستراتيجية النظرية تعمل على إبعاد هذا التهديد يع الإحساس صادق والتأويل خاطئ ، وبالتا يبدأ تفس التأويلات ا اطئة الغ منسجمة مع النظرية الكلية .

وا ع أن لل بصفة عقلانية خصائص ما يظهر وكأ ا حجة مضادة للنظرية، فمقبولية وعـدم مقبولية التراكيب انعكاس ضروري لنحوية البـ إذ كانت هذه البـ غ موسومة .ومفهوم (الوسم) [٤] إشارة إ أن ا مل ا اطئة (موسومة) صائص ، وأننا كن أن نبـ نظرية للوسم وهى لا دد نظرية الربط العاملي [٥] بل تدعوا للالتفاف حو ا .

وأشرنا هنا بصورة مبسطة على البنية ا فروضة من قبل تشومسكى النحو العام على أساس انضواء اللغات ت مظلة النحو الكلى .

ويمكن القول أن منطلقات المدرسة التوليدية التحويلية في أن غايـة الاـساني أن يحاـل المحركات التي بفضلها يتوصل الإنسان إلى استخدام الرموز اللسانية سواء كانت تلك المحركـات نفسانية أو ذهنية ذاتية ، فلا يمكن أن يقتصر عمل اللساني على إقامة ثبت الـصيغ التـي نبنـي

---

[١] المعرفة اللغة – تشومسكي – ترجمة محمد فتيح – ص ٧٦ – ٨٠ .
[٢] النظرية التوليدية التحويلية د. مشال ذكريا – ص ٧١ – ٧٢ .
[٣] اللسانيات واللغة العربية – د. عبد القادر الفاسي – ص ٢٦ .
[٤] المعرفة اللغوية تشومسكي – محمد فتيح – ص ١٨٦ .
[٥] اللسانيات وقضاية اللغة العربية – عبد القادر الفاسي – ص ٢٩ .

عليها لغة من اللغات وإنما يتعدى ذلك إلى تفسير نشأة تلك الصيغ وتأويل تركيبها حتى يهتدي إلى صيغة الظاهرة اللغوية .[١]

ونرجع ثانياً للحديث عن الفكر الكلى ونؤكد أن عودة العلم الأوروبي الحديث إلى فكـرة الأصل واهتمام علم الألسنة بتطور اللغات وتصنيفها ، حيث الأصل تعنى وتحيل إلـى التطـور وكل ذلك القول لكلية اللغة التي هي ضد فكرة تاريخيتها .[٢]

ولذلك شاعت عندهم مفاهيم البداهة والفطر اللغوية والقدرة اللغويـة والكفايـة والكليـة والأصل وكل هذا فكر أيديولوجي انسحب نحو اللغة بمفاهيم قديمة وسابقة عند الفلاسفة بمفاهيم الهيولي والكتلة والخواء في مقابل قضايا الشكل والإعراب وتباين الأنظمة .[٣]

ويريدون من وراء ذلك القول بأن اللغات بني متساوية في الحق . ويمكن القول أن العصر الحديث انفجرت فيه أفكار عقلانية وشاعت فيه قوانين العام الطبيعي الرياضي والهندي و وتضاربت المناهج العلمية بين الفلسفة العقلية والتجريبية ، وسيطرت في الفكر الغربي مقولة الطبيعة ومعها القانون فكان الناتج مفاهيم فلسفية تحاول اتخاذ المناهج العلمية بتطبيقاتها الرياضية في صورة قوانين كلية ومنطقية تسيطر على تنوع اللغات .

ولتوضيح الأمر أكثر من نذلك ب أن نب أن فكرة الكلي وا زئي فكرة منطقية صورية تعكس مفهوم رياضي .

<u>وتجدر الإشارة إلى القول بأن التصورات تنقسم إلى قسمين : -</u>

جزئي وكلى ، وأما الكلى فهو التصور الذي يمكن حمل كل وحدة من عدد لا محـدود من الوحدات بمعنى واحد ، يصلح لاشتراك كثيرين فيه كالإنسان والحيوان .

أما الجزئي فهو الذي يقصد به الدلالة في الأحوال المستعمل فيها كل وحدة معينة واحـدة فقط ، وهذا معناه أن الواحد لا يصلح لاشتراك الكثيرين فيه كلفظ (زيد) .

فالكلي يصنف الوحدات ا أجزاء ، أما ا زئي فيدل على وحدة غ قابلة للانقسام .

وعلى الرغم من ذلك كن التفرق ب الكلي وا زئي على أساس السياق الذي يقصده القائل من ا قصود فهناك من الألفاظ ما يعده الواحد مفرداً أو جزئياً ويعده الآخر عاماً أو كلياً ، فاللفظ (ما) يكون جزئياً قولنا (ا اء مركب من أكسج وهيدروج ونستعمله كلياً حينما نقول (بعض ا اء ملح أجاج) وبعضه (عذب فرات) .

لأننا نستعمل كلمة (بعض) ويفرق كذلك بين ما هو مجرد وما هو عيني فالمجرد هو الصفة منظوراً إليها بغض النظر عن الموضوعات نفسها ، فاللفظ إنسانية تصور مجرد ، أما الإنسان فعين المجرد عند هيجل هو الذي يكون خارجاً عن علاقاته الخارجية ، مع بقية الأشياء ، أو هو وحدة خالية من الاختلافات ، أما العيني

---

[١] الأسلوبية - عبد السلام المسدي - ص ٢٩ .

[٢] المقصود بالتطور التطور الطبيعي الكوني للغات أما التطور التاريخي فهو تطور يشمل اللغة الخاصة وتفاعلها مع مجتمعاتها عبـر السنين .

[٣] نقد العقلانية العربية - الياس مرقص - ص ١٠٩ ,

هو المتعين تعيناً كاملاً بواسطة علاقته كلها ، فالمجرد بوصفه معزولاً عن الكلى ، بواسطة الإدراك الحسي والجزئي بوصفه معزولاً عن الجزئي بواسطة تأمل الذهن .

والمعنى المعاصر الكلي وهو الكيفية ، والإضافة التي تبتعد عن الامتثالات ، أما الامتثال الكامل فهو العيني ، فالتجريد بالنسبة للصفة يسمى تجريداً صورياً ، وتعتبر الفكـرة المجـردة ، محمولاً على موضوع ، وفى الحالة الثانية ، علاقة بين محمول وموضوع وهو صورة الحكم .[1]

ويمكن القول أن فكرة (العالمية) والكلية ، والوحدة ، فكرة قديمة جداً في الفكر الغربي ، إذ كانت الحضارة الغربية في كل مراحلها تسعى إلى الوحدة العالمية ، والوحدة عندهم تعنى الانسجام أو التناغم بين المكونات المختلفة للمجتمع الواحد أو الفرد الواحد ، من حيث أن الفرد يمتص القيم الاجتماعية ويدل بتماسك شخصيته على التماسك والتوافق بين هذه القيم كما يدل بصراعاته النفسية على التعارض بينها ، وعلى رأس هذه المكونات الإيمان الغيبي المتمثل في الدين من ناحية والعقل التجريبي في العلوم الدقيقة من ناحية أخرى ، وبما أن الطرفين يمكن أن يلتقيا عند البحث في قوانين العقل ومعنى الوجود وهما موضوعات الفلسفة ، ولكن الجمع بين الطرفين في الثقافة الغربية ينطوي على صعوبة ، فالدين غيبي أسراري والعلم تجريبي يعتمد على حقائق ملموسة .

ولا شك أن تسخير الطبيعة لخدمة أغراض الإنسان يتطلب استخدام إحـدى الطريقتين : -

إما الاعتماد على القوى الغيبية ، وإما الاعتماد على العقل التجريبي ،فوقع الصدام بين الطرفين ، وأصبحت اليد العليا في العصور الحديثة تهدم قدسية النص الذي يلتف حوله المؤمنون .

ونلاحظ أن التشكيك في الدين يجعل حاجات الإنسان المخيفة في أعماقه ، لا تجد إجابات شافية ، ومن هذه الأعماق تتصاعد أسئلة لا يجد العلم حلا لها ، أسئلة مغلفة بالغموض ، (اللغة – اكتسابها – وذاتية اللغة) ، ومن هنا كانت المحاولات المستمرة لإيجاد بديل يقبله العقل ، يـسمى دين العقل ، أو دين الإنسانية ، أو الدين بلا وحي ، وفى هذين الإتجاهين ترددت أفكـار كونـت وإليوت وهما من رواد البنيوية .[1]

في كل هذا الصراع قفز الأدب ليشغل الفراغ ، ولا سيما في الأشياء المبهمة التي لا يمكن ترجمتها إلى لغة يرتضيها العقل . وهذا بعينه الذي قام به أصحاب البنيوية في أن ترتكز الدلالة عندهم على مبدأ لا شعوري ، وما نظرية العقل غير الواعي عند بواعز بعيدة ولا تفسير الأساطير بأنها نتاج عقل لا شعوري إلا من هذه الهمهمات التي لا تدخل في حيز اللغة .بل في حيز التعبير عن أشياء لا تستطيع اللغة التعبير عنها ، بل يترك الأمر للعقل ليفسر النص ما يشاء فيصبح النص مفتوحاً ولانهائياً لأنه ناتج عن أفكار مبهمة ، ودلالات مبهمة يفسرها القارئ من خلال التركيب .

فقضية الطابع غير الواعي للغة نابعة من فكرة الصراع نفسه الـصراع بـين الإنـسان والحضارة والفكر والروح ،فإن كل تصالح بين الروح والإنسان ينتهي بشقاق جديد لأنه كان دائماً

---

[1] المنطق الصوري - د. عبد الرحمن أيوب – ص ٥١ – ٥٩ .
[1] المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين - د. شكرى عياد - ص ١٥٦ .

تصالحاً ينطوي على تجاهل ، ومن ثم كان الطرف المعارض ينقض الاتفاق عندما تحين الفرصة ، ويزيح الغالب ليحل محله ، وبالتالي لم يتحقق تصالح ولا سيادة لأحد الطرفين ، فهي الفوضى ، ولذا تقهقر الفكر الغربي إلى عصر الوحشية والهمجية ، كما رجعت البنيوية في كثير من بحوثها المثيولوجيا و الفلكلور والنحو التحويلي ، لتثبيت (الكلية) والوحدة أو العالمية ، ولا سـيما فـي الطابع الشعوري أو اللغوي ، إذ يقول د.شكري عياد :[٢] ((كان عصراً يتسم بالضعف والجهـل والحسية إذا نظرت إليه من منظور معين ولن نستطيع أن نعود إليه إلا إذا استطعنا أن نتوزع بين الصوامع والقلاع والأكواخ ، ولكن العقل الغربي بجانبيه الشعوري واللاشعوري سكن إليه ووجد السلام مع نفسه فتره قصيرة من الزمن ، وعرف الترابط والتكامل في ذاته ما لم يعرفه قط منـذ ذلك العهد ، إنه ذلك العصر الذي أخذ يسيطر على أذهان الناس في عصور أخرى ، كمـا لـو كان حلماً... حين ينظرون إليه كنظام سياسي اقتصادي أو بنية اجتماعية ، بل حقبة من الزمـان بلغ فيها العقل والشعور بالترابط ولقد طالما جاء عبقري بعد آخر وسأل نفـسه متـى يمكـن أن تستفاد تلك الوحدة بينه وبين ا وعالمه .))

أنظر إ هذا الفكر الذي تنبع منه هذه النظريات أنه فكر يرفض الدين وا ضارة وا دنية إذا كانت تتعارض مع ما أ وه بالوحدة ، أي ا نظومة أو النسق بالفكر الغر ا ديث ، بل يرى عصور ا مجية والوحشية طابع الترابط والتكامل ب الإنسانية عاء جانبيها الشعوري واللاشعوري ، لأن الإنسان ا مجي يعرف قوان تشريعية ولا اوية ولا وحي أو دين وناهيك عن الدين الإسلامي الـذي ارتضاه ا سبحانه وتعا للبشرية . قال تعا : (اليوم أكملت لكم دينكم وأ مت عليكم نعم ورضيت لكم الإسلام دينا) .

إنه طابع اللاوعي الذي سيطر على دلالات اللغة بل تراكيبها الصادرة ، لكي تتوحد نتاج فعلى واحد ينادى بعا ية اللغة ، ليس منطوقها فحسب ، بل الفكر الناتج عنها ، جرياً وراء ثقافة كلية شاملة .

إن الثقافة مثل اللغة تمثل مجموعة من القواعد والمعايير التي يأخذ لها مجتمع (ما) ولهذا فقد اعتبرها المشتغلون بالدراسات الأنثربولوجية ضمن منظومة ثلاثية تشمل الجنس واللغة وتمثل أهم المقومات التي تحدد حضارة وذاتية الشعوب الإنسانية .

وإذا كان وجود الأنماط الثقافية قد ارتبط بظهور العلامات أو الرموز التي تكون نظام للغة ، فإن العلاقة الواضحة بين اللغة والمحتوى الثقافي لا تعنى شيئاً أكثر من أن اللغة أساساً ثقافياً ، وأنها نظام اجتماعي يلتزم به أفراد المجتمع و كما أنها سلوك اجتماعي يحدد ضمن إطار ثقافة (ما) ، وإذا كان الأمر كذلك فإن دلالات اللغة ومفرداتها لا تحدد تحديداً دقيقاً إلا بمعرفة البنية الثقافية للناطقين بها ، ولذلك تكبر ألفاظ اللغة وتتسع مما يحتويه وعاء المعاجم اللغوية .

---

[٢] مجلة المعرفة مقال بعنوان المذاهب الأدبية العربية والغربية في النقد الأدبي - د. شكري عياد – ص ١٥٤ .

لا شك أن اللغة ظاهرة فكرية إنسانية لا يمكن أن تنشأ في مجتمع يحتـاج أفـراده إلـى التعامل ، واللغة من نواتج الفكر وتيسر التبادل المادي والفكري مع المجتمع ، وبما أن المجتمـع دائم التطور ، فاللغة تسايره أيضاً ، فهي صورة صادقة لحضارته ، فالمعجم اللغوي لأمة ما هـو ملخص لفكرها السياسي والاجتماعي والثقافي والديني .

وبعد أن أوضحنا أثر المنطق في الدراسات اللغوية نقف عند الصدى البالغ الذي تركتـه دراسات المنطق حول اللغة ، ولا سيما أثر الفكر البنيوي والسوسيري الذي فرق بـين المـستوى العادي للغة والمستوى الفني أو المستوى الذي انحرف عن نمطية اللغة ومن هنا نتبين التـوازي بين النحو التوليدي وبين نظام المنطق الصوري ، وكيف أن قواعد التركيب فـي النحـو تتـيح الانتقال من صورة تركيبية إلى جملة أخـــرى ، كما تتيح قواعد الاستدلال في المنطق الانتقـال من تصور منطقي إلى آخر . ومن هذا المنطلق كان الاعتقاد بفكرة المثالية واطراد القواعد فـي مستوى اللغة العادية مجاراةً للمنطق من جهة ، واعتماده على مساعدته في حل ما قد يصادف هذه المثالية من معارضات . بوسائله الصورية الخاصة ، كما لا حظنا في فلسفة البنيـة الـسطحية والبنية العميقة والانحراف عن النمط العادي في قواعد النحو التحويلي والأسلوبية .

وإذا كان المنهج التحويلي بطابعه الذهني قد عمل على الفصل بين ظاهر العبارة وباطنها ، ونعيد القول بانحراف المستوى الأول ومغايرته ، ومثالية المستوى الثاني ونمطيته ، فإن أسلوب التقدير الذهني والتخريج الذي ازدهر في الدراسات اللغوية حول القرآن – قد قام لدى اللغـويين العرب بنفس الدور ، أي أن التقدير الذهني سد وجوه الخلل المفترض في ظاهر العبـارة . ثـم الحكم بوجود هذه الانحراف بعرض ظاهر العبارة على باطنها بما يفترض في هذا البـاطن مـن مثالية واتساق مع القواعد .

ويمكن القول أن لجوء الفكر الكلي أو البنيوي إلى فكرة الانحراف ، ما هـي إلا نظـرة المنطق إلى اللغة وهو النظر المفضي إلى الصورية والتجريد ، وبالتالي إلى ما ليس له وجود في الحقيقة . وأن الصورة المثالية المطردة التي يرسمها الآخرون بالمنطق غير واقعية ، لأن اللغـة في واقعها غير خاضعة للمنطق . وبالتالي تأبى اللغة مطابقة الواقع ، وعلى سبيل المثـال فـإن مقولة العدد لا تخضع في اللغة لقانون الواقع الفعلي .

إذ قد تدل الكلمة الواردة بصيغة الجمع على مفرد ، كما أن التقسيم النحوي إلى مـذكر ومؤنث ومحايد (من اللغة اليونانية) لا يطابق أساس الجنس في الواقع الطبيعي ، وإذن فلـيس

ثمة تطابق لازم بين اللغة والواقع وبالتالي فلا محل للقول بالاطراد أو التواطؤ كما زعم الـدكتور عبد الرحمن أيوب .

وكما أشرنا سابقاً ، فالدراسات اللغوية وظواهر العربية خير شاهد على عدم صـلاحية المنطق أساساً للدراسات اللغوية .[1]

ويرجع الخلاف بين النحو والمنطق فيما يقول فندريس إلى أن الفصائل النحوية والمنطقية لا تلتقي إلا نادراً .

فإذا حاولنا أن ندخل في مسائل النحو شيئاً من النظام بتصنيفها وفقاً للمنطق رأينا أنفسنا منساقين إلى توزيعها توزيعاً تحكمياً ، فطوراً ترانا نفرق بين مسائل ذات صفة نحوية واحدة في فصيلتين متميزتين من فصائل المنطق ، وفي ذلك إكراه للغة ، وطوراً ترانا نجمع فـي قـضية نحوية واحدة مسائل لا يربط بينها شيء من المنطق وفى ذلك إكراه للعقل .[2]

ومن الأمثلة العربية التي تبين أنه ليس ثمة تطابق لازم بين اللغة والواقـع ، وأن اللغـة العربية تعامل كلمات في المفرد معاملة المذكر بينما تعامل جمع هذه الكلمات نفسها معاملة المؤنث ، ومن هذا (كتاب) (قلم)، فكل من هذه مذكر ، بينما جمع كل منها هو (كتب) و(أقـلام) يعامـل معاملة المؤنث .

ولو كان التطابق بين اللغة والواقع لازماً لاتفقت اللغات جميعاً في تقسيم الأسماء مـن حيـث الجنس .

فالعربية تكتفي بتقسيم الاسم من حيث الجنس قسمة ثنائية إلى مذكر ومؤنـث ومنهـا كاليونانية ما يقسمه قسمة ثلاثية مذكر ومؤنث ومحايد .[1]

والنحاة العرب يقسمون التأنيث إلى مؤنث حقيقي ومؤنث مجازي ، ولكل منهما أحكامه اللغوية ، ولذا نرى اللغة تقبل نصوصاً مثل : - المرأة الكاعـب الناهـد والعـانس والحامـل والمرضع [2] .

وفى مقولة العدد وفكرة الجمع في أغلب اللغات بعيدة عن الدقـة المنطقيـة ، فـالجمع اللغوي جمع تقريبي فيه بعض الغموض.

---

[1] نظرية اللغة والنقد العربى - د. عبد الحكيم راضى – ص ٥٠٤

[2] اللغة - فندريس – ترجمة عبد الحميد الدواخلي - ومحمد الدواخلي – محمد القصاص - الناشر مكتبة الأنجلو المصرية - مطبعة لجنة البيان العربى – ديسمبر ١٩٥٠م - ص ١٥٣ .

[1] علم اللغة - محمود السعران - ص ٨٠ – ٨١ .

[2] أسرار اللغة - إبراهيم أنيس - ص ١٤٨.

كذلك فإن لكل من اللغة والمنطق موقفه الخاص في قضية النفي ، وبالذات تكرار النفي ، أو ما أطلق عليه (نفي النفي) ، ومن أوضح الفروق بين النفي اللغوي والنفي المنطقي ، أن نفي النفي إثبات ، ولا شيء غير الإثبات في ذهن المنطقي والرياضي ، ولكنه من الناحية اللغوية ليس إلا تأكيداً للنفي ، فقد يريد المتكلم أن ينفي جملة من الجمل أو معنى من المعاني ، وقد تدفعه حالته النفسية أو ظروف الكلام إلى تأكيد هذا النفي بتكرار أداة النفي ونهدف بهذا إلى توكيد فكرة النفي لا إلى الإثبات ، [٣] تلك كلها شواهد على مدى التباعد بين اللغة والمنطق ، وبشواهد أيضا على صعوبة مطابقة اللغة لأحوال العالم أو شمولها لمجالات الفكر الإنساني في عمومه ، ومنها يظهر أن الفكر أوسع من اللغة ، وأن ربط المنطق واللغة برباط واحد ظلماً لهما جميعاً [٤] .

ورغماً عن كل ذلك ظلت المباحث اللغوية تقاوم تيار المنطق وتحكمه في تصنيف اللغة ومباحثها ، وكانت النتيجة أن ظل علماء اللغة يقيمون نظرياتهم اللغوية على أسس منطقية أو فلسفية . [5]

أما في عالمنا العربي وجدت حملات ضد المنطق باعتباره عاملاً يفسد اللسان الفصيح وشارك في هذه الحملة أعلام مثل الإمام الشافعي والسيرافي وبن السيد البطليموسي ومع ذلك ثبتت الغلبة للاتجاه الآخذ بتحكيم المنطق في البحث اللغوي ، ووضح ذلك من هيمنة المدرسة البصرية على مقدرات البحث في اللغة والنحو وكانت النتيجة القول بمثالية اللغة واطراد القواعد بصرف النظر عن واقع اللغة ، وعرف تاريخ البحث اللغوي عند العرب محاولات من توجيه واقع الاستخدام اللغوي من أجل حمله على مسايرة القواعد المثالية والاتساق معها ، فضلاً عن عمليات التقدير الذهني و وجدت أساليب في رد الشواهد والتشكيك فيها والتعديل في روايتها وذلك من أجل إزالة التعارض في حالات الاختلاف بين القاعدة والشاهد .

ويقول عبد الحكيم راضي : ((إن ما سموه بالمثال كان في غالب الأحوال تصوراً مجرداً لا يتحقق في واقع اللغة ، اللهم إلا في الأمثلة الصناعية التي ألفوها بقية الشرح والتعليم)) .

ثم يقول : ((هذه الصورية والتجريد في النمط أو المثال المقول به يمكن أن نتأكد من واقع حديث اللغويين والبلاغيين ، خاصة في سياق محاولتهم لرصد الانحراف حيث يبدو المثال ليس تصوراً مجرداً فحسب ، وإنما يبدو تصوراً نسبياً أيضا ، وهذه خطوة جديدة في نقض هذه

---

[٣] أسرار اللغة - إبراهيم أنيس - ص ١٣٩.

[٤] أسرار اللغة - إبراهيم أنيس - ص ١٦٣.

[٥] اللغة العربية معناها و ومبناها – تمام حسان – طبعة ١٩٧٣م - الهيئة المصرية للكتاب - ص ٢٦ - ٢٧ .

المقولة بمعنى أن هذا المثال المدعي والمفترض فيه الثبات والسبق ، على المستوى الأدبي إنمـا يتحدد في واقع الأمر في ضوء المستوى الأخير لا العكس ، فيقال به في المواضع التي يوصف ظاهرها بالانحراف في التظاهر)) .[1]

كان في الإمكان سحب القول بالمثال الباطن ، أي يصبح في الإمكان إلغاء القول به ، أو التحول به إلى موقع آخر أو إلى مستوى آخر) .[2]

ومن هنا كانت النسبية في تقدير المثال - انطلاقاً من القول بالانحراف أو عدمـه ، ثـم القول بمستواه وموقعه عند تخريج الكلام عليه ، ومن هنا يمكن القول بصوريته ، وأنه لا وجود له إلا حيث يبقى الظاهر على حقيقته ، وفيما عدا ذلك فهو شيء من صنع النحـاة واللغـويين ، خاصة لدى البصريين الذين أخضعوا اللغة لمقتضيات القياس ، وبدلاً أن يكون القياس والتأويـل أداتين لتفسير اللغة ، كان لديهم أداتين لصنع اللغة وخلق صورها ، وإيجاد صور من التعبير لـم يكن يعرفها أصحاب اللغة أنفسهم .[3]

وهكذا انصرفت الكثير من الدراسات اللغوية والنحوية نحو الثنائية السوسيرية وظهـرت العديد من الكتب التي تظهر الثنائيات في اللغة ولا سيما كتاب (الثنائيات وقضايا اللغة العربية من عصر النهضة إلى عصر العولمة) د. نهاد الموسى .

وبرزت مشاكل خطيرة حول ذهنية اللغة و اجتماعيتها و قفزت كتابات تـوحي بالثنائيـة الفصحى والعامية ، واللغة الرسمية ولغة الطبقة الوسطى ، والبنية السطحية والعميقة ، والأصـل والفرع ، والمنطوق والمقدر ، والوصفية والمعيارية وكثير من الظواهر التي تعينهم على تأكيـد فكرة التجريد والصورية مثل نظرية العامل ما إصرار البنائي تشومسكي على فكرة العامل إلا لجعل اللغة حره في يد القارئ يفسرها وفقاً لتقديره للعامل وذلك هو الـسبب الأساسـي لاهتمـام البنائية بظواهر الحذف والتقديم والتأخير وتقدير العامل ، ولأنها متروكة لحرية القارئ يفككهـا حسبما يشاء .

---

[1] نظرية اللغة في النقد العربي - عبد الحكيم راضي - ص ٥٠٧ - ٥٠٨ .
[2] نظرية اللغة في النقد العربي - عبد الحكيم راضي - ص ٥٠٧
[3] نظرية اللغة في النقد العربي - عبد الحكيم راضي - ص ٥١١

المبحث الأول
اللغة الفنية

يعد إطلاق كلمة (لسان) أوسع مفهوماً من كلمة (اللغة) إذ اللغة تع الكيان القومي ، أما اللسان فهو وسيلة الاتصال بـ الناس لذا استوعب اللهجات ا ختلفة.

وحاول الباحثين إلى جماع وسائل الاتصال بين الناس من إمارات وإشارات وحركـات ، أو تشكيل المادة لموقف خارجي أو شعوري ، نجدهم يستخدمون كلمة (اللسان) التي ترادف اللغة عندنا ، وفى ايضاح وظيفة الفن التي تعبر عن الوجود والذات هذا الأمر أدى بهـم إلـى القـول بأصول فنية للتعبير عن ذلك في مختاف اللغات ، وافترضوا وجود لغة يمكن أن تعد بمثابـة الأم لجميع الفنون التي استوعبتها الحضارة الإنسانية .أياً كانت وسيلة التعبير ، وأن اللغة الأم هـذه لا بد أن تجتمع فيها خصائص الفنون الزمنية والتشكيلية وأن تستوعب الأصوات والإشارات والمواد المشكلة ، واعتبروا الرقص بالمفهوم المتسع لهذا الفن هو اللغة الأم المفترضـة ، وهـو أقـرب اللغات الفنية إلى ذلك الأصل .

وبناءً على ذلك إذا اختلفت اللغات الفنية باختلاف وسائل التعبـ ، فإ ا تتفق ا صدر والسياق التار ي والوظيفة .

واللغات الفنية مهما تعددت ،فإنها تخضع لقانون واحد بمعنى أن اللغات الإنسانية تـشعبت إلى لهجات وفنون وصور مختلفة ترجع إلى أصل فني واحد . والنتيجة المنطقية لهـذه الطـرق الفنية المتعددة ، هي أن اللغة الفنية تمثل مصطلحاً جماعياً أو اجتماعيا يحقق بضروب من النشاط الإنساني ، لها القدرة على أن تحمل معانيها إلى أكثر من حاسة و وفيها من الخصائص ما يسمح لها أن تترجم من لهجة فنية إلى أخرى . وتحقيقاً لما ذكر انصب اهتمام دراسات القرن التاسـع عشر اللغوية حول الأسطورة و التراث الشعبي و نشر ماكس مولر بحثـه عـن الأسـطورة المقارنة عام (١٨٥٦م) ونشر وليام جونز بحثة عام (١٨٤٦م) .

وأصبحت اللغة الفنية و الأسطورة هي المنبع أو الأصل الذي تتفرع عنه الفنون الأدبيـة المختلفة و لأن الأسطورة في زعمهم جمعت وسائل الاتـصال جميعهـا [1] ، واسـتهدفت القـيم الإنسانية العليا ، إلى جانب المنفعة ، حتى بلغت أوجها وانفطرت عناصرها وتحولت إلى عقائـد وعادات تؤثر من غير وعي في ضروب السلوك وبذلك أصبحت الأساطير تعمل عملها في ثقافة الأفراد عن وعى وعن غير وعى وساهمت في صياغة الآداب والفنون الرفيعة كرواسـب مـن الماضي .

---

[1] دفعت هذه الحقيقة الباحثين إلى القول أن العقيدة البدائية تقوم بالرقص , والرقص يجمع في أعطافه الأسطورة والشعيرة و ويقوم تبعـاً لذلك بالحركة والكلمة والإشاراة والحركات البدائية وتتكرر طبقاً لقوالب محدده , كما أن الإشارات الجسمية استجابة الدلالة معينة ٠انظر الفلكلور الميثولوجيا – عبد الحميد يونس – مجلة الفكر – المجلد الثالث – العدد الأول أبريل / مايو / يونيو (١٩٢٢م) – ص٢٦ ٠

لذلك اعتـ وا صيغ الأخيلة والتمثيل الشعر منبعها الأصلي من الأسطورة. وبالتا ول اللسان عن اللغة الأم إ لسان قومي ، قق إنسانية الناس إطار تمع كبـ ينتظم بدوره وحدات اجتماعية أصغر ، وتقوم العلاقات فيه على أساس من التقاليد والعادات والقوانـ العرفية . الـ انطلقت من وحد ا الثقافية ولغتها الفنية ا تمثلة الأسطورة ، فالأسطورة هي ا ع الكلى للثقافة يتحقق جزئيات ثقافية صغرى ثل العادات والطقوس الرئيسية والأعراف والآداب .

وهذه الآداب ا نبثقة من ا نبع الأصلي ، تظل عاجزة بتراكيبها اللغوية و مهما كانت الطاقة الشعرية لكلما ا قادرة على الإيفاء بوظائفها الاجتماعية والفنية . وظل الدارسون يلتمسون الأصول اللغوية عصور البداوة الأو و و اولون التقاط مفردا ا وتراكيبها وتعابـ ها الفنية ، وا تخصصون الثقافة واللغة اللسانية تفلون بالأصل القبلي للمجتمع لأنه ثل الطاقة السحرية للغة . والأدب باعتباره الفن ا توسل باللغة اللسانية ، ويستهدف يع القيم الإنسانية العليا ، ا تمثلة اللغة الفنية وهى حلقات أدبية ، إن الأدب الر ي وا أثور الشعـ يتبادلان التأثـ والتأثر عن وعى وعن غـ وعى .

وتأسيساً لهذه الأفكار اتجه النقد الأدبي في عصرنا الحديث إلـى واقـع التجربـة الفنيـة وبواعثها ومنشأها ومتذوقها ووصل إلى الآتي :-

(١) التركيز على المنشئ وإنشائه .

(٢) التجربة الفنية ليست مقصورة على الأثر الفني الذي يجسمها ، ولكنها تبدأ قبل ذلك بفتـرة ، ربما وصلت إلى مرحلة الطفولة الباكره .

(٣) عدم سلخ المنشئ عن مجتمعه أو عزله عنه .

واللغة الفنية تتجاوز حدود المجتمع الذي أثمرها ، وتسمح بالتقاء الثقافات ، على الـرغم من حدود الزمان والمكان ، وهذا ما سعت إليه أوعية الثقافة الجديدة حين وظفت الفن للمخاطبين والمتلقين للأولى ، أي أن الأثر الفني يقوم على مقومات الصناعة ، وهى تـصميم العمـل طبقـاً لمقال سابق ، وثانياً تنفيذ هذا العمل على أساس من قواعد محكمة تعنى أولاً وأخيراً بعلاقة الجزء بالكل .

وهكذا هناك تجارب عديدة لصنع لغة عالمية قد خفقت ، ولكن هناك تجارب تحـاول أن تمنحها الحياة و فإن الذي لا شك فيه أن اللغة الفنية التي تتوسل بجميع وسائل التعبير قادرة علـى الخروج من حدود الإقليم و العصر وطاقة اللسان ومـصطلحه ، والآن تقـارب اللهجـات التـي يتوزعها لسان قومي ومن تقارب لهجات اللغة الفنية . وهنا نسوق ما قاله د.عبد الحميد يـونس : (ومن يدرى ربما استفادت الإنسانية وحققت التصور القديم الموغل في القدم وهو اللغة الأم) التي تجمع في أعطافها الحركة والإيقاع والمادة المشكلة إلى جانب الكلمة .

ونحن لا نغمط الجهود ، التي يبذلها بعض أبناء الجيل الجديد في تصور البلاغة المنشودة المتحرره من المنطق ، وقوانين الحتمية العلمية ، ونعترف بأن هناك فارقـاً بـين مـنهج اللغـة الإنسانية أياً كانت وسيلتها ، وبين المنطق الصوري ... ونسلم إلى جانب ذلك بأن الحياة التي

تتغير مظاهرها بخطى متزايدة السرعة ، قد جعلت الإنسان يفتش عن صـيغة فلـسفية للعـصر الجديد ... يتوقع بلاغة جديده تكافئ التقدم المذهل في العلم والتكنولوجيا) [1] ويمكـن أن نـشير هنالك إلى فكرة المحور الرأسي والمحور الأفقي عند جاكبـسون أو نظريـة (الاسـتبدال) بـين المحورين التي تعتبر فرعاً في الدراسات البنائية في مجال الأسلوب و وحتى وصل بهم الأمر إلى سقوط المحور الرأسي والأفقي (أي لا نهائية الدلالة) وفوضى المعنى وصوغ كلمات جديـدة لـم يسبق للغة أن عرفتها ولا الاستعمال العام .[٢]

وهذه محاولة جريئة لتوحيد التألق والإخراج والأداء في إطار زماني ومكـاني واحـد ، ويقول : (بقى أن تسهم الأوعية الضخمة في التعريف والتثقيف والتدريس وبقى أيضا أن نـساير التقدم في مناهج إبداع الفنون وفلسفتها ، وطرائق الإفادة منها، وأن نقتنع آخر الأمر بأن خدعـة جديدة توشك أن تتأصل وتحل محل البلاغة القديمـة ، وأن تتجـاوز الفواصـل ... وأن تـستعد لمواجهة لغة عالمية) .[٣]

ويشرح رائد البنيوية ياكبسون بقوله أن اختيار الكلمات يحدث بناء على أسس من التوازن أو التماثل أو الاختلاف وأسس من الترادف أو التضاد ، بينما التأليف وهو بناء للتعاقـب و فهـو يقوم على التجاور بين الكلمات وهذه عملية تحدث في كل حالة إنشاء لغوى ، ولكن حالـة الأدب تختلف عن غيرها من حيث أنها تستبدل مبدأ التوازن من محور الاختيار إلى محـاور التـأليف وهـذه أولى وظائف الشاعرية . في إنحراف النص عن مساره العادي إلى وظيفتـه الجماليـة ، وهى عملية وصفها جابكسون بأنها انتهاك متعمد لسنن اللغة . العادية أو كمـا وصـفها النقـاد البنيويون بأنه عنف منظم يقترف ضد الخطاب العادى . [٤]

وبهذا يصبح النص البنيوي شكلياً يصرف نظر المتلقي عن الدلالات المرجعية للكلمات . وتتحول الكلمة إلى إشارة لا تدل على معنى وإنما تثير في الذهن إشارات أخرى وتجاب صـوراً أخرى ، حصرها القرطاجني في اسم (التخييل) ولكنني أود أن أنبه القارئ بـأن الـذي تقـصده العرب ليس التخيل والتمثيل المقصود عند العرب لدلالته المعروف إنما المقصود به هنـا دلالات جديده تحمل تراكيب مؤنقة عن طريق التأليف الاستبدال بين الكلمات كعبارة (القمر منجل ذهبـي في حقل من النجوم) .[١]

---

[1] مقال بعنوان (اللغة الفنية) د٠عبد الحميد يونس - مجلة الفكر – المجلد الثالث - العدد الأول - (١٩٧١م) - ص ٦٤ ٠

[2] النظرية البنائيه – د٠صلاح فضل ص ٢١٥ – ٢١٦ .

[3] (اللغة الفنية) د٠عبد الحميد يونس – مجلة الفكر – المجلد الثاني – العدد الأول -(١٩٧١م) - ص ٦٣ .

[4] النظرية البنائية - د٠صلاح فضل - ص ٢٤١ .

[1] النظرية البنائية - د٠صلاح فضل - ص ٢٤١ .

وهذا يخلق فرصه للتأويل الباطني والتفسير الفردي للنص الأمر الذي يشكل خطورة على نصوصنا المقدسة ولا سيما القرآن الكريم الذي يمثل قمة البيان الأدبي عند العرب ، قال تعـالى : (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) واللغة الجديدة استجابة شـرطية لمـا أفادته اللغة الفنية من طاقات جديده ، والبحث في التراكيب اللغويـة لمعرفـة الواقـع اللغـوي ، واصطناع منهج جديد لقراء الشعر لأن التركيب اللغوي لا يستشفّ أبعاده من ضـبطه ، أو مـن صوره ورموزه ، ولكنه يحمل طاقة أفسح وأعمق تستقطب من أعماق النفس والمجتمع ، ولـذلك بدأ التجديد الأولى يرفقه الشعر الموزون المقفى الذي يحتكم على معيارية البحور الشعرية ، إلـى الشعر الحر الذي يوافق معطيات اللغة الفنية التي تحقق في الشعور بمسار اللغة من خلال النبـر والإيقاع وليس الشكل المرعى في التدوين .

ونخاص من ذلك إلى أن الفنون تصدر عن لغة واحده أو أصل لغـوى واحـد تنتظمـه حركات لجسم الإنسان ، بالإضافة إلى ذلك أن اللغة الفنية تتمتع بقدر من التحرر من حدود الزمان والمكان ، والخروج على ظاهرة اللسان فهي تتجاوز المحسوس إلى أعمق من ذلـك وأخـذت اللهجات الفنية تتقارب بفضل وسائل الثقافة لتكون أداة لتوحيد الإنسان في كل المجتمعات.

وهنا نلاحظ إمبريالية الثقافة أو القول بالثقافة الكلية التي تنطلق من أصل واحـد وجـذر واحد .ولهذاا تسع الاهتمام باللغة في جميع المجالات العلمية ولا سيما علم اللسانيات الذي يـدرس اللغات دراسة علمية دقيقة ، بالإضافة إلى علم النفس اللغوي ، وعلـم الـنفس الاجتمـاعي ، والتقابلي والمقارن والوصف البنيوي ، كل ذلك للوصول إلى قاسم مشترك بين اللغات ومن ثـم الثقافات والحضارات الإنسانية الموحدة .

ولذلك يقول أحمد أبو زيد في مقاله : (حضارة اللغة) [٢] (فكان تعدد اللغات وتنوعها هـو سبب من أهم أسباب ما تعانيه الإنسانية الآن وفى كل وقت مضى صراع ونزاع وتفرق ، خاصة وأن كل جماعة ... تميل إلى التمسك بلغتها باعتبارها رمزاً لوجودهـا . وواضـح أن اللغـات الكبرى تميل إلى أن تنتشر وتوسع من دائرة نفوذها على حساب اللغـات الـصغرى ... لأن أي محاولة لفرض لغة بدلاً عن أخرى معناه تهديد كيان الجماعة التي تتكلم تلك اللغة ، وفـى هـذه الحالة لا تعتبر اللغة مجرد وسيلة للاتصال و إنما تصبح رمزاً وشعاراً يرتبط بمـشكلة الحريـة الشخصية [١] ، ويبدو صراع اللغات في كل المجتمعات الإنسانية حتى المتقدم منها وكثيـراً مـا

---

[٢] حضارة اللغة - د٠أحمد أبو زيد - مجلة الفكر - المجلد الثانى - العدد الأول - (١٩٧١م) – ص ٣٢ .

[١] لا زالت اللغة الإنجليزية مستخدمه على نطاق واسع عل المستوى القومي ومع أن اللغة الهندية خصصت لأن تكون لغـة قوميـة ورسمية ٠

تترتب عليه مشاكل اجتماعية وسياسية خطيرة قد تؤدى بتماسك المجتمع أو على الأقل تهدد ذلك التماسك حيث يتخذ ذلك الصراع شكل الصدام العنيف) .[٢]

ولذلك مالت اللسانيات الحديثة والدراسات النقدية الجديدة إلى فكرة النسق أو النظام ، فلا قيمة لكلمة من دون الجملة ، فكما لا وجود للجملة من دون الكلمة . وبالتالي فإن تحليل الـنص الأدبي يحتاج إلى سبر السياق الرئيسي للكاتب لنعرف كيف نفسر نصوصه ونرتبها داخل سياقها العام وهو السياق الأدبي الموروث وسياقها الخاص وهو مجموع أعمال الأديب [٣] فكـل عمـل أدبي تختلف قيمته بناء على جنسه وسياقه ، والجمل تختلف في إحداث الأثر لأن دخولها في سياق مختلف جاب معه طاقه مختلفة مثل كلمة (قيد الأوابد) ، إذا وضعنا هذه الجملة في بيت شعر تقيم أثراً جمالياً كقول امرئ القيس :-

وقد اغتدى والطير في وكناتها   بمنجردٍ قيد الأوابد هيكـــل

ملّكوا زمام الأمر للسياق ، وهذا السياق له قوانينه الخاصة التي توجه النصوص ، ويتحكم في فهمها وتفسيرها و وقوة الملكة في صورتها الحركية من الجملة . ورفضوا المعنى الـدلالي للكلمات أو المعنى المرعى ، فاللغة الفنية دلالة على نصها وليس على مدلول مـن خارجهـا ، وهذه القوانين تستنبط من داخل النص وليس من خارجه . وفكرة السياق هي فكرة النـسق عنـد دى سوسير في تأسيس العلاقة الترابطية بين النصوص في الجنس الأدبي الواحد ، وفـى قيامهـا على سياق يشملها فالنص سلسلة من العلاقات مع نصوص أخرى متداخلة ، وكل نص هو نـص متداخل و ولا وجود لنص (برئ) أي الذي يخلو من هذه المداخلات وكل نـص هـو تـشرب وتحويل نصوص أخرى .

ولذلك يقول الغزامى في وصفه للأدب [٤] ، (والنص هو محور الأدب الذي هـو فعاليـة لغوية انحرفت عن مواضعات العادة والتقليد وتلبست بـروح متمـردة رفعتهـا علـى سـياقها الاصطلاحي إلى سياق جديد يخفيها ويميزها) وبهذا القول يعتبر النص الأدبي منعـزلاً بنفـسه مستغلاً بلغته خارجاً عن إطار لغته المطردة والمعهودة يشكل لغة جديدة ترجع إلى سياقها العـام الذي انبثقت فيه ، وهو سياق أساسي مجرد يوجد في ذهن الجماعة البشرية .

إذن كل نص أدبي هو حالة انبثاق من نصوص مماثلة في جنسه الأدبي فالقصيدة الغزلية انبثاق تولد على كل ما سلف من شعر غزلي .[١] أي في اللسان أو النسق الذي حمـل سوسـير

---

[٢] حضارة اللغة د. أحمدجمد أبوزيد – مجلة الفكر المجلد الثاني – العدد الأول (١٩٩٧١م) – ص ٣٢ .

[٣] الخطيئة والتكفير – عبد ا الفذامى – ص ١٥ ٠

[٤] المرجع السابق – عبد ا الغذامى - ص٨ .

[١] الخطيئة والتكفير – عبد ا الفذامى - ص ١١.

جزءاً من دلائل المعاني الجزئية الناتجة من العلاقات الترابطية بين الكلمات المتعارضة في داخل النسق وكذلك السياق الأدبي وهو المرجع الذي يحال إليه المتلقي كي يتمكن من إدراك مادة القول ويكون لفظياً وقابلاً للشرح اللفظي .[٢]

والسياق عند ياكبسون رائد البنيوية هو الطاقة المرجعية التي يجرى القول مـن فوقهـا ، فتمثل خلفية للرسالة تمكن المتلقي من تفسير المقولة وفهمها ، فالسياق هـو الرصـد الحـضاري للقول وهو مادة تغذيه بالحياة فالرسالة مهددة بالسقوط في أحضانه ، لأن السياق أكبـر وأضـخم وهو أسبق منها إلى الوجود ، أمكن منها في النفوس ، فالسياق كتقليد أدبي قد يتغلب على البعض ويصبح النص فاشلاً كتقليد مفضوح .

ولا بد من ذكاء المبدع كي ينقذ النص من السقوط وخير سبيل لـذلك أن يبـدع شـفرته المتميزة التي تحمل خصائص شفرة السياق الخاص بجنسه الأدبي ، وهى بهـذا تنمـى الـسياق وتساعد على ازدهاره .

والشفره عندهم تغيير وتحويل عن الماضي ، لذلك احتفلوا بالشعر الحر الذي شـاع فـي القرن العشرين ، حتى أصبح سياقاً شعرياً يخالف السياق الشعر العربي الموروث .

فالنص البنيوي يرتكز على اللغة وما فيها من طاقة لفظية ولا شأن للمع هنا ، لأن ا ع هو قطب الدلالة اللفظية ، والنص الأد شكل ا .

ونلاحظ أن مفهوم اللسان والكلام والنسق والقيم قد ظهر جلياً في تطبيقات البنيوية الأدبية ، فما السياق والشفره إلا ثنائية جديدة من ثنائيات سوسير يعبر عنها ياكبسون بالشفرة والـسياق ، فالسياق هو النظام الأدبي الذي تجمعت فيه الأجناس الأدبية على مر الزمن ويشتق منها سـياق عام تخرج منه شفرات مختلفة ومتعددة بتعدد الأجناس الأدبية ولا يتمثل للجزء إلا من خلال الكل . ولا يفهم الجزء إلا باتصاله بالكل .

فالنص يوجد هويته من خلال أسلوبه ولا تتحقق الهوية إلا باعتبار السياق والنص علاقـة متشابكة من عناصر الاتصال اللغوية و يتلاقى الباحث مع المتلقي فـي تفـسيرها واسـتقبالها . والغاية من ذلك هي الرسالة نفسها فهي تأكيد ذاتي للنص يتوحد فيه الشكل والجوهر حتى يكـون الشكل هو الجوهر والجوهر هو الشكل . فاللغة في النص الأدبي تدل على نفسها وتلغى المدلول القديم للكلمات ، وممكّنة لمعنى الدلالة حيث يحقق الصوت انتصاره بعرض نفسه على مـضمار النص فالاشاره اللغوية هي علاقة إشكالية بين ضدين متكافئين المعنى المجازى والمعنى المرجعي

---

[٢] المرجع السابق – ص ٩ .

[1] والإشارة اللغوية لا تقتصر على انتمائها إلى علم اللغة وإنما إلى مجموعة نظرية الإشـارات أي السيمولوجيا العام [2] والشاعريه تنبع من اللغة لتصنيف هذه اللغة ، وهى لغة عن لغة تحتوى على ما وراء اللغة ، وهنا يجلو أثر المنطق واضحاً وشاعريه اللغة لا تتحقق إلا بتجاوز ظـاهر اللغة فتثير بواطنها وتكشف تركيباتها الخفية .

ويتحقق مفهوم الكلية في النظرية الأدبية كما يتحقق في النحو والمفاهيم اللغوية للألـسنة المختلفة ، في الشاعرية التي تنبع من اللغة وتصف هذه اللغة ، فهو تحليل داخلي للنص وتجريدي في نفس الوقت .

ويعتمد النص على شاعريتة وهى قوة داخلية تمنحه التفاعل مع بقية النصوص المتداخلـة معه ، وتمنحه القدرة على توليد أنظمة شاعرية أخرى على حسب قدرة المتلقي .[3]

ويقول الغذامى : (والنص يأخذ بتوظيف الشاعرية في داخله ليفجـر طاقـات الإشـارات اللغوية فيه فتتعمق ثنائيات الإشارات وتتحرك من داخله لتقيم لنفسها مجالاً تفرز فيه مخزونهـا الذي يمكنها من إحداث أثر انعكاس يؤسس للنص بنية داخلية تملك مقومات التفاعل الدائم . مـن حيث أنها بنية ذات سعة شمولية قادرة على التحكم الذاتي بالنص ومؤهلة للتحول فيما بينها لتوليد ما لا يحصى من الأنظمة (الشاعرية) ، فيها حسب قدرة القارئ على التلقي) .[4]

ومن هنا نستخاص عناصر ومرتكزات الدراسة البنيوية التي تقوم على :-

(١) الشمولية .

(٢) التحكم الذاتي .

(٣) التحول .

فالقول بالشاعرية كالقول بالنسق لأنه نظام خاص أيضا تقوم عليه اللغة بذا ا لتعكس ذا ا ، وهو هروب من قوان اللغة ا اصة لأي لغة و ويل اللغة عن كو ا وصف للعا أو تعب عنه إ أن تكون هي نفسها عا اً آخر وبديلاً عن ذلك العا بقلبه إ (لا واقع) كما قال الغذامى . أي ويل العا إ خيال أو فضاء سرمدي .

جاءت مدرسة النقد الحديث لتنظر إلى النص على أنه عمل مغلق وعزلتـه عـن مؤلفـه وعصره ، وجعلت العمل وحدة فنية مستغلة تمتلك خصائصها الذاتية ، حتى وإن كان مـن نفـس المؤلف . وهذه أيضا بنية محددة تجعل النص يشرح نفسه بنفسه بعيداً عن العـصر والملابـسات التي أدت إليه وهو أيضا نسق خاص يمتلك مقوماته الخاصة به . فهو عمل بنيوي وإن كان مـن مدرسة أخرى مدرسة (النقد الحديث) .

---

[1] الخطيئة والتكفير – المرجع السابق - ص ١٧ .
[2] النظرية البنائية - صلاح فضل - ص ٢١١ .
[3] الخطيئة والتكفير – د. محمد القزامي – ص ٢٠ – ٢٤ .
[4] المرجع السابق – ص ٢٥ .

وهذا العمل البنيوي ينقد نفسه بنفسه إذا حاول النص أن يغفل نفـسه كمـا رأت بعـض المدارس و لا ينفى أن تكون الشاعرية قد تحققت فيه بفعل لغتـه ، مـا المـانع إذن ولكـن لأن الشاعرية عندهم مفهوم تجريدي يربط النص ببقية النصوص الأخرى في اللسان العام ومن السياق الذي انبثقت منه (النسق) بمفهوم سوسير.

وجاءت مدارس شكلية لتدعم هذه المدرسة ولكنها تجنبت عزل النص وإنما جمعت بـين الرسالة والشفره ، وصارت تسعى إلى استنباط شاعرية النص من خلال دراسة خصائصه الفنيـة الشكلية اللغوية وصارت الشاعرية تنطلق من دراسة النص الواحد للخروج بمبدأ شاعري يمكـن تطبيقه على بقية النصوص من جنس ذلك النص .

وهذا يمكن أن نطلق عليه (نقد ألسني ينطلق من فكرة اللسان عند دى سوسير ، باعتبـاره أن اللسان كل والكلام (لغات متنوعة) ، كذلك الشاعرية صفة تجريدية ناتجة من النـسق الكلـى بصورته التعارضية و الاختلافية والثنائية ، ومدى تحققها في بقية النصوص .

وهذه حكومة أدبية عالمية كما كان للعرب في النقد القديم حكومة . (أم جنـدل) حكومـة ترفض معيارية اللغات واطرادها وصورها الفنية المتعددة وبلاغتها الداخلية النابعة مـن تراثهـا لتفرض عليها استعاره كبرى ، بل يصبح النص نفسه استعاره من هذه الاستعارات .

ونلاحظ أن النقد الطليعي أو المتقدم له سمات أهمها التـسيب اللفظـي وعـدم الالتـزام بتعريف المصطلحات مما أدى إلى خلط ميدان يحاول رواده أن ينعتوه بالعلمية وعلى سبيل الذكر استعمال كلمتي البنية والشفره أو العلامة أو الرمز كمترادفين، ووصفت د. فريال جبورى غزول المتلقي للدراسات النقدية الجديدة [1] (وكأنه في برج بابل عصري يـشهد فيـه التبـاس المعنـى وانفراط اللغة) .

هذا النقد البنيوي يثير قضية علاقة النص بالثقافة والتحولات الثقافية ، أي أن هذا النقـد يطرح قضية إنسانية وهى علاقة النص بالتعبئة الفكرية على الصعيد الفردي والجماعي . وهـذه نقطة هامة يجب أن توضع في الاعتبار حين تقول أن البنيوية مذهب فكرى عقدي . [2]

وينطوي على رسالة أيدولوجية ، وبالتالي يستطيع القـارئ حـلّ الـشفرة الأيديولوجيـة للنصوص ، وهنا بالضبط يمكن القول أن هدف البنائية في ذلك الفك والحلّ الذي يوحي بما تحمله النصوص من عقائد ، ثم السير بها قدماً نحو الاتجاه البنائى الموحد ، الذي يفرض على الـنص

---

[1] مجلة فصول - مقال - عرض الدوريات الأجنبية - ١٩٨١م .

[2] مشكلة أورويل :- مثلاً تكييف القارئ وتطبيعه على قبول الاستعمار الاستيطاني والكشف عن نصوص أسهمت في تطبيع الافتراءات الصهيونية في ذهن القارئ من خلال سياق سردى محكم وأسلوب بياني يوحي بالثقافة . المعرفة اللغوية - ترجمة محمـد فتـيح ص ٤٠٠ .

مضمون من داخله ، يفسر النص تفسير لغوى تركيبي بعيد عن التاريخ والثقافـة والعقيـدة، بـل يشرح النص نفسه بنفسه .

المبحث الثاني

الفنية في المفهوم البنيوي ضد المعيارية والنمطية

أصبح مفهوم الشعر البنيوي عند الغرب الحديث ، إن الشعر تأسيس الكلام في الكـلام وهو اللغة العليا ، وسير الكلام عند ياكبسون وليست مهمة الشعر في الاتجاه البنيوي عرض حدود الشعر عبر التاريخ الإنساني . ما يجب التوكيد عليه هو أن الشعر صناعة ، إضافة إلـى كونـه تجربة معرفية . اإجتماعية ، صناعة بمعنى أن تركيب أنساق لغوية مقتطعة من الكلام اليـومي وكلام الفكر ، ويظل قانون الكلام المألوف بغيه خلق علاقة متغيره بين الأسماء والأشياء.

اتجهت الدراسات الحديثة إلى وصف اللغة كنسق ووصفها بأدوات التحليل الاجتماعي من إقطاعية وبرجوازية إلى التساؤل عن طبيعة بنيتها ، هل هي فوقية أم تحتية ؟. أم طبيعتها راجعة إلى النحو والصرف أم إلى المعجم والدلالة ، لأن مثل هذه المعضلات المحيرة لم تجد بعد تحليلاً علمياً تطمئن إليه .

ولا شك أن تقعيد العربية خاضع لنسق ماضوي يرفض مساسها وإعادة تركيبها من خلال رؤية وحساسية مغايرتين و وهذه المتعاليات أخضعت اللغة لدائرة مستبدة و زمنيتهـا استرسـال الحاضر واستمراره ، لا ماضي ولا مستقبل لها . ومهما تحكمت الرؤية المتعاليـة فـي تـسيير مطلقيه اللغة ، فإن الشعراء المبدعين اخترقوا كونيتها ، وهم يوهمون بالرضوخ لهـا ، بعـد أن نقلوها إلى مجال الغواية والمتعة و فككوا مغالقها وانتهكوا عِلّيتها و على أن الكتابة الصوفية هي التجاوز الممكن لصناعة اللغة ، بعد أن مزجت بين الصناعة والحلم ، محطمـة بـذلك القواعـد المتعارف عليها في بنية الأنساق ، وقوانين الربط الصوري بين الأشياء والأسماء ما حصل فـي الكتابة الصوفية من تحولات نوعية و جعلت منها توليفاً صدامياً للمحسوس والمعقول ، ومع ذلـك ظللنا عازلين لها و نافين لثوريتها ، هكذا يقول أصحاب الحداثة . بل في نظرهم أن اللغة التي لا تحترف الانشقاق والنقصان ، أي الخروج على النمطية الوهمية اعتماداً علـى أرقـى المعـارف العلمية ، عاجزة عن أن تستوعب الذات واللحظة التاريخية اللتين تحيا بهما . واللغة في الاتجـاه البنائى أعقد من المتصور المتداول ، فهي ما يركب النص زماناً ومكاناً ونحواً وبلاغة ، ويخالف الزمان الشعري كلاً من أزمنة التاريخ والنحو ، زمان الشعر متشكل من الذات والمجتمـع ولغـة الكتابة . إنه إيقاع الوعي واللاوعي ، في تجلياته التي لا ضابط لها عند القراءة الأولى غيـر أن خصوصيته تتضح عند دمج الرؤية بإيقاع التاريخ (فتح عمورية) .

فاللسانية تكسر التاريخ والقالب ، لتقدم ا رية الدلالية و كما أ ا عل بنية ا كان، فاللغة من حيث هي منطوق زمان ومن حيث خط مكان .

إن الكتابة دعوة إلى ضرورة إعادة تركيب المكان ، وإخضاعه لبنية مغايرة ، وهذا لا يتم بالخط وحده ، إذ يصحب الخط الفراغ ، وتعليق الخط بالفراغ لعبة ، الخط نسق مغـاير يختـرق اللغة ، يعيد تكوينها وتأسيسها ، ومن ثم يتضح لنا كيف أن البحث عن بلاغة جديدة للنص يستلزم اختراق الكلام و الصوت ، بالخط الذي يملك سيراً خاص لقاب المفهوم السائد للشعر ، وهو فعـل يجذر مادية الكتابة وجدليتها .

فالكتابة ث عن بلاغة مغايرة تتطلب استحداث قوان مغايرة للنص ، تتدخل لردع ا تعاليات (البنية الفوقية) أصولية وانطلاقاً دائري واستهلاك كل الدلالات تصبح كنة ، طم استبدادية ا ، الكلام نقل الكتابة من ا إ مع ا .

والنص في نظر أهل البناء ، ينتج عن طبيعة البنيات النظمية والصرفية التي تتحكم فـي تحديد المثاليات وتوزيعها إن النص بعيد عن أن يكون ركاماً من الأدلة المتجاورة فيما بينها ، بل هو نسيج معقّد لأدلة متحركة ضمن علائق ترابطية وتواردية .

وإذا كان الكلام ا ألوف ، الكلام اليومي ، الكلام الفكري تابعاً للقوان العامة ا تب لغة التواصل ب الناس فإن الشعر ترق هذه القوان و رج عليها مؤسساً لقوان خاصة ، تلك العلم ا ديث أسرارها .

ومن ثم طبيعة الترابط والتوارد داخـل النص يشكل الخروج على القوانين اللغوية العامة ، وهو نواة لتركيب النص وتعيين رؤيته للعالم .

إن التفاعل الجدلي بين النص من ناحية ، واللغة والذات والمجتمع مـن ناحيـة ثانيـة ، يعطى للقراءة خصيصتها ، فالكتابة والقراءة تسعى لتدمير الترتيب المعنوي ، وتصدع التـرابط والتوارد الصوريين ولتشبك الخبر بالإنشاء والنفي بالإثبات ، وتعيد صوغ توزيع الأزمنة تـدفع بالضمائر لمحو حدودها ، تعود باللغة إلى ما قبل الترقيم ، ترتاح لانتفاء أدوات العطف وتعـضد الحذف وترسخه و مزلاجاً مره يأتى ، ومرة فواتح مما يعرض الخبر والإنشاء ، والنفي والإثبات ، المتكلم والمخاطب فـي الأولى تشير إلى التفاعل بين الأطراف المتناقضة والمعارضة ، وفـى الثانية العقل معلقاً .

وهذا الفعل التدميرى يهيئ للقارئ حضرته ، فهو الذي يعيد تركيب المتتالية بنفسه ، يعيد تكوين النص فيما يعيد النص تكوين جسده و رؤيته للعالم ، ومن هنا تكون القراءة إبداعاً وتأسيساً للعالم .

ويستطرد محمد بنيس في كتابه (حداثة السؤال) [1] قائلاً :- (استنطاق رؤية بمعنـى أن النص يتحول إلى مجال انتشارى و يختطف الحال ويمحو المعنى، يقـوى الاسـتعارة والمجـاز وينسى التنميق ، ويفسخ العلائق الوهمية بين الأشياء والأسماء يخفى ويـضمر قبـل أن يبـوح

---

[1] حداثة السؤال بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة - محمد بنيس - ١٩٨٤م - ص ٣٦ .

ويصرح و ما هذا الاستنطاق إلا تدمير لسيادة المعنى و أسبقيته داخل الـنص ، لا المعنـى هـو الحاضر بل المعاني لا الحقيقة هي المستبدة بل الحقائق ، ومن ثم تأخذ المغامرة ، النقد ، التجربة والممارسة ، التجرد ، دلالتها).

هدف الكتابة إ بلورة مغايرة للعا تستمد ا واجهة من بنيتها ، وا تمع فاعل من وجود العا وس ورته أن الكتابة فعل رري ونزوع لعا مغاير النص وبالنص .

وفهم الشعر يتم عن طريق وثنية مانوية و الظلام والنور والخير والشر ، الأعلى والأسفل ، القوى والضعيف ، تحكمه رؤية مطلقه متعالية أن المجتمع موجود في وحدة تناقضيه وتصارعه .[٢] طرح محمد بنيس [٣] عنواناً في كتابه (حداثة السؤال) عن تعددية الواحد وطرحت الدراسـة أن بنية الثقافة العربية المكتوبة بعوائقها المتشابكة سياسياً وتاريخياً واقتصادياً و كان الواحد كاسم معوقاً أساسياً لهذا التحول والتجذر ، هذا الواحد الذي لا يتعدد ولا يقبل التعدد ، ولا شك أن هـذا الواحد محدد من قبل المتعاليات الإسلامية في صورة ضوابط شرعية وقيم أخلاقية وتراثية بـل مفهوم عقدي يحدد بنية الثقافة العربية بعيداً عن الثنائيات المتعارضة والقيم الخلافية التي انبتـت عليها البنيوية . وهذا التصور المتعالي للفاعل في الطبيعة والحضارة مترسخ في وعينا ولا وعينا ، يتجسد اجتماعياً في الأدب وسياسياً في القبيلة وثقافياً في صدى التراث ، ولغوياً في دلالة الكلمة (عرفياً) وضبط التركيب نحوياً .

---

[٢] المرجع السابق – ص ٤١ .
[٣] المرجع السابق – ص ٥٧ – ٥٨ .

حري بنا القول بأن اللغة وضعت للتواصل والتفاهم وقد نوقشت هذه القضية عند الأصوليين بقول سيف الدين الأمدي : (لما كان كل واحد لا يستقبل بتحصيل معارفة بنفسه وحده دون معين ومساعد له من نوعه دعت الحاجة إلى نصب دلائل يتوصل بها كل إلى معرفة ما في ضمير الأخر من المعلومات المعنية له في تحقيق غرضه ولذلك استخدم الإنسان ما يتركب من المقاطع الصوتية التي خص بها نوع الإنسان دون سائر الأنواع عناية من ا تعالى به ومن اختلاف تركيبات المقاطع الصوتية حدثت الدلائل الكلامية والعبارات اللغوية) . [1]

ونقل السيوطي قول الكياهراس (أن الأنسان لما لم يكن مكتفياً بنفسه في معايشة ومقيمات معاشه ، لم يكن له بد من أن يسترفد المعاونة من غيره فحينئذٍ لا يخلو من محل حاجته حاضرة عنده أو غائبة بعيدة عنه فإن كانت حاضرة بين يده أمكنه الإشارة إليها وأن كانت غائبة فلا بد له من أن يدل على محل حاجاته وعلى مقصوده وغرضه ، فوضعوا للكلام دلالة ووجدوا اللسان اسرع الأعضاء حركة وقبولاً للترداد وهو يشير في نهاية النص إلى سرعة حركة اللسان وقدرته على تعريف الصوت أداة للغة وربما يجعل الإنسان قادراً على استخدام اللغة ويدخل حديثة هذا ضمن مسلكهم في المقارنة بين اللغة وبين غيرها من وسائل الاتصال المتاحة ، وإذا راو ان للغة افضلية تجب كل هذه الوسائل وصلاحية اللغة على هذه الوظيفة ، تتعلق بضبطها ، في أن يكون الكلام واضحاً لا يحتاج إلى تخريج باطن أو تأويل ، ويقول بني حزم في الرد على دعوى أصحاب التأويل الباطن (وقد علم كل ذي عقل أن اللغات إنما رتبها ا عز وجل ليقع بها البيان ، واللغات ليست شيئاً غير الألفاظ فأذا لم يكن الكلام مبنياً عن معاينة فأي شئ يفهم هؤلاء عن ربهم تعالى وعن نبيهم (ص) ، بل أي شئ يفهم به بعضهم) . [2]

وقد تحدثوا عن دور الإعراب في توضيح المعاني بما يحقق عملية الإفهام والفهم وقالوا إنه يدخل الكلام ليفصل بين المعاني المشكلة ويدل به على الفاعل والمفعول والمضاف والمضاف إليه وسائر ذلك من المعاني التي تعتور الأسماء . تلك هي الوظيفة غير الفنية للغة سواء سميت بياناً أو إفهاماً فالمهم أنها تقوم على تسيير التعامل بين الناس وربط المجموعة البشرية برباط من الفهم المشترك ، استناداً على أن الإنسان هو الكائن الإجتماعي المحتاج إلى هذه الوسيلة هذا الإعتقاد بمراعاة فلسفة الوضع في اللغة لحاجات الأستعمال في أغراض التفاهم العادية يقابله إعتقاد مماثل بمراعاة الوضع لحاجات الإستخدام الفني . فصرح الهراسي بأنه (كان الاصل أن

---

[1] نظرية اللغة في النقد العربي – عبد الحكيم راضي – ص ٦٣ .
[2] الأحكام في أصول الأحكام – أبن حزم الجزء الثالث – ج٣ - ص ٣٩ .

يكون بإزاء كل معنى عبارة تدل عليه ، غير أنه لا يمكن ذلك لأن هذه الكلمات متناهية وكيف لا تكون متناهية ومواردها ومصادرها متناهية .

فدعت الحاجة إلى وضع الاسماء المشتركة ثم وضعوا بإزا هذا على نقيضه كلمات المعاني لأن الحاجة تدعو إلى تأكيد المعنى التعريضى ولوكرر اللفظ الواحد لسمج ومج فخالفوا بين الالفاظ والمعنى واحد وهذا أيضاً مما يحتاج إليه البليغ في بلاغته فيقال خطيب مصقع وشاعر مفلق فيحسن الألفاظ وإختلافها على المعنى الواحد توضع المعاني في القلوب وتلتصق بالصدور ويزيد حسنه وحلاوته بضرب الأمثلة والتشبيهات المجازية ، وهذا ما يستعمله الشعراء الخطباء والمترسلون ثم رأوا أنه يضيف نطاق النطق عن استعمال الحقيقة في كل اسم فأستعملوا المجازات والإستعارات . [1] وهذه هي الوجوه التي استعملتها اللغة الفنية من ترادف ومشترك لفظي وغيره .

ويقودنا الحديث عن مستوى اللغة العادية والفنية إلى القول بأصل اللغات أهي توقيف أم تواضع وأصطلاح أم أن هناك علاقة طبيعية بين اللفظ ومدلوله أو الإتجاه الذي يجمع بين التوقيف والإصطلاح . وقد توزعت هذه الإتجاهات والآراء مواقف علماء اللغة والنقد ونطرح ذلك لإلقاء الضوء على نظرتهم إلى المستوى العادي من اللغة والكشف عن العلاقة التي أرتأؤها بين هذا المستوى والمستوى الخاص باللغة الأدبية . فالبيان يذكر الطبيعة العرفية للغة ومن ثم تخصيص كل كلمة تدل عليه بحسب الوضع فلا يكون أوسع منه ولا أضيق في الدلالات ويختلف معنى الوضع عن معنى الإستعمال في دراسة البيان . فالواضع يضع اللفظ لمعنى مطابق تكون دلالته من باب الحقيقة . [2]

ويدل ذلك على الصلة الوثيقة بين قضيتي الدلالة وأصل اللغة ، وهي ما تعلل بعوامل من بينها قضية الإعجاز البياني للقرآن وما تولد عنها من تفسيرات البيان القرآني ثم قدرة اللغة العربية على تمثل القضايا والأفكار التي أحتكت بها بعد أن أنتنهت الفتوحات الإسلامية مما ولد في نفوس اللغويين قضية نشأة اللغة وعلاقة اللفظ بالدلالة . [3]

ورداً على ما قاله أصحاب الفكر التحويلي والبنائي في (المركبات) ولا نهائية الجمل نعرج إلى القول (بالوضع) فجاء في كتاب (المزهر) للسيوطي (اختلاف أهل وضع المفردات والمركبات الاسنادية او المفردات خاصة دون المركبات الاسنادية فذهب الرازي ، وابن الحاجب

---

[1] الخصائص لأبن جني – الجزء الاول - ص ٩٤ - ٩٩ .
[2] العربية معناها ومبناها – تمام حسان – ص ١٩ .
[3] اللغة نظرية النقد العربي – عبد الحكيم راضي – ص ٩٢ .

وبن مالك وغيرهم إلى الثاني ، قالوا ليس المركب بوضع وإلا لتوقف استعمال الجمل على النقـل عن العرب كالمفردات . (١)

وقد توسع البعض في المدى الذي يشمله الوضع والتوفيق فذهب ابن فارس إلى شـمول ظاهرة الترادف ، وصرح بأنه (إن قال قائل أفتقولون في قولنا سيف) . وحسام ، وعضب ، وإلى غير ذلك في أو صافه أنه توقيف . (٢)

حتى لا يكون شيءمنه مصطلحاً عليه ، قيل له : (كذلك نقول كما جعله هو وغيره شاملاً للإشتقاق وغيره قال ابن فارس (أجمع أهل اللغة إلا من شذ منهم ... أن ا لعرب تـشتق بعـض الكلام من بعض وأن اسم الجن مشتق من الإجتنان وأن الأنس مشتق من الظهور ... وعلى هـذا سائر كلام العرب علم ذلك من علمه وجهله من جهله . فقلنا هذا أيضاً . ما بني على ما تقدم من قولنا في التوقيف ، فأن الذي وقفنا على أن الجن مشتق منه وليس لنا اليـوم أن نختـرع ولا أن نقول غير ما قالوه ، ولا أن نقيس قياساً لا يقيسوه لأن في ذلك فساداللغة وبطلان خصائصها وأن اللغة لا تؤخذ قياساً نقيسه الأن نحن (٣) وقال أبن دحية في التنوير (الأشتقاق من أعـزب كـلام العرب وهو ثابت عن ا تعالى وبنقل العدول عن رسول ا (ص) فمن ذلك قوله فما صح عنـه يقول ا (يقول أنا الرحمان خلقت الرحم وشققت له من اسمي) (٤) وغير ذلك مـن الأحاديـث ومن هنا ندركا ا ن اصطلاح المفردات سواء بالوضع أو بالتوقيف في الوقت الذي يبدو صـورياً أكثر من كونه واقعياً . (٥)

ويقول الذركشي (والحق أن العرب أنما وضعت أنواع المركبات ، أما جزئيات الأنـواع فلا ، فوضعت باب الفاعل لإسناد كل فعل إلا من صدر منه أما الفاعل المخصوص فلا ، وكذلك باب أن وأخواتها أمااسمها المخصوص فلا وكذلك سائر أنواع التراكيب وإحالـة المعنـى علـى اختيار المتكلم ، فأن أراد القائل بوضع المركبات هذا المعنى فصحيح ، وإلا فممنوع . (٦)

والعرب جعلت الكلام والكلمة واللغة مواضعة ، وصرح ا بن جني بأنه كل لفظ مستغل بنفسه مفيد لمعناه وهذا ما يسميه النحويون الجمل . (٧)

---

[١] المزهر في علوم اللغة وأهدافها – السيوطي – الجزء الأول – ص ٤٠ .
[٢] المرجع السابق – ص ٩ .
[٣] كتاب اللغة بين المعيارية والوصفية – تمام حسان – ص ٦٥ .
[٤] المزهر في علوم اللغة – السيوطي – الجز ء الأول - ص ٣٤٦ .
[٥] نظرية اللغة في النقد العربي – عبد الحكيم راضي – ص ٤٩ .
[٦] المزهر في علوم اللغة – السيوطي – الجزء الأول – ص ٤٥ .
[٧] الحصائص لأبن جني – الجزء الأول – ص ١٧ .

وقد ترتب على ذلك أن اصبح الطريق إلى معرفة اللغة في مستواه العادي ليس هو العقل ، وأنما هو النقل المحض ، واستنباط العقل من النقل وأما العقل الصرف فلا محل له في ذلـك [1] وهذا بخلاف ما عليه المدرسة البنيوية .

وا ثار الدكتور عبد الحكيم راضي لماذا هذا هو الحال في اللغة العادية . وكانت الإجابة لأن دلالتها هي نتاج الأصطلاح والتواضع ولأنها كذلك فهي قابلة للفهم من جميع الناس ما دامـوا قد حصلوها بطريقة النقل ، ولأنها كذلك فإن المقصود بها واحد عند الجميع ، لأن الواضـع لـم يترك المتكلم في استخدامه العادي للغة حرية التفسير ، كما لم يسمح للسامع فرصة للتصرف فيما يسمع بأن يزيد أو ينقص من دلالة الكلام أو إفادته لأن هذه الأفادة تمنع من تطرق زيادة ونقصان ، فأنك إذا نقصت في المعني لا محالة وإن أقمت مقام كل لفظ منها ما يرادفه أمتنع أن تزداد تلـك الإفادة قوة بسبب ذلك لأن السامع إذا عرف كونها موضوعه بإزاء مفهومات الألفاظ الأول كـان فهمه منها كفهمه من تلك الألفاظ الأول أن لم يعرف ذلك لم يفهم منها ذلك المعنى ولهذا السبب لم يستعمل في العلوم العقلية إلا الدلالات الوضعية .

لعدم إحتمالها للزيادة والنقصان الموقعين في الغلط والشبهة [2] وما دام طريـق معرفـة الدلالة التوقيف أو الوضع لا العقل وأن مثل هذا التحديد يحول الألفاظ إلى أداة ميكانيكيـة تفقـد حيويتها ويشترط أن يكون محدوداً بالمستوى الوصفي الإصطلاحي من اللغة فاللغـة حقـاً هبـة ومنحة أو تعاهد مصطح عليه هذا القي دور الإنسان في الخلق ودور اللغة أيـضاً ، ومـن أجـل أشتراك الجميع في معرفة هذا المستوى من اللغة ، وهو المستوى العادي رفض النقد العربي ، أن يسبغ عليه أدنى قدر من الفنية .

ومن هذانصرف العرب عند تقيمهم للنصوص الأدبية عن القدر المتواضع عليه من اللغة ، ومن هنا كان انصرافهم عن ما يدخل في عداد المواضعات فقد تسامحوا فيها ، ولا بـن جنـي كلام كثير مؤداه أن جانب الأعراب ومواضعات اللغة ليس مما يغيير في الحكم علـى المـستوى الفني فى الشعر ، ولا هو مما ينبغي على الشاعر تجاوزه . [3]

ومـن هنا رفض الجرجاني أن يكون معنى الفصاحة تقويم الأعراب والتحفظ من اللحن ، وأن يكون هذا الإعراب معتداً به في جملة المزايا التى يفاضل بها بين كلام وكلام من الفصاحة [4] .

---

[1] الحصائص لأبن جني – الجزء الأول – ص ٥٧ .
[2] نظرية اللغة في النقد العربي – عبد الحكيم راضي – ص ٦٧ .
[3] خصائص أبنة جني – الجزء الثاني – ص ١٢ .
[4] دلائل الإعجاز – الجرجاني – ص ٣٦٥ .

ويقول (أنه لا يجوز إذا عُدت الوجوه التي تظهر بها المزيه أن تعد فيها الأ عراب كما لا يعتد فيها (بأن يكون المتكلم قد استعمل من اللغتين في الشئ ما يقال إنه أفصحها ولاياتى بكونه قداستعمل (الغريب) . [1]

ويلخص كل ذلك الجرجاني فيما رفض أن تكون المزيا في الكلام البليغ من أجل اللغة والعلم بأوضاعها ، وما أراده الواضع فيها . إذن ما هي المزايا ، أو الفنية بالمعنى الحديث ، عند الجرجاني ؟.

والمزايا في اللغة الأدبية هي صفة تختص بالمتكلم دون اضع اللغة . [2]

وهكذا أكدا بن جني كما أكد الجرجاني دور المتكلم الفرد في توجيه العبارة في تفاصيلها الدقيقة إلى حد التحكم في أشكال الأعراب من الرفع والنصب والجر ، فالعمل فيها إنما هو للمتكلم نفسه لا لشئ غيره ، وإنما قالوا لفظي ومعنوي ، لما ظهر من آثار بمضامة اللفظ للفظ ، أو بإشتمال المعني على اللفظ . [3]

وبالطبع تتجاوز نظرة ابن جني الجانب الشكل لظاهرة الإعراب ، وتتعداه إلى البعد الذهني الذي يمثل المؤثر الحقيقي وراء هذه الظاهرة ، وكذلك ذهب بن مضاء في القرن السادس ، قال أن العامل في الرفع والنصب والجر هو المتكلم . [4]

ولا شك أن لهذه النظرة خطرها على جماعية اللغة ، لأن إعتبار العامل هو المتكلم من شأنه أن يقوى النظرة الفردية إلى اللغة ، ويحولها إلى أداة فردية .

وقد أشار العرب إلى طبيعة العمل الفردي في النص الأدبي ، وهو نقد له قدرته الأدبية المتميزة يستطيع أن يتجاوز الإصطلاح ، وأعتقد العرب في هذه القدرات فشاعت كلمات الإلهام والطبع والذكاء ، وحدة القريحة والفطنة . [5]

وقد فطن بن رشيق إلى ذلك ، وبين قدرة الشاعر على تحقيق سمات أسلوبية خاصة ، فأذا لم يكن لفظ الشاعر توليد معنى ولا إختراع أو استقراق لفظ اوابتداعه ، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني ، أو نقصُ مما أطاله سواه من الألفاظ ، أو صرف معني عن وجه إلى وجه آخر ، كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة . [6]

---

[1] دلائل الإعجاز – الجرجاني – ص ٣٧١ .
[2] الخصائص الجزء الأول – ص ١١٠ .
[3] الرد على النحاة –أبن مضاء القرطوبي – ص ٨٧ – ٨٨ .
[4] اللغة العربية معناها ومغناها – تمام حسان – ص ١٨٥ .
[5] البان والتبين – الجاحظ – الجزء الثالث – ص ٢٨ .
[6] العمدة لأن رشيق – الجزء الأول –ص ١١٦ .

وكل ذلك يكون عن قصدٍ وروية وفكر ، ويقول الجرجاني (إن الفصاحة التـي يبحـث عنها هي فصاحة تجب اللفظ لا من أجل شئ يدخل في النطق ، ولكن من أجـل لطـائف تـدرك بالفهم) .[1] وأنها كلها عبارات عما يدرك بالفعل ويستنبط بالفكر وأن الفكر في الإنـسان يكـون أن يخبر شئ بشئ أو يضيف شئ إلى شئ أو يترك شئ في حكم شئ ... هذا كله فكر في أمـور معقولة زائدة عن اللفظ كما يفهم معنى قوله أن الخبر وسائر معاني الكلام معاني ينشئها الإنـسان في نفسه ويصرفها في فكره ويناجي بها قلبه ويرجع فيها إليه ، وأن الفائدة من العلم واقعـة مـن المنشئ لها ، صادرة عن القاصد إليها) .

ومن هنا نتبين أن لا فنية بغير المتكلم فهو الذي يخرج علامات اللغـة مـن إطارهـا الإصطلاحي إلى أفاق لأنهائية من لغة النص فالنظم والترتيب عمل يعمله مؤلف الكلام في معانى الكلمات لا في ألفاظها وفي هذا الصدد يقول عبد الحكيم راضي (ومن المنطقي أن وقـوف النقـد العربي عن قدرة ذهنية خاصة يمتاز بها الشاعر وكذلك ترتيبه على هذه القدرة إمكانيات ينفرد بها في مجال الأنشاء) .

وقصر الوصف بالفنية على ناتج هذه المقدرة دون ما يكون حصيلة للمواصفة . كل ذلك دلائل على تبين النقاد العرب لهذا البعد من أبعاد العلاقة بين المستوى العادي من استخدام اللغـة وبين المستوى الفني ، وأعنى إصطلاحية الأول وعرفيته وشيوعه ، وفرديـة المـستوى الآخـر وخصوصيته) .[2]

فصفات الأستخدام العادي للغة التي تدور حول الإحتكام إلى المواضـعة والإصـطلاح وعليه الإستعمال فأنهم ساقوا اضدادها تماماً كصفات المجاز ، العنصر الجوهري في الإسـتخدام الفني ، ومحور هذه الصفات على التواضع ، فالمجاز عدم الإستسلام للوضع ، وهـو خـلاف الوضع وهذا هو المعنى الذي ارتبط بالكلمة منذ ظهورها إلى محيط الإستخدام العام .

وغلبة الإستعمال في حالة الحقيقه الشرعية والعرفية مقصودبه تمييز هـذا النـوع مـن التحول من دلالة الألفاظ الى آخر هو التحول إلى المجاز .[3]

وللمجاز عند العرب أنواع من التحول في التراكيب التي تبدأ من أنفعالية إلى نحويـه ، ويشير فندريس إلى هذه النظرة على التحول في التراكيب التي تبدأ في الأصل إنفعالية في مقابـل تراكيب نحوية أقدم لها نفس المعنى ثم يحدث أن تفرض الثانية نفسها على الأستعمال إلى حـدٍ أن

[1] دلائل الإعجاز – الجرجاني – ص ٣٦٥ .
[2] المرجع السابق – ص ٤٥٣ .
[3] المرجع السابق – ص ٣٧٨ .

يستعاض بها عن الأولى ، فتصير نحوية بعد أن كانت إنفعالية ، وتتخذ العملية عنده شكل قـانون يقضي إلى كون الأستعمال النحوي الأخير قد تطور من الأستعمال الأنفعالي ومثاله علـى ذلـك أسلوب التكرار الذي بدأ في الاصل كوسيلة أنفعالية ، ثم تحول إلى سياسة نحوية . (١)

وقادت الفردية الأدبية عبد القاهر إلى القول بأن الإعجاز في أي مظهـر مـن مظـاهر المواضعة في اللغة يقول أنه (لا يثبت إعجاز حتى تثبت مزايا تفوق علوم البشر ، وتقصر قـوى نظارهم عنها .

ومعلومات ليس في سنن أفكارهم وخواطرهم أن تفضي بهم إليها وأن تطلعهم عليهـا ، وذلك محالٌ فيما كان علماً باللغة) .

وبهذا أكد البحث عن المستوى الفني في اللغة بأظهاره وتخليصه من شوائب الإصطلاح والشيوع ويمثل حجر الزاوية فى ا لتقاش الدائر حول كثير من القضايا وعلى وجـه الخـصوص قضية الإعجاز وقضية اللفظ والمعنى ، وخاصة هجوم الجرجاني على اللفظ مرة والمعنـى مـرة أخرى محاولة لإستبعاد كل ما هو من قبيل الشيوع والإصطلاح . (٢)

ولا شك أن اللفظ والمعنى والإختيار والنظم من خصوصيات اللغة الفنية التي يبتكرهـا العقل الأدبي الذي يضطلع به الأديب ، وتمكنه من ذلك صحة الطبع ، لذلك تصبح اللغة الأدبيـة ذات فردية وخصوصية .

بنية اللغة والعالم :

ونحن في معرض حديثنا عن اللغة المثالية واللغة الفنية نسبر غور هـذين المـستويين لنبين علا قة اللغة بالعالم الخارجي فقو لنا بأطراد اللغة يعني القول بالا نفراد والمثالية في جميـع جوانبها مما يتعلق بثبات الدلالات ومراتب الكائنات وفضلاً في اعتماد المقولات المنطقية وإتخاذها أعلى أبواب النحو ، بل قد ذهبوا فيما يتعلق بالتقديم والتأخير بين الألفاظ إلى أنـه قـد يخـضع لإعتبارات غير لغوية ، كما للمنزلة التي يحتلها المسمى في واقع الحياة .

وقد صرح الزجاجي (بأن للاشياء مراتب فـي التقـديم والتـأخير أمـا بالتفاضـل أو بالإستحقاق أو بالطبع أو على حسب ما يوجبه المعقول . (٣)

والسؤال الجوهري هنا إلى اى حدٍ نستطيع أن نستدل على طبيعة العالم الخـارجي مـن طبيعة اللغة التي نتحدث بها عن ذلك العالم ، وقد أجابت العرب على هذا السؤال بأن في الإمكان

---

[١] المرجع السابق – ص ٤٧٥ .
[٢] دلائل الإعجاز – الجرجاني – ص ٢٥١ .
[٣] نظرية اللغة في النقد العربي – عبد الحكيم راضي – ص ١٣٥ .

فعلاً أن نتساءل على خصائص العالم من خصائص اللغة ، فأن كان تركيب الجملة مثلاً لا يكـون إلا بتضافر جانبين هما :-

المسند إليه والمسند ، فلا بد أن تكون أشياء العالم على هذا النحو من التأليف .

قد تأثر بهذا الفكر العربي ، وشارك فيه عدد من الفلاسفة العرب من بينهم أبي حيـان ، والفارابي ، الذي وقف إلى إمكان التطابق بين اللغة والعالم ، وبالتالي إمكان أن نستشف أحـوال العالم من اللغة ، يقول : (أن تركيب الكلام يلزم أن يكون مساوياً لكل ما في العـالم مـن نبـات وحيوان وحجر ، وتبدأ هذه العلاقة من جهة أخرى يقول (أنظر إلى الحروف كيف وضعت علـى الطبائع وإلى الطبائع كيف وضعت على الحروف . أن موجودات الطبيعة هي إما حيوان أو نبات وهذه كلها مركبة من العناصر الأولية الأربعة ، النار والهواء ، الماء والأرض ، وكل عنصر من هذه العناصر يتألف من أتحاد أثنين من الكيفيات الأربعة :-

الحرارة والبرودة والبيوسته ، فتكون النار ، فإذا عرفنا أي الحـروف دال علـى هـذه الكيفية أو تلك عرفنا أي الحروف الدالة على العناصر الاربعة ، ونوازن بين الحروف والطبـائع وهذه خطوة في الموازنة بين اللغة والطبيعة وبين الكيفيات الأربعة في الطبيعة والحروف المفردة في اللغة ، ثم المقارنة بين الكلمات والكائنات وكان لهذه الأفكار صداها في طبيعة العلاقة بـين الصوت والمعنى وذلك ما نجده عند ابن جني في باب (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) ويقـول (أن أكثر كلام العرب على هذا الباب ، ومنه أقتراب الأصليين الثلاثين نحو (رخوة) ورخو . ثـم يقول أن هذا الضرب مما تتقارب فيه الحروف لتقارب المعاني نحو (تؤزهم) و (تهزهم) فالهمزة أخت الهاء وتقارب اللفظين لتقارب المعنيين إلا أن الهمزة أقوى من الهاء ،مـن هنـا نـستعمل (تهزهم) في معنى الإزعاج بصورة أعظم من الهز) ومه (العسف) و (لاسف) وقد ترى تـصاقب اللفظيين لتقارب المعنيين) .

وكذلك نجد الفكرة في حديث عبد القاهر عن وجوب المحافظة على العلاقة في المجـاز بحيث يقع على وجه لا يعرى معه من ملاحظة الأصل ، يقول (معنى الملاحظة أن الاسم يقع لما يقول إنه مجاز وفيه سبب بينه وبين الذي تجعله حقيقة فيه ، لأجل أن الإعتبارات اللغويـة تتبـع أحوال المخلوقين وعاداتهم ، وما يقتضيه ظاهرة البنية وموضوع الجبلة . [1]

ومن المجازات التي يتضح فيها الإعتقاد بمجئ اللغة طبقاً لأحوال العالم النقا ش الـذي دار ما إذا كان اللفظ موضوع بإزاء المعاني الخارجية أو بإزاء الصورة الذهنية أو الصورة التـي

---

[1] أسرار البلاغة – الجرجاني – ص ٣٦٥ .

تصورها الواضع في ذهنه عند إرادة الوضع وليس بإزاء الماهية الخارجية ، فأن هذا الرأي هـو المختار . وإختار بعضهم أن الألفاظ موضوعة بإزاء الماهيات الخارجية ، وذهب آخر على القول بدراسةقواعد الوضع مع المعاني الذهنية وعلله بالإعتقاد بأنها في الخارج كذلك ولـيس لمجـرد إختلافها في الذهن . [٢]

ولذلك هاجموا القول بمالمناسبة الطبيعية بين اللفظ والمدلول ، لأن ما يعنينا هو الإعتقاد ، أو القول بمجئ اللغة وفقاً لأحوال العالم بصرف النظر عن الوضع . وتم التقاء الفلسفة بالمنطق في إتجاه الموازنة بين مواصفات اللغة وبين واقع الكون وظهر ذلك فـي تـأثر الفكـر العربـي بالمنطق الأرسطي إلى محيط التأكيد في اللغة والنحو ، ولاحظ أن هذا الأثر يبدو من جانبين اثنين :-

أولهما : جانب المقولات وتطبيقها في التفكير النحوي العام .

ثانيهما : الأقيسة والتعليلات في المسائل النحوية الخاصة والجانب الأهـم فـي اسـتغلال هـذه المقولات بالتطبيق على الدرس النحوي ما يشير إلى قياسهم اللغة علـى أحـوال العـالم وهـذه المقولات تشير إلى صفات أو أحوال يكون عليها الكائن وأنها تعني أن له جـوهروكم وكيـف ، وزمان ومكان ، ويدرك في وضع معين . وهذا ما يد فع إلى القول بأن مباحث لغويةو نحويـة ، كالعدد والحال ،والظرف وفكرة الرتبة في التقديم والتأخير لا تنفصل في تصورهم عن مقـولات الكم والكيف والزمن والمكان والمتى والأين . وتعريفهم للمتى بأن حصوله في المكان والوضـع بأنه هيئة تفرض على المنشئ بإعتبار نسبة أجزائه بعضها إلى بعض أما الإضافة فيقولون إنهـا النسبة العارضة للشئ بالقياس إلى أخرى كالأبوة والبنوة وملكية زيد لكذا ومملوكية كـذا لزيـد ، ويتضح ذلك في أن الأشياء التي يقع بها الوصف تسعه :-

وهي أعراض كلها ، فمنها الحال كقولنا (زيد ظريف) ومنهـا العـدد كقولنـا (المـال درهمان) ومنها المكان (زيد خلفك) ومنها الزمان (جاءني زيد أمس) ومنها الإضافة كقولنا (هـذا مالك وغلامك) ومنها النصبة كقولنا (زيد مضجع وقاعد) ومنها الفاعل كقولنا (يضرب زيد) ومنها المفعول ، كقولنا (زيد مضروب) ولا يكون وصفاً بغيرهذه ا لتسعه .

وقد نجد مقارنة بين ظرفي الزمان والمكان تشير إلى قياسهم لهذه المقولات اللغوية على أحوال العالم الطبيعي ، وواضح من ذلك أن تصور مفردات اللغة جارية علـى حـالات الكـون وظواهره وكيف تعال بعض مجريات البحث في الإلفاظ وتصرفها بعلل طبيعية مما يظن متابعـة

---

[٢] المزهر في علوم اللغة – السيوطي – ج١ - ص ٤٢ .

اللفظ لقوانينه ، وهو القول الذي يذكرنا بكلام تمام حسان وهما الفاعلية والقابلية ، مسؤولتان إلى حدِ كبير عن أهم أساس من أسس النحو العربي وهي نظرية العامل ، فأذا كان الشئ أما فاعلاً قابلاً فلماذا لا تكون الكلمات كذلك ، ولماذا لا يكون بعض الكلمات عاملاً في بعضها الآخر ؟ .

حتى المعاني جوز النحاة لها أن تعمل الرفع وهذا تطبيق لقوانين العالم الطبيعي وتحكيمها في فكرة العامل النحوي أو أستنباط فكرة العامل النحوي منها ، وإن العرب أخذوا بنفس المبدأ في كثير من وجوه التعليل التي ذهبوا إليها ، مما يتعلق بتبرير أثار الأعراب والتي غزوه إلى فكرة العامل ، إذْ راحَو يقيسون حالاته المختلفة ، في ظهوره وحذفه وعمله بشكل مباشر على مثل وسنن مستمدة من أعراف العلاقة بين مفردات الخلق في العالم . ومن ذلك حديث سيبويه عن قولهم (زيدٌ لقي أخاه) برفع زيد ، يقول : (وإن شئت نصبت لأنه إذا وقع على شئ من سببه فكانه قد وقع له ، والدليل على ذلك أن الرجل يقول : (أهنت زيداً بإهانتك أخاه وأكرمته بإكرامك أخاه) وهذا النحو في الكلام كثير ، ويعقد بن جني مقارنة بين مساك العرب في أستعمالها إلى ما رفضته إستغنائها بغيره) ، وبين إجتماع الضدين على المحل الواحد وذلك لأنهما إذا كانا يعتقبان في اللغة على الأستعمال جريا مجري الضدين اللذين يتناوبان المحل الواحد ، فكما يجوز إجتماعهما عليه ، فكذلك لا ينبغي أن يستعمل هذان ، وأن يكتفي بأحدهما عن صاحبه كما يحتمل المحل الواحد الضد الواحد دون مراسله ، ونظير ذلك ما يعتقدونه من مضادة الفناء للأجسام فتضادهما أن ما هو على الوجود لا على المحل ألا ترى أن الجوهر لا يحيل إلى الجوهر بل يتضمنه في حالة تضاد لا المحل واللغة في هذه القضية كالوجود واللفظان المقام أحدهم مقام صاحبه كالجوهر وفنائه ، فهما يتعاقبان على الوجود لاعلى المحل كذلك الكلمتان تتعاقبان على اللغة والإستعمال . [1]

النقد الألسني :

يتسم النقد الطليعي بولع يصل إلى درجة الهوس بالسيمولوجيا أو ما يسمى بعلم العلامات ، ولذلك سمى (بالنقدالسيمولوجي) يتميز هذا النقد السيمولوجي بأنه يقوم على نظريات منبعثه من علم الألسن أصلاً فتغدونظريات سوسير عن النحو التحويلي أو نظريات تشومسكي عن النحو التوليدي ، نقطة لإنطلاق بحوث نقدية أدبية والنتيجة الحتمية لهذا الإتجاه هو آن (الأدب) كأدب ، اصبح ثانوياً في النقد الأدبي وأمست الدراسات النقدية الحديثة ترفض الإكتفاء بالنصوص الأدبية وتتعداها إلى أعمال إبداعية غير أدبية ، وقد أدى هذا التشعيب إلى التركيز على ظاهرة التوصيل

---

[1] نظرية اللغة والنقد العربي – عبد الحكيم راضي – ص ٣٧٩.

والإتصال بصورة عامة وحتى النقد الحديث لم يكد يشغله المضمون أو الشكل أو البنيـة ، بـل أصبح هدف النقد عملية ذهنية هي الإدراك والتواصل وكثيراً ما ينسى الناقد أو يتناسى خصوصية الأدب أخطر من ذلك أن يسطح الناقد علملية الادراك ويحولها إلى مجرد عمليـة للإسـتيعاب ، ويحول عملية التواصل إلى مجرد عملية تفسير ويكشف ويركب الدلالات بشكل نـسقي ، وهـذا الإتجاه البنائي قديم في الفكر الغربي منذ الرواقيين والقدس أوغسطين . فالبنيوي يـرى أن اللغـة قادرة على خلق الإبداع والـدلالة منفصلة في المرجع ، فتصبح الغاية من إنتاج الدلالة لا لغرض تمثيل الواقع ، بل لغرض إنتاج سلسلة لا متناهية من إنتاج العلامات والدلالات .

وأهميتها البنيوية بإعادة القراءة (السيموطبيقا) قراءة النظرية أو نظرية القراءة ، والغاية في التلاعب والتوليد دفع القاري للإستقراء ولا شك أن موضوع القراءة يمثل التفاعل بين الـنص والإستعداد الأدراكي للقارئ ، ولكنها ليست أستعداداً فطرياً والنص عندهم منظومة متكاملة تسمح بقراءات غير متناهية ، ويشيروا إلى أن النص حدث معين متواصـل ومـرتبط باللغـة والأدب ونلاحظ هنا ثنائية جديدة للنص بوصفه حدثاً ، والأنص بوصفه لغة ، وهي تلمـح إلـى أشـارة سوسير اللغة والكلام أو البنية والحدث .

وذلك يجعلنا شير إلى الثقافة المشتركة وأن المعاني المحددة في النص لا تشرحه ، وأن السياق الثقافي النفسي لا يحدد المعاني لأنه لا يمكن تعريف الإطار الثقافي إلا من خلال تعريـف الأعراف السائدة ونظمها ، هذا لا يتم إلا من خلال تعريف الآخر المتعارف عليه وهكذا كـل أداة تعريف تصبح معرفة لإعادة تنظيم مستمرة في عملية التعريف ، وهذا يعني من الوجهة العلميـة أننا لا يمكن أن نحيط بمعنى النص لأن معانيه لا متناهية ، أو أننا لا يمكـن أن نحـصر معنـى النص في لغته الخاصة . (١)

إن نظرية القراءة تعتمد على التمييز بين النظرية الشفرات أو منظومة الدلالـة ، وبـين نظرية الإتصال أو إنتاج الدلالة ، وأن الأولى تسبق الثانية ، فكل أتصال أو إنتاج دلالة لا بـد أن يستمد وجوده من منظومة دلالية أو شفرة والشفرة تشكل أسقاطي آني لمجموعة ثقافات متعـددة ، وهـذا التشكيل ينمو من خلال الممارسة والتكرار ، فالشفرة ليست بنية ثابتة وليست قانوناً طبيعاً ، وإنما هي حدث له وظيفة تاريخية ، فالقراءة دور خاص في تعديل الشفرات . والشفرة عنـدما تستنفد طاقتها وتشبع بقراءات مختلفة ، تصبح قابلة للتعديل والتغير .

---

[١] مقال بعنوان عرض الدوريات الأجنبية – د. فريال غزال – مجلة فصول .

فالشفرة شئ متحرك يمكن تحويله من خلال أشباعه بالتغييرات ، إذ بعد تعـدد المعنـى تواجهنا مرونة الشفرة ، من الأسس الثابتة في النقد البنيوي . [٢]

وهنا نورد تساءل حمودة [٣] (فلوا أفترضنا أن الناقد البنيوي نجح إلى درجـة مـا فـي الوصول إلى قوانين عامة تحكم النشاط إلا بداعي فماذا يكون مصير نص جديد لم يلتـزم بهـذه القوانين ويخرج عليها ، والإجابة عن هذا التساؤل تمثل تاريخ العلاقة بين النـشاطين الإبـداعي والنقدي ، حينما يجئ إلى الوجود نص جديد يخرج عن تلك القوانين ويفرض قوانينـه هـو ، عندها يبدأ النص من جديد وهكذا إلى ما لا نهاية) .

النص الأدبي يتسم بالغموض والتمحور الذاتي لأنه ينتهك الشفرات المتعارف عليهـا ، ويدفع القاري إلى إستكشاف المعنى وإلى محاولات تفسيرية جديدة مما يثرى الشفرة ويغنى الثقافة ويؤدي إلى التحول .

وبالتالي يصبح كل نص صالح للقراءة حتى ولو لم يلتزم بأعراف القراءة إلا أنه تجاوز الشفرات فهو نص مبدع فالقاري أصبح مهما لا في التفسير فقط بل في تركيب الشكل ومـن ثـم التحولات وفي أبداع نصوص جديدة ؟ .

فالقراءة مستوى يليه التكهن المنطقي أو السردي او الإسقاطي ويتصور الناقد البنيـوي أن أحد الأركان الأساسية لمفهوم النص قائم على أن النص تجسيد أو تجلي للبنية اللغوية في مادة ما ، هذه البنية هي أصل النص وحاملة معناه ، من ثم يلعب النص دور أظهار البنيـة ، ويرجـع هذا المفهوم إلى تمييز سوسير بين اللغة والكلام وإلى نظرية الإتـصال ، وكانـه حلقـه وصـل وظيفتها تبليغ جوهر المعنى إلى المرسل إليه ونلاحظ هذا الصراع قديم بين الشكل والمضمون [١] ، إلان المضمون سيصبح بنية مجردة متحققة في النص .

ونلاحظ أن الشكلين الروس بتركيزهم على النص وإستقلاليتة قد جعلوا المنظور النقدي من هجل إلى كانت ولكن مدرسة براغ قد حولت مفهوم النص من مادة مستغلة إلى مادة تعبر عن اللغة ونسقها النظامي . ونفهم النص على أنه يحمل في ثناياه لغتين أو شفرتين ، وأن المعنى فيها لنص يكون حصيلة التشابك والتفاعل ولذاك تكون إحتمالات التغيير في النص إلا بداعي أغني مما هي في النص العادي ، لان النص الإبداعي يولد فالنص الإبداعي يولد المعنى أنه المكـان الـذي

---

[٢] المرآة المحدبة – د. عبد العزيز حمودة – ص ٥١ .
[٣] المرآة المحدبة – د. عبد العزيز حمودة – ص ٥١ .
[١] قضايا النقد العربي الحديث – د. محمد ربيع – دار الفكر للنشر والتوزيع الأردن الطبعة الأولى (١٩٩٠) – ص ١٨ – ٣٤ .

تنصهر فيه شفرتان مولدتان للمعنى فالنص الإبداعي أغنى من اللغة اللسانية ، وأن النص كما يولد من اللغة اللسانية يولد في لغة شعرية . [٢]

وبناءً على إهتمام النقد البنائي الألسني بالشكل ، فقد أنصرفت أنظـارهم إلـى الـصور المجازية أقتداء بمقولة نيتشه (الصور البلاغية جوهر اللغة ، كما أن من الممكن أن يحل مكانهـا تعبير آخر ، فهي تنظيم تحت نظريات استبدالية تهتم بالتساوي بين مـدلولين حقيقـي والآخـر مجازي وقد استمر ذلك في النظريات الحديثة فهي تعد الصورة إنحرافاً عن المألوف أو المعيـار وهذه الفكرة نفسها عرض لآراء أرسطو على فكرة ظهور معنى مجازي مكان معنى حقيقي وبين المعنيين تتولد علاقة تكافؤ ، وهذ العلاقة التي ندرسها في بنية الكلمات المركبة .

وبذلك يمكن القول أن العلاقة والرمز مبدأن مجردان يحققان في اللغة اللفظية الـصورة والكتابة .

والبنيوية ترى أن مبدأ التجربة اللفظية مختلفة عن مبدأ التجربة الكتابية ، فالكتابة ليست تصوير للكلام ، ولكنها تحويل له وهي وسيلة للسان ومن ثم فأنها علامة على الكلمة الملفوظة أي مجادلة لربطها فإن العلامة تعبر عن محورا اللغة ، الأفقي والراسي عن الصور التي هي جـنس يحمل المعنى ، يربط بين المدلول الظاهري ، والمدلول الواقعي .

والاشكال الجمالية تعبر عن رؤية العالم وتفهم هذه الأشكال يربط بين تطور التـصوير الحديث وتطور النقد الأدبي الذي يكسر تتابع السياق والتعاقب الزمني لإبعاد كل عمق تـاريخي ، وذلك لخلق عالم لا زمني شبيه بالخرافة . وهكذا يعكس حالة عدم الإستقرار التي ترهق الإنـسان المعاصر . ولقد كان لهذا الإتجاه صدى في ظهور كتابات عشوائية أو كتابات مجنونـة تبلـورت فيها الرغبة في خلق لغة متحررة من القيود ، وذلك عن طريق إختراع الفاظ أو تركيبات نحويـة وأشكال كتابية غير مألوفة وتبدو هذه الكتابات المغرقة في الرمزية كأنها تتعامل مع العلاقة لأمن أجل المعنى الحرفي أو المقصود ، بل من أجل خلق حيز تختلط فيه اللغة بالعالم المحسوس ومـا النص إلا مجاز علاقته بين المنقول منه والمنقول إليه هي الحالة النفسية الواحدة في كل . [١]

تداخلت البنيوية مع السيمولوجيا للدراسة الدلالية الأدبية ، ولا تنـسى أن الـسيمولوجيا كانت وليدة علم اللغة الحديث ، فتأثرت البنيوية مباشرة بهذا العلم ، فأقتبست منه نموذجاً لدراسـة النص .

---

[٢] مقال بعنوان عرض الدوريات الأجنبية – د. فريال عزال – مجلة فصول- المجلد الأول العدد الثاني (١٩٨١م) – ص ٧٩ .
١ الدوريات الفرنسية – هدى وصفي – مجلة فصول – المجلد الأول العدد الثاني (١٩٨١م) .

هذا من ناحية وظيفة هذا العلم عند البنيويين ، أما منهجه فيختاف بحـسب الإصـطلاح الوارد ، فالسيمولوجيا التي وضعها سوسير منهجاً يمكن تطبيقه في علم النفس وعلـم الإجتمـاع ، وقد طبقها إستراوس في علم الإنسان ، أما السيمولوجيا فأنها نظرية في المعرفة وثيقة الأرتبـاط بالميتافزيقيا ولا يمكن أن تنطبق على غير الأدب ، وهي تنشد النصوص التي بها حركـة هـدم وبناء مستمرين والنصوص التي تقبل التفسير أو محاولة تفسير غير قابلة للتوقف . [٢]

وهذا الصورة السيموطقيا حركة ذهنية الغرض منها الوصول إلى درجة الـصفر فـي الكتابة ، وهي حركة نقدية معاصرة تحرر الإنسان عن طريق الكتابة ، وهذا النقد الطليعي يمثـل آخر حلقة من حلقات التقدم التي ملكت كل شئ حضاري ورأت أن ترجع إلى عـصر الوحـشية والهمجية أو البكارة الأولى للصورة الأدبية من الفن والفكر والحياة .

يمكن القول أن تداخل الدراسات الأسلوبية مع النقد الأدبي واللسانيات فجر مسلكاً بحثنا حديثاً ، وهو البيوطتقيا الجديدة التي تصلح لها عبارة الشعرية وتسمح بترجمتها فتسمى (إنـشائية) أو علامية الأدب أو علم العلامات . [١]

أذدوج مع هذا المصطلح (علامية) العلم الذي يعني بدراسة تأليف الظواهر التي تـستند إلى نظام علامي إبلاغي في الحياء الإجتماعية كنظام الأزياء والموضة ، وغير أن لفظ العلاميـة عاد إلى عالم اللغة وبالتحديد إلى مناهج النقد الأبي فتولدت علامية الأدب فهي تسعى إلى إقامـة نظرية في توعية الخطاب الإنشائي بإعتباره حدثاً علامياً ، أي نظاماً من العلامـات الجماليـة ، وميزة العلامة الجمالية أنها قائمة بنفسها ليست وسيطاً دلالياً . [٢]

ما العلاقة بين البنيوية والسيمولوجيا ؟ .

أعتبرت البنيوية الأدب فعل أو نظام من الأفعال وليس شئ يدرك أو راكاً حسياً فهـو فعل مـن نوع خاص وهو النوع الرمزي فلا يمكن أن تتصور بدون نظام يميـز الرمـوز عـن بعض ، حتى لا تختلط دلالتها .

ولا شك أن هذا النظام في نظر البنيوي صورة عقلية مجردة ، رموز خاضـعه لـنظم عقلية مجرد ، إذن فالعلاقة بين البنيوية والسيمولوجية أنهما منهجان لدراسة الوقـائع الإجتماعيـة والأعمال الأدبية بإعتبارهما رموز خاضعه المظم عقلية مجردة ، فالكلمتان مترادفتان .

---

[٢] مقال بعنوان موقف من البنيوية – د. شكري عياد – مجلة فصول – المجلد الأول العدد الثاني – (١٩٨١م) .
[١] البنيوية التكوينية – ترجمة محمد سبيلا – ص ١٤٥ - ١٤٨ .
[٢] الأسلوبية والأسلوب - عبد السلام المزدي – ص ١٨٢ .

أما النقد البنيوي أو علم الأدب فرعاً من فروع السيمولوجيا ، يحمل وأجهاً وأحداً وهـو البنيوية . [٣]

بذلك أتجه النقد البنيوي إلى مقارنة بين ما قاله سوسير في تفرقته بين اللغـة والكـلام وبين إعتبارهم الرموز نظماً عقلياً مجردة متحققة في (الأدب) بإعتباره نظاماً رمزياً تحـت نظـم فرعية تسمى الأنواع الأدبية ، وبين الأعمال الأدبية التي هي نصوص متحققة يمكن أن تمثل هذه النظم بكيفية . (ما) .

والحق أن المقارنة تظهر جلياً في أن علم الأدب في التصور البنيوي أو الـسيمولوجي ، كان لا بد له ليكون علماً وصفياً أن يتخلى عن إعتبار القيمة الجمالية ، ومن ثم أضطر أن يـربط القيمة الجمالية بالتغيرات التاريخية دون أن يجعل لهذه التغيرات مكاناً ظاهراً في صياغه قوانينـه فالسيمولوجيا أعطت النبيوية الصفة العلمية التي تنشدها بإعتبار أن النظم الرمزية للأعمال الأدبية أصبحت بنية ثابتة ، ومسلمات رياضية تقاس بها وتحال الأعمال الأدبية المتحققة ، فالنظم الرمزية كاللغة والأعمال الأدبية كالقول المتحقق فعلياً في الأدب .

ولكن السؤال الذي نطرحه ، إذا كانت اللغة نظماً فطرية أرغمنا متعاطيه أو مـستخدميه على الوحدة بناءَ على هذه الملكة الفطرية كنظام من أنظمة المخ ، هل يمكـن أن تعتبـر (أدبيـة الأدب) أو النظرية الشعرية كقانون جمالي عام إعتماداً على تحليل عمل أو أعمال معينة حتى ولو كان هذا التحليل بارعاً . إذن لا توجد طريقة لكتابة يتحتم أن تحدث عند أستخدامها تجربة جمالية .

ومعنى ذلك أن طريقة (ما) في الكتابة يمكن أن تكون لها قيمة فنية في عمل مـا ، ولا تكون لها هي نفسها مثل هذه القيمة في عمل آخر ، فإذا اختلفت وظيفة شكل ما في عمل إلى عمل فلابد من إحدى طريقتين :-

(١) إما أن نهمل هذا الشكل مع أنه يقوم بوظيفة في بعض الأعمال الأدبية .

(٢) وإما أن نعده داخلاً في أدبيه الأدب لأنه لا يمكن أن يقوم بوظيفة أدبية ، مع أنـه يمكـن أن يوجد ولا يكون مؤشراً ففي الحالة الأولى ، اسقطناه عن البنية الأدبية العامة ، وفي الحالة الثانيـة اقحمناه على هذه البنية مع أنه يمكن أن يكون محايد .

---

[٣] مقال بعنوان موقف من البنيوية – د. شكري عياد – مجلة فصول – المجلد الأول العدد الثاني يناير (١٩٨١م) – ص ١٩٤ .

فلم يبق إلا أن يوصف الشكل الأدبي داخل العمل الذي جاء فيـه فعـلاً ، وإلا فالبنيـة المجردة تعدوا أن تكون افتراضات وإختيارات متضادة للحيل الفنية . وهذه تلك يمكن أن تفيد في توجيه النظر إلى جوانب معينة في العمل الأدبي ولكنها لا تكون بنية أدبية عامة . [1]

وتوصل البنيويون إلى التحليلات اللغوية الكثيرة التي حاولوا فيها أستقصاء أنواع التناظر اللغوية ، للحصول على بنية عامة . جهد ضائع أو أن استخراج بنية أدبية عامة قد تبـين فـساده على يد البنيويين فيعلنان أن كل عمل أدبي له قانونه ، وبذلك يؤكدون أن للإنسان وضعه المتفرد في الكون الذي يحتم أن يكون للعلوم الإنسانية منهجها الخاص وأن اللغة الأدبية لغة نقصد إلـى التأثيث وهذه (العقيدة) تحتم ألا تلتفت عند تحليل نص أدبي ما إلى تلك الأنواع التي ترجـع إلـى اللغة العادية .

ولما كان النص الأدبي مقصداً من مقاصد البنيوية وكانت البنيوية منبعاً خصباً للـرؤى الموغلة في التجريد الشكلي إلى حد التوسل بأساليب المنطق الصوري أحياناً فقد قامـت بعـض المناهج في النقد العربي تمارس الخط البنيوي وتستوحي الممارسة اللغوية فـي بناءهـا الـشكلية فامتزج الصوري بالأسلوبي وأشتبه الأمر على كثيرين .

علم اللغة والأسلوب :

يسعى اللغويون جاهدين في أن يبتعدوا عن النقد الأدبي لأنهم يرونه لسانياً تقيمياً ، فأنهم عادوا إليه من باب آخر ، وهو علم الأسلوب ، حين حاولوا تفسير النص لغوياً بإسـتخدام أدائيـة اللغة ، في النص ؟ .

ويرى اللغويون أن النقد الأدبي درس (تقييمي) يقوم على الانطباعات الذاتيـة ، وعلـى (الحدس) ، ومن ثم فهو يقدم مقاييس موضوعية ، للعمل الأدبي ، من أجل ذلـك يقـدمون (علـم الأسلوب) ليكون الخطوة الأولى أمـام الناقد ، تضع بين يديه المادة للغوية مـصنفه تـصنيفاً ، لعلها تساعد على فهم العمل فهماً أقرب إلى الموضوعية ومعنى ذلك أن علم اللغة يطبق (فنـون) البحث اللغوي على النص الأدبي ، وخاصة مستويات التحليل .

وهنا لا بد من أن نبين مدى الفرق بين علم اللغة وعلم الأسلوب ، ونجمل الفرق بينهمـا أن علم اللغة يقصد اللغة العامة التي لا تميزها خصائص فردية ، أي أنه يقصد اللغة ذات الـشكل العادي ، مما يستخدمه المجتمع أداة للتواصل ، ولا شك أن نظرية تشومسكي نظرية وصفية أيضاً نتيجة نحو المتكلم السامع المثالي Ideal speaker herer في مجتمع لغوي متجانس يعرف لغته معرفة

---

[1] مقال بعنوان موقف من البنيوية – د. شكري عياد – مجلة فصول – المجلد الأول العدد الثاني يناير (١٩٨١م) – ص ١٩٦ .

كاملة ، وهدف علم اللغة هو أن يصف اللغة ويبين كيف تعمل وهو لذلك يتحرك مـن (الخـاص) إلى (العام) ومن (الجزئي) إلى (الكلي) دون أن يلغت بالاً إلى الإختلافات النوعية بين الأفـراد . ويقول عبده الراجحي (والحق أن علم اللغة بإصراره على الطبيعة العلمية ، قد أحال اللغـة إلـى شئ كالماء لا طعم له ولا رائحة .[1] ، وإذا كـان علم اللغة يدرس الإنماط العامة للغـة ، فـأن علم الأسلوب يقصد اللغة على المستوى الفردي ولغة الأدب هي نمط من أنماط الأسـلوب لأنهـا تنوع اللغوي فردي .[2]

والسؤال الهام في هذا الصدد ، ولا سيما والبنيوية تفرض قوالبها ، إذا كانـت الفرديـة صفة ملازمة لكل عمل أدبي ، فلا يمكن فصل أدبية العمل عن فرديته ، ومن ثم لا يمكن الحديث عن بنية تخضع لها كل الاعمال ، او صنف واحد منها حديث له قيمة ، وقد شعر البنيويون بذلك ، فرأيناهم في السنوات الاخيرة يفضلون ان يسموا انفـسهم سـيمولوجيين ، ويتحـدثون عـن سيمولوجية الأدب أكثر مما يتحدثون عن بنيتهم ويتضح أن البنائية إزاحة أي بديل فـي عـصر البدائل واستبدلت الدراسات اللغوية العامة بالألسنية والنقد الأدبي بعلم الأسلوب والشاعرية والنقـد السيمولوجيا والنحو التحويلي والفنلولوجيا . والحق أن الكتابة الأدبية لغة فرية خاصة تصدر عن إختيار واعي من ثم كان خروجاً على النمط العادي Peviation from the norm هذا الخروج لا يؤخـذ ضربة لازم لأن اللغة العادية تقوم على العناصر العامة في لغة الحياة ولا تنفصل عن لغة الأدب ولكنها تقيم معها علاقة خاصة باستخدام عناصرها نفسها لبناء هياكل جديدة ، مضيفة للغة قواعـد جديدة في الصوت والكلمة وفي تركيب الكلام ، أي لغة الأدب تكشف عـن الطاقـات التعبيريـة الكامنة وعلم الأسلوب يهدف إلى دراسة هذه الكوامن في دراسته للغة أدب معين ، ولعـل هـذا الجانب يؤكد الصيغه التي أكدها تشومسكي ، بأن اللغة خلاقه تتكون من عناصر محدودة ، وتنتج أو تولد أنماطاً لأنهاية لها .[1]

ويمكن القول أن أقوى جذور البنيوية هي تلك التي تضرب في أعماق الدراسات اللغوية .[2]

صحيح أن الإهتمام باللغة كظاهرة إجتماعية ونفسية لا يمكن فصله عن تطورات الفلسفة منذ أرسطو أنتهاء بالتيار البنائي ، إذا أن نظرته إلى اللغة ترتبت على مفهوم العلاقة بين الـداخل

---

[1] علم اللغة والنقد الأدبي – عبد الراجحي – مجلة فصول – المجلد الثاني العدد الأول يناير (١٩٨١م) – ص ١١٧ .
[2] مقال بعنوان موقف من البنيوية – د. شكري عياد – مجلة فصول – المجلد الأول العدد الثاني يناير (١٩٨١م) – ص ١٩٧.
[1] اللغة وعلم اللغة - تأليف جون ليونز – ترجمة مصطفى التوني – ص ٦٨ - ٧٨ .
[2] يمكن القول أن النظرية التوليدية تعد تطوراً لبنائية الأمريكية يعد تأثير التوليدية على النظرية الحديثة عميقاً – وهذا ما لحظنـه فـي الدراسات الأدبية والنقدية .

والخارج ، أو العلاقة بين الدال والمدلول ، وخاصة فـي القرن السابع عشر في الدراسات التـي قام بها (ميشيل فوكوة) في دراسته اللغوية (١٩٦٦م) Micheigoucant بعنوان (نظام الاشياء) .

(١٩٧٠م) The order of thing ويشير فيها إلى التحولات المعرفية التي صـاحبت النظـرة العامة للغة ، وفي القرن السادس عشر كانت العلاقة بين الكلمة والشئ الذي تشير إليـه أو بـين الدال والمدلول علاقة تشابه ، وكان يصعب تأكيد المعرفة من دون وجود رابطـة حقيقيـة بـين طرفي العلاقة ، ومع التحول المعرفي Episteme الذي أسند طوال القرنين السابع عـشر والثـامن عشر ، تحول التشابه المفترض Resemblance بين الـدال والمـدلول إلـى التـصوير والتمثيـل Representation وهو درجة أكثر تعقداً في العلاقة بين طرفي العلاقة ، ولكن التحول المعرفي فـي نهاية القرن الثامن عشر ركز على الأستخدام البلاغي والرمزي للغة [٣] وهو مـا عـرف عنـد جاكبسون بالمحور الإستبدالي الذي يقوم على التشابه والتضاد وهو الذي يمثل المحور الراسي من محاور اللغة ، بجانب المحور التعاقبي لبناء الجمل وهو المحور الأفقي .

وهذا المحور الإستبدالي هو الذي أتخذته البنيوية منفذاً لها للولوج فـي حريـة التأويـل والتفسير والشرح وفقاً لقيم الإيحاء والشابة والتماثل ، أي بالمفهوم البلاغي العربـي الإسـتعارة والتشبيه والمجاز .

المبحث الثالث

موقف النصوص العربية من القول بالمستوى الفني أو النظرية الشعرية بالمفهوم البنيوي [١]

يبدو أن الخلافات اللغوية بين اللهجات بعضها ببعض وبينها وبين لغة القـرآن الكـريم والشعر القديم كل ذلك بعث على الملاحظات والأنظار اللغوية ، ومثل ذلك الاختلافات بين اللغات من الممكن تعميم هذه الملاحظة على النشأة المبكرة لنظرية اللغة الأدبية في النقد العربي إذ مـن الطبيعي أن يكون قيام هذه النظرية نتيجة لمقدمة ضرورية هي الاحساس بوجود مستوى لغـوي من طبيعة مختلفة مما يكون عليه استخدام اللغة ، في غير لغة الأدب .

وهو الذي يبرر الخلاف بين النحاة واللغويين ونلخط هذه التفرقة في تمييـزهم للكـلام البليغ فقد ذهب القياس إلى أن كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حسبه ولا استعانه فهو بليغ

---

[٣] المرآة المحدبة – د. عبد العزيز حمودة – ص ١٨٢ – ١٨٣ .

[١] النظرية الشعرية Poeticlang vage أولانشائية فهي تهاف إلى ضط مقولات الأدب من حيث هو ظاهرة تتنوع أشكالها ، وتستند إلى مبادئ موحدة ، فلا يكون الأثر الأدبي بالنسبة إلى الإنشائية سوى ممارسة تستجيب . المقولات الأدب ويتميز نوعياً بما يعزي النظريـة الإنشائية الشاملة للظاهر الأدبية عامة – الأسلوبية والأسلوب – د. عبد السلام المسدي – ص ٧١ .

، فأن أردت اللسان الذي يروق . ويفوق كل خطيب فأظهار ما غمض مـن الحـق ، وتـصوير الباطل في صورة الحق ويشير هنا إلى مقدرة خاصة على التصوير وتوجيه الحديث إلـى حيـث يمكن التأثير على المتلقي ، نلاحظ أن هذه الاشارة وجدت للإشارة إلى الأختلاف بـين المـستوى البليغ والمستوى النمطي ويقضي الجاحظ على هذا القول بأن العتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو يبلغ ، لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعنـاه بـالكلام الملحون والمعدول عن جهته والمصروف عن حقه أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم القائل جعل الفصاحة والكنة والخطأ والصواب ، والإغلاق والإبانـة والملحون والمعرب كله سواء ، وكله بياناً ، وأنما عنى العتابي (إفهامك العـرب حاجتـك علـى مجاري كلام العرب والفصحاء) . [٢]

فالجاحظ يريد من اللغة الأدبية أو الكلام البليغ ، أن يكون عبارة وأسلوباً فـي اختيـار الحروف وسلامة المخارج وحسن الإفهام . [٣]

ويحكى الخطابي على لسان القائلين بإعجاز القرآن من جهة بلاغية عجزهم عن تمييـز خصائصها وما يمتاز به الكلام البليغ من غيره ، ثم يقول (ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي أختص بها القرآن ... وعن المعنى الذي يتمييز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة قالوا (أنه لا يمكننا تصوير ولا تحديد بأمر ظاهر وإنما يعرفه العالمون به عند سـماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده قالوا ... وقد توجد لبعض الكلام عزوبة في السمع وهشاشة في النفس لا توجد مثلها لغيره فيه والكلامان معاً فصيحان ، ثم لا يوقف لشئ من ذلك على علـة) . [١]

وواضح من النصوص السابقة وجود مستويين من الكلام أحدهما قاصر علـى مجـرد الإفهام والتوصيل ، ولا يستخدم من عناصر اللغة إلا القدر الضروري ، والآخـر تجـاوز هـذه المهمة من جهة ، ويتألف فيها أستخدام اللغة على نحو خاص . ولهذا فرقوا بين لغتين ، لغة يقصد بها الفهم والإفهام ، وهي اللغة التي تجري بها الأحداث العادية ، لغة أخرى تتجاوز الأفهام إلى ما وراءه من الحسن والقبول والأثارة ، وهي اللغة البلاغية أو الأدبية .

وحول هذا المعنى يدور نصاً آخر من مقابسات أبي حيـان (أن حـد الإفهـام والـتفهم معروف ، وحد البلاغة والخطابة موصوف ، وليس ينبغي أن نكتفي بالإفهام . كيف كان وعلـى

---

[٢] البيان والتبين الجاحظ – الجزء الأول – ص ١٦١.

[٣] المرجع السابق – الجزء الأول – ص ١٦٢ – ١٦٣ .

[١] إعجاز القرآن للخطابي (ضمن ثلاثة رسائل لإعجاز القرآن) .

أي وجه وقع ، فإن الدرهم قد يكون ردئي ذهب ، وقد يكون ردئي طبع وقد يكون فاسد السكة وقد يكون جيد الذهب عجيب الطبع حسن السكة .

فالناقد الذي عليه المدار وإليه العيار يبهرجه مرة برداءة ، هذا ومرة برداءة هذا ويقبلـه مرة بحسن هذا ، وبحسن هذا ، والإفهام إفهامان ردئى وجيد ، فالأول لسفلة النـاس ، لأن ذلـك جامع الصالح والنافع ، أما البلاغية فأنها زائدة على الإفهام الجيد بالوزن والبناء والسجع والتقفية ، والحلية الرائعة وتخير اللفظ ، وإختصار الذينة بالرقة والجزالة والمتانة وهذا الفن لخاصة الناس ، لأنه القصد فيه الإطراب بعد الإفهام . (٢)

وبالتالي إدراك العرب الفرق بين مستوي اللغة ، وهذا أبن فارس في رده على القول بأن البيان قد يقع بغير اللسان العربي ، ولان كل من أفهم بكلامه على شرط لغتة فقد بين) يقول أبـن فارس (إن كنت تريد أن المتكلم بغير العربية قد يعرب عن نفسه حتى تفهم السامع مـراده فهـذا أخس مراتب البيان ، لان ألا بكم قد يدل بإشارات وحركات على أكثر مراده ، ثم لا يسمى متكلماً فضلاً عن أن يسمى بيناً أو بليغاً) . (٣)

وفرق الفلاسفة كذلك بين اللغة العلمية ، ولغة الفلسفة وبين اللغة الفنية ، فعندهم أن لغـة العلم هي التي لمفرداتها مقابلاً في العالم الخارجي ، وهي التي تساق فيها التركيبـات يمكـن أن توصف بالصدق والكذب ،أما ما لا يوصف بأنه كذلك فـ ـي تعبير عن ذات النفس فهو أدب وفن . (١)

وقد أشار الجرجاني على المزيا البلاغية واللغة الأدبية مبيناً ضـرورة الإضـافة التـي يضيفها الأديب على كلامه ، ضرورة الخروج بالألفاظ اللغوية عن مدلولاتها الأصلية حتى تكون هناك أدبية) ، ويقول الجرجاني في حديثه عن علم البيان : (إنك لن ترى كثيراً منه لا يـرى لـه معنى أكثر مما يرى للإشارة بالرأس والعين وما تجده للخط العقـدْ ... بقـول إنمـا هـو خبـر وإستخبار وأمر ونهي ، ولكل من ذلك لفظ قد وضع له ، وجعل دليلاً عليه ، فكـل مـن عـرف أصباغ لغة من اللغات فهو بين في تلك اللغة كامل الأداء ، وبالغ من البيان المبلغ الذي لا مزيـد عليه منتهٍ إلى الغاية التي لا مذهب بعدها وجملة الأمر أنه لا يرى النقص يدخل على صاحبه في ذلك إلا من جهة نقصه في علم اللغة ، لا يعلم أن هاهنا دقائق وأسرار طريق العلم بهـا الرويـة والفكر ، ولطائف مستقاها العلل وخصائص معانٍ يتفرد بها قوم قـ ـد هدوا إليها ودلـوا عليهـا

---

[٢] المقابسات لإبي حيان التوحيدي – ص ١٧ .
[٣] المزهر في علوم اللغة وآدبها – السيوطي – الجزء الأول – ص ٣٢٢ .
[١] أسرار اللغة – إبراهيم أنيس – ص ٢٧٩ .

وأنها السبب في أن عرضت لمزية في الكلام ، ووجب أن يفضل بعضه على بعض ، ويبعد الشأو في ذلك تمتد الغاية ويعز المطلب حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز ، إلى أن يخرج من طوق البشر) [٢] .

يمكن القول أن هذا الأمر يقترب مما أشارت إليه الدراسات الحديثة التي تستخدم مصطلح (النظرية الشعرية) أو اللغة الأدبية Poetic Language Litrary Language .

ويمكن أن نلتمس ذلك فيما قاله العرب (بالضرورة الشعرية ، وتجدر الاشارة الى مصطلح الضرورة الشعرية) .

لنكشف عن عمق إحساس العرب بسيطرة اللغة الفنية الخاصة على بقية مجالات استخدام اللغة .

ويشير المبرد بأن الضرورة رخصة يقتصر حق الإنتفاع بها على الشاعر وأن نتيجتها هي ظواهر خاصة باللغة الشعرية ، ويذهب إلى أن الأمثال أقرب إلى الشعر من الكلام المرسل وبذلك يستجاز فيها ما يستجاز في الشعر لكثرة أستعمالها. [٣]

وقال أبو على لأن الغرض من الأمثال إنما هو التسيير كأن الشعر كذلك ، فجرى المثل مجري الشعر في تجوز الضرورة فيه ، وتتسم هذه النظرة بالتقدير لظروف النطق بالمثل ، حيث سيطرة التلقائية والإنفعال ، الأمر الذي يجعل من لغة المثل شبيهاً للغة التحادث التي يقتصر فيها على الإهتمام بابراز الفكرة دون الروابط المنطقية التي تربط الكلمات بعضها ببعض ، إذ لا يتيسر للمتكلم أن يطابق فكرته على القواعد الصارمة للغة المروية مما ينشأ عنه تعارض بين اللغة الفجائية واللغة النحوية . [١]

وشرع بن جني الابواب للضرورات الشعرية ، وأن الشعراء يرتكبوها عن طريق السعة ، وليس من موقع الأضطرار دائماً ، يقول (وكذلك عامة ما يجوز فيه وجهان ، أو أوجه ، ينبغي أن يكون جميع ذلك مجوزاً فيه ، ولا يمنعك قوة القوي من إجازه الضعيف فيها ، فأن العرب تفعل ذلك تأنيساً لك بإجازة الوجه الأضعف فنقول (إذا أجازوا نحو هذا ومنه بداً وعنه مندوحة ، مما ظنك بهم إذ لم يجدوا منه بدلاً ولا عنه معْولاً . ألا تراهم كيف يدخلون تحت قبح الضرورة مع قدرتهم على تركها ليعُدُوها لوقت الحاجة إليها . [٢]

وواضح من أن حديث الضرورة يتمثل في القول بأن أرتكاب الضرورة لا يكون بسبب الاضطرار دائماً ، كما أن اللجؤ إليها لا يجب إعتباره من قبيل ما يعتذر عنه ، وما يبتدئ التأويل

---

[٢] دلائل الإعجاز – الجرجاني – ص ٥٥ – ٥٦ .
[٣] المقتضب والمبرد – الجزء الرابع – ص ٢٦١ .
[١] نظرية اللغة في النقد العربي – عبد الحكيم راضي – ٥١ .
[٢] - إبن جني الجزء الثالث – ص ٦٠ – ٦١ .

والتخريج لأنه قد يكون برضى الشاعر وعَمْدِه ، ولحاجات خلاف ما يراه القائمون على القواعـد التقليدية ، وهو أعتراف بحق الشاعر في أن يكون له لغته الخاصة . وبـأن الـشعر يمثـل هـذا المستوى في اللغة .

وأهتمت البنائية بالمستوى الفني للغة ، وجعلت أساليبها أنحرافات عن مسار اللغة العادية ، وتمردت على مقاييس الصواب في المستوى النمطي والعادي ، المستوى الفني لا يكاد يقفل عن النظر إلى هذه المقاييس التي تشكل نوعاً من الخلفية ينعكس عليها حجم الجرأة أو التمـرد الـذي يكون عليه المستوى الفني سعياً إلى تحقيق غاية هي بالطبع خلاف مايسعى إلى تحقيقه المـستوى الآخر ، هو صنيعٌ يتلاقى فيه اللغويون والنقاد العرب ، مع المسار التي تتخذه الدراسات الحديثـة في لغة الأدب . [٣]

وهكذا أقترب مفهوم الجرجاني مما أشارت إليه الدراسة الحديثة التي تستخدم مـصطلح النظرية الشعرية . أو اللغة الأدبية ، Litrarg an quage ويمكن أن نلتمس ذلك فيمـا قالـه العـرب بالضرورة الشعرية ، وتجدر الإشارة إلى الضرورة الشعرية لتكشف عن عمق الاحساس العـرب بسيطرة اللغة الفنية الخاصة على بقية مجالات إستخدام اللغة .

ويمكن القول أن الرخص إستجازت في الأمثال والشعر ، وذكر أبن جنى أن الـشعراء يرتكبونها عن طريق السعه ، وليس من موقع الإضطرار دائماً ، يقول :-

(وكذاك عامة مـا يجوز فيه وجهان ، أو أوجه ، ينبغي أن يكون جميع ذلك مجوزاً فيه ، ولا يمنعك قوة القوى من إجازة الضعيف فيها ، فأن العرب تفعل ذلك تأنيس لك بإجازة الوجـه الأضعف فيقول (إذ أجازوا نحو هذا ومنه بدُ وعنه مندوحةٌ ، فما ظنك بهم إذ لم يجدو منه بـدلاً ولا عنه معولاً ألا تراهم كيف يدخلون تحت قبح الضرورة مع قدرتهم على تركها ليعُدوها لوقت الحاجة إليها . [١]

وواضح أن حديث الضرورة يتمثل في القول بأن أرتكاب الضرورة لا يكـون بـسبب الإضطرار دائماً ، كما أن اللجؤ إليها لا يجب إعتباره من قبيل ما يعتزر عنه وما يستدعى التأويل والتخريج ، لأنه قد يكون برضى الشاعر وعمْده ، والحاجات خلاف ما يراه القائمون على القواعد التقليدية ، وهو أعتراف بحق الشاعر في أن يكون له الغتة الخاصة . وبأن الـشعر يمثـل هـذا المستوى من اللغة . [٢]

---

[٣] نظرية اللغة في النقد العربي – د. عبد الحكيم راضي – ص ٧٤ .
[١] الخصائص – لأبن جني – الجزء الثالث – ص ٦٠ – ٦١ .
[٢] نظرية اللغة في النقد العربي – عبد الحكيم راضي – ص ٧٤ .

ونلاحظ من ذلك ليست الضرورة من قبيل ما يعتزر عنه أو مبرر لإرتكـاب إنحـراف (ما) أو خطأ ، ولا هو مما يستدعى تأويلات وتفسيرات ثانوية بخلاف ما رآه الفكر البنائي ومـا أنعكس جلياً من دراساتهم الإهتمام بأساليب الإنحراف ، تمرده على مقايس الصواب في المستوى العادي ، فالمستوى الفني لا يكاد يقفل عن هذه المقايس التي تشكل نوعاً من الخلفية ينعكس عليها حجم الجرأة أو التمرد الذي يكون عليه المستوى الفني سعياً لتحقيق غايات هي خلاف ما يـسعى إلى تحقيقه المستوى الآخر ، وهو صنيع يتلاقى فيه اللغويون والنقاد العرب ، مع المـسار الـذي تتخذه الدراسات الحديثة في لغة الأدب . [٣]

فاللغة وضعت للتواصل والتفاهم ، وقد نوقشت هذه القضية عند الأصوليين ، ويقول الكيا الهراس (أن الإنسان لما لم يكن مكتفياً بنفسه في معاشه ومقيمات مكانه ، لم يكن له بـدُ مـن أن يسترفد المعاونة من غيره فحينئذ لا يخلو من أن يكون محل خاصية حاضره عنده أم غائبه بعيدة عنه ، فأن كانت حاضره بين يديه أمكنه الإشارة إليها وأن كانت غائبه فلا بد له من أن يدل على محل حاجاته وعلى مقصوده وغرضه ، فوضعوا لكلام دلالة ، ووجدوا اللسان أسرع الإعـضاء حركةً وقبولاً للترداد . [٤] وهو يشير في نهاية النص إلى سرعة حركة اللـسان وقدرتـه علـى تعريف الصوت أداة اللغة ربما يجعل الإنسان قادراً على إستخدام اللغة ، ويدخل حديثه هذا ضمن مسلكهم في المقارنة بين اللغة وبين غيرها من وسائل الإتصال المتاحة إذْ رأوا أن للغة أفـضيله تجب كل هذه الوسائل وصلاحية اللغة لهذه الوضعية ، تتعلق بضبطها ، فـي أن يكـون الكـلام وأضحاً لا يحتاج إلى تخريج باطن أو تأويل .

فاللغات كلها مبنية على الألفاظ المركبة على المعاني كما أشار إليه ذلك الجرجاني مـن قبل . ولو لم يكن كذلك كيف نفهم القرآن الكريم والحديث الشريف بل كيف نفهم بعضنا بعضاً .

وتحدث الأعراب بذلك عن الإعراب ودوره في توضيح المعاني بما يحقق عملية الإفهام والفهم ، وقالوا أنه يدخل الكلام ويفصل بين المعاني المشكلة ويدل به علـى الفاعـل والمفعـول والمضاف إليه وسائر ذلك من المعاني التي تعتور الأسماء .

تلك هي الوظيفة غير الفنية للغة سواء كانت تعاملاً أم أفهاماً ، فالمهم أنهـا تقـوم بمـا ييسير التعامل بين الناس ، وربط المجموعة البشرية برباط من الفهم المشترك ، أستناداً علـى أن الإنسان هو الكائن الإجتماعي المحتاج إلى هذه الوسيلة .

---

[٣] المرجع السابق – ص ٧٤ .
[٤] المزهر في علوم اللغة – السيوطي – الجزء الأول – ص ٣٧.

هذا الإعتقاد بمراعاة فلسفة الوضع في اللغة لحاجات الأستعمال في أغـراض التفـاهم العادية يقابله إعتقاد مماثل بمراعاة الوضع لحاجات الإستخدام الفني . وصرح الهراس بأنه (كـأن الاصل أن يكون بإزاء كل معنى عبارة تدل عليه ، غير أنه لا يمكن ذلك لآن هذه الكلمات متناهية ، وكيف لا تكون متناهية ومواردها ومصادرها متناهية ؟ .

فدعت الحاجة إلى وضع الأسماء المشتركة ثم وضعوا بإزاء هذا على تـضيغة كلمـات لمعنى وأحد لأن الحاجة تدعو إلى تأكيد المعنى والتحريض والتقرير ، فلو كـرُر اللفـظ الواحـد لسمج مـج فخالفوا بين الألفاظ والمعاني والمعنى وأحد وهذا أيضاً ما يحتاج إليـه البليـغ فهـا بلاغته ، فقال خطيبُ مصقع ، وشاعر مفلق بحسن الألفاظ وأختلافها على المعنى الواحد توضـع المعاني في القلوب .

وتلتصق بالصدور ، ويزيد حسنه وحلاوته وطلاوته بضرب الأمثلـة بـه والتـشبيهات المجازية وهذا ما يستعمله الشعراء والخطباء والمترسلون ، ثم رأوا أنه يعيق نطاق النطـق عـن أستعمالات الحقيقة في كل اسم فاستعملوا المجازات والإستعارات . [1] وهذه هي الوجـوه التـي أستعملتها اللغة الفنية ، من ترادف ومشترك لفظي وغيره .

ويقودنا الحديث عن مستوى اللغة العادية والفنية إلى القول بأصل اللغات هي توقيـفُ أم تواضع إصطلاح . أم أن هناك علاقة ضعيفة بين اللفظ ومدلوله ، والاتجاه الـذي يجمـع بـين التوقيف والإصطلاح . وقد توزعت هذه الإتجاهات والأراء . [2] مواقف علماء اللغـة والنقـد ، ونطرح ذلك لا لقاء الضوء على نظرتهم إلى المستوى العادي من اللغة ، والكشف عن نظـرتهم إلى المستوى العادي في اللغة والكشف عن نوع العلاقة التي أرتاها بين هذا المستوى والمستوى الخاص باللغة الأدبية ، فالبياني يذكر الطبيعة العرفية للغة ، ويختلف معه الوضـع عـن معنـى الأستعمال في دراسة علم البيان فالواضع يضع اللغة لمعنى مطابق يكـون دلالته من باب الحقيقة . [1]

ويدل ذلك على الصلة الوثيقة بين قضيتي الدلالة وأصل اللغة ، هي ما تعلل بعوامل من بينهما قضية الإعجاز البياني للقرآن ، وما تولد عنها من تفسيرات شتى للبيان القرآني ، ثم قـدرة اللغة العربية على تمثيل القضايا والأفكار التي أحتكت بها بعد أن تمت الفتوحات الإسلامية ممـا ولد فيها نفوس اللغويين . لا من شئ يدخل في النطق ولكن أجل الطائف تدرك بلفهم . [2]

---

[1] المزهر في علوم اللغ وأدابها – السيوطي – الجزء الأول – ص ٣٧ .
[2] كتاب الخصائص – لأبن جني – ص ٩٤ – ٩٩ .
[1] العربية معناها ومغناها – د. تمام حسان – ص ١٩ .
[2] دلائل الإعجاز - الجرجاني – ص ٣٩٩ .

وأنها كلها عبارات عما يدرك بالعقل ويستنبط بالفكر ،وأن الفكر في الإنسان يكون فـي أن يخبر عن شئ بشئ ، أو يصف شيئاً بشئ ، وأو يضيف شيئاً إلى شئ ، أو يترك شيئاً في حكم شئ . وهذا كله فكر في أمور معقولة زائدة على اللفظ . كما نفهم معنى قوله (إن الخبر معـاني ، ينشئها الأنسان في نفسه ، ويصرفها في فكره ، ويناجي بها قلبه ، ويرجع فيها إليه وأن الفائدة في العلم وأقعة من المنشئ لها ، صادرة عن القاصد إليها) . [٣]

ومن هنا نتبين أن لا فنية بغير المتكلم فهو الذي يخرج علامات اللغة من إطارهـا مـن إطارها الإصطلاحي إلى آفاق لا نهائية من لغة الفن .

فالنظم والترتيب عمل يعمله مؤلف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظها [٤] فـي هـذا الصدد يقول عبد الحكيم راضي (ومن المنطقي أن وقوف النقد العربي عند قدره ذهنيـة خاصـة يمتاز بها الشاعر وكذلك ترتيبه على هذه القدرة إمكانيات ينفرد بها في مجال الإنـشاء ، وقـصر الوصف بالفنية ناتج هذه القدرة دون ما يكون حصيلة للمواضعه . كل ذلك دلائل على تبين النقاد العربي لهذا البعد من العلاقة بين المستوى العادي من أستخدام اللغة وبين المستوى الفني ، أعني إصطلاحية الأول وعرفيته وشيوعه وفردية المستوى الآخر وخصوصيته . [5]

فصفات الإستخدام العادي للغة ، التي تدور حول الإحتكام إلى المواضعه والإصـطلاح وغلبه الأستعمال ، فأنهم ساقوا اضدادها تماماً للمجاز ، العنصر الجوهري في الإستخدام الفنـي ، ومحور هذه الصفات هو التواضع ، فالمجاز عدم الإستسلام للوضع .

وغاية الأستعمال في حالة الحقيقة الشرعية والعرفية مقصود به تمييز هذا النـوع مـن التحول في دلالة الألفاظ عن آخر هو التحول إلى المجاز . [١]

والمجاز عند العرب نوع من أنواع التحول في التركيب التي تبدأ من أنفعالية إلى نحوية ، ويشير فندرس (إلى هذه النظرة على التحول في التراكيب التي تبدأ في الأصل أنفعاليـة فـي مقابل تراكيب نحوية وأقدم لها نفس المعنى ثم يحدث أن تفرض الثانية نفسها على الإستعمال إلى حدٍ أن يستعاض بها عن الأولى ، وفتصير نحوية ، بعد أن كانت أنفعالية ، وتتخذ العمليـة عنـده شكل قانون يقضي إلى كون الأستعمال النحوي الأخير قد تطور من الأستعمال الإنفعالي) ومثاله على ذلك أسلوب التكرار الذي بدأ في الاصل كوسيلة أنفعالية ، ثم تحول إلى سياسة نحوية .

---

[٣] المرجع السابق – ص ٥٢٢ .
[٤] المرجع السابق – ص ٣٥٩ .
[5] نظرية اللغة في النقد العربي – عبد الحكيم راضي – ص ١١٢ – ١١٣ .
[١] نظرية اللغة في النقد العربي – عبد الحكيم راضي – ص ١٣٥ .

وقادت الفردية الأدبية عبد القاهر إلى القول بأن الإعجاز في أي مظاهر مـن مظـاهر الموصعة في اللغة .

يقول أنه (لا يثبت إعجاز حتى تثبت مزايا تفوق علوم البشر ، وتقصُر قوى نظرهم عنها ، ومعلومات ليس في منتن أفكارهم وخواطرهم أي تفدي بهم إليها ، وأن تطلعهم عليهـا ،وذلـك محالٌ فيما كان علماً باللغة . [٢] مزجاً بين نشأة اللغة وعلاقة اللفظ بالدلالة . [٣]

ورداً على ما قاله أصحاب الفكر التحويلي والبنائي في المركبات ولا نهائيـة الجمـل ، نعرج إلى القول بالوضع فجاء في كتاب (المذهر) سيوطي (أختلاف أهل وضع واضع المفـردات والمركبات الأسنادية أو المفردات خاصه دون المركبات الأسنادية ، فذهب الرازي وأبن الحاجب وأبن مالك ، وغيرهم إلى الثاني ، وقالوا ليس المركب بموضوع ، وإلا للتوقف الإستعمال الجمل على النقل عن العرب كالمفردات . [٤]

وقد توسع البعض في المدى الذي يشمله الوضع والتوقيف فذهب أبن فارس إلى شـموله لظاهرة الترادف ، فصرح بأنه (إن قال قائل (أفتقولون في قولنا سيف وحسام وعض إلـى غيـر ذلك في أوصافه أنه توقيف . حتى لا يكون شئُ منه مصطلحاً عليه ، قيل له كذلك نقول .قال أبن فارس (أجمع أهل اللغة إلا من شّذ منهم اللغة العرب قياساً وأن العرب تشتق بعض الكـلام مـن بعض وأن أسم الجن مشتق من الإجتنان وعلى هذا سائر كلام العرب علم ذلك من علمه وجهلـه من جهل وهذا أيضاً مبنى على ما تقوم في قولنا في التوقيف ، فأن الذي وقفنا علـى أن الجـن مشتق منـه ، وليس لنا اليوم أن نخترع ولا أن نقول غير ما قالوه ، ولا أن نقيس قياسـاً ، لـم يقيسوه ، لأن فـي ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها ، وأن اللغة لا تؤخذ قياساً نقيسه الأن نحن . [١]

ومنها ندرك أن إصطلاح المفردات سواء بالوضع أو التوقيف ، في الوقت الـذي يبـدو صورياً أكثر من كونه وأقعياً . [٢] وإحالات المعنى على إختيار المتكلم ، فأن أراد القائل بوضـع المركبات هذا المعنى فصحيح ، وإلا فممنوع . [٣]

والعرب جعلت الكلام واللغة مواضعه ، وصرَح بن جني بأنه كل لفظ مشغل بنفسه مفيد لمعناه ، وهو الذي يسميه النحويون الجمل . [٤] وكذلك في تعريف اللغة عند ابن جنـي (فاللغـة

---

[٢] دلائل الإعجاز – الجرجاني- ص ٢٤٩ .
[٣] نظرية اللغة والنقد العربي – عبد الحكيم راضي – ص ٩٢ .
[٤] المزهر في علوم اللغة – السيوطي – الجزء الأول – ص ٤٠ .
[١] اللغة بين المعيارية والوصفية – تمام حسان – ص ٦٥ .
[٢] نظرية اللغة في النقد العربي – عبد الحكيم راضي – ص ٩٤ .
[٣] المزهر في علوم اللغة – السيوطي – الجزء الأول – ص ٤٥ .

أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وقد ترتب على ذلك أن أصبح الطريق إلى معرفة اللغة ، في مستواها العادي ليس هو العقل ، وإنما هو النقل المحض أما العقل الصرف فلامحل لـه فـي ذلك . (٥)

وإضاف الدكتور عبد الحكيم راضي لأن دلالة اللغة تتوقف على الإصطلاح والتواضع ، ولأنها كذلك فهي قابلة للفهم من جميع الناس ، ما داموا قد حصلوها بطريقة النقل ، ولأنها كـذلك فإن المقصود بها واحد عند الجميع لأن الواضع لم يترك المتكلم في استخدامه العادي للغة . حرية التعبير ، كما لم يسمح للسامع فرصة للتصرف في فهم ما يسمع ، بأن يزيد أو ينقص من دلالـة الكلام أو إفادته لأن هذا الأفادة ، تمنع من تطرق الزيادة والنقصان ، فأنك إذا نقصت مـن هـذه الألفاظ شيئاً فقد نقصت من المعنى لا محالة . إن أقمت مقام كل لفظ منها ما يرادفه أقتنع أن تزداد تلك الإفادة قوة بسبب ذلك لأن السامع إذا عرف كونها موضوعة بإزاء مفهومات الألفـاظ الأول كان فهمه منها كفهمه من تلك الألفاظ الأول وأن لم يعرف ذلك لم يفهم منها ذلك المعنى .

ولهذا السبب لم يستعمل في العلوم والعقلية إلا الدلالات الوصفية لعدم إحتمالها للزيـادة والنقصان الموقعين في الغلط والشبهة . (٦) وما دام طريق معرفة الدلالة التوقيف أو الوضـع لا العقل ، وأن مثل هذا التجديد يحول الألفاظ إلى أداة ميكانيكية بشرط أن يكون مجـدداً بالمـستوى الوصفي الإصطلاحي من اللغة ، فاللغة هبة ومنحة أو تعاهد قد الغى دور الإنـسان فـي الخـلق ودور اللغة أيضاً ، ومن أجل أشتراك الجميع في معرفة هذا المستوى من اللغة ، وهو المـستوى العادي ، ورفض النقد العربي أن يسبق عليه أدنى قدر من الفنية .

ومن هذا أنصرف العرب عند تقسيمهم للنصوص الأدبية عن القدر المتواضع عليه مـن اللغة ومن هنا كان العرب عن ما يدخل في عداد المواضعات فقد تسامحوا فيها ، ولابن جنى كلام كثير مؤداه أن جانب الأعراب ومواضعات اللغة ليس مما يعتبر في الحكم على المستوى الفني في الشعراء ولا مما ينبغي على الشاعر تجاوزه . (١)

ومن هنا رفض أبن جني أن يكون معنى الفصاحة يقوم على الإعـراب والـتحفظ مـن اللحن ، وأن يكون هذا الأعراب معتداً به في جملة المزايا التي يفاضل بها بين كلام وكـلام فـي الفصاحة . (٢)

---

[٤] الخصائص - لأبن جني ج١ – ص٧٢ .
[٥] المزهر في علوم اللغة – السيوطي – ج١ – ص ٧٥ .
[٦] نظرية اللغة في النقد العربي – عبد الحكيم راضي – ص ٦٧ .
[١] الخصائص – لأبن جني – الجزء الثاني – ص ١٢ .
[٢] المرجع السابق – ص ١٢ .

ويقول (أنه لا يجوز إذا عُد الوجوه التي تظهر بها المزية أن يعد فيها الأعراب ، كما لا يعتد فيها بأن يكون المتكلم قد أستعمل من اللغتين في الشئ ما يقال أنه أفصحهما ، ولا بأن يكون قد أستعمل الغريب . [٣]

ويلخص كل ذلك الجرجاني في رفضه أن تكون المزية في الكلام البليغ من أجل اللغـة والعلم بأوضاعها وما أراده الواضع فيها إذن ما هي المزية أو الفنية بـالمعنى الحـديث ، عنـد الجرجاني ؟ .

المزية في اللغة الأدبية هـي صفة تختص بالمتكلم ومزيةٌ هي بالمتكلم دون واضع اللغة . [٤]

هكذا أكد أبن جني [٥] على دور المتكلم الفرد في توجيه العباراة في تفاصيلها الدقيقـة ، إلى حد التحكم في أشكال الإعراب من الرفع والنصب والجر ، فالعمل فيها أنما هو للمتكلم نفـسه لا نشئ غيره ، وأنما قالوا : لفظي ومعنوي ، لمـا ظهرت آثار فعل المتكلم بمضامة اللفظ للفظ ، أو باشتمال المعنى على اللفظ وبالطبع تتجاوز نظرة أبن جنـي الجانـب الـشكلي لظاهـرة الإعراب ، وتتعداه إلى البعد الذهني الذي يمثل المؤثر الحقيقي وراء هذه الظاهرة ، وكذلك ذهـب أبن مضاء في القرن السادس ، وقال إن العامل في الرفع والنصب والجر هو المتكلم . [٦]

ولا شك أن لهذه النظرية خطرها على جماعية اللغة ، لأن إعتبار العامل هو المتكلم من شأنه أن يقوى النظرة الفردية إلى اللغة ، أو يحولها إلى أداه فردية .

وقد أشار العرب إلى طبيعة العمل الفردي في النص الأدبي ، بقدرته الأدبيـة المتميـزة يستطيع أن يتجاوز الإصطلاح ، وأعتقد العرب في هذه القدرات ، فشاعت كلمات الإلهام والطبـع والذكاء ، وحدة القريحة اللفظية والتوقيف . [١]

وقد فطن أبن رشيق إلى ذلك ، وبين قدرة الشاعر على تحقيق سمات أسلوبية خاصة فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا أختراعه أو أستغراق لفظ ، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني ، أو نقصُ مما أطاله سواه من الألفاظ ، أو صرف معنى عن وجه إلى وجه آخر كان أسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة . [٢]

---

٣ المرجع السابق – ص ١١ .
٤ دلائل الإعجاز – الجرجاني – ص ٤٠١ .
٥ الخصائص – أبن جني – الجزء الأول – ص ١٤٩ – ١٥٠ .
٦ الرد على النحاة – أبن مضاء القرطبي – ص ٨٧ – ٨٨ .
١ البيان والتبين – الجاحظ – الجزء الثالث – ص ٢٨ .
٢ العمدة – أبن رشيق – الجزء الأول – ص ١١٦ .

وكل ذلك يكون عن قصد وروية وفكر ، يقول الجرجاني (إن الفصاحة التي يبحث عنها هي فصاحة تجب اللفظ) .

وبهذا أكد البحث عن المستوى الفني في اللغة بإظهاره وتخليصه من شوائب الإصطلاح والشيوع يمثل حجر الزاوية في النقاش الدائر حول كثير من القضايا وعلى وجه الخصوص قضية الإعجاز وقضية اللفظ والمعنى وخاصة هجوم الجرجاني على اللفظ مرة وعلى المعنى مرة أخرى ، محاولة لإستبعاد كل ما هو من قبيل الشيوع والإصطلاح . [٣]

ولا شك أن اللفظ والمعنى والإختيار والنظم من خصوصيات اللغة الفنية التي يبتكرهـا العقل الأدبي الذي يضطلع به الأديب ، وتمكنه من ذلك صحة الطبع ، لذلك تصبح اللغة الأدبيـة ذات فردية وخصوصية .

---

[٣] نظرية اللغة في النقد العربي – عبد الحكيم راضي – ص ١٣٥ .

المبحث الأول
اللغة والفكر البنائي

من المعروف أن التواصل بين العلوم أصبح سمة من سمات العلم بصفة عامـة ، وعلـم اللغة بصفة خاصة ، فقد أصبح هناك تواصل بين علوم اللغة وعلوم أخرى كثيـرة ، مثـل علـم الاجتماع ، وعلم الأجناس البشرية ، علم الحياة ، وعلم الوراثة ، وعلم وظائف الأحياء ، وعلـوم الأدب والبلاغة والأسلوبية .[١]

كذلك إتصل علم اللغة النصي بعلوم النفس والاجتماع والفلسفة وغيرها ، وهذا يعود إلـى الفرضية الأساسية للعلم ، وتقوم هذه الفرضية على أساس أن النص الأدبي نص لغوى ، لا يمكن سبر أغواره دون تحليل العلاقات اللغوية التي ينطوي عليها ، ذلك لأن هذا التحليـل هـو الـذي يقودنا إلى تفهم الشحنة الدلالية والعاطفية الكامنة في النص ، و التي تؤثر في المتلقين ، ولا يعنى هذا كله شيئاً أكثر من أنّنا قراء ونقاداً لا يمكن أن ننفذ إلى قيمة العمل الأدبي إلا من خلال النص ذاته .[٢]

ولذلك يلح الكثيرون من علماء اللغة على الصلة الوثيقة التي تربط بين الأدب والدراسات اللغوية ، ذلك لأن اللغة هي العنصر المشترك بين المجالين بمعنى أنها مادة عالم اللغـة ذاتـه ، والمادة الخام التي يصوغ منها الأدب نصوصه ولا ينفرد علماء اللغة بهذا التأكيد بل يشاركهم فيه النقاد أيضا .ولا يقتصر الأمر على المادة اللغوية الموجودة في الأدب ، التي تخضع لمناهج علم اللغة ، وإنما هو أمر قيمة ينطوي عليها تنظيم هذه المادة ، وقد يكون الوصول إلى هـذه القيمـة المطمح النهائي للأسلوبية ، ولكن هذا المطمح تقابله صعاب كثيرة .

لا يزال الكثير من الباحثين ينظرون إلى الأسلوبية باعتبارها منهجاً يـستوحي مـن المنـاهج اللغوية ، كما لو كان مجرد وصف لغوى للنصوص الأدبية ولهذا السبب يعدها بعـض هـؤلاء الباحثين فرعاً من فروع علم اللغة العام . يمكن القول أن علم الأسلوب الحديث أو الأسلوبية نـشأ مستنداً إلى علم اللغة الحديث ، ولم تكن الأسلوبية في أول الأمر سوى منهج من المناهج اللغويـة المستخدمة في دراسة النصوص الأدبية .

ومن هنا يقول ما يكل[٣] أريفاى: ((إن الأسلوبية ووصف النص الأد حسب مناهج مأخوذة من علم اللغة)) .[٤]

---

[١] علم اللغة - محمود السعران - ص ٧٣ - ٧٥ .
[٢] مجلة فصول - مقال بعنوان الأسلوبية - د. محمود عياد - المجلد الثاني - ١٩٨١ م - ص ٧٣ .
[٣] رايفاي من مواليد ١٩٣٦م مبرز فى النحو مختص فى علامية الأدب – انظر الأسلوبية والأسلوب - المسدى – ص ٢٣٩ .
[٤] المرجع السابق - ص ٤٨ .

ونحاول في هذا العرض أن نبين أن الأسلوبية قامت على أساس أنها منهج لغوى مما أدى إلى اعتبار الأسلوبية فرع من فروع علم اللغة وصلتها الوثيقة بالدراسة اللغوية ، والـربط بـين مناهجها ومناهج البحث اللغوي .

وبديهي أن تستند الأسلوبية في تحليلها للنص إلى مناهج علم اللغة الحديث ، وتفيد منه في تحليل المستويات اللغوية المتباينة للنص ، بكل ما تنطوي عليه هذه المستويات اللغويـة للـنص وما بينها من علاقات تحليلاً يحاول الوصول إلى أقصى درجة مـن الانـضباط الموضـوعي وينظر علم اللغة إلى العمل الأدبي باعتباره رسالة لغوية ، ولكنه يتميز عن بقية الرسائل بتأديتـه وظائف أخرى ، ترتبط بالتأثير الانفعالي في المتلقي وما يمكن أن يرتبط بذلك من توصيل شـحنة دلالية ينفعل بها المتلقي انفعالاً معيناً وإذا كانت الأسلوبية ، في جانب منها ، محاولـة اقتنـاص هذه الشحنة وتوصيلها فلا سبيل إلى ذلك سوى النفاذ إليها من خلال النص ذاتـه ، ومـن خـلال صياغته البلاغية لعلاقات لغوية .[1]

وتنقسم مناهج الأسلوبية إلى ثلاثة مناهج :-

النظر إلى الأسلوب الأدبي باعتباره خرقاً للأسلوب المعياري أو انحرافاً عنه ويمكن أن نلتمس ذلك بين تعريفين في تاريخ الأسلوب :-

الأول :

تعريف يحد الأسلوب بأنه مفارقة Departure أو (انحراف) Devation عن النموذج .والآخر ينظر إليه على أنه معيار أو نمط Morm وبالمقارنة بينهما يحصل التمييز بين النص (المفارق) والنص النمط ، ويشترط لجواز المقارنة تماثل المقام بينهما .

والثاني :

تعريف يحد الأسلوب بأنه اختيار Choice أو انتقاء Selection يقوم به المنشئ لسمات لغوية بعينها من بين قائمة الاحتمالات المتاحة في اللغة .

إن هذين التعريفين ، وإن كان بهما طابع البساطة مما يكاد يبلغ مبلغ البداهة يثيران مـن الإشكالات النظرية والمنهجية أكثر مما يحلان ، فأولهما يقتضي معرفة بخصائص التعبير الأصل ، أو النمطي أو المعتاد ليكون في الإمكان قياس التعبير المعدول إليه (deviation) وهو أمـر لا يمكن أن يكون موضع اتفاق أو إجماع و كما أن السبيل إليه صعبة متوعرة المـسالك . وبالتـالي يمكن معرفة قائمة الإبدال المتاحة ، تلك التي يعمل المنشئ فيها فكره بالاختيـار ، وهنـا سـؤال

[1] الأسلوبية د. محمود عياد مجلة فصول – العدد الأول المجلد الثاني – (١٩٨١م) – ص ١٢٤ .

جوهري ماذا عن طبيعة هذا الاختيار ، أتراه يتم من المنشئ عن وعى وقصد أم أنه يتم بطريقـة جبرية لا سيطرة حقيقية عليها للمنشئ ؟. [1]

لا شك أن هذه ا لإشكالات تفتح لنا الباب للولوج في المعالجات الأسلوبية عند العـرب ، على نحو يمكن أن يفيد في تحرير كثير من التصورات النظرية والإجراءات البحثية ، وينادى هنا بفكرة الالتفات عند العرب، لنرى أن الاختيار أمر تصدقه تجربة الأدباء فيما يكتبون ، وأن القول بأن الأسلوب هو تعبير معدول عن أصل معتاد ، وصفات العدول متغيرات تحدث فـي الجملـة سواء أكانت متغيرات دلالية كالاستعارة والتشبيه والمجاز والكناية أو فنون البـديع فـي التـراث اللغوي .ومن متغيرات ما فوق الجملة ، التوافق والتخالف بين مباني الجمل والربط بين الجمل ، وهرمية البنية النحوية ، وسائل السبك صوتية ، صرفية ، وتركيبة ، ومعجمية .

<u>المتغيرات الأسلوبية والطراز النحوي :-</u>

ووفقاً لما سرنا عليه من ربط الإعراب بالمعنى ، وربط الـشكل بالمـضمون أو البنيـة السطحية بالبنية العميقة يعتبر الإعراب متغير من متغيرات ما فوق الجملة الذي يـشمل التغييـر الصوتي والصرفي والتركيبي والمعجمي .

ولذا يجب على القائم بالتحليل الأسلوبي ضرورة تحديد الطراز النحوي كما أسماه سـعد مصلوح (Grammatical Modle) الذي يعتمده أساساً لتحديد مفهوما ته ، ومن ثم لتحديـد المـنهج وإجراءات التحليل وطرق القياس .

ولا شك أن تتبع الطرز النحوية و استعراض علاقا ا بالدراسة الأسلوبية ، يوضح لنا أن الطرز النحوية تشكّل أساساً منهجياً للبحث ، فالإعراب مثلاً كأداة من أدوات السبك الأساسية ، باعتبار تعريفات العرب للإعراب ، فالإعراب هو الإبانة عن ا عا باختلاف أواخر الكلم لتعاقب العوامل أو ا . ويقول ابن ج :- ((أما الإعراب فإنه مصدر من أعربت الشيء إذا أوضحت عنه ، وفلان معرب عما نفسه أي مبين له)). [2] و الإعراب هو ما جيء به لبيان مقتضى العامل من حركة أو حرف ، أو سكون ، أو حذف ، فالإعراب هو إبانة عما النفس وايضاح للقوالب الذهنية بأصوات منطوقة (فونيمات) ، وهذه الأصوات بعضها صائت وبعضها صامت ، فتحدد فيما بينها لتكون مورفيمات ،ال تتحدد بدورها لتكون ل لتحجب ا ع الذه أو تكشف عنه ، وأي تغي الفونيمات يؤدى إ تغي فـ ـ ـى ا ورفيمات وبتغ ا ورفيم تتغ الصورة الذهنية ال يش إليها ذاك ا ورفيم فعندما نقول (

---

[1] فى النص الأدبى دراسات أسلوبية احصائية – د. سعد عبد العزيز مصلوح - عالم الكتب القاهرة - الطبعة الثالثة ٢٠٠٢م - ص ٢٤ – ٢٥ .

[2] الخصائص لابن جنى - ج١ - ص ٣٧ .

أسد) تقفز إ الذهن صورة ا يوان ا عروف الأسد ، فإن غيرنا (أ) ووضعنا مكا ا (فا) فإن الصورة ال تقفز إ الذهن ليست الصورة الأو . [1]

كان عمل النحاة جميعاً تبرير الحركة الإعرابية ، وليس كما يزعم الباحثين في أن الحركات كانت من وضع النحاة ، وتعتبر الحركات الإعرابية فونيمات أصلية في اللغة العربية ، ينطق بها المتكلم ليفيد معنى معيناً ثم يغيرها ليفيد الفونيم الجديد معناً جديداً ، فهي شأنها كشأن أي فونيم في الكلمة له قيمة وأثر في الإفصاح ، والإبانة عما في النفس عن معنى ، مثلاً إذا قال المتكلم (الأسدُ) بالضم ، فإنه يريد إخبار السامع ليس غير، ولكنه إن قال (الأسدَ) بالفتحة فإن المعنى يتغير أي معنى التحذير الذي يكون في ذهن المتكلم ويريد نقله إلى السامع ، ولكنه لا يستطيع أن يغير أي فونيم فى كلمة (الأسد) ، لأن ذلك يؤدى إلى تغيير فونيم الحركة الإعرابية ليغير في المعنى . ولكن النحاة قد انصرفوا عن المعنى إلى المبنى ، وتطبيق القاعدة ، فوضعوا ما يسمى بنظرية (العامل) الذي له أثر قوى في إيجاد الحركة الإعرابية ولكل معمول لا بد له من عامل لفظي أو معنوي وكان نحاة الكوفية يسمون هذا العامل الخلاف أو الصرف .

وما أسماه المحدثون (بالقيم الصرفية) ، أو المتغيرات الأسلوبية ،او متغيرات ما فوق الجملة . (وسائل السبك) فمثلاً الاسم المنصوب بعد واو المعية (واستوى الماءُ والخشبةَ) فالخشبةَ اسم منصوب وقع بعد الواو بمعنى (مع) وقد دار خلاف طويل بين النحاة في العامل في هذا الاسم ، فالبصريون يرون أن العامل فيه هو الفعل ، ومن النحاة من يرى أن الواو هي العامل فيه ، وهو رأى غير صحيح لأن كل حرف اختص بالاسم ولم يكن كالجزء منه لم يعمل الجر كحروف الجر ، وأن الاسم الذي يقع بعد واو بمعنى (مع) ويتقدمه فعل أو شبهه فهو مفعول معه ، وأما الكوفيون ، فيرون العامل هو الخلاف ، والخلاف عندهم عامل معنوي ، أي أن الاسم جاء مخالفاً في الحكم لما قبله فينصب ، ولما كان المعنى الذي يريده المتكلم هو أن الماء ارتفع حتى صار مع الخشبة في مستوى واحد في حركة الاسم بعد الواو ويصبح منصوباً ، فالحركة هنا دليل على المعنى وعنصر من عناصر التحويل في الجملة ، وليست نتيجة لتسلّط عامل حار النحاة في تحديده .

التنغيم :

التنغيم من وسائل السبك الصرفية ، وهو متغ أسلو عند العرب ، ويعت عنصر من عناصر العدول عن الأصل ا ملة ولا يكون التنغيم إلا با ع ، وقد أدرك النحاة العرب القدماء قيمة النغمة الصوتية ويل ا ملة من باب إ باب ، فمثلاً ا ملة (كتب التلميذُ الدرس) ، نغمتها مستوية كن ويلها إ لة استفهامية بنغمة صوتية صاعدة كما كن ويلها إ مع الدهشة والإعجاب بنغمة صاعدة جداً مع ن إحدى كلمات ا ملة ، فا ملة الاستفهامية ال ويلها من ا ملة التوليدية (كتب التلميذُ الدرس) ، وا ملة ال أفادت الدهشة والإعجاب، فهي لة ويلية فعلية " التحويل فيها باستخدام النغمة الصوتية للوصول إ مع معين .

---

[1] الجملة وظيفتها وتركيبها وطبيعتها - د. إبراهيم عبادة - ص ١٥٦ .

الأسلوب والبنائية :

إهتمت البنائية بهذا الجانب الأسلوبي ، واعتبرت القصيدة استعارة كبرى وسلّطت الضوء على الصور الشعرية ، واعتبرتها انحرافات في الأداء اللغوي المعروف ، وجعلت لهذا الانحراف وظيفة ، ويعد الناقد الفرنسي بول فاليرى من رواد المنهج البنائي في تحليل الـشعر ، وواضـع المبادئ البنيوية ، فيقول في الصورة الشعرية التي جعلها تنفصم عـن الاسـتخدام اللغـوي ، إن الأدب ليس إلا نوعاً من الامتداد والتطبيق لبعض الخصائص اللغوية ، ولا يمكن أن يكون شـيئاً آخر فهو يستخدم مثلاً الخصائص الصوتية والإمكانات الإيقاعية للكلام مما يفعله القـول العـادي المألوف ، ولكن الأدب يصنفها وينظمها ويبنى عليها استعمالاته الفنية ، كما ينمى الآثـار التـي تترتب على توافق الكلمات وتعارضها ويخلق منها أنظمة متبادلة تحث الروح على إنتاج نوع من التمثيل الحسي الذي يختلف عن اللغة العادية ، وهذا هو مجال الصور الفنية التـي تنفـصم عـن الاستخدامات اللغوية، والشاعر عندما يدفع بهذه الصور إلى التكاثر إنما يعود باللغة إلى مولـدها الأول ، وإذا نظرنا للأمر من بعد لأدركنا أن اللغة نفسها ليست سوى قمة الإبداع الأدبي والفنـي لشعب من الشعوب ،

وأي عمل من هذا القبيل لا يعدو أن يكون استثماراً لإمكاناتهـا وتوفيقـاً لكلماتهـا و أنظمتها التي خلقت من قبل . [1]

ويبدو أن الحرية الإبداعية و توالد الكلمات وتكاثرها قد وجد له مكاناً فـي (الـصورة الشعرية) إذ أصبح المجاز والاستعارة انفصاماً وتمرداً عن المألوف اللغوي ، فالحالـة الـشعرية تنمو في نفوسنا ثم لا تلبث أن تنحل على الوتيرة نفسها.

فلغة الشعر لا تتميز بمضمونها إنما ببنيتها ، والتركيز على البنية يرجع إلـى اعتقـادهم بأنها تكشف عن العوالم الباطنة بطريقة محايدة بدلاً عن التعبير المباشر عن العواطف ، وتفتيتـه للعالم بدلاً من تقويمه في وحدة متماسكة ، واندماج الأضداد والفوضى ، والولع بالغموض ، وقـد تعود هذه الحرية إلى كسر الأنظمة النحوية في سبيل تفجير الطاقات ، فيخضع الـشعور لمفـاهيم تفرضها الكلمات نفسها، ولا يمكن الوصول إليها بطريقة تأمليه ، لأنها مفاهيم فذة تقع على حافـة الأشياء المفهومة أو تسقط في هوة (الغموض)

لذلك ارتبط موضوع الشعر بالانحراف ، وهو الذي كانت تـسميه العـرب البلاغـة ، ولذلك اعتبرت البنائية (التعبير الاصطلاحي) أو المثل والتشبيه البليغ انحرافات وعلـل وهـى

---

[1] انظر النظرية البنائية فى النقد الأدبي - د. صلاح فضل - ص ٢٣ .

الخصائص الجوهرية للشعر ، وبنية المعنى تتولد من الصورة وتدفع إلى الحرية واستخدام الكلمات التي لم يسبق للغة العقلية تحريرها على الإطلاق .

وهكذا حاول تشومسكى البحث عن البنية العميقة في القواعد التركيبية ، ويحاول الأسلوبيون البحث عن المعاني الباطنة أو ما يعرف بالمعاني الثواني عند الجرجاني ، أو المعاني الفكرية أو التصورات الفلسفية، وسميت الأنماط التي تساعد للوصول إلى هذا التصور بالأنماط العليا .[1] والمقصود بها الصور الشعرية ولا شك أن البحث عن المعنى الباطني أو العميق في النص الأدبي من خلال الصور الشعرية عقيدة اقتنع بها أصحاب الفكر البنيوي ، وأنها ثنائية جديدة تنقسم إلى سلسلة من الثنائيات المتولدة من الفكر البنيوي ، إنها ثنائية انقسام العالم إلى عناصر ثنائية .وهذه فلسفة أيديولوجية من خلالها نحكم على رؤية الشاعر العربي للعالم ، ومدى ارتباطها بالمقولات الإسلامية والتصورات العلمية .وهذه ما بحثت عنه البنيوية من خلال تحليل النص لغوياً واستبدالياً .

وبين د.صلاح فضل أن هناك ثلاثة أشكال لهذه الرؤية ، أولها الرؤية الفردية النموذجية كما تتجلى عند المتنبئ ، وثانيها الرؤية المأساوية كما نجدها عند أبى العلاء ، وثالثها الرؤية الحلولية عند ابن عربي [2] ولهذا لا يمكن القول أن دراسة الصورة الشعرية تبدأ من التركيب الأسلوبي ، لتصل إلى التصور الفلسفي . ومدى ارتباط البنية الشعرية بالميتافيزيقية والوجودية . ونلاحظ أن النقد الأدبي ما زال مغرماً بالمنطق الرياضي ويستخدم مصطلحاته ، وإن كانت لا تتوافق مع طبيعة النقد ، مثل الانحراف وعرضه وقصره .

والانحراف يمثل في البنية الشعرية ، انحراف وهدم وإعادة بناء يؤدى بالشعر إلى أن يفقد معناه في اللحظة نفسها التي يعثر عليها القارئ من جديد .

من خلال حديثنا عن فلسفة البنيوية للتراكيب اللغوية ، يمكن القول أن العلوم البيانية العربية قد كشفت عن منطق داخلي فيها ، وذلك حينما دفع بها تطورها الذاتي إلى أن تصل إلى ما وصلت إليه . فالتحليل الذي تم على أنظمة اللغة باختلاف القرون والتعقيدات التي جاءت على يد اللغويين ، كشفت عن النظم البنيوي .[3]

---

[1] أنظر البنائية - صلاح فضل – ص ٢٤٢ .

[2] المرجع السابق .

[3] مثلاً لاحظ النحاه أن الإعراب وحده لا يقوى على تبيان المعنى النحوي أن بروز العلامات الإعرابية الفصحى دفع النحاه إلى البحث في العامل الذي يحدث الإعراب – أنظر مفتاح العلوم - السكاكي – ص ٣ .

وأطلق المؤلف رفيق العجم على هذه العملية (عقل اللغة والبيان) يمكن القول أن العرب أدركوا ذلك قبلاً عن الفلسفة البنيوية ، فهو منهج لغوى ثابت لاستنتاج أغوار اللغة أو منطق اللغة أو عقل اللغة .

وبالفعل قام العرب بمجهودات مقدرة تجاه لغتهم الفصحى وأرسلوا لهـا دعـائم ثابتـة لا تتزحزح مهما عصفت بها الريح ، وهذا ما حدث عندما تم ضبط علم الصرف والاشتقاق وعلـم المعاني والبيان، والنحو ، كما أن تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي ومعرفة خواصها وممـا يلـزم صاحب علم المعاني والبيان . [1]

فآليات التفكير عند ممارسة القياس المنطقي هي آليات التفكير عنـد ممارسـة الأسـلوب البياني فالبيان متعلق بنظام المعارف . [2]

يقول رفيق العجم [3] : ((فلننته إلى القول بأن العربية لها خصوصية بيانية تتمثـل فـي أصل المفرد وشكل التركيب وطريقة الإنشاء . ولعل من أهم مميزاتها طريقة الأوزان والحركات بما أن تطورها الذاتي دفع بها إلى استخراج علم لها ، ومنطق خاص معياري لا بد من مراعاته في حال المعنى ، لأنه يؤثر في هذا المعنى ويحوره .)) والنظم المعرفي ، متعلق بالبيـان قـال تعالى : (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) .

ويقول د. عبد العزيز حموده في هذا المضمار ، مسلّطاً الضوء على أن الاتجـاه إلـى العمل الإبداعي أو النصوص الأدبية ، لم يكن إلا مناقشات عصرية تدور حول العملية الإبداعية نفسها هل هي صناعة أم إلهام ؟ ويقول : ((وكان الجدل لقرون عديدة يكتـسي بعـض العمـق النسبي في عالم تحكمه علاقات بسيطة غير متداخلة أو متشابكة ، عالم لم يعرف تعقيدات التناقض بين إنجازات العلم والتكنولوجيا من ناحية والقيم التقليدية التي تتطور بإيقاع أبطأ جداً من تطـور العلم و التكنولوجيا من ناحية أخرى عالم لم يكن قد عرف متاهات النفس البشرية التـي فتحـت أبوابها للدراسات النفسية للقرن العشرين ، كان ذلك التعمق النسبي يقودهم إلى مناقـشة العمليـة الإبداعية نفسها من حيث أنها صناعة أم إلهام ؟ يصبح الفنان فيه متلقياً سلبياً في حالة تشبه الحلـم)) . [4]

---

[1] أثر الخصوصية العربية فى المعرفة الاسلامية - د. رفيق العجم - ص ٣٩ .
[2] المرجع السابق - ص ٣٩ .
[3] المرجع السابق .
[4] المرايا المحدبة - د.عبد العزيز حمودة - مجلة عالم المعرفة - ص ٨٦ .

وهذا القول هو الذي دفع الدراسات الحديثة لدراسة العناصر غير الواعية ، والتعبيرات غير الصريحة باعتبارها صور شعرية تستبطن حقائق أو معاني معدولة عن أصول يبحثون من ورائها عن محمل فلسفي يشف عن رؤية الشاعر للعالم .

التيار اللغوي البنائي :

بعد أن شاع المنهج الوصفي في الدراسات الإنسانية ومنها اللغة أخذ اللـسانيون تطبيـق مناهجهم اللغوية بصورة علمية تأسياً بالعلمية الموجودة في العلوم الطبيعية ، و سعوا إلى إيجـاد قوانين ثابتة ، ونمازج وصفية مفترضة كأساس لشرح كيفية توالد الجمل التي لا حصر لهـا فـي اللغة ، وحاول البنائيون الاستفادة من هذه المناهج في وصف الأعمال الأدبية وان هذه الأعمـال تشبه جملاً لا حصر لها في لغة عامة للرموز ، فسعوا لتحليل الأعمـال الأدبيـة ووصـفها للوصول إلى قوانين عامة تشرح النتائج الأساسية .

وبدأت اللسانيات تعنى بالنظر إلى اللغة كشكل من أشكال الحدوث المفترضة، وهى مدرك مجرد تمثله قوانينها . ولكن اللسانيات ما لبثت أن تطورت تطوراً سريعاً فانتقلـت فـي دراسـة الجملة كمنجزات بالإمكان إلى دراسة العبارة كمنجز بالفعل ، كما انتقلت من دائرة التركيب فـي النحو إلى دائرة التركيب في بناء النص واتسعت ميادينها وغطت ما كان يعتبر من خصوصيات غيرها ولامست مناهج العلوم الأخرى ، وبذلك اتجهت الدراسـات الأسـلوبية عـن طريقهـا ، وصارت بها أداة هامة من أدوات النقد وتحليل النصوص ودراسـة الخطـاب وتـصنيفه وتداخلت بما أمدتها النظرية العامة للسانيات مع كل الأجناس الأدبية .

فالتحليل اللغوي البنائى يتجه إلى الجمل والأشكال البلاغية والإيحائية والكلمات والرمـوز التي تتجاوز حدود الجملة قبل الرسالة الشعرية والقول بأن رموز اللغة تنقسم إلى قسمين : -

(١) قسم آحادى الدلالة محدد المعنى أي لا يتعدى معناه ذاته .

(٢) وقسم يكون متعدد الدلالة غير محدد المعنى .

والقسم الأول ، العلاقات المنطقية للإشارة ، كمفهوم (رجـل) وبالتـالي مجمـوع كـل (الرجال) يحدد الدلالة الذاتية لمفهوم رجل ، وكذلك إشارات السيمولوجيا تظهر العلاقات الإشارية عندما تعين الإشارة شيئاً من الأشياء ، كالضوء الأحمر إشارة للوقوف . وهذه علاقة سببية أقامها الاصطلاح والتواضع بين الإشارة ومرجعها وتصبح هذه الإشارة أشد وضوحاً عندما تعين على وجوه الخصوص شيئاً من الأشياء أو حدثاً أو سمة من السمات المادية .

فالإشارة هنا تبين الواقع غير اللغوي وتظهره وتدل عليلة دلالة ذاتية ، ولكنها في نظـر اللسانيات تدل دلالة ذاتية تحيل مرجعها إلى المخاطب لا إلى السامع .[١]

وهنا خالفت اللسانيات مبدأ اللغة العربية التي يتجه فيها القصد تارة إلى التعبيـر فيحمـل معنى، وتارة إلى المضمون فيحمل معنى آخر كقولنا (حمى الوطيس) . وتدخل في هـذا القـسم العلاقات السياقية التي تدل على علاقات التسلسل والتوافق بين الكلمات أو الأشياء على مـستوى المقال الفعلي ، وهى علاقات المجاورة .

أما النوع الثاني متصل بالعلاقات الإيحائية أو الاستبدالية ، أي علاقة كـل عنـصر فـي السياق بما يثيره من عناصر مخالفة له ويطلق عليها في التيـار البنـائى علاقـة المخالفـة أو الاستبدال .[١]

ومفهوم الاستبدال والمخالفة يجعلنا نداف لمفهوم آخر اهتمت به البنائية اللغويـة ، وهـو انحراف اللغة عن معيارها أو خروجها عن الاستعمال المألوف .وسمى البنائيون ذلك (انزياحاً) ، وهو أن تحتوى العبارة على انزياح يخرج بها عن المعيار ، فقولنا (البحـر أزرق) لا يتجـاوز كلام الناس ، وسمى بالدرجة الحيادية أو الدرجة (صفر) للتعبير ولكن أن ينتزع فنقول (البحـر بنفسجي) فإن هذا يشمل أسلوباً وهو في البلاغة العربية تعبير بلاغي مجازى .

يمكن القول أن مفهوم الانزياح عولت عليه البنيوية كثيراً واعتبرته انحرافاً عن الأداء الفعلي ويتمثل فى الأنواع الآتية [٢] :-

(١) انزياح عنصر من العناصر المكونة للنص عبر مقصود عنصر سابق عليه ، مما يؤدى إلـى قطع التتابع الدلالي وكسر السياق وتمزيق التناغم الداخلي ، وتفتيت الوحدة المعرفية لتنافى النص ، وجعلها وحدات يربط بينها الوزن و الإيقاع . [٣]

ويقول المسدى [٣] : ((وتكاد جلّ التيارات التي تعتمد الخطاب أسـاً تعريفيـاً كأسـلوب ينصب في مقياس تنظيري هو بمثابة العامل الموحد بينهما ويتمثل في مفهوم الانزياح ولئن استقام

---

[١] الأسلوبية - د. منذر عياش - ص ٧٢ - ٧٣ .

[١] النظرية البنائية فى النقد الأدبي - د٠ صلاح فضل - ص ٢٠٣ .

[٢] الأسلوبية - منذر عياش - ص ٧٦ .

[٣] وقد سمى العرب هذا الضرب (بالمتنافر) ومثال ذلك قول المتنبئ :

خليليّ إن الهوى صبـــــــر *** وإن أبـــا الحسين كــــريم

ويقول أبى تمام :

لعب الشيب بالمفارق بــــل *** جد فـأبكى تماضراً ولعوبـا

يـــا نسيب الثغام ذنبك أبقى *** حسناتي عند ا لحسان ذنوبـا

ولئن عبن مـــــا رأينــــا *** أنكرن منكراً أو عبن معيبـا

حيث نجد النص يضع أمامنا صورة لحسان يبكين شيب الرجل أولاً ثم يفاجئن بمعنى آخر يعيب فى الرجل على شيبه .

[٣] الإسلوبية والإسلوب د. عبد السلام المسدي – ص ٩٨ .

له أن يكون عنصراً قاراً في التفكير الأسلوبى فلأنه يستمد دلالته لا مع الخطاب الأصغر كالنص والرسالة ، وإنما يستمد تصوره من علاقة هذا الخطاب الأصغر بالخطاب الأكبر وهو اللغة التي فيها يسبك ، ولذلك تعذر تصوره في ذاته إذ هو من المـدلولات الثنائيـة المقتـضية لنقائـضها بالضرورة فكما لا نتصور (الكبير) إلا في تطابقه مع الصغير فكذلك لا نتصور انزياحاً إلا عن شئ ما ، وهذا المضمار الأصلي الذي يقع عنه الخروج وإليه ينسب الانزياح)) .

(٢) ومن نماذج الانحراف عن الأداء ، انزياح النص عن الشفرة اللغوية المتعارف، عليها كقوله تعالى : (وهو الذي جعل لكم الليل لباسا) . فلفظ (اللباس) ليس من خواص الليل كقولنا (الليل مظلم) ، والجدير بالذكر أن كل هذه الأمثلة ما كانت لتؤدى وظائفها لو لم تكن قائمة على هذا النوع من الانزياح أو ذاك ، وهذا نعنى به أن الوظيفة هي التي تعطي الأسلوب الذي يتجلى التعبير فيه هيئته المخصوصة التي خالف فيها المعيار وانزاح عنه ، وإذا كان هذا هكذا فانه يمكن تحليل الانزياح على النحو التالي : أنه معيار يحدده الاستعمال الفعلي للغة ، ذلك لأن اللغة نظام ، وإن تقييد النظام هو الذي جعل النظام معياراً وأعطاه مصداقية الحكم وقبوله .

حيث نجد النص يضع أمامنا صورة لحسان يبكين شيب الرجل أولاً ثم يفاجئنا بمعنى آخر يعبن فيه الرجل على شيبة .

ومـــن هنا اعتبر الانزياح في الفكر البنيوي كسراً للمعيار وخروج عن المـألوف .[1]

ويجعلنا ذلك الوقوف على محوري الاختيار والتأليف فـي التحليـل البنيـوي ، و ميـز البنائيون بين مظهرين من مظاهر التأليف ، المظهر الاختياري الذي يتصل بانتقاء رمز مـا مـن بين الاحتياطي الممكن من الرموز المشابهة ، وهى القيم الاستبدالية والإيحائية ، وهـى تتـصل بالاستعارة وهى إحلال كلمة محل أخرى لأداء المعنى نفسه وإن لم يكن لها نفس القيمة ، في قوله تعالى : (والليل إذا عسعس) ، (والصبح إذا تنفس) .

والمحور الآخر يمثل المظهر التوفيقي الذي يتصل بتسلسل الرموز المختارة هكذا طبقـاً لحاجات القول ، وذلك يقابل في البلاغة العربية ، المجاز المرسل والكناية اللـذين ينتقـل فيهمـا المعنى من رمز إلى آخر .

---

[1] الأسلوبية - منذر عياش - ص ٧٧ .

واعتمدت البنائية علاقة التشابه لأنها توافق مذهبها الرمزي السيمولوجى ، كمـا ارتـبط المذهب الواقعي بعلامة المجاورة [٢] ولذلك اهتم التحليل البنائى بالأدوات اللغويـة الـواردة فـي النص من تكرار وزيادة وحذف لمعرفة وظيفتها في النص الوارد فيه ودورها في تكثيف الدلالـة الإيحائية ، وتشرح البنائية هذه الأدوار في محورين أفقي ورأسي ، تتجمع الكلمات التي تـستطيع أن تدخل في علاقات مع غيرها على شكل جمل في المحور الأفقي والمحور الرأسي ، ومحـور الاستبدال ، لأن كل واحدة من الكلمات فيه يمكن أن تأخذ مكان الأخرى ، ضمن العلاقـة التـي تقيمها سابقتها مع أي كلمة في محور التركيب ولذا فهو محور افتراضي يظهر المخزون اللفظي .

مترافقاً ضمناً مع القاعدي الكامن في قدرة المتكلم وكفايته اللغوية . أما الثاني أي محـور التركيب ففيه تقوم العلاقات بين عناصر استهدفها المتكلم ليركب بينها وبين ملفوظه ، وعلى هـذا الأساس يمكننا أن نلاحظ جملة من الفوارق بين المحورين نذكر فيها : [١]

(١) أن محور الاستبدال هو محور الكلمات ، وان محور التركيب هو محور الجمل ، كما أنـه يمثل محور الممكنات والافتراضات ، وأن مـ ـحور التركيب هو محور اللغة واقعاً وإنجازاً .

وهكذا نرى أن إسقاط ور الاستبدال الافتراضي على ور التركيب. الإ ازى سيؤدى إ تشكيلات لغوية جديدة ، وصياغات سياقية ودلالية متعددة .

وذكر د. صلاح فضل هذين النوعين من المحاور ، علاقتي الحضور والغياب ، وهـى علاقات تقوم بين العناصر الأفقية ، وأخرى تقوم بين العناصر الرأسية ، وتعد علاقـات الغيـاب علاقة معنى ورمز ، وعلاقات الحضور علاقة دلالية تتجاوز فيها الكلمات كدلالة التركيـب فـي المحور الأفقي ، أما العناصر الغائية فهي شديدة الحضور في ذاكرة القراء الجماعية ، وهى التي تقابل العلاقات الاستبدالية والخلافية . فحاول جاكبسون أن يضع قانوناً عاماً للغة الشعرية بأن قال إن هذه اللغة تتميز بسقوط المحور الرأسي على المحور الأفقي ، وعلّق د.شكرى عياد على هـذه العملية (والحق أنها عبارة هائلة) ، ثم يقول [٢] : - ((إنني بقيت زمناً لا أقرأ هذه العبـارة إلا تخيلت كارثة توشك أن تقع وكأنها على مذهب تداعي المعاني أو على مذهب الشبكات المفتوحة ، تذكرني بسقوط المنازل، وإنني لأرجو أن أكون قد شفيت من هذا الرعب الآن مع أنها لا جديـد فيها على الإطلاق إلا البراعة في حبك العبارة ووصلها بفكـرة سوسـير أن هنـاك طـريقتين متكاملتين غير متعارضتين للتحليل اللغوي ، إحداهما أفقية غايتها معرفة علاقة الكلمة المـذكورة

---

[٢] النظرية البنائية - د. صلاح فضل - ص ٢٠٤ .

[١] الأسلوبية - منذر عياش - ص ٨٢ .

[٢] مقال بعنوان موقف من البنيوية - د. شكري عياد - مجلة فصول - المجلد الاول - العدد الثانى يناير ١٩٨١م - ص ١٢٨ .

في النص بالكلمات التي من واديها ، إما لأن الاشتقاق يربط بينهما وإما التقارب في المعنى عـن طريق الترادف أو التضاد أو العموم أو الحضور أو نحوها)).

وبعد هذا العرض التحليلي لدلالات النص البنيوي ، ينبغي أن نقول أن البنيوية أولاً تمكّن نفسها من النص باعتباره فريسة ثم تبدأ في تمزيقه وتفتيته بعد معرفة الوظائف العـضوية فيـه ، فتبدأ في تبديده وتحويره ، وفى هذا الصدد يقول د. صلاح فضل قولاً بالغاً في الخطورة :[٣] ((وعلى هذا فإن البحث البنائى لا ينطلق من الأشكال ليستوضح المضمونات ، فقد لا يحتاج ذلـك إلى منهج بنائي ، وإنما على العكس من هذا يبدد ويعدد الموضوعات و ويحرك المفاهيم الأولـى ليصل إلى لون من علم الأشكال ، وقد تضمن له تلك الحركة ميزة كبرى إذ يبـدأ مـن بعـض المفاهيم الأليفة ثم لا يلبث أن يهجرها أو يحولها ويمضى)).

فإذا أحسنا الظن بالبنيوية اللغوية وقلنا أنها منهج لغوى تحليلي يعتمد على اللغـة كـأداة بعناصرها المختلفة لتحقيق وظائف تعبيرية ، ثم ا لكشف عن هذه الوظائف بواسطة اللغة التـي تشرح نفسها بنفسها .

وأما إذا اسئنا الظن بهذا المنهج اللغوي في التحليل ، نلمح أن غاية البنيوية فـي معرفـة أساليب الانحراف عن الأداء الفعلي ، التي هي قيم تعبيرية تجلي المضمون وتظهـره ، ولكنهـا تنظر إلى هذه الانحرافات على أنها ثغرات ونوافذ يمكن من خلالها رؤية أعماق الـنص الكامنـة خلف سطوح المعاني ، لتجعل ذلك عوناً لها للتأويل والشرح والتفسير والتحريف وإن كان بعيـداً عن حقائق الواقع الملموس أو الأفكار الحقيقية لمبدع النص بل هي مخالفة فكريـة أيديولوجيـة تسير بالنصوص إلى هوة سحيقة لا قرار لها .

وتأكيداً لذلك شبه البنائيون النص بالصندوق الأسود في الطائرة الذي يسجل الاتصال فإذا ما انفجرت أو سقطت أمكن العثور عليه سليماً وسط الحطام . وتحليل ما فيه من معرفة فعمليـة التحليل هنا هي التي تؤدى إلى انفجار النص بعد معرفة مضمونه أو معانيه الأوليـة ، وبـذلك يتبين لنا أهمية الانحراف (الاستعارة) في تحليل النص الأدبي ، أي بحث مضامينه خلف لغتـه وكلماته ، ناسياً أن مفتاحه الفعلي على هذه الكلمات وحدها باعتبارها وحدة لا تنفك عـن الـدال والمدلول .

و ا أصبحت دراسة الأدب علمية متأثرة بعلم اللسانيات العام ، ارتكزت على دراسة التطابق والتقابل وإمكانية التكرار وعمومية الرمز الضرورية .

---

٣ النظرية البنائية - د ٠صلاح فضل - ص ٢٠٩ .

ومـ ـن هنا سعى النقد لجعل الأدب علماً من خلال دراسـة الكلمـات وليـست الأفكـار ، وعبقرية الكاتب تكمن فـ ـ ـي إبداعه اللغوي و أما الحساسية المفرطة فلا تكفى لتكوين شـاعر [١].

فاستطاع جاكبسون بنظريته وظائف لغة الأدب و اختلافها ا وهري عن وظائف اللغة العادية أن يرسى أسس النقد ا ما ا ديث وأن يكشف عن ثانوية القيم النفسية والاجتماعية ، إذ تشكل منهجاً يساعد على فهم البنية الشكلية اللغوية للأعمال الأدبية [٢].

ولذا يمكن القول أن الفكر البنائي دخل إلى الشعر عن طريق التحليل اللغوي ، أي دراسة وظائف لغة الأدب ، و هو الجناح الأول للبنيوية ، ولكن السؤال الجوهري ، ما علاقة البنيوية بعلم الشعر ؟ ، وحيوية الإجابة تتناسب مع تعدد المعاني التي ترتبط بكلمة البنيوية .

فإذا اعتبرنا هذه الكلمة بمدلولها العام ، فكل دراسة علمية للشعر بنيوية ، ولا يقتصر هذا الوصف على نوع أو آخر من تلك الدراسة ، بما أن موضوع علم الشعر لا يمكن أن يكون بنيـة مجردة و الأدب مجموع الوقائع المحسوسة ، على العموم فإن الأخذ بوجهة النظر العلمية في أي مجال هو دائماً بالضرورة دراسة بنيوية .

أما إذا عنينا بهذه الكلمة مجموعة فروض معينة محددة تاريخياً تعالج اللغة على أنها نظام للاتصال أو الوقائع الاجتماعية على أنها ناتجة من مصطلح متعارف عليه فليس في علم الـشعر شئ يتميز بصفة بنيوية خاصة ، بل إنه يمكننا القول أن الواقعة الأدبية ، ومن ثم البحـ ث الـ ذي يتناولها أي علم الشعر يمثلان بمجرد وجودهما اعتراضاً على بعض المفاهيم الأدبية للغـة التـي ظهرت في بدايات البنيوية .

ونستنتج من ذلك أن البنيوية قد عكست التعارض القائم بين الأدب . كوقائع اجتماعيـة ، وعلم الأدب كدراسة علمية للشعر والبنيوية على أنها منهج قائم على اعتبار اللغة نظاماً للاتصال أي وجود أساس لغوي والمعني من ذلك أن كل عمل أدبي هو عمل فردى ، وإذا كانت الفرديـة صفة ملازمة لكل عمل أدبي ، فلا يمكن فصل أدبية العمل عن فرديته ، ومن ثم لا يمكن الحديث عن بنية تخضع لها كل الأعمال الأدبية وقد شعر البنيويـ ون بـ ذلك التنـ اقض فـ سموا أنفـ سهم بالسيمولوجيين. وتحدثوا عن سيمولوجية الأدب أكثر مما يتحدثون عن بنيته .

واعتبر علم الشعر مبحثاً من مباحث السيمولوجية ، ولكي نجلو التيار اللغوي في البنيوية نقف على علم اعتمدت عليه في خلق التوازن بين الأدب كعمل فردى والبنيوية كنظام لغوى كلى

---

[١] النظرية البنائية - د ٠صلاح فضل - ص ٢١ .
[٢] لمرجع السابق - ص ٢١١ .

، وعلم الأدب ، الذي يشرح الأدب من خلال النظم الرمزية التي تتخللـه ، ولكـن هـذه الـنظم الرمزية لا تحقق نظاماً واحداً كلياً ثابتاً ، لذلك اعتمدت البنيوية القول بأن كل نص نموذج نفسه أو بعبارة أخرى إنه يجب أن يدرس بما هو مخالف .

ونقول هنا ما قاله المسدى [1] : ((ولعل قيمة مفهوم الانزياح على مادة مفهوم الخطـاب تكمن في أنه يرمز إلى صراع قار بين اللغة والأسلوب ، وهو بدأ عاجزاً عن أن يُلِمَّ بكل طرائقها ومجموع نواميسها وكلية أشكالها كمعطى (موضوعي) ما ورائي ، في نفس الوقت بل إنه عـاجز عن أن يحفظ اللغة شمولياً ، وهى كذلك عاجزة عن أن تستجيب لكل حاجته في نقل ما يريد نقلـه و إبراز كل كوامنه من القوة إلى الفعل ، وأزمات الحيوان الناطق مع أداة نطقـه أزليـة صـور ملحمتها الشعراء والأدباء مذ كانوا ، وما الانزياح عندئذٍ سوى احتيال الإنسان على اللغة وعلـى نفسه لسد قصوره وقصورها معاً)) .

وإذا كانت البنية وتحليلها ، هي هدف من أهداف اللغة البنيوي ، فقد كانت أيـضا هـدف النحاة العرب وعلماء اللغة في التراث العربي ، فكتاب سيبويه شمل على عناصر بنيوية ، كمـا أن نحاة العربية الأوائل ، مثل الخليل وسيبويه قد ميزوا بين مستويين من مـستويات الدراسـات النحوية : -

المستوى الأول :

مستوى الأداء وتمثله القواعد المجردة .

والمستوى الثاني :

ويتمثل في علاقة المبني بالمعنى ، وتمثّله العلاقات التركيبية المختلفة بين الكلمات داخـل الجمل بعضها ببعض ، وقد أدرك النحاة العرب ، بحق ، العلاقة بين المبنـى والمعنـى ، مـا الإعراب وتقديره إلا خدمة للمعنى وكذلك تعدد التخريجات الإعرابية يرجع إلى الوصول إلـى المعنى و التقدير النحوي .

فالنحو العربي في بداياته التكوينية الأولى جمع التراكيب والدلالة ، ففي الوقت الذي نجد فيه سيبويه قد اهتم بالجانب التركيبي ، كان ينتقي من تراكيب العربية الصحيح وينحى بالخطـأ ، إذا به يردك إلى المعنى ، باعتباره أساساً في اللغة ، وقدم د. سمير شريف شرحاً وافياً إذ عرض قول سيبويه في المدح والذم الذي يفترض فيه أنه نمط محفوظ ، وإن الجانب التركيبي في بنائـه ملحوظ [1] ، يقول سيبويه : ((واعلم أنه محال أن تقول (عبد ا نعم الرجل) ، الرجل غير عبد

---

[1] الأسلوبية والأسلوب - عبد السلام المسدى - ص ١٠٦ .
[1] اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج د. سمير شريف ستيتة – ص ٢٤١ .

ا ، كما أنه محال أن تقول (عبد ا هو فيها) وأعلم أنه لا يجـوز أن تقـول (قومـك نعـم صغارهم وكبارهم) وقومك نعم القوم ، وذلك لأنك أردت أن تجعلهم من جماعات ومن أمم كلهم صالح ، كما أنك قلت : (عبد ا نعم الرجل) ، فإنما تريد أن تجعله من أمم كلهم صالح ، ولم ترد أن تعرف شيئاً بعينه بالصلاح بعد نعم)) [٢] .

ولخّص سمير شريف قول سيبويه فى النقاط الآتية ، [٣] مؤكداً صحة المعنى هو الأساس ،:-

(١) أن صحة التركيب مرتهنة بصحة المعنى وسلامته .

(٢) أن النحو تابع للمعنى .

(٣) إقامة التركيب على ما استقر عليه الاستعمال على ألسنة العرب الفصحاء .

(٤) مراعاة القصد ، ففي العبارة السابقة لما كان قصد المتكلم أن يمدح القوم كلهم ، فقد وجب أن يقول (قومك نعم الصغار ونعم الكبار) ، فالمخصوص بالمدح هنـا القـوم كلهـم لا الـصغار باعتبارهم صغاراً ، ولا الكبار باعتبارهم كباراً ، باعتبارهم جميعاً معادلاً تكوينياً للقوم ، ولكنـك إذا قلت (قومك نعم صغارهم و كبارهم) كأنك ابتدأت بذكر القوم لا لتخصهم بمدح ، بل تخص فئتين منهم بذلك ، وهذا يعنى كما كنت تستثنى القوم مما تخص به صغارهم و كبارهم من مدحٍ .

(٥) الاستعمال لأداء المعنى :-

اعتبر سيبويه هذا الاستعمال غير جائز لأداء المعنى ، لأن قولك (قومك نعم صـغارهم وكبارهم) يجعل هاتين الفئتين دون غيرهما ، معرفتين بالصلاح ، أي مخصوصتين به ، وليس هو المقصود .

وعلى هذا يجرى النحو العربي من تكامل التركيب والمعنى ويسير سيبويه ويمضى فـي مناقشته الظواهر النحوية في أبواب النحو المختلفة .

ومن هنا ندرك أن الإعراب علم دراسة التركيب لا علم التركيب فقط .

ويقول فندريس :- ((إذا حاولنا أن نُدخل في مسائل النحو شيئاً من النظام بتصنيفها وفقاً للمنطق رأينا أنفسنا منساقين إلى توزيعها توزيعاً تحكّمياً ، فطوراً ترانا نفرق بـين مـسائل ذات صفة نحوية واحدة في فصيلتين متميزتين من فصائل المنطق وفى ذلك إكـراه للغـة وطـوراً يجمع في فصيلة نحوية واحدة ، مسائل لا يرتبط بينها شئ من المنطق وفى ذلك إكـراه للعقـل فالأيسر إذاً أن نختار طريقة وسطاً بين هاتين الطريقتين من طرق التصنيف ، وفى ذلـك تبريـر لمسلك النحاة الذين لا نعدم أن نجد قيمة نحوية في مصطلحاتهم ، وإن كانت تحكمية وخالية مـن

---

[٢] كتاب سيبويه - ج٢ - ص ١٧٧ .

[٣] اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج د. سمير شريف ستيتة – ص ٢٤١ .

المنطق في غالب الأحيان ، الشيء الوحيد الذي نطالبهم به هو أن تكون تصنيفاتهم وقد ضحوا فيها بالمنطق ، متفقة مع الأوضاع النحوية التي يتدارسونها)) .[1]

هذا هو الفرق بين أساليب المنطق و أوضاع اللغة بصورة عامة ، وهو فرق يزداد بعداً واتساعاً كلما كانت التراكيب اللغوية أصدق من التعبير عن الشعور النفسي، ذلك أن هناك تراكيب خاصة تفزع إليها النفس للتعبير عن حالة انفعالية مفاجئة طرأت عليها تراكيب لها من أصالة الوضع و وحي معناها التصويري ما لا يفلح بالتعبير عن مثله بألفاظ وربط بينها بأحكامه ، وأن الفرق بين المنطق وأساليبه واللغة وأوضاعها يتسع إذا نحن بحثنا في أمر اللغة الانفعالية .[2]

ويقول فندريس أيضاً : ((فاللغة الانفعالية تنفذ في اللغة النحوية وتسيطر عليها وتفككها ، ولذلك يمكن أن يفسر عدم استقرار النحو بفعل الانفعالية .... والجمل ليست رموزاً جبرية فالانفعالية لا تشكّل عبارة الفكر المنطقية وتلونها إذ لا يكرر المرء مطلقاً جملة واحدة بعينها مرتين ...ويرجع السبب في ذلك إلى ظروف دائبة على التعديل من أحوال انفعاليتنا)) .[1]

ويعلق أنيس [2] :- ((ونحن نجد القائمين من أمر النحو العربي يحاولون ضبط أحكام هذه اللغة مستعينين بشتى ضروب التقدير والتأويل لتحقق لهم الروابط المنطقية في إطار اللغة مع إن للغة منطقها الخاص)) .

التكرار وبنية اللغة :

إهتم رجال البلاغة بتحسس الجملة ، ثم توصيف جزئياتها للكشف عن خواص الوسائل التعبيرية ، وكان الاهتمام البلاغي بالمستوى الشكلي المحسوس الذي هو وسيلة إلى الوصول للمستوى الباطني غير المحسوس ، وكان أمام البلاغيين أمرين : -

(١) فكرة خفية تدور في باطن الذهن .

(٢) مستوى سطحي ملموس ، لا كن الوصول إ ا ستوى الأول إلا بالتحرك داخل خيوط ا ستوى الثا ، وإن الفصل بـ الأمرين ، أمر غاية الصعوبة ، ولكنها عملية لا بد منها ، ليكشف عن ا واص الدلالية ، فالإمساك با ستوى السطحي والتحرك بـ جزئياته والكشف عن نظامها كّن الكشف عن الدلالة صور ا الغريبة ، فالعملية الكشفية تعتمد على شئ مادي هو حدود ا ع وغايته، وللكشف عن الثنائيات ا تقوم على التقابل أو التطابق الظاهري ، لكنها تسـ مسار التحولات الدلالية ، ا تبدأ من منطقة ا ع ا حدودها ا ميزة إ حدود منطقة أخرى تتصل بالأو نوع اتصال ، وقد تنفصل عنها الـدلالة، لكنها تظل نا ة عنها ومتحولة منها ، أي أن التقابل والتطابق يصبح عملية و فكرى ، فيأخذ أشكالاً تلفة ، ويكون التحول على مستوى عميق يتبعه الظاهر السطحي تفريعات كن رصدها خلال النماذج التطبيقية . وليس التقابل أساس هذه التحولات البنية التركيبية بل إن أ اط الأداء تتكاثر ستويات تلفة صوتية ، وغ صوتية لتصنع كثـ اً من هذه التحولات ا نظر فيها البلاغيـ العرب.

---

[1] للغة - لفندريس – ترجمة القصاص والدواخلى - ص ١٥٣ .
[2] المرجع السابق - ص ٧٦ .

[1] للغة - لفندريس – ترجمة القصاص والدواخلى - ص ٢٠٢ .
[2] أسرار اللغة – د. إبراهيم أنيس – ص ١٠٤ .

وقـد إهتم البلاغيون بالتنويعات اللغوية التي تأتى في مستوى السطح فتقدم الدلالة الفنية ، ويكون ذلك من رصد التوافق أو التخالف في الكلمات والجمل ، وهذه المؤثرات تتحـول وتتبـدل وتنحرف عن الاستعمال المألوف لتكون تنوعاً فردياً أو جماعياً .

ولذا كان تحرك البديعيين ، على مستويين ، مستوى سطحي ، ومستوى باطني . بما أننا نمتلك إمكانات تكون الجملة شكلياً ، فإن هذه الإمكانات تتيح لنا وصف بنية الجملة وكيفية ارتباط المعنى بمجموعة من الألفاظ المنطوقة أو المكتوبة ، بقدر ما نتمكن من وصف بنية الجملة بقدر ما نستطيع أن نلقى الضوء على العلاقات المتمثّلة فيها والتي تربط بين الشكل والمضمون .

فالبلاغيون يرصدون مختلف ألوان البديع ، وما لها من قيمة شكلية في الأداء من أجـل ، أن اللغة تستعين بتنظيمات لا حصر لها ، ويتكشف من ذلك أن البحث البديعي يجمع بين ألوانـه علاقة تحتية تحكمه وتهيمن عليه ، إذ المنطق الذي له يتمثل بدرجة خفية في عملية التكرار التـي لازمت عملية التشعيب والتقسيم ، فالتكرار هو الممثل بالبنية العميقة التي تحكم حركة المعنـى . في مختلف ألوان البديع ، لا يمكن الكشف عن هذه الحقيقة إلا بتتبع المفردات البديعة في شـكلها السطحي ثم ربطها بحركة المعنى .

وهنا يتضح أن البديعي أحكموا الربط بوعي أو دون وعى . ب تشكيلا م وتوصيفا م بـرباط كلي عل مـ ـ ـن رصد الظواهر البديعية وسيلة للوصول إ الدلالة صور ا الكلية . وذلك بالرغم من أن البديع نفسه قام على ظواهر جزئية داخل حدود ا ملة . [1]

ولذا يجب الوقوف على ما قدمته لنا كتب البلاغيين من محسنات لنحاول الجمع بينها داخل النظام الذي يحكمها ، دون أن نفرض هذا النظام عليها وإنما نترك عناصر الصياغة أن تفرز ما خفي من دلالاتها عن طريق المستويات الصوتية أو التركيبية ليكون ذلك وسيلة للقـول بظـاهرة التكرار التي نجمع بينها .

فحضور النقيض يستدعي حضور نقيضه غياباً و مما يعطى التقابـل طبيعـة تكراريـة مزدوجة من خلال حركة الذهن بين المتناقضات ، وبرغم أن النظام اللغوي لا يعـرف إلا نـسقه الخاص وإنما يخضع لقواعد تتحكم في علاقاته ، برغم ذلك تظل علاقة التضاد تعبيـر أ يقدمـه المعجم للمتكلم ، وعلى هذا يكون استحضار معنى من المعاني مؤدياً إلى استحضار مقابله ، فـإذا جمعنا بين المتقابلين كان الجمع بين الحضور والغياب .

---

[1] انظر التكوين البديعي - محمد مطلوب – ص ١١٩ – ١١٨ .

وتتراكم العملية التكرارية في المقابلات المركبة داخل نطاق المماثلة في مثل قوله تعالى : (مكروا ومكر ا وا خير الماكرين) وقوله تعالى : (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً) فهنا نجد توالى مفردات يجمعها المستوى السطحي وإن اختلفت نوع الخـتلاف فـي المـستوى العميـق والتكرارية ملحوظة على مستوى البناء الشكلي ، كما هي ملحوظة على مستوى البنية العميقة ، إذ تتوارد لفظتان بمعنى واحد أو بمعنيين مختلفين ، ولكن طبيعة البعد المكاني للفظتين هو الذي نقل البنية من نسق التكرار إلى نسق رد الأعجاز على الصدور فكان هنا لا بد أن يتوفر فيـه ذهنيـاً مسافة في الدلالة تسمح للفظة التالية أن تستقر بعدها محققة نوعاً من اكتمال المعنـى . فالطبيعـة التكرارية واضحة من حيث يحتوى الكلام على ما يدل على آخره ، أو ما يشعر به كقوله تعالى : (ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجازى إلا الكفور) فإذا وقف المتلقي على قوله تعالى ، (وهـل يجازى) بعدما تقدم من الكلام والإحاطة به ، فإنه يعلم لا محالة خاتمة الآية . فالنظر إلى السياق يؤدى إلى وجود توقع يشارك به المتلقي المتكلم . ويكاد يتصل باللون التكراري بعـض أشـكال التعبير التي يخلو فيها التكرار من طابعه الصوتي والدلالي ويخاص لعملية توالد المعنى من حيث البدء بنقطة محددة ، ثم مدها إلى مفردات أخرى تتصل بها مباشرة ، وقد تكون هذه المفردات في الشكل أسماء فيسمى اللون بالتعديد في مثل : -

الخيل والليـل والبيداء تعرفني والطعن والضرب والقرطاس والقلم

التقديم والتأخير وبنية اللغة :

لا شك أن حرية اختيار الألفاظ في اللغة تقع في نطاق نظام بنائي محدد و حيـث تكـون الصياغة محكومة بطبيعة المقام وارتباطه بالمتلقي من ناحية والمبدع من ناحية أخـرى ، وبهـذا يكون الحصر مساعداً على كشف حركة الصياغة في اتجاهاتها المختلفة ، والتي منها ما يـذهب طولاً ، ومنها ما يذهب عرضاً كما يقول عبد القاهر الجرجاني [1] وحركة الصياغة تعتمد بدورها على مجموعة من الثنائيات التحويلية التي تكسب الصياغة خواصها الإبداعية، فالنظر إلى الحركة الطولية والأفقية يتبين منها وجود ثنائية بارزة هي (التقديم والتأخير) وهى في جوهرها تـزاوج الفكر واللغة ، ذلك أن أي تغيير في حركة الفكر يتبعه بالضرورة تغيير فـي الـشكل الـصياغي المجسد له ، وإن كان من اللافت أن النظرة العامة لطبيعة التقديم والتأخير أخذت شكلاً ظاهرياً خالصاً .

---

[1] دلائل الإعجاز - الجرجانى – ص ١٣٧ .

فالمنهج الوصفي يبين لنا أن الجملة تتألف من عناصر ترتبط ببعضها ببعض ويأتي كل واحد منها أثر الآخر في ترتيب معين ، وبما أننا لا نستطيع أن ننطق بعنصرين صوتيين في آن واحد ، فإن ذلك يبرهن على أن الجملة ذات طبيعة خطية ، وبمعنى آخر أن المتكلم يتحرك إلى الأمام في عملية النطق ، ذلك أن الكتابة ليست جوهر اللغة ، وإنما هي عرض لها ، ولكن المؤكد أن اللغة والفكر وجهان لعملة واحدة ، فحركة الفكر لا بد أن تتوافق مع حركة الصياغة في التقدم للأمام لإتمام هدف الإيصال . [٢]

وعلى هذا فإن عملية نقل أحد عناصر التركيب من مكانه الأصلي إلى مكان آخر يجب أن ينظر فيه من حيث حركة الفكر ، وما دام الفكر يتحرك للأمام يكون نقل اللفظة من موضعها إلى موضع قريب من بداية الكلام لا يمثل تقديماً إلا من الناحية الكتابية ، أما من حيث حركة الفكر فهو تراجع إلى الوراء أو هو تقديم تراجعي هذا على حد تعبير الدكتور محمد مطلوب ، وهذا النحو قريب من تحريك قطع الشطرنج فوق رقعتها ، فنقلها إلى الأمام هو الأمر المنطقي الذي يكسبها صفة التقديم بينما نقلها إلى الخلف هو الذي يكسبها حركة تراجعية أي التأخير ، لكل حركة أسبابها وأهدافها التي تسعى لتحقيقها متوافقة في ذلك مع حركة الذهن من ناحية ، ومع الإمكانات التركيبية في رقعة الشطرنج أو اللغة من ناحية أخرى .

وربما كان هذا الإدراك الذهني وراء مقولة عبد القاهر بأن التقديم على وجهين :-

الأول :

تقد على نية التأخ ، وذلك يتمثل كل شئ أقررته مع التقد على حكمه الذي كان عليه جنسه الذي كان فيه ، كخ ا بتدأ إذا قدمته على ا بتدأ ، وا فعول إذا قدمته على الفاعل .

الثاني :

تقديم لا يكون على نية التأخير ، ولكن ينقل الشيء من حكم إلى حكم بحيث يجعل في باب غير بابه وإعراب غير إعرابه ، وذلك بأن تعمد إلى اسمين يتمثل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ والآخر خبر له .[١]

أي إن حركة الذهن هي الحكم في تحديد موضوع اللفظة بالنسبة للتقديم أو التأخير وليس الأمر مجرد رصد بعد مكاني ترد فيه اللفظة فحسب .

ومن هذا المنطلق يرى عبد القاهر أن من الخطأ تقسيم الشيء ، في تقديم الشيء وتأخيره قسمين : -

---

[٢] التكوين البديعي محمد مطلوب - ص ٨١ .
[١] دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجانى - ص ١٣٧ ٠

فيجعل مقيداً في بعض الكلام ، وغير مقيد في بعض وأن يعلل تارة بالعناية ، وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب ، حتى تطرد لهذا قوافيه ولذاك سجعه ، لأن من المستبعد في جملة التنظيم ما يدل تارة ولا يدل تارة لأنه إذا ثبت في تقديم المفعول مثلاً على الفعل أنه اختص بفائدة و فإن هذه الفائدة تنتفي مع التأخير و ومن هذا السبيل من يجعل التقديم وتركه سواء ، وأما مـن يجعله بين فيزعم في بعض ، فما ينبغي أن يرغب عن القول به .

ولا شك أن كل ذلك يوجب علينا مراجعة كثير من المقامات التي ارتبطت بمسألة التقـديم والتأخير ، ولكي تتوافق هذه المقامات مع الحركة الحقيقية للفكر فمقولة كمقولة التقديم للأهميـة ، تصبح في حاجة إلى مراجعة من خلال رصد الحركة الذهنية وتوافقها مع الصياغة تقديماً وتأخيراً ، مع الأخذ في الاعتبار طبيعة الاحتمالات التي تغلّف الصياغة لأن فقدان هذا الاحتمال يؤدى إلى جبرية تخرج الصياغة عن طبيعتها الفنية إلى اللغة المألوفة العادية، ذلك إنه إذا جاء التركيب بيناً أنه لا يحتمل إلا الوجه الذي هو عليه حتى لا يشكّل وحتى لا يحتاج في العلم بأن ذلك حقه وأنه الصواب إلى فكرة وروية فلا مزية وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذ احتمل في ظاهر الحـال غير الوجه الذي جاء عليه وجهاً آخر ، ثم رأيت النفس تنبو عن ذلك الوجه الآخر ورأيت الـذي جاء عليه حسناً وقبولاً ....إذا أنت تركته إلى الثاني [1] ومدلول الفكر والروية عنـد الجرجـاني يؤكد امتداد جذور الصياغة إلى ذات المبدع ، كما يشكّل بعداً إدراكياً لوعيه بالمكونات المتـشابكة لجزئيات الصياغة ،

وهو ليس إدراكاً آلياً ، وإنما هو إدراك خلاق يكشف المستوى الجمالي للتعبير عن طريق خلاق بنية تتداخل فيها العلاقات وتتبادل التفاعلات بفنية تستمد قيمتها من الإمكانات النحوية .

---

[1] دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجانى - ص ٢٨٠ .

المبحث الثاني

النحو التحويلي والأسلوب الأدبي

أجمع النقاد رأيهم على أن الأسلوبية منهج من المناهج اللغوية في دراسة النصوص الأدبية ، وأن النص الأدبي نص لغوي لا يمكن سبر أغواره دون تحليل العلاقات اللغوية التي ينطوي عليها و ذلك أن التحليل يقودنا إلى تفهم الشحنة العاطفية الكامنة في النص والتي تؤثر في المتلقّين ، ولا يمكن النفاذ إلى قيمة العمل إلا من خلال النص ذاته ، من خلال صياغته البلاغية للعلاقات اللغوية .

وارتكزت مناهج الأسلوبية على ثلاث اتجاهات : - [1]

(١) النظر إلى الأسلوب الأدبي باعتباره خرقاً للأسلوب المعياري أو انحرافاً عنه.

(٢) النظر إلى الأسلوب الأدبي باعتباره نوعاً من التكرار المتوافق لأنماط لغوية بعينها في النصوص الأدبية .

(٣) التعامل مع الأسلوب باعتباره وسيلة من وسائل استغلال الطاقة الكامنة في اللغة ، ومحاولة وضع قواعد لإمكانات هذه الطاقة .

وتتناول هذه النقاط النظرية مدى التقارب بـ فكرة النحو التوليدي التحويلي والأسلوبية اللذين ثلان بدائل عيارية النحو والبلاغة .

ولما كان علم الأسلوب متأثراً بالنظرية السلوكية فإن بلومفيلد حاول أن يجعل من علم اللغة علماً تجريبياً سلوكياً ، مما دفعه إلى النظر في اللغة على أنها سلسلة من المنبهات والاستجابات ، ولقد كان لهذا تأثيره البالغ على الأسلوبية من حيث التركيز على المنبه من ناحية و الاستجابة من ناحية أخرى ، والنتيجة الطبيعية لذلك هي النظر إلى الأسلوب باعتباره انحرافاً عن الأسلوب المعياري ، من حيث أنه منبه متميز يحدث استجابة متميزة ومن هنا حاول هذا

---

[1] مقال بعنوان الأسلوبية الحديثة - د.محمود عياد - مجلة فصول النقدية - العدد الأول - لمجلد الثاني (١٩٨١م) - ص ١٢٥ - ١٢٦ .

الاتجاه إرساء الأسس ا لموضوعية للعملية الادراكية التي يدرك من خلالهـا المتلقـي الظـواهر اللغوية للأسلوب الأدبي .

ولكن القول بأن المؤثرات الأدبية منبهات ذات استجابة محددة ، فإننـا نتجـاوز طبيعـة العمل الأدبي ، الذي لا يقبل الثنائية . كما لا يحصر الاستجابة خارج سـياقات تتجـاوز العمـل الأدبي ومن هذه الزاوية ميزت المدرسة البنائية بين صفات الأسلوب الأدبي الذي ينحرف عـن القواعد العامة ، فالأسلوب انحراف عن لغة المواضعة ، نمط متميز،إذا كانت لغة المواضعة هـي المعيار الأول ، فإن الدراسة اللغوية للأسلوب تبحث عن كيفيات هذا الانحراف وتؤسـس درسـاً أسلوبياً يكشف عن التباين والانحراف .

أما مدرسة لندن فقد ثبتت مفهوم مختلف لمصطلحي المعيار والانحـراف وتتمثـل هـذه الدراسات في تطوير الأفكار للعالم اللغوي فيرث ، وسموا بالفيريثون الجدد ، وتعميمه لمفهـوم (سياق الموقف) Ontext Sutuation ذلك المفهوم الذي يكشف مزيداً من الأبعاد الإجمالية للغة ، وقـد ألحت هذه المدرسة على استحالة فهم اللغة دون الرجوع إلى موقف السياق والنص .

ولذلك درسوا جوانب الأسلوب من زاوية مصطلح الـسجل الـسياقي (Rigistor) وهـو مصطلح يكشف عن مفهوم يرد اللغة إلى أساس اجتماعي واضح ، ويضمن ألا تقوم الدراسة مـن فراغ ، ولذلك فإنهم أكدوا دراسة اللغة الأدبية من حيث مقارنتها بخصائص سجلها السياقي المتعين ، أي مجموعة الاختيارات المستخدمة في شكل لغوى ، وهؤلاء جعلوا الأدب لغة خاصة ولكنهم لم يفارقوا فكرة المعيار .

والاتجاه الثاني يرى الأسلوب باعتباره نوعاً من تكرار الأنماط أو توافق الظواهر اللغوية ، والوظيفة الشعرية تقوم على إسقاط مبدأ المماثلة من محور الاختيار إلى محور التضام ، وهـى اللغة الشعرية القادرة على خلق سلسلة من العلاقات التركيبية ، تماثل إلى أكبـر حـد العلاقـات الوثيقة التي تربط ما بين الأجزاء المنفصلة ، في مجموعة لغوية استبدالية .

و كن القول أن اللغة الشعرية تقوم على نظم العلاقات شكل سلسلة من الاختيار ، ومن تقوم رق هذه السلسلة ، عند ظة الاختيار .

وهذا الاتجاه يطبق نظريات تشومسكى من ناحية ومبدأ ياكبسون مـن ناحيـة أخـرى ، محاولاً وصف الوحدة التأسيسية أو ما يسمى (بالازدواج التبادلي) ، ويعنى التوافق بين زوجـين من العناصر يترابط كلاهما ترابطاً دلالياً .

وهذا الانحراف يُدَرس في إطار نظرية النحو التوليدي ، والنظرية قادرة علـى وصـف القواعد والتنبؤ و ولا تصف السطح فحسب بل تتميز بقدرتها على الكشف عن الإمكانات الباطنة ، والكامنة بالضرورة في أي قصيدة .[1]

ويتميز هذا الاتجاه بمحاولة الربط بين الوصف اللغوي للأعمال الأدبية والإمكانات الكامنة في اللغة الشعرية .

وهذه الدراسات لم تثمر لأنها مجرد محاولات لإظهار القدرة الأسلوبية على وصف ملامح اللغة ، ولا تربط بين الوصف والمعنى ،ولا تضع في اعتبارها مشكلة التأويل . ويمكن القـول أن الأسلوبية تبحث عن المعنى الكلى في النص .

والاتجاه الثالث يتعامل مع الأسلوب باعتباره وسيلة من وسائل استغلال الطاقة الكامنة في اللغة ، ومحاولة وضع قواعد لإمكانيات هذه الطاقة وكذلك هذا الاتجاه يبين نظرية قواعد النحو التحويلي باعتبارها أساس دراسة النصوص ، وذلك بقدرتها على الكشف عن الطاقات الكامنة مـن قواعـد النصوص الأدبية ، وتصنيف اللغة إلى مستويين هما : المستوى السطحي الظاهري ، والمستوى الباطني ، وإذا كانت عملية التأويل الدلالي تبدأ من المستوى الباطني فإن التأويل الصوتي يبدأ من البناء السطحي وربط مجيء المستويين بين مجموعة من التحويلات الإجبارية والاختيارية التـي تغير المعنى من أساسه .

وأن اختيار الكاتب مجموعة من التحويلات الكامنة في النظام اللغوي ، إنما هو اسـتخدام مميز لطاقات اللغة .[1]

فالنظرية التحويلية ذات طابع اختياري ء التركيب ا عطى كن ويله إ تراكيب متعددة على مستوى السطح ، دون تغي هام ا ء الدلا ذا التركيب . ومن هذه التحويلات التحويل الذي يعيد تنظيم ا ستوى السطحي و ويلات التضام والإضافة ، وا ذف ولذلك كن للنحو التوليدي أن يولد الكث من التراكيب ال تع نفس الشيء وهذه بدائل أخرى .

ولا شك أن هذه التحويلات تغير شيئاً من الحقيقة ولكنها تترك الجانب الأكبر دون تغييـر فالتركيب المحول يحتفظ بعلاقته التركيبية مع التركيب الأصلي ، مع أن العلاقة بين هذه البـدائل الأسلوبية علاقة حدسية ، فإن النظرية التحويلية تقدم تفسيراً موضوعياً لهذه العلاقـة الحدسـية فتنقلها من مستوى إدراكي إلى مستوى إدراكي آخر .

الأسلوبية والبنائية :

---

[1] الأسلوبية الحديثة - د٠ محمود عياد - مجلة فصول – ص ١٢٧ .

[1] الأسلوبية الحديثة - د٠ محمود عياد - مجلة فصول - ص ١٢٨ ٠

الأسلوبية علم نقدي أدبي حديث يركّز على دور اللغة في النقد الأدبـي بوصـفها المـادة الأولية التي يشكّل منها المبدع نفسه ، والأسلوبية ، علم يختلف عن علم الأسلوب القديم ولتحديـد الفصل التام بين العلمين جاء العلم الحديث (الأسلوبية) اسم مؤنث من أسلوب وتأنيثه يكمـن فـي منطق الاشتقاق اللغوي الحديث [(٢)] . في إطلاق أسماء على مذاهب والفلسفات العلوم ، وهو منطق له جذوره القديمة . وظهرت الكلمة أسلوبية في القرن التاسع عشر ، لكنها لم تصل إلـى معنـى محدد إلا في السنوات الأولى من القرن العشرين ، ويفهم منها الآن أنها طريقة نوعيـة لدراسـة الأعمال الأدبية من حيث أسلوبها ، أي النموذج الخاص الذي تصاغ فيه اللغة وتستخدم .[(٣)]

ولا يفوتنا أن علم الأسلوب قد ولد وثيق ا لصلة بعلم اللغة ، ومن أوائل مؤسسيه شـارل بالى (Charje Baly ١٨٦٥ – ١٩٤٧م) والحق أن مصطلح الأسلوب نفسه يرجع إلى منطلقات فكرية أصولية ، ويتراءى ذلك في أن المصطلح حاملاً لثنائية أصولية فالأسلوبية - دال مركب – جذره (أسلوب) ولاحقته (يه) وخصائص الأصل تقابل أبعاد اللاحقة (يه)، فالأسـلوب ذو مدلول إنساني ذاتي ، وبالتالي نسبي ، واللاحقة (يـه) تخـتص بالبعـد العلمـاني العقلـي ، الموضوعي ولذلك تعرف الأسلوبية بداهة بالبحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسـلوب ويتكشف ذلك في العمل البنائى الذي لا يفهم النص إلا من صياغته ، هو بعد لساني يوضح نوعية العلاقة بين التعبير ومدلول المحتوى و يقتصر التفكير الأسلوبي بناء على ذلك على الـنص فقـط بعزل كل ما يتجاوزه من مقاييس تاريخية أو نفسية .[(١)]

وهنا ب الإشارة إ ما أسلفنا ذكره من قضية ا ور الأفقي التركي والرأسي الاستبدا ، أو الغائب وا اضر بالنسبة لتشكيل الصورة الأدبية ففي الأسلوبية تزج البعد اللسا بالبعد الأد الف ، إذا اعت نا البعد اللسا أفقياً و ثل عملية الإخبار وراسياً ثل غائية ا دث الأد ال تكمن اوز الإبلاغ إ الإثارة .

وتأتى الأسلوبية في هذا المقام لتتحدد بدراسة الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب عن صياغه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية والجمالية ، ويعكس الخطاب الفني المـزدوج وظيفيـاً وغائياً أي بلاغاً وتأثيراً وأقامت الأثر الأدبي بين محورين ، محور الـروابط التعبيريـة وهـو الحدث اللساني ، ومحور الخلفية الدلالية التي تمثل الجانب التجريدي المحض ، وارتكز منهجهم على إدراك انتظام خصائص الأسلوب الفني نقدياً ، مع الوعي بما تحققه تلـك الخـصائص مـن

---

[٢] مقال بعنوان الأسلوبية علم وتاريخ - د٠ سليمان العطار - مجلة فصول – ص ١٣٢ .

[٣] الأسلوبية د. عبد السلام المسدي – ص٣٤ .

[١] النظرية البنائية – د. صلاح فصل – ص ٢٠٤ .

وظيفة. وهى بهذا التنظير تعتبر علم تحليلي تجريدي ، يدرك الموضوعية فى حقل إنساني عبـر منهج عقلاني يكشف عن الحدثين الإبلاغى والتأثيري للسلوك اللساني .

ونلاحظ هنا كيف يتحقق التفكير اللساني لسوسير الذي أنبني على تفكيك مفهوم الظـاهرة اللسانية إلى ظاهرتين : ظاهرة اللغة ، وظاهرة العبارة ، والتمييز بين اللغة والخطـاب ، جعـل الأسلوب ينحصر في مجال الكلام ، وهو الحيز الفعلي للقول ، واللغة ظاهرة لسانية مجردة توجد في كل عقل بشرى .

فاللغة تكشف في كل مظاهرها وجهاً فكرياً وعاطفياً و وتأتى الأسلوبية كفرع من فـروع اللسانيات الحديثة ، لتتبع بصمات الشحن في الخطاب عامة أو التشويه [٢] الذي يـصيب الكـلام والذي يحاول المتكلم أن يصيب به سامعه في ضرب من العدوى .

فهي إذن تعنى بالجانب العاطفي في الظاهرة اللغوية وتقـف علـى استقـصاء الكثافـة الشعورية التي يشحن بها المتكلم خطابه في استعماله النوعي . وذلك ما عـرف عنـد الغـربيين (باللغة الفنية) [١] أو الشاعرية والأدبية ، وهو ما يقابل في التراث العربي بالبلاغة ، وقـصروا عليها الخطاب الفني .

وعبر عـــــن ذلك المسدي بقوله : ((فأعادوا ما لقيصر لقيصر إذْ لا ينفك الواقـع اللساني يقر بأن الإسلوبية إنما هي وريث البلاغة ومعنى ذلك أنها بديل في عصر البدائل)) [٢].

يقول عبد السلام المسدى : ((وأما الأسلوبية والبلاغة كمتـصورين فكـريين فتمـثلان شحنتين متصادمتين لا ينعم لهما تواجد آني في تفكير أصولي موحد ، والسبب في ذلـك يعـزى إلى تاريخية الحدث الأسلوبي في العصر الحديث .وإذا تبنينـا مـسلمات البـاحثين والمنظّـرين وجدناها تقرر أن الإسلوبية وليدة البلاغة ووريثها المباشر ومعنى ذلك أن الأسـلوبية والمفهـوم الأصولي للبديل أن ينم عن واقع معطى وريث ينفى بموجب حضوره ما كان قد تولـد عنـه ، فالأسلوبية امتداد للبلاغة ونفى لها في نفس الوقت)) [٣] ويمكن القول أن الأسلوبية كانت نتاجـاً مباشراً لدراسات سوسير اللسانية بعامة ، إذْ احتكمت فيها اللغات على نظام لساني عام لا يفـضله أي نظام معياري آخر ، وبالتالي كسر الحدود والحواجز بين اللغات واستوت اللغـات الوضـيعة

---

[٢] يقصد بالتشويه هنا التعابير البلاغية الأثر الصوتي والوجدانى للنص أي خروج الكلام الى تعابير اصطلاحية .

[١] انظر ما قلناه في المبحث السابق ٢٥٠ – ٢٨٠ .

[٢] البديل و من مصطلحات علم المنطق , وتعنى الكلمة ابتداءاً مجموعة من المقدمات الاستدلالية التي ليس لها منها مقدمه واحده سليمة , ويطرد اللفظ العربي (بديل) في النقد الحديث بمعنى تولد الظواهر الأدبية أو المناهج الوصفية بعضها من بعض بحكم سنة التطور , والمفهوم الأصولي للبديل أن يتولد عـن واقع معطى وريث ينفى وجوده بقاء ما تولد عنه ٠ الأسلوبية والأسـلوب - عبـد الـسلام المسدّى – ص ١٢٨ ٠

[٣] المرجع السابق - ص ٥٢ .

والشريفة ، وأصبح مجال اللسانيات شاملاً لكل لغة الخطاب ، بل أصبحت لغة العرف الأدبـي أو اللغة الفنية أو الشاعرية وكل ذلك يطابق عملية اللسانيات العامة وعملها الشمولي .

وإذا تداخلت الدراسة اللسانية والأسلوبية حول حلقة اللغة ، فإن الأسلوبية تتخـذ لنفـسها منهجاً مستغلاً يصف النص لسانياً بالكشف عن العناصر المميزة التي بها يستطيع المؤلف مراقبة حرية الإدراك لدى القارئ التي بها يستطيع أن يفرض على القارئ وجهـة نظـره فـي الفهـم والإدراك فينتهي إلى اعتبار الأسلوبية (لسانيات) تعنى بظاهرة حمل الذهن علـى فهـم معـين وإدراك مخصوص .[٤]

وهنا نلمح قضية الفكر الكلى أو الوحدة اللغوية وهى نفسها قضية التقابل والتناظر لسانيات سوسير بين الوحدة والتنوع ، حين ابتكر نظاماً لغوياً عاماً يحكم التراكيب اللغوية والنحو الكلى ، دليل على ذلك .

وكذلك الأسلوبية ، ا ذت لنفسها نظاماً عاماً كم النصوص الأدبية ، ت نظام اللغة الأدبية أو الشاعرية ، وكلا ا ، النظام اللغوي والأسلو يفرض نظاماً عقلانياً موحداً وهذا فكر أصو يؤصل الفكر الأيديولوجي للأسلوبية ال انطلقت من مفاهيم ثنائية بدءاً من تقسيم ا طاب إ نفعي وأد مروراً باللغة وا طاب انتهاءً اهية ا دث الإبلاغي والإبداع الأد .

ومن هنا نؤكد أن بنائية سوسير كان لها مولودين أولهما تلقـائي وتمثـل فـي بـروز الأسلوبية كعلم ، وثانيها زماني جدلي يتمثل في بروز منهج البنيوية في البحث .[١]

ويرجع ذلك الفكر السوسيرى الذي عرف اللغة بأنها ظاهرة اجتماعية وكائناً حياً ، هـي كل يقوم على ظواهر مترابطة العناصر ، ماهية كل عنصر وقفُ على بقية العناصـر بحيـث لا يتحدد أحدها إلا بعلاقته بالعناصر الأخرى ، فاعتبر الحدث اللغوي جهاز تنظيم في داخله عناصر مترابطة عضوياً بحيث لا يتغير عنصر إلا أنجز عن تغيره تغير وضع بقية العناصر ، وبالتالي كل الجهاز ، وما إن يستجيب الكل بتغير الجزء حتى يتغير الجهاز و انتظامه الداخلي .[٢]

وليست البنيوية إلا تقيماً لهذه النظرية على بقية الظواهر الإنسانية حتـى غـزت حقـول العلوم المختلفة ومجالات النقد الأدبي ، فتبلورت فلسفة ونظرة للوجـود بجميـع منـاهج العلـوم الأخرى ، ثم عادت إلى منبعها الأم اللسانيات وربطت بينها وبين الأدب فأثمرت فروعـاً مـن فروع الفكر البنيوي يعرف (بالأسلوبية البنيوية المعاصرة) [٣] .

---

٤ المرجع السابق - ص ٥٨ .
١ الأسلوبية والأسلوب - عبد السلام المسدّ ص ٥٠ .
٢ مدخل اللسانيات سوسير – د حنون مبارك - دار توبقال للنشر – الطبعة الأولى ١٩٨٧م - ص ٣٣ .
٣ الأسلوبية والأسلوب - المسدّ – ص ٥١ .

التي تمثلت في مصطلحات الإنشائية [٤] والشعرية والأسلوبية والتعبيرية وتختلف فكـرة الأسلوبية عن البلاغة من منظورين : -

(١) منهجي .

(٢) أيديولوجي .

يتمثل ا نظور ا نهجي أن البلاغة علم معياري يرسل الأحكام التقييمية ويرمى إ تعليم مادته وموضوعه ، بلاغة البيان قال تعا : (الر ن خلق الإنسان علمه البيان) ، بينما تنفى الأسلوبية عن نفسها كل معيارية وتعزف عن إرسال الأحكام التقييمية با دح أو التهج ولا تسعى إ غاية تعليمية ، والبلاغة كم قتضى أ اط مسبقة وتصنيفات جاهزة بينما تتحدد الأسلوبية بقيود منهج العلوم الوصفية .

والبلاغة ترمى إلى خلق الإبداع بوصاياها التقييمية بينما تسعى الأسـلوبية إلـى تحليـل الظاهرة الإبداعية بعد أن تقرر وجودها والبلاغة اعتمدت فصل الـشكل عـن المـضمون فـي الخطاب اللساني فميزت في رسائلها العلمية بين الأغراض والصور ، بينما ترغب الأسلوبية عن كل مقياس (ماقبْلي) وترفض مبدأ الفصل بين الدال والمدلول إذ لا وجود لكليهما إلا متقـاطعين ومكونين للدلالة ، فهما لها بمثابة وجهي ورقة واحدة .

ويتلخص المنظور الأيديولوجي للإسلوبية في فكر أصولي قديم احتكمت عليه البنائية كما احتكمت على أفكار ومدارس غربية كثيرة ، بواس ، وفرويد ، وماركس ، وهيجـل ، ونيتـشه ودريدا ، وبافلوف وبياجية وكثير من المدارس الفكرية ، فالأسلوبية في مقارنتها مع البلاغة تتسم بالتصور الوجودي و يعنى ذلك أن الأسلوب هو فلسفة الذات في الوجود إذ هو كذلك فلا يكـون إلا مغرقاً في الذاتية ، فالأسلوب قناة للشخصية لا فنياً بل وجودياً لذلك اعتبرت الأسلوبية الأثـر الفني معبر عن تجربة معينة فردية و بخلاف البلاغة التي تصنف الأشياء وتعرفهـا مـن دون وجودها .[١]

أما ا رمى الأيديولوجي الآخر فيتضح الفصل ب النحو والبلاغة أي ب الوظيفة الإنشائية والوظيفة الإخبارية أو التعب الأد والإبلاغى .

وأدى هذا الفصل إلى استقلال الأسلوبية كعلم مستغل بذاته عن اللسانيات التي كـان لهـا سلطان على الأسلوبية و أصبحت الأسلوبية طاقة تحرر اللسانيات نحو ممارسات متجددة ، وفـى ذلك إثبات لاستقلال الأسلوبية .[٢]

وهكذا تصبح الظاهرة اللغوية في الأسلوبية البنائية حصيلة نوعين من الضغوط :-

(١) ضغوط الدلالة .

---

٤ النظرية البنائية - صلاح فضل - ص ٢١٠ - ٢١١ .

١ الأسلوبية والأسلوب - د٠عبد السلام المسدي - ص ٥٤ .

٢ المرجع السابق - ص ٥٥ .

(٢) وضغوط الإبلاغ .

وكل مقطع لساني هو حلقة وصل بين الأشياء والوقائع المرموز إليها ، والمتلقي لـ ذلك المقطع ، وهذه العلاقة ليست عفوية ولا اعتباطية ، إنما هي تفترض عقداً مزدوجاً ،أحد العقـ دين يستجيب لضغوط الدلالة ، وهو التواضع على رصيد معجمي معين والآخر يستجيب لـ ضغوط الإبلاغ وهو التسليم لمجموعة من القوانين الضابطة لتركيب مقاطع الكلام ، وهذا العقـ د الثـ اني يشمل الأسس العامة تاركاً بعض المجال لتصرف كل فرد من أفراد المجموعة اللسانية الواحـ دة ، وهذه الخصوصية هي التي تكشف عن علاقة النحو بالبلاغة ، فالأول يمثل القيـ ود والثـ اني يمثل مجال الحريات .

وبالتالي أصبحت الأسلوبية زاوية مـ ـ ـ ن زوايا تمييع المعنى وفك الحدود بين اللغـ ات لأنها علم لساني يعنى بدراسة مجال التصرف في حدود القواعد البنيوية لانتظام جهاز اللغة .[1]

وننهي القول بأن الأسلوبية أيضا (لسانيات) أي (نظام لغوى شمولي) وكلـ ى، مثـ ل (النحو الكلى) يحمل الذهن البشرى عامة على فهم مخصوص ومحدد . تجاوزاً للحواجز الدينيـ ة والفكرية والثقافية والحضارية .

وهى نفسها فكرة النحو التوليدي التحويلي ، ولكي نفهم الوجه البنيوي الأسلوبية جيداً ، وبالتا ا انب الأيديولوجي الأسلوبية البنائية ، ديد الأسلوب أنه عبقرية الإنسان وظاهرة غ واعية ، وكل ذلك تم القول بقوة الدفع التلقائي عملية إفراز الأسلوب ، أي تولد ذا لا يصحبه الإدراك ، و الصورة تتطابق مع الشعور تطابق هوية ، إذن يصبح ليلها أسلوباً لفرز الذات لأن الشاعر يقص ذاته ء الصورة .[2] و ذه التحديدات يعها مستندات أصولية تتجمع زير الروابط ب الأسلوب والشخصية أبعادها الوجودية ، وهى تنصب حيز فلسفي ثنائي ا فتح له باب على نظرية ا عرفة أو الإدراك إذ مداره التسليم بدأ الاكتساب الشمو ، و بدأ حيوية الظاهرة الكونية ال وجبها لا يكون الكل حاصل الأجزاء فحسب ، وإ ا الكل ما الأجزاء وزيادة ، وهذه الزيادة معادلة ا عرفة يستقطبها الأثر الأد أسلوبه وبالتا يتحقق القول بأن الأسلوب تفضيل بعض طاقات اللغة على بعضها الآخر و ظة الاستعمال .[3]

وبالتالي فهو في تقدير نظرية المعرفة إدراك الإنسان لتجربة في حيز القوة وطلب لإدراكها في حيز الفعل و وهو المنظور الوجودي صراع الحيوان الناطق بين الـ شعور الـ صامت (قـ وة) وقصور اللغة بالفعل عن نقل الإحساس المعيش .[4]

---

[1] الأسلوبية والأسلوب - د٠عبد السلام المسدي - ص ٤٨ – ٥٨ .
[1] الأسلوبية والأسلوب - د٠عبد السلام المسدي - ص ٧٣ .
[3] المرجع السابق - ص ٧٩ .
[4] المرجع السابق – ص ٨٧ .

ولخص لنا د.عبد السلام المسدى أن التفكير الأسلوبي يقوم على ثلاث دعائم وهى : -

المخاطَب ، والمخاطِب والخطاب ، ولا شك أن كل نظرية تقتضي عملية إبلاغ تقوم على باث ومستقبل وناقل .

المعنى أن الباث هو المتكلم ويقوم بعملية التركيب ، أي صياغة المفاهيم في نسق كلامـي محسوس ، ينقل عبر القناة الحسية بواسطة الأداة اللسانية وأما المستقبل ، وهو المخاطَـب فيقـوم بعملية التفكيك ، ويمضى هذا الركب إلى اعتبار أن البحث الموضوعي لا ينطلق المحلل الأسلوبي من النص مباشرة وإنما ينطلق من الأحكام التي يبديها القارئ حوله ، معتبراً إياها ضـرباً مـن الاستجابات نتجت عن منبهات كامنة في صلب النص ولئن كانت تلك الأحكام تقيميه ذاتيـة فـإن ربطها بمسبباتها لا تكون عفوية ولا اعتباطية في نشأتها و وهو عمل موضـوعي وهـو عمـل المحلل الأسلوبي الذي لا يهتم بتبرير تلك الأحكام من الوجهة الجمالية . وواضح مـن ذلـك أن الأسلوبية تمثل الهيكل الكلى للنص و وهى وظيفة مركزية منظمة ، مثل اللغة بالنـسبة للكـلام ، وهذه وجهة في عقليه النص ، كظاهرة لسانية فنية نستشف منها السلك الرابط بينها وبين تقديرات المنهج البنيوي في الأدب والنقد ولعلها تحتفظ بخصوصيتها إذ تتميز بانقطاع الضغط المذهبي في التحليل لأنها تنزل منزلة المجهر ليكشف عن خلايا النص في معزل عن التقـديرات التاريخيـة والأيديولوجية [١] .

وهذا من أثر العلمانية في علمنة اللغة وسحبها من مجالها الخاص إلى حيز علمي عـام تخضع له في جبرية جديدة وليبرالية خادعة تحمل سمات نقدية ومصطلحات أدبية ما هي إلا خدع وحيل لعالمية اللغات .

النحو التحويلي والأسلوب الأدبي :

أجمع النقاد رأيهم على أن الأسلوبية منهج من المناهج اللغوية فـي دراسـة النـصوص الأدبية ، وأن النص الأدبي نص لغوي لا يمكن سبر أغواره دون تحليل العلاقات اللغويـة التـي ينطوي عليها و ذلك أن التحليل يقودنا إلى تفهم الشحنة العاطفية الكامنة في النص والتي تؤثر في المتلقين ، ولا يمكن النفاذ إلى قيمة العمل إلا من خلال النص ذاته ، من خلال صياغته البلاغيـة للعلاقات اللغوية .

وارتكزت مناهج الأسلوبية على ثلاث اتجاهات : - [٢]

(١) النظر إلى الأسلوب الأدبي باعتباره خرقاً للأسلوب المعياري أو انحرافاً عنه.

---

[١] الأسلوبية والأسلوب - د٠عبد السلام المسدي – ص ٩٣ – ٩٤ ٠

[٢] الأسلوبية الحديثة - د٠محمود عياد - ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٢) النظر إ   الأسلوب الأد   باعتباره نوعاً من التكرار ا توافق لأ اط لغوية بعينها   النصوص الأدبية .

(٣) التعامل مع الأسلوب باعتباره وسيلة من وسائل استغلال الطاقة الكامنة في اللغة ، ومحاولـة وضع قواعد لإمكانات هذه الطاقة .

ونتناول هذه النقاط النظرية مدى التقارب بـ   فكرة النحو التوليدي التحويلي والأسلوبية اللذين ثلان بدائل عيارية النحو والبلاغة .

ولما كان علم الأسلوب متأثراً بالنظرية السلوكية فإن بلومفيلد حاول أن يجعل مـن علـم اللغة علماً تجريبياً سلوكياً ، مما دفعه إلى النظر في اللغة علـى أنهـا سلـسلة مـن المنبهـات والاستجابات ، ولقد كان لهذا تأثيره البالغ على الأسلوبية من حيث التركيز على المنبه من ناحيـة و الاستجابة من ناحية أخرى ، والنتيجة الطبيعية لذلك هي النظر إلى الأسلوب باعتباره انحرافـاً عن الأسلوب المعياري ، من حيث أنه منبه متميز يحدث استجابة متميزة ومن هنا حـاول هـذا الاتجاه إرساء الأسس موضوعية للعملية الادراكية التي يدرك من خلالها المتلقي الظواهر اللغوية للأسلوب الأدبي .

ولكن القول بأن المؤثرات الأدبية منبهات ذات استجابه محددة ، فإننـا نتجـاوز طبيعـة العمل الأدبي ، الذي لا يقبل الثنائية . كما لا يحصر الاستجابه خارج سـياقات تتجـاوز العمـل الأدبي ومن هذه الزاوية ميزت المدرسة البنائية بين صفات الأسلوب الأدبي الذي ينحرف عـن القواعد العامة ، فالأسلوب انحراف عن لغة المواضعة ، نمط متميز،إذا كانت لغة المواضعة هـي المعيار الأول ، فإن الدراسة اللغوية للأسلوب تبحث عن كيفيات هذا الانحراف وتؤسـس درسـاً أسلوبياً يكشف عن التباين والانحراف .

أما مدرسة لندن فقد ثبتت مفهوم مختلف لمصطلحي المعيار والانحـراف وتتمثـل هـذه الدراسات في تطوير الأفكار للعالم اللغوي فيرث ، وسموا بالفيريثون الجدد ، وتعميمه المفهـوم (سياق الموقف) Ontext Sutuation ذلك المفهوم الذي يكشف مزيداً من الأبعاد الإجمالية للغة ، وقـد ألحت هذه المدرسة على استحالة فهم اللغة دون الرجوع إلى الموقف السياق والنص .

ولذلك درسوا جوانب الأسلوب من زاوية مصطلح الـسجل الـسياقي (Rigistor) وهـو مصطلح يكشف عن مفهوم يرد اللغة إلى أساس اجتماعي واضح ، ويضمن ألا تقوم الدراسة مـن فراغ ، ولذلك فإنهم أكدوا دراسة اللغة الأدبية من حيث مقارنتها بخصائص سجلها السياقي المتعين ، أي مجموعة الاختيارات المستخدمة في شكل لغوى ، وهؤلاء جعلوا الأدب لغة خاصة ولكنهم لم يفارقوا فكرة المعيار .

والاتجاه الثاني يرى الأسلوب باعتباره نوعاً من تكرار الأنمـاط أو توافـق الظـواهر اللغوية ، والوظيفة الشعرية تقوم على إسقاط مبدأ المماثلة من محور الاختيار إلى محور التضام ، وهى اللغة الشعرية القادرة على خلق سلسلة من العلاقات التركيبية ، تماثل إلى أكبر حد العلاقات الوثيقة التي تربط ما بين الأجزاء المنفصلة ، في مجموعة لغوية استبدالية .

و كن القول أن اللغة الشعرية تقوم على نظم العلاقات شكل سلسلة من الاختيار ، ومن تقوم رق هذه السلسلة ، عند ظة الاختيار .

وهذا الاتجاه يطبق نظريات تشومسكى من ناحية ومبدأ ياكسون مـن ناحيـة أخـرى ، محاولاً وصف الوحدة التأسيسة أو ما يسمى (بالازدواج التبادلي) ، ويعنى التوافق بين زوجـين من العناصر يترابط كلاهما ترابطاً دلالياً .

وهذا الانحراف يُدَرس في إطار نظرية النحو التوليدي ، والنظرية قادرة علـى وصـف القواعد والتنبؤ و ولا تصف السطح فحسب بل تتميز بقدرتها على الكشف عن الإمكانات الباطنة ، والكامنة بالضرورة في أي قصيدة .(١)

ويتميز هذا الاتجاه بمحاولة الربط بين الوصف اللغوي للأعمال الأدبية والإمكانات الكامنة في اللغة الشعرية .

وهذه الدراسات لم تثمر لأنها مجرد محاولات لإظهار القدرة الأسلوبية على وصف ملامح اللغة ، ولا تربط بين الوصف والمعنى ،ولا تضع في اعتبارها مشكلة التأويل . ويمكن القـول أن الأسلوبية تبحث عن المعنى الكلى في النص .

والاتجاه الثالث يتعامل مع الأسلوب باعتباره وسيلة من وسائل استغلال الطاقة الكامنة في اللغة ، ومحاولة وضع قواعد لإمكانيات هذه الطاقة وكذلك هذا الاتجاه يبين نظرية قواعد النحـو التحويلي باعتبارها أساس دراسة النصوص ، وذلك بقدرتها على الكشف عن الطاقات الكامنة في قواعد النصوص الأدبية ، وتصنيف اللغة إلى مستويين هما : المستوى الـسطحي الظـاهري ، والمستوى الباطني ، وإذا كانت عملية التأويل الدلالي تبدأ من المستوى البـاطني فـإن التأويـل الصوتي يبدأ من البناء السطحي وربط مجيء المستويين بين مجموعة من التحويلات الإجباريـة والاختيارية التي تغير المعنى من أساسه .

وأن اختيار الكاتب مجموعة من التحويلات الكامنة في النظام اللغوي ، إنما هو اسـتخدام مميز لطاقات اللغة .(٢)

---

[١] الأسلوبية الحديثة - د. محمود عياد - مجلة فصول – ص ١٢٧ .

[٢] المرجع السابق - ص ١٢٨ .

فالنظرية التحويلية ذات طابع اختياري ع التركيب ا عطى كن ويله إ تراكيب متعددة على مستوى السطح ، دون تغي هام ا ع الدلا ذا التركيب . ومن هذه التحويلات التحويل الذي يعيد تنظيم ا ستوى السطحي و ويلات التضام والإضافة ، وا ذف ولذلك كن للنحو التوليدي أن يولد الكث من التراكيب ال تع نفس الشيء وهذه بدائل أخرى .

ولا شك أن هذه التحويلات تغير شيئاً من الحقيقة ولكنها تترك الجانب الأكبر دون تغيير فالتركيب المحول يحتفظ بعلاقته التركيبية مع التركيب الأصلي ، مع أن العلاقة بين هذه البدائل الأسلوبية علاقة حدسية ، فإن النظرية التحويلية تقدم تفسيراً موضوعياً لهذه العلاقة الحدسية فتنقلها من مستوى إدراكي إلى مستوى إدراكي آخر ...

الأسلوبية والنحو التحويلي :

تمثل الحركة الأسلوبية صدى لأكبر الحركات الفكرية وأقواها في تاريخ اللغويات المعاصرة ، فهي تعزز الصلة الوثيقة بين البحث اللغوي العام وبين البحث في لغة الأدب وتقدم حلقة في سلسلة الدراسات التي ترى في لغة الأدب انحرافاً عن نمط الاستخدام العادي في اللغة ، وحلقة جديدة على الفكر اللغوي المعاصر ، وهى تمثل الحركة الفكرية التي قام بها اللغوي الأمريكي نوم تشومسكى (N. chomsky) من دراسات فيما عرف بـالنحو التوليدي التحويلي (Transformational Generative Grammer) وهى الدراسات التي بدأ نشرها من (١٩٥٧م) . فظهر تطبيقها الفعلي في ميدان الدراسات الأسلوبية الحالية ، وانعكس ذلك في كثرة الأبحاث التي تعالج قضية الأسلوب من وجهة نظر اللغويات التوليدية التحويلية .

ويقول أحد علماء الغرب : ((أن السبب الرئيسي في القول بأن النحو التوليدي يمكن أن يكون له تأثير هام على الدراسات الأسلوبية . أن كليهما يرتبط جذرياً بنفس النوع من الظواهر ، وذلك لأن الافتراضات الأساسية في كل من الدراستين ذهنية (Mentalistic) ومن الممكن القول بأن النحو الذهني(Mentalistic Grammer) هو فقط الذي يستطيع أن يقدم أساساً ملائماً للأسلوبيات ، ويصبح بالضرورة أن فشل اللغويات فيما قبل تشومسكى في تقديم مثل هذه القاعدة يمكن أن يرجع إلى مبالغتها في الاتجاهات غير الذهنية)) [1] .

---

[1] نظرية اللغة في النقد العربي - عبد الحكيم راضى - ص ٤٨٨ .

ولا شك أن الاتجاهات غير الذهنية خلاف ما تقوم عليه نظرية النحو التوليدي التحويلي ، وجوهر هذه النظرية هو التمييز في الجملة بين ظاهر وباطن أو باصطلاح التحويليين بين البنيـة السطحية والبنية العميقة و وتمثل البنية العميقة الصورة المثالية الكاملة للجملة كما تحددها شرائط الصحة النحوية ، ولا تظهر هذه البنية ولا يلفظ بها و إنما هي تكوين تقديري يحمل معنى الجملة وصورتها المثالية من الناحية التركيبية والدلالية أما البنية الظاهرة أو السطحية في الصورة الفعلية المحسوسة وهى محولة عن البنية العميقة و ولا تعتبر الجملتان مثل : (على ذاكـر درسـه) (وذاكر على درسه) جملتين إلا من زاوية البنية السطحية في الوقت الذي تعودان فيه إلـى بنيـة عميقة واحدة هي الأساس .

ومما سبق ندرك أن مدرسة الأسلوب باعتباره انحرافاً عن المعيار ومدرسـة الأسـلوب باعتباره استغلالاً خاصاً لممكنات النحو تحاول أن تؤكد على المفارقـة بـين البنيـة الـسطحية والعميقة و خاصة في الحالات التي توصف فيها البنية السطحية بأنها غير نحويـة ، إذْ يلاحـظ أصحاب مدرسة الأسلوب كثرة ورود الجمل غير النحوية في لغة الشعر ، تلك الجمل التـي لا يعود انعدام النحوية فيها ، أو انحرافها إلى جانب التركيب فحسب وإنما قد يكون له جانبه الدلالي أيضاً .

ومن هنا تبين لنا الصلة بين دراسة الأسلوب وبين المنهج التحويلي في درس النحـو ، و أوضح الاتجاه البنائي الصلة بين دراسة الأسلوب وبين المنهج التحويلي فى درس النحو ، وظهر ذلك جلياً في التقدم في دراسة النحو التوليدي وأثرها البالغ على دراسة الأسلوبية وما النظريـة الشعرية أو النظرية الأدبية إلا أثراً من آثار هذه التقدم نحو الانحـراف أو النحـو التوليـدي أو النظرية الأسلوبية .

ولكي تتضح الصورة بطريقة أوضح نلمح لإشارة طفيفة عن المراد بـالنحو التوليـدي ، فاللغوي في محاولته لتعميم نحو توليدي للغة ما إنما يحاول أ ن يشيد نموذجاً للمقدرة اللغوية كما تتجلى في لغة الجماعة اللغوية ، بمعنى ما يعرفه اللغوي عن بنيته اللغوية ، أو المقدرة اللغويـة لمتحدث اللغة .

أن يتبين سلاسل الألفاظ مثل (الأطفال مستغرقون في النوم) تشكل جملة سليمة الترتيب نحوياً ، على حين أن سلاسل أخرى مثل (النوم في مستغرقون الأطفال) ليست كـذلك ، وهـذا بدوره يعنى أنه سوف يفهم الأولى وتبدو له الثانية بغير المعنى ، فالجملة مثل (المنازل مستغرقة في النوم) لا توصف بأنها غير نحوية (Angrammatical) بالمعنى الذي توصف به جملـة النـوم

مستغرقون في الأطفال) ، ومع ذلك فهي ليست جيدة التشكيل وتمثل هذه الجملة مشكلة خطيـرة بالنسبة للغوي ، ويأتي عدم نحويتها لا من انعدام البنية التركيبية(Syntactic Stnactur) وإنمـا مـن كونها ذات بنية تركيبية تختلف عن الجمل الكاملة التكوين و ولكن توجد فـي العربيـة تعـابير محولة وكاملة النحوية فقولنا (كلمة التوحيد)، و(توحيد الكلمة) ، فالتركيب النحـوي واحـد وهو المبتدأ والخبر في العبارتين ، ولكن المعنى مختلف وهو أسلوب بلاغي ، وليـسس خرقـاً لمعيارية النحو ، قال تعالى (فأوجس في نفسه خيفة) والتقدير (أوجس موسى في نفسه خيفة) ، وهذا أسلوب بلاغي يعرف بالتقديم والتأخير وليس خرقاً لنمطية اللغة و وهنـاك الكثيـر مـن أساليب العربية ، جمل كاملة التكوين النحوي وصحيحة المعنى وجمـل محولـة فـي ترتيبهـا وصحيحة المعنى فهي خاضعة لما يعرف بنظرية (النظم) توخى معاني النحو بـين الكلـم ، أو نظرية (العلائق) بالمعنى الحديث .

وهنا نتذكر ما تحدثنا عنه في النحو التحويلي عن ما يسمى بالمقبوليـة (Acapptability) كما يتحدثون عن الجمل ذات البنيات السليمة والملفوظة وكذلك يبحثون في ظاهرة التعقـد وهـى تشير إلى بنيات غير نحوية و وهى تقع ضمن السمات الأسلوبية التي تكثر في الشعر ، ويمكـن القول بأنها تحطيم (لقواعد الاختيار) وخلق لغة جديدة للأدب كما زعم البنائيون .

وبالتا اعتـ وا كل من عدم ا قبولية ، والتعقيد ، وعدم الصحة النحوية ، ألوان من الا راف ، تدخل ضمن ات الأسلوب .

ونخلص من ذلك إلى أن النحو التوليدي التحويلي نشأ من فكرة المفارقة بين المثال الذهني المقدر ، وبين واقع النص المحسوس وهى الفكرة التي اجتاحت الدراسات اللغوية والأسلوبية فـي العصر الحديث.

ومبادئ النحو التحويلي تجسد مقولة (الأسلوب هو الرجل) وطبقاً لهذه النظرية في النحو فإن اللغة يمكن أن تصور على مستويين من التحقيق للبنية التركيبية السطحية ، والبنية العميقـة ، وبالتالي ، فإن استغلال الكاتب لأنواع بعينها من (التحويلات الاختيارية) يشكل أسلوبه التركيبي ، حيث يمكن بمقدوره مع وجود عدد من القوالب التحويلية المتاحة للتعبير عن بنية عميقة مـا أن يفضل قوالب بعينها على قوالب أخرى والمعنى أن أسلوب المؤلف يمكن أن يرتبط ببنيات نحويـة معينة .[1]

---

[1] نظرية اللغة في النقد العربي - عبد الحكيم راضى - ص ٤٩٤ - ٤٩٥ .

ولذلك كثرت العربية دراسات مثل ا مل الشرطية شعر زه بن أ سلمى ، أو أسلوب الشرط شعر ا تنبئ ، أو ا ملة الفعلية القرآن الكر ، وأسلوب القسم القرآن وكل ذلك دراسات ليلية لبنية اللغة ومن ربط النسبة بأسلوب ا ؤلف وتفك ه ا ارجي .

كما تساعد النظرية التحويلية على شرح ا ملة ا عقدة تركيبياً ، والكشف عن علاقا ا بالتراكيب البسيطة .

فالنظرية التحويلية تقدم نموذجاً للقدرة الكلامية ، ويعني بذلك أنها تستطيع توصـيف القواعد التي تتحكم في إصدار الكلام ويعد تقدم النظرية التحويلية أداة للتحليل الأدبي و بطرح نموذج تفسير العلاقة المتفاعلة بين الإبداع الخلاق عند الأديب والإبداع الـذهني عنـد المتلقـي فالنظرية التوليدية عقلانية تظهر النمو الشامل للمبادئ اللغوية وليس كنمط في الاتصال وكل هـذه الفرضية التي قامت عليها الدراسات التحويلية ، تفصل الشكل عن المضمون ، ودراسـة الـصيغ الشكلية المتكثِّرة لمضمون واحد ، دون مراعاة للمتغيرات السطحية والتركيبية . ولقد تجـاهلوا مشاكل الدلالة لأنهم اتخذوا اللغة نظاماً عقلياً وليس نظاماً اتصالياً .

ولا شك أن هذه النظرية تتجاهل ا وانب الأخرى للنص ، وركزت اهتمامها على ا انب اللغوي ، تطبيق برنامج اللغة العام على وذج لغوى خاص ، يؤدى إ دراسة الأدب من خارجه وان ا ذت الدعوى صفة أكثر مرونة لأ ا دعوى تنطلق من علم اللغة . وتؤكد الطبيعة اللغوية للعمل الأد .

ولا تزال قضايا التأويل والمعنى والقيمة قائمة ثم إن الأسلوبية ليست منهج تكاملي يغطى كل العمل الأدبي عن غيره من دراسات النصوص اللغوية الأخرى . كما أنها عجـزت عـن معالجة الأبنية البلاغية التي تصرف التركيب الواحد ، ومنها الأبنية العليا الشاملة في النـصوص الأدبية . [1]

---

[1] المقال السابق الأسلوبية الحديثة - محمود عياد - مجلة فصول - المجلد الأول – العدد الثاني يناير ١٩٨١م – ص ١٢٨ - ١٢٩ .

الاختيار والتأليف :

الأسلوب اختيار بين الإمكانات اللغوية ولا شك أن الأسلوب انتقاء من عدة إمكانات لغوية متطابقة ، فالنموذج المنطقي لا يعنى مجرد جمع للعناصر المنتقاة ، وإنما يعنى تنظيمها فضلاً عن كون الانتقاء والتنسيق هما العمليتين الأساسيتين اللتين تجسدان العلاقة التجاورية والتبادليـة فـي النظام اللغوي الإشاري حسب النظرية البنيوية .

ويمثل الانتقاء اختيار أجمالي الإشارات اللغوية فـي النظام الرمزي في المرحلة الأولى .

يصور الاختيار بين إمكانيتين تدخلان في علاقة استبدالية في المرحلة التالية لما بينهمـا من علاقة تشابه تتباين درجته بين التطابق والتشابه ، وعدم التشابه والترادف أو التعـاكس أمـا التنسيق فوظيفته الربط بين عناصر لغوية موجودة بوضعها في تتابعات لأن التنـسيق هـو بنـاء مقالي يضع الوحدات المفردة في علاقة مجاور فيجمعها متتابعة في وحدة لغوية أعلى ، لا يقـف مفهوم التجاور أو التتابع عند هذا الحد بل إنه يتضمن الصلات الدلالية المقالية وعليه لا بد لكـل

إشارة لغوية تدخل في التنسيق اللغوي المتقاطع من أن تأتى بين ترتيبين مختلفين للنظام هما :-
المحور النسقى - المحور الانتقائي .

والتنسيق في كل الأحوال يعنى الحصر والتقييد ، لأن الاتصال يهدف إلى إنتاج التتابعات اللفظية ويهدف إلى نقل معلومة محددة ولهذا يقف أمام الثوابت الدلالية وأمام ما يريد التعبير عنه فيطلق عليه (الانتقاء النفعي) .

فالصياغة اللغوية تعنى بالربط بين النسق النظمي وبين العناصر اللغوية المفردة، وتعنى التنسيق الذي يفعل قيود الاختيار . مع العلم أن مجموعة الواسمات النحوية والدلالية هي التي تنظم إمكانية تنسيق الوحدات المعجمية أو عدم تنسيقها، وهذا الموضوع الذي طورته اللسانيات الحديثة يحتاج إلى التعلق بالانتقاء النحوي لمحدودية صلاحية الانتقاء إلى درجة يصعب فيها الفصل بين الخيارات النحوية المسموح بها .

وأن الاختيار الأسلوبي لا يمكن أن يكون اختياراً كيفياً أو اعتباطياً ، و إنما اختياراً من دائرة محددة من إمكانيات التعبير اللغوية ، وهذا ما يجعل الاختيار الأسلوبي يأتي من علاقة ترادفية ، فتحت مفهوم كلمة (حصان) مثلاً يأتي نقل لفظي كامل من الألفاظ انتقاه دلالياً و المتوافقة معجمياً مع (صهل) ، (فرس ، مهر ، حصان، اسود ، أبيض ، أصهب ، جواد ، مهر) فالتنسيق الثابت للصفات يكشف عن أهمية الارتباط الداخلي لعناصر البناء التركيبي فأي استبدال اعتباطي للألفاظ غير مناسب لغوياً ، ولا بد من المحافظة على المستوى المختار الذي يناسب الفئة الاجتماعية . فهذه الصيغ تعتبر شاذة لعدم مراعاة الجانب الاجتماعي .

(١) فطس السيد ذو المكانة المرموقة في مجتمعه .
(٢) وانتقل الوغد الملعون إلى رحمة ربه .

فثمة عوامل موضوعية وأسلوبية تنظم الانتقاء اللغوي لكل عمل اتصالي .

وهكذا يمكن للمرء أن ينطلق في وجود صياغات جمل متماثلة دلالياً ومتباينة شكلاً وبناءاً تمثل وجهاً تعبيرياً لمدلول واحد ، الأمر الذي يدعو إلى جعل مفهوم العلاقة التفسيرية على المستوى النحوي يطابق مفهوم العلاقة الترادفية على المستوى المعجمي ، ويعزز الدور الأسلوبي لعلم بناء الجملة ، ونظراً لاعتبار الجملة في النحو التحويلي والتوليدي حقلاً دراسياً ، فمن الطبيعي أن يسعى هذا التيار اللساني إلى دراسة الأسلوب ، لأن الأسلوب هو نتيجة عملية لاختيار اللغوي، ولأن البنية السطحية هي خاصة الأسلوب .

ومن المعروف أن أي بنية نحوية عميقة مجردة يمكن أن تعرض بنى سطحية متعددة ، حسب التحويلات المستعملة ، من المعلوم إلى المجهول إلى تقديم الفاعل أو الفعل .

واستناداً إ إمكانية هذه البدائل النحوية سعى الأسلوب للإفادة ، ا النحو التوليدي والتحويلي من معارف وخ ات لشرح ما يتعلق بالأسلوب .

(١) واقترح البنيويون ثلاث سمات : -

١- وجود تحويلات اختيارية قد يكون أو لا يكون لها تطبيق بسبب تغير التركيب الأساس نتيجة إجراءات خاصة مثل الإبدال - الاستبدال - التعويض - الإضافة - الحذف - الإلحاق .

٢- أن تنطبق هذه التحويلات على مجموعة أو كم محدد من الجمل وذلك بحيـث تغيـر هـذه التحويلات أجزاء من التركيب وتبقي على جزء منه من غير تغيير .

٣- يمكّن النحو التحويلي من إجراء وصف للبنية النحوية لجملة (ما) ، مـن حيـث تفكيكهـا ، وتحديد الإجراءات النحوية المتبعة التي تستعمل في بناء الجملة وبدقة .

وعليه ونظراً للحرية في تطبيق بعض التحويلات الاختيارية أو عدم تطبيقهـا ، ونظـراً لضرورة عد البدائل التحويلية اشتقاقات من الجملة النواة ونظراً لأن البدائل تشبه صياغات متنوعة للجمل نفسها . لا تثبت فكرة التركيبات الاختيارية للجملة مفهوم الأسلوب ، وإنما يكـون لهـا قياس واضح في نطاق كل نحو تحويلي .

وهكذا فإن دراسة البدائل التحويلية دراسة لأسلوب ا تكلم ، والأسلوب بنية سطحية مل معلومة أو خ أ .

والتحليل الأسلوبي للجملة وفق النموذج التوليدي التحويلي يبقى قابلاً للتطور إلى أن يـصل هـذا النموذج إلى الطاقة الوظيفية الكاملة للجملة .[1]

وبالأخذ بهذه الاعتبارات ، يمكن القول أن العرب فطنوا لهذه التحـويلات ولكـنهم، لـم يأخذوا بالتحويلات غير النحوية أو الشاذة ، بل بحثوا عن الأصل لشرح ظاهرة اللفظ ، والواقـع أن حديثهم في تقديم المسند إليه وتقديم المفعول ، وتقديم المبتدأ النكرة خلافاً للقاعدة ، كـل ذلـك يوضح عدم اكتراثهم بمسألة الرتبة ، لذا تراهم أكثر انجذاباً في اتجاه المرتبـة المحفوظـة بغيـة تخطيها والانحراف عنها ، وهذا ما يؤكده تقديم المسند إليه وأسبابه وأغراضه ، بـين مـا كـان المسند معه اسماً أو فعلاً ، حيث يكون المسند اسماً نكون أمام ترتيب عادى يجرى على الأصـل لأنه لم يحدث انحراف ، أما حين يكون المسند فعلاً ، فإنهم يرون في هذا التركيب انحرافا عـن صورة أخرى كان الفعل فيها هو المقدم بحكم الرتبة ، لأن الفعل عامل والفاعل مرفوع بـه ، ولا يصح أن يؤخر عامل على مرفوعة ، بعبارة أخرى يعد تأخير المسند إليه في هـذه الحالـة هـو الأصل ، ليصبح تقديمه انحرافاً عن هذا الأصل ، وهو انحراف صريح .

---

[1] أنظر نحو نظرية أسلوبية لسانية – د٠خالد جمعة - ص ١١٠ – ١٤٠ .

ومن هذه الحالة تناط به وظائف أسلوبية لتقوية الحكم وتأكيده ، وتخصيص المسند إليه بالمسند .[٢]

وبذلك صرح الجرجانى [٣] بأن تقديم الشيء على وجهين : -

تقديم يقال إنه على نية التأخير وذلك في كل شيء ، أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه .. كخبر مبتدأ إذا قدمته ، وتقديم لا على نية التأخير ، ولكن على أن تنقل الشيء ، من حكم إلى حكم ، وتجعله باباً غير بابه ، وإعرابا غير إعرابه وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ أو يكون الآخر خبراً له ، فتقدم تارة هذا على ذلك ، وأخرى ذاك على هذا .

ذلك على هذا ، ومثاله ما تضعه (زيد) و (المنطق) حيث تقول مره (زيد المنطق) ، وأخرى (المنطق زيد) فأنت في هذا لم تقدم (المنطق) على أن يكون متروكاً على حكمه الذي كان عليه مع التأخير، فيكون خبر مبتدأ كما كان ، بل على أن تنقله من كونه خبراً إلى كونه مبتدأ ، وكذلك لم تأخر زيد على أن يكون مبتدأ إلى كونه خبراً وأظهر من هذا قولنا (ضربت زيداً) (زيدُ ضربته) لم يتقدم زيداً على أن يكون مفعولاً منصوباً بالفعل بل كما كان ، ولكن على أن ترفعه بالابتداء وتشغل الفعل بضميره ، وتجعله في موضع الخبر له .

هذا التصريح من الجرجانى يشيد إلى اعتدادهم بما كان أكثر انحرافاً ، أو بما كان حدة الانحراف عن الأصل فيه أكبر .

وبالنظر إلى هذه النصوص نشير إلى أبعاد العلاقة بين مستوى اللغة المثالي والمنحرف ، والمثالي هو المستوى العادي والمنحرف هو المستوى الفني وتقف البلاغة عند فعلية الكلام ، ولا ترفض ما فيه من نقص أو انحراف ، بل تحاول استغلاله من زاوية فنية . بينما يحاول النحو أن يقدم صورة مثالية كاملة للغة ، فإذا لم تسعفه العبارة الظاهرة الفعلية تطّوع بتقدير هذه الصورة واللجوء إلى التقدير ويكون حيث يأبى ظاهر العبارة على الخضوع للقواعد المقررة و كأن يجيء الفعل بصيغة الماضي في أداة جرت القواعد فيها بالدخول على الفعل في صيغة المضارع الدال على الاستقبال كما في قوله تعالى : (ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلّوا من بعده يكفرون). [١]

---

[٢] نظرية اللغة في النقد العربي - عبد الحكيم راضى – ص ٢١٦ - ٢١٧ .

[٣] دلائل الإعجاز - الجرجانى - ص ١٣٧ – ١٣٨ .

[١] الروم ٥١ .

فالنص الأدبي ينشأ حسياً مثل أي نص لغوى ، يرتكز على عنصري التأليف والاختيار ، واختيار الكلمات يحدث بناء على أسس من التوازن والتماثل والاختلاف و التـضاد والتـرادف ، بينما التأليف وهو بناء للتعاقب فهو يقوم على التجاور بين الكلمات ، إذن النص الأدبي يقوم على محور التأليف وهذه أولى وظائف الشاعرية في خرق النص عن مساره العـادي إلـى وظيفتـه الجمالية ، وهى عملية كيف يصفها النقاد البنيوية بأنها انتهاك متعمد لسنن اللغة العادية أو عنـف منظّم يغترف ضد الخطاب العادي .

فهي عملية (تحويل) تنقل النص من مضمونه المعنوي إلى (الشاعرية) والشاعرية في مفهوم البنيوي تعارض ثنائي بين العناصر . ويصبح المتلقي منساقاً وراء النص وقد استحوذ عليه بإيقاعه ، وينفصل تماماً عن معانيه ودلالته ، ومن الممكن أن يقرأ المرء وسط ذلك كلاماً لا معنى له دون أن يشعر ، وذلك لاستحواذ النص عليه يعمد إلى تكثيف اللغة ، وعلى اسـتخدام الـصور التي تتداخل في سياق النص ، مما يصرف نظر المتلقي بعيداً عن الدلالات المرجعية للكلمات.[٢] وفى ظل غياب المركز الثابت الخارجي الذي يمكن أن يحال إليه النص لتحقيق المعنى عمـلاً بمبدأ الإحالة التقليدي سواء أكان ذلك هو الإنسان أو العقل أو ا أو حتى ذات الكاتب ، ويكـون البديل في استبدالية البنيويين و التفكيكيين هو اللعب الحر للمدلولات داخل نسق لغوى مغلق ، أي اختفاء المدلولات عن الدوال ، والذي يجعل الدوال تشير إلى مدلولات عائمة متحركة دون مثبتات ، مما يحولها في نهاية الأمر إلى دوال لمدلولات أخرى ، أي تحول الكلمة إلى إشـارة، لا لتـدل على معنى ، إنما تثير في الذهن إشارات أخرى ، وتجاب إلى داخلها صوراً لا يمكن حـصرها ، وما تستطيع اللغة الإشارة إليه هو لغة النصوص الأخرى .[١] وهنا ينعكس مفهوم البنية على أنها تصور تجريدي من خلف الذهن وليست خاصية للشيء ، فهي نموذج يقيمه المحلل عقليـاً لـيفهم على ضوئه الشيء المدروس بطريقة أفضل . فالبنية موجودة في العمل بالقوة لا بالفعل . طبقـاً لنظرية الانبثاق ودراسة العمل في نفسه معزولاً عن السياق الاجتماعي والتاريخي .

فدراسة الأنظمة الرمزية واكتشاف بنيتها شيئاً جوهرياً ومن هنا اعتمد النقد البنائي علـى البني الشكلية ، وهذا أثار حفيظة الكثير من النقاد الذين يرون أن تطبيق المقولات المنطقية العقلية على المجال الأدبي بهذه الطريقة يؤدى إلى العجز عن تفسير النواحي الحسية والواقعية في الأدب ، ويعتبر الأسلوب الأدبي مجرد خضوع لمنطق الرموز ويقتصر النقد علـى الجانـب اللغـوي فحسب ، بل تفسير اللغة باللغة يؤدى إلى فصل النص عن الحياة ، وانحصاره في قنوات شـكلية

---

[٢] الخطيئة والتكفير - محمد عبد ا الغزامى - ص ٢٥- ٢٦ .
[١] الخطيئة والتكفير - محمد عبد ا الغزامى - ص ٢٥- ٢٦ .

فارغة ويصبح عمل الكاتب لوناً من العبث والتلاعب بالألفاظ دون اعتبار لـدلالات محـددة ولا اعتماد على الواقع ، ولهذا يصبح الكاتب مجرد صانع حاذق يشكل مادة خام بأشكال معقّدة ، دون هدف أو غاية أو قصد ، وتصبح مسئوليته تجاه الأشكال المتنوعة دون الالتزام بأي مـضمون أو فكرة تجاه الحياة أو العالم .

ونلاحظ أن رعاة النقد الأيديولوجي كالماركسية والاشتراكية هضموا النقد البنائي جيـداً ، وانتقدوا فيه الإسراف الشكلي واسقاط المضمون الأيديولوجى فى النقد البنائي بحجة الاعتماد على نظام الرمز اللغوي ، فإنهم يشيرون إلى ضرورة التعرض فى تحليل هذه الأنظمة لمشكلة الدلالـة ويسترشدون في ذلك بما قاله ستراوس (١٩٥٦) في مقاله (البنية والجدليه) عنـدما وازن بـين التحليل اللغوي والتحليل الأسطوري ، إذن الدراسة الوصفية البحته في التحليل اللغوي لا يمكن أن تصل المعنى الحقيقي التاريخي ، ولا تكفى للكشف عن المعطيات التى يقدمها المؤلف في عمله ، فبجانب البنية اللغوية لا بد أن نأخذ في الاعتبار بنية المضمون عنـد البنـائيين التـي لا تعنـى الوصول لأفكار المؤلف ومعتقداته ، بل تعنى مفهوماً دقيقاً يساعد علـى الكـشف عـن الأبنيـة الأيديولوجية الفنية ، وبالتالي ظهرت البنائية التوليدية على يد جولدمان ، وتعتبر هذه أهم محاولة تقف في وجه الاتجاه اللغوي البحت السائد في الدراسات البنائية ، ومن هنا سار التيـار البنـائى حول ضرورة دراسة أبنية الوعي الكامن خلف الأساليب المختلفة وتحليل العلاقة بـين أشـكالها والمستويات الاجتماعية التي تنبعث عنها .

ويرون أن تعدد المعنى في كثير من اللغات ليس سوى مظهر للمفارقات التي تنجم عـن احتكاك أنماط الوعي بين الطبقات المختلفة ، أي أن الضمير الجماعي يحدد دلالات الكلمات حسب الملابسات المحيطة به والمشاكل التي تشغله ونلاحظ هنا أيضاً تطبيق لنظرية (الوعي الجماعي) عند دوركهايم ، وتلاقى الماركسيون والانثربولوجيون في فكرة الضمير الجمعي . فالعمل الأدبي عندهم يخضع لمظاهر الوعي الجمعي الخاضعة هي نفسها لأشكال الـذهن المختلفـة والأحـداث الخارجية ، وانعدام التوازن بينهما .[١]

يتمثل محور الصور البنائية في النقد البنائى بتجاوز اللغة الدلالية إلى اللغة الإيحائيـة ، وهو عبور يتم خلاف كلمة تفقد معناها على مستوى لغوى أول لتكسبه على مستوى آخر ، وتؤدى بهذا دلالة ثانية لا يتيسر أداءها على المستوى الأول وذلك أن المعنى الفكري والمعنى الإحيـائي لا يتعايشان مع بعضهما ، وليس بوسع الدال أن يؤدى دلالتين متنافرتين ، ولهذا يقـوم الـشعر (

---

[١] النظرية البنائية - د.صلاح فضل - ص ٢٢٨ – ٢٢٩ .

بحركة الالتفاف) ليقطع الحبل الأصلي الذي يصل الدال ليجعل من الممكن تشغيل النظام الجديد ، ولهذا فإن الشعر ضد النثر ، وليست الاستعارة مجرد تغيير في المعنى ولكنها مسخ و سخط لمعالمه ، فالكلمة الشعرية تتضمن صوت اللغة وبعثها في آن واحد .[٢]

فبنية الشعر تتولد من صورة ، لتتركز عناصرها في كشف العوالم الباطنة بطريقة محايدة بدلاً من التعبير المباشر ، واعتمادها على الخيال المغرق بدلاً من الواقع ، وتفتيت العالم بدلاً من وحدته وإدماج الأضداد والفوضى والغموض ، ورفضه للنظام الموضوعي، ويصل هذا الرفض إلى كسر الأنظمة النحوية في سبيل تفجير الطاقات السحرية الصوتية للكلمات إذ يخضع الشعر لمفاهيم تفرضها دفقات الكلمات نفسها ، إذ هي مفاهيم تقع في هوة الغموض .[٣]

الاختيار والتأليف في البلاغة العربية :

لاشك أن التأليف العربية يقوم على حفظ ا نثور وا نظوم و اطبات فحول العرب ، وا ري على كلامهم ا اري على أساليب القرآن وا ديث وكلام السلف .

ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه في أساليبهم وترتيب ألفاظهم فتحصل له هذه الملكة لهذا الحفظ والاستعمال وتزداد بكثرتها رسوخاً وقوة ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع والتفهم و الجنس المنازع في العربية و أساليبهم في التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال والذوق ليشهد بذلك وهو ينشأ ما بين هذه الملكة الطبع السليم فيها كما نذكر على قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المقول المصنوع نظماً ونثراً ، ومن حصل على هذه الملكات حصل على لغة مضر وهو الناقد البصير بالبلاغة .[٤] ويقول الجاحظ في ذلك : ((فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب ، والإغلاق والإبانة ، والملحون والمعرب كله سواء و كله بياناً ، وكيف يكون ذلك كله بياناً ، ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه الفاسد فنياً ، وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم وكما لا يعرفون رطانة الرومي والصقلي وإن كان هذا الاسم فما تستحقونه بأنّا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم ، فنحن قد نفهم بحمحمة الفرس كثيراً من حاجاته ، ونفهم بعنفاء السنّور كثيراً من إرادته ، وكذلك الكلاب والحمار و الصبي والرضيع)) .

---

[١] النظرية البنائية - د٠صلاح فضل – ص ٢٣٨ – ٢٤١ .

[٣] المرجع السابق – ص ٢٣٥ .

[٤] مقدمة بن خلدون / ج١ / ص ٥٥٩ ٠

وإنما عنى العتابى إفهامك العرب حاجتك على مجارى كلام العرب الفصحاء ، وأصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منا (مكره أخاك لا بطل) و (إذا عزّ أخاك فهُن) ، ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم (ذهبت إلى أبو زيد) ..... ومتى وجد النحويون إعرابيا يفهم هذا وأشباهه بهر جوه .... ولم يؤخذ منه لأن ذلك يدل على طول إقامته في الدار التي تفسد اللغة وتـنقص البيـان لأن تلك اللغة إنما انقادت واستوت وأطردت وتكاملت بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة) [1] ففهم اللغة بالممارسة والتجربة وطول السماع والمقام في موقع ما وأورد الجاحظ قـصته ، تنافى الذين قالوا بالارتجال في اللغة ، تمام حسان ، ويوردها بنصها (أنى عثرت البارحة بكتاب وقد التقطته ، وهو عندي ، وقد ذكروا أن فيه شعراً ، فإن أردته وهبته لك ، قال بـن بـشير:((أريده إن كان مقيداً ، قال وا ما أدرى أمقيدٌ هو أم مغلول ولو عرف التقييد لم يلتفت إلى روايته)). [2]

فهم هذا من طول السماع ، صار يفهم هذا الضرب في الكلام ولكنه لم يفهم منه من جهة إفهامه له .

ونلاحظ أن السائل فهم (التقييد) عناه ا قيقي و يفهم ا ع ا ازى ، والعربية مبنية على ا از ، الذي نألفه من تعاب ها الاصطلاحية والأمثلة والشواهد كلام العرب .

فالخطاب الإنساني خطاب دلالي ، غايته الإيصال ، ولا يتحقق إلا باتفـاق المجموعـة الإنسانية وتواضعها . فالمجتمع هو الذي يحدد نوع الإشارة المستخدمة فيه ، بل تحدد الدلالة التي تحملها الإشارة ، وهذه من أبرز سمات الإيصال ، ولا يتم الإيصال إلا إذا كان المرسل والمرسل إليه متفقين على شفرة واحدة ، بها يركبان الرسالة وبها يفككانها .[3]

ويقول الجاحظ بوضوح الإشارة وصواب الدلالة تفاضلت العرب على العجم :((قال بعض جهابزة الألفاظ ونقاد المعاني ، المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة فى أذهانهم ... مبتورة خفية ... لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه ... إلا بغيره ... وإنما تجيء تلك المعاني ذكرهم لها وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها . وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم ، و تجلبها للعقل ، وتجعل الخفي ظاهراً... .

وتجعل المهمل مقيداً ، والمقيد مطلقاً ... وعلى قـدر وضوح الدلالة ، وصواب الإشـارة ، وحسن الاختصار ... يكون إظهار المعنى ، وكلما كانت الدلالـة أوضـح وأفـصح ، كانـت الإشارة أبين وأنور، ... والدلالة الظاهرة على ا لمعنى هو البيان الذي سـمعت ا عـز وجـل

---

[1] البيان و التبيين - الجاحظ - ج١ – ص ٧٥ .
[2] المرجع السابق – ص ١٦٤ .
[3] الأسلوبية وتحليل الخطاب - د٠منذر عياش - ص ١١٠ .

يمدحه ، ويدعو إليه ويحث عليه ، بذلك نطق القرآن وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضـلات علـى أصناف العجم)) .[1]

(وهذه اللفظة إنما صلحت هاهنا ، لأن معناها كذا ، ولأن معنى ما قبلها يقتضي معناها ، فإن تصورت الأول فقل ما شئت ، واعلم أن كل ما ذكرناه باطل ، وان لم تتصور إلا الثاني ، فلا تخدعن نفسك بالأضاليل ، ودع النظر إلى ظواهر الأمور ، واعلم أن ما ترى أنه لا بـد منه من ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم الخارجي ، ليس هو الذي طلبته بالفكرة ، ولكن شيء يقـع بسبب الأول ضرورة ، من حيث أن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني ، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها ، فإذا وجب لمعنى أن يكون إلا من النص ، وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق فأما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بـالنظم والترتيـب ، وان يكون في النظم الذي يتواضعه البلغاء فكراً في نظم الألفاظ ، وأن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لا أن تجيء بالألفاظ على نسقها ، فباطل مـ ـ ـن الظن وهم متخيل إلي مـ ـ ـن لا يوفى النظر حقه ، وكيف تكون مفكراً أو في نظم الألفاظ وأنت لا تقل لها أوصـافاً وأحـوالاً إذا عرفتها عرفت حقها أن تنظم على وجه كذا) [2] .

المبحث الثالث

البنية التحتية بين عبد القاهر الجرجاني وتشومسكي

ومن ضمن الدراسات العصرية التي حاولت الـربط بـين مبـادئ المدرسـة البنيويـة والجرجاني ، دراسة أجراها د.خليل عمايره ، [1] يستعرض فيها التوازي والتقابل بـين نظريـة (النظم) عند عبد القاهر الجرجاني ، ونظرية النحو التوليدي التحويلي عند تشومسكي .

---

[1] دلائل الإعجاز - الجرجانى - ص ٥٢ - ٥٣ .
[2] مرجع السابق .
[1] مقال بعنوان البنية التحتية – بين عبد القاهر الجرجاني وتشومسكي – مجلة الفيصل – العدد ٧٠ (١٩٧٧م) .

ولما كان العالم السويسري دي سوسير Desauswe هو رائد المدرسة اللغويـة الحديثـة ، والذي تأثر بأفكاره معظم معاصريه مثل بواعز ، وبلومفيلد وسابير ، منهـا إعتمـادهم المـنهج الوصفي Descriptive struacture Aproach سبيلاً وحيداً للبحث اللغوي ، وقد تأثر بأفكاره كثيرين ممن جاءوا بعده ، أي في العقود الثلاثة الماضية من هذا القرن ، ويـأتي علـى رأس هـؤلاء العـالم الأمريكي Naome chomesky الذي يعتبر بعد أن نشر كتابه Syntactic structure ١٩٧٥م ، قمة هـرم المدرسة اللغوية المعاصرة ، لذا كانت المقابلة بين سوسير والجرجاني في بعض النقـاط أساسـاً للوصول إلى المقابلة بين الجرجاني وتشومسكي .

يرى سوسير أن اللغة ظاهرة اجتماعية مكونة من مجموعة من الرمـوز الـصوتية أو الحروف المكتوبة التي لا معنى لها قبل تألفها وإنتظامها في مبان صرفية . ويـتم ترتيـب هـذه الحروف في مبانيها بطريقة عشوائية في بداية أمرها ، ثم تكتسب معنـى تـشير إليـه فيـصبح ارتباطها بها ارتباطاً اصطلاحياً اتفاقياً ثابتاً في التدوال بين أفراد اللغة الواحدة ، ولكن هذه الألفاظ تكتسب أبعاداً أخرى في التركيب الجملي والسياق الذي ترد فيه . يقول عبد القاهر الجرجـاني : (وذلك أن نظم الحروف وهو تواليها في النطق فقط وليس نظمها بمقتضى معنى ، ولا الناظم لهذا يقتضي في ذلك رسماً من الفعل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه ، فلو أن واضع اللغـة كان قد قال (ربضى) مكان (ضرب) لمـا كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد [٢] ، ومبـرر هـذا التتابع بين هذه الرموز في الكلمة الواحدة هو مقتضى جهاز النطق هو العجـز عـن أن ينطـق بالحروف أو أن تدخل بجملتها في النطق دفعة واحدة) . [٣] ويقول أيـضاً (ولا معنـى للعلاقـة والسمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلاً عليه وخلافه ، فأنما كانت (ما) مثلاً علماً للنفي الآن ها هنا نقضاً له وهو الإثبات وهكذا أنما كانت (مَن) لما يعقل لأن ها هنا ما لا يعقـل) . [٤] وهذا مماثل لما قال به أصحاب ا لاتجاه البنائي (بالقيم الخلافية).

اللغة والجماعة :

أما النقطة الثانية التي طلع بها دي سوسير وكان لها أثرها الواضـح علـى النظريـات اللغوية نظريته ، في التمييز بين وجهي اللغة .

---

[٢] دلائل الإعجاز الجرجاني – ص ٤٩ .
[٣] المرجع السابق – ص ٤٩ .
[٤] المرجع السابق .

الأول : وهو الكلام أو الوجه الذي يستعمله الأفراد في المجتمع الصغير وفقاً لقواعد عامة ، لغوية واجتماعية وسلوكية ، يراعيها أفراد المجتمع فلا يخرجون عنها ، ولكن هذه القواعد تبقى مراعاة في حدود تلك المجموعة الصغيرة ، في لهجتها وفي المعـاني التـي تحملهـا الكلمـات ، وفـي الاستجابة التي تترتب عليها .

الثاني : وهو اللغة وهي النتاج الاجتماعي الجماعي للمجتمع الكبير الذي يطمع أفراده أن يكون ما ينقلونه إلى غيرهم واضحاً مفهوماً .

وهذا يقتضي أن يراعي هؤلاء الأفراد القواعد والنظم والضوابط اللغوية المشتركة بـين أفـراد المجتمعات الصغيرة في المجتمع الكبير وهذا الوجه من اللغة هو النموذج الـذي يمكـن جمعه . وهي المهمة التي كانت موضع اهتمام اللغويين والنحاة العرب القدماء يقول الـسيوطي : (وأعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه ، أما النحوي فشأنه أن يتـصرف فيما ينقله اللغوي ويقيس عليه) [1] (Preseripitve structure aproach) .

أما اللغة عند الجرجاني فهي الوسيلة للتخاطب والتفاهم بين الناس مما يعلم ببداءة العقول أن الناس يكلم بعضهم بعضاً ليعرب السامع غرض المتكلم ومقصودة بمجموعة مـن المفـردات وبصيغة أعم بكل الوحدات التي ضبطت بالتواضع لتسمية الأحداث والأشياء وإقامة الفروق بـين المفاهيم .

لقد تأثر العالم اللغوي المعاصر Chomesly بآراء دي سوسـير فـي أن اللغـة ظـاهرة اجتماعية ذات شقين لغة وأطلق عليه Competence ويعني به القدرة التي تمكن كل فرد في أفـراد المجتمع الناطق باللغة من التعبير عما في نفسه يحمل فهمها أفراد المجتمع الآخرون ، وإن لم يكن قد سمعها مركبة من أحد من قبل ، فلديه القدرة على توليدها مركبة من المبـاني الـصرفية ذات المعاني المعجمية مع مراعاة القواعد النحوية التي في ضوئها يتم له ربط هذه المباني الـصرفية بعضها ببعض في جمل ذات حدود وأنظمة ومعايير ، وفي ضوئها أيضاً يـستطيع أن يـصرف المعنى الذي وضعه بنفسه بتحريك المباني الصرفية في الحدود التي تسمح به قواعد النحو واللغة .

وبعبارة أخرى هي الجانب الأدبي المضبوط بقواعد صوتية وصرفية ونحوية ومعجميـة تهدف تحقيق المعنى الدلالي العميق والذي يعبر عنه (بالبنية التحتية) ، أما النسق الثـاني الكـلام وهو مجموعة الأصوات اللغوية المنطوقة ، ينطق بها مجموعة من الأفراد بكيفية معينة وليس من

[1] المزهر في علوم اللغة وأدبه – السيوطي – الجزء الأول .

الضروري أن تكون متفقة مع قواعد اللغة وقوانينها وأنظمتها . أو خاضعة لها . وإنمـا تخـضع للموقف الذي يكون فيه المتكلم يعبر عما في نفسه دون تأمل أو تبصر وهذا هو ميـدان (البنيـة السطحية) .

يعد تشومسكي الجملة نقطة الانطلاق في التحليل اللغوي خلافاً للغويين السابقين عليـه. خاصة أصحاب المدرسة البريطانية الذين كان تركيزهم على الأصوات وتحليلها . إلـى أن جـاء فيرث ، وأفاد مما كتبه سلفه وأضاف إليه . ما أسماه السياق اللغوي . Verbal context وذلـك لأن تشومسكي وجد أن كل لغة تبنى على عدد محدود من الأصوات اللغوية (فونيمات) ينتج عنها عدد كبير جداً من المباني الصرفية (مورفيمات) من حيث أن عدد الجمل الناتجة عـن انتظـام هـذه المباني الصرفية لا سبيل إلى حصره ، ومن جانب آخر لأن الجملـة هـي الـصيغة الظـاهرة المستعملة في الإشارة إلى المعنى ، وهي المجال الذي يجعل الباحث يستنبط القوانين التي تـساعد الناطق على توليد التراكيب السليمة ، فإنه يرى أن الجملة وهي مجال استنباط القواعد النحوية هي أيضا مكونة وفقا لقواعد وقوانين لغوية ونحوية ترتضيها تلك اللغة .

فتتدرج في باب من أبواب نحوها لتفيد معنى قد تتحول عنه إلـى معنـى آخـر وفقـاً لمجموعة من القواعد النحوية أيضاً Transforamation rules ، ويقول الجرجاني :((وذلـك أن تجـئ إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ، ويكون الآخر خبراً له ، فتقدم تارة هذا علـى ذاك ، وأخرى ذاك على هذا فأنت في هذا لم تقدم على أن يكون متروكاً على حكمه الـذي كـان عليه مع التأخير ... على أن تخرجه عن كونه ... إلى كونه ...)) [1]

يرى تشومسكي أن للجملة وهي بؤرة التحليل اللغوي من حيث علاقتها بالمعنى وتحليلها وجهين سطحي خارجي ظاهر Surface structure وتحتي باطني عميق Deep structure .

وعلى الرغم من أن المعلومات الواردة في التحليل هي معلومات صحيحة لازمـة ، و أساس لمعرفة ترابط الكلمات في النظام اللغوي . إلا أن الموضوع الرئيسي اتحاد هذه المعلومات في تركيب يولده المتحدث باللغة في ضؤ نظام نحوي واضح القواعد لا تحققـه هـذه الطريقـة Taxnomic approach القائمة في التحليل على وضع هذه المعلومات في قوائم من التصنيفات الحديثة ولا تساعد في الوصول إلى الاختلاف في المعنى الناتج عن استبدال الفعل Frighten ، بفعل آخـر مثل Gispas أو Cadmire وستبقى الرموز الموضوعة أمام الفعل هي بعينها (UP) أي (فعـل) فـي الحالات الأربع ، ولا تتغير ، وذلك لأن التحليل لم يذهب إلى أكثر من وصف المباني الصرفية .

---

[1] دلائل الإعجاز – الجرجاني – ص ١٠٧ .

وربما كان قصور هذه الطرق في الوصول إلى المعنى المطلوب من الجمـل وبخاصـة الجمـل المكتسبة هو الذي دفع تشومسكي إلى رفضها ورفض الأسس والأهداف التـي يقـوم اللغويـون البنائيون بالتحليل في ضوئها ، ودفعه أيضاً إلى الاتجاه نحو الوجه الثاني مـن وجـوه التحليـل اللغوي وهو البحث عـــن البنية التحتية أو العميقة Deepstrud لأنها في رأيه تمكّـن الباحـث اللغوي من وصف الأسس النحوية لتتابع المباني الصرفية .

الأسس التي تمكن المتحدث بلغةٍ ما أن يشكل عدداً غير محدود من الجمل ، وهذا هو ما يسميه النحو التوليدي Generative grammer ولنأخذ عدداً من الجمل المكتسبة نحللها تحليلاً سـطحياً ثم نبحث عن معناها العميق .

(١) بقالة الجامعة الجديدة وأسعه ، ج = أ + م أ + أ فمثل هذه الجملة تبقى ملتبسة لا سبيل إلى الوصول إلى بقالة ، واسعة للجامعة الجديدة ، أو بقالة جديدة واسعة للجامعة .

(٢) الطالبات الطلاب المجتهدون يحبون علم اللغة .

ج = أ + ح + م أ + / ف + / أ

= أ + ؛ + (أ أ /ن) + ف ض + أ أ)

فتكون كلمة (المجتهدون) نعتاً للطلاب من حيث أن المتكلم قد يقـصد أن تكـون نعتـاً للطالبات كما هي للطلاب ولكن جاءت بلفظ المذكر على التغليب في العربية .

فيكون تحليلها :

ج = م أ + ح + م أ + م ف + / أ

= ١أ /ن + ح + (أأن) + ف ض + أ أ

وهذا النوع من الجمل يبدو مقبولاً ، تقبله العربية ، وتدافع عنه بحجة أن ما قبل حـرف العطف والاسم الذي يأتي بهذه .

(٣) ألا يا اسلمى يا دار مي على البلى .

ج = ح + ح + م ف + ح + م أ + ح + أ

= ح = ح(أ) مقدر + (ف ض) + (ح أ أ) + ح أ .

مثل هذه الجملة مقبول في اللغة لوجود القرينة الدالة على الاسم المقدر وهي ياء النـداء التي لا تدخل على الفعل ، وهذا يبدو من النظر في البنية التحتية للجملة ، فـإن المـتكلم ينـادى (واحداً) يلقي إليه بحديث معين ، فلا بد من تقدير ما يشير إلى (أحدا) وهو (مقدر) ولنعد الآن إلى الجملة السابقة ، الموضوعة باللغة الإنجليزية فأن التحليلات الموضوعة أمامها لم تزد كما قلنـا ، على الوصف السطحي لمباني هذه الجملة والعلاقة هذه المباني ببعضها ببعض وفقاً لقواعد نحويـة

معينة ، وقد تتغير مواقع هذه المباني ، فيتغير معني الجملة في كل مرة إلى معنى جديـد ، وفقـاً لقواعد نحوية معينة Transformation rules فالجملة تولد وفقاً لقواعد تنسجم مع ناموس اللغة ، ثـم يتحول تركيبها وفقاً للمعنى الدلالي لتحقيق البنية التحتية المقصود منها ، فـأن وظيفـة القواعـد التحويلية الرئيسية هي تحويل البينة التحتية لتبدو في تراكيب سطحية إذ أن البنية السطحية تمر عادةً بسلسلة من قواعد التحويل قبل أ، تصبح تركيباً سطحياً متكاملاً ، وإن المعنى الرئيسي فـي الجملة كلها ، يمكن من بنيتها التحتية ، سابقاً بذلك استعمال القواعد التحويلية ، وبعبارة أخرى فأن لكل جملة وجهين ماثلين بارزين فيها ، وجه يبدو في الشكل ، والآخر يبدو فـي المعنـى ، وإن الهدف الجوهري للجملة يمكن المعنى الذي يتمثل في بنيتها التحتية ، أما الشكل فأنه يتحقـق فـي تركيبها السطحي . إن معنى الجملة العميق يبدو في تراكيب سطحية وفقاً لقواعد النحو التحـويلي التي وإن كانت لا تغير المعنى الأساسي في الجملة إلا أنها تؤثر على التراكيب الـسطحية التـي تبدو عليها . في اللغة أيه لغة ، تضم مجموعة من الجمل البسيطة للتعبير عن معنى بعينه ثم يـتم تحويل هذه الجمل للتعبير عن معاني أخرى ، وذلك باستخدام قواعد النحو التحويلي . ولنـضرب مثلاً من العربية لتوصيل هذه الفكرة .

قابل رئيس الجامعة الطلاب مساء أمس في مكتبة الجامعة تكريماً لهم فالأصل في الجملة الفعلية في اللغة العربية أن تبدأ بفعل ، ومن هنا فقد جاءت هذه الجملة مولودة على الأصل تـسير في تتابع كلماتها وفقاً لقواعد نحوية معينة ولكنها قابلة للتحويل إلى عدد هائل من الجمل بالتقـديم والتأخير ويتم هذا التحويل في الجملة في حدود يسمح بها للنحو أن يحقق في كل مرة معنى دلالياً يختلف عنه في الأخرى ، ولا يخرج عن النظام النحوي للغة ، أو كما يعبـر عنهـا الـسيرافي (معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك ، وتجنب الخطأ في ذلك إن زاغ شئ عن النعت فإنه لا يخلو أن يكون سائغاً بالاستعمال النادر والتأويل البعيد أو مردوداً لخروجه عـن عادة القوم الجارية على فطرتهم) . [1] وإن موقع الكلمات واستعمالها في الجملـة يكـون وفقـاً لترتيب المعاني في النفس .

يقول الجرجاني : ((لا يتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معنـاه ، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً وإنك تتوخى الترتيب في المعاني ، وتعمل الفكر هناك ، فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها . وإنك إذا فرغـت مـن ترتيـب

---

[1] أصول النحو – السيرافي .

المعاني في نفسك ، ولم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها لاحقة بها ، وإن العلم بواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق . [1]

لذا فإن جوهر الكلام هو ذاك الكلام النفسي ، وأما الكلام اللفظي فهو ظل لهذا الكلام النفسي مضبوطاً بقواعد قوانين اللغة ، وهي غاية ما يصبوا إليه علم اللغة الوصفي ليقدم جملة تعبر عن هذا المعنى . [2]

المعنى الدلالي > تركيب فنولوجي + تركيب مورفولوجي ⊂ بنية سطحية + قواعد تحويلية = بنية عميقة ⊂ النحو ⊃ التنغيم .

ممثلة في مجموعة أصوات لغوية الخاضعة لنظام الأصوات وجهاز النطق في اللغة ⟸ مجموعة من المبانى الصرفية الخاضعة لنظام صرف معين وقوانين تركيبية محددة

↘

مجموعة من التراكيب السطحية الخاضعة لنظام القواعد التحويلية ⟸ البنية التحتية المعنى

ولنسلط الضؤ أكثر على البنية التحتية عند عبد القاهر ، ومدى فهمه للبنية السطحية . يرى الجرجاني أن المباني الصرفية التي تحتويها اللغة (أوضاع اللغة) تحتاج معها إلى شئ آخر لتكون قادرة على جعل السامع يعرف غرض المتكلم ومقصوده . [3] المقصود الذي هو بالتأكيد ليس معاني الكلم المفردة ، فالكلمات وحدها لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف لا يعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب . [4] فما هذا الشيء الذي يربط بينهما (فليس من عاقل يفتح عين قلبه إلا وهو يعلم ضرورة أن المعنى في ضم بعضها إلى بعض وتعليق بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض ، ولا أن ينطق ببعضها في أثر بعض من غير أن يكون

---

[1] دلائل الإعجاز – الجرجاني – ص ٥٣ – ٥٤ .
[2] مقال البنية التحتية بين الجرجاني وتشومسكي – مجلة الفيصل (١٩٧٧م) العدد ٧٠ – ص ٦٠ .
[3] دلائل الإعجاز – الجرجاني – ص ٨١.
[4] المرجع السابق – ص ٣٦١ .

فيما بينها من تعلق) . [٥] فما معنى هذا التعليق ؟ وما الأسباب التي ربطت هذه الكلمات بعـضها ببعض ؟ وهل التعلق هو الاقتضاء بالعمل والعامل ؟ أم هل هو ترابط بين كلمات تمثل كل منهـا باباً نحوياً ؟ وإن كان ذلك كذلك ، فهل هذا هو الذي قصده الجرجاني ، (يجعل بعضها بسبب من بعض فالجملة خيط يربط بين مجموعة من الأجزاء تقوم التركيب (النحو) فيها بوظيفة هامة ، هي تحديد الكيفية التي تترابط عليها هذه الأجزاء لتكون الجملة) . [١] فالجملة تترابط كلماتهـا علـى النحو التالي :-

قابل الرئيس الطلاب مساءً في مكتبة الجامعة تكريماً لهم .

القابلية
الظرفية الزمنية
السببية
الظرفية المكانية

وهذه مصطلحات نحوية ، لا يستطيع السامع أن يفهم منها غرض المتكلم ومقـصوده ، فما التعلق عند الجرجاني إذا؟ . (يعلم كذلك ضرورة أن التعلق يكون بين معانيها لا في مـا بـين أنفسها ، ألا ترى أنا لو جهدنا كل الجهد أن تتصور تعلقاً فيما لفظين لا معنى تحتهما لم نتـصور) . [٢]

إذا فالتعليق هو بؤرة النظرية عند الجرجاني وهو مصطلح مـوازي لمـصطلح آخـر يستعمله كثيراً وهو (النظم) (معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض) [٣] لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعـضها علـى بعض ويجعل هذا بسبب من ذلك) . [٤] وهنا نستطيع أن نضع اللبنة الأولى في بنـاء المعادلـة اللغوية عند الجرجاني .

النظم ≡ أ و < = > التعلق [٥]

---

٥ المرجع السابق – ص ٥٤ .
١ دلائل الإعجاز – الجرجاني – ص ٨١ .
٣ المرجع السابق – ص ٥٤ .
٣ المرجع السابق – ص ٤٩ .
٤ المرجع السابق – ص ٥٥ .
٥ مقال بعنوان البنية التحتية بين الجرجاني وتشومسكي – مجلة الفيصل العدد ٧٠ – ص ٦٢ .

ويقول : (وأعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علـم النحـو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ،وتعرف مناهجه فلا تزيح عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت فـلا تخل بشيء منها) . (٦)

النظم ≡ < = > قوانين النحو وأصوله ومناهجه (وعلم النحو) ثم يوضح تكوين العلاقة بين الكلمات قائلاً (ليس إلا توخي معاني النحو بين الكلم) فتصبح المعادلة كما يلي :-

النظم ≡ < = > التعليق ≡ < = > علم النحو د قوانين النحو وأصوله .

ومناهجه = > المعنى الدلالي بين السامع والمتكلم .

وإن هذا المعنى الدلالي يخضع للتحويل والتعبير وفقاً للمعنى الموجود في الذهن فيـأتي ترتيب الكلمات في الجملة دالاً عليه مشيراً له فلا يتصور أن تعرف للفظ موضعاً مـن غيـر أن تعرف معناه ، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً وإنك تتوخى الترتيـب في المعاني وتعمل الفكر هناك وهنا نضرب أمثلة توضـح البنيـة الـسطحية Surgace streucture وأوجه التحليل في ضوئها عند العرب ثم تعرض متابعة عبد القاهر الجرجـاني لتحقيـق البنيـة العميقة Deepstructure فتحال جملة قصيرة كما يلي أكرم خالد فاطمة .

أكـرم – فعل ماضي متعد + فعل ماضي مبني على الفتح.

خـالد – أسم مفرد مذكر علم + فاعل مرفوع بالفتحة

فاطمة – إسم مؤنث علم + مفعول به منصوب

وعلى الرغم من أن أطراف التحليل هذه لا تكشف عن المعنى الدلالي للجملـة إلا أنهـا لازمة ضرورية مرحلة أولى للتحليل ، ولكن دورها ينتهي بتحديد الحركة الإعرابية على أواخـر الكلم ، ثم يأتي دور التحليل العميق للجملة ونعرض من هنا كيف يعالجـه الجرجـاني (إذا قلـت ضرب زيد عمراً يوم الجمعة ضرباً شديداً تأديباً له ، فأنك تحصل من مجموع هذه الكلـم علـى مفهوم هو معنى واحد . ولا عدة معان كما يتوهمه الناس ، وذلك لأنك لم تأت بهذه الكلـم لتفيـد أنفس معانيها وإنما جئت بها لتغير وجوه التعليق التي بين الفعل الذي هو ضرب وبين ما عمـل فيه ، والأحكام التي هي محصول التعلق وهذه هي المرحلة الأولى) . (١)

إذا كان الأمر كذلك ، فينبغي لنا أن ننظر في المفعولية من (عمرو) وكون يوم الجمعة ، زماناً للضرب ، وكون ضرباً شديداً وكون التأديب علة للضرب أو يتصور فيها أنه ينفرد عن المعنى الأول الذي هو أصل الفائدة وهو إسناد الضرب إلى زيد ، وإثبات الضرب به له حتى

---

٦ المرجع السابق – الجرجاني - ص ٥٤ .

٣ دلائل الإعجاز – الجرجاني – ص ٤١٣ – ٤١٤ .

يعقل كون عمرو مفعولاً به ، وكون يوم الجمعة مفعولاً فيه ، وكون ضرباً شديداً مصدراً ، وكوب التأديب له مفعول له ، من غير أن يخطر ببالك كون زيد فاعلاً للضرب ؟ .

ثم تأتي مرحلة الكشف عن البنية التحتية ، وإذا نظرنا وجدنا ذلك لا يتصور لأن عمـراً مفعولاً لضرب وقع من زيد عليه ، ويوم الجمعة زمان لضرب وقع من زيد ، وضرباً شديداً بيان لذاك الضرب ، كيف هو وما صنعه والتأديب علة له وبيان له و الغرض منه ، وإذا كـان ذلـك كذلك ، وثبت أن المفهوم من مجموع الكلم معني واحد لا عدة معان . هو إثباتك زيداً فاعلاً ضرباً لعمر في وقت كذا وعلى صفة كذا ولغرض كذا وهذا المعنى تقول إنه كلام واحد .

ويقول في موقع آخر:((مما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويجعله على ذكر ، أنه لا يتـصور أن يتعلق الفكر بمعان الكلم أفراداً ومجردة من معاني النحو فلا يقدم في وهم ولا يصح في عقـل أن يتفكر في معنى فعل من غير أن يريد إعماله في اسم ولا أن يتفكر في معنى اسم من غير أن يريد إعمال فعل فيه وجعله فاعلاً له أو مفعولاً أو يريد منه حكماً سواء ذلك من الأحكام مثـل أن يريد جعله مبتدأ ، أو خبراً ، أو صفَةً ، أو حالاً وما شاكل ذلك . [(١)]

وإن أردت أن ترى ذلك عياناً فأعمد إلى أي كلام شئت وأزل أجـزاء عـن مواضـعها وضعها وضعاً يمتنع معه دخول شئ من معاني النحو فيها فقل في قفا نبك فـي ذكـرى حبيـب ومنزل ثم أنظر هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها)) . [(٢)]

ولعلنا نستطيع من هذا النص أن نضع تحليلاً يكشف البنية التحتية والمعنى الدلالي فـي الجملة لنتخذ من المفعول به نقطة الانطلاق فنقول (عمراً زيدُ ضرب يوم الجمعة ضـرباً شـديداً تأديباً) ، وهنا نشير إلى أن التحليل السطحي السابق لأزم وضروري لوضع الحركـة الأعرابيـة التي في كثير من الأحيان تكون قرينة مساعدة للوصول إلى المعنى ثم يأتي دور القواعد التحويلية Transformation Rules التي هي جزء من النحو ، والتي في ضوئها يتم ترتيب الكلمات في الجملـة لترتيب معانيها من النفس .

يقول الجرجاني : ((وجملة الأمر أنه لا يكون ترتيب في شئ حتى يكون هناك قصد إلى صورة وضعه أن لم يقدم فيه ما قدم ، ولم يؤخر ما آخره وبدئ بالذي ثنى به أو ثنى بالذي ثلـث به لم تحصل لك تلك الصورة وتلك الصفة)) . [(٣)] ويقول :((ثم أعلم أن ليس المزية بواجبه لهـذه (الكلمات) في نفسها من حيث هي على الإطلاق ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التـي

---

[١] دلائل الإعجاز – الجرجاني – ص ٤١٠ .
[٢] المرجع السابق .
[٣] المرجع السابق – ص ٣٦٤ .

يوضع لها الكلام ثم بحسب موضع بعضها من بعض واسـتعمال بعـضها مـع بعـض)) . [٤]

والمعادلة اللغوية عند الجرجاني هي :-

النظم ≡ = > قواعد النحو + قوانين اللغة < القواعد التوليدية والتحويلية≡ = > المعنى .

وبهذا استعرضنا دراسة خليل عما يراه لنوضح الربط المنهجي بين النظريـة العربيـة والنظرية الغربية أي البنائية والنظمية ولنوضح الفرق بينهما وبالتالي يتضح الفرق بين المـستوى والمستوى الفني أي التحتي والعميق كما أشارت الدراسة أعلاه .

---

[٤] المرجع السابق – ص ٣٦٤ .

الخاتمة

لقد سردتُ أبواب هذا البحث وأوجزت فصوله ، وأوضحت خطّته في التمهيد المتصدَر ، وما تراني هنا إلا بحاجةٍ توقع على ما قد صدر من أبواب وتختم له بخاتمةٍ عُجلى ، تكـون لبـأ خالصاً وفصيحاً ، يهدي الباحثين لتلمس نتائجه ومعرفة وصاياه ، ثم أنّي أدفع بالبحـث ليعطـي تجربته العملية ، مع نتائج محدَدة وتحذيرات تنبه الباحثين العرب بعدم الوقوع في مزالقها تحـت بريق العالمية أو العلمية ، بل نجهر فيها بخصوصه العربية وتفردها ، ونُسر بعموميات اللهجـات التي تفرعت عنها ، منبهين على ما أتفقت فيه في نصوصنا المقدسة ، وقد أشرنا إلى ذلـك فـي ظواهر لغوية ظهرت في قراءات قرآنية مثل (لغة أكلوني البراغيث) ولغة بلحارث وبني تميم وما الحجازية ، كل ذلك ينفي ثنائية الفصحى وإنما هي لغات للعرب تداولوها ظهرت في خطا بهـم فجاء القرآن موافقاً لها .

منعاً لا يـدي الباحثين عن قضايا الخفاء والتجلي ، الباطن والظاهر السطحى والعميق ، واثقين أن اللغة تسير بخطاً ثابتة في معانيها وألفاظها ، دون تخبط شكل بمضمون ولا اضـطراب حذف بتقدير ، بل الكل يسير نحو الإتصال المعنوي الكامل والتمازج الروحي في النص الأدبـي ذالكم الإتصال النصي يعكس ترابط الأمة وعدم تفرقها في لهجات ، بل التقاءها في لغةٍ مـصفاة منقاه اللغة العربية الفصحى .

حاولت الدراسات الحديثة تلمس اللغات بصورة مقارنة ، سعياً وراء مفاهيم كلية مشتركة تتحد في اللغات البشرية ، وكانت أولى القضايا التي أثيرت بادرةً لفكرة الكليات الذهنية ، موضوع الملكة والاكتساب ، واستظهرنا دراسات العرب والغربيين التي تمثلت في ابن خلدون وتشومسكي لتكشف النقاب عن الدراسات الاوربية التي جعلت من مفهوم القدرة اللغوية عند البشر ، والانتـاج اللامحدود للغة أثراً من آثار الغريزة والاكتساب وبذلك توحدت أنحاء اللغات في مفهـوم النحـو الكلي ، على حد ذعم النظرية النحو يليه التوليدية والقول بأن كذا سمة كلية تعني أن ليس ثمة لغة يمكنها الاستغناء عن تلك السمة ، ويمكن القول أن النحو الكلي يشير إلـى مجموعـة نظريـات متوفرة عن طريق الضوابط البيولوجية .

ومن هنا نجلي أولى بوادر الصراع الثقافي التي تشكّلت في أن الحالة الأوليـة الناتجـة للغات عند بني البشر واحدة ، ولا سيما في قواعد تراكيب اللغات ، واي لغة تنفصل عـن هـذا التركيب البشري الفطري المفترض من قبل أصحاب العلمنة اللغوية ، يفـسر ظـواهر لغويـة لا تستحق الدراسة لأنها خارج إطار النسق الكلي للغات أو التنظيم الطبيعي لها ، أوبـالأحرى بنيـة اللغات البشرية التي تسير في نمط واحد ، أونظامٍ موحد بشكّل جزء من الانظمة الكونية المنظمة للعالم في توحيد الرؤى المعرفية وتفسير النصوص ورؤية الإنسان الموحدة للعالم أو الكون عـن طريق اللغات التي تعكس الفكر الكلي أو النسق أو البنية .

وبذلك كان التحول في الإهتمام تحولاً من دراسة اللغة المبنية داخلياً الممثلة في الـدماغ (النحو التحويلي) أو ما عرف بالنحو الكلي ، وهو تحديد مكون من مكونات العقل الإنساني وهـو الملكة اللغوية .

واعتبر تشومسكي مؤلف كتاب (التراكيب اللغوية) أن دراسة الطبيعة الإجتماعية للغـة لا تتمَ إلا بدارسة الحالة الأولية وهي التي تمكّن الشخص من انشاء معجم خاص يمثل مدخلا للمعرفة اللغوية . وهنا يثار سؤال هل يمكن أن ينشأ أي اختلاف أو تناقض بين المعنى الأولى والمعنـى الاجتماعي ، وكيف يتم التفريق بين الميدأ والتطبيق ، إذاً سيكون لكل فرد انقـسام فـي نـشاطه اللغوي ، ما هي وظيفة هذه المعرفة ؟ هل تظل كامنة في العقل ؟ كيف يحـصل الاكتـساب ؟ أم ننتظر موقفاً حسياً يخرجها . بالتالي يساعد البحث في الكليات اللغوية أو الظواهر العاليمـة فـي التعرف على الجوانب التي تتشابه فيها اللغات وكان أول ما درسوه قواعـد بنـاء الجملـة مـع مقارنتها باللغات الأخرى .

وترجع العلاقة بين علم النفس وعلوم اللغة إلى دراسة الظواهر الكليـة المـشتركة بـين اللغات ، وتعود هذه العلاقة إلى بحوث المنهج السلوكي في علم النفس ، الذي بنى نظريته حـول المثير والاستجابه ، السلوك اللغوي عندهم هو الاستجابة الكلية التي يبديها الكائن الحـي إزاء أي موقف يواجهه لذا لا يقصد بها التصرف المسئ أو الصحيح وهكذا النحو التحويلي استجابة كليـة أو نحواً عالمياً لأي لغة من اللغات ، لذلك تجاهل القصد والإبانة ووظائف الإتصال ، وهنا أصبح الإنسان والحيوان يشتركان في النظم الاتصالي على حد زعم النظرية السلوكية .

وبذلك قاوموا كل اعتبار صفوى حتى نفو وجود الخطأ في اللغة معتبرين أن كل ما ينطق به الإنسان صحيح نحوياً .

لذلك لم تعبأ النظرية التحويلية التوليدية بمسألة الخطأ اللغوي واعتبرته سلوكاً إيجابياً يدل على إبداعية اللغة التي تلفظ ما تلفظ من تراكيب وأهتم علم النفس بالتحويلات التي يطبعها المتكلم على الجملة النواة حتى تصل إلى الجملة التي يصدرها بالقول ويظهر ذلك في تساؤلهم عن وجود مجموعة من القوانين التحويلية داخل العقل الإنساني وخصائصه واتجاهاته .

وكل ذلك على أفتراض التماثل الكامل أما التنوع لم يجعل له مكاناً ولـ ذلك أشـ رنا إلـ ى مقارنة مفهوم الكفاية اللغوية عند ابن خلدون وتشومسكي ، وأكد الأول على أن الكفاية اللغوية عند العرب لا تتحقق إلا بحفظ كلام العرب ومعرفة القرآن الكريم فاللغة تعلم وإتقان ، وليست عامـ ل فطري .

هذا فيما يخص الكفاءة اللغوية فما قولهم في الانحراف أو الخطأ اهل هو تابع للكفاءة ، ام هو أنحراف سيكولوجي عن المعرفة المختزنة في الذهن . وأهتمت المدرسة التحويلية بالاخطـ اء التي يقع فيها متعلم اللغة ، لأنها تظهر شيئاً ملموساً إيجابياً ، وجعلت الانحرافـ ات أبـ داعاً لأنـ ه تحرك نحو اللغة الطبيعية (الكلية) وبذا اعتمد المنهج التحويلي ، المنهج الوصفي لأنـ ه يختـ صر على تفسير اللبس الواقع في شكل لغوي واحد ويستفادبه مقصدان .

وهنا أتضحت العلاقة بين الوصفية ومصطلحات فرويد ولا كان الجماعيـ ة للاشـ عور . لذلك أهتموا بالاخطاء اللغوية واللعب بالألفاظ ، إذا أن التحليل اللغوي هو المنهج الملائم لدراسـ ة بينة اللغات .

لذلك أتجهت الدرسات الحديثة نحو لغة الأداب والفنون ولا سيما الأسـ اطير والقـ صص الشعبي على اعتبار أن الدراسات الإنسانية تعكس تصوراً فكرياً موحداً من خلال اللغة الرمزيـ ة في كتابة الاساطير التي تفصح عن فكر كلي موحد لذهنية البشر .

لذلك اتجهت الدرسات الإنسانية نحو الأساطير الشعبية بحثاً عن فكر كلي موحـ د علـ ى اعتبار ان الاساطير نشأت في تشخيص العناصر الكونية وأنها ميثاق علمي للعقيدة البدائية .

إذن يمكن القول أن النصوص الصادرة من أصل أسطوري تشكل عقائد ، وظيفتها طرح العقيدة الأولى التي تمثلت في الأسطورة الأصل وإن تشكلت بأشكال مختلفة ، وتأثر الفكر البنائي بهذا الاتجاه على اعتبار أن النصوص الأدبية ناتجة من عقيدة أو لغة صادرة من الفكر الكلي .

وعلى هذا تم تحليل لغة الأدب باعتبارها أنساقاً لعناصر تستمد معناها من النـ سق العـ ام التي تحدد هي وحدته .

يمكن القول أن البنيويين جعلوا (الكلى) عقيدة ، أو فكره مسبقة موجودة فى أذهان البـشر بالقوة ، فالكلى فكرة تحدد رؤيتهم للعالم والكون ، الذات الجماعية فى العقل والتفكير . رؤية العالم نسق فكرى يفرض نفسه على الناس وهذا يعكس رؤية ماركس حول مفهوم البنية الفوقية والتحتية فى مفهوم القوى الاقتصادية والاجتماعية والعلاقات بينها .

ويمكن القول أن النظرية البنائية نظرية فلسفية بل عقيدة ترى أن العالم يحكمه الفكر وأن مسار التاريخ الجدلي يكشف عن قوانين العقل هذا يؤدى الى القول بأن الانظمة الناتجة عن العقل البشرى موحدة وبالتالى تتحقق رؤية الفكر البنيوي مؤسساً على الفكر الماركسى .

ويتحقق امبريالية الثقافة أو القول بالثقافة الكلية التى تنطلق من اصل واحد وجذر واحد .

ولهذا اتسع الاهتمام باللغة فى جميع المجالات العلمية ولا سيما علم اللسانيات الذى يدرس اللغات دراسة علمية دقيقة ، بالإضافه الى الوصف البنيوي كل ذلك للوصول الى قاسم مـشترك بين اللغات وبين الثقافات والحضارات الانسانية . الأمر الذى يجعلهم يحكّمون فكرة النسق تأسيساً للعلاقاة الترابطية بين النصوص فى الجنس الأدبى الواحد ، فالنص سلسلة مـن العلاقـات مـع نصوص أخرى متداخلة ولا وجود لنص برى يخلو من هذه المدخلات ويعتبـر الـنص الأدبـى منعزلاً بنفسه مستغلاً بلغته خارجاً عن إطار لغته المطردة ، ويشكل لغه جديدة ترجع الى سـياقها العام الذى انبثقت منه وهو سياق أساسي مجرد فى ذهن الجماعة البشرية .

فالقول بالشاعرية كالقول بالنسق لأنه نظام خاص يقوم على أن اللغة بذاتها تعكس ذاتها ، وهى هروب من قوانين اللغة الخاصة بها، وتحويل للغة من كونها وصف للعالم أو تعبير عنه إلى أن تكون عالماً آخر بديلاً عن ذاك العالم .

ولهذا جاء النقد يطرح قضية انسانية وهى علاقة النص بالتعبئة الفكرية علـى الـصعيد الفردى والجماعى.

وهذه النقطة هامه يجب أن توضع فى الاعتبار حين نقول أن البنيوية مذهب فكرى عقدي وبالتالى يستطيع القارئ حلّ الشفرة الايدلوجية للنص.

واتجاه الفكر البنائي نحو الكتابة بحث عن بلاغة مغايرة تتطلب استحداث قوانين مغـايرة للنص ، تتدخل لردع المتعاليات الأصولية ، وتحطم المعنى لذلك ارتبط الشعر بالانحراف وهـذا الذى كانت تسميه العرب البلاغة . الصورة الثانية للمعنى هى الصورة التي تدفع الـى الحريـة واستخدام الكلمات التى لم يسبق للغة العقلية تحريرها . ولذلك حاول تشومسكي البحث عن البنيـة العميقة وحاول الأسلوبيون البحث عن المعانى الباطنة أو ما يعـرف بالمعـانى الثـواني عنـد

الجرجاني أو التصورات الفكرية وسميت بالأنماط العليا ، وسميت العوامل التى تساعد للوصول الى هذه الافكار بالصورة الشعرية .

لا شك أن البحث عن التصور العميق عقيدة اقتنع بها اصحاب الفكر البنيوي وهى فلسفة نحكم من خلالها على رؤية الكاتب للعالم وهى معانى معدولة عن أصول يبحثون من ورائها عن محمل فلسفي يشفّ عن رؤية الكاتب للعالم .

وإذا كانت البنيوية اهتمت بالبنية وتحليها فإن النحاة العرب اهتموا بالبنية وميـزوا بـين نوعين من المستويات النحوية مستوى الأداء ومستوى العلاقات .

في علاقات المبنى بالمعنى عن طريق التأويل والتقدير والافتراض ، ويكمن الفرق فـى هذه الدراسه أن العرب لم يفصلوا الشكل عن المعنى، وظهر ذلك فى كتاب (المغني) فى الجهات التى يجب أن يراعيها المعرب .

ومن هنا أثير سؤال جوهرى لماذا سلّطت النظريات الحديثـة أسـهمها علـى النحـو، وتوصلت الدراسة الى أن النحو صورة اللغة وما لجؤ العربية الى التقدير فى الشكل الإعرابى إلا مراعاة المعنى والأعراب ، وتأكيداً على أن الأعراب ليس شكلياً إنما هو إنتاج وظيفى لا يمـس المعنى في شئ .

وحاولت البنائية ممثلة فى نظرية النحو التحويلى فى بحثها على مفهوم البنية العميقة بين اللغات أن تتدرع بنظرية العامل لتأكيد الجانب السطحى والعميق بين اللغات ، ولكنها نـسيت أن اللغات متداخلة ومتشابكة ولذلك آثرنا عرض شامل ووصف وتوصيف للعربية أوضحنا فيـه أن التقدير والتأويل والحذف لا يدعو للتناقض ، ولكنه منطق اللغة نفسها، أى هو تصور تفسيرى للغة وليس تصور افتراضى .

وأكدنا أن النحاة العرب اعتمدوا على المعيارية ، واعتبروا القياس معياراً سـيطر علـى الأوائل ، والقياس نوعان قياس فى وجوه الاستعمال ، وقياس يخضع الكلام لمعليير كمدروسـه البصرة لذلك وضع النحاه الإرث النحوي فى مؤلفات كانت حصاداً فكرياً تكّمن فيه عبقرية العرب ، فى مؤلفات سيبويه ، والمغني لابن هشام ، والمفصل لابن يعيش ودلائل الاعجاز للجرجاني .

وهذا يؤكد اجتماعية اللغة التى دلّل عليها ابن جني فى كتابه (الخصائص) ، وأشرنا الـى فكرتى الأصل والفرع عند العرب ، وبالتالى اعتبرت الصورة الذهنية للغة أصل ونطقها فرع.

ويمكننا أن نجمل كل هذا الصراع بين نحونا العربى النظامى والتحويلي التوليدى البنائ فى نظرة الاول المعيارية ونظرة الثانى الفلسفية ثم أوضحنا الفرق بين النحو الوظيفى والتحويلى ،

وأكد تشومسكي فى حديثه عن المعرفة اللغوية على مفهوم الحدس الذى يقوم على آليـات ذهنيـة محددة . منها الاستحسان والاستصحاب والقياس والذريعة . واثبتنا أن الحدس عاجز عـن ادراك التعدد الدلالي الذى تحكمه ظواهر لغوية مثل التضاد والمشترك اللفظي والاستعارة والمجاز .

يمكن القول أن هذه القضايا التى أثارتها البنيوية ولا سيما الثنائيات وقضايا معنى المعنى والبحث عن المضمون العميق للنص أن البنائية مذهب فلسفى اعتمد للـشكل الـذى يقـوم علـى التعارض ولا قيمة للكلمة إلا داخل نسق معين ، وتكمن خطورتها فى أنها تدرس اللغات دراسـه صورية تغفل المضمون .

أصبح النص البنيوي نص تشكيلى يصرف المتلقي عـن الـدلالات الموحيـة بالكلمـات وتتحول الكلمة الى شارة لتدل على معنى ، واعتمد الاتجاه البنيوي فى فلـسفته العـصرية علـى قيمتي الكتابة والقراءة ، بمعنى أن الكتابة تقرأ القارئ والنص يتكلم طبقاً لرغبات القارئ.

وهذا خطر داهم يخترق ثقافتنا ونصوصنا الأدبية وبالتالى قيمنا وثوابتنـا تحـت بريـق العلمية والعالمية.

ثبت المصادر والمراجع

(١) القرآن الكريم :

(٢) إبراهيم أنيس :

أسرار اللغة – مكتبة الانجلو المصرية – الطبعة الثانية – ١٩٥٨م .

(٣) إبراهيم السامرائي :

فقه اللغة المقارن – دار العلم للملايين – بيروت – ١٩٨٢م. .

(٤) شرف النواجي :

كشاف أصول النحو – دار غريب – ٢٠٠٠م.

(٥) أحمد عبد الغفار عطار :

الزحف على لغة القرآن – بيروت - ١٩٨٥م .

(٦) ابن الانباري :

الانصاف فى مسائل الخلاف بين النحويين والبصريين والكوفيين – تحقيق محـي الـدين عبد الحميد – الطبعة الثالثة – ١٩٥٥م .

(٧) إبراهيم مصطفى :

إحياء النحو – دار الآفاق العربية – ٢٠٠٣م.

(٨) أحمد محمد قدور :

مبادئ اللسانيات – دار الفكر العربى دمشق – الطبعة الثانية – ١٩٩٩م.

(٩) الياس مرقص :

نقد العقلانية العربية – دار حصاد للنشر – دمشق – ١٩٩٧م .

(١٠) أبن تيمية (تقى الدين أحمد بن تيمية) :

مقدمة فى التفسير – المجلد الثالث عشر – مكتبة المعارف .

(١١) تمام حسان :

اللغة العربية معناها ومبناها – عالم الكتب – القاهرة – ١٩٧٣م .

(١٢) أبن جنى (أبو الفتح بن جني) :

الخصائص – تحقيق عبد الحمدي هنداوي – دار الكتـب العلميـة بيـروت – لبنـان – ٢٠٠١م.

(١٣) الجاحظ (عمرو بن بحر) :

البيان والتبين – تقديم عبد السلام محمد هارون – تقديم أ. د. عبـد الحكـيم راضـي – الشركة الدولية للطبعة القاهرة الزخائر – ٢٠٠٣م

(١٤) الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي) :

تعليق محمد محمد شاكر – مكتبة الخانجي القاهرة – الطبعة الثانية – ١٩٩٢م .

(١٥) جمعه سيد يوسف :

سيكلوجية اللغة والمرض العقلى – دار غريب للطباعة والنشر – القاهرة – ١٩٩٧م.

(١٦) جابر عصفور

الصورة الفنية للتراث النقدى والبلاغي – دار المعارف – القاهرة .

(١٧) أبن حزم الاندلسى :

الإحكام فى أصول الأحكام – مكتبة الخانجي – الطبعة الأولى – ١٣٤٥ هـ .

(١٨) أبو حيان التوحيدى :

المقابسات – تحقيق محمد توفيق حسين – مطبعة الإرشاد بغداد – ١٩٧٠ م.

(١٩) حسام البهنساوي :

أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوى الحـديث – مكتبـة الثقافة الدينية القاهرة – ١٩٩٤م .

(٢٠) حسام الخطيب :

اللغة العربية إضاءات عصرية نظرات فى الواقع العملي والعلمـي – الهيئـة المـصرية العامة للكتاب – ١٩٩٥

(٢١) حسن ظاظا :

اللسان و الإنسان – مكتبة الدراسات اللغوية القاهرة – ١٩٧١م .

(٢٢) حزه فيلان :

الغريزة اللغوية وكيف يبدع العقل اللغة – تأليف استيفن بنكر – دار المريخ للنشر .

(٢٣) أبن خلدون (أبو عبدالرحمن بن خلدون) :

المقدمة بدون طبعة

(٢٤) خالد محمد جمعه :

نحو نظرية أسلوبية لسانية – تأليف فلي ساندريس – الطبعة الأولى – ٢٠٠٣م .

(٢٥) الزمخشري :

المفصل فى صناعة الاعراب – دار الكتب العلميـة – بيـروت – الطبعـة الأولـى – ١٩٩٩م.

(٢٦) زينب عفيفى :

فلسفة اللغة عند الفارابى – دار قباء للنشر القاهرة .

(٢٧) أبن رشيق (أبي على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي) :

العمدة فى محاسن الشعر و آدابه – تحقيق محمد محى الدين عبد الحميـد - دار الجيـل للنشر بيروت .

(٢٨) رفيق العجم :

أثر الخصوصية العربية فى الدراسات الاسلامية – دار الفكر اللبناني – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٩٣م.

(٢٩) رمضان عبد التواب :

مدخل الى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي – مكتبة الخانجى – القاهرة – الطبعة الثالثـة – ١٩٩٧م .

(٣٠) السيوطي (جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطى) :

المزهر فى علوم اللغة وآدابها – مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة – ١٩٧٥م.

(٣١) سعد مصلوح :

دراسات نقدية فى اللسانيات العربية المعاصرة – عالم الكتب القاهرة – الطبعة الأولـى – ١٩٩٨م.

(٣٢) سمير شريف :

اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج

(٣٣) سيبويه (عمر بن قنمبر) :

مؤسسة الاعلمي – ١٩٦٧م.

(٣٤) شوقي ضيف :

المدارس النحوية – دار المعارف مصر – ١٩٧٢م.

(٣٥) شكرى عياد :

المذاهب الادبية النقدية عند العرب والغربيين – مجلة المعرفة الكويت – سبتمبر ١٩٩٣م.

(٣٦) شحاده فادح وآخرون :

اللغويات المعاصرة .

(٣٧) صلاح فضل :

النظريات البنائية فى النقد الادبى – دار الشروق طبعة – ١٩٩٨م.

(٣٨) طارق النعمان :

اللفظ والمعنى بين الايدولوجيا والتأسيس المعرفي – دار سينا للنشر – الطبعة الأولـى – ١٩٩٤م.

(٣٩) عبد الرحمن أيوب :

المنطق الصورى – مكتبة النهضة المصرية الطبعة الرابعة – ١٩٩٧م.

(٤٠) عبد السلام المسدي :

الاسلوبية والاسلوب – دار سعاد الصباح – الطبعة الرابعة – ١٩٩٣م.

(٤١) عبد العزيز حموده :

المرايا المحدبة من البنيوية الى التفكيك – عالم المعرفة الكويت – أبريل ١٩٩٨م.

(٤٢) عبد العزيز شرف :

لغة الحضارة وتحديات المستقبل – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٩م.

(٤٣) عبد الغفار حامد بلال :

علم اللغة بين القديم والجديد .

(٤٤) عبد القادر عبد الجليل :

علم اللسانيات الحديثة – نظم التحكم وقواعد البيانات – الطبعة الأولى – ٢٠٠٢م – دار صفاء للنشر – عمان .

(٤٥) عبد القادر الفاسي الفهري :

نماذج تركيبية ودلالية – سلسلة المعرفة اللسانية – دار توبقال – الدار البيضاء المغرب – ١٩٨٥م – ١٩٨٩م

(٤٦) عبد ا محمد الغزامي:

الخطيئة والتكفير من البنيوية للتشريحية – قراءة نقدية لنموذج معاصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الرابعة – ١٩٩٨م .

(٤٧) عبد الواحد وافي :

علم اللغة - مكتبة نهضة مصر – الطبعة الخامسة ١٩٦٢م.

(٤٨) عباس محمود العقاد :

عقائد المفكرين فـى القرن العشرين – دار الكتاب العربي بيروت – الطبعـة الثالثـة – ١٩٧١م .

(٤٩) كمال بشر :

دراسات فى علم اللغة العام .

(٥٠) فادى إسماعيل :

الخطاب العربي المعاصر – قراءة نقدية فى مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة – ١٩٧٨م – ١٩٨٧م – المعهد العالمى للفكر الاسلامى – ١٩٩٤م.

(٥١) فندريس :

اللغة – ترجمة عبد الحميد الدواخلى – محمد القصاص – مكتبـة الانجلـو المـصرية – ١٩٥٠م.

(٥٢) كريم زكي حسام الدين :

اللغة والثقافة والتربية – دار غريب للنشر القاهرة ٢٠٠٢م.

(٥٣) د. منى الياس :

القياس فى النحو – دار الفكر الطبعة الأولى – ١٩٨٥م.

(٥٤) د. مازن الواعر :

دراسات نحوية ودلالية وفلسفية فى ضؤ اللسانيات المعاصرة – دار المتنبى للنشر – الطبعة الأولى – ٢٠٠١م.

(٥٥) محمد أحمد خضر:

الإعراب والمعنى فى القرآن الكريم – مكتبة أنجلو المصرية .

(٥٦) محمد أحمد عمايره :

بحوث فى اللغة التربية والثقافة – دار وائل للنشر – الطبعة الأولى – ٢٠٠٢م.

(٥٧) مصطفى التونى :

اللغة وعلم اللغة – تأليف وليم جونز - الجزء الثانى – دار النهضة العربيـة القـاهرة – ١٩٨٨م.

(٥٨) محمود السعران :

اللغة والمجتمع رأى ومنهج – الطبعة الأهلية بنغازي – ١٩٥٨م.

(٥٩) مبارك حنون :

مدخل اللسانيات سوسير – ١٩٨٦م.

(٦٠) محمد زياد كبه :

اللسانيات التسابق والتطور تأليف جفري سامسون .

(٦١) ميشال زكريا :

الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البـسيطة) المؤسـسة الجامعيـة للدراسات والنشر والتوزيع .

(٦٢) محمد ربيع :

قضايا النقد العربي الحديث – دار الفكر للنشر والتوزيع – الأردن .

(٦٣) محمد سبيلا وآخرون :

البنيويه التكوينية – مؤسسة الأبحاث العربية – الطبعة الثانية – ١٩٨٦م.

(٦٤) محمود سليمان ياقوت :

علم اللغة التقابلى (بدون طبع) .

(٦٥) منذر عياش :

الاسلوبية وتحليل الخطاب – مركز الانماء الحضارى – الطبعة الاولى – ٢٠٠٢م.

(٦٦) محمد عبد ا جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن هشام الانصارى المصرى :

تحقيق محى الدين عبد الحميد – دار الطلائع للنشر – القاهرة .

(٦٧) د. محمد عبد الحى :

الظاهرة اللغوية الاصل والتطور والمستقبل – دولة الامارات العربية – مكتب نائب رئـيس الوزراء – مكتب الاعلام .

(٦٨) محمد فتيح :

المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها وإستخدامها – تاليف نعوم تشومسكي ترجمة محمد فتيح – دار الفكر العربي القاهرة – الطبعة الأولى – ١٩٩٣م.

(٦٩) محمود فهمي حجازي :

علم اللغة العربية بين التراث والمناهج الحديثة – دار غريب للطباعة والنشر ١٩٧٠ م.

مدخل تاريخى مقارن فى ضؤ التراث واللغات السامية – دار غريب للطباعة القاهرة .

(٧٠) محمد مطلوب :

التكوين البديعي – دار المعارف – الطبعة الثانية – ١٩٩٥م.

(٧١) محمد محمد مزيان :

منهج البحث الاجتماعي بين الوصفية والمعيارية – المعهد العالمي للفكـر الاسـلامى – طبعة ١٩٩١م.

(٧٢) محمد محمد شاكر :

رسالة فى الطريق الى ثقافتنا – مكتبة الخانجي بمصر – ١٩٨٧م.

(٧٣) نهاد الموسى :

الثنائيات وقضايا اللغة العربية من عصر النهضة الى عـصر العولمـة – دار الـشروق للطباعة والنشر – الأردن – الطبعة الأولى – ٢٠٠٣م.

(٧٤) نبيل راغب :

المذاهب الأدبية من الكلاسيكية الى العبثية – دار مصر للطباعة .

(٧٥) مجلة العربي – فبراير ٥٦٧ – ٢٠٠٦م .
(٧٦) مجلة عالم الفكر .
(٧٧) الألسنية مجلة عالم الفكر – المجلد العشرون – العدد الثالث – ١٩٨٩م.
(٧٨) مجلة فصول مجلة النقد الأدبي – الجزء الأول – المجلد الول – العدد الثاني – يناير ١٩٨١م.
(٧٩) مجلة الفيصل العدد ٧٠ العام ١٩٧٧م .
(٨٠) مجلة البيان العربي العدد ١٩٠